أعمال القلوب

خالد بن عثمان السبت

الجزء الثاني

مؤسسة العلم والتأصيل

دار ابن الجوزي

أعمال القلوب

أعمال القلوب

(٢)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السبت، خالد عثمان
أعمال القلوب. / خالد بن عثمان السبت.- ط١.
الدمام، ١٤٣٨هـ
٦٣٩ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٠٥ - ٨٢٢٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الوعظ والإرشاد ٢ - الفضائل الإسلامية
ديوي ٢١٣ ١٤٣٨/٩١٢٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

مؤسسة العلم والتأصيل

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ثامنًا

المحَبَّة

توطئة

إن الحديث عن محبة الله تعالى حديث ذو شجون؛ وذلك أن القلوب مجبولة على محبة مَن أحسن إليها، والله تبارك وتعالى هو المُنعِم المتفضل على عباده أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، في الدنيا والآخرة.

فربُّنا جلَّ وعلا هو الذي تفضل علينا بالعِلْم والهداية، ثم أعاننا على العمل، ثم فتح لنا باب الشّكر، ثم فتح لنا باب التوبة؛ لنستدرك التقصير، ونرجع عن الإساءة، ثم ساق إلينا ما يُمَحِّصنا به، ويُخَلِّص نفوسنا من الشوائب، وما يكون رِفْعة في الدرجات، وحطًّا للسيئات.

وأما الأمور الدنيوية: فإن كل ما بأيدينا من النعم؛ من المآكل، والمشارب، واللباس، والزينة، والمساكن، والمراكب، وغير ذلك؛ فهو من الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٥٣].

فنحن بحاجة إلى التَّفَقُّه في هذا الباب؛ لنتعرف الطريق إلى محبة الله ﷻ فنسلكها؛ لتحصل لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

۞ ۞ ۞

معنى المحبة وحقيقتها

المحبة في اللغة:

إن أصل مادة المحبة: (الحاء، والباء مكررة) تدور على ستة معانٍ، هي:

«**الأول: الصفاء والبياض**، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

الثاني: العلوّ والظهور، ومنه: حَبَب الماء وحَبَابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه.

وعليه، فهو غليان القلب عند الاهتياج للقاء المحبوب.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه: حَبّ البعير وأحَبَّ: إذا برَكَ ولم يقُمْ.

قال الشاعر[(١)]:

حُلْتُ عَلَيْهِ بِالْقَفِيلِ ضَرْبًا ضَرْبَ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا

الرابع: اللُّبّ، ومنه حَبّة القلب لِلُبّه وداخله، ومنه الحبّة لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حِبّ الماء، للوعاء الذي يُحفَظ فيه ويمسكه»[(٢)].

السادس: القَلَق والاضطراب، ومنه سُمِّي القُرْط حِبًّا، لقلقه في الأذن واضطرابه[(٣)].

ولا ريب أن هذه الستة تتضمن جملة من أوصاف المحبة ومقتضياتها؛ وذلك أن المحبة الحقيقية تعني: «صفاء المودَّة، وهَيَجان إرادات القلب للمحبوب وعلوّها وظهورها عليه، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحبوب محبوبه لبّه، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه»[(٤)].

---

(١) وهو: أبو محمد الفقعَسِيُّ. انظر: «اللسان» (٣/ ٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٩ ـ ١٠) بتصرُّف.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة»، مادة: (حب) (٤/ ٨)، و«الصحاح»، مادة: (حَبَبَ) (١/ ١٠٦)، و«مقاييس اللغة»، مادة: (حَبَّ) (٢/ ٢٦)، و«لسان العرب»، مادة: (حبب) (٣/ ٧)، و«القاموس»، مادة: (حَبَبَ) (١/ ٥٢)، و«تاج العروس»، مادة: (حَبَبَ) (٢/ ٢١٢ وما بعدها)، و«روضة المحبين» (ص٢٧ ـ ٣١).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٠) بتصرُّف.

المحبة في الاصطلاح:

وأما المحبة في المعنى العرفي؛ فهي من الألفاظ التي يصعب حدّها وتعريفها، فهي قضية يُدْرِكُها كل أحد، والتعريفات والتفسيرات قد لا تزيدها إلا صعوبة وغموضًا؛ ولهذا قال بعضهم: لا يُعَبَّر عن الشيء إلا بما هو أدقُّ منه، ولا شيء أدقّ من المحبة، فَبِمَ يُعَبّر عنها؟! وإنَّما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فتنوّعت عباراتهم وكثرت، ودارت تعريفاتهم وحدودهم على هذا، فيُعَبِّر كل أحد بما يعرفه ويُدْرِكه من مظاهر هذه المحبَّة ومقتضياتها ولوازمها[١].

يقول الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «المحبّة: إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا، وهي على **ثلاثة أوجه:**

- محبة للذة، كمحبة الرجل للمرأة...
- ومحبة للنفع، كمحبة شيء ينتفع به...
- ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم».اهـ[٢].

مع أن تعريف المحبة بالإرادة غير صحيح.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المُحِبّ، ثم الميل قد يكون لما يستلذّه الإنسان ويستحسنه، كحُسْن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذّه بعقله للمعاني الباطنة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه، ودفع المضار والمكاره عنه».اهـ[٣].

والحاصل أن حقيقة المحبة: مَيْل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضي إيثاره، وتقديمه على كل شيء، وذلك يزيد وينقص، كما سيأتي.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٩ ـ ١٨)، ونقل لها ثلاثين تعريفًا.
(٢) «مفردات القرآن» (ص١٠٥).
(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٤).

محبة اللَّه

وأمَّا محبّة الله تبارك وتعالى فهي لا تخرج عن ذلك؛ فهي مَيْل القلب إليه، وذلك يقتضي إيثار محابّ الله تبارك وتعالى على محابِّ النَّفْس، وتقديم طاعة الله ﷻ على طاعة غيره؛ من النَّفْس والهوى والشيطان، وطاعةِ المخلوقين.

❁ ❁ ❁

منزلة المحبَّة

محبة العبد لربه وخالقه ﷻ تمثّل أحد شِقَّي العبادة؛ لأن «اسم العبادة يتناول غاية الحب مع غاية الذُّل، وهذا هو حقيقة الدِّين الذي يدين الناس به لربِّ العالمين، فهذا الدين أو هذه العبادة لا بُدَّ فيها من حُبّ، ولا بد فيها من خضوع، بخلاف طاعتهم للملوك؛ فإنها قد تكون خضوعًا ظاهرًا فقط»(١).

وأما محبة الله ﷻ فيخضع لها الباطن والظاهر؛ لذلك كانت العبادة مبنيّة على المحبّة، بل يمكن أن يُقَال: إن المحبّة هي حقيقة العبادة؛ لأن العبادة إنْ خَلَتْ من المحبة فهي عبادة بلا روح(٢).

قال ابن خَفِيف رَحِمَهُ اللهُ: «دخل البصري على أبي عباس بن سُرَيْج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فَرْض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي، فقال له: قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]، والوعيد لا يكون إلا على ترك فرض»(٣).

وبهذا نعرف أن محبة الله ﷻ من أعظم الفروض، وليست من قبيل المستحبَّات التي يتزوّد بها العبد، ويتقرّب بها إلى رَبِّه ومولاه دون أن يُحَاسَب، أو يُؤَاخَذ على تقصيره وتفريطه فيها، بل إنها من أعظم الواجبات، ومن أجَلِّ قواعد الدِّين وأكبر أصوله، بل هي أصل لكل عمل مِنْ أعْمَال الدين والإيمان، فإنَّ كل حركة في الوجود إنما تَصْدر عن محبة محمودة أو مذمومة، «فجميع الأعمال الإيمانية الدِّينية لا تصدر إلّا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله ﷻ؛ إذ العمل الصادر عن محبَّة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا»(٤).

وأمَّا كون الأفعال الأُخرى أيضًا صادرة عن المحبَّة فهذا مشاهد؛ لأن الإنسان لا يزني إلا لأنه يحبّ ذلك، ولا يأكل المال الحرام إلا لأنَّه يحبّه، ويشتهيه، وتطلبه نفسه.

---

(١) «جامع المسائل» (المجموعة الرابعة، ص٤٠).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٤). (٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٢).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨ ـ ٤٩)، وراجع: «القول المفيد» (٢/ ٤٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتى رأيت القلب قد تَرَحَّلَ عنه حبّ الله، والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حبّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطُّمأنينة بها، فاعلم أنه قد خُسِفَ به»[1]. اهـ.

«وحقيقة الإسلام: هي الاستسلام لله ﷻ بالذُّلّ والحُبّ والطاعة، فَمَنْ لَا محبَّةَ له لا إسلام له البَتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد؛ حُبًّا، وذلًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعة له، فهو بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبُّه وتذل له.

وأصلِ التأله: التعبد، والتعبد آخِر مراتب الحُبّ، ويقال: عَبَّدَهُ الحُبّ وتَيَّمَهُ: إذا مَلَكَه وذلَّله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تُمْكِن الإنابة بدون المحبة، والرضا، والحمد، والشكر، والخوف، والرجاء؟! وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المُحِبِّين؟! فإنه إنَّما يُتوكَّل على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

وكذلك الزهد ـ في الحقيقة ـ هو زهد المُحبِّين؛ فإنهم يزهدون فيما سوى محبوبهم لمحبَّته.

وكذلك الحياء ـ في الحقيقة ـ إنما هو حياء المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ من بين الحُبّ والتَّعْظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة فهو خوف مَحْض. . .

فَمَعْقِد نِسْبة العبودية هو المحبَّة، فالعبودية معقودة بها؛ بحيث متى انحلت المحبَّة انحلت العبودية»[2]، «وهي روح الإيمان والمقامات والأحوال التي متى خَلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه»[3].

فمحبَّة الله تبارك وتعالى هي أعظم محبة، وأجلّ محبة تقع في قلوب العباد، فلا أكمل من محبة الله ﷻ، وليس في الوجود ما يستحقّ أن يُحَبّ لذاته من كل وجه إلا الله ﷻ، فإن المخلوقين إنما نحبهم من أجل ما يتحَلَّوْن به من الأوصاف؛ إما الأوصاف الظاهرة، وإما الأوصاف الباطنة من الكمالات القاصرة أو الكمالات المتعدِّية، وكلّ ما يحبّه أهل الإيمان فإنَّ ذلك تابعٌ لمحبَّةِ الله ﷻ، فهم يحبون النبي ﷺ تبعًا لمحبَّة الله، ويحبّون المؤمنين، ويحبون الطاعات، كلُّ ذلك تبعًا لهذه المحبَّة الجليلة العظيمة، والله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦، ٣٦) بتصرُّف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٧).

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١)، وقال: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»(٢).

وهذه المحبة إذا وُجِدَت فهي حقيقة «حياة القلوب، وغذاءُ الأرواح، بل ليس للقلب لذَّة، وَلَا نَعِيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، فإذا فَقَدَهَا القلب كان ألمه أعظم من أَلَم العين إذ فَقَدَت نورها، والأذن إذا فقدت سَمْعَها، والأنف إذا فَقَدَ شَمَّه، واللسان إذا فَقَدَ نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبَّةِ فاطره وبارئه وإلٰهه الحق أعظم من فَسَاد البدن إذا خلا منه الروح. وهذا الأمر لا يُصَدِّق به إلَّا مَنْ فيه حياة»(٣).

فالمحبة «هي المنزلة التي فيها تَنَافَس المتنافسون، وإليها شَخَص العاملون، وإلى عِلْمِهَا شَمَّر السابقون، وعليها تفانَى المُحِبون، وبرَوْح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون، وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي مَنْ فَقَدَهُ فهو في بِحَارِ الظلمات، والشِّفاء الذي مَنْ عَدِمَه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان، والأعمال، والمقامات، والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحْمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنْفس بالغيها، وتُوصِلُهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقْوَم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحِكْمته البالغة أن المرء مع من أحبّ، فيا لها من نعمة على المُحِبِّين سابغة!! تالله لقد سبق القوم السُّعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدَّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠) واللفظ له، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، والترمذي (٢٥٢١) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وقال: «حديث منكر»، والحديث سكت عنه أبو داود، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٩٠٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٥)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٤٦٨١).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٥٤٥ ـ ٥٤٦).

(٤) «مدارج السالكين» (٣/٦ ـ ٧).

المحبة في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: المحبة في القرآن:

تكرر ذكر المحبة في كتاب الله، وجاء على صور متعددة، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤﴾ [الصف: ٤].

وإخباره عن محبة عباده المؤمنين له سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وغيرها من الآيات.

ثانيًا: المحبة في السُّنَّة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»(١).

وعنه أيضًا؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»(٢).

وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٧).

قال: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وحصْرها يَطُول.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

المحبة وحدها لا تكفي

إن الذين يُدَنْدِنُونَ حول المحبَّةِ فحَسْب دون أن يكون لهم رصيد من العمل الصالح، وتقويم النفوس وتهذيبها على طاعة الله ﷻ؛ قوم قد ضلّوا الطريق.

يقول محمد بن المبارك الصوري رحمه الله: «مَنْ أُعْطِيَ من المحبَّةِ شَيْئًا فلم يُعْط من الخشية مِثْله فهو مخدوع»[(١)].

ولهذا قالوا: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بالحب وَحْده فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَ الله بالخَوْفِ وَحْده فهو حَرُورِيّ - أي: مِنَ الخَوَارِج -، ومَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وحْدَهُ فهو مرجئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد؛ وذلك لأن الحُبَّ المجرد تنبسط النفوس فيه، حتى تتوسَّعَ في أهوائها إذا لم يَزَعها وازِعُ الخَشْيَةِ لله؛ ولذلك قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ١٨]، ادَّعَوْا هذه المحبة، مع أنَّهم أسوأ ما يكونون في حال العمل والسلوك إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا يُشَاهَد في أولئك المتصوّفة الذين يَدَّعُونَ المَحَبَّة دون تصحيح العمل من مخالفة أُمُورِ الشَّريعة ما لا يُوجَد في أهل الخوف والخشية؛ ولهذا قرَن الله بين الحبِّ وبَيْنَ الخوف في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٢ - ٣٤]، وكان المشايخ المصنِّفون في السُّنَّة يذكرون في عقائدهم مُجَانَبَة مَنْ يُكثر دعوى المحبَّة، والخوض فيها من غير خشية لِمَا في ذلك من الفساد»[(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الخشية لِقَاح المحبة؛ فإذا اجتمعا أثْمَرَا امْتِثَالَ الأوَامِر واجتناب النواهي»[(٣)]. اهـ.

وقال رحمه الله: «مِنَ المقامات ما يكون جامعًا لمقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يَسْتَحِقّ صاحبه اسمه إلَّا عند استجماع جميع المقامات فيه»[(٤)]. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ٢٢٤).
(٢) ما بين الأقواس من كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١ - ٨٢) بتصرُّف.
(٣) «الفوائد» (ص٢٨٩).
(٤) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٦) بتصرُّف.

وذَكَر من ذلك الإخبات له تبارك وتعالى، وأنه جامع لمقام المحبَّة والذّل والخضوع، فلا يُكَمِّل أحد شيئًا من هذه الأمور بدون الآخر، فلا يكون بذلك العبد مُخْبِتًا إلّا إذا كان محبًّا مطيعًا خائفًا راجيًا، وغير ذلك مما يتطلّبه الإخبات، وكذا مقام المحبَّة فإنه جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فهي معنى يلتئم من هذه الأربعة(١).

وكمال المحبَّة أن تقترن بالتعظيم والهَيْبَة، فالمَحَبَّة بلا هَيْبَة ولا تعظيم ناقصة، والكمال أن تجتمع المحبّة والودّ والتعظيم والإجلال(٢).

كما أن هذه المحبة الرفيعة «تقتضي تقديم المحبوب ﷺ على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان»(٣).

۞ ۞ ۞

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/١٣٦).
(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٢٠٣)، و«بدائع الفوائد» (٣/٨٥٢ ـ ٨٥٣).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦) بتصرُّف.

المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِم الرأس والجناحان فالطائر جَيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[١]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن محرِّكات القلوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقْوَاهَا المحبة، وهي مقصودة تُرَاد لِذَاتِهَا؛ لأنها تُرَادُ في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنَّهُ يَزُول في الآخرة...

والخوف المقصود منه الزَّجْرُ والمَنْعُ من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تُلْقي العبد في السَّير إلى محبوبه، وعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وقُوَّتِهَا يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده»[٢]. اهـ.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوف يتعلَّق بالأفعال، والمَحَبَّةُ تتَعَلَّقُ بالذات والصفات؛ ولهذا تَتَضَاعَف محبَّة المؤمنين لِرَبِّهم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يلحقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه»[٣]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

درجات المحبَّة

إذا نظرنا إلى المحبة باعتبار منازل العابدين فإنه يمكن تقسيمها إلى درجتين: واجبة، ومستحبة؛ **فالواجبة** للمقتصدين، بمعنى: أن الإنسان إذا قصَّر فيها فهو ظالم لنفسه؛ لأنه لا بد أن يكون الله ورسوله أَحَبَّ إِلَيْهِ مما سواهما؛ بحيث لا يُحِبّ شيئًا يبغضه الله ﷻ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبَّة جَمِيع ما أوجبه الله تعالى، وبُغْض مَا حَرَّم الله تعالى، فإذا قصَّر الإنسان عن هذه المرتبة، فأَحَبَّ أعداء الله ﷻ، وأَحَبَّ المجرمين الظالمين، وأحبَّ الظلم والعدوان وألوان الفجور والكفر والمعاصي؛ فإنَّه يصبح بذلك من جملة الظالمين لأنفسهم في هذا الباب.

وأمَّا الدَّرَجة الثانية: فهي محبَّة السابقين؛ وذلك بأن يُحِبَّ ما أَحَبَّ الله ﷻ من النوافل والفضائل محبَّة تامة، فالمقتصدون يحبّون جميع ما يحبّه الله سبحانه من الواجبات، ويُبْغِضون جميع ما يبغضه الله تعالى من المحرَّمات، وأما السابقون فيحبّون جميع الواجبات والمستحبات، ويبغضون جميع المحرَّمَات والمكروهات، ويتباعدون من ذلك.

۞ ۞ ۞

مراتب المحبة

من المعلوم أن المحبة تقوى وتضعف في قَلْبِ الإنْسَانِ، كَمَا أن الناس يتفاوتون فيها غاية التفاوت، وتجد الإنسان يحبّ شيئًا واحدًا أحيانًا مَحَبَّةً كبيرة، ثم ما يَلْبَث أن تتضاءل هذه المحبة في قلبه في حين آخر؛ كما أن محبتنا للأشياء تتفاوت تفاوتًا بينًا، فقد يحب الإنسان والده أكثر من محبَّتِه لولده، وقد يكون العكس، وقد يحبّ اثنين محبَّةً متساوية، وهذه أمور لا تخفى، فهذه المحبة كلَّما قَوِيَتْ واشْتَدَّتْ صَارَ لها اسم يخصّها في كلام العرب ولغتهم.

ومن هنا كانت على مراتب:

الأولى: العلاقة، وهي: تعلُّق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي مَيْلُ القلب إليه.

والثالثة: الصّبَابة، وهي انصباب القلب إلى المَحْبُوبِ؛ بِحَيْثُ لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

والرابعة: الغرام، وهو الحُبُّ اللازم للقلب، ومنه الغريم؛ لملازمته، وقد ذكر الله عذاب جهنم، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥]؛ أي: مُلَازِمًا لأهلها وأصحابها.

والخامسة: المودَّة، والودّ هو: صَفْوُ المَحَبَّةِ وخَالِصُهَا ولُبُّهَا، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

والسادسة: الشّغف، وهو: وصول المَحَبَّة إلى شغاف القلب.

والسابعة: العشق، وهو الحُبّ المُفْرط الذي يُخَاف على صاحبه منه، وهذا لا يصلح لله ﷻ.

والثامنة: التتيُّم، وهو بمعنى التعبُّد، تقول: قلبٌ مُتَيَّم؛ يعني: قلب مُعَبَّد للمحبوب.

والتاسعة: التَّعبّد صراحة، وتجد بعض المحبِّين يذكر هذا، ويصرّح أنه قد صار عبدًا لهذا المحبوب.

والعاشرة: الخُلَّة، وهي المحبَّة التي تخلَّلَت رُوْح المُحب وقلبه، وقيل غير ذلك[١].

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٢٥ ـ ٨٥)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٧ ـ ٣٠).

فالمَحَبَّةُ تَقْوَى وتضعف ويتفاوت الناس فيها تفاوتًا ظاهرًا بَيِّنًا، فيَقْوَى الحُبّ في حين، ويضعف في حين آخر، بَلْ قَدْ يتبدّل أقوى الحبّ بأقوى البغض والعكس.

وقد تقوى حتى تبلغ **أعلى مراتبها**؛ وهي **قرّة العين**.

«وقرّة العَيْن فوق المحبة، فإِنَّهُ لَيْسَ كل محبوب تقرّ به العين، وإنما تقرّ العين بأعلى المحبوبات»[(١)].

«فغاية المحبة: اتحاد مُرَاد المُحبّ بمراد المحبوب، وفَنَاء إرادة المحبّ في مراد المحبوب»[(٢)].

وهكذا تتمّ إذا سَلِمت من المعارض، «فإِنَّ المَحَبَّةَ تُوجِبُ الدُّنوّ من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نَبْذ ما يبغضه المحبوب، فإنها تكون تامة»[(٣)].

فإذا وُجِد معها الخضوع كانت عبادة، «فالعابد مُحِبّ خَاضِع، بخلاف مَنْ يُحِبّ مَنْ لَا يخْضَع له، بل يحبّه ليتوسّل به إلى محبوبٍ آخر، وبخلاف مَنْ يخضع لمن لا يحبّه»[(٤)].

أمّا العبودية فهي مرتبة عظيمة من مراتب المحبة، وحقيقتها: أنها الحُبّ التام، مع ذلٍّ كَامِلٍ، وخضوع للمحبوب، تقول العرب: طريق مُعَبَّد؛ أي: طريق مُذَلَّل، و«العبد هو الذي مَلَك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نَفْسه البَتَّة، بل كله عبدٌ لمَحْبُوبِهِ ظاهرًا وباطنًا، هذه حقيقة العبودية التي مَنْ كَمَّلها فقد كمّل مرتبتها»[(٥)].

وأصل العبادة: محبَّة الله ﷻ، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحبّ كله لله، فلا يُحَب معه سواه حُبًّا لا يصلح إلا لله، وإنما يُحَب لأجله وفيه، فالمُؤْمِن يُحِب أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، ويُحِبّ الملائكة، ويحبّ أوْلِيَاءه المتَّقِين، ومحبَّتنا هذه لهؤلاء من محبَّتِنَا لله ﷻ، فهي مِنْ مُكَمّلاتِهَا ومُتَمّمَاتِهَا، وليست مزاحمة لها بحال من الأحوال.

والعبودية لله تبارك وتعالى جامعة للتحقّق بما يحبّه الله ورسوله ﷺ ويرضاه من أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب.

---

(١) ما بين الأقواس من «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٣٦).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٦٧).
(٣) «جامع الرسائل» (٢/ ٢٧٥).
(٤) المصدر السابق (ص٢٨٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٩) بتصرُّف يسير.

فإذا أعملتَ ذهنك في أودية هذه الأعمال فإنك سترى جَمًّا غفيرًا من العمل الصالح الذي يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، وأعلى ذلك شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والإيمان الصادق، والإقرار الانقيادي الذي يُوجَد في قلب العبد.

وأما ما يتعلق بالجوارح فأعمال لا تُحصَى؛ وهي مُتَفاضِلة بحسب الوقت والزمان والمكان والحاجة والحال، فإذا أذّن المؤذن فأحَبُّ العمل لله ﷻ إجابة المؤذن، وإذا دعا داعي الجهاد فأحبّ العمل إلى الله الجهاد، وإذا كان وقت الحجّ فأحبّ العمل إلى الله التلبية بالحج، وإذا جَاءَ رَمَضَان فأفْضَلُ العمل هو الصيام، وهكذا. . .(١).

ويمكن أن تُقَسّم هذه المحبَّة إلى مراتب أُخْرَى باعتبار آثارها، **فمن ذلك**(٢):

المرتبة الأولى: المحبة التي تقطع الوساوس، ويلتذّ بها العامل بالعمل، والخدمة، وتُسَلِّي عن المصائب، فلا يَبْقَى في القلب محل لغير محبَّةِ المحبوب والتعلق به، فلا يبقى هناك مجال للوساوس والخواطر السيئة، والأفكار الرديئة التي تُشَتِّتُ عليه شمله، وتفرّق عليه قلبه وفكره، فينشغل بها، وينصرف عن محبوبِهِ. ثم إن هذه المحبة تكون غالبة عليه، فتكون سُلُوَّه، فيَجِدُ في لَذَّتِهَا ما يُنْسِيهِ المصائب، ولا يجد من مَسِّها مَا يجد غيره، بخلاف أولئك الذين تَذْهب أنفسهم حسرات وراء آمالهم المتفرِّقة في شُعَب أهوائهم.

والمرتبة الثانية: «هي التي تبعث على إيثار الحقّ على غيره، وتُلْهِج اللسان بذكره، وهي محبة تظهر من مُطَالعة الصفات والنظر إلى الآيات، وهَذِهِ الدَّرَجة أعلى مما قبلها باعتبار سببها وغايتها؛ فإن سبب الأُولى مطالعة الإحسان والمِنَّة، وسبب هذه مطالعة الصفات، وشهود معاني آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة»(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦ ـ ٣٩).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٣٩) باختصار وتصرف.

أنواع المحبة

يمكن أن نقسم المحبَّة إجمالًا ـ من جهة تعلّق الحمد والذَّمّ بها ـ إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ المحبة المحمودة.

٢ ـ المحبة المذمومة.

٣ ـ المحبة الطبيعية، التي لا يتعلق بها الحمد ولا الذمّ لِذاتِها، وإن كان قد يعرض لها بعض ما يلابسها، فتنتقل إلى المحمود أو إلى المذموم من قسمي المحَبَّةِ.

ويمكن أن نقسمها تفصيلًا إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة:

«وهي التي لا تصلح إلَّا لله تبارك وتعالى، ومَتَى أحَبَّ بها غيره كان مشركًا به شركًا لا يُغْفَر، وهذه المحبَّة الخاصة هي محبة العبودية التي تستلزم الذلّ للمحبوب، والخضوع له، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، ولا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»(١).

ويدخل تحت هذه المحبة الخاصَّة أربعة أنواع:

الأول: محبَّة الله ﷻ، وهي أصْلُ الإيمان والتَّوْحِيدِ.

والثاني: محبَّةُ مَا يُحِبُّهُ الله ﷻ من الأعمال، والأوقات، والأمكنة، والذوات، والأقوال، والنيات، فهي تابعة لمحبَّةِ الله ﷻ ومكمّلة لها.

والثالث: محَبَّة في الله، وهي مَحَبَّة الأنبياء والرسل وأتباعهم، وهي تابعة لِمَحَبَّةِ الله أيضًا ومكمّلة لها.

والرابع: المحبة مع الله، وهي الشركية، كمَحَبَّةِ المشركين لأوثانهم، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٤٢) بتصرُّف.

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَدَلَّتِ الآية على أن محبة هؤلاء، وإن كانت مِنْ غَيْرِ مَحَبَّةِ العبادة، إذَا فَضَلَتْ عَلَى محبَّةِ الله صارت سببًا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يُهْمِل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من رَبِّه.

وما في القلوب، وإن كان لا يعلمه إلَّا الله، لكن له شاهد في الجوارح»[١].اهـ.

فالمحبة الطبيعية ـ كما أشرت ـ قد يُلَابِسُها ما يحوّلها إلى المحبَّة المذمومة أو المحمودة، فالإنسان يُحِبُّ أَبَاهُ محبَّة طبيعية، وكذا ولده وزوجته، ولكنها إن تجاوزت الحَدَّ، وصار يطيع هؤلاء من دون الله ﷻ، ويترك أمر الله وراءه ظهريًا، فإن هذه المحَبَّة زَاحَمَتْ مَحَبَّة الله ﷻ، فهي محبة شركِيَّة، لا يجوز للإنسان أن يقع فيها.

ومن يُحِبّ مُعَظّمًا من المعظَّمين؛ من الملوك، والرؤساء، والمتبوعين، ونحو هؤلاء، وكان يتقرَّب إليه بفعل ما يُحبّه ذلك المحبوب، ولو كان مما يُبْغِضه الله ﷻ؛ فإن هذا من المحبَّة المُحَرَّمَة، وبِهَذَا نَعْلَمُ أن توحيد المحبة ألَّا يتعدد محبوبك في المحبة الخاصة، بل ينبغي أن يكون المُحِبّ متوجِّهًا لله وحده، فلا يبقى في قلبه شيء يمكن أن يُصْرَف لغيره إلا أن يكون تابعًا ومُكَمّلًا لمحبّة الله ﷻ، فهذا الحُبّ إذا كان بهذه المثابة صار غاية صلاح العبد ونعيمه وقُرَّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلَّا بِأَنْ يَكُونَ الله ورسوله أحَبَّ إليه مما سواهما، وأن تكون محبَّته لغير الله تابعة لمحبته الله تعالى.

وهذه المحَبَّة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النَّفس والمال والولد، وتقتضي ذلًّا ظاهرًا وباطنًا وإخباتًا، وهذا أمْرٌ لا يصلح إلَّا لله ﷻ، وإلا كان العبد مشركًا بربِّه؛ لأن أصل الإشراك العملي بالله هو الإشراك في المحَبَّة، والمحَبَّةُ مع الله تنافي محبَّةَ اللهِ قَطْعًا، وذلك بأن تكون منازعة لمحبَّة الله ﷻ ومضادّة لها، ولا تكون تابعة لها[٢].

وقد يدخل في ذلك **محبة العشق** ـ عشق الصور ـ الذي تُبْتَلَى به القلوب الفارغة مِنْ مَحَبَّةِ الله ﷻ، المُعْرِضَة عنه، المُتَعَوِّضة عنه بغيره؛ ولأن القلب إذا امتلأ من محبة الله تبارك وتعالى والشوق إلى لقائه دفع عنه ذلك محبَّة مرض العشق.

والمقصود: أن أصل التوحيد وروحه إخلاص المحَبَّة للمليك المعبود سبحانه، وذلك أصل التألّه والتَّعبّد له، بل هو حقيقة العبادة؛ فلا يَتِمّ التوحيد حتى تَكْتَمِلَ مَحَبَّتُنَا

(١) «القول المفيد» (٢/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٢) انظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٢٥٥)، و«روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦).

لربنا جلَّ وعلا، وتكون هذه المحبة سابقة لجميع المَحَابّ وغالبة لها، ويكون الحُكْم لهذه المحبة على غيرها، وتكون مَحَابّنا الأخرى تابعة لمحبَّتِنَا لربنا ومعبودنا ﷻ، ومتفرِّعة عنها، وبهذا نكون قد أصلحنا القلوب، واستقامت على حالٍ مرضية لله ﷻ، فنُحِبّ ما يحب، ونبغض ما يبغض من الأشخاص والأعمال، ونوالي أولياءه، ونعادي أعداءه، وهذا هو كمال الإيمان، وبِهِ يَجِدُ الْعَبْدُ لَذَّةَ الإيمان، ويجد طعمه: «**أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**»، فيكون أمره لله في كل أحواله[١].

«أمَّا اتّخاذ الأنداد مع الله تعالى من المخلوقين فيحبّهم كحبّ الله، ويُقَدِّمُ طَاعَتهم على طاعته، ويَلْهَج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلَّقَ بغيره ممَّن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلَّقَ به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعَمَله، وستنقلب هذه المَوَدَّة والموالاة بغضًا وعداوة»[٢].

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وهكذا تتبرأ المعبودات من عابديها، ويتنصَّلون من عباداتهم، ويكفرون بهم، وبما كانوا يتقرَّبون به إليهم. وإذا نظر العاقل، وفحص بعقله، وقلَّبَ نَظَره؛ فإنه يجد أن الإنسان يحوي قدْرًا كبيرًا من المشاعر وأُمورًا كامنة في نفسه لا بد من تصريفها، فالإنسان مثلًا في باب المحبة لا بُدَّ له من محبة وكراهية وبغض، «فإذا كان هذا المحبوب هو المحبوب الحَقّ الذي لا تنبغي المحبة إلا له، ولا يُحِبّ غيرَه إلا تبعًا لمحَبَّتِهِ لله؛ فهذا أسْعَدُ المُحِبِّين، وقد وضع الحبّ مَوْضِعَهُ، وتهيَّأتْ نَفْسُه لكمالها الذي خُلِقَتْ له، والذي لا كمال لها بدونه بوجه»[٣]؛ فإنَّ هذا القلب قد رُكِّبَ تَرْكِيبًا خاصًّا لأن يكون مُعَبَّدًا لله ﷻ، فإذا عَبَّدته ووَجَّهْتَهُ لِغَيْرِهِ شَقِي.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «في القلب شَعَث لا يَلُمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وَحْشة لا يزيلها إلا الأُنْس به في خَلْوته، وفيه حزن لا يذْهبه إلا السرور بمعرفته، وصِدْق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد، لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدّها

---

(١) انظر: «القول السديد» (ص٢٠٣).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «القول السديد» (ص٢٠٣).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٤٨) بتصرُّف.

إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصِدْق الإخلاص له، ولو أُعْطِي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[١].اهـ.

هكذا رُكِّبَت هذه القلوب، فعَلَى الفَطِن أن ينظر في قلبه وحاله، ونَفْسه وعمله، وأن يُوَجِّه ذلك جميعًا إلى ما فيه شفاؤه، وخَلَاص رقبته، وفَكَاكه من النار، فإذا حصل له ذلك تلاشت عنه تلك الأوهام الباطلة من المحبوبات التي لا تستحق أن يُصْرَف الهمّ إليها، وإلَّا بقي في قلبه حَزَازات وظلمة، ويجد فيه تشتيتًا وقَسْوَة، قد لا يعرف بعض الغافلين سببها، ولا يدرون كيف الخروج منها؛ ولذلك تجد مَنْ يشكو مِنْ قَسْوَةٍ في قلبه، وظُلْمة في نَفْسه، وحسرة يجدها تملأ جوانحه، ولا يدري سبب ذلك! كل شيء مُوَفَّرٌ لديه؛ المال، وألوان النعيم، ومع ذلك يجد قلبه مكروبًا مُنْقَبِضًا حيث تقلّب، يسافر ليدفع همه والهَمّ يطارده، وإنه ليجده حيث توجّه قُبالة وجهه، وهذا يشكو منه الكثيرون، وهم بين مُقِلٍّ ومُكثر، فعلى قدر ما يحصل في القلوب من معرفة الله ومحبَّتِه تَنْقَشع تلك الغشاوات والظلمات، وهكذا فبقدر ما يقع من نقص يحصل لهم من الكَرْب، والاكتئاب، والحسرات، والأحزان، والضِّيق.

القسم الثاني: المحبة المشتركة:

وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: «المحبة الطبيعية التي تكون تابعة لما يُلائِم العبد وما يوافقه من المطعومات، والمشروبات، والنكاح، واللباس، والمعاشرة، والمخالطة، وهذه إن أعانت على محبَّةِ الله وطاعته، وكانت مباحة دخلت في باب العبادات. وإن صدَّتْ عن ذلك، وتوسّل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيَّات، وإلا بقيت من أقسام المباحات»[٢].

وقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل[٣].

ولما سئل: مَنْ أحَبّ الناس إليك؟ قال: «**عائِشَة**»[٤].

الثاني: محبة الرَّحْمَةِ والإشفاق؛ كمحبة الوالد لولده. وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أُنْس، وأُلْفة، ومخالطة، ومشاكلة في الطبع؛ كمحبة المُشْتَرِكِين في

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٤).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «القول السديد» (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥) بتصرُّف.

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

صناعة، أو عِلْم، أو تجارة، أو سفر، أو مهنة، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم، وقد يدخل تحت هذا النوع: محبة العِشْق؛ لأن سببه المُشَاكلة والمناسبة بين المُحِب والمحبُوب، وهي محبَّة مذمومة وضارة، وقد تدخل في النوع المختص بالله تعالى[١]، فتكون مزاحمة لها.

وقد سمعنا أشياء عجيبة عن بعض هؤلاء؛ حيث يقول بعضهم لصاحبته: ليتني أحبّ الله كمحبَّتِك، وآخر يقول: يا ليتني أحب النبي ﷺ كمحبتك، وآخر يقول: إن دخل الجنة فلن يَنْعَم بها إلا إذا كان هذا المحبوب معه.

الرابع: محبَّة إجلال وتعظيم لا عبادة؛ كمحبة الولد لوالده، ومحبة التلميذ لشيخه وأستاذه، ومحبة الإمام العادل، وذلك لا حَرَج فيه ما لم يُزاحِم محبّة الله ﷻ، قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فلما غلوا في محبّة هؤلاء الأحبار والرهبان صار ذلك من قبيل الإشراك بالله جلَّ وعلا.

وأشرف هذه الأنواع التي ذكرناها هي المحبة الخاصة التي تكون لله وما يتبعها من محبَّة له ومحبة فيه.

وأسْوَأ هذه الأنواع هي المحبَّة المزاحمة؛ وهي التي تُصْرَف لغير الله، ولا تَصْلُح إلا لله ﷻ، وهي المحَبَّة الشركية، وتبقى المحبة الطبيعية في مرتبة بين هذا وهذا، لا تُحْمَد ولا تُذَمّ مِنْ حيْثُ هِيَ، وإنَّما يكون حُكْمها بحسب ما اتَّصلت به[٢]، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٤١).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٥).

أقسام الناس في المحبَّةِ والإرادة والقدرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أصل كل فعل وحركة في العالم من الحبّ والإرادة، فهو أصلُ كل فعل ومبدؤه»[1]. اهـ.

وقال: «وهنا انقسم الناس أربعة أقسام:

١ ـ قوم لهم قدرة، ولهم إرادة، ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون، ويستعملون جهدهم وطاقتهم؛ لكن لا في سبيل الله، بل في سبيل آخر: إما محرَّمة كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإما في سبيل لا ينفع عند الله، مما جنسه مباح، لا ثواب فيه؛ لكن الغالب أن مثل هذا كثيرًا ما يقترن به من الشُّبَه ما يجعله في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان.

٢ ـ قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبّين المحبوبين المجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لَومة لائم؛ كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

٣ ـ قوم فيهم إرادة صالحة، ومحبّة لله قوية، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذي قبله... وفي مثل هؤلاء قال النبي ﷺ: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: «**وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[2]...

٤ ـ مَنْ قدرته قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم؛ فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم، كما يُوجَد في العلماء، والعُبَّاد، والزَّاهِدِين من المشركين، وأهل الكتاب، ومنافقي هذه الأمّة ما فيه مُضاهاة لعلماء المؤمنين وعُبّادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخَلْق نظيرًا في الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله»[3].

---

(١) «جامع الرسائل» (٢/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) ـ واللفظ له ـ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) «جامع الرسائل» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٤) بتصرُّف.

علامات محبَّة الربّ للعبد

من الناس مَنْ يُولَع بمحبَّة المخْلُوقين له، ويعمل الأعمال الكثيرة لجلب تلك المحبَّة، ويتصنّع لهم، ويتزيّن، ويعدِّد إنجازاته وأعماله، ثم لا يكون له مِنْ وَرَاءِ ذلك إلا بغضهم ومقتهم.

ومنهم مَنْ يبادر الناس إلى محبته، مع أنهم لم يَرَوْه ولم يسمعوه.

والناس في ذلك أنواع متعددة، وأجناس مختلفة.

وإنما مرجع ذلك إلى أنَّ الله تَعَالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا أَحَبَّهُ أهل السماء، ووُضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبْدًا أبغضه أهل السماء، ووُضِعَتْ له البغضاء في الأرض.

والعبرة بحب الله لعبده، لا بحبّ الناس له.

فإذا أقبلت تلك القلوب على الله، وأنِسَتْ بِذِكْرِهِ، وَسَعَتْ في طاعته ومرضاته، واشتاقت إلى لقائه، فلا تَسَلْ عَنْ سَعْدِهَا وهنائها في الدنيا والآخرة.

هذا، وتُعْرَف محبَّة الرب لعبده بعلامات، منها:

١ ـ حبّ العَبْد لطاعة ربه: **قال ابن أبي الحواري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة حبّ الله حب طاعة الله ـ وقيل: حب ذكر الله ـ فإذا أَحَبَّ اللهُ العبدَ أحبَّه، ولا يستطيع العبد أن يُحِب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحبِّ لَهُ، وذلك حين عَرَفَ منه الاجتهاد في مرضاته»(١).

٢ ـ انزعاج القلب من التفريط، فإذا فاته وِرْده من القرآن حَزِن، وإذا شَغَله مُهِم من أمر الدنيا تَحَسَّرَ على ما فاته من الذِّكر والعبادة، وإذا ذكر تقصيره في أمر الله ندم.

يقول حماد بن مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أكثر همَّه فيما فَرَّط، وإذا أبغض عبدًا أكثر همَّه فيما قسمه له»(٢).

٣ ـ تحقيق الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٥)، واللفظ له.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٩٥)، و«تاريخ الإسلام» (٣٦/١٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوَصَف المحبوبين المحبّين بأنَّهم أذلّة على المؤمنين، أعِزَّة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم؛ فإنَّ المَحَبَّةَ مستلزمة للجهاد؛ لأن المُحِبّ يُحِبّ ما يُحِبّ محبوبُه، ويبغض ما يبغض محبوبُه، ويوالي مَنْ يُوَالِيهِ، ويُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، ويرضَى لِرِضَاهُ، ويَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يَرْضَى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون لرضاه، ويغضبون لما يغضب له»[1].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧ ـ ٥٨).

الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد

إنَّ حُبَّ الله لعبدٍ من عباده لا شك أنه أمر عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يعرف قدره إلَّا مَنْ عَرَفَ الله مَعْرِفَة صحيحة بأسمائه وصفاته، ونحن إذا أردنا أن نصل إلى شيء من ذلك فيجب علينا أن نتقرَّبَ إلى الله أولًا: بالفرائض، وثانيًا: بالنوافل؛ لأن الله قد بَيَّنَ لنا الطريق كما في الصحيح عن النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**(١).

ومن كان بهذه المثابة عند ربه فما أسعده! وما أطيب عيشه!

ومن الأمور النافعة في هذا المجال: أن نتأمل القرآن، وما جاء في السُّنَّة النبوية، فقد بَيَّنَ الله لنا الأعمال التي يحبها أو يحب أهلها، وتلك التي يُبْغِضها، أو يبغض أهلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، فَمِنَ المَعَانِي الَّتِي ذكرت في تفسير: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾؛ أي: أن الله يحبهم، وفي حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا: **«إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبَّه، قال: فيُنادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦]»(٢)،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٥)، وصحَّحه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٨)، وأصله في الصحيحين.

والمعنى الآخر: هو أنه سيجعل لهم القبول في الأرض، فتحبهم القلوب[١]؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، فإنها تحتمل المعنيين: ألقى عليه محبة، بمعنى: أنه أحَبَّهُ، وألقى عليه محبة؛ أي: ما رآه أحد إلَّا أحبه[٢].

والقرآن يعبّر به بالألفاظ القليلة الدَّالَّة على المعاني الكثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: ٤٢].

وكذلك أضداد هذه الأمور، وهي التي ذكر الله أنه يبغضها، أو يبغض أهلها، فإنه ينبغي أن نُجَانبها؛ لئلَّا يبغضنا الله عز وجل، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص: ٧٧]، فالِاعْتِدَاء على الناس في أعراضهم وأموالهم ودمائهم، فكل ذلك مما يبغضه الله عز وجل.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وهذا يشمل الفساد بكل صُوَرِهِ وأشْكَالِهِ؛ فساد الأخلاق، وفساد العقائد، والفساد المالي، والفساد في البدع ومُحدثات الأمور، وما إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ أي: كثير الكفران، كثير الآثام، مُقَارف لما يوجب الإثم، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، وهو الذي يَتَكَبَّر ويتَعَالى عَلَى الناس، ويَفْتَخِر بما عنده من عَرَض أو حَسَب أو نَسَب، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: ٧٦]، وهو الفَرَح الذي يحمل على البَطر، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٤٠ ـ ٦٤٤)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٨٤).

علامات محبة العبد لربه ﷻ

لما كانت محبة الله تعالى فرضًا إيمانيًا، ومرتبة دينية شريفة؛ كان ذلك مدعاة لأن يدعيها كل أحد، ومن هنا لَزِم بيان العلامات الدالة على تحقيق هذه المحبة، **فمن ذلك:**

أولًا: أن هذا المُحب لا بدّ أن يكون مطيعًا لربه، ومتَّبعًا لنبيِّه ﷺ، وذلك برهان اشترطه الله ﷻ، وطالَبَ بِهِ أولَئِكَ الذين يَدَّعُونَ محبته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإذا كان العبد مُؤْثرًا لمحابّ الله ﷻ، ومتَّبِعًا للرسول ﷺ، وإن خالف ذلك هوَى نفسه، وشقّ عليها؛ كان ذلك من براهين صِدْق المحَبَّة، وقَدِ اقْتَضَتْ حكمة الربّ سبحانه إخراج العباد إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات، ومَحَاب النفوس، التي بإيثار الحق عليها، والإعراض عنها يتحقق حبهم له، وإيثارهم إيَّاهُ على غيره؛ ولذلك يتحَمَّل الواحد منهم المشاقّ الشديدة، وركوب الأخطار، واحتمال الملامة، والصبر على دواعي الغي والضلال، ويجاهدها، وبذلك يقوى سلطان المحبَّة، وتثبت شجرتها في القلب[١].

والطريق إلى الجَنَّة فيه ألوان المشقَّات والصعوبات، والشريعة قد رُكِّبت تركيبًا خاصًا على خلاف وِزَان داعية الهَوَى في النفوس؛ ولذلك إذَا الْتَبَس على الإنسان أمران، وشك في مراد الله ﷻ منهما، فإنَّ مِنْ طُرُقِ التَّرْجِيح: مخالفة هوى النفس.

والمقصود: أنَّ العبد إذا آثَرَ مَا عند الله تبارك وتعالى، وقدَّم أمْره على محبوبات النفوس، وجاهد هذه النفس حتى قَوِيَ سلطان المحبَّة، فإنها بهذا تكون راسخة، مُخْرِجَة لألوان الثمرات الطيّبة، وبهذا يكون مُبَرهنًا على صدق محبته.

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «إن أقوامًا كانوا على عهد رسول الله ﷺ يزعمون أنهم يحبون الله، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، كان اتِّبَاع محمد ﷺ تصديقًا لِقَوْلِهم»[٢].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٣ ـ ١١٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٣٢٣).

وعن ابن جريج بمعناه[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَنِ ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمَّدِية، فإنه كاذبٌ في دعواه في نَفْس الأمر حتى يتبع الشَّرع المحمَّدِي، والدين النَّبَوي، في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]... ثم قال آمرًا لكل أحد من خاصّ وعامّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: خالفوه عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]، فَدَلَّ على أن مخالفته في الطريقة كُفْر، والله لا يُحِبُّ مَنِ اتَّصَف بذلك، وإن ادَّعَى وَزَعَم في نفسه أنه يحب الله»[٣].اهـ.

ولهذا، فإنَّ «المُحِبَّ الصادق إن نَطَق نَطَق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تَحَرَّكَ فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله»[٤].

وقد قال بعض المتقدِّمين: «قِوام المحبة مُوَافَقَة الحبيب في جميع الأحوال»[٥].

وسُئِلَ آخر عَنِ المَحَبَّةِ فقال: «هي ميلك إلى الشيء بكلِّيَّتِكَ مَحَبَّة له، ثم إيثارك له على نفسك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم عِلْمك بتقصيرك في حُبِّه»[٦].

ثانيًا: أن يُقبل على طاعة الله غير متثاقل، بل يُسَرّ عند أدائه لها، فهذه هي حال المحبّين الصادقين، فهم يقومون بخدمة المحبوب، ويكون ذلك من أَسَرّ الأشياء إلى نفوسهم، ومِنْ أَلَذّ الأمور إلى قلوبهم، ولا يرون ذلك مشَقَّة ولا تكليفًا[٧].

فالمحَبَّة هي «منتهى القُرْبة والاجتهاد، ولن يَسْأَمَ المُحِبّون من طول اجتهادهم لله ﷻ، يحبونه، ويحبّون ذكره، ويُحَبِّبُونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياء الله وأحِبَّاؤه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه»[٨].

وقد قال بعضهم: «المُحِبّ لا يجد مع حُبِّ الله ﷻ للدُّنْيَا لذَّة، وَلَا يغفل عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٣٢٣).

(٢) ذكره بهذا اللفظ البخاري (٤/ ٥٠٢) معلقًا، وأخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة، وأخرجه بلفظ مقارب البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨٩).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٨).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٧).

(٧) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٥).

(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٦).

ذكر الله طَرْفَة عين»[١].

وقال آخر: «ما يكاد يَمَلّ القربة إلى الله تعالى محِبٌّ لله ﷻ، وما يكاد يَسْأم من ذلك»[٢].

وقال آخر: «المُحِبّ للهِ طائر القلب، كثير الذِّكْر، متسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنَّوَافِل دَوْبًا دَوْبًا، وشوقًا شوقًا»[٣].

ثالثًا: **أن يكون العَبْد حافظًا لحدود الله ﷻ**، فليس بصادق مَنِ ادَّعَى حُبَّه ولم يحفظ حَدَّهُ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[٤]

كما قيل[٥]:

شُغِفُوا بِحُبِّ اللَّهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ ... فَتَجَنَّبُوا لِوِدَادِهِ آثَامَا

وقال آخر[٦]:

وَحُبَّانِ فِي قَلْبِي مُحَالٌ كِلَاهُمَا ... مَحَبَّةُ فِرْدَوْسٍ وَدَارِ غُرُورِ
وَمَنْ يَرْجُ مَوْلَاهُ وَيَرْجُ جِوَارَهُ ... يُسَابِقْ فِي الخَيْرَاتِ غَيْرَ فَتُورِ
وَمَا صَادِقٌ مَنْ يَدَّعِي حُبَّ رَبِّهِ ... وَأَمْسَى عَنِ اللَّذَّاتِ غَيْرَ صَبُورِ

وسُئِل بعضهم: ما عَلَامَة المَحبَّة؟ فقال: «تَرْكُ مَا تُحِبّ لِمَنْ تُحِبّ»[٧].

رابعًا: **أن تحبّ ما يُحِبّه الله، وتبغض ما يبغضه**؛ فإنَّ «مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ مَحْبُوب، ثم سَخِط ما يحبه، وأحبَّ ما يُسْخِطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمَقَّتَ إلى محبوبه»[٨].

وقال أبو حازم رحمه الله: «شيئان إذا عَمِلت بِهِما أَصَبْتَ بهما خير الدنيا والآخرة... تحمل ما تكره إذا أَحَبَّه الله، وتكره ما تحب إذا كَرِهَهُ الله ﷻ»[٩].

---

(١) المصدر السابق (ص٦٧٩ ـ ٦٨٠).
(٢) المصدر السابق (ص٦٨٠).
(٣) المصدر السابق (ص٧٣٥).
(٤) «شعب الإيمان» (٤٩٠ ـ ٤٩٢)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٧٩).
(٥) البيت ليحيى الرازي. «شعب الإيمان» (٤٨٦).
(٦) الأبيات لسعيد الجرجاني. المصدر السابق (٤٩٣).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٨).
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٧٨).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤١).

وقال بعضهم: «ليس من أعلام الحُبِّ أن تحب ما يبغض حبيبك»[(١)].

وقال آخر وقد سُئِلَ عن المحَبَّة: «أن تُحِبَّ مَا يحب الله في عباده، وتَكْرَهُ ما يكره الله في عباده»[(٢)].

خامسًا: الأُنس بالله ﷻ: فهو من علامات المحَبَّةِ، وهُوَ أنْ يحصل له «كمال الأُنسِ بِمُنَاجَاةِ المحبوب، وكمال التَّنَعّم بالخَلْوة، وكمال الاستيحاش من كل ما يُنَغِّص عليه الخَلْوة، ومتى غلب الحُبّ والأُنْس صارت الخَلْوة والمُناجاة قُرَّةَ عَيْن تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحُبّ والأُنْس قلبه»[(٣)].

وبهذا يَعْرِف العبد حاله، ويختبر إيمانه ومحبته لله تبارك وتعالى إذا كان يطلب الأُنْس بملاقاة الناس، وخُلْطَتهم، والجلوس معهم، ويَجِد ضِيقًا وحَرَجًا إذا قام لله ﷻ في صلاة، فمثل هذا لم يكن صادق المحبة، وكذلك الذي يَتَبَرَّم مِنْ طُولِ الصَّلَاةِ، وينتظر بشَوْق سَلَام الإمام فإنه لم يصدق مع الله ﷻ في هذه المحبة، ومثله أيضًا الذي إذا خلا بربه يناجيه كان الدعاء أثقل شيء على نفسه، فإنه لم يصدق مع الله في هذه المحبة، وهكذا الذي يتبَرَّم من مجالس الذكر، ويستثقلها، ولا يأنس بذكر المحبوب ﷻ؛ فإنه لا يكون بذلك صادقًا في هذه المحبة.

سادسًا: أن المحبة الصادقة تزيد بالعطاء، ولا تنقص بالمنع، وقد سُئِلَ الفضيل بن عياض، قيل له: يا أبا علي، مَتَى يبلغ الرجل غايته من حُبِّ اللهِ تَعَالَى؟ فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعُهُ إِيَّاكَ عندك سواء فقد بَلَغْتَ الغاية مِنْ حُبِّهِ»[(٤)].

وقد أخبرنا الله عن أقوام يعبدون الله على حرف، فإن أصابوا خيرًا اطْمَأَنّوا بِهِ، وإِنْ أَصَابَهُم ما يكرهون انقلبوا على أعقابهم، فليست هذه حال المحبّين.

وقد قال بعضهم: «حقيقة المحبَّة التي لا تزيد بالبِّر، ولا تنقص بالجَفْوة»[(٥)].

سابعًا: أنه لا يُثْنِيه لَوْم ولا عَذل عن سلوك مرضاة محبوبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والمحبّ التامّ لا يُؤَثِّر فيه لوم اللّائِم وعذل العاذل، بل ذلك يُغْرِيه بملازمة المحبة؛ كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٨).

(٣) ما بين الأقواس من «مختصر منهاج القاصدين» (٤٤٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٢).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٦).

هم أهل المَلام المحمود، وهم الذين لا يخافون مَنْ يلومهم على ما يحبّ الله ويرضاه من جهاد أعدائه؛ فإنَّ المَلام على ذلك كثير. وأما المَلام على فِعْل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبَّه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا المَلام، بل الرجوع إلى الحَقّ خَيْر من التمادي في الباطل»(١).اهـ.

ثامنًا: كثرة ذكره.

وقد قال بعضهم: «الحبّ: اللزوم؛ لأن من أحب شيئًا أَلْزَم ذكرَه قلبَه؛ فمحبة الله تعالى لزومٌ لذكره»(٢).

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة حبّ الله دوام ذكره؛ لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئًا أكثر ذكره»(٣).

فهم «إن نطقوا فبذكره، وإن تَحَرَّكُوا فبأمره، وإن فرحوا فَلِقُرْبِهِ، وإن ترحوا فلعتبه؛ وقيل:

وَاللَّهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ ... إِلَّا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ ... إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي»(٤)

وقد قال بعضهم: «المُحبّ لله تعالى طائر القلب، كثير الذكر، مُتَسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل»(٥).

وقد قيل: «إن المحبِّينَ للأحباب خدَّام»(٦)، فإذا سئِم البطَّالون من بطالتهم، فلا يسأم المحبّون من مناجاتهم وذكرهم.

وقال آخر: «مِنَ المُحَال أن تعرفه ثم لا تحبّه ـ أي: معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته ـ ومن المحال أن تُحِبَّه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يُوجِدُ لك طَعْم ذِكْرِه، ومن المحال أن يُوجِدُك طَعْم ذِكْرِه ثم لا يُشْغِلُك به عما سواه»(٧).

وهناك أمور أخرى تدل على صِدْق هذه المحبة؛ كمحبة لقاء الله تبارك وتعالى، وأن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنْتَهِكُون، ولحُقُوقِه إذا تَهَاوَن بها المُتَهَاوِنون، وأن يُحِبّ كلامه، وأن يَتَأَسّف على ما فاته مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وذِكْره، وأن يتقالّ ما يبذله في سبيل الله وفي طلب مرضاته، فهو لا ينظر إلى عمله إلا بعين الازدراء.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١). (٢) «شعب الإيمان» (٢/ ٢٣٨).
(٣) المصدر السابق (٤٩٩).
(٤) ما بين الأقواس من كتاب «المدهش» لابن الجوزي (ص٢٢٣ ـ ٢٢٤)؛ بتصرف.
(٥) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٣٢٧). (٦) المصدر السابق (٣/ ٣٢٦).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٢).

الطريق إلى تحقيق المحبة لله ﷻ

أولًا: طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله الكريم ﷺ:

وقد عَرَفْنا أن المحبَّة هي حقيقة العبودية، وإنما يتحقق ذلك باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ «ولهذا جعل الله تعالى اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعَاها، فجعل ذلك شرطًا لهذه المحَبَّة، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، فلا يتحقق إلَّا به»[(١)].

ومعلوم في اعتقاد أهل السُّنَّة أن الإيمان يزيد وينقص؛ «يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فكُلَّما فَعَل العبد الطاعة محبَّة لله وخوفًا منه، وترك المعصية حبًّا له وخوفًا منه؛ قوي حُبّه له، وخَوْفه منه، فيُزِيل ما في القلب مِنْ مَحَبَّة غيره، ومخافة غيره، وهكذا أمراض الأبدان؛ فَإِنَّ الصِّحَّة تحفظ بالمِثْل، والمرض يُدْفَعُ بالضِّدِّ، فصِحَّةُ القلب بالإيمان تُحْفَظ بالمِثْل، وهو ما يُورِث القلب إيمانًا من العلم النافع والعَمَل الصالح، فتلك أغذية له»[(٢)].

ثانيًا: تفريغ القلب من الاشتغال بغيره:

لأن هذا القلب وعاء، فإذا مُلِئَ بالِاشْتِغَالِ بغيره، وانصرف إليه لم يبق به محلّ للاشتغال بالله ﷻ، والإقبال عليه، ومحبَّته.

وقد قال بعضهم: «لا يُطمَع في لِين القلب مع فضول الكلام، ولا يُطمَع في حبّ الله مع حب المال والشَّرَف، ولا يُطمَع في الأُنْس بالله مع الأُنْس بالمخلوقين»[(٣)].

وقال آخر: «سرورك بالدنيا أذْهَب سرورك بالله عن قلبك»[(٤)].

وسُئِلَ بعضهم: «بِمَ نَالَ أهل المحبةِ المحبةَ من الله ﷻ؟ قال: بالعفاف، وأَخْذ الكَفَاف»[(٥)]؛ أي: أنهم لم يتهافتوا على الدنيا، وذلك بأَخْذِ الكَفَاف منها، ولم تَتَوَجَّه قلوبهم إلى المخلوقين ليعطوهم ويمنحوهم، فكان ذلك هو العفاف.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٩٩) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٦).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٥). (٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧١).

ثالثًا: مجاهدة النَّفْس؛ بإيثار محابِّه على محابِّك عند غلبة الهوى:

وعلامة هذا الإيثار شيئان:

الأول: فِعْل ما يُحِبّه الله، ولو كانت نَفْسك تكْرَهه.

والثاني: ترك ما يكرهه، ولو كانت نَفْسك تحبّه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ما ابْتَلَى الله سبحانه عَبْدَهُ المؤمن بِمَحَبَّةِ الشهوات والمعاصي، ومَيْلِ نفْسِه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبَّةِ ما هو أفضل منها، وخير له وأنفع وأدْوَم، وليجاهد نَفْسه على تَرْكِهَا له سبحانه، فتُورِثه تلك المجاهدة الوصولَ إلى المحبوب الأعلى، فكُلَّما نازعته نَفْسه إلى تلك الشهوات، واشتدَّتْ إرادته لها، وشوقه إليها؛ صَرَف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النَّوْع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد، وحرصه عليه أتم»[1]. اهـ.

رابعًا: التذلّل له، وإظهار المَسْكَنة والانكسار بين يديه، وإظهار الافتقار له سبحانه:

وذلك «أنَّ المُحِبَّ ذَلِيل بالذَّاتِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِهِ يَكُونُ ذُلّه؛ فَالمَحبة قد أُسِّست على الذِّلة للمحبوب»[2]، فـ«لا ينال رضا المحبوب، وقُرْبه، والابتهاج والفرح بالدُّنُو منه، والزُّلْفَى لديه؛ إلا على جِسْر مِن الذِّلّة والمَسْكَنة، وعلى هذا قام أَمْرُ المَحَبَّةِ، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إِلَّا بِذَلِكَ»[3].

خامسًا: الحبّ في الله والبغض في الله:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»[4].

وقد سُئِلَ بَعْضُهم: «بماذا ينال العبد المحَبَّةَ؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه»[5].

---

(١) «الفوائد» (ص١٦٠ ـ ١٦١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٧) بتصرُّف يسير.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٥) أخرجه السلمي في «طبقاته» (ص٣٥١).

والله يقول ـ كما في الحديث القدسي الصحيح ـ: **«حقَّت مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ»**(١).

سادسًا: دوام ذِكْرِهِ بالْقَلْبِ واللسان، والجَوَارِحِ والحال:

«فالمَحَبَّة تتشعب شُعَبها من دوام ذِكْر إحسان الله ﷻ، فَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ على الدوام، وتذكَّر إحسانه إليه تَنَسَّم ريح المحبة عن قربه»(٢)، وهكذا قراءة القرآن، والنظر في المصحف، والتدبر لمعاني كتاب الله، وقد رُوِي عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي المُصْحَفِ»**(٣)، «فالذِّكْر بجميع أنواعه هو باب المَحَبَّةِ وشَارعها الأعظم، وصراطها الأقْوَم»(٤)، ونَصِيب العبد مِنَ المَحَبَّة على قدر نصيبه من الذِّكر.

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ سؤالًا: وهو أن العبد أحيانًا قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شَيْء يُحَرِّك القُلُوبَ؟ فأجاب ﵀ بقوله: «قلنا: **يحركها شيئان:**

أحدهما: كَثْرة الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ؛ لأنَّ كثرة ذِكْره تُعَلِّق القلوب به...

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه... فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يُثِيرَ ذلك عنده باعثًا»(٥).اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٢٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٧)، والحاكم (٤/١٦٩ ـ ١٧٠)، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

(٢) «شعب الإيمان» (٤٦٤) بتصرُّف.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٠٩) وقال: «غريب»، وابن عدي في «الكامل» (٢/٤٩٩) وقال: «منكر»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٨٩٠) وقال: «منكر»، وقال الذهبي في «الميزان» (٢/٢١٤): «باطل، وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي ﷺ»، وأعله ابن حجر في «لسان الميزان» (٣/١١)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (١١٢٣٥)، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٢)، وقول المتقدمين أولى بالصواب، والله أعلم.

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (٩٤ ـ ٩٥) بتصرُّف.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥ ـ ٩٦) بتصرُّف.

سابعًا: مطالعة آلائه، وبرِّه، وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة:

فالعَبْد إذا تأمل أن المُنْعِم بالذات هو الله، وأنه لا مانح ولا مانع سواه، وأن ما عداه وسائط؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكُلِّيَّته نحوه، فلا يُحبّ أحدًا سوى الله تبارك وتعالى محبة تُزَاحِم محبَّته في قلبه، وإنما يُحب من أجله ويكره ما يبعده عنه؛ ولهذا كان حب النبي ﷺ مِنْ حُبِّ الله، ومِنْ هُنَا أيضًا كان حُبّ الأنصار آية على الإيمان، وكذا حُبّ الصالحين، فالحُبّ فِي اللهِ مِن ثمرات حب الله.

والعبد إذا تَأَمَّلَ القُلُوبَ وجدها مجبولة على محبّة مَنْ أحْسَن إليها، وإذا تأمّل من حال نَفْسه وجد كل فضل ونعمة من إحسان الله إليه، فجِبلّته وفِطْرَته تقتضى محبّة الله، وتقديمها على محبة كل مَنْ سواه.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ؟»**(٢).

وقال تعالى ـ كَمَا في الحديث القدسي ـ: **«يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسَّنه، وكذا حسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٧)، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٨٧).

وروي من حديث أبي ذر ﷺ، وأصْلُهُ في مسلم (٢٦٨٧)، وقد أخرجه أحمد (٥/١٠٨، ١٥٤)، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٦)، والحاكم (٤/٢٤١)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

وروي أيضًا من حديث ابن عباس ﷺ، رواه الطبراني (١٢/١٦/١١٣٤٦). راجع: «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، و«الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥) واللفظ له، ومسلم (٧٥٨).

ضرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي...» الحديث[(١)].

فإذا تأمَّل العَبْدُ في هذه المعاني انجذب قلبه لله ﷻ بكلِّيَّتِهِ، والله يقول للمسرفين المذنبين الذين اجترحوا السيئات: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**[(٢)].

ومِنْ رَحْمَتِهِ بعبده المؤمن حمايتُهُ له من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحمونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ»**[(٣)].

وفي حديث آخر: **«إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا»**[(٤)].

فتأمَّل كَثْرة إفضاله وإنعامه على عبده، وقد قصَّ الله علينا في القرآن شيْئًا كَثِيرًا من ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٥ - ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٤

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ﷺ، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٦٩٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤)، وصحَّحه الحاكم من حديث أبي سعيد ﷺ (٤/ ٢٣١)، والذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (١/ ٤٩٧) من حديث أنس ﷺ، وقال: «صحيح الإسناد». قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣١٦): «وفي ذلك نظر»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦٨)، وفي الباب عن سلمان وجابر ﷺ.

ـ ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ۝ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧]، فالله ﷻ قد أخبرَنا عن نِعَم كَثِيرة ظاهرة وباطنة يفيضها علينا، فإذَا تَأَمَّلها العبد كان ذلك من دواعي محبَّتِهِ لربه، وإقبَالِ القُلُوبِ عَلَيْهِ، فالله هو الذي ابتدأنا برحمته من قبل أن نكون شيئًا مذكورًا، وخَلَقَنا من تراب، ثم أسكننا الأصلاب، ونقلنا إلى الأرحام، ثُمَّ أخرَجَنا إلَى هَذِهِ الدّنيا أسوياء، وحَفِظنا في المَهْد أطفالًا، ورزقنا من الغذاء لبنًا، وكَفَلَنا في حجور الأمهات، وأوْدَع في قلوبهنَّ شفقة ورحمة، وربَّانَا بأحسن التَّدْبِيرِ، وصَانَنَا من كل ما يشِيُننا، ومن كل نقص يَعِيبنا؛ فتبارك وتعالى ما أرحمه، وما ألْطَفَهُ، ومَا أكْرَمَه!!

«يا مختار الكون وما يعرف قَدْر نَفْسه، أما أسجد الملائكة بالأمس لك، وجعلهم اليوم في خدمتك، لمَّا تكبَّر عليكم إبليس، وقد عَبَدَ ربه سنين؛ طَرَدَه، أفتُصَافِيه على خِلافه، وهو القائل قبل وجود أبيك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]»[١].

يا أخي! اعرف قَدْر لُطْفِهِ بِكَ، وحفظهِ لَكَ، إنما نهاك عن المعاصي صيانة لك.

«اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشُكْرك لمن تعنيك نِعَمُه، وطاعتك لمن لا ترجو خيرًا إلا منه... وارفع إليه يد الذُّل في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر»[٢].

عليك بحب «من إذا أطعته أفادك، وإن أتيته شاكرًا زادك، وإن عبدته أصْلَحَ قلبك وفؤادك»[٣].

والمقصود: أن الله ﷻ أهلٌ لأن يُحَبّ لسببين:

أولهما: نعماؤُهُ الباطنةُ والظاهرة التي لا تنقطع بمعاصي خلقه.

الثاني: أن له جَمالَ الذات، وجَمالَ الصفات، وجمال الأفعال.. له نعوتُ الجلال، وصفاتُ الكمال؛ أي: أنه أهلٌ لأنْ يُحَبّ بذاته.

ثامنًا: أن يعرفه، وأن يُطَالِعَ القَلْب أسماءَهُ وصِفَاته، ويَتَقَلَّب فِي رِيَاضِ هذه المعرفة؛ فـ«المعرفة تُثْمِرُ المَحبَّة»[٤]:

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إن أرض القلب إذا بُذِرَ فِيها خواطر الإيمان، والخشية،

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٢١٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٩٤).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «التبصرة» (ص٦٢).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨).

والمحبَّة، والإنابة، والتصديق بالوعد، ورجاء الثَّواب، وسُقيَت مرَّةً بعد مرَّة، وتعاهدها صاحبُها بحفظها، ومراعاتها، والقيام عَلَيْهَا أثمرت له كل فعل جميل، ومَلَأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات»[١]. اهـ.

وقد قال بعضهم: «مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَطَاعَهُ»[٢].

فمعرفة الأسماء والصفات، ودوام مطالعتها، وتقلّب الفكر في معانيها وآثارها هي العِرْفَان والعِلْم الإيماني، كما أنها من السماع القرآني؛ إذ لا تكاد آية تخلو من ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله ﷻ، «وكُل اسم وصفة من صفاته تستدعي محَبَّة خاصة»[٣]، وكُلَّمَا زَادَت مَعْرِفَة العبد بالأسماء والصفات، و«أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها؛ ازدادت محبَّتُهُ للموصوف بها»[٤].

فإذا تأمَّل العبد هذه الأسماء، وما تدلّ عليه من الصفات بالتطابق والتضمّن والالتزام؛ عَرَفَ رَبَّه حق المعرفة، فأحبَّه حبًّا لا يماثله حُبّ، وانْقَادَت جوارحه بالطاعة والتذلل، وبذلك يكون عبدًا لله حقًّا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «لا ريب أن كمال العبودية تابعٌ لِكَمَالِ المَحَبَّة، وكَمَال المحبة تابع لكمال المحْبُوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التَّامّ من كل وجه، الذي لا يعتريه تَوَهّم نَقْص أصلًا، ومَنْ هذا شَأْنُه، فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه»[٥]. اهـ.

ومعرفة أسمائه تبارك وتعالى وصفاته تتضمَّن جميع دواعي المحبَّة لَهُ سُبْحانه، **والتي يمكن أن نلخّص أسبابها في الأمور الآتية:**

١ ـ أنَّ داعي الكَمَالِ والجلال موجود ومتحقق بهذه الأسماء والصفات، فالرَّبُّ ﷻ له الكمال، بل كلّ ما فُطِرَت القلوب على محبَّتِه من نعوت الكمال فالله هو المُسْتَحقّ له على أكمل الوجوه وأتمها، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه ﷻ، فهو المُسْتَحق لأن يُحَبّ على الحقيقة؛ لأن كماله ﷻ من لوازم ذاته[٦].

٢ ـ دواعي الإحسان والإنعام، فالقلوب جُبِلَتْ عَلى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وبُغْضِ

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٦).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٩١) بتصرُّف.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٧).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٠٦).
(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٧٤).

مَنْ أسَاء إليها، والله أعظم محسن، وقد سبق الكلام على هذا المعنى؛ فالله تبارك وتعالى بهذا الاعتبار مُسْتَحِقٌّ لِلْمَحَبَّةِ الكَامِلَة[١].

٣ ـ داعي الجمال: «والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمالُ كلهُ له، والجمال كله منه، فلا يَسْتَحِقّ أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه سواه»[٢].

والعباد يتفاوتون في محبّتهم له ﷻ بحسب تفاوتهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حبًّا له؛ ولهذا كانت رسله ﷺ أعظم الناس حبًّا له، وكان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام أعْظَم حُبًّا لله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان المُنْكِرون لأسمائه وصفاته مِنْ أجهل الخلق به، وهم في الحقيقة مُنْكرون لمحبَّتِه[٣].

بل إنَّ «مَنْ صَحَّتْ له معرفة ربّه، والفقه في أسمائه وصفاته، عَلِم يقينًا أَنَّ المكروهات التي تُصِيبه، والمِحَن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها عِلْمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»[٤]؛ ولهذا يكون دائمًا شاكرًا راضيًا مهما تقَلَّبَتْ بِهِ الأيام، ومهما اختلفت عليه الأحوال؛ إذ لا يأتي من الحبيب إلا الخير.

تاسعًا: مجالسة المحبين الصَّادِقِين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم والانتفاع بها:

عاشرًا: المباعدة عن كل سبب يَحُول بين القلب وبين الله ﷻ:

وقد قيل لذي النون: متى يأنس العبد بربِّه؟ قال: «إذا خافه أَنِسَ بِهِ، أما علمتم أنه مَنْ وَاصَلَ الذنوب نُحِّيَ عَنْ باب المحبوب؟!»[٥].

قد يُقَال: بأن المحبة لا يد للإنسان فيها؛ لأنه لا يملك قلبه، فكيف يُطَالَب بما لا يملك؟

والجواب: أن يُقَال بأن خطاب الشارع إذا تَوَجَّه إلى المُكَلَّف في أمر لا يدخل تحته قدرته؛ فإنه يتوجه إما إلى سببه، أو إلى أثره.

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٨٥).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٥٣٣).

(٣) انظر: «الفتاوى» (١٠/ ٢٠٣ وما بعدها)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٦٩٢).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٣٣).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٣).

وفي هذا الموضع فإن الخطاب يَتَوجَّه إلى السبب؛ فإذا نظر العبد في مُوجِبَات المحبة والأسباب الجالبة لها؛ امتلأ قلبه بمحبة الله ﷻ ولا بد.

وقد قال عمر ﷺ للنبي ﷺ: إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال النبي ﷺ: **«لَا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»**. قال: الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«الآنَ يَا عُمَرُ»**[1]. فقد ازدادت محبة عمر للنبي ﷺ، وأقرَّه النبي ﷺ على أن الحب قد يَتَغَيَّر.

وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام ﷺ.

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١).

ثمرات المحبة وآثارها السلوكية

أوَّلًا: أنها تبلِّغنا الدرجات العلى عند الله تبارك وتعالى:

كما جاء في حديث أنس ﷺ: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحِبّ الله ورسوله، قال: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(١).

وقد عرفنا أنه لا بد من العمل والاتّباع مع ذلك، فلا تكفي دعوى المحبّة.

ثانيًا: أنها تَقُودُ إِلَى طَاعَةِ اللهِ ﷻ:

وذلك أن القلب يكون مأسورًا لمن أحبّ، فلا يجد بُدًّا من طاعته والانقياد إليه؛ لأن «المحبة التامة هي مَيْلُ القلب بكلِّيَّتِهِ إلى المحبوب، فيكون ذلك حاملًا على الطاعة والتعظيم، وكلَّما كان الميل أقْوَى كَانَتْ الطاعة أتمّ، والتعظيم أوْفَر»(٢).

فـ«الحبّ يُحَرِّك إرادة القلب، فكُلَّمَا قَوِيت المحَبَّة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبَّة تامَّة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصَّلَها، وإنْ كَان عاجزًا عنها، ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل»(٣).

وقد قال بعضهم: «لو لم يكن لله ثَوَابٌ يُرْجَى ولَا عِقَاب يُخْشَى؛ لكان أهلًا أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، ويُذْكَر فلا يُنْسَى، . . . أمَا تسمع موسى ﷺ يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٤]»(٤).

وقد تقدَّمَ أنَّ المحَبَّةَ الصحيحة هي التي تكون مع الخوف والرجاء، وأن العبد ينبغي أن يكون جامعًا بين المحبَّة والخوف والتعظيم والرَّجاء مع العمل الصالح.

وقال العز ابن عبد السلام ﷺ: «محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبد معاملة المُحِبّ لحبيبه في المبادرة لطاعته، والمسارعة إلى كل ما يُرْضِيه، واجتناب كل ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٦) بتصرُّف.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٢).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣١٤).

يسخطه، والتَّحَرُّز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه»[١] .اهـ.

وبهذا يكون العبد مُتَصَبِّرًا عن معصية الله ﷻ، ومخالفة أمره، ومقارفة حدوده وانتهاكها؛ وذلك لأن «المُحِبَّ لمن يحبُّ مُطِيع، وكُلَّما قَوِي سلطان المحبَّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى، وإنما تَصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفَرْق بين مَنْ يحمله على ترك معصية سيِّدِه خوفُه مِنْ سَوْطِهِ وعقوبته، وبَيْنَ مَنْ يحمله على ذلك حبُّه لِسَيِّدِهِ. . . فالمحب الصَّادِق عليه رقيب من محبوبِهِ يَرْعَى قَلْبَه وجوارحه، وعلامةُ صِدْق المحبة شهودُ هذا الرقيب ودوامُه.

وها هنا لطيفة يجب التنبّه لها؛ وهي أن المحبةَ المجرَّدَةَ لا تُوجِبُ هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجْلال والتعظيم أوجبت هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما تُوجِبُ نوعَ أُنْسٍ وانبساط وتَذَكُّرٍ واشْتِيَاق؛ ولهذا يتخلف عنها أثَرُهَا وموجَبُهَا، ويُفَتِّشُ العَبْدُ قلبَهُ فيَرَى فيه نوعَ محبَّة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرُّدها عن الإجلال والتعظيم، فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ؛ كالمحبة المقترنة بإجْلال الله وتعظيمِه، وتلك مِنْ أفْضَل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٢] .

بل إنه يتلذذ بهذه الطاعة، والعمل بما يقرّبه إلى الله ﷻ، وهذه اللذة تزيد بحسب ما في القلب من المحبة، فلْيَزِن العبد إيمانه ومحبَّته لله بهذا الميزان، ولا شك أن العبادة التي يقوم بها العبد بدافع المحبَّة؛ فيها قوة، ونشاط، وهمّة، وإقبال نفس، وانشراح صدر، لا كحال المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يُرَاؤون الناس، فيكون العبد في حال لا يمكن أن يَمَلّ معها طاعة ربه[٣] .

كما قال بعضهم: «ما كاد يَمَل القربة إلى الله تعالى مُحِبّ لله ﷻ، وما كاد يسأم من ذلك»[٤] .

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«قيل لعامر بن عبد قيس: أَمَا تَسْهو في صلاتك؟ قال: «أوَحَدِيث أحبّ إلي مِنَ القُرْآن حتى أشتغل به؟!»**.

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع لها أهل السوق، فما التفت[٥] . وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» (ص٤٥ ـ ٤٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٩٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٩٧).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٣٥).

(٥) تقدم تخريجه.

تكلَّموا، وضحكوا؛ علمًا منهم أن قلبه مشغول[١]، وكان يقول في مناجاته: إلٰهي! متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟[٢]»[٣]. اهـ.

وكان **الفضيل** يقول: «إذا رأيتُ اللَّيْلَ مُقْبِلًا فَرِحْتُ بِهِ، وقلتُ: أَخْلُو بِرَبِّي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرْجَعْتُ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني مَنْ يشغلني عن ربي»[٤].

وبهذا نعلم أن المحبة الصادقة ترفع العبد المُحِبّ الصادق ليكون موافقًا لربه في محابِّه، فيحب ما يحبّ الله ﷻ، ويبغض ما يبغضه الله تبارك وتَعَالَى، ولو كان ذلك يخالف ويتنافى مع ما طُبِعَ عَلَيْهِ العَبْد؛ فإن هذه الكراهة لا تنافي محبَّته لها، كما يكره طبعه الدواء الكريه، وهو يحبه مِنْ وَجْهٍ آخر[٥].

وأخيرًا: «يا هذا! عندك بضائع نَفِيْسة: دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونَظَرات، فلا تبذلها فيما لا قَدْرَ له.

أيصلح أن تَبْكِي لفَقْدِ ما لا يَبْقَى، أو تَتَنَفَّس أَسَفًا على ما يَفْنَى، أو تَبذل مهْجَةً لصورة عن قليل تُمْحَى؟!... ويْحَك! دمعةٌ فيك تُطْفِئُ غضب ربك، وقطرةٌ من دم في الشهادة تمحو زَلَلَكَ، ونَفَس أَسَفٍ يَنْسِفُ ما سَلَف، وخطواتٌ في مرضاته تغسل الخطيئات، وتسبيحةٌ تغرس لك أشجار الخُلْد، ونَظْرَة بِعَبْرَةٍ تُثْمِرُ الزُّهْدَ في الفاني»[٦].

والخلاصة: أنه «إذا غُرِسَتْ شَجَرَةُ المَحَبَّةِ في القَلْبِ، وسُقِيَتْ بِمَاء المَعْرِفَة والإخلاص، وصُدِّقَتْ بِمُتَابَعَةِ الحَبِيب؛ أَثْمَرَتْ أَنْوَاع العبادات، وآتَتْ أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها»[٧].

ثالثًا: أنَّ ذَلِكَ يُسَهِّل عليه الأُمور الشاقَّة:

فـ«المحبة كلما تمكَّنَتْ في القلب، ورسخت فيه كان أذى المحبّ في رضا محبوبِهِ مستحلًى غير مسخوط، والمحبّون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم[٨]:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ١٣٧).

(٣) «المدهش» (ص٤٧٢).

(٤) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٢٢٧)، وعزاه الزبيدي في «شرح الإحياء» (٦/ ٣٤٣) إلى «الحلية»، ولم أجِدْه.

(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٣).

(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٤٩٥) بتصرف يسير.

(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٩) بتصرُّف.

(٨) وهو: ابن الدُّمَينة. «محاضرات الأدباء» (٢/ ١٣٤).

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟!»[١].

قال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد يُفهَم من هذا أنَّ مَنْ أحَبَّ اللهَ تَعَالَى لم يَعُدَّ المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه، ولم يستثقل وظائف عبادته، وتكاليفه المكتوبة عليه، كما أن من أَحبّ أحدًا مِنْ جِنْسِهِ لم يكد يُبْصِر منه إلا ما يستحسنه، ويزيده إعجابًا به، ولا يصدق من خبر المخبرين عنه إلا ما يتخذه سببًا للولوع والغلو في محبته»[٢].

وإذا حقَّقَ العبد ذلك، فإنه بهذا الاعتبار يرضى بأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حُلْوها ومرّها، «فإن المحب يتسلَّى بمحبوبه عن كلّ مصيبة يُصَاب بها دونه؛ لأنه يرى محبوبه عِوَضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عِوَضًا منه، فكل مصيبة عنده هيِّنة إذا أبقَت عليه محبوبه»[٣].

لقد بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التعذيب عُذُوبة؛ لعلمهم أنه مراد الحبيب. . .

فهذا سويد بن مَثْعَبَة، ضنى على فراشه فكان يقول: «والله، ما أحب أن الله نقصني منه قلامة ظُفر»[٤].

تَعَجَّبُوا مِنْ تَمَنِّي الْقَلْبِ مُؤْلِمَهُ وَمَا دَرَوْا أَنَّهُ خَلْقٌ مِنَ الْأَلَمِ[٥]

وأمر الحَجَّاج بِصَلْب أحد العُبَّاد وهو يُسَبِّح ويُهَلِّل، ويعقد بِيَدِهِ حَتَّى بلغ تسعًا وعشرين، فبقي شهرًا بعد موته ويده على ذلك العقد مَضْمُومة.

لَتُحْشَرَنَّ عِظَامِي بَعْدَمَا بَلِيتُ يَوْمَ الحِسَابِ وَفِيهَا حُبُّكُمْ عَلَقُ[٦][٧]

وقد قال عامر بن عبد الله: «أحبَبْت الله عَزَّ وَجَلَّ حبًّا سهَّل عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني في كل قضية، فما أبالي مع حبي إيَّاهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيتُ»[٨].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢١) بتصرُّف.
(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ١٩٦).
(٣) «طريق الهجرتين» (ص٤٩٥) باختصار وتصرف يسير.
(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٨٠)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٥٩)، وابن أبي الدنيا في «الرضا» (٧٨)، وفي «المرض والكفارات» (١٩٧).
(٥) البيت ضمن قصيدة للشريف الرضي. «نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار» (ص١٣٦).
(٦) «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٦٥).
(٧) ما بين الأقواس من كتاب «المدهش» (ص٢٨٣) بتصرُّف يسير.
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٢٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٨٩) واللفظ له.

رابعًا: أنها تورث الشَّوْق إلى لِقَاءِ الله ﷻ:

والفَرَحُ بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوَّة المحبة وضعفها؛ كما ذكر ابن القيم في كتابه «الروح»(١).

وقد قال بعضهم: «الشوق هو المحبَّة، مَنْ أَحَبَّ اللهَ اشتاق إلى لقائه»(٢).

وقال آخر: «بِقَدْرِ مَا يَصِلِ إلى قلب العبد من السرور بالله يشتاق إليه، وَعَلَى قدر شوقه يخاف من بُعْدِه وطَرْدِهِ»(٣).

خامسًا: أنها صلاح ما بينه وبين الخلق:

كما قال بعضهم: «ما أَقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلا أَقْبَلَ اللهُ بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»(٤).

وقال آخر: «لا يُحْسِن عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلَّا أَحْسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، ولا يُعوِّر فيما بينه وبين الله تعالى إلا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولمُصَانَعَة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلّها»(٥).

سادسًا: أنها تُورِث نعيم القلب وسرور النفس:

فـ«كلَّمَا كانت المَحَبَّة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى»(٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يُنَاسِب هذه المحبَّة؛ ولهذا عَلَّق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبَّةِ؛ فقال: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**(٧)»(٨). اهـ.

واعلم أن «في القلب شَعَثًا لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا

---

(١) «الروح» (٢/ ٧٣٢).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).
(٣) ذكره البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٢) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٧).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٣١ ـ ٩٣٢).
(٧) أخرجه البخاري (١٦) واللفظ له، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٨) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٠).

الأُنْس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلَّا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكِنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حَسَرَات لا يُطْفِئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يُسَيِّرها إلا محبته، ودوام ذكره، والإخلاص له، ولو أعْطي الدنيا وما فيها لم تُسَدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[(١)].

وكان يحيى بن معاذ يقول: «هذا سروري بك خائفًا، فكيف سروري بك آمنًا؟! هذا سروري بك في المجالس، فكيف سروري بك في تلك المجالس؟! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف يكون سروري بك في دار البقاء؟!»[(٢)].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «أحلى العطايا في قلبي رَجَاؤُك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك»[(٣)].

قال إبراهيم بن أدهم: «لو علم الناس لذَّة حبِّ الله لقَلَّتْ مطاعمهم ومشاربهم وحرصهم»[(٤)].

سابعًا: تحقيق الحب في الله والبغض في الله:

فيوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه، فإن أصل الموالاة المحبَّة، كما أن أصل المعاداة البُغْض، والمحب مِنْ حُبِّه لحبيبه يحب كلّ مَنْ يحبّه، ويواليهم، وينصرهم، كما يبغض أعداءه، ويتبرأ منهم[(٥)].

فلا يجتمع في قلب العبد محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبة أعدائه من الكفار.

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٤) بتصرُّف يسير.
(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٩٧).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧).
(٤) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٨١).
(٥) انظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٣٨٤).

من أخبار أهل المحبة

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في مرضه الذي مات فيه: «ارْحَمْنِي بحبي إياك، فليس شيء أَحَبَّ إِلَيَّ منك»(١).

وكان يقول: «كفَى بالله مُحبًا، وبالقرآن مُؤنسًا، وبالموت واعظًا، وكفَى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»(٢).

ويقول آخر: «إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيّب»(٣).

وقد قَدَّمْنَا بعض عبارات السلف رضي الله عنهم التي تدل على حالهم في هذه المرْتَبة.

وبالجملة؛ فلا بد من التربية الإيمانية للقلب، فهي التي تحمله على حُسْنِ التوجه لبارئه وخالقه سبحانه، وهي التي تصحّح له هذه المعاملة.

هذا آخر ما أردت ذكره في موضوع المحبة، والله أعلم

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٤٩).
(٣) «الوابل الصيب» (ص١١١)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٧) و(٢/ ٩٣٢).

تاسعًا

الرجاء

توطئة

الرجاء: عبادة قلبية جليلة، تَبْعَث على العمل والجِدّ والبَذْل، مع حُسْن الظن بالرب تبارك وتعالى، إلا أنها لا تَتِمّ إلا مع ما يُقَابِلها من الخوف والخشية من الله ﷻ؛ ليكون العبد على حال من القَصْد والاعتدال في سَيْرِه إلى ربه ومولاه، دون أن يَغْلِب عليه الرجاء فيَطُول أمَلُه، ويَسُوء عَمَلُه، أو يَطْغَى عليه الخوف فيَقْنَط وييأس من رَوْح الله.

❁ ❁ ❁

معنى الرجاء وحقيقته

الرجاء في اللغة: مأخوذ من مادة (رَجَوَ) التي تدل على الأمَل، الذي هو نقيض اليأس، ويقال: رجوتُ فلانًا رجوًا ورجاء.

قال بِشْر[1] يخاطب بنته:

فَرَجِّي الخَيْرَ وَانْتَظِري إِيَابي إِذَا مَا القَارِظُ العَنَزِي آبَا

وتقول: ما لي في فلان رَجِيَّة؛ أي: ما أرجو، ويقال: ما أتيتك إلا رَجَاوَة الخير[2].

وقد جاء الرجاء بمعنى: الطَّمَع في كتاب الله تبارك وتعالى، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]؛ أي: يَطْمَعون فيها.

وذكر أهل الإيمان بما يميزهم عن عدوهم، حيث قوَّى عَزَائِمَهُم فقال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ترجون من الله دار الكرامة والمغفرة والرحمة.

وقال عن خاصة أوليائه الذين يدعوهم هؤلاء الكفار، ويعبدونهم من دون الله ﷻ؛ كالملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ أي: أنهم يطمعون برحمة الله ﷻ، وهذا الطَّمع هو توقُّع الثواب، وليس ذلك من المعاني الزائدة على الطَّمَع، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾ [فاطر: ٢٩]، والمعنى: يرجون ثواب الله ﷻ.

ويأتي الرَّجاء بمعنى الخوف أحيانًا، كما فُسِّر به قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون الله ﷻ، وهذا بمعنى تَوَقُّع العذاب[3].

---

(١) هو: بشر بن أبي خازم كما في «ديوانه» (ص٧٤).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١١/ ١٨١ ـ ١٨٢)، مادة: (رجا)، و«لسان العرب» (٢٠/ ٢٣)، مادة: (رجا)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٢٠/ ٢٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تخافون عظمة الله، قال أبو ذُؤَيب[١]:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ

أي: لم يَخَفْ ولم يُبَالِ»[٢]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [يونس: ٧]، قال: «يرجون: يخافون... وقيل: يرجون: يطمعون... فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطَّمع؛ أي: لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا... وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْدِ؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دَلَّ عليه المعنى»[٣]. اهـ.

كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ: ٢٧]؛ أي: لا يخافون حسابًا، أو لا يتوقَّعُون العذاب.

والمقصود: أنَّ الرَّجَاءَ في كلام العرب يأتي بمعنى الطَّمع، ويأتي بمعنى الخوف.

وأما ما يذكره كثير من أهل العلم من معان متفرِّقَة، فإنما ترجع إلى ما ذكرته، وتدور عليه، فليست بخارجة عنه، والله تعالى أعلم.

وسيأتي مزيد إيضاح لعلاقة الرجاء بالخوف عند الكلام على الرجاء الصحيح الذي يُطْلَب من العبد تحصيله.

وأما الرجاء في معناه الشرعي: فيمكن أن يقال: هو تَأَمُّل الخير وقُرْب وقوعه.

وقيل: «تعلُّق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[٤].

وكلاهما بمعنى متقارب.

وقيل: «النظر إلى سعة رحمة الله»[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) كما في «شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٤٤).
(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧).
(٤) «التعريفات» للجرجاني (ص١١٤).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).

الفرق بين الرجاء والتمني

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفرق بينه ـ يعني: الترجي ـ وبين التمني: أن الترجي لا يكون إلا في المُمْكِنات، والتمني يدخل المستحيلات»[١]. اهـ.

وعرَّف الراغب التمني بأنه: «تقدير شيء في النَّفْس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تَخْمِينٍ وظَنّ، ويكون عن رَوِيَّة وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أَمْلك، فأكثر التمنِّي تصوُّر ما لا حَقِيقَةَ لَهُ»[٢].

وعليه فالرجاء: «هو تَرَقُّب حصول ما تَقَدَّمَ لَهُ سبب»[٣].

وقيل: «هو الظن بوقوع الخير الذي يعتري صاحبه الشك فيه، إلا أن ظنه فيه أغلب، وليس هو من قبيل العلم، وهو الأمل في الخير»[٤]؛ لأنَّ ارْتِيَاحَ القَلْبِ لانتظار ما هو محبوب عنده لا بد أن يكون له سبب؛ لأن انتظاره مع تضييع أسبابه غرور.

وهذه التسمية أصدق عليه، وأولى به من إطلاق الرجاء عليه، فمن كان صاحب طلب، ويتطلع إلى حصوله، وقد ضيع أسبابه، وفَرَّط فيها، وجعلها وراء ظهره، فهو مغرور.

وكذلك أيضًا إن لم يكن له أسباب معْلُومة الوجود، ولا معلومة الانْتِفَاء، فإنَّهُ أقرب إلى التمنِّي منه إلى الرجاء؛ وذلك أن التمني قد يكون للأمر المحال، أو الذي يبعد وقوعه، بخلاف الرجاء. قال الشاعر[٥]:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

والشباب لا يمكن أن يرجع ثانية، فإذا تطلَّعَتِ النفس، ورَجَت حدوث ما هو بعيد المَنَال، فإن ذلك يكون من قبيل التمنِّي، وأما إذا تطلَّعَت النَّفْس إلى أمر يمكن حصوله مع بَذْلِ أَسْبَابِهِ، فإن ذلك هو الرَّجَاء.

وبالجملة؛ فالرَّجَاء يكون مع بذل الأسباب، والسعي باستغراق الوسْع والطاقة

---

(١) «البرهان» (٢/ ٣٢٣).
(٢) «مفردات غريب القرآن» (ص١٩٠ ـ ١٩١).
(٣) انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف» (١/ ٣٥٦).
(٤) «الفروق في اللغة» (ص٢٤٨) باختصار وتصرُّف يسير.
(٥) هو: أبو العتاهية. «محاضرات الأدباء» (٢/ ٣٥٧).

لتحصيل المراد؛ وذلك أن الأسباب إذا كانت على استقامة استقامت مُسَبَّباتها.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عادة الله في المُسَبَّبات أن تكون على وِزَان الأسباب في الاستقامة، والاعوجاج، والاعتدال، والانحراف»[١]. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد، واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظَّفَر والفَوْز، والتمنّي حديث النَّفْس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب المُوصِلة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فطوى سبحانه بِسَاط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترّون: إن الذين ضيَّعوا أوامره وارتكبوا نواهيه، واتَّبَعُوا ما أسْخَطَهُ، وتجنَّبوا ما يُرْضِيهِ؛ أولئك يرجون رحمته»[٢]. اهـ.

وقال: «وأما الأماني فإنها رؤوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قَلْب تَزَاحَمَت عليه وساوس النَّفْس فأظْلَم مِنْ دُخانِهَا، فهو يَسْتَعْمِل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منَّتْهُ حُسْن العاقِبَةِ والنَّجَاةِ، وأحالَتْهُ على العفْوِ والمغفرة والفضل»[٣]. اهـ.

ومعلوم أن أداة التمني: (ليت)، وأن أداة الرجاء: (لعل)، فهي تدل على إمْكَانِ الحصول، وأما (ليت) فإنَّها في الأمر الذي يكون بعيد المنال.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الموافقات» (٢/ ٤٨٠).
(٢) «الروح» (٢/ ٧٢٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٣٠).

بيان الرَّجَاء الصحيح الذي يُطْلَبُ من العبد تحصيله

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «المقصود من الرجاء: أنَّ مَنْ وقع منه تقصير فليُحْسِن ظنَّهُ بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا مَنْ وَقَع منه طاعة يرجو قبولها، وأما مَنِ انْهَمَكَ على المعصية راجيًا عدم المؤاخَذَةِ بِغَيْرِ ندم ولا إقلاع؛ فهذا في غرور»[1]. اهـ.

وقد قال بعض أهل العلم: «من علامة الصَّلَاح أن تطيع، وتخاف ألا تُقْبَل، ومن علامة الشقاء أن تَعصي، وترجو أن تنجو»[2].

ومعلوم أن من رجا شيئًا فإن هذا الرجاء يستلزم **ثلاثة أمور**:

الأول: محبة ما يَرْجُوه.

والثاني: الخوف مِنْ فَوَاتِهِ.

والثالث: السَّعْي في تحْصِيلِهِ بحسب الإمكان.

أما الرجاء الذي لا يُقَارِنُهُ شيء من ذلك، فإن ذلك من الغرور، فهو من باب الأماني، والرجاء شيء، والأماني شيء آخر.

وبهذا نعلم أن كل راج خائف، ومن سار على الطريق إذا خَافَ أَسْرَع السَّيْرَ مَخَافَةَ الفَوَات، وقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»**[3]، وبهذا أقبلت القلوب على الله ﷻ بألوان العبوديات رجاء أن تُحَصِّلَ دَارَ كَرَامَتِهِ.

فلولا الرجاء لما صارت إليه، وما قصدته، وما عمل الناس بطاعته، وكما جعل الله تعالى لأهل طاعته الرجاء لِيُحْسِنُوا الظن به؛ جعل الخوف في قلوبهم منه ليحذروه.

وبهذا نعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العَمَلُ، كَمَا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ

---

(١) «الفتح» (١١/ ٣٠٧).

(٢) «الفتح» (١١/ ٣٠٧). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٦) بنحوه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٧٩٦٢)، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٤، ٢٦٦٥)، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (١١١٦٧)، وحكم عليه الذهبي بالنكارة في «تاريخ الإسلام» (٩/ ٦٦٨).

﴿لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

هؤلاء هم الذين يرضى ربنا ﷻ عن أعمالهم، ويتقبَّل منهم، ويرفعهم في أعلى المنازل في دار كرامته.

وقد سألت عائشة رضي الله تعالى عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: **«لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ ألا تُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»**(١).

فالله ﷻ وَصَف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووَصَف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومَنْ تَأَمَّلَ أحْوَالَ أصْحَابِ النبي ﷺ وجدهم في غاية الجد في العمل الصالح، والتشمير، والسعي في مرضاة الله ﷻ، ونحن قد جمعنا بين التفريط والأمن، وتَرَحَّل الخوف من قلوب كثير مِنَّا، مما أدى إلى تَهَافُت الكثيرين على فِعْل المعصية، حتى طغى ذلك على القلوب، وران عليها، فما عادت تنتفع بالمواعظ، وما يدخلها في كثير من الأحيان شيء من التذكير، إلا ما شاء الله، وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعليقًا على قوله تبارك وتعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦١]: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»(٢).

يَا آمِنًا مِن قَبِيحِ الفِعْلِ مِنهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ؟
جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أمنًا وَاتِّبَاعَ هَوًى ... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي المَرْءِ تُهْلِكُه
وَالمُحْسِنُونَ عَلَى دربِ المَخَاوِفِ قَدْ ... سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ ... فَكَيْفَ عِندَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ؟
هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ فِيكَ زُهْدُكَ فِي ... دَارِ البَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
مَنِ السَّفِيهُ إِذًا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمِ الْـ ... ـمَغْبُونُ فِي البَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ تُدْرِكُهُ(٣)

وقال الحسن رحمه الله: «لقد مضى بين يديكم أقوام، لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي ألَّا ينجو من عظم ذلك اليوم»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/٦٨)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٩٩).
(٣) انظر: «الجواب الكافي» (٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، يقول: «هو الخوف الدائم في القلب»(١).

وكان يقول: «إن الرجل يذنب الذنب فما يَنْسَاهُ، وما يزال مُتَخَوِّفًا منه حتى يدخل الجنة»(٢).

يَا مُعْرِضًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ وَقَدْ ... جَدَّ الْمَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِ
جَذْلَانَ يَضْحَكُ آمِنًا مُتَبَخْتِرًا ... وَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ
خَلَعَ السُّرُورُ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ ... طَرَدَتْ جَمِيعَ الْهَمِّ وَالْأَحْزَانِ
يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الْمَسَرَّةِ نَاسِيًا ... مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الْأَكْفَانِ(٣)

فهو مع إساءته للعمل في غاية اللهو، والمَرَح، والفَرَح، والعَبَث، كأنه قد نال الأمان من الله عَزَّوَجَلَّ.

ويقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يقول: «يعملون ما عملوا من أعمال البر، وهم يخافون ألّا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم»(٤).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «من حَسُن ظنّه بالله عَزَّوَجَلَّ، ثم لا يخاف الله فهو مخدوع»(٥).

وكان بعضهم يقول في بيان سِمة وعلامة الرجاء الصحيح: «علامة صحة الرجاء حُسْنُ الطاعة»(٦).

ولأبي العتاهية(٧):

أَلَا رُبَّ ذِي أَجَلٍ قَدْ حَضَرْ ... كَثِيرِ التَّمَنِّي قَلِيلِ الْحَذَرْ
إِذَا هَزَّ فِي الْمَشْيِ أَعْطَافَهُ ... تَعَرَّفْتَ مِنْ مَنْكِبَيْهِ الْبَطَرْ
يُؤَمِّلُ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَيَزْدَادُ يَوْمًا لِيَوْمٍ أَشَرْ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨) وإسناده ضعيف.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٧٧) وإسناده صحيح.
(٣) «نونية ابن القيم» (٥٦٦٢).
(٤) أخرجه ابن المبارك (١٥)، ووكيع (١٥٣)، وأحمد (ص٢٨٤) كلهم في «الزهد»، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧٤٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٦٧) واللفظ له.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٤/ ١٣٢).
(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).
(٧) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٠٢).

وقد سئل **أحمد بن عاصم** رَحِمَهُ اللهُ: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: «أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهِمَ الشكر، راجيًا لتمام النعمة مِن الله تعالى عليه في الدنيا، وتمام عفوه في الآخرة»(١)، كلما أعطاه الله ازداد شكرًا، فإذا وُفِّقَ لِلَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ العبودية ازداد شكرًا، فقام بعبودية جديدة، فهو في ازدياد دائمًا، بخلاف مَنْ يُؤَمل ما لا يعمل، ويرجو ما لم يُقَدِّم ويبذل.

والمقصود: معرفة أن الرجاء المطلوب هو أن يتحقق في قلوبنا نوع خوف من فوات الجنة وذهاب حظوظنا منها، بأن نترك ما يحول بيننا وبين دخولها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وعلامة الرَّجاء الصحيح أن الرَّاجي يخاف فوت الجنّة، وذهاب حظِّه منها، بِتَرْكِ ما يخاف أن يَحُول بينه وبين دخولها، فمثله مَثَلُ رجل خطب امرأة كريمة في مَنْصب شرَف إلى أهلها، فلما آن وقْت العقد، واجتماع الأشراف والأكابر، وإتيان الرجل إلى الحضور أُعْلِمَ عشيّة ذلك اليوم ليتأهب للحضور، فتراه المرأة وأكابر الناس، فأخذ في التأهب والتزيين والتجميل، فأخذ من فضول شعره، وتَنَظّف، وتطيّب، ولبس أجمل ثيابه، وأتى إلى تلك الدار مُتَّقيًا في طريقه كلَّ وَسَخ وَدَنَس وأثر يصيبه أشدّ تقوى، حتى الغبار والدخان وما هو دون ذلك، فلما وصل إلى الباب رحَّب به رَبُّها، ومكَّن له في صدر الدار على الفرش والوسائد، ورمَقَتْهُ العُيُون، وقُصِدَ بالكَرَامة مِنْ كُلِّ نَاحِيَة.

فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة، فجلس في المزابل، وتمرَّغ عليها، وتمعَّك بها، وتلطَّخ في بدنه وثيابه بما عليها من عَذِرة وقَذَر، ودَخَل ذلك في شعره وبَشَره وثيابه، فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار، وقصد دخولها للوعد الذي سبق له؛ لقام إليه البواب بالضَّرْبِ، والطَّرْدِ، والصياح عليه، والإبعاد له من بابها وطريقها، فرجع مُتَحَيِّرًا خاسئًا!! فالأول حال الراجي، وهذا حال المتمني.

وإن شئت مثّلْت حال الرَّجُلَيْنِ بمَلِك هو من أغير الناس، وأعظمهم أمانة، وأحسنهم معاملة، لا يضيع لديه حق أحد، وهو يعامل الناس من وراء سِتْر، لا يراه أحد، وبضائعه وأمواله وتجارته وعبيده وإماؤه ظاهر بارز في داره للعاملين، فدخل عليه رجلان، فكان أحدهما يُعامِله بالصدق والأمانة والنصيحة، لم يُجَرِّب عليه غِشًّا ولا خيانة ولا مكرًا، فباعه بضائعه كلها، واعتمد مع مماليكه وجواريه ما يجب أن يعتمد معهم، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخيَّر له أحسن البضائع وأحبّها إليه... وكان

---

(١) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٦٠).

الآخر إذا دَخَل دَخَل بأبْخَس بضاعة يجدها، ولم يُخَلِّصها من الغش، ولا نَصَح فيها، ومع ذلك فكان يخون الملك في داره إذْ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه، فمَضَى على ذلك مدة، ثم قيل: إن المَلِك يبرز لِمُعَامِليه حتى يُحاسِبهم ويُعطيهم حقوقهم، فوقف الرجلان بين يديه، فعامَل كل واحد منهما بما يَسْتَحِقّه.

فَتَأَمَّل هذَيْن المَثَلين؛ فَإِن الْوَاقِع مُطَابق لَهما، فالراجي على الْحَقِيقَة لما صَارَت الْجنَّة نَصْب عينه ورجاءه وأَمَلَه امْتَدَّ إِلَيْهَا قلبه، وسعى لَهَا سَعْيَها؛ فَإِن الرَّجَاء هُوَ امْتِدَاد الْقلب ومَيْله، وحَقَّق رَجَاءَهُ كَمَالُ التَّأَهُّب، وَخَوفُ الْفَوْت، وَالْأَخْذ بالحَذَر...

وامتداد الْقلب إِلَى المحبوب مُنْقَطِعًا عَمَّا يَقْطعهُ عَنهُ: هُوَ تَنَح عَن النَّفس الأمارة وأسبابها وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَهَذَا الامتداد والميل وَالْخَوْف من شَأْن النَّفْس الْمُطْمَئِنَّة؛ فَإِن الْقلب إِذا انْفَتَحت بصيرته، فَرَأى الْآخِرَة وَمَا أعَدّ الله فِيهَا لأهل طَاعَته وَأهل مَعْصِيَته؛ خَاف، وخفَّ مُرْتَحِلًا إِلَى الله وَالدَّار الْآخِرَة...

وَمن ها هُنَا صَار كل خَائِف راجيًا، وكل راجٍ خَائفًا، فَأُطْلِق اسْم أحدهمَا على الآخر؛ فَإِن الراجي قلبه قريبُ الصّفة من قلب الْخَائِف: هَذَا الراجي قد نَحّى قلبَه عَن مُجَاوَرة النَّفس والشيطان مرتحلًا إِلَى الله، قد رُفِع لَهُ من الْجنَّة عَلَم فَشَمّر إِلَيْهِ، وأَمَّه مَادًّا إِلَيْهِ قلبه كُله. وَهَذَا الْخَائِف فارٌّ مِنْهُ جوارهما، مُلْتَجِئ إِلَى الله من حَبْسهما له فِي سجنهما فِي الدُّنْيَا، فَيُحْبس مَعهمَا بعد الْمَوْت وَيَوْم الْقِيَامَة... فَلَمَّا سَمِع الْوَعيد ارْتَحَل من مُجَاوَرَة السّوء فِي الدَّارِيْن، فَأُعْطِى اسْم الْخَائِف، وَلمّا سَمِع الْوَعْد امْتَدَّ واستطار شوقًا وفَرَحًا بالظَّفَر بِهِ، فَأُعْطى اسْم الراجي. وحالاه متلازمان لَا يَنْفَكّ عَنْهُمَا، فَكل راج خَائِف من فَوَات مَا يرجوه، كَمَا أَن كل خَائِف راج أمنه مِمَّا يخَاف، فَلذَلِك تَدَاوَل الاسمان عَلَيْهِ»[(١)]. اهـ.

وقال الغزالي: «إن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبَذْر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حَفْر الأنهار وسِيَاقة الماء إليها، والقلب المُسْتَهْتِر في الدنيا، المُسْتَغْرِق بها؛ كالأرض السَّبِخَة التي لا ينمو فيها البَذْر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زَرَع، ولا ينمو زَرْع إلا من بَذْر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خُبْث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سَبِخَة، فينبغي أن يُقَاس رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضًا طيبة، وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عَفِن ولا مُسَوّس، ثم أَمَدّه بما

(١) «الروح» (٢/ ٧٢٦ - ٧٣٠) بتصرُّف يسير.

يحتاج إليه؛ وهو سَوْق الماء إليه في أوقاته، ثم نقَّى الشوك عن الأرض والحشيش، وكل ما يمنع نبات البَذْر أو يفسده، ثم جلس مُنْتَظِرًا من فضل الله تعالى دَفْع الصواعق والآفات المُفْسدة إلى أن يتمّ الزرع، ويبلغ غايته؛ سُمِّي انتظاره رجاء.

وإن بَثَّ البَذْر في أرض صلبة سَبِخة مرتفعة، لا يَنْصبّ إليها الماء، ولم يَشْتَغل بتعهد البَذْر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه؛ سُمِّي انتظاره حُمْقًا وغُرُورًا، لا رجاء.

وإن بَثَّ البَذْر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، حيث لا تَغْلب الأمطار، ولا تَمْتَنِع أيضًا؛ سُمِّي انتظاره تَمَنِّيًا لا رجاء.

فإذن: اسم الرجاء إنما يَصْدُق على انتظار محبوب تَمَهَّدَت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره؛ وهو فضل الله تعالى، بصرف القواطع والمفسدات»[١].

ثم صَوَّر الرجاء بأنه: «حالة أثْمَرَهَا العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجُهْد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن مَنْ حَسُنَ بَذْره، وطابت أرضه، وغَزُر ماؤه؛ صَدَق رجاؤه، فلا يزال يحمله صِدْق الرجاء على تفقُّد الأرض وتَعَهُّدِها، وتَنْحِية كل حشيش ينبت فيها، فلا يَفْتُر عن تَعَهُّدِها أصلًا إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يُضَادُّه اليأس، واليأس يمنع من التَّعهُّد»[٢].اهـ. وهكذا فيلزم أن يداوم على رجاء الله وحُسْن الظن به.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الإحياء» (٤/ ١٤٣) بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٤٤).

بعض المفاهيم الخاطئة للرجاء

الرجاء: عبادة قلبية صحيحة مطلوبة، لا بد أن تتحقق في قلب العبد، وإلا كان قانطًا كما سيأتي. ولكن هذا الرجاء فَهِمَه أقوام على غير وجهه الصحيح، فضلوا، وتاهوا، وانحرفوا في أودية الهَلَكَة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأخرَجَت الفَسَقَةُ والذين يتبعون الشهوات الفسوق والعصيان في قَالَب الرَّجَاء، وحُسْن الظن بالله تعالى، وعدم إساءة الظن بِعَفْوِهِ، وقالوا: تجنُّب المعاصي والشهوات إزراء بعفو الله تعالى، وإساءة للظن به، ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم والعفو»[1]. اهـ.

فهؤلاء مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ عَطَّلَ الطَّعَامَ والشراب، وتوكَّل في حصول الشِّبَع والرِّيّ. وهكذا الرجاء، فمَنْ تَرَكَ طاعة الله ﷻ، والعمل بما أُمِر به، واقترف ما يغضبه ويسخطه عليه، وقال: أتكل على الرجاء، وعلى رحمة الله ﷻ؛ فهذا مغبون مغرور، قد غَرَّتْهُ الأماني الفارغة؛ كمثل القاعد عن السعي والعمل؛ تَوَكُّلًا على الله تبارك وتعالى بزعمه، وإنما الوَاجِبُ على العبد أن يحذر على نَفْسه من معصية ربه، فالمعاصي والذنوب من أعظم الأمور التي تضُرّ العبد ضررًا مُحَقَّقًا في عاجله وآجله، ولكن العبد إذا غَلَبَهُ هَوَاه فإنه يَتَّكِلُ على عفو الله ومغفرته تارة، وربما انشغل بالتسويف بالاستغفار والتوبة تارة أخرى، فيُرَدِّد ذلك في نَفْسه، أو على لسانه دون أن يكون لذلك رصيد من واقعه، وربما تعَلَّلَ بالعِلْم، أو احتج بالقدر، أو احتج بالأشباه والنُّظَرَاء من الناس الذين يَتَعَاطَون هذه الأمور، ويفعلون هذه القبائح، ويتركون أمر الله تبارك وتعالى، ولربما اقتدى أو زعم أنه يقتدي ببعض الأكابر، وكثير من الناس يظن أنه مهما فعل من الذنوب والمعاصي، ثم قال: أستغفر الله؛ زال الذنب، وراح هذا بهذا!![2].

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حال رجل من المُنْتَسِبين إلى الفقه، جرت بينه وبينه مُحَاورة، فقال: «قال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول:

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٧٦٧).

(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٦).

سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غُفِر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ فِي يوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ حُطَّتْ خَطَايَاهُ ولو كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[(١)].

وقال لي آخر من أهل مكة مرة: نحن ـ يعني: أهل مكة ـ أحدنا إذا فَعَل ما فَعَل اغتسل، وطاف بالبيت أُسْبُوعًا ـ يعنى: سبعة أشواط ـ فإن ذلك يكفي في محو جنايته وذنبه.

وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقَالَ: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فقال اللهُ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ ربًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بِهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فليَصْنَعْ مَا شَاءَ»[(٢)]، قال: أنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به»[(٣)]. اهـ.

فيرى أن ذلك مُسَوِّغٌ له في تَرْك التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، والاستمرار مع داعية الهوى، وشهوات النفوس، وتزيين الشيطان، فيكون ذلك مغرورًا، قد تعَلَّق بنصوص الرجاء، وترك نصوص الخوف التي تَرْدعه، وتَزُمّ نَفْسه، فيستقيم على طاعة ربه ومليكه.

فهذا «إذا عُوتِبَ على الخطايا والانهماك فيها سَرَدَ لك ما يحفظه من سَعَةِ رَحْمَةِ الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

والجُهَّال وأهل الأهواء لهم في هذا الباب غَرَائِب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

وكان بعضهم يقول: التَّنَزُّهُ من الذنوب جَهْل بسعة عفو الله ﷻ.

وقال آخر: تَرْك الذنوب جُرْأة على مغفرة الله، واستصغار لها.

وقال الحافظ ابن حزم رحمه الله: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من العِصْمَة.

ومن هؤلاء من يتعَلَّق بمسألة الجَبْر في باب القدر، وأن العبد لا فعل له ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) «الجواب الكافي» (ص٣٧ ـ ٣٨) بتصرُّف يسير.

ومن هؤلاء مَنْ يَغْتَرّ بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرَّد التصديق»[(١)].

وهذا يقع فيه كثير من الناس، من العامة والخاصة، يُسْرفون على أنفسهم في الذنوب والمعاصي، فإذا عُوتِبَ أحدهم قال: إذا سَلِمَ القلب، وصلحت نِيَّةُ العبد فإنه لا يضر ما فعل بعد ذلك.

وربَّما اتَّكل بعضهم على ما يزعمه من محبة رسول الله ﷺ، أو ما يزعمه من قرابته.

ومن هؤلاء: مَنْ يَتَّكِلُ على نَسَبِهِ أو قَرَابَتِهِ من الصالحين أو معارفه، وتجد في بعض بلاد المسلمين من يتردد على القبور، ويعتقد في الأحجار والأشجار، ويُقَدِّم لها النذور.

ومنهم: مَنْ يَتَعَلَّق بأحد أقطاب الضلالة من الأحياء، وهم يزعمون أنهم قد حَصَّلُوا بذلك فضْل الله، ونالوا مغفرته وعفوه ورضاه!

ومنهم: من يغتر بأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يَدَعُونه حتى يُخَلِّصوه من عذاب الله ﷻ، كما يُرَى في حال الناس في هذه الحياة الدنيا بين يدي المَلِك، فإذا كان لأحد من جلساء الملك قريب قد أخطأ أو حتى جناية خلّصوه من العقوبة، فيقيسون ذلك المقام في الآخرة على هذا المقام في الدنيا.

ومن هؤلاء: من يَغْتَرّ بأن رحمة الله ﷻ واسعة، وأن الله تبارك وتعالى غَنِيٌّ عن الخلق جميعًا، وأنه لا حاجة له بِتَعْذِيب أحد؛ فإن عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطر إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء. ولو أن فقيرًا أو مسكينًا مضطرًّا إلى شَرْبَة ماء عند مَنْ هو في داره لما منعه منها، فيقول: الله أكرم مسؤول، وهو أغنى الأغنياء، ومغفرته لعبده لا تُنْقِصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا، وما علموا أن الله ﷻ تتجلّى أسماؤه وصفاته حينما يأخذ هؤلاء بالعقوبة، ويرحم الصالحين من عِبَاده. وقد أعد الله ﷻ النار دارًا لكل مُتَمَرِّد على طاعته وشرعه، وأَمْرِه ونَهيه، ونَسُوا ما أوقعه الله ﷻ من ألوان النِّقَم في الأُمَم المكذِّبَة، قديمًا وحديثًا، فلا تمنع رحمته من هذه العقوبات التي لا زالت آثارها شاهدة على عِظَمِ جُرْمِهِمْ، وعلى عِظَم الأَخْذَة التي أُخِذُوا بها، وعلى عِظَمِ الرَّبِّ الذي انْتَقَم منهم.

ومن هؤلاء: من يفهم بعض نصوص القرآن على غير وجهها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، فيقول: النبي ﷺ لا يمكن أن يرضى

(١) ما بين الأقواس من «الجواب الكافي» (ص٣٨ ـ ٣٩) بتصرُّف.

بتعذيب أحد مِنْ أُمَّتِهِ. وذلك من أقبح الجهل، وأبْيَنِ الكذب عليه؛ فإنه ﷺ يَرْضَى بما يرضَى بِهِ رَبّه ﷻ، وقد أخبرنا النبي ﷺ بما يُعَذَّب به عمه أبو طالب، مع أنه كان يَحُوطُه ويمنعه، فعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيتَ عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١).

ومن ذلك أيضًا: اتِّكال بعضهم على قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، ولو كانت في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، ولكن ليعلم المذنبون أن الله واسع المغفرة، فلا يقنطوا من رحمة الله، والنبي ﷺ أخبرنا عن صُنُوفٍ من الناس يُعَذَّبون، وَمَرَّ بِقَبْرَيْنِ وهما يُعَذَّبَان، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»(٢).

والنصوص الدالة على هذا المعنى كثيرة جدًّا لا تخفى، فمِنَ الغَلَطِ الفاحش أن تُؤخَذ نصوص الرجاء ويترك ما بإزائها من نصوص الوعيد، وما أخبر الله عنه من شدة عذابه العُصَاة الآثمين.

وهؤلاء الذين يخرجون من النار وقد تفَحَّمُوا، فيُلْقَون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَمِيل السيل - كما صح به الخبر(٣) - أليسوا من أهل التوحيد؟ وكذلك الذين يخرجون بشفاعة الشفعاء، وبرحمة أرحم الراحمين، أليسوا من عصاة الموحدين؟

وكاغترار بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: غَرَّهُ كَرَمُه، ويقول بعضهم: إِنَّهُ لَقَّنَ المُغْتَرَّ حُجَّتَه. وهذا من أقبح الفهم وأَسْمَجِهِ، وإنما الذي غَرَّهُ بذلك الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٤]، والغَرور الشيطان، وهو كثير التغرير بابن آدم؛ يُزَيِّنُ له المعاصي، ويُنَفِّرُه من الطاعات؛ حتى يرى القبيح حسنًا والحَسَن قَبِيحًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢١٦) واللفظ له، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن هؤلاء: مَنْ يَغْتَرّ بقول الله ﷻ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، ويقول عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٤، آل عمران: ١٣١]، ولم يَدْرِ هَذَا المغتر أن هذه نار مخصوصة أُعِدَّتْ للكافرين.

وإذا كانت تلك النار للكافرين فهناك نار العُصَاة مِنَ المُوَحِّدِين، وهذا أمر معلوم الاضطرار مِنْ دِينِ الله، ولا يُنَافي إعداد النار للكافرين أن يَدْخُلَهَا الفُسَّاقُ والظَّلَمَةُ، كما لا يُنَافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدْنَى مثقال ذرة من إيمان.

وبعضهم يَغْتَرّ بصيام يوم عاشوراء؛ أنه يُكَفِّر ذنوب سَنَة ماضية، ويوم عرفة يُكَفِّر ذنوب سَنَة ماضية وسَنَة آتية، ولم يَدْرِ المُغْتَرّ أن صوم رمضان، والصَّلَوات الخمس أعْظَم وأجلّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تُكَفِّر ما بينها إذا اجتُنِبَتِ الكبائر، فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تَكْفِير الصغائر ـ كما قال بعض أهل العلم ـ إلا مع انضمام تَرْكِ الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تَكْفِير الصغائر، فكيف يُكَفِّر صوم يوم تطوع كبائرَ العَبْدِ وذنوبه العِظَام التي عَمِلَهَا وهو لا يزال مُصِرًّا عليها غير تائب منها؟! هذا مُحَال، على أنه لا يَمْتَنِع أن يكون صوم يوم عرفة وصوم عاشوراء مكفِّرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع.

ثُمَّ مِنْ أيْنَ لك أن تعلم أن الله قَبِل ذلك منك، وأن الله ﷻ قد غفر لك؟ بل ما يُدريك أن حَجَّك الذي حَجَجْت ـ سواء كان ذلك فرضًا أم كان نفلًا ـ أنه من الحج المبرور الذي يرجع الإنسان منه كيوم ولدته أمه؟ وإنما يحصل هذا الوعد وهذا الجزاء على هذه الأعمال إذا تحقَّقَت الشروط، وانتفتِ المَوَانِعُ، ورُبَّما كانت سوء طويَّة العبد مانعة من حصول المأمول وتحْقِيق القبول.

ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟! فهذا سبب لتكفير الصغائر إذا ترك العبد الكبائر(١)؛ فهذه أمور ينبغي أنْ يَتَفَطَّنَ لها الإنسان.

وكذلك فقَدْ يَغْتَرّ بعضهم بقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»(٢)، «يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حُسْن

---

(١) وقد روى مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن، ما لم تُغْشَ الكبائر**».

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٩١، ٤/١٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع، ورُوِي عن غيره، وقد صحَّحه =

الظن إنما يكون مِنْ حُسْنِ العَمَلِ، فالمُحْسن حَسَن الظَّنِّ بِرَبِّهِ أن يجازِيَهُ على إحسانه، وأن يقبل توبته، وأما المسيء المُصِرّ على الكبائر والظلم، فإن وَحْشَة المعاصي تمنعه من حُسْن الظنّ بِرَبِّه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سَيِّدِهِ لا يُحْسِن الظن به، ولا يُجَامِع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا.

كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن أحسن الظنَّ بِرَبِّهِ فأحسن العمل، وإن المنافق أسَاءَ الظن فأساء العمل»[1].

وأما من هو شاردٌ عن ربه تبارك وتعالى، حَالّ مُرْتَحِل في مساخطه وما يبغضه، متعرِّض للفتنة، قد هَانَ حَقّه وأمره عليه فأضَاعَهُ، وهان نَهْيه عليه فارْتَكَبَهُ وأصَرَّ عليه»[2]، فمثل هذا ماذا يرجو؟! وأي إحسان للظن في قلبه؟!

فلا يمكن أن يجتمع هذا الرجاء وحُسْن الظن بِقَلْب مَنْ يفعل هذه الموبقات، مع عِلْمه أنه ملاقٍ رَبَّهُ، وأنه مُقْبل عليه، وأنه سَيُحَاسِبه، وأن الله مُطَّلِع على سِرِّهِ وعلانيته، يسمع كلامه، ويرى أفعاله، لا يخفى عليه منه خافية، وأنه موقوف بين يديه، مسؤول عن كل ما عمل، ثم بعد ذلك يَدَّعِي أنه يحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ!! أليس ذلك من خُدَع النفوس وغرور الأماني؟! فما ظن أصحاب الكبائر بأنفسهم؟! وما ظنهم بالله إذا لقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وهم مُصِرُّونَ عليها، قد أخذوا حقوق العباد، وأكلوا أموال اليتامى، وضَيَّعُوا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ولو جاز ما قال هؤلاء فللعبد أن يصنع ما يشاء، ويرتكب كل ما نهى الله عنه، ما دام أنه يُحْسن ظنه بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فكيف يجوز ذلك وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومِهِ الذين كانوا يعبدون الأوثان: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٧]؟! أي: ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

والخلاصة: أنَّ حُسْنَ الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ يَقْتَضِي أن يُحْسِنَ الْعَبْدُ عَمَلَهُ، وأن يُصَحِّح سلوكه، وأن يستقيم على أمر ربه جَلَّ وَعَلَا، فهذا هو الذي يُحسن الظن بالله تبارك وتعالى؛ وإلا كان مُتَّبِعًا لهواه، فحُسْنُ الظن يكون مع انْعِقَادِ أسْبَابِ النجاة، وأما إذا انْعَقَدَتْ

= ابن حبان (٦٣٣ ـ ٦٣٥، ٦٤١)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، والذهبي، والسيوطي والألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦). والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: «**فليظن بي ما شاء**».

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٤) واللفظ له، وإسناده صحيح.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (٤٤ ـ ٤٥).

أسباب الهلاك فلا مَحَلَّ لحسن الظَّنِّ، بل العبد بحاجة إلى مزيد من الخوف من أجل أن يرعوي.

يقول معروف الكَرْخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لا تُطِيعُه مِنَ الخذلان والحُمْق»[١].

وكان بعض أهل العلم يقول: «من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تَأْمَن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا»[٢].

وقيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: نراك طويل البكاء! فقال: «أخاف أن يطرحني في النار ولا يُبالي»[٣].

وسألَهُ رجل، فقال: يا أبا سعيد! كيف نصنع بِمُجَالسة أقوام يُخوِّفُونَنَا حتى تكاد قلوبنا تتقطَّع؟ فقال: «والله لأن تَصْحَبَ أقوامًا يخوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أمْنًا خير لك من أن تصحب أقْوَامًا يُؤَمِّنُونَك حتى تلحقك المَخَاوِف»[٤].

ويشهد لقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ ما ثبت عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه قال: **«وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ؛ إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي»**[٥].

ولربما اغتر بعضهم بما يرى من إغداق الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من نعمه في هذه الدنيا؛ كما حكى الله تعالى عن الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وكذلك ما حكاه عن صاحب الجنة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، وكذلك ما جاء عن بعض المشركين في عهد النبي ﷺ من أهل مكة؛ حيث إنهم ادَّعَوْا بَعْضَ هذه الدعاوى الباطلة.

ومعلوم أن الدنيا لا تُقَاسُ بِالآخِرَة، ولو كانت الدنيا تُسَاوي عِنْدَ الله جناح بعوضة

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٥١)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٧٨).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٥١).

(٣) المصدر السابق (ص٥١)، وانظر: «صفة الصفوة» (٣/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٣) واللفظ له، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الوجل» (٣).

(٥) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩٨) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث صحَّحه ابن حبان، والألباني في «الصحيحة» (٧٤٢)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٨١). راجع: «إتحاف الخيرة» (٩/ ٦٣)، و«الضعيفة» (٢٩٨٦).

ما سَقَى منها الكافر شَرْبَة ماء، فالدنيا يعطيها الله ﷻ لمن يُحِب ومن لا يُحِب، وأما الآخرة فلا يُعْطِيها إلا لمن يُحِبّ.

وقد قال بعض السلف: «إذا كان الرجل على معصية الله، فأعطاه الله ما يحب على ذلك؛ فليعلم أنه في استدراج منه»(١). والله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ يعني: على الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

وبالجملة؛ فلا يغتر بزخرف الحياة الدنيا إلا الغافلون، وأنت تَرَى أهل الكفر فيما هم فيه من رَغَد العيش والنِّعْمة السابغة، وما ذلك إلا لأن لهم الدنيا، وأن العاقبة للمتقين.

عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «مُكِر بالقوم ورب الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا»(٢).

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: «بَغَتَ القَومَ أَمْرُ الله، وما أَخَذَ الله قومًا قط إلا عند سَلْوتهم وعِزَّتِهِمْ ونعْمَتِهِمْ، فلا تغْتَرّوا بالله، إنه لا يَغْتَر بالله إلا القوم الفاسقون»(٣).

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال بعض السلف: «رُبَّ مُسْتَدْرَجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مَغْرُورٍ بِسَتْرِ الله عليه ولا يعلم، ورُبَّ مَفْتُونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم»(٤).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمورًا كثيرة تبعث على الحذر من مُقَارَفَة ما لا يليق، ومن الاتِّكَالِ على سَعَةِ رَحْمَةِ الله ﷻ، وترك العمل، «فالله تبارك وتعالى أخرج الوالدين من الجنة دار النعيم واللذة البهجة والسرور إلى دار الآلام والأكباد والأحزان والمصائب بسبب أَكْلة أكلاها، وأخرج إبليس من ملكوت السماء، وطَرَدَهُ، ولَعَنَهُ، ومسَخَ ظاهره وباطنه، وبَدَّلَهُ بالقُرْبِ بُعْدًا، وبالرَّحْمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظَّى،

(١) أخرجه ابن المبارك (٣٢١) واللفظ له، من كلام عقبة بن مسلم، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٣٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٧٧) عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٤) من كلام أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩١).

(٤) «الجواب الكافي» (ص٧٩).

وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحَمِيد أعْظَم عداوة ومُشَاقَّة، وبِزَجِل التسبيح والتقديس والتهليل زَجِل الكفر والشرك والكذب والزور والفُحْش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهَانَ عَلَى الله غاية الهوان، وسَقَطَ مِنْ عَيْنِه غاية السقوط، وحلَّ عليه غضَبُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وتعالى، فأهْوَاهُ ومَقَته أكْبَرَ المَقْتِ، فأرداه، فصار قَوَّادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقِيَادة بعد تلك العبادة والسِّيَادة، فعياذًا بالله مِنْ حَاله وحال أتباعه»[١].

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق (٩٨ ـ ٩٩) بتصرُّف.

المُلَازَمة بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فكل من يرفع يديه ويسأل ربه، فهو جامع بين الخوف والرجاء؛ يُؤَمِّلُ أن يحقِّقَ رَبّهُ مسألته، وأن يحصل على مطلوبه، وهو خائف في الوقت نَفْسه من فَوَات هذا المطلوب، وكما أن كل عابد فهو سائل ربه بفِعْله وعمله، وتَقَلُّبه في طاعة الله ﷻ.

فهذه العبادات والوظائف التي يتقرب بها المُتَقَرِّبون إلى ربهم ﷻ إنما هي نوع سؤال يسألونه بها الجنة، ويعوذون بها من النار، فكل داع بلسانه أو بحاله وفعله فهو جامع بين الخوف والرجاء، راغب راهب لله تبارك وتعالى.

يقول الله تعالى عن أهل النجاة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، فلا يُتَصَوَّر أن تخلو حال العبد المُقْبِل على الله ﷻ بالدعاء والمسألة بالقول أو بالفعل، من رغبة ورهبة، ومِنْ رَجَاء وخوف، وبهذا نعلم أن كل راج فهو خائف، وبذلك يتبين وجه الارتباط بين الخوف والرجاء.

وقد قال جماعة من المفسرين في قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟! فكل راج خائف من فَوَات مَرْجوّه[1]، وهذا يُفَسّر لنا وجه ارتباط الرجاء بالخَوْف، وأن الرَّاجِي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

فمن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه؛ لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فَوْته لِعِظَم المرجوّ في قلبه، وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فَوْت المَرْجُو، والرجاء هو ترويحات الخائفين؛ ولذلك سَمّتِ العرب الرجاء خوفًا؛ لأنهما وصفان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، ومن مذهبهم أن الشيء إذا كان لازمًا لشيء أو وصفًا له أو سببًا له؛ أن يُعَبِّروا عنه به، فقالوا: مَا لَكَ لا ترجو

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٦/ ٧٨).

كذا؟ وهم يريدون: مَا لَكَ لا تخاف؟ وعلى هذه اللغة جاء قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]، والمعنى: ما لكم لا تخافون لله عَظَمَةً؟! وهو أيضًا أحد وجهي تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: يخاف من لقائه[1]. كما ذكرنا سابقًا.

أيا عَجَبًا للنَّاسِ في طُولِ مَا سَهَوْا ... وفِي طُولِ ما اغْتَرُّوا وفي طول مَا لَهَوْا

يَقُولُونَ نَرْجُو اللَّهَ ثُمَّ اغْتَرُّوا بِهِ ... ولَوْ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ خَافُوا كَمَا رَجَوْا[2]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشْيَة أبدًا متضمِّنة للرَّجَاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يَسْتَلْزِمُ الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مَدَحَهُم الله، وقد رُوِي عن أبي حيان التيمي أنه قال: «العلماء ثلاثة: عَالِمٌ بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله»[3]. فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه»[4]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «قوت القلوب» (ص٣٣٢ ـ ٣٣٣).

(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص٢٥٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٤٣) واللفظ له.

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٠ ـ ٢١)، وراجع: (٣/ ٣٣٣) (٧/ ٥٣٩).

الرجاء دواء يضعه الحكيم في موضعه

حين نتكَلَّم عن الصبر أو الرضا أو التوكّل، أو حينما نتحدث عن محبَّةِ الله ﷻ، أو غير ذلك من الأعمال القلبية؛ فقد نُسْهب في هذا الحديث، ونذكر من الآيات، والأحَادِيث، وأقاويل الصحابة، وما جاء عن سلف هذه الأُمَّة ما يُرَغِّبُ في هذه الأعمال، ويُعَمِّقُها في النفوس حتى ترتاض عليها، ويتعاظم ذلك في قلب العبد، فيكون مُتوكِّلًا على الله ﷻ حقّ التوكل، ويُقْبِل بكُلِّيَّته على ربه حتى يَمْتَلِئَ القلب بمحبة الله ﷻ، فلا يبقى فيه محل للتعلق بِأَحَدٍ مِنَ المخلوقين، لكن حينما نتحدَّث عن الرجاء؛ فهل نحن بحاجة إلى أن نتحدث بنَفْس هذه الطريقة؟

الجواب: لا؛ لأن هذا الرجاء إذا تعاظم في النفوس بَعَثَ على طول الأمل وسعته، لا سيما ونحن في زمان قد غلبَ على عامة الناس فيه الرجاء، وصار كثير منهم يَرْتع في أودية المعصية غير مُبَال، وإذا ذُكِّرَ بالله ﷻ نَفَر؛ فهؤلاء بحاجة إلى مزيد من التخويف، وإلى تربية المهابة في نفوسهم؛ ولذلك لا يحسن أن تُطْرح نصوص الرجاء على الناس بتوسع.

وفي باب الرجاء جملة صالحة من أحاديث الرجاء، أعرضتُ عن ذكرها؛ لئلّا يغترّ بِهَا مَنْ لا فِقْه لَدَيْهِ، ولا معرفة صحيحة بالنصوص؛ فإنَّ الرجاء وأحاديث الرجاء إنما يُحدَّثُ بها أحَدُ رجلين:

الأول: رجل أسرف على نَفْسه، حتى ظن أنه هالكٌ لا مَحَالَةَ، وأنه لا توبة له، فقنط من رحمة الله، وظنَّ أن الله لا يغفر له ذنبه، وأن ذنوبه أعظم من أن تُغْفَر، فهذا يحتاج إلى مَنْ يُحَدِّثُه عن سَعَةِ رحمة الله؛ حتى يبعث الأمل في قلبه، فيُقْبِل على رَبِّهِ.

والآخر: رجل نَظَر في نصوص الوعيد والخوف، فغلب ذلك على حاله، فَأَضَرَّ بنفسه، فبالغ في العمل حتى أضر بِمَنْ معه ممَّن يَعُولهم؛ من أهل وولد، وتجاوز الحد الشرعي، كما يفعله بعض من تَرَهَّبَ، فهؤلاء بحاجة إلى بيان سعة رحمة الله ﷻ وعفوه.

والمقصود: أن عرض هذا الموضوع يحتاج إلى لَوْنٍ من الفقه، كما قال بعض أهل العلم: «يجب أن يكون واعظ الناس مُتلطِّفًا، ناظرًا إلى مواضع العِلَل، معالجًا كل علّة بما يليق بها»[1].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٠).

فهذا الزمان ينبغي أن تُستَعمل فيه نصوص الرجاء بقدر محدود، على قدر الحاجة، ولكل حالة ما يناسبها من الوعظ والتذكير؛ إذ أكثر الناس اليوم بحاجة إلى مزيدٍ من التخويف بالله ﷻ، ومِنْ عَذَابِهِ ونقمته.

يقول علي رضي الله تعالى عنه: «ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يُؤَمِّنهم من عذاب الله»(١).

وعن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحل قال: **«يا مُعَاذُ بن جَبَل!»** قال: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، قال: **«يا مُعَاذُ!»** قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثًا، قال: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ»** قال: يا رسول الله! أفلا أُخْبِر به الناس فَيَسْتَبْشِرُوا، قال: **«إذًا يَتَّكِلوا»**(٢).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «قال العلماء: يُؤخَذ مِنْ مَنْع مُعَاذ من تبشير الناس لئلّا يَتَّكِلُوا: أن أحاديث الرُّخَص لا تُشَاع في عُمُوم الناس؛ لئلا يقْصُر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يَزْدَد إلا اجتهادًا في العمل وخشية لله ﷻ، فأمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ فلا يُؤمَن أن يُقصِّر اتِّكالًا على ظاهر هذا الخبر»(٣).اهـ.

ولذلك؛ فإنَّ عمر رضي الله تعالى عنه ضرب أبا هريرة ﷺ لما خرج بنعل رسول الله ﷺ يُبشِّر مَنْ لَقِيَهُ مِنْ وَرَاءِ الحائط ممن يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بالجنَّة، فضربه عمر حتى سقط على قفاه، وعلَّل ذلك عمر للنبي ﷺ قائلًا: إني أخشى أن يتَّكِلَ الناس عليها، فخلِّهِمْ يعملون. قال رسول الله ﷺ: **«فخَلِّهِمْ»**(٤).

❁ ❁ ❁

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١١/٣٤٨).

(٤) أخرجه مسلم (٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المؤمن بين الخوف والرجاء

ما الأفضل والأكمل في حال المؤمن: أن يُغَلِّبَ الرجاء، أو الخوف، أو أن يستوي عنده الخوف والرجاء، أو أن ذلك يختلف من حالٍ إلى حال؟

وللعلماء في ذلك مذاهب متعددة:

١ ـ **فمن أهل العلم مَنْ يَقول:** ينبغي أن يُغَلِّب الخوف؛ ليحمله ذلك على الامتثال بفعل الطاعة، وترك المعصية.

٢ ـ **ومنهم من يقول:** ينبغي أن يُغَلِّب الرَّجَاء، ويَسْتَدِلّون على ذلك بقول النبي ﷺ في الحديث السابق فيما يرويه عن ربِّهِ تَبَارَكَ وتعالى: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»**(١).

٣ ـ **ومِنْهُمْ مَنْ فرَّق فقال:** إذا فعل الطاعة رَجَا القبول، وأحسن الظن بالله، وإذا تاب رَجَا قبول التوبة، كما قال بعض السلف: «إِنِّي لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا أُلهمت الدُّعاء فإن الإجابة معه»(٢).

وأما إذا هَمَّ بالمعصية أو قارفها، فإنه يُغَلِّبُ الخَوْفَ مِنْ أَجْلِ أن يتوب أو يَنْزَجِرَ عنها، إن كان ذلك قبل مُوَاقعتها، ولكن يشكل على ذلك قول الله ﷻ في صفة أهل الإيمان والنجاة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]. وقد سألت عائشة رضي الله تعالى عنها ـ كما سبق ـ عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **«لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، أولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»**(٣).

قال الألباني رحمه الله تعالى: «والسِّر في خوف المؤمنين ألَّا تُقْبَل منهم عبادتهم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) نقله ابن القيم في «الفوائد» (ص١٤١)، و«الجواب الكافي» (ص٢٩) وغيرهما.

(٣) تقدم تخريجه.

ليس هو خشيتهم ألا يُوَفِّيَهم الله أجرهم؛ فإن هذا خلاف وعد الله إيَّاهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، بل إنه ليزيدهم عليها؛ كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، والله تعالى لا يخلف وعده، كما قال في كتابه.

وإنما السِّر أن القبول مُتَعلِّق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنّون أنهم قصَّروا في ذلك؛ ولهذا فهم يخافون ألَّا تُقْبَل منهم.

فليتأمَّل المؤمن هذا عسى أن يزداد حِرْصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله»[(١)]. اهـ.

وهذا مما يؤيّد القول بأن كُلَّ رَاجٍ خائف ولا بُدَّ، وكل خائف راجٍ ولا بُدَّ، فالمؤمن يعمل العمل الصالح يرجو به رحمة الله، وهو في ذات الأمر يخاف ألَّا يُقْبَل منه، وأن يُرَدّ عليه.

وهؤلاء إنما حملهم على هذا الخوف مع الطاعة عِلْمهم أن القبول والمغفرة مُرَتَّب على تحقيق الشروط وانتفاء الموانع، وهم لا يعلمون أَقُبِلَ ذَلِكَ منهم أم لم يُقْبَلْ؟ وهل حقَّقوا الشروط وانتفت الموانع في حقهم؟

ولذلك؛ كان بعض السلف يتمنى أنْ لو علم أن الله قد قبل منه سجدة واحدة؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

فعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: «دخل سائل إلى ابن عمر ﷺ فقال لابنه: أعْطِهِ دِينارًا، فلمَّا انصرف قال له عقيل: تقبَّل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمتُ أنَّ اللهَ تَقَبَّل مِنِّي سَجْدَةَ واحدةً، أو صَدَقَةً دِرْهَم لم يكن غَائِبٌ أحبَّ إليّ مِنَ المَوْت. تدري ممن يَتَقَبَّلُ؟ إنما يتقبَّلُ الله من المتقين»[(٢)].

وذُكِر عن عامر بن عبد الله العنبري أنه حين حضرته الوفاة بَكَى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقد كنتَ وكنتَ! فقال: «يبكيني أني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]»[(٣)].

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٤٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٧٩)، وذكره ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٢١٢) واللفظ له.

والمقصود: أن حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم يُشْكِلُ على قَوْل من قال بأن العبد في حال الطاعة عليه أن يُغَلِّب الرجاء، وفي حال المعصية يُغَلِّب الخوف.

النَّاسِكُونَ يُحَاذِرُو ... نَ وَمَا بِسَيِّئَةٍ أَلَمُّوا
كَانُوا إِذَا رَامُوا كَلَا ... مًا مُطْلَقًا خَطَمُوا وَزَمُّوا
إِنْ قِيلَتِ الْفَحْشَاءُ أَوْ ... ظَهَرَتْ عَمُوا عَنْهَا وَصَمُّوا
فَمَضَوْا وَجَاءَ مَعَاشِرٌ ... بِالْمُنْكَرَاتِ طَمُوا وَطَمُّوا
فَفَمٌ لِطُعْمٍ فَاغِرٌ ... وَيَدٌ عَلَى مَالٍ تَضُمُّ
عَدَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الْجَمِيـ ... ـلِ وَلِلْخَنَا عَمَدُوا وَأَمُّوا
وَإِذَا هُمُ أَعْيَتْهُمُ ... شُفَعَاؤُهُمْ كَذَبُوا وَأَمُّوا
فَالصَّدْرُ يَغْلِي بِالْهَوَا ... جِسِ مِثْلَ مَا يَغْلِي الْمُحَمُّ(١)

٤ ـ وطائفة رابعة من أهل العلم قالوا: يَتَعَيَّنُ على العبد أن يسوّيَ بَيْنَ الخوف والرجاء، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا»(٢)؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن جُزي رحمه الله: «جَمَع الله الخوف والطمع؛ ليكون العبد خائفًا راجيًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]»(٣). اهـ.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «القلب في سَيْرِهِ إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِمَ الرَّأس والجناحان فالطائر جيّد الطَّيَرَانِ، ومتى قُطِعَ الرَّأسُ مات الطائر، ومَتَى فُقِدَ الجَنَاحَان فهو عُرْضه لكل صائد وكاسِر، ولكن السَّلَفَ استحبّوا أن يقْوى في الصحة جَنَاح الخوف على جَنَاح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقْوى جَنَاح الرجاء على جَنَاح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: «ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فَسَدَ». وقال غيره: «أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المَرْكَب، والرَّجَاء حَادٍ، والخوف سَائِق، والله المُوَصِّل بمَنِّهِ وَكَرَمِهِ»(٤). اهـ.

وقد قال سهل بن عبد الله رحمه الله: «الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا اسْتَوَيَا

(١) «المدهش» (ص٤٧٩).
(٢) «مسائل الإمام أحمد» لابن هانئ (٢/ ١٧٨).
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٣٥).
(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).

اسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُ، وإن رَجَحَ أحدهما بطل الآخر»[١]؛ **ولهذا قال بكر بن عبد الله المزني**: «ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَلْتَمِسَ أن يكون هو ذلك الواحد؛ ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل النَّار منكم إلا رجلٌ واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَفْرَق أن يكون هو ذلك الواحد»[٢].

فهذا جَمْع بين الخوف والرجاء على حد سواء.

وقد قيل لعمر رضي الله تعالى عنه حينما طُعِن: ألا تَسْتَخْلِف؟ قال: «إن أَسْتَخْلِف فقَدِ اسْتَخْلَف مَنْ هو خيرٌ مني: أبو بكر؛ وإن أَتْرُك فقد تَرَكَ من هو خير مني: رسول الله ﷺ»، فأثنوا عليه، فقال: «راغب وراهب، وددتُ أني نجَوْتُ منها كَفَافًا، لا لي ولا عليَّ. لا أتحملها حيًّا ولا ميتًا»[٣].

٥ ـ **ومنهم: من فصَّل، فقال**: يُغَلِّب الخوف في حال الصحة، ويُغَلِّب الرجاء عند اقتراب الموت، وفي حال الاحتضار. وهذا القول ذهب إليه جمعٌ كَثِيرٌ مِنْ أهل العلم[٤]، وهو من أحسن هذه الأقوال.

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف»[٥]؛ وذلك أن الإنسان في حال القوة والعافية والصحة بحاجة إلى شيء من التخويف، من أجل أن يَسْتَحِثّه ذلك على المزيد من الأعمال الصالحة، ومن أجل أن يَنْكَفّ عن كل ما لا يليق.

وأمّا إذا كانت الدنيا وراء ظهره، وقد يَئِسَ منها، وصار في حال يُوشِك فيها أن يُوافي عمله، وأن يلقى ربَّه تبارك وتعالى، فإنه عندئذ لا تتحرّك نَفْسه للمعصية، فينبغي في هذه الحال أن يَقْدُم على الله ﷻ قُدُوم العبد الذي قد حَسُن ظَنُّه بالله تبارك وتعالى؛ لما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بثلاثة أيَّام: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ**»[٦].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢١٨) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) وبه قال النووي في «رياض الصالحين» (ص٢١٧)، وابن جزي في «تفسيره» (٢/ ٣٥)، والألوسي في «تفسيره» (١٥/ ١٠٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٩).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

ولكن قد يُشْكل على هذا القول حديث أنس ﷺ، أن النبي ﷺ دَخَلَ على شاب وهو في الموت - يعني: النَّزْع - فقال: **«كَيْفَ تَجِدُكَ؟»** قال: والله يا رسول الله! إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: **«لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»**(١)، فهَذَا الرجل أخبر أنه قد جَمَع بين الخوف والرجاء وهو في حال النَّزْع، وقد أخبر النبيّ ﷺ عندئذ أنهما لا يجتمعان في قلب في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه، وأمَّنه ممَّا يَخاف.

فهذا الحديث يدعو إلى مزيد من النَّظَر والتأمّل في هذا القول الذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين من السَّلَف والخلف رضي الله تعالى عنهم.

وقد جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله **أنه قال:** «كانوا يَسْتَحِبُّون أن يُلَقِّنُوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يُحسن ظنه بربه»(٢).

وفي خَبَرِ وفَاةِ عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، حينما بكى عند موته، واستقبل الجدار، وأدار ظهره لمن حَضَرَه، ومنهم ابنه عبد الله، فَجَعَل يُذَكّرُه بأعماله الصالحة، وصُحْبته لرسول الله ﷺ، ونُصْرَته إيَّاه، وهِجْرَته إليه، وما إلى ذلك مما يقوّي الرجاء في نفسه(٣).

وقد قال المُعْتَمِر بن سليمان رحمه الله: قال لي أبي حين حَضَرَتْهُ الوفاة: «يَا مُعْتَمِر، حدثني بالرُّخَص، لعلي ألْقَى الله وأنا حَسَن الظن به»(٤).

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله **يقول عند موته:** «لقد رجوتُ ممَّنْ ألبسني بين الأحياء ثوب عافيته ألَّا يُعَذِّبَنِي بعد الممات، وقد عرفتُ جود رأفته»(٥).

وقال: «إني لأرجو أن يكون توحيد لم يعجز عن هَدْم ما قَبْله مِنْ كُفْر، لا يعجز عن محْوِ ما بعده من ذنب»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٦١)، وأعله البخاري بالإرسال كما في «العلل الكبير» (ص١٤٢)، وجود إسناده النووي في «خلاصة الأحكام» (٢/ ٩٠٢)، وابن الملقن في «تحفة المحتاج» (١/ ٥٨٣)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٤١)، والهيتمي في «الزواجر» (١/ ١٤٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٠٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢٩)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢٨)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٧) واللفظ له، أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٨).

(٦) المصدر السابق (١٠٤٢).

فهذا يدلُّ على أنه قد غَلَّب حال الرجاء عند موته، وأخبارهم في ذلك كثيرة مستفيضة، ولعل من أحسن ما يُقَال في ذلك، ومن أوضحه ما عَبَّر عنه الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قرَّرَ أنه «يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا، راهبًا؛ إن نظر إلى ذنوبه، وعَدْل الله، وشدَّة عقابه خَشِيَ رَبَّهُ وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص، وعفوه الشامل رَجَا وطَمِع، وإن وُفِّق لطاعة رَجَا مِنْ رَبِّهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ بقبولها، وخاف من ردِّها بتقصيره في حقها، وإن ابتُلِي بمعصية رَجَا من ربّه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضَعْف التوبة والالتفات للذنب أن يُعَاقَب عليها.

وعند النّعم والمَسَارّ يرجو الله دوامها، والزيادة منها، والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر مِنْ سَلْبِهَا.

وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلّها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه، إذا لم يُوَفَّق للقيام بالصبر الواجب.

فالمؤمن الموحِّد في كل أحواله مُلازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب، وهو النافع، وبه تحصل السعادة»(١).

فالله تبارك وتعالى قد خَوَّفَ العاصين بِغَضَبِهِ وعقابه ليُخَوِّفوا أنفسهم بما خوَّفَهُم، فيتوبوا إلى الله ﷻ، ورجَّى التائبين من عباده على تَرْكِهِم الذنوب لئلَّا يقنطوا، فيقيموا على ذنوبهم، ورجَّى العاملين ليبعثهم الرجاء على الأعمال التي تُقَرِّبُ إليه.

فينبغي على العبد أن يضع الرجاء في موضعه الذي وضعه الله ﷻ فيه، فإذا هَمَّ بالمعصية خَوَّفَ نَفْسه من عذاب الله ﷻ، فإنْ غَلَبه هواه فواقَعَها خَوَّف نَفْسه بالله وبِعَذَابِهِ من أجل أن يتوب، فإذا تاب رَجَّى نَفْسه بقبول التوبة، ولا يَقْنَط ولا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى، وإذا نزعت نَفْسه إلى الإصرار على هذه المعصية عاتَبَ نَفْسه وذكَّرَهَا بأن الله ﷻ شديد العقاب، وأَنَّ غَضَبه لا يُقَاوَمُ، وأن عذابه لا صبر لأحد عليه؛ لِيَرْعَوِي، ويترك هذا الذنب، ولا يُصِرّ عليه، فإذا حصل في قلبه شيء من تَكَاثُر الذنوب فَتَعَاظَمها، فإنه يحتاج إلى الرجاء ليمتدّ أَمَلُه، فيكون ذلك حاملًا له على حُسْن العمل، وعلى التوبة إلى الله تبارك وتعالى؛ فالله غفور لمن أناب إليه وتاب.

هكذا ينبغي أن يكون حال العبد؛ فلا يَصِل إلى حال القنوط، ولا يزداد عنده

---

(١) ما بين الأقواس من كلام السعدي في «القول السديد» (ص٢١٣).

الرجاء، فيكون قد أمِن مَكْر الله ﷻ(١).

فهذا يكون على سِيرَة مَرْضِيَّة، وحالة مستقيمة، حتى يُوافِي رَبَّهُ تَبَارَكَ وتعالى بهذه الحال؛ وهذه هي طريقة القرآن؛ حيث يَقْرِن بين أسماء المَخَافَة وبين أسماء الرجاء؛ قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

عَيْنٌ تُسَرُّ إِذَا رَأَتْكَ وَأُخْتُهَا ... تَبْكِي لِطُولِ تَبَاعُدٍ وَفِرَاقِ
فَاحْفَظْ لِوَاحِدَةٍ دَوَامَ سُرُورِهَا ... وَعِدِ الَّتِي أَبْكَيْتَهَا بِتَلَاقِي(٢)

فيجمع العبد في قلبه بين هذين الأمرين، كما صَوَّر الشاعر حال العينين، هذه تبكي، وهذه تُسَرّ وتفرح.

ولهذا قال بعض السلف: «مَنْ عَبَدَ الله تعالى بالحُب وحده فهو زِنْدِيق، ومن عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حَرُوري، ومَنْ عَبَدَهُ بالرجاء وحده فهو مُرْجِئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرَّجَاءِ فهو مؤمن»(٣)، وقد جَمَع الله هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فابتغاء الوسيلة الذي ذكره الله في هذه الآية هو محبته الداعية إلى التقرّب إليه. ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف؛ فهذه هي طريقة أولياء الله المتّقين»(٤).

وذَكَر الطَّمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الله ﷻ قال في الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال في الذِّكر: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فذَكَر الخِيفة في حال الذِّكر، وذَكَر الطَّمع والخوف في حال الدعاء؛ وذلك لأن الدعاء مبنيٌّ على الطَّمع والخوف؛ لأن الداعي إن لم يُوجَد عنده الطَّمع في إجابة سؤاله لم يدع.

وذَكَر الله الخوف في آية الذِّكر لشدة حاجة الخائف إليه(٥).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «في تغييب الله عن عباده خواتيمَ أعمالهم حكمة بالغة، وتدبير لطيف؛ وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجابُ والكسلُ مَن عَلِم أنه يُخْتَم

---

(١) انظر: «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبي (ص٣٤٩ ـ ٣٥٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢١٩)، و«المدهش» (ص٤٥٤).

(٣) تقدم.

(٤) ما بين الأقواس من: «بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥١) بتصرُّف يسير. وراجع: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٨٥٣).

له بالإيمان، ومَن عَلِم أنه يُخْتَم له بالكفر يزداد غيًّا وطغيانًا وكفرًا، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء، فلا يُعْجَب المُطيع لله بعمله، ولا ييأس العاصي من رحمته»[١]. اهـ.

ولذلك؛ لمَّا عَرَف إبليس عاقبته ومآله جَدَّ وَاجْتَهَدَ فِي مزيد من محادّة الله ﷻ والغواية، وإضلال الناس عن سلوك الصّراط المستقيم.

وفي هذا المقام - أعني: كون العبد بين الخوف والرجاء، وأنه يُلَازِم كلّ واحد منهما - يُخْشَى عليه من آفتين اثنتين:

الأولى: استيلاء الخوف.

الثانية: استيلاء الرجاء.

والقنوط من رحمة الله تبارك وتعالى، واليأس من رَوْحِهِ له **سببان:**

الأول: أن يُسْرِفَ العبد على نَفْسه، ويُكْثِر من الذنوب والمعاصي، ويُصِر عليها، وعندئذ ينقطع طمعه من رحمة الله ﷻ لإقامته على أسباب الهَلَكَةِ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخُلُقًا مُلَازِمًا، وهذا غاية ما يريده منه الشيطان.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بسبب ما جَنَتْ يداه من الجرائم، ويضعف عِلْمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، فيظنّ بجهله أن الله ﷻ لا يغفر له ولا يرحمه، ولو تاب وأناب، فتضعف إرادته عند ذلك، وييأس ويقنط من رحمة الله ﷻ، ويَدَع الإنابة والتوبة.

وأمّا الأمن من مكر الله تبارك وتعالى فله **سببان أيضًا:**

الأول: أن يكون العبد مُعْرِضًا عن دين الله تبارك وتعالى، غافلًا عن معرفة ربّه ومليكه ﷻ، وما له من الحقوق، متهاونًا بذلك؛ فلا يزال مُعْرِضًا غافلًا عن الواجبات، مُنْهَمِكًا في المحرَّمات، حتى يَضْمَحِل خوف الله من قلبه، ويتلاشى، ويموت هذا القلب، ولا يُوجَد فيه من الإيمان شيءٌ مؤثّر ومحرّك إلى التوبة أو الأعمال الصالحة.

والثاني: أن يكون العبد من العُبّاد الجُهّال، فَيُعْجَب بشيء من أعماله الصالحة، فلا يزال به جهله حتى يغْتَرّ بعمله، فيترحَّل الخوف من قلبه، ويرى أن له عند الله منزلةً ومقامًا عظيمًا؛ فعند ذلك يَتَّكِل على هذه الأعمال القليلة، ويُخْذَل في الحال التي يكون أحوج ما يكون فيها إلى ألطاف الله ﷻ ورحمته[٢].

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «القول السديد» (ص٢١٤).

منزلة الرجاء

عرفنا أن الرجاء حَادٍ يحدو بالعبد إلى رَبِّهِ تبارك وتعالى، فـ«لولا رَوْح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهُدِمَتْ صَوَامِع وبِيَع وصلوات ومساجد يُذْكَر فيها اسم الله كثيرًا؛ بل لولا رَوح الرجاء لما تحرَّكَتِ الجوارح بالطاعة، ولولا رِيحُه الطيبة لما جَرَت سُفُن الأعمال في بحر الإرادات»[1].

وإذا كان العبد لا يرجو ثوابًا عند الله ﷻ، وحظًّا في الدار الآخرة؛ فلماذا يعمل؟ ولماذا يجتهد؟ ولماذا يقوم بوظائف العبودية؟ كما قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ المُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا
لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو المَطِيَّ لمَا سَرَتْ ... بِحُمُولِهَا لِدِيَارِهِمْ تَرْجُو اللِّقَا[2]

وقد قال بعض أهل العلم واصفًا الرجاء والخوف: «الرجاء والخوف جَنَاحان، بهما يطير المُقَرَّبون إلى كل مقام محمود، ومطيَّتَان بهما يُقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود؛ فلا يقود إلى قُرْب الرحمٰن، ورَوْح الجِنان، مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب، ومَشَاقّ الجوارح والأعضاء؛ إلا أَزِمَّة الرجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم، والعذاب الأليم، مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذّات؛ إلا سِيَاط التَّخويف، وسَطَوَات التَّعنيف»[3].

وقد قال الله ﷻ عن أهل الإيمان: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فلا تتمّ للعبد العبودية إلا بالخوف والرجاء.

وكما يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبالخوف يَنْكَفّ عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات»[4]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٢) مع حذف ثلاث أبيات بين البيتين.
(٣) «الإحياء» (٤/ ١٤٢).
(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٨٩).

الرجاء في الكتاب والسُّنَّة

تَقَدَّمَت الإشارةُ إلى أن نصوص الرجاء كثيرة جدًّا، ولسنا بصدد عرضها وتتبعها؛ لئلا يغتَرَّ بها مُغْتَرّ فيَهْلِك، **ولكن لا بأس بذكر طرف منها.**

قال الله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال في هذه الآية: قال الله ﷻ: **«أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إِلَهًا، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»**(١).

وقد تكلم العلماء رحمهم الله على أرْجَى آية في كتاب الله ﷻ(٢)، **فمنهم من قال** ـ وهو المشهور ـ: إن أرجى آية في القرآن هي ما رجَّى الله ﷻ به الفاسقين العاصين الظالمين بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد اختار ذلك جمع من الصحابة فمن بعدهم؛ كابن مسعود(٣)، وابن عمر(٤)، وعبد الله بن عمرو بن العاص(٥)، وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا.

فهذه الآية أضاف الله ﷻ فيها العباد إلى نَفْسه فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾، وهم أهل الظلم والمعاصي والإسراف، وفي هذا بشارة لهم.

ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب فقال: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، فغير

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٣): «حسن غريب»، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٤٩٢)، وحسَّنه الألباني في تخريج كتاب «السُّنَّة» (٩٦٩)، وحكم عليه العراقي في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٥٦) بالبطلان، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٦١).

(٢) راجع: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٣٣، ٨/ ٤٥٥)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٧٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٥٨، ٨٦٦١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٩٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٠٩)، والحاكم (٧٦٧٠).

المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي أن يَشْمَلَهم هذا التَّلَطُّف في الخطاب من باب أولى.

وقال بعض أهل العلم: إن أرجى آية في كتاب الله ﷻ هي آية الدَّين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢][١]؛ وذلك أن الله ﷻ قد احتاط لمال المؤمن هذه الاحتياطات الكثيرة، فأمر بكتابة الدَّيْن، وأمر بالإشهاد عليه، وأن يكون الكاتب كاتبًا بالعدل، وألَّا يأبى الكاتب أن يكتب كما علَّمه الله ﷻ، وعلَّمه كيف يُمْلِي إن كان لا يستطيع الكتابة، إلى غير ذلك من الاحترازات الكثيرة التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية، والتي هي أطول آية في كتاب الله تبارك وتعالى، فقالوا: إن الذي احتاط لمال المؤمن هذا الاحتياط حري بألَّا يطرحه في النار إذا تاب إليه، وأقبل وأناب.

وقال بعض أهل العلم: هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النور: ٢٢][٢].

وسبب نزولها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حلَف ألَّا يَصِل مسطحًا رضي الله عنه، وكان قريبًا لأبي بكر، وكان يصله لفقره وقرابته، فلما خاض فيما خاض فيه أهل الإفك؛ حلَف أبو بكر ألَّا يَصِلَه بعد ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢][٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨][٤].

وقال بعضهم: هي قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠][٥].

وقال آخرون: هي قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: ٥]، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه[٦].

---

(١) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦)، والإتقان (٤/ ١٢٩ ـ ١٣٦)، و«أضواء البيان» (٦/ ١٨٣).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١٠/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٨١)، و«التسهيل» (٣/ ٦٣)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٤٦)، و«الإتقان» (٤/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) حُكِي عن علي رضي الله عنه. انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٣٢).

(٥) حُكِي عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٥٩).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٧٩).

وقال بعضهم: هي قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢][١].

ولكن لا بد من ملاحظة أن ذلك مَقْرُونٌ بالتوبة، بل هو دعاء إلى التوبة بألطف عبارة؛ بأسلوب العرض الرَّقيق: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

ونحن نستفيد من هذا أمرًا آخر: وهو ما نقع فيه أحيانًا، حينما نشتط في النظر إلى إساءة المسيئين، فندعو الله ألَّا يتجاوز عنهم، وألَّا يغفر لهم، وألا يوفقهم إلى التوبة إذا كانوا من المسلمين، وإن كانوا من غير المسلمين ألَّا يوفقهم إلى الإسلام، فلماذا؟ وهذه سعة رحمة الله ﷻ ومغفرته.

وأما ما جاء في السُّنَّة من أحاديث الرجاء فكثير؛ كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[٢].

وكقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[٣].

وفي الحديث الآخر: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقال تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارَكَ وتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فقال: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذنبِي، فقالَ تَبارَكَ وتَعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أن لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويَأْخُذُ بالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[٤].

وكقوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[٥].

وفي حديث آخر: «إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٣)، عن أبي عثمان النهدي.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة ﵁.

تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]، وفي رواية: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً؛ فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثمَّ خرجَ يَسْأَلُ، فأتَى رَاهِبًا فسأَلَهُ، فقال لَهُ: هل مِنْ تَوْبَةٍ؟ قال: لَا، فقتَلَهُ. فجعَلَ يَسْأَلُ، فقَالَ لهُ رجُلٌ: ائتِ قَرْيَةَ كَذا وكَذا، فأدْرَكَهُ الموْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فاختَصَمَتْ فِيه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلَائِكَةُ العَذَابِ، فأوْحَى اللهُ إِلى هَذهِ أَنْ تقرّبي، وأوْحَى الله إلى هذه أن تباعَدي، وقال: قِيسُوا ما بَيْنَهُما، فوُجِدَ إلى هذه أقْرَب بِشِبْرٍ، فغُفِرَ لَهُ»[٣].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: قدم علَى النبي ﷺ سَبْي، فإذا امرأة من السَّبْي قد تَحْلُب ثَدْيَهَا تسْقِي، إذا وجدَت صَبِيًّا في السَّبْي أخذَتْهُ فألْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وأرْضَعَتْه، فقال لنا النبي ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قلنا: لا، وهِيَ تقْدِر على ألّا تطْرَحَهُ، فقال: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[٤]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وهذا القدر القليل الذي ذكرناه يبعث على الإقبال على الله ﷻ، فينفَرِج الأمل أمام العبد بسَعَة رحمة الله تبارك وتعالى، فيتوب ويُحْسِن العمل مهما كانت ذنوبه السابقة، وكثير من الناس يسأل، أو يتساءل في نَفْسه: هل له من توبة؟ وربما اتَّهم بعضهم نَفْسه بالنِّفَاق؛ لأنه يتوب، ثم يعصي الله ﷻ، ثم يتوب، ثم يعصي الله ﷻ، ثم يتوب، فيُوسوس له الشيطان: بأنك منافق، فأنت تتوب ثم تنقُض هذه التوبة، وتخفي من أعمالك السيئة ما الله مُطَّلع عليه، ثم تبدو أمام الناس في ثوب الإحسان والعمل الصالح، فأنت منافق!!

فينبغي على العبد ألّا يحمله الذنب ـ وإن تكرَّر ـ على اليأس والقُنوط؛ بل عليه أن يتوب، وهو بندمه وتوبته وإقباله على الله ﷻ ليس بمنافق؛ فالمؤمن هو مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وساءَتْهُ معْصِيَتُهُ. وكم غر الشيطان بهذه الخُدعة من أقوام، فتركوا صراط الله المستقيم، نعوذ بالله مِنَ الخذلان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)، واللفظ له، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

عَلِّقْ رَجَاءَكَ بالله وحدَه لا شريك له

سبق معنا أن الرجاء يتعلّق بالخير، فالإنسان يرجو الأمور المحبوبة. وأمّا الخوف فإنه يكون من الشرور، فيخاف الإنسان ما يضره ويؤذيه؛ فالراجي يطلب حصول المنافع والأمور الخيِّرَة المحبوبة، وهو أيضًا في نَفْس الوقت يخاف من الشر.

ومعلوم أن الذي يأتي بالحسنات والسيئات إنما هو الله وحده لا شريك له، فهو يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، ويقول: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، فكل خير ونعمة تنال العبد، فإنما هي مِنَ الله ﷻ، وكل شَرٍّ ومصيبة تندفع أو تنكَشِفُ عنه، فإن الذي يمنعها هو الله، فهو وَحْدَهُ القادر على كَشْفِ الضُرِّ والبؤس، فهي وإن جَرَتْ بعض أسباب كشفها على يَدِ بعض المخلوقين، أو جَرَتْ بعض أسباب تحصيل المنافع على يد بعض المخلوقين، فإن الله ﷻ خالِقُ الأسباب كلها، ولا حول ولا قوة إلا به، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وإذا كان الأمر بهذه المثابة؛ فينبغي للإنسان أن يطلب ذلك من الله وحْدَهُ، فيكون رجاؤه مُعَلَّقًا بالله، وخوفه من الله دون ما سواه؛ لأن المخلوق لا حول له ولا طَوْلَ ولا قُوَّةَ، فالله هو مُسَبِّب الأسباب، وهو خالق كل شيء، ونواصي العِبَادِ تحت قَبْضَته وتَصَرّفه، وأزِمَّة الأمور إليه؛ فينبغي أن نُقْبِل عليه خوفًا ورجاءً.

ثم إن هذه الأسباب التي تحصل بها المنافع، وتَنْدَفع بها الشرور والمخاوف لا تستقل بنفسها، بل لا بد لها من مُعَاون، ولا بد أن يُمنع المُعارِض المُعوِّق؛ فهذا المطر سبب للنبات، ولكنه يحتاج إلى وَضْع البذور، وحَرْثِ الأرض وتنقيتها من الشوائب، كما أنه بحاجة إلى تسميدها، كما أن هذا النبات بحاجة إلى دفع الآفات التي تُفسده وتقضي عليه؛ فلا بد من تحقُّق الشروط وانتفاء الموانع، فهذه الأسباب لا تقوم بمُجَرَّدها في تحصيل المطلوبات.

ثم لا يكون بعد ذلك إلا ما شاء الله أن يكون، فما شاء الله كان، ولو لم يشأه الناس، وما لم يشأ الله ﷻ لا يمكن أن يكون، ولو اجتمع مَنْ بِأَرْجَائِهَا من الأوَّلِينَ والآخرين على تكوينه وإحداثه، وقد قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، ولَوِ اجْتَمَعُوا

عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[١].

فلا حاجة لأن يُذِل العبد نَفْسه للخَلْق؛ لما لهم من رئاسة أو مُلْك، أو لما لهم مِنْ مَال وثَرْوة وتجَارة، فهم عبيد ضعفاء، ولا يملكون لأنفسهم حولًا ولا طَوْلًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

أرأيتم الطبيب الذي تتعلَّق به نَفْس المريض، أليس يمرض ثم يموت؟! أين الأطباء عَبْر القرون الذين عالجوا كثيرًا من المرضى وداووهم؟ إنهم يمرضون كما يمرض غيرهم. وهؤلاء الملوك، وأهل الثروة والقوة والمَنَعة، تنزل بهم الآفات والمُنَغِّصات والأكدار، فيحصل لهم ما يحصل لغيرهم، ويموتون، وتفنى عنهم أجنادهم وثرواتهم، ولا يبقى إلا الواحد الذي لا نِدَّ لَهُ ولا شريك؛ فينبغي أن نتقرَّب إليه بأنواع القُرُبات، وأن نُعَلِّقَ قلوبنا به؛ فليس يملك النَّفْع والضر أحد سواه، فهذه هي حقيقة التوحيد الذي ينبغي أن يستقر في نفوس العابدين، ومِنْ ثَمَّ فلا يكون هناك محل في قلب المؤمن للتوكُّل على أحد سوى الله ﷻ، أو الخوف من غير الله؛ فالذي يحْمِلُ على تَرْكِ أمر الله والتعَلّق بالمخلوقين بالمُدَاهنة وارْتِكَاب ما لا يليق قِلَّة العلم بالله، وقد تكلَّم على هذا المعنى كثير من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه[٢]، وكذلك الحافظ ابن القيم[٣]، وهذا مفاد ما ذكروه وخلاصته.

ولهذا قال من قال من أهل العلم: «إنَّ الالتفات إلى الأسباب والتعلّق بها شِرْكٌ في التوحيد، ومحْوُ الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، كما أن الإعراض عن الأسباب بالكُلِّية قَدْحٌ في الشَّرْع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨] أمره ببذل السبب مع تعلق الرغبة بالله ﷻ، وقدَّم المعمول ـ الجار والمجرور ـ مما يدلُّ على أن الرغبة إنما تُوَجَّه إلى الله وحْدَه؛ كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، كما قال أيضًا في التوكل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رَجَا قوة أحد، أو عمله، أو علمه، أو حاله، أو غير ذلك، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السَّبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكَّل عليه إلا خاب ظنه، وقد يصل به ذلك إلى الشرك بالله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٦).

(٣) انظر: «الفوائد» (ص١٢٤ ـ ١٢٦).

والمشرك ـ كما هو معلوم ـ يخاف المخلوقين ويرجوهم، فيحصل له بسبب شركه رُعب؛ كما قال الله ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]»[١]، فالباء هنا تدل على السببية؛ ولذلك فمن تَرَحَّلَ التوحيد من قلبه، وصار اعتماده على المخلوقين سَاوَر القلقُ قلبَه، وخالطه مخالطة عظيمة، تمنعه من اللذَّات، بل وتمنعه من النوم، فهو في حال لا يعلمها إلا الله ﷻ، بخلاف مَنْ أخْلَصَ لله ﷻ، فإن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، وهو في غاية الطمأنينة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، (لَهُمُ) الأمن الكامل التام، ولهم الاهتداء الكامل، والعلماء رحمهم الله يقولون: إن الحكم المُعلَّق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا: الأمن والاهتداء، عُلِّقَ على وصف، وهو الإيمان الذي لم يُخالِطه الشرك، فيزيد بزيادته، وينقص بنقصانه.

فعلى قدر توحيد العبد، ويقينه، وإقباله على الله ﷻ يكون له من الطمأنينة والسكينة وراحة القلب والاهتداء؛ ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله واصفًا شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها... وكُنَّا إذا اشْتَدَّ بِنَا الخوف، وساءت منَّا الظُّنون، وضاقَتْ بِنَا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نَرَاه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كُلّه، وينقلب انشِرَاحًا، وقوَّة، ويقينًا، وطُمَأْنِينة»[٢].اهـ. وهذا شيء مُشَاهد؛ فإن مِن الناس مَن يجد في قلبه وحشة، ويجد مَخَاوِف لا يدري ما سببها، فإذا نَظَر إلى بعض الوجوه التي قد امتلأت قلوب أصحابها من محبة الله ومعرفته والتوكل عليه؛ ذهب ذلك الذي يجده في قلبه.

وكان بعضهم يقول: «كنتُ إذا رأيتُ من قلبي قسوة نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهه كأنه وجه ثَكْلى»[٣]؛ لما يبدو عليه من أمارات الخوف من الله ﷻ، والإشفاق منه.

فالمقصود: أن الاعتماد على المخلوقين، وتعليق القلب بهم نوع من الإشراك بالله ﷻ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٥٧) بتصرُّف.
(٢) «الوابل الصيب» (١٠٩ ـ ١١٠).
(٣) تقدم تخريجه.

فهذا أحد أسباب الحرمان، بل هو أحد أسباب نزول المكْرُوه بهذا الخَائِفِ، «فإنه على قَدْرِ خَوْفِكَ من غير الله يُسَلَّطُ عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان»(١).

ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؟! أي: زادوهم خوفًا.

ثم يُقَال أيضًا: إن هذا الرجاء الواقع من العبد من جهة تعلُّقه بالقلب والعمل، تارة يكون العبد راجيًا بعمل يعمله لمن يرجوه؛ كأن يتقرَّب إلى هذا الإنسان بقَرَابين وأعمال، وربما فَعَل ذلك وذاك المرجو لا يشعر؛ فهذا نوع من العبادة، ويكثر عند أولئك الذين ترَحَّلَ الخوف والرجاء من الله ﷻ عن قلوبهم، فامتلأت قلوبهم تطلُّعًا إلى المخلوقين، وإقبالًا عليهم، فصار ذلك المخلوق ربًّا ومعبودًا لهم، يتقرَّبُون إليه بألوان القربات، ويخافونه ولو لم يكن بحضرتهم.

وتارة يعتمد قلب العبد على هذا الإنسان اعتمادًا مباشرًا باللّجوء إليه، وسؤاله، والتضرّع إليه، وهذا نوع من الاستعانة بغير الله فيما لا يجوز إلا لله، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فلا يُسْتَعَان بغير الله، كما أنه لا يُعْبَد غير الله.

ومن هنا نعلم أن كل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول ولا بد، وكل عابد له فهو راغب وراهب، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فعلى قدر نَقْص الرجاء من الله يكون رجاء المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف من الله يكون الخوف من المخلوق، ومَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: ٣٩]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وكما قيل: «اسْتَغْنِ عَمَّن شِئْت تَكُن نَظِيرَه، وَأَحْسِن إلى مَن شِئْت تَكُن أميره، واحْتَج إلى مَن شِئْت تَكُن أسيره»(٢).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٧٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٩).

ذكر بعض المُفَاضَلات في باب الرجاء

أولًا: المفاضة بين رجاء الثواب ورجاء المغفرة:

يمكن أن يُقال: إن هذه المفاضلة لا وجه لها؛ لأن الرجاءين متلازمان؛ وذلك أنه لا بد من تلازم الخوف والرجاء، فالمؤمن حين يعمل الحسنة يرجو ثواب ربه، وحين يقع في السيئة يرجو مغفرة ربه، وقد وَصَف الله عباده الصالحين فقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن أهل العلم مَنْ رَجَّحَ رَجَاءَ المُحسن؛ لأنه محسن، فأَسْبَاب الرجاء قوية معه، ومنهم من رجح رجاء المُذْنِب؛ لأن رجاءه مَشُوب بالانكسار والذّل إلى الله ﷻ، بخلاف المُحسن؛ فإن رجاءه مُنْبعث من الإحسان، ولرُبَّمَا يحصل له شيء من الركون إلى عمله، أو يحصل له العُجْب والغُرور. أما المُذْنِب فإنه إذا تاب فهو مُنْكَسِر القلب، مُنْطَرِح بين يدي الله ﷻ، مُشْفِق، خائف منه، تغمره المَسْكَنة، فهو مُسْتحضر للذنب كأنه جبل يوشك أن يقع عليه، فهو أبعد ما يكون عن الغرور والعُجْب، ولكل من القولين وِجْهة كما لا يخْفَى.

ثانيًا: المفاضلة بين الخوف والرجاء؟

وقد اختلف الناس في ذلك على **ثلاثة أقوال**:

القول الأول: تفضيل الرجاء:

وذلك لأنه مُتَعلّق بالرَّبِّ؛ لأن الإنسان إنما يرجو ربه؛ وذلك أن رحمة الله ﷻ من لوازم ذاتِهِ، وقد سبقت غضبه.

أما الخوف: فمتعلّق بالذنب؛ لأنه الباعث إليه، فالإنسان يخاف بسبب ذنوبه، وقد جاء عن علي رضي الله عنه: «لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه»(١).

وقالوا: إن الذي يتعلق بالربِّ أفضل مما يتعلّق بالذنب، والرجاء أعلق بالمحبَّة، والمحبة خير من الخوف، وأقرب العباد إلى الله ﷻ أحبهم إليه، والمحبة في جانب الرجاء أعظم.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥١٠).

وقالوا: لو أن اثنين من الملوك، أحدهما يُخْدَم خوفًا من العقاب، والآخر يُخْدَم محبة ورجاء في الثواب، فإن الذي يُخْدَم رجاء الثواب، ومن أجل محبته أكمل، وهذا القول ظاهر اختيار ابن القيم رحمه الله تعالى[١].

القول الثاني: تفضيل الخوف:

وذلك لأن فضيلة كل شيء هي بحسب ما يكون له من الثمرة، والخوف يجلب الطاعات، ويورث المراقبة في الأحوال والحركات والسكنات.

وأما الرجاء، فهو فضيلة مُكَمِّلة له، فعندئذ يرجو العبد الثواب والجزاء على هذه الأعمال الصالحة[٢]. وهذا فيه نظر من وجوه متعددة، لا تخفى على المُتَأَمِّل.

القول الثالث: التفصيل:

وهو الذي اختاره جَمْع من المحققين؛ فلا يقال: إن الرجاء أفضل بإطلاق، ولا الخوف أفضل بإطلاق.

قال ابن قدامه رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن قول القائل: أيما أفضل: الخوف أو الرجاء؟ كقوله: أيّما أفضل الخبز أو الماء؟ وجوابه أن يُقَال: الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا نُظِر إلى الأغلب، فإن استويا فهما متساويان. والخوف والرجاء دواء يُدَاوَى بِهِمَا القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن مِنْ مَكْرِ الله فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط فالرجاء أفضل»[٣].اهـ.

وإذا نظرنا في حال عموم الناس فقد نقول: إن الأفضل في حقهم هو الخوف؛ لأن الإسراف فيهم أكثر، والتفريط أعَمّ وأشمَل؛ ولذلك يمكن أن يُقَال: الخبز أفضل من البِنْسَلِين مثلًا، لأن الخبز يُدَاوَى به الجوع، والجوع لا يَنفَكّ عنه أحد، بل يُصِيبُ الجَمِيع. وأما البِنْسَلِين، فإنه يُدَاوَى به بعض المرْضَى.

وهذا على سبيل العموم والإجمال، فيما لو أراد أحد أن يفاضل بين الأمرين، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٢٠)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٤).

(٢) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٨).

(٣) المصدر السابق (ص٣٨٧).

أنواع الرجاء

ينقسم الشيء باعتبارات عدة؛ فالإنسان مثلًا ينقسم باعتبار الجنس إلى ذكر وأنثى، وباعتبار الصحة والاعتدال إلى صحيح ومريض، وباعتبار الدِّين إلى مسلم وكافر، وباعتبار العقل إلى عاقل وغير عاقل. وهكذا الرجاء ينقسم باعتبارات عدة.

أولًا: أقسام الرجاء باعتبار من صدر عنه:

إذا نظرنا إلى الرجاء بهذا الاعتبار، فيمكن أن نجعله على **ثلاثة أقسام**:

الأول: الذي اتقى الله تعالى بفعل محَابِّه وتَرْك مَسَاخِطه، فهو يرجو الجنة، وهذا لون من ألوان الرجاء، وهو بالدرجة العالية من درجات أهل الإيمان.

الثاني: هو ذلك الرجل الذي أذنب ذنبًا أو ذنوبًا، ثم تاب منها، فهو يرجو أن يَقْبَل الله توبته، وأن يغسل حوبتَهُ. وهذا رجاء صحيح، يُؤْجَرُ العبد عليه، وقد جاء في الحديث الذي سبق ذكره: **«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فيك وَلَا أُبَالِي»**(١).

الثالث: هو ذلك الرجل الذي أسرف على نَفْسه، وتَمَادَى في معصية الله تبارك وتعالى، وتَرَكَ أمْرَهُ، وجعله وراء ظَهْرِهِ، فهو يرجو مع ذلك الحَظْوَة عند الله، ويرجو النعيم المقيم على قِلَّة عَمَلٍ، مع تفريط وتسويف وإساءة، فهذا هو المغرور.

ثانيًا: أقسام الرجاء باعتبار مُتَعَلَّقه، وهو المَرْجُو:

يمكن أن نقسمه بهذا الاعتبار إلى **أربعة أقسام**:

الأول: رجاء الظَّفَر بالمطلوب، والوصول إلى المحبوب، سواء كان ذلك مُعَجَّلًا في الدنيا، أم كان ذلك في الآخرة؛ كرجاء دخول الجنة، ونيل الدرجات العالية فيها، وكرجاء الشرب من حوض النبي ﷺ، والنصر على الأعداء في الدنيا، أو رجوع الغائب.. إلى غير ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال في الرزق: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨]؛ أي: تُؤَمِّلها، بأن يُوَسَّعَ عليك في الرزق،

(١) تقدم تخريجه.

فتعطي لهؤلاء من القرابات وغيرهم ما يُوَاسِيهم، فهذا رجاء لأمر يكون في الدنيا.

الثاني: رجاء دوام النعمة، وبقائها، واستمرارها، وحفظها، فإذا كان مستقيمًا، فهو يرجو التثبيت على هذه الاستقامة، وإذا كان الله ﷻ قد أعطاه، وأَوْلَاه، ووسَّعَ عليه، فهو يرجو أن يبقى ذلك الإِفْضَال مُسْتَمِرًّا، فلا يُسْلَب هذه النِّعْمَة.

الثالث: رجاء دفع المكروه قبل أن يقع؛ كالذي يرجو أن يُنَجِّيه الله ﷻ من النار، وأن يُثَبِّته بالقول الثابت عند الاحتضار، ويرجو أن يُنَجِّيه من عذاب القبر، وأن يُؤَمِّنَه يوم الفزع الأكبر، فهذه أمور يخافها الإنسان ويحذرها، فيتعلَّق رجاؤه بدفع المكروه قبل وقوعه، كما أنه يرجو في الدنيا العافية والسلامة من الفتن والمصائب والآلام التي تُقْلِقُه، وتُزْعِجه.

الرابع: رجاء يتعلّق برفع ما وقع من المكاره، فإذا وقع به مكروه، أو نزلت به مصيبة، أو حصل له مرض، فإنه يتعلق أمله بالله ﷻ، ورجاؤه يبقى ثابتًا راسخًا، فيُحْسِن الظن بالله ﷻ أن يرفع ما نزل به من هذا البلاء، فمن الناس من إذا نزل به المرض أصابه من الهمّ والغمّ والهَلَع ما يصير معه بحالة لا يُنْتَفَع به معها، وهذا شيء مشاهد[١].

ثالثًا: أقسام الرجاء باعتبار مُتَعَلَّقه الزماني:

نستطيع أن نُقَسِّمه بهذا الاعتبار إلى **ثلاثة أقسام**:

فالرجاء تارة يكون مُتَعَلِّقًا بالزمن الحاضر، فالنبي ﷺ حينما قال لأصحابه: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**»[٢]. فهو لا يتحدث عن المستقبل، وإنما يتحدث عن الأمر الحاضر الواقع.

وحينما يعمل الإنسان الأعمال الصالحة، ويقول: أرجو أن يتقبل الله ذلك، فهذا يتعلَّق بالزمن الماضي، ومثله لو سافر له ابن أو صاحب، فلما جاء وقت دخول البلد التي يمكن أن يكون هذا الإنسان قد بلغها في مجاري العادات، قال: أرجو أن يكون فلان قد دخل البلد، أو أرجو أن يكون الحاج قد وصل مكة، فهذا يتعلق بالأمر الماضي.

وأما ما يتعلق بالأمر المستقبل، فهذا ظاهر لا يخفى، فالإنسان يقول: أرجو أن يتغمدني الله برحمته.. أرجو أن أموت على مِلّة الإسلام.. أرجو أن أدخل الجنة، وما شابه ذلك[٣].

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» (٣/ ٧).
(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث عائشة ﵂.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

درجات الرجاء

لعلّ ما ذُكِر عند الكلام على أنواع الرجاء يتبين منه أيضًا درجات الرجاء، ولكن لمزيد الإيضاح نقول:

إن الرجاء ليس على مرتبة ودرجة واحدة، بل هو على درجات، يزيد وينقص كغيره من الأعمال القلبية.

فالإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، يزيد وينقص، وهكذا الخوف والتوكّل والمحبَّة والشكر والحَمْدُ إلى غير ذلك، وكذلك الرجاء، وعليه فيمكن أن نجعله **ثلاث درجات:**

الأولى: أن يعظُم في ظاهره حتى يصيرَ من قبيل الأمن مِنْ مَكْرِ الله ﷻ، **فهذا أمرٌ** مُحَرَّم، وهو أحطّ هذه الدَّرَجات.

الثانية: رجاء من فَرَّط، ويرجو أن يغفر الله له، لكن من غير توبة، مع خَوْفٍ من الله ﷻ، فلم يصل إلى حَدِّ الأمن من مكر الله.

الثالثة: هي الدرجة العليا، وهي أن يرجو رحمة الله ومغفرته، مع التسبب، والعمل الصالح، والإقبال على الله ﷻ بِكُلّيته، فإن صدر منه تقصير استغفر، وتاب، وسارَعَ بالإنابة إلى ربه ومليكه[1].

۞ ۞ ۞

(١) انظر: «التسهيل» (٢/ ٣٥).

الطريق إلى تحقيق الرَّجَاء

الحديث عن تنمية الرجاء في النفوس مُرْتَبط بأمر قد سَبَقَ التَّنْبِيه عليه، وهو أن الرجاء إنما يُخَاطَب به مَنْ كَانَ الخوف غالبًا عليه حتى أضَرَّ به، أو بمن معه من أهل وولد، أو أن يكون قد قارف ما قارف من الرَّزايا والبلايا والذنوب حتى بلغ به الأمر إلى حد اليأس من رحمة الله ﷻ، فمثل هذا يُخَاطَب بهذه النصوص.

ومن جهة أخرى، فإن بعض فروعه ربما يحتاجه الواحد منًا لنفسه أو لغيره في مواطن ليست بالقليلة، فالمريض، أو مَنْ خَسِرَ في تجارته، أو من أصيب بمصيبة، أحيانًا قد يحصل له من اليأس ما يَتَمَنَّى معه الموت، كما يقول أحدهم(١):

أَلَا مَـوْتٌ يُـبَـاعُ فَـأَشْـتَـرِيـهِ فَـهَـذَا الْـعَـيْـشُ مَـا لَا خَـيْـرَ فِـيـهِ
أَلَا رَحِـمَ الْـمُـهَـيْـمِـنُ رَأْسَ حُـرٍّ تَـصَـدَّقَ بِـالْـوَفَـاةِ عَـلَـى أَخِـيـهِ

وقال آخر(٢):

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فالإنسان قد يبلغ أحيانًا إلى حد اليأس والقنوط، فتُظْلِم الدنيا في عينيه؛ نظرًا لفشل في دراسته، أو في وظيفته، أو لمرض نزل به، أو لغير ذلك من الإيلام الذي لا ينفك عنه أحد، فتنغلق الأبواب في وجهه، فيحتاج إلى فتح باب الأمل والترجية، وأن هذا التقصير الذي وقع وما نتج عنه من وقوع الإنسان في عاقبة تفريطه ليس هو نهاية المطاف، بل يمكن أن يُسْتَدْرَك، وأن يُحَصِّل بتوفيق الله من فضل ربه أضعاف أضعَاف ما فاته.

ونحن حينما نَهْدِف إلى تنمية الرجاء في الأحوال التي نحتاج فيها إلى ذلك، فإننا نعمد إلى جملة أمور لا بد من ملاحظتها، وهي:

أولًا: ملاحظة إفضال الله على عباده، وذلك من جهات عدة، منها:

ذكر سوابق فضل الله على عباده، وأن الله ﷻ قد تَكَرَّمَ وتَفَضَّلَ عليهم بأمور كثيرة؛ من عافية، وهِدَايَة، وصلاح حال، وأرْزَاق من الأموال، وإنجازات كثيرة، ولكن أيام

---

(١) «التبيان» للوزير المهبلي، وقد تقدم.

(٢) «ديوان المتنبي» (ص٤٨٦) مع «العرف الطيب»، وقد تقدم.

العافية تُنسَى سريعًا، وإنما يتذكر الإنسان أيام البلاء والمصائب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

كما يجب النَّظَر في تفضُّل الله بمنّته وكرمه على عبده بدون سؤال منه أو استحقاق؛ فإن الله تبارك وتعالى يعطينا، ويغدق علينا من فُيُوض النِّعم الظاهرة والباطنة، دون أن نكون مستحقين لذلك. فإذا كان الإنسان مستقيمًا على طاعته، زاد في إكرامه والإنعام عليه، فجعل دنياه جنة ولو كانت أبعاضه تُقْرَض بالمقاريض؛ «فإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[١].

كما ينبغي ملاحظة حال أهل الرجاء، وما تمَّ لهم من فضل، بحسن ظنهم بربهم وحسن أعمالهم.

ثانيًا: تذكر سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، وأنه الرحمٰن الرحيم، الغني الرؤوف الكريم بعباده: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر: ٤٩]:

فتحقيق الرجاء يحتاج معه العبد إلى تذكر هذا المعنى، ولا يتأتى له ذلك إلا بمعرفة الله ﷻ معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته؛ لأن هذا الرجاء مُتَعلّق باسم الله البَرّ الرحيم المحسن، فالرجاء كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «عبودية وتَعَلُّق بالله من حيث اسمه: المحسن البَرّ، فذلك التعلُّق والتعبّد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوْجَبَ لِلعَبْدِ الرَّجَاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري؛ فقوَّة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه»[٢].

وهذا إذا اسْتَحْضَرَهُ العَبْد انبعث الرجاء في قلبه، فقُوَّة الرجاء على حسب قوة معرفة العبد بربه، وبأسمائه وصفاته، وأنَّ رَحْمَتَهُ غلبت غضبه؛ ولذلك، فإن الذين ينفون الأسماء الحسنى، وأوصاف الله الكاملة، أو ينفون بعضها ويحرفونها، هؤلاء ينقص من رجائهم بِقَدْرِ ما نَفَوْا وحَرَّفُوا مِنْ أَسْمَائِهِ وصفاته ﷻ؛ إذ كيف تَحْسُنُ ظنونُهم بالله ﷻ وهم لا يؤمنون بِرَحْمَتِهِ، ولا برأْفَتِهِ، ولا بإحسانه، ولا بجوده، ولا بإفضاله على عباده؟! فَمِثْل هؤلاء الذين سَاءَتْ ظنونهم بربهم يَصْدُقُ عليهم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت: ٢٣]، فأولئك لم يعلموا أن الله ﷻ يعلم كثيرًا مما يعملون، فظنّ الواحد منهم أنه يمكن أن يَخْفَى على ربه ﷻ أفعاله السيئة، فصار يَتَقَحَّم في أودية الهلاك من غير أن يرْعَوِي.

---

(١) ما بين الأقواس من «الوابل الصيب» (٢/ ٤٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢).

ثالثًا: أن نُنَمِّي محبَّةَ الله ﷻ في القلوب:

وتلك المحبة ـ كما عرفنا في الكلام على الملازمة بين الأعمال القلبية ـ لا شك أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالخوْفِ والرَّجَاء؛ «فعلى قَدْرِ تمَكّنِ محبَّةِ الله ﷻ من القلب يتنامَى خوفه من الله وتعظيمه ورجاؤه؛ وذلك الخوف والتعظيم لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المُسِيء، ورجاء المُحِب؛ لا يصحبه عِلة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المُحِب من رجاء الأجير؟! وكم بين حال هذا وهذا؟!»[1].

رابعًا: تدَبُّر آيات القرآن:

وهذه حال الأبرار المقتصدين، فتجد الواحد منهم يناجي ربه بكلامه، «مُعْطيًا لكل آية حظّها من العبودية، فَتَجْذِب قلبه وروحه إليه آيات المحبّة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تَعَرَّف بها إلى عباده بآلائه، وإنْعَامِهِ عليهم، وإحسانه إليهم، وتُطَيِّب له السير آيات الرجاء والرحمة، وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يُطَيِّب له السير ويُهوِّنه.

وتُقْلِقُه آيات الخوف والعَدْل والانتقام، وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيره، المائلين إلى سواه، فيجمعه عليه، ويمنعه أن يَشْرُد قلبه عنه؛ فتأمَّل هذه الثلاثة، وتفَقَّه فيها»[2].

فكلما قوي الرَّجَاء في قلب العبد جَدَّ في العمل، وكلما ضَعُفَ هذا الرجاء تكَاسَلَ، وقَعد، وتراجع عن الطاعة، وأقْدَمَ على المعصية.

وليس شيء أنفع للقلوب من تدبر آي القُرْآن؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

خامسًا: استغلال العبد الأوقات والأحوال الشريفة:

«فكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نَفَحَات الرحمٰن ﷻ في الأوقات الفاضلة، والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الدواعي والهِمَم، وتساعدت القلوب، وعظُمَ الجَمْع، كجمع عرفة والجمعة، فإن اجتماع الهِمَم والأنفاس أسباب، نَصَبَها الله مُقْتَضِيَة لحصول الخير، ونزول الرَّحْمَة. وهذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مُسَبَّباتها،

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ٤٥٩) وما بعدها.

ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحَسَن، ويظلمه يُؤْثر ما يحكم به هذا المحسوس العاجل ويقْتَضِيه على ما يحكم به الآخر ويقْتَضِيهِ. ولو فَرَّغَ العبد المحلّ، وهيَّأه، وأصلحه لرأى العجائب؛ فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع الذي في العبد»[١].

وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله يدعو بعد دروسه التي كانت تُعْقَد في المسجد النبوي في رمضان، ويؤمِّن الحاضرون على دعائه، وربما نبَّه على سبب ذلك؛ وهو أن ذلك الجَمْع يُرْجَى عنده أن تتنزّل رحمة الله تبارك وتعالى، لا سيما مع الصيام، أو لعله يُوجَد في هؤلاء مَنْ تُجَاب دعوته؛ فإن المُؤَمِّن داع كما هو معلوم[٢].

سادسًا: تحقيق التوحيد بأنواعه الثلاثة:

توحيد الإلٰهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا هو السبب الذي مِنْ أجْلِهِ ينزل الفَرَج على أهل الكروب، فإن المكروب يجيب الله ﷻ دعوتَه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]؛ وذلك أن أمَلَهُ ورجاءه ينقطع من المخلوقين بالكلية، فلا يبقى له رجاء ولا تعلّق إلا بالله الواحد الأحد.

وفي قصة إسلام عكرمة رضي الله تعالى عنه؛ حيث فَرَّ من النبي ﷺ لما فتح مَكَّة، وذهب حتى ركب البحر إلى الحبشة، «فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلِصُوا؛ فإنَّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا ها هنا، فقال عكرمة: والله لئن لم يُنَجِّني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البَرِّ غيره، اللَّهُمَّ إن لك علي عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنَّه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم»[٣].

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام عن سبب مجيء الفَرَج عند انقطاع الرَّجَاءِ، فأجاب بما مُلَخَّصه: أن «سبب هذا تحقيق التوحيد: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية... فمشيئة الله وحده مُسْتَلْزِمة لكل ما يريده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[٤].

فالتوحيد ليس مجرد مسائل يَدْرُسها الناس في المعاهد والمدَارِس والجامعات، أو قضايا يُرَدُّ فيها على هؤلاء أو أولئك؛ إنما التوحيد قضايا تستقر في القلب، فتعمره، فيمتلئ بمحبة الله، فلا يُقَدّم على محبته محبة ما سواه؛ كما يُعمَّر هذا القلب بالخوف

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١١٠ ـ ١١١) بتصرُّف.
(٢) انظر: «العذب النمير» (١/ ٣٠) (٣/ ٤٣٠).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣١).

منه، فلا يخاف من المخلوقين، ويُعَمِّر بالتَّوَكُّل على الله، فلا يظن أن المخلوقين يقطعون رِزْقَهُ، أو يُنْقِصُونَ مِنْ عُمره؛ فالعبد يعلم ويَسْتَيْقِن أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهكذا في سائر الأعمال القلبية.

ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ لا يكون لرجاء المخلوقين مَحلّ في قلبه، فيتعلَّق رجاؤه بالله ﷻ.

سابعًا: مدافعة العَبْدِ اليأس والقنوط من قلبه:

فالمؤمن لا مَحلّ للقنوط واليأس في قلبه بِحَالٍ مِنَ الأحوال، فهو يجتهد في مدافعة هذا الداء؛ لأن حصول اليأس في قلب الإنسان أمرٌ قد يغلبه. والقاعدة أن الشارع إذا أمر بِأمْر، ولم يكن مقدورًا للمكلَّف، فإن ذلك يتوجه إلى سببه، أو إلى أثره، فينبغي للإنسان أن يُفَتِّشَ في الأمور التي تبعث الأمل في قلبه، فينَمِّيهَا، كما يُفَتِّش في الأمور التي تسْتَوجب اليأس فيدفعها عن قلبه، فإذا مَرَّنَ الإنسان نَفْسه على هذا نفعه في إزالة هذا اليأس بإذن الله، ولو فَرَّطَ فرُبَّمَا أدى به تفريطه إلى الهلاك في دنياه وآخرته.

فإذا علم العبد أن اللهَ غفورٌ رَحِيم، وأن الله يقبل توبة التائبين، وأنه لا يتعاظمُه ذنب، وتأمَّلَ المعاني الدالَّة على لطفه بعبده ورحمته به؛ انفرج قلبه، واتَّسَع الأمل فيه، وعَظُمَ فِيهِ الرَّجاء، فيحصل له الطَّمَع بمغفرة الله ﷻ، وقبول توبته، فيُقْلِع عن الذنوب والمعاصي، ويترك حاله السابقة، ويُنِيب إلى ربه ﷻ.

وقد تكلَّم على هذا المعنى الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللهُ في أواخر كتابه «الفتاوى»[1] بكلام حسن، وذكر جملة من الأعمال التي ينبغي أن نتفطَّن لأهمّية الرجاء فيها، فمن ذلك: أن طالب العلم إذا اشتغل بِفَنّ مِنْ فُنُونه، فبعد اشتغاله به فربما يرى من صعوبته، وبطء فهْمِه لمسائله ما يوجب له اليأس من تحصيله، فيدعوه اليأس إلى تركه، فإن استرسل مع هذا قتله اليأس، وإن كان مُوَفَّقًا، ولم يملكه الخيال الضار، علم أن الآدمي قَابِل لتَعَلُّم كل علم، مُهَيّأ لذلك، وأن مجرَّد اشتغاله بالعلوم النافعة - ولو لم يحصّل منها مصلحة - عبادةٌ؛ لأنه تصحبه النية الصالحة، فلا يزال ساعيًا في هذا الأمر حتى يقوى رجاؤه، وينْشَط للمسير في طلبه، وينْفض عنه غبار اليأس، حتى يرتقي إلى درجته اللائقة به.

أما أن يُعْرِض الإنسان وييأس لأول وهلة، فإنَّ هَذَا أمْر لا يحصل بِهِ المَقْصُود، ولذلك قالوا: بأن السُّؤْدَد والرئاسة والسيادة لا تحصل لأهل الضجر والمَلَل، فأولئك الذين يطلبون هذه المطالب الدنيوية إذا كان الواحد منهم يضجر ويَمَل وينكسر لأول

---

(١) «الفتاوى السعدية» (ص٦٤١ - ٦٤٦).

إخفاق؛ فإن ذلك يعني: أن يترك ما بيده، وأن يُدِيرَ له ظهره، وينشغل بغيره، وربما ترك الانشغال بالأمور النافعة الكلية؛ لأنه قد شَعَرَ أنه لا يصلح لشيء، مع أنه يمكن أن يُفْتَح عليه من الفهوم والعلوم ما لا يُقَادَر قَدْره.

وقد كان سيبويه يختلف إلى حماد بن سلمة يقرأ عليه الحديث، فكان يلحن في قراءته فيرد عليه حماد، فأبْرَمَه يومًا لحنه، فقال: كم تلحن؟! أما لك مروءة؟! فخجل وَوَجم، فلما قام من مجلسه انقطع إلى الخليل بن أحمد، فقرأ عليه النحو، فمهر فيه وفاق، وسار ذِكْرُه في الآفاق(١).

وهكذا في كل الأمور يحتاج الإنسان إلى مدافعة اليأس، فإن أَخْفَقْتَ في دراسة كَرِّرِ المحاولة، ولو طَرَقْتَ بابًا آخر وجامعة أُخرى، فقد تنجح وتتفوق على كثير من هؤلاء الذين أفلحوا في ذلك المجال، وهكذا.

وكما أن الإنسان يُطَبِّق هذا المعنى على نَفْسه، فليستعمله مع غيره، إذا أراد هداية أحد، أو دعوته إلى الإسلام، أو تعليمه علمًا نافعًا، ثم رأى من المدعو نفورًا وإعراضًا، أو بَلَادة وقلة فِطْنة، فإن أَخَذَه الملل واليأس من إدراك المقصود منه، وعدم رجاء انتفاعه لم يلبث إلا قليلًا حتى يدع دعوته وتعليمه، وإن هو سلك مسلك نبيه ﷺ في دعوته وهداية الخلق، وعلم أنه مَكَث مدة طويلة يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد، فلا يلقى أذنًا سامعة، ولا قلبًا مجيبًا؛ فلم يضعف، بل لم يزل قَوِيّ الرجاء، ماضيًا في دعوته حتى بلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جعل هذا بين عينيه لم يَشْتَد عليه أمر من الأمور.

وهكذا بالنسبة لحال هذه الأمة، مع مشاعر اليأس والإحباط التي تعيشها في هذه الأوقات، لا سيما إذا نظرنا إلى حال عَدُوِّهم من التمَكّن والأخذ بأسباب القوة؛ حيث سبقوا المسلمين إلى ذلك سبقًا بعيدًا.

ولا بد أن يُعلَم أن الرجاء ممدوح نقلًا وعقلًا، كما أن اليأس مذموم نقلًا وعقلًا، ولا ريب أن الشارع مَدَح الرجاء، وأمر به بكل وسيلة توصل إليه، وذمَّ اليأس، ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب؛ وذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من أضداد ذلك.

---

(١) انظر: «إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ٣٥٠)، و«معجم الأدباء» (٣/ ١١٩٨)، و«البلغة» للفيروزآبادي (ص٢٢٢).

ثمرات الرجاء وآثاره السلوكية

من ثمرات الرجاء:

أولًا: إظهار العبودية والفاقة لله ﷻ:

فهو مُسْتشرِف إلى إحسان الله، غير مستغن عن إفْضَالِهِ وإنعامه وإحسانه طَرْفَةَ عين.

ثانيًا: أن الرجاء محبوب لله:

فالله ﷻ يُحِبّ مِنْ عِبَادِهِ أن يرجوه، ويُؤَمِّلوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه المَلِك الحق الجواد، فهو أجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وأوْسَع من أعْطَى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرْجَى ويُسْأل.

قال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا عَلَّق رجاءه بالله جلَّ ثناؤه، فينبغي له أن يسأله ما يحتاج إليه صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنَّ الكلَّ بيده، لا قاضي للحاجات غيره، قال الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]»(١).

ثالثًا: أن الراجي يَتَخَلَّصُ مِنْ غَضَبِ الله ﷻ:

فَمَنْ لَمْ يَسْألِ الله يغضب عليه، والسائل راجٍ وطالب.

رابعًا: «أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سَيْرِهِ إلى الله ﷻ:

فيطيبُ له المسير، ويحثّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحْدَهُ لا يُحَرِّكُ العبد، إنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء»(٢). والسَّيْر إلى الله - كما عرفنا - دائر بين الرَّجَاءِ والمحبَّة والخوف، فهو يدفعنا إلى العبادة: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

وبهذا نعلم أن قوة الرجاء تبعث على قوة العمل، فإذا كان الرجاء صحيحًا مع خوف ومحبة جَدَّ العَبْد، واجتهد؛ ليحْصل على رحمة الله ﷻ بكل مُسْتَطاع من

---

(١) «شعب الإيمان» (٣/ ٦٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠) بتصرُّف.

الأعمال الصالحة، سواء كان ذلك من الأعمال البَدَنِيَّة، أم المالية، أم كان من أعمال القلوب، أم كان من قبيل التُّروك، أم أقوال اللسان.

وبهذا نعرف أثر قوة الرجاء في ازدياد الأعمال الصالحة؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ﷺ: «فما حُفِظَتْ حُدودُ الله ومحارمه، ووَصَلَ الواصلون إليه بمثل خَوْفِهِ ورَجَائِهِ ومحبَّتِهِ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا، ومتى ضعُف فيه شيء من هذه ضعُف إيمانه بحسبه»[1].اهـ.

خامسًا: «أن الرجاء يَطْرَحُنَا على عتبة المحبَّةِ:

فإنه كلما اشتد الرجاء وحصل المرجو ازداد العبد حبًّا لربه تعالى، وشكرًا له، ورضًا به وعنه»[2].

سادسًا: أنه يُوصِّل العبد إلى أعلى المقامات:

وهو مقام الشكر؛ لأن الإنسان إذا حَصَّل مرجوَّهُ، فإن ذلك مُؤْذِن بزيادة شكره، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

سابعًا: أنه يُوجِب للعبد المزيد مِنْ معرفة ربِّه تبارك وتعالى، وأسمائه ومعانيها والتعلُّق بها:

فإن الراجي ـ كما سبق ـ مُتَعَلِّق بأسماء الله الحسنى، ومتعبِّدٌ ودَاعٍ بها.

ثامنًا: أن المحبة لا تَنْفَكّ عن الرجاء بحال مِنَ الأحوال:

ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّ كل واحد منهما يمدّ الآخر ويقوّيه.

تاسعًا: أن الخوف مُسْتَلْزِم للرجاء:

وبناء عليه؛ فإن الرجاء يُنَمِّي الخوف في قلوبنا، وإذا اسْتَحْكَمَ حصل للقلب من التخشّع والتذلّل نحو ما يحصل له إذا استحكم الخوف فيه، فالخوف والرجاء متلازمان؛ وذلك أن الخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه، كما أن الراجي في حال رجائه يخاف خلاف ما يرجو، ويستعيذ بالله مما يخاف، ويسأله صَرْفه، فلا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف، ولأجل تَنَاسُب الأمرين قَرَنَ الله تعالى بينهما في غير آية من كتابه، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠) بتصرُّف.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال في قوم مَدَحهم وأثنى عليهم: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠][(١)].

عاشرًا: أن العبد إذا تَعَلَّقَ قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رَجاه، كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يَرْجُه:

حادي عشر: «أن في الرجاء من الانتظار والتَّرَقُّب والتوقع لفضل الله:

ما يُوجِب تَعَلُّق العبد بذكره، ودوام الالتفات إليه؛ بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقّل القلب في رياضها الأنيقة»[(٢)]، فيلتذّ العبد بدوام الإقبال على الله ﷻ، ويتنعّم بمناجاته. وهذه تظهر على من رجا أحدًا من البشر، فكيف بمن رجا الله ﷻ؟!

ثاني عشر: أن الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب العبودية:

من الذّلّ، والانكسار، والتَّوَكّل، والاستعانة، والخوف، والرجاء، والصبر، والشكر، والإنابة، إلى غير ذلك؛ ولذلك قَدَّرَ عليه الذنب؛ وابْتَلاه به؛ لتَكْمُلَ مَرَاتِب عبوديته بالتوبة.

كما أن العبد إذا أُصِيب في بدنه وماله، فإن ذلك يسوقه إلى التَّذَلّل لله ﷻ ودعائه والتخشّع له، فالله لا يبتلي العبد من أجْلِ أن يكسره، وإنما مِنْ أجْلِ أن يرفعه، كما قال النبي ﷺ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**[(٣)].

ولذلك، فلو كان العبد في كل أحواله على الطاعة من غير تقصير ولا ذنب، فإن ذلك قد يورثه نوعًا من الغرور والعُجْب؛ وليس معنى ذلك أن يُذْنِبَ ويتعمَّد المعصية من أجل أن يحصل له هذا الانكسار وتكميل العبودية، وإنما المقصود: أنه لا بد من وقوع الخطأ والتقصير، فإذا وقع منه ذلك بادر إلى التوبة والاستغفار، وانْطَرَح العبد بين يدي الله ﷻ، وتَذَلَّلَ له، فيكون حاله بعد الذنب أفْضَل مِنْ حَالِهِ قبله، فيكون الله ﷻ بهذا الاعتبار «أحَبَّ إليه، وأخْوَف عنده، وأرْجَى لَهُ مِنْ كُلِّ مَا سواه؛ فتتقدم محبته في قلب العبد على جميع المَحَابّ، فَتَنْسَاق تلك المَحَاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش خلف قائِدِهِ، ويتقدم خوفه في قلبِهِ جميع المخلوقات، فَتَنْسَاق المَخَاوف

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» (٣/ ٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٥١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ.

كلها تبعًا لخوفه، ويتقدّم رجاؤه في قلبه جميعَ الرَّجَاءِ، فينساق كل رجاء تبعًا لِرَجَائِهِ، فهذه علامة توحيد الإلٰهية في هذا القلب»[١].

ثالث عشر: أَنَّ فَقْدَ هَذِهِ الخَلّة يُورِثُ الإنسان كُلَّ قبيح، ويحمله على أمور سيئة:

كالطغيان مثلًا؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ [يونس: ١١].

ومما يحصل لفاقد الرجاء من الآفات والمفاسد: أنه يكون في حال من الإعراض عن وحي الله ﷻ الذي يَتَضَمَّنُ الشفاء الكامل، والهدى التام، كما قال الله تبارك وتعالى عن أولئك الكافرين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]؛ فالذين قالوا هذه المقالة على سبيل الرد والمكابرة لِمَا جاء به الرسول ﷺ من هذا الوحي المنزَّل صارت حالهم إلى إعراض عما هم بِصَدَدِهِ من اتباع الحق والهدى وسبيل الرشاد إلى اتباع الأهواء. وهكذا يُعَاقَب كُلّ مَنْ أَعْرَضَ عَمَّا هو بصدده مما خُوطِب أو طُولِب به، فيكون شُغْله بغيره مما يعود عليه بالضرر والضلال جزاء وفاقًا.

وكذلك الذين لا يرجون لقاء الله، رُبَّما تعدى أحدهم طَوره، وطلب أمورًا لا يَحِقّ له أن يطلبها؛ فالعبد مُطَالَب بالإيمان، واتباع الرسول ﷺ، والتسليم لأمر الله وشَرْعِهِ وحُكْمِهِ، وأما هؤلاء الذين لا يرجون الله، ولا الدار الآخرة، فإن اشتغالهم يكون باقْتِرَاح الآيات على الأنبياء ﷺ على سبيل التعجيز والتَّعنُّت، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، فالذين يخافون الله تبارك وتعالى ويرجون لقاءه لا يصدر منهم هذا القول المَشِين، وإنما تكون حالهم الاتباع والتسليم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣]، هذه حالهم، وتلك سجيتهم.

والمقصود: أن الله ﷻ كثيرًا ما يُعَلّل كفر الكافرين، وضلال الضالين بأنهم كانوا لا يرجون حسابًا.

ثم إن الإنسان إذا ضعُف رجاؤه زاد كسله وفتورُهُ، وأقعده ذلك عن تحصيل

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤١١) بتصرُّف.

المطالب العالية، والمراتب الرفيعة في سُلَّم الكمال والعبودية، فَتَنْحَطّ مَرْتَبَتُهُ، ويجتَرِئُ على السيئات، وتدعوه نفسه الأمَّارة بالسوء إلى فعل كل قبيح، فيكون مُنقَادًا لها؛ لأنه ليس عنده من رجاء الله ﷻ ومن خَوْفِهِ ما يكسر سَوْرَة النَّفْس، ويدفع شرها، وإذا حصل له انمحاء الرجاء حتى بلغ الأمر به حَدَّ اليأس من رَوْح الله تعالى ومغفرته ورحمته، انْعَدَمَتْ عنده دواعي الخير جميعًا، وتحَرَّكَتْ دواعي الشر في كل جزء من أجزائه؛ في قلبه، وعينه، وسمعه، ويده، ورجله، وغير ذلك؛ لأنه قد يئس من رَوْح الله ورحمته، فلا يزال من كان كذلك مُكِبًّا على الذنوب والجَرَائم، حتى يكون هالكًا في نَفْسه، مُهْلِكًا لغيره؛ لأن مَنْ ظَنَّ أنَّ مَصِيرَهُ الهَلاك المُحَقَّق، فإنه يَودّ عادَةً أن يجرّ الآخرين جميعًا إلى نَفْس المصير[1]. كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن عثمان رضي الله عنه، قال: «وَدَّتِ الزانية لو زنى النساء كلهن»[2]؛ لأن العفاف يُكَدِّر عليها صفْو عيشها، وينغِّص عليها لذَّتها وراحتها.

فمثل هذا لا يُحَدِّث نَفْسه بتوبة، ولا يرجع عن هذا الحال والأعمال القبيحة، بل ربما تحول صاحب هذه النَّفْس اليائسة إلى حال من الخطورة على المجتمع، بحيث إنه لا يرده عن نزواته شيء، فيكون القتل فما دونه مِنْ أيْسَرِ الأمور عليه؛ فالمذنب الذي لا يرجو ربه في قَبول توبته ينقلب إلى قُوَّةٍ يَائِسة خَطِرَة، لا يرجى لها صلاح، ولا يُنتَظر منها نَفْع، وانقطاع الصِّلَة بين المَرْءِ وربِّه هو أقصى غايات الفساد.

رابع عشر: حُسْن الظن بالله يُبَلِّغُ العبد آماله بإذن الله ﷻ:

فيحصل له مرجوّه في عاجل أمره وآجلِهِ، وذلك مصداقًا لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالى، كما في الحديث القدسي: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»**[3].

وتأمل في أحوال مَنْ أحْسَنُوا الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ، وما أحْرَزُوه في دنياهم قبل آخرتهم.

ولما أوصى الزبير بن العوام ابنه عبد الله رضي الله عنهما بِدَيْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ، قال له: «يا بني! إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه مولاي»، قال ـ عبد الله ـ: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبت! من مولاك؟ قال: «الله».

---

(١) راجع: «الفتاوى السعدية» (ص٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٦٣٩)، والسيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٦٤)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٦٣). وقد تقدم بلفظ آخر من حديث واثلة رضي الله عنه.

قال: فوالله، ما وقعتُ في كربة من دَينه إلا قلتُ: يا مولى الزبير، اقْضِ عَنْهُ دَينه، فيقضيه[١].

وعن أبي هريرة ﷺ، **قال**: أصاب رجلًا حاجة، فخرج إلى البرّيَّة، فقالت امرأته: اللَّهُمَّ ارزُقْنَا ما نعْتَجِنُ وما نخْتَبِزُ، فجاء الرجل والجفْنَة مَلْأى عجينًا، وفي التنور جنوب الشواء والرّحى تطْحَن، فقال: من أين هذا؟ قالت: من رزق الله، فَكَنس ما حول الرَّحى، فقال رسول الله ﷺ: **«لَوْ تَرَكْتَهَا لَدَارَتْ ـ أَوْ: طَحَنَتْ ـ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: **«أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٩) عن عبد الله بن الزبير ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٨٨) واللفظ له، من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة ﷺ، وأورده الذهبي ضِمْنَ منكرات أبي بكر بن عياش في «الميزان» (٤/ ٥٠٠)، وله طريق أخرى عند أحمد (٢/ ٤٢١) عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة ﷺ. وقال الألباني في «الصحيحة»: «فيه كلام يسير ـ يعني: أبا بكر بن عياش ـ لا يسقط حديثه عن مرتبة الحسن، ولا سيما وله طريق أخرى». وراجع: «تاريخ ابن كثير» (٨/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦).

(٣) ذكره البخاري (٢٢٩١) معلقًا.

فهذا يحصل لهؤلاء الذين عظُم الرجاء في قلوبهم.

وهذه امرأة فرعون، أوْتَدَ فرعونُ لها أربَعَةَ أوْتَاد في يَدَيْهَا ورِجْلَيْهَا، فكان إذا تفرَّقوا عنها ظَلَّلَتْها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم: ١١]، فَكُشِف لها عن بيتها في الجنّة[١].

❁ ❁ ❁

(١) صح موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٤٣١)، وصحَّحه الحافظ في «المطالب العالية» (٣٧٦٢)، والألباني في «الصحيحة» (٢٥٠٨)، وصح نحوه عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١١٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٣١)، والحاكم (٢/ ٤٩٦)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

من أخبار أهل الرجاء

عن حيان أبي النضر قال: دخلتُ مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجُرَشي في مرضه الذي مات فيه، فسَلَّمَ عليه وجلس، فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه؛ أي: حَسَن. قال واثلة: أبْشِرْ، إني سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: **«قال اللهُ ﷻ: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»**[١]. وفي رواية: كيف ظنك بالله؟ قال: اعترضتني ذنوب لي أشْفِيتُ منها على هَلَكة، ولكن أرجو رحمة الله، فكبر واثلة، وكبَّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: . . . وذكر الحديث[٢].

ولما احتضر ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ فتح عينه فَضَحِك، وقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٣].

وعن عبد الله بن محمد المقريّ، قال: لما احتُضِر بِشْر بن منصور السلمي ضحك، وقال: «أخرج مِنْ بَيْن ظَهْرَاني مَنْ أخَافُ فِتْنَتَهُ، وأَقْدِم على مَنْ لا أشك في رحمته»[٤].

وقيل له: أوْصِ بِدَيْنِكَ، قال: «أنا أرجو ربي لذنبي، أفلا أرجوه لِدَيْنِي؟! فلما مات قضى عَنْه دَيْنَهُ بعض إخْوانه»[٥].

وهذا أبو شيبة الزبيدي، يقول: «خِفْتُ نفسي، ورجوت ربي، فأنا أُحِب أن أُفَارِق من أخاف إلى من أرجوه»[٦].

ولما احتُضِر النضر بن عبد الله بن حازم قيل له: أبشر، فقال: والله ما أُبَالي أَمِتّ أم ذُهِب بي إلى الأُبُلّة[٧]، والله ما أَخْرُج من سلطان ربي إلى غيره، ولا نَقَلَنِي من حال

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٧٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٧٦).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٩٨).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (١٢٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٢) واللفظ له.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٩٥)، وفي «محاسبة النَّفْس» (١١٥).
(٧) **الأُبُلّة**: ناحية قريبة من البصرة، بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة.

قط إلى حال إلا كان ما نَقَلَنِي إليه خيرًا مما نَقَلَنِي عنه[١].

وهذا سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ما أُحِب أن حسابي جُعِل إلى والديَّ، ربي خير لي من والدي»[٢].

قيل للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في مرض الموت: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟! قال: «أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مُفَارقًا، ولسوء أفعالي مُلاقيًا، وعلى الله وَارِدًا، وبكأس المنية شاربًا، ولا والله ما أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنِّيها، أو إلى النار فأعزِّيها، ثم أنشأ يقول:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا»[٣]

وكانوا رضي الله تعالى عنهم يَرْجون رحمة الله عَزَّوَجَلَّ للناس، ويخافون على أنفسهم، خلافًا لحال كثير من أهل الإدلال على الله عَزَّوَجَلَّ مع قليل مِن العمل، وكثير من الاسْتِطَالة.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جئت إلى سفيان ـ الثوري ـ عَشِيَّةَ عَرَفَة، وهو جَاثٍ على رُكْبَتَيْهِ وعَيْنَاه تهملان... فقلت له: من أسوأ هذا الجَمْع حالًا؟ قال: «الذي يظن أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يغفر له»[٤].

وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ أَطْلُبُ عَفْوَهُ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْفُو وَيَغْفِرُ
لَئِنْ أَعْظَمَ النَّاسُ الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَصْغُرُ[٥]

وصلَّى محمد بن المنْكَدِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رجل من أهل المدينة كان يتَّهم بِشَرّ، وقال: «إني لأستحي من الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلم من قلبي أني ظننتُ أن رحمته عجزَت عنه»[٦].

وسيأتي في الكلام عن الخوف عند ذكر أحوال السلف أن بعضهم كان يبكي عند الاحتضار، وكان يُبْدِي خوفًا من العاقبة.

والمقصود: أن هذا وأمثاله لا يتعارض، وذلك أنَّ أحوال الناس تَتَفَاوت، فقد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٤١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٥٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١١١) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ٣٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٧٧).

(٥) «لطائف المعارف» (ص٤٩٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٩٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٤٨، ٧/ ٢٩٧).

يلتفت بعضهم إلى ناحية فيغلبه الرجاء والاستبشار، فيتمَنَّى أن يُعَجِّلَ بروحه، ويَقْدِم على الله ﷻ. ومنهم مَنْ قَدْ يَرَى منازله عند الاحتضار، فيستبشر، ويفرح، ويصْدُر عنه بعض ما يدل على خاتمتِهِ. ومنهم مَنْ يلتفت إلى معنى آخر، كالذي يَلْتَفِت إلى ما فاته مما ارْتَاضَتْ عليه نَفْسه من العبودية من الصيام والقيام، كما ورد عن معاذ ﷺ أنه قال عند الاحتضار: «اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أكن أُحِب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لِغَرْس الأشجار، ولكن لمُكَابدة الساعات، وظَمَإِ الهَوَاجِرِ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِّكْر»(١).

وربما بكى بعضهم لأنه لَحَظ معنًى في كتاب الله ﷻ؛ كما جاء عن عبد الله بن رواحة ﷺ لما ودَّعه أصحابه وهو خارجٌ إلى مؤتة، وقد ذكر قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم: ٧١](٢).

وعن داود بن أبي هند قال: تَمَثَّل معاوية عند الموت:

هُوَ المَوْتُ لَا مَنْجَا مِنَ المَوْتِ وَالَّذِي ... نُحَاذِرُ بَعْدَ المَوْتِ أَدْهَى وَأَفْظَعُ

ثم قال: «اللَّهُمَّ فَأَقِل العَثْرَةَ، وعَافِ من الزَّلَّةِ، وجُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلِ مَنْ لم يَرْجُ غيرك، ولَمْ يَثِقْ إِلَّا بِكَ، فإنك واسع المغْفِرَة، ليس لذي خطيئة مهربٌ إلا أنت».

قال: فَبَلَغَنِي أنَّ هذا القول بلغ سعيد بن المسيّب فقال: «لقد رغب إلى مَن لا مرغوب إليه مثله، وإني لأرجو ألا يعذبه الله ﷻ»(٣).

وعن أبي المنذر الكوفي، أن معاوية جعل يقول وهو في الموت:

إن تُنَاقِشْ يَكُنْ نِقَاشُكَ يَا رَبْ ... بِ عَذَابًا، لَا طَوْقَ لِيْ بِالعَذَابِ
أَوْ تُجَاوِزْ فَأَنْتَ رَبٌّ رَحِيمٌ ... عَنْ مُسِيءٍ ذُنُوبُه كَالتُّرَابِ(٤)

وعن عطاء بن السَّائِب، قال: دخلنا على أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي نعوده، فذهب بعض القوم يُرَجِّيه، فقال: «إني لأرجو ربي وقد صُمْت له ثمانين رمضان»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨٠ ـ ١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٣)، واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٠)، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ٣٧٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (١١٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا «حسن الظن بالله» (١١١)، و«المحتضرين» (٧٠) عن معاوية ﷺ، وأخرجه ابن زبر الربعي في «وصايا العلماء عند الموت» (ص٨٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ١٥٩) من كلام عبد الملك بن مروان.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «حسن الظن بالله» (١/ ١١٣)، وفي «المحتضرين» (٢٩٠) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٢).

وكان عُمَر بن ذَرٍّ كَلَّلَهُ يقول: «اللَّهُمَّ ارحم قومًا أطاعوك في أحب طاعتك إليك: الإيمان بك، والتوكل عليك، وارحم قومًا أطاعوك في ترك أبغض المعاصي إليك: الشرك بك، والافتراء عليك. قال: فكان بعضهم يقول: إن كان كل ما عصي الله به عظيمًا؛ فإنه في سعة رحمته صغير»(١).

قال بعض العُبَّاد: «لما علمتُ أن ربي ﷻ يلي محاسبتي زال عني حزني؛ لأن الكريم إذا حاسب عبده تفضَّل»(٢).

عن إدريس بن عبد الله المروزيِّ قال: «مرض أعرابي، فقيل له: إنك تموت، قال: وأين أذهب؟ قالوا: إلى الله ﷻ، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه»(٣).

هذا آخر الكلام على الرجاء، والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٩٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٢٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٤٠).

عاشرًا

الخَوْف

توطئة

إن من أعظم دعائم التقوى: الخوف من الله ﷻ؛ وذلك أن العبد إذا خاف الله اتقاه بفِعْل ما أمره ربه، وتَرْك ما نهاه عنه، بل إن ذلك الخوف يسوقه إلى المبادرة والمسارعة في فعل الخيرات. وأما إذا قلَّ خوف العبد من ربه وخالقه، فإنه يكون أكثر جُرْأة على حدود الله، وانتهاكًا لمحارمه.

ومن هنا كان هذا الحديث عن الخوف من الله ﷻ من أَجْل إحيائه في النفوس، وتحقيقه في القلوب من ناحية؛ وليكون ذلك في مقابل ما تقدم من الحديث عن الرجاء؛ فيحصل الاعتدال في تحصيل هذه الأعمال الجليلة، والتَّحَلِّي بها من ناحية أخرى.

وقد جعلتُ الحديث عن الخوف بعد الحديث عن الرجاء؛ وذلك أن الله تبارك وتعالى لما وَصَفَ أهل العبودية الخاصة قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فَقَدَّمَ الرَّجَاءَ على الخَوْفِ.

وفي الحديث القُدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[١]، فكان ذلك مما يدعو إلى تقديم الرَّجَاء على الخوف.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه بلفظ: «إن رحمتي غلبت غضبي»، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم بنحوه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

معنى الخوف وحقيقته

الخوف في اللغة:

مادة: (خوف) تدل على الذُّعر والفَزَع، كما قال الصاغاني[١]، وابن فارس[٢].

الخوف في معناه الشرعي:

قال الراغب: «الخَوْف: توقّع مَكْروه عن أمارة مظنونة أو معلومة»[٣].اهـ.

وقال الجرجاني: «الخوف: توقّع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[٤].اهـ.

وقال ابن قدامة: «هو تألّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكْرُوه في المستقبل»[٥].اهـ.

وقيل: «هَرَب القلب من حلول المكروه عند استشعاره»[٦].

وقيل: «هو اضطراب القلب وحركته من تذكُّرِ المَخُوف»[٧].

وهذه المعاني متقاربة.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «العباب الزاخر» (١/ ٤٠٩)، مادة: (خَوَفَ).
(٢) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٠)، مادة: (خَوَفَ).
(٣) «مفردات القرآن» (ص١٦١).
(٤) «التعريفات» (ص١٠٧).
(٥) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٣).
(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).
(٧) المصدر السابق (١/ ٥١٢).

الفروقات في باب الخوف

أولًا: الفرق بين الخَوْف والحزن:

الخوف يكون لشيء مستقبل. أما الحزن، فيتعلق بأمر فائت.

ورُبَّما استُعمِل أحدهما في موضع الآخر.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف: أن بكاء الحزن على ما مَضَى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يُتَوَقع في المستقبل»(١). اهـ.

ثانيًا: الفرق بين الخوف والخشية:

«قيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخصّ من الخوف؛ فإنَّ الخَشْيَةَ للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، فالخوف: حركة، والخشية: انْجِمَاع وانقباض وسكون.

فالخوف لِعَامَّةِ المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين»(٢).

وقيل: الخوف: تألّم النَّفس من العقاب المتوقّع بسبب ارتكاب المنهيات، والتقصير في الطاعات.

والخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته، وخوف الحَجْب عنه(٣).

وقيل: الخشية: خوف مع تعظيم؛ ولذلك خُصَّ بها العلماء(٤).

وبعضهم يفسّرها بالخوف، ويقتصر على ذلك(٥)؛ ولهذا قال مَنْ قَالَ من السلف؛ كسعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: بأن «الخشية: أن تخشى الله حتى تحُول خشيته بينك وبين معصيته»(٦).

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٧٧) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣) باختصار.

(٣) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٠).

(٤) انظر: «مفردات القرآن» (ص١٤٩)، و«الكليات» للكفوي (ص٤٢٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» (١٨/ ٢٥٠)، مادة: (خَشِيَ).

(٦) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (١٣٨).

وذلك أن السلف ﷺ كانوا يُقَرِّبون المعنى بأقرب عبارة تبيّن المراد دون التدقيق، لا سيما عند مَنْ يقُول بأن اللغة يُوجَد فيها الترادف، بحيث إن اللفظة تنوب عن اللفظة، وتدل على معناها تمامًا. وأما من يمنع ذلك فيقول: لا بُدَّ من فَرْق، وهذا هو الأعمّ الأغلب في الألفاظ المُتشابهة؛ أن ثمة فروقات من جهة المعنى في المعاني التكميلية الزائدة التي تحتفّ باللفظة، وتختصّ بها، فتؤدي معنى لا تُؤَدِّيهِ اللفظة الأولى، وإن كانت تشترك معها في أصل المعنى.

والله ﷻ قد فَرَّقَ بينهما، كما قال: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝﴾ [طه: ٧٧]، فذكر الخوف مع الخشية، وكذلك قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝﴾ [الرعد: ٢١]، فدلّ ذلك على أن بَيْنَ الخشية والخوف فَرْقًا لا يُنْكَر؛ ولهذا يمكن أن نقول بأن الخشية أخصّ من الخوف، فهي خوف خاص، خوف يصاحبه علم، ينبئ عن إجلال وتعظيم؛ لأن مَنْ عَرَف المعبود ﷻ معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته عَظَّمَه؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فهي خوف مقرون بالمعرفة؛ لهذا قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[(١)].

ومِنْ ثَمَّ، فإنه على قَدْرِ العلم النافع تكون الخشية، أمَّا العلم الضارّ فإنه لا يزيد الإنسان إلا بُعْدًا عن الله ﷻ؛ ولهذا فمرتبة الخشية أعلى من مرتبة الخوف.

قال أبو البقاء الكَفَوِي: «الخشية أشد من الخوف؛ لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية؛ أي: يابسة، وهو فَوَات بالكُلِّيَّة. والخوف النقص، من ناقة خوفاء؛ أي: بها داء، وليس بِفَوَات؛ ولذلك خُصَّت الخشية بالله في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد: ٢١].

والخشية تكون مِنْ عِظَم المَخْشِي، وإن كان الخاشي قويًا. والخوف يكون من ضَعْف الخائف، وإن كان المَخُوف أمرًا يسيرًا»[(٢)]. اهـ.

ولهذا؛ فإن «الخائف يلتجئ إلى الهَرَب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم؛ فَمَثَلُهما مَثَلُ من لا علم له بالطب، ومَثَلُ الطبيب الحاذق، فالأول يلجأ إلى الحمية والهرب؛ لقلة معرفته، والآخر يلجأ إلى الأدوية»[(٣)]؛ فالخشية خوف مَبْني على علم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة ﵂.
(٢) «الكليات» (ص٤٢٨).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣) بتصرُّف.

ثالثًا: الفرق بين الإشفاق والخوف:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «الإشفاق: رِقَّة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنِسْبته إلى الخوف نِسْبة الرأفة إلى الرحمة؛ فإنها ألطف الرحمة وأرقها»(١). اهـ.

وعرَّفَ الرَّاغِب الإشفاق بأنه: عناية مخْتَلِطَة بخوف؛ لأن المشفِق يُحِب المشْفَق عليه، ويخاف ما يلحقه... فإذا عُدِّي بـ «من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عُدِّي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر»(٢). اهـ. وهكذا إذا عُدِّي (بعلى).

وقال الزبيدي: «الشَّفَق: الخوف مِنْ شِدَّةِ النّصْح، وقد شَفِقَ شَفَقًا: خَافَ، قاله ابن دُرَيْد»(٣). اهـ.

والخلاصة: أن الإشفاق إذا عَدَّيْتَهُ بـ(في)، أو (على) دَلّ على العناية بهذا المُشْفَق، والرَّحْمَة به، والحرص عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور: ٢٦]، وكقولك: فُلان يُشفق على ولده.

أما إذا عديته بـ«من»؛ كقولك: فلان يُشفق من كذا، دلَّ على معنى الخوف وزيادة.

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فَلَوْ كَانَتِ الخشية بمعنى الإشفاق لما ذكر هذا وهذا.

فدلَّ على أن الإشفاق أخصّ من الخشية، وأخصّ من الخوف، فهو خشية مقرونة بضعف ورِقَّة وتضرّع إلى المخشيّ منه، فليس كل خائف مُشْفِقًا.

ومما تقدم يتبين أن هناك فَرْقًا دلاليًا بين الإشفاق والخشية، ويؤكد هذا الفرق ورودهما في سياق واحد في ثلاث آيات من مجموع عشر من آيات القرآن الكريم:

قال تعالى في المؤمنين: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال جلَّ في علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧].

رابعًا: الفرق بين الرَّهْبَةِ والخوف:

الرهبة: مصدر قولهم: رَهِبَ يَرْهَب رَهْبَةً ورُهْبًا وَرَهَبًا.

ومادة (رهب) تدل على معنين: أحدهما: الخوف، والآخر: الدِّقَّة والخِفَّة(٤).

والمقصود هنا المعنى الأوّل: يُقَال: رَهِبَه: إذا خافه.

---

(١) «المدارج» (١/٥١٨).
(٢) «مفردات القرآن» (٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٣) «تاج العروس» (٢٥/٥٠٨)، مادة: (شفق).
(٤) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/٤٤٧)، مادة: (رَهَبَ).

وقيل: «الرَّهْبَة: طول الخوف واستمراره، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ للرَّاهِبِ: رَاهِبًا؛ لأنه يُدِيمُ الخوف. وأصله من قولهم: جمل رهب: إذا كان طويل العظام، مَشْبوح الخلق»[١].

وقيل: «الرهبة: خوف معه تحيّر»[٢].

وقال ابن القيم كَلَّلَهُ: «الرَّهْبَة: هي الإمعان في الهَرب من المكروه، وهي ضِدّ الرَّغْبَة؛ التي هي سَفَر القلب في طلب المرغوب فيه»[٣].اهـ.

ولذلك؛ فالرهبة أخصّ من مُطلق الخوف، فهي خوف مع تحرّز واضطراب الخائف وارتعاده، فيحصل له بسبب ذلك رَهْبة تُخالِج شعورَه، فتَدْفَعه إلى مُجَانَبة مَوَاطِن الهَلَكة؛ فيحصل له الهرب من المَخَاوف.

وبهذه الطريقة تستطيع أن تجمع أقوال العلماء، وتنظمها في سلكٍ واحِد، دون أن تُوجَد مُنَافرة بينها.

خامسًا: الفرق بين الخوف والوَجَل:

وأما الفرق بين الخوف والوَجَل فيمكن أن يُقَال بأن الوَجَلَ هو القَلَق وعدم الطمأنينة.

وبعضهم يقول: «الوَجَل: استشعار الخَوْف»[٤].

وبعضهم يقول: الخائف إن لم يكن مطمئنًا فهو وَجِل[٥].

وابن القيم كَلَّلَهُ يُفَسِّرُ الوَجَلَ بأنَّهُ: «رَجَفان القلب وانصداعه لذكر من يُخَاف سلطانه وعقوبته»[٦].

وبعضهم يقول: الوَجَل خَوف مع فَزَع[٧]، والفَزَع يحصل معه ولا بد اضطراب الخائف، ويحصل معه رَجَفان القلب؛ لأن الفَزَع ـ كما سيأتي ـ خوفٌ شديد يَبْهته ويَفْجؤه؛ فيحصل له بسبب ذلك انزعاج وقَلَق.

وبهذا كلّه نعرف أن الوَجَلَ أخص من الخوف، وأعلى مرتبة منه.

سادسًا: الفرق بين الخوف والهيبة:

قال ابن القيِّم كَلَّلَهُ: «الهَيْبَة: خوف مُقَارِن للتَّعْظِيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحَبَّة والمعرفة»[٨].اهـ.

---

(١) «الفروق اللغوية» (ص٢٤١).
(٢) «الكليات» للكفوي (ص٤٢٩).
(٣) «المدارج» (١/ ٥١٢) بتصرُّف يسير.
(٤) «مفردات القرآن» (ص٥١٣).
(٥) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٣).
(٦) «المدارج» (١/ ٥١٣).
(٧) انظر: «لسان العرب» (١٤/ ٢٤٨)، مادة: (وجل).
(٨) «المدارج» (١/ ٥١٣).

وهناك من الألفاظ ما يُقارِب معنى الخوف، ولكنه لم يَرِد مُسْتَعْمَلًا مُعَبَّرًا به عن الخوف من الله ﷻ، فمن ذلك:

١ ـ الرَّوْعُ:

الروع: الفزع، يقال: رُعتُ فلانًا وروَّعْتُه فارْتَاع؛ أي: أفْزَعْتُه ففَزِعَ.

ويقال: لا تُرَع؛ أي: لا تخف، ولا يلحقك خوف(١).

وذُكِرَ الرَّوْع في القرآن في آية واحدة، منسوبًا إلى إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝﴾ [هود: ٧٤]، وفي حديث نزول الوحي: فَقَالَ: «زَمِّلوني زَمِّلوني»، فزمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوْع(٢).

وفي حديث رؤيا ابن عمر رضي الله عنهما لما رأى النار، فجعل يقول: «أعُوذُ بالله مِنَ النَّارِ»، فقال له المَلَك: «لم تُرَعْ»(٣).

٢ ـ الإيجاس:

الوَجْس: أن ينتاب قلب الإنسان خوف لِصَوْتٍ أو حَرَكَةٍ يحسّ بها، فيظهر منه ذلك الخوف(٤).

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٨]، ولكن هذا اللفظ لم يرد مُسْتَعْمَلًا في الخوف من الله ﷻ.

٣ ـ الرُّعْب:

وهو من ألفاظ الخوف أيضًا، وتدل مادَّة (رَعَبَ) على القطع، ومنه قولهم للشيء المُقَطَّع: مُرعَّب. كما تدل على الامتلاء، ومنه قولهم: سَيْل راعب، إذا ملأ الوادي، فهذه ثلاثة معانٍ، ومن راعاها عرَّف الرعب بأنه الانقطاع من امتلاء الخوف، وقيل: هو أشدّ الخوف(٥).

وقال صاحب الكشاف: «هو الخوف الذي يَرْعَب الصدر؛ أي: يملؤه»(٦).اهـ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٢٢٣)، مادة: (روع)، و«تاج العروس» (٢١/ ١٢٩)، مادة: (روع).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (٢/ ٢٦٦)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥)، مادة: (وجس).

(٥) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، مادة: (رعب)، و«مفردات القرآن» (ص٣٩٧)، مادة: (رعب).

(٦) «الكشاف» (٦/ ٣٠٧).

قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وهو الخوف الذي يملأ قلوبهم.

وقال النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١).

وبذلك تكون دلالة الرُّعب أشدّ مِنْ دلالة الخوف، إلا أنه لم يَرِد في الخوف من الله تبارك وتعالى.

٤ ـ الفزع:

وهو انقباض مفاجئ يصيب القَلْبَ، مقرونًا بتوقُّع مكروه عاجل(٢).

وقال الراغب: «الفَزَعُ: انْقِبَاض ونِفَار يَعْتَرِي الإنسان من الشيء المُخِيْف، وهو من جِنْسِ الجَزَع، ولا يُقَال: فَزِعْت من الله، كما يُقَال: خِفْتُ منه»(٣).اهـ.

٥ ـ الفَرَقُ:

وهو الخوف الشديد، وأصله: انزعاج النفس بتوقّع الضَّرَر.

قيل: «وهو من مفارَقَة الأمْنِ إلى حال الخوف»(٤).

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة: ٥٦].

قال الراغب: «تفرّق القلب من الخوف»(٥).اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٢٤٢).

(٣) «مفردات القرآن» (ص٣٧٩)، مادة: (فزع).

(٤) «روح المعاني» (١٠/١١٨).

(٥) «مفردات القرآن» (ص٣٧٨)، مادة: (فرق).

الملازمة بين الخوف وغيره من أعمال القلوب(١)

تبيَّن مما سبق ـ من الكلام على الرجاء ـ أن الخوف مُلَازِم للرجاء، وأن الخوف الصحيح لا بُدَّ معه من الرجاء، وأنه إذا انعدم الرجاء أصبح الخوف قنوطًا ويأسًا من رحمة الله.

وعرفنا فيما سبق أن من المقامات والأعمال القلبية ما يكون جامعًا بين مقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج تحته عامة المقامات، فلا يستحقّ صاحبه ذلك المقام وتلك المنزلة إلا باستجماع ما تحته من الأنواع.

فالخوف مثلًا يجمع مقام الرجاء والإرادة، والخشية تجمع مقام المعرفة بالله والمعرفة بحقّ عبوديته، فمتى عَرَف الله وعَرَف حقّه اشْتَدَّت خشيته لله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهكذا مقام الهيبة؛ فإنه يجمع المحَبَّة والإجلال والتعظيم، فالخَوْفُ بِمُجَرَّدِهِ لا يكون هيبة، والمحَبَّةُ بمجرَّدِهَا لا تكون هيبة.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٥٦).

منزلة الخوف

الخوف: «من المقامات العَلِيَّة، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكلَّما كَانَ العبد أقرب إلى ربه، كان أشد له خشية ممن دونه.

وقد وصَفَ الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وإنما كان خوف المقرَّبين أشَدّ لأنَّهُمْ يُطَالبون بما لا يُطالَب به غيرهم، فيُراعُون تلك المنزلة؛ ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة، فيضاعَف بالنسبة لعلوِّ تِلْكَ المنزلة»[(١)].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان: مَنْ خَشِيَ اللهَ بِالْغَيْبِ، ورَغِب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما أسخط الله»[(٢)].

فهذا هو الخائف حقًّا، وهو المؤمن حقًّا؛ كما قال الله ﷻ: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الآية: وجوب الخوف من الله وحْدَه، وأنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الإيمان، فعَلَى قَدْرِ إِيمَانِ الْعَبْدِ يَكُون خَوْفُهُ مِنَ الله»[(٣)].اهـ.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، فـ«الخوف هو عَلَامَةُ صِحَّةِ الإيمان، وتَرَحُّله من القلب علامة ترحّل الإيمان منه»[(٤)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ٣١٩).
(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٧٩).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٢٦٢).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥١٥).

ولهذا قيل: «القلب إذا عُرِّي من الهَيْبَة عُرِّي من الإيمان»[١].

وقال وَهْب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ اللهُ: «ما عُبِدَ الله بمثل الخوف»[٢].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»[٣].

وقال وُهَيْب بن الورد: «بلَغَنا أنه ضُرِبَ لخوف الله مَثَلٌ فِي الجَسَدِ، قيل: إنما مثل خوف الله كمثل الرجل يكون في منزله، فلا يزال عامرًا ما دام فيه ربُّه، فإذا فارق المنزل ربه وسكنه غيرُهُ خَرِبَ المنزل، وكذلك خوف الله تعالى؛ إذا كان في الجسد لم يزل عامرًا ما دام فيه خوفُ الله، فإذا فارق خوف الله الجسد خرب، حتى إن المار يمر في المجلس من الناس فيقولون: بئس العبدُ فلان، فيقول بعضهم لبعض: ما رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا إلا أنا نبغضه؛ وذلك أن خوف الله فارق جسده، وإذا مَرَّ بهم الرجل فيه خوف الله، قالوا: نِعْمَ والله الرجل، فيقولون: أي شيء رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نُحِبُّهُ»[٤].

وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]: «هذا مثل الإيمان، فالإيمَان: الشجرة الطيِّبَة، وأصله الثابت الذي لا يزول: الإخلاص لله، وفرعه في السماء: فرعه خشية الله»[٥].

وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه؛ فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨]»[٦]. اهـ.

وقد أطال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «إعلام الموقعين»[٧] في تقرير هذا المعنى، واستحسنه غاية الاستحسان.

(١) «تاريخ الإسلام» (٢٢/ ١٢١)، ونسبه للجنيد رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٩٤).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٩) والبيهقي في «الشعب» (٨٤٩) واللفظ له.
(٤) «التخويف من النار» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٩١).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٦٨).
(٦) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٦).
(٧) انظر: (٢/ ٢٩٨ ـ ٣٠٤).

ثم إن الله ﷻ إنما خَلَقَ الخَلْقَ ليعرفوه، ويعبدوه، ويخشوه، وقد نَصَب الأدلة على عظَمَتِهِ وكِبْرِيَائِهِ لِيَهَابه هؤلاء الخلق، ويخافوه خوف الإِجْلَالِ والتَّعْظِيم.

ووصف لهم شِدَّة عذابه، ودَارَ عقابه التي أعدَّها لمن عَصَاه؛ ليتّقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرّر الله ﷻ في كتابه ذِكْر النَّار، وما فيها من الأغلال وألوان العذاب والنكال، وما احتوت عليه مِنَ الزقوم والضّريع والحميم والسلاسل، إلى غير ذلك مما وصفه الله ﷻ من الأحوال والأهوال، ودعا بذلك عِبَادَهُ إلى خَشيته وتَقْوَاه، والمسارعة إلى امْتِثال ما يأمر به ويحبّه ويَرْضَاهُ، واجتناب ما نهاهم عنه.

فمَن تَأَمَّل كتاب الله ﷻ، وأدارَ فيه فِكْرَه؛ وَجَد مِن ذلك العَجَب العُجاب، وهكذا مَنْ نَظَرَ في سُنَّة رسول الله ﷺ، وحَالِ السَّلَفِ الصالح رضي الله تعالى عنهم؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَلَغُوا أعلى المقامات بسبب ما وَقَعَ فِي قلوبهم من إجلال الله، وخَوْفِه، وخشيته، وتعظيمه، وتقواه. فهذا هو الذي حملهم على الجِدِّ والاجْتِهَادِ في الطاعة، ونشر دين الله ﷻ في الآفاق، وكفّ النفوس وفَطْمها عن شهواتها وأهوائها[1]؛ فكان لهم تلك المنزلة التي لا يُدَانِيهَا أحد ممَّن جَاء بعدهم، وأنَّى لهم بذلك؟ فقد كان السلف الصالح أعظم الأمّة خَوْفًا مِنَ الله ﷻ وخشية له.. كيف لا وقد قال قائلهم ـ وهو عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ـ: «لأن أدمع دمعة من خشية الله ﷻ أحبّ إلي مِنْ أَنْ أَتَصَدَّق بألف دينار»[2].

وقال كعب الأحبار: «لأن أبكي مِنْ خَشْيَةِ الله، فتسيل دموعي على وَجْنتي أحبّ إليَّ من أن أتصدَّق بوزني ذهبًا»[3].

وعن أبي أُمامة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وأَثَرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ...»** إلى آخر الحديث[4].

وقال حاتم الأصم ﷺ: «لكل شيء زِينة، وزِينة العبادة الخوف»[5].

كما أن أصحابه هم الأمناء، كما جاء في وصية عمر رضي الله تعالى عنه: «لا

---

(١) راجع: «التخويف من النار» (ص٢١ ـ ٢٢).
(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٦٥٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٦).
(٤) أخرجه الترمذي (١٦٦٩) وحسَّنه، ووافقه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٨٦). راجع: «السبيل الهاد» (١٠٨).
(٥) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٤).

تصحبنَّ الفاجر فتَعَلَّم فجوره، واعتزل عدوَّك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا مَن خشي الله، وتخشَّع عند القول، وذَلَّ عند الطاعة، واعتصم عند المعصية، واسْتَشِر في أمرك الذين يخشون الله»(١).

وجاء عنه: «آخِ الإِخْوَانَ على قَدْر التقوى، ولا تجعل حديثك بِذْلَة ـ أي: مُبْتَذِلًا ـ إلا عند من يشتهيه، ولا تَضَع حاجتك إلَّا عند مَن يُحِبّ قضاءها، ولا تَغْبِطِ الأحياء إلا بما تَغْبِط الأموات، وشَاوِر فِي أمرك الذين يخشون الله ﷻ»(٢).

وذلك أن خَشْيَتَهُمْ لله ﷻ تحملهم على النَّصِيحَةِ، فَلَا يَدَّخِرُونَ شَيْئًا فيه نُصْح لك إلا بذلوه، فتَأْمَن بذلك الغَدْر والخيانة والغِشّ. وقد قيل: «ما لِلْعَبْد صاحب خير من الخَوْف والهمّ، فيما مضى من ذنوبه، وما ينزل به»(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٩٩)، وأبو يوسف في «الخراج» (ص٢٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٨٤) (١٣/ ٢٦٥، ٢٧٥)، ومن طريقه أبو داود في «الزهد» (٩٧)، وأخرجه البرجلاني في «الكرم والجود» (٣٨)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٩١)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٩٠) واللفظ له، والخطابي في «العزلة» (ص٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١٠/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٤٧) واللفظ له.

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٢٣١) ونسبه لشقيق البلخي.

الخوف في الكتاب والسُّنَّة

النصوص الواردة في الخوف كثيرة جدًّا، نكتفي بذكر بعضها.

أولًا: الخوف في القرآن الكريم:

لقد تنوعت النصوص الواردة في الخوف في كتاب الله تعالى:

فتارة: يأمر الله ﷻ به، كما في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣].

وتارة: يجعل أهل الخوف هم أهل الاعتبار والانتفاع بالمواعظ والقرآن والذكر؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]؛ فالذين يخافون أن يُحشَرُوا إلى ربهم هم الذين ينتفعون بمواعظه، وكذلك قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ١ ـ ٣]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦]، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠]، ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وتارة: يجعل الخوف من صفات خاصة أوليائه وعباده المتَّقِينَ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١]، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ

رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج: ٢٧]، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وتارة: يذكر أن العاقبة في الدنيا لهم: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤].

وتارة: يذكر غفران ذنوبهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

ثم بيَّن أنه أدخلهم الجنة بسبب خوفهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧].

ولهذا قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لمن لم يُشفق أن يخاف ألَّا يكون من أهل الجنَّةِ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]»(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٠ ـ ١٤]. وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

ويقول في هذا المعنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

ثانيًا: الخوف في السُّنَّة:

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كَيْفَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٣).

تَجِدُكَ؟»، قال: والله يا رسول الله! إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا، عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»، وذكر منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. . . أهم الذين يَشْرَبُون الخمر وَيَسْرِقُون؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ»(٤).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ... أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ(٥)... عِنْدَ اللهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي... فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا»، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللهُ عز وجل: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ اللهُ: أَيْ: عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ ـ أَوْ: فَرَقٌ مِنْكَ ـ قَالَ: فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا»(٦).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه والألباني في «أحكام الجنائز» (ص٣).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أي: لم يُقدِّم لنفسه خَبيئة خير ولم يَدَّخر. «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢١٥)، مادة: (بأر).
(٦) أخرجه البخاري (٦٤٨١، ٧٥٠٨).

الخوف إنما يكون من الله وحده

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، فتقديم المعمول - وإياي - يدل على الحصر؛ أي: لا ترهبوا أحدًا غيري.

وكذلك في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ «أي: لا تخافوا المشركين، ولا يَعْظُمَنَّ عليكم أمرهم، ولا ترهبوا جمْعَهُم مع طاعتكم إياي، ما أطعتموني، واتبعتم أمري، وإني مُتَكَفِّلٌ لَكُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَر، ولكن خافوني، واتَّقُوا أن تعصوني، وتخالفوا أمري، فتهلكوا إن كنتم مؤمنين»(١).

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

فينبغي على العبد ألَّا يتقي سوى رَبِّهِ، وَأَلَّا يَخَاف إِلَّا منه سبحانه.

وأما الطاعة فتكون لله ﷻ، وللرسول ﷺ، «كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله وللرسول ﷺ، وجعل الخَشْيَةَ والتَّقْوَى لله وحْدَهُ»(٢).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله تعالى**: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: ٥٦]: «هو أهل أن يُخَافَ مِنْهُ، وهو أهل أن يغفر ذنب مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وأناب»(٣).

فالحاصل: أن الله يأمر بالخَوْفِ مِنْهُ، وجاء ذلك بطرق مُتَعَدِّدَة في إفادة الحصر، وينهى عن الخوف من غيره، ويمدح الخائفين منه وحده. وهذا كله يدل على أن الخوف يجب أن يكون من الله دونما سواه. والمقصود بذلك: خوف العبادة، الذي لا يجوز أن يُصْرَفَ لأحد من المخلوقين، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: **«هَلْ تَدْرِي مَا حَقّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حَقّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**(٤).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٤١٨) بتصرُّف يسير.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٦٥).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٣٢) كلاهما بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٦٧) واللفظ له، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه.

ويدخل في العبادة: الخشية، والإنابة، والإسلام، والتوبة، والخوف من الله ﷻ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠][١].

وقال أبو عمرو الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ: «حقيقة الخوف: ألا تخاف مع الله أحدًا»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٧١).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤٧).

المفاضلة بين الخوف والمحبة

تحدّثنا عن المفاضلة بين الخوف والرجاء، وكذا عن المفاضلة بين رجاء الثواب ورجاء المغفرة. وحديثنا هنا عن المفاضلة بين المحبة الخوف.

فقد رَجَّحَ بعض أهل العلم المحبَّة على الخوف.

يقول يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَسْبُك من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حَسْب من الحبِّ أبدًا»[1]؛ يعني: أن المحبَّة لا يقال: إنَّ لها حدًّا، والخوف إنما يكون بالقدر الذي يحجز العَبْدَ عن فعل الذّنوب، ويحثه على القيام بوظائف العبودية، فإذا زاد أورث القنوط. وأما المحبة: فإنه لا حَدَّ لَها.

وقال الفضيل بن عياض: «المحَبَّةُ أفْضَل من الخوف»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف يَتَعَلَّق بالأفعال، والمحبة تَتَعَلَّق بالذات والصفات؛ ولهذا تَتَضَاعَف مَحَبَّة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يَلْحَقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت مَنْزِلة المحبة ومَقَامُها أعلى وأرفع من مَنْزِلة الخوف ومَقَامه»[3]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «التخويف من النار» (ص٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص٣٦).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

أنواع الخوف

قد تَقَدَّمَ أن الشيء قد يُنْظَر إليه من نواحٍ متعددة، فيتنوّع باعتبارات مختلفة.

فإذا نظرنا إلى الخَوْف مِن جِهَة الحكم التكليفي؛ فإننا نجد أنه ينقسم إلى: مشروع، وممنوع، ومباح.

أولًا: الخوف المشروع:

وهو خوف العبادة؛ وهو الخوف من الله وعذابه، ما لم يُوقِع صاحبه في القنوط واليأس من رحمة الله ﷻ، وإلا كان مُحرَّمًا، وهو بهذا الاعتبار مِنْ أَفْضَلِ المقامات وأجلّها ـ كما سبق ـ كما قال الله ﷻ يَمْدَحُ خَاصَّة أَوْلِيَائه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وإنما القَدْر الواجب منه ما حمل على تَرْك المحرَّمَات وفِعْل الواجبات، والقَدْر المستحَبّ منه: ما حثَّ صَاحِبَه على فِعْل المُستحبَّات، وتَرْك المكروهات والاسترسال مع المباحات، فإذا تزايد فإنه يُورِث القنوط، وبهذا يكون محرَّمًا[١].

ثانيًا: الخوف المحرم:

وهو ثلاثة أنواع:

الأول: ما زاد حتى أورث صَاحِبَهُ القنُوط، وهذا لا يجوز.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بوظائف العبودية خوفًا من الناس، وهذا أمر محرَّم، وهو نقص في كمال التوحيد؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لَا يحقرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**»، قالوا: يا رسول الله! كيف يحقر أحدُنَا نفْسَهُ؟ قال: «**يَرَى أَمْرًا للهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**»[٢].

ولذلك؛ وصف الله ﷻ خاصة أوليائه بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم، فهم

---

(١) انظر: «التخويف من النار» (ص٣٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨)، وفي إسناده اختلاف، فقد ضَعَّفَهُ الدَّارَقُطْنِي في «العلل» (١١/ ٣٥٣)، والألباني في «الضعيفة» (٦٨٧٢)، وحسَّنه ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص١٦٢)، ووثَّق رجالَه الشوكاني في «الفتح الرباني» (١١/ ٥٤٤٨).

يُقَدِّمُونَ رضا الله ﷻ والخوف منه على لَوْم المخلوقين وخَوْفِهِمْ، وهذا يدل على قوّة هِمَمِهِمْ وعزائمهم في عبوديَّتِهِمْ لله تبارك وتعالى. بخلاف صاحب القلب والعَزْم الضعيف، الذي يَنْثَني عند لوم اللائمين، فيترك ما هو بِصَدَدِهِ من العمل الصالح؛ لئلّا يلومه الناس. ولا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتى لا يخاف في الله لومة لائم(١).

ومن توَجَّهَ قلبه للمخلوقين، فإنه متى وجد الحثّ منهم والثناء نَشَط إلى القيام بالأعمال الصالحة، وإذا وجد اللَّوْم والتَّبْكِيتَ قَعَد عن ذلك، وتخلَّى عن عمله الذي يقرِّبُه إلى الله ﷻ.

وأما أهل العبودية الحقة؛ فإنهم لا يخافون في الله لومة لائم، وهذا هو الذي بايع النبي ﷺ أصحابَهُ عليه؛ كما في حديث عبادة ﷺ: «بَايَعْنَا رسُول الله ﷺ على السَّمْع والطاعَة في المنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألا نُنَازِعَ الأمر أهْلَهُ، وأن نقولَ بالحَقِّ حيثُمَا كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»(٢).

وبهذا وَصَّى النبي ﷺ أبا ذرّ، كما قال ﷺ: «أَمَرَنِي خَلِيلي ﷺ بِسَبْعٍ»، وذكر منها: «وَأَمَرَنِي أَلَّا أَخَافَ في الله لوْمَةَ لائم»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**»، قال: فبكى أبو سعيد ﷺ، وقال: «واللهِ رَأَيْنَا أشياء فَهِبْنَا»(٤).

وعن عبد الله العُمَرِي الزاهد، قال: «إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله؛ بأن ترى ما يُسْخِطه فتجاوزه، ولا تأمر بالمعروف، ولا تَنْهَى عن المنكر؛ خوفًا ممَّن لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا»(٥).

وقال: «مَنْ تَرَكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين نُزِعَتْ مِنْهُ هَيْبَة الطاعة، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستَخَفَّ به»(٦).

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص٤٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٩٩، ٧٢٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩)، وصحَّحه ابن حبان (٤٤٩)، والألباني في «الصحيحة» (٢١٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، من طرق عن أبي سعيد ﷺ، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٨)، والله أعلم.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٨)، وفي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٤) واللفظ له.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٨) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٤).

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فإذا نقص خوف العبد من الله ﷻ خاف من المخلوقين، وعلى قَدْر نقص الخوف من الله تعالى يكون الخوف من المخلوقين مُتَعَاظِمًا في قلب العبد، كما في الرجاء والمحبة والتوكّل وما إلى ذلك. فإذا عُبِّئ القلب، ومُلِئَ بالإقْبَالِ على الله ﷻ، وعُمِّرَ بِهَذِهِ المقامات والأعمال القلبية الفاضلة؛ فإنه لا يبقى فيه محلّ للمخلوق. وإذا كان الخوف مِنْ غَيْرِ الله يُزَاحِم الخوف من الله ﷻ، فيترك أمر الله، أو يرتكب معصيته خوفًا من المخلوقين؛ فهذا من الشِّرْك الخَفِيّ، ولا يكاد يسلم منه أحد إلا مَنْ رَحِمَ الله ﷻ وعُصِم.

وقد جاء في الحديث بأن الشرك في هذه الأمَّةِ أخْفَى من دبيب النمل(١). وطريق التخلص من ذلك كله الإخلاص لله ﷻ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠](٢).

وقد رأى ابن مُحَيْريز ؒ على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّةً مِنْ خَزٍّ(٣)، فقال: أتلبس الخزّ؟ فقال: إنما ألبس لهؤلاء ـ وأشار إلى عبد الملك ـ فغضب ابن مُحَيْرِيز، وقال: ما ينبغي أن يَعْدِلَ خوفك من الله بأحد من خلقه(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: «وبعض الناس يقول: يا رَبّ! إني أخافك، وأخاف مَنْ لَا يخافُكَ. وهذا كلام ساقِط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده، ولا يخاف أحدًا؛ لا مَن يخاف الله، ولا مَن لا يخاف الله، فإنَّ مَنْ لا يخاف الله أَخَسّ وأذَلّ أن يُخَاف، فإنه ظالم، وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نَهَى اللهُ عَنْهُ»(٥). اهـ.

الثالث ـ من أنواع الخوف المحرم، وهو أعظمها وأشدها ـ: ما يسمى بخوف السرّ؛ وذلك أن يعتقد في ميِّت مقبور، أو صنم، أو أحد من الأحياء أنه يَمْلِكُ مِنَ القُوَى الخارقة ما يطَّلع فيه على بواطِنِهِ، أو أنه يستطيع أن يُوصِل إليه أنواع الأضرار والمخاوف والمكَارِه، فتجده وهو بعيد عنه يخافه ويتَّقِيه، ولا يُحَدِّث نَفْسه بأمرٍ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤).
(٣) يعني: من الحرير، أو من الإبريسم المخلوط بالصوف.
(٤) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (٢/ ٣٦٤)، ومن طريقه ابن عساكر (١٦/٣٣ ـ ١٧) واللفظ له.
(٥) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

يكرهه؛ فهذا من أعظم الشِّرْك، وهو الذي كان عليه أهل الإشراك؛ حيث كانوا يخافون أصنامهم وأوثانهم، ويعتقدون فيها أنها تُوَصِّل النفع والضر، وقد خَوَّفوا منها إبراهيم ﷺ، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١]. وخوَّف قوم هود هودًا ﷺ من أصنامهم، فقالوا كما حكى الله عنهم ذلك: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقد قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦].

فهذا النوع من أعظم الإشراك بالله تعالى. وتجد في بعض البلاد إذا اسْتُحْلِف الرجل بالله ﷻ حلف وهو كاذب، وإذا استُحْلِف بأحد هؤلاء فإنه لا يحلف. وما ذاك إلا لأن المقبور أخوف عنده من الله.

فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، ويحتاج إلى تصحيح الإيمان وتجديده، وإلى توبة عظيمة.

ثالثًا: الخوف الجائز:

وهو الخوف الجِبِلِّي؛ كما وصف الله ﷻ به موسى عليه الصلاة والسلام حينما قَتَل القِبْطِي، قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: ٢١].

وكمَنْ يَخَافُ مِنَ السُّرَّاق، والسِّبَاع، والحيَّات، والهَوَام، ونحو ذلك، فهذا أمر يقع في جِبِلَّةِ الإنسان وطبيعته، وهذا ليس بمذموم، لكنه قد يكون وَهْنًا، فيخاف الإنسان أمورًا ليست مَخُوفَة، ولا يحصل منها أذى ولا ضرر، فيكون ذلك لونًا من الجُبْن والضعف والهَلَع الذي لا محل له، فيكون نقصًا في كمال الإنسان ومروءته، لكنه لا يتعلق به الحكم الشَّرْعي.

والخوف من الظالمين والمعْتَدِين أن يظلموه خوفٌ طبيعي أيضًا، فإذا زاد فترك أمر الله ﷻ، وارْتَكَبَ نهيه من أجل ذلك كان نقصًا في كمال التوحيد.

والخلاصة: أن الخوف؛ منه ما يكون خوف عِبَادة، وذلك خوف التذلّل والتعظيم والخضوع، وهكذا خوف السِّر إذا صَرَفَهُ لِغَيْرِ الله ﷻ، فإنه يكون من قبيل الإشراك.

وأما الخوف الطبيعي الجِبِلِّي فهو في الأصل مباح، فإن استلزم محرَّمًا صار محرَّمًا.

أما الخوف المحمُود: فهو الخوف من الله ﷻ، ومن عقابه، ومِنْ وَعِيدِهِ.

مراتب الخوف

تقدم أن الخوف يتفاوت، وأن الناس ليسوا فيه على مرتبةٍ وَاحِدَة؛ فتارة يكون خوفًا شديدًا مبالغًا فيه، فيزيد عن حَدِّ الاعْتِدَال، فيورِث الإنسانَ يَأْسًا وقنوطًا من رحمة الله تبارك وتعالى، وهذا مِنَ الخوف المذموم.

وقد يكون خوفًا عظيمًا، لا يبلغ بصاحبه هذه المرتبة، ولا يورثه اليأس والقنوط من رَوح الله ورحمته، بل يكون حاجزًا له عن فِعْل المعاصي، حاملًا له على فِعْل الطاعات، وهذا هو خوف المقتصدين، وربما ارتقى بصاحبه، فيترك المكروهات، أو التوسّع في المباحات، مع فِعْل المندوبات؛ وهذا هو خوف السابقين بالخيرات، أصْحَاب العبودية الخالصة لله ﷻ، الذين عرفوا الله معرفة صحيحة بأسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ، فهم أهل الخشية؛ الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فلمَّا كَمُلَتْ مَعْرِفتهم بالمعبود ﷻ عَظُمَ خَوْفُهُمْ وخَشْيَتُهُمْ منه، فظهر ذلك على جوارحهم وأحوالهم وأعمالهم كلها؛ ولذلك لما كان النبي ﷺ أعْلَمُ الناس بِاللهِ كان أشَدّهم له خشية، كما ورد في الحديث(١).

ونجد في عبارات بعض المتقدِّمِينَ مَنْ يخص هؤلاء بوصف مِن أوْصَافِ الخوف؛ كما قال سَهْل بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «خوف الصِّدِّيقِينَ مِنْ سوء الخاتمة عند كل خَطْرة، وعند كل حَرَكَةٍ، وهم الذين وَصَفَهُمُ الله تعالى؛ إذ قال: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]»(٢). فهو لا يفارقهم أبدًا. وهؤلاء أبْعَدُ مَا يكونون عن العُجْب، والأمراض القلبية، والأعمال السيئة التي تُورِث صاحبها ألمًا وحسرة في الدنيا وعذابًا في الآخرة.

ودون هؤلاء مَنْ قَلَّ خَوْفُهُ من الله ﷻ، فلم يَعُد عنده من الخوف ما يحجزه عن مُقَارَفَةِ الآثَام، وترك الواجبات، والإخلال بوظائف العبودية الواجبة؛ وهذا هو خوف المُفَرِّطين، وهم مَنْ ضَعُفَ إيمانهم، وقَلَّ وَرَعُهُمْ وتَقْوَاهُم وخشيتهم من الله ﷻ، فصار ذلك نقصًا في إيمانهم الواجب.

فتجد أحدهم غير مُكْتَرِث بالمطالب العالية التي تَرْفَعُه في سُلَّم العبودية، فلا تتحرَّك نَفْسه حينما يذكر الله ﷻ، أو يُخَوَّف من عذابه ونقمته؛ ولذلك تجد الآية أو الموعظة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٢).

يسمعها اثنان، أحدهما تُؤَثِّر فيه أبلغ التأثير، والآخر كأنه لم يسمعها، ولرُبَّما تذَمَّر من ذلك الواعظ أو المُذَكِّر.

وغالب الناس في زماننا هذا بحاجة إلى إعادة نَظَر في موضوع الخوف من الله ﷻ؛ لضعف الخوف في قلوبهم، ومِنْ ثَمَّ وقع التفريط كثيرًا في حياتنا وأعمالنا، وما نُقْدم عليه من معاملات مالية، أو علاقات نُسيء بها إلى الآخرين؛ من مظالم يتحمّلها العبد، كلُّ ذلك بسبب نقص خوفنا الواجب من الله تبارك وتعالى، ولو كنا على مرتبة الاقتصاد في الخوف، أو على مرتبة الكمال المستحبّ، لكنَّا في حال أخرى تمامًا، تُغَايِرُ هذه الحال التي نحن فيها.

فصاحب هذا الخوف يحتاج إلى مُرَاجَعة وتصحيح، وأن يَسْتَزِيدَ من تعاطي أسباب الخوف من الله تعالى؛ حتى يصل إلى الخوف المطلوب.

ويكفي العبد أنْ يتذكّر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فيرعوي ويَرْتَدِع.

فهذا خلاصة ما ذكره أهل العلم في أنواع الخوف، وقد تَكَلَّمَ على هذه القضية جماعة؛ كالحافظ ابن رجب، وابن قدامة، وطَائِفَة[(١)].

وقال ابن جُزِي: «اعلم أن الخوف **ثلاث درجات**:

الأولَى: أن يكون ضعيفًا؛ يخطر على القلب، ولا يؤثّر في الباطن ولا في الظاهر، فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قويًا، فيوقظ العبد من الغفلة، ويحْمِلُهُ عَلَى الاستقامة.

والثالثة: أن يَشْتَدَّ حَتَّى يبلغ إلى القنوط واليَأْسِ، وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

والناس في الخوف على **ثلاثة مقامات**: فخوف العامَّة من الذنوب، وخوف خاصة الخاصَّة من الخاتمة، ومن السابقة، فإنَّ الخاتمة مبنيَّة عليها»[(٢)]. اهـ.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الإيمان بِضْع وسبعون ـ أو بِضْع وستون ـ شُعْبَة[(٣)]، فيتفاضل الناس فيه تفاضُلًا عَظِيمًا، حتى في مراتب الْكَمَالِ.

وكذلك الخوف، فإنه يَتَفاوت في قلوب الناس ما بين الخوف الضعيف، وخوف المقتصدين، وخوف السابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٥ ـ ٣٨٦)، و«التخويف من النار» (ص٣٢، وما بعدها).

(٢) «التسهيل» (٢/ ٣٥)

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة ﷺ.

بواعث الخوف

الناس ينطلقون في الخوف من منطلقات شتى، فإذا تأمَّلْنَا تلك البواعث في نفوسهم وجدناها:

تارة: تكون ناتجة عن معرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة شدّة عِقَابه.

وتارة: تكون بالنظر إلى جناية العبد ومعاصيه.

وتارة: تكون بهما جميعًا.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «لله ﷻ على القلوب أنواع من العبودية؛ من الخشية، والخوف، والإشفاق، وتوابعها من المحبة والإنابة، وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها، وهذه العبوديات لها أسباب تُهيّجها، وتَبْعَث عليها؛ فكل ما قَيَّضَهُ الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيّجة له؛ فهو من أسباب رحمته له، ورُبَّ ذَنْبٍ قد هاج لصاحبه من الخوف، والإشفاق، والوَجَل، والإنابة، والمحبَّة، والإيثار، والفرار إلى الله، ما لا يهيجه له كثيرٌ مِنَ الطَّاعَاتِ. وكم مِنْ ذَنْبٍ كان سببًا لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبُعْدِه عن طُرُق الغَيّ»[١]. اهـ.

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: «ما كان العبد أعلم بالله كان له أشد خوفًا، والخائفون على طبقات: خائف من الإجرام، وخائف من الحسنات ألَّا تُقْبَل، وخائف من العَوَاقِب. قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥]»[٢].

وقال بعضهم: «العاقل لا يخرج من هذه **الأحرف الثلاثة**:

الأول: أن يكون خائفًا لما سلف منه من الذنوب.

الثاني: لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة.

الثالث: يخاف من إبهام العاقبة؛ لا يدري ما يُخْتَم له»[٣].

ولكنْ قَلَّ من يكون كذلك، بل إن الشيطان ربما يأتي الإنسان فيزيّن له المعصية، وأن الذنب ينقله إلى حال أفضل، وهذا من مَكْرِهِ به؛ لأن الأصل أن الذنب يُضْعفه،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٨٠).

(٢) «شعب الإيمان» (٨٢٥).

(٣) «طبقات الصوفية» (ص٦٣).

ويَخْذله، ويُسْقطه، ويُضْعِف خوف الله في قلبه، وإنما يَرْفعه العمل الصالح؛ ولذلك فإن كل عمل صالح يعمله يزيد به إيمانه، والأعمال السيئة التي يعملها تُنْقِصُه. فإيَّاك أَنْ يُزَيِّن لك الشيطان المعْصِيَة، فليس ذلك هو طريق الرقيّ بالنَّفْس وتكْمِيلِهَا.

ومن الناس من يكون مُنْطَلَقه مُلَاحَظة الأمرين: الخوف مِنَ الله ﷻ، لما يجد في قلبه من معرفة أسمائه وصفاته وعظمته، مع ملاحظة تقصيره وتفريطه؛ فكل واحد من الأمرين يسوقه إلى مزيد من الخوف من الله ﷻ، وفِعْل مُقْتضى هذا الخوف من العمل الصالح، والانكفاف عن الأعمال السيئة.

فالمقصود: أن أصحاب هذه المرتبة أكمل من الذين قبلهم، ممَّن يكون سائقه ودافعه إلى الخوف إنما هو الذنب فقط.

وأمثل من هؤلاء جميعًا مَنْ لا يعصون الله ما أَمَرَهُمْ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون، وهم أنبياء الله وملائكته ﷺ؛ ذلك لأنهم عرفوا المعبود معرفة صحيحة، فامتلأت قلوبهم خشية وإخباتًا وخوفًا من الله تبارك وتعالى، وبهذا تعلم أنك كلما ازددت معرفة بالله ﷻ ازددت خوفًا منه.

وبهذا تعلم أيضًا أثر العقائد الصحيحة؛ حَيْثُ إنَّها تُورِثُ الأعمال الصالحة، فالَّذِي لا يؤمن بأن الله ﷻ قَدِ اتَّصَفَ بالسمع، والبصر، والعِزَّةِ والقُوَّةِ، وأنه يغضب غضبًا يليق بجلاله وعظمته، إلى غير ذلك من صفات كماله؛ كيف يُرَاقِبُ رَبَّهُ؟! وكيف يخافه؟! وكيف يهاب غضبه، ويُشفق منه؟!

فإذا اكتملت معرفة العبد بربِّه ازْدَادَ خوفه من الله؛ ولذلك نحن بحاجة إلى التعرف على أسماء الله، وفَهْم معانيها؛ لأن ذلك سَيُثْمِر هذه الأعمال القلبية، ويمتلئ القلب محَبَّةً، ورجَاءً، وخوفًا، وتوكّلًا، وتعظيمًا، إلى غير ذلك من المعاني. وهذا لا يحصل في قلب إنسان لا يعرف ربّه، وما يتصف به من صفات الكمال.

ولذلك؛ فالعاقل ـ كما تقدم ـ يحاذر؛ لأنه لا يدري ما يَنْزِل به ساعة بعد ساعة؛ أيُعَاقَب على ذنبه أم يعفو عنه ربّه؟ أيُقْبَل عمله الصالح أم يُرَدّ؟ فهو دائم الترقّب، وَجِل، خَائِف، ليس غافلًا عمَّا يَنْتَظِره.

وكذا الخوف مِنْ إبْهَام العَاقِبَة؛ فإن الإنسان لا يدري بماذا يُخْتَم له؟ ولا يدري في أيِّ المحلَّيْنِ يَنْزِل؛ أَفِي الجنَّة أم النار؟ فحُقَّ لمن لا يدري ذلك أن يخاف.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فالعبد إن كان مستقيمًا فخَوْفُهُ من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، أو نقصان الدَّرَجَةِ بالنسبة، وإن كان مائلًا فخَوْفُهُ مِنْ سوء فِعْلِهِ، وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع؛ فإن الخوف يَنْشأ من مَعرفة

قُبح الجِناية، والتصديق بالوعيد عليها، وأن يُحْرَم التوبة، أو لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له، فهو مُشْفِق من ذنبه، طالب من ربه أن يُدْخِله فيمَن يغفر له»[١]. اهـ.

وقيل: «الخوف خَوْفان: خوف العقاب، وهو نصيب أهل الظاهر، ويزول، وخوف جلال، وهو نصيب أهل القلب، ولا يزول»[٢].

وبالجملة: فمن كان دَافِعه في الخوف ملاحظة السَّوط، كان دون مَنْ كان حامله على الخوف معرفة المعبود ﷻ بأسْمَائه وصفاته، لكن كل واحد من هذين الخَوْفَيْن يَنْفَع صاحبه، ويحصل به الانْزِجار، والانكفاف مع الامتثال بفعل المأمورات.

❁ ❁ ❁

(١) «الفتح» (١١/ ٣١٩).

(٢) «البحر المحيط في التفسير» (١/ ٣٣١).

الطريق إلى تحقيق الخوف من الله

عامَّة الناس بحاجة إلى معالجة الخوف وتنميته في قلوبهم، وذلك للتقصير الظاهر في هذا الجانب، ويمكن ذلك بأمور، منها:

أولًا: تفريغ القلب من الخوف من غير الله، ومَلْؤُه بالخوف من الله:

وهذه قضية جليَّة من الشاهد، فإن الإِنَاءَ مثلًا إذا كان مُمْتَلئًا بالخَلّ؛ فإنه لا يمكن أن يُوضَع عليه اللبن، بل لا بد من تَفْرِيغه أولًا من الخَلّ، ثم بعد ذلك يُمكِن مَلْؤُه باللبن؛ لأن التَّخْلِيَة قَبْلَ التحلية.

وهذا يُلاحَظ في جميع الأعمال القلبية، «وهذا هو الإسلام المتضمّن للإيمان، الذي يَمُدّه القُرْآن ويقوّيه، لا يناقضه ولا ينافيه؛ كما قال جندب ﷺ: «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تَعَلَّمْنَا القرآن، فازْدَدْنَا به إيمانًا»[(١)]»[(٢)].

فصادف هذا الإيمان محلًا فارغًا، فتمَكَّنَ فيه، فلمَّا حَصَلَ معه تعلُّم القرآن، والتفقُّه كان ذلك بمنزلة ضوء الشمس مع نور العين، فصار الإيمان صحيحًا، كاملًا، حيًّا، نَابِضًا في نفوس هؤلاء الصَّحَابة ﷺ، فأثمر ما ننعم به إلى يومنا هذا من الخير العميم الذي نشروه في أرجاء الأرض، بعد أن ضَحّوا بكل شيء من أجل دينهم، فكانوا كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن المهاجر إلى رَبِّهِ: «فيهاجر بقلبه من محبَّةِ غير الله إلى محبَّتِه، ومن عبودية غيره إلى عبوديَّتِه، ومن خوف غيره ورجائه والتوكّل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتوكّل عليه، ومِنْ دُعَاءِ غَيْرِه، وسؤاله، والخضوع له، والذل والاستكانة له، إلى دعائه وسؤاله والخضوع له، والذل له، والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، والتوحيد المطلوب من العبد: هو الفرار من الله إليه»[(٣)].اهـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١)، ورُوِي نحوه عن ابن عمر ﷺ. أخرجه الحاكم (١/ ٣٥).
(٢) ما بين الأقواس من «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠١) بتصرُّف.
(٣) «الرسالة التبوكية» (ص١٦).

ولهذا قال بعض المتقدِّمين: «قِلَّةُ الخَوْفِ من قِلَّة الحُزن في القلب»[١].

كما أن البيت إذا لم يُسْكَن خَرب، فهكذا القلب إذا لم يُعَمّر بالخوف من الله ﷻ.

ثانيًا: تدبّر القرآن:

فالمتَدَبِّر لآيات الله سبحانه يجد فيها من الوعيد لمن عصى الله ما يدعوه إلى الخوف منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

والحصر بـ«إنما» هنا يدلّ على أن ذلك من الإيمان الواجِب. ومَنْ لم يَحْصل له هذا الوَجَل لا يلزم أن يكون كافرًا، ولَكِنَّه يكون قد نقص من إيمانه الواجب.

وقد وصف الله تعالى أهل العبودية الخاصة بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

قال السعدي رحمه الله: «أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرَّغْبَة والرَّهْبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لِرَبِّهِمْ»[٢]. اهـ. «ولهذا كان بكاء النبي ﷺ تارة: يكون رحمةً للميت، وتارة: خوفًا على أُمَّتِهِ، وشَفَقَة عليها، وتارة: من خشية الله، وتارة: عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبَّةٍ وإجْلَال، مصحوب بالخَوْفِ والخشية»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! قد شِبْت، فقال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[٤].

قال المناوي رحمه الله: «قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفَظِيع، والوعيد الشديد؛ لاشتمالهنّ - مع قِصَرِهِنّ - على حكاية أهْوَال الآخرة، وعجائبها وفظائعها، وأحوال الهالكين والمعذّبين»[٥]. اهـ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٣).

(٢) «تفسير السعدي» (ص١٠٠٥).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ١٧٦ - ١٧٧) بتصرُّف يسير.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٢/ ٣٤٣، ٤٧٦)، والألباني في «الصحيحة» (٩٥٥)، إلا أن الحديث معلول؛ أعَلَّهُ أبو حاتم في «العلل» (٥/ ١٧١)، والدارقطني (١/ ١٩٣ - ٢١١)، وجعله الحافظ من أمثلة المضطرب في «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ١١٨)، وللحديث طرق إلا أنها لا تثبت، راجع: «الميزان» للذهبي (٣/ ٦٨١) و«الضعيفة» (١٩٣٠، ١٩٣١)، و«الإرشادات» لطارق عوض الله (ص٣٥١ - ٣٥٣).

(٥) «فيض القدير» (٤/ ١٦٩).

فإذا تدبَّرْتَ كلام الله ﷻ حق التَّدَبر أورثك ذلك النظر فيما ذكره الله في هذا القرآن من أنواع المَخَاوف، الَّتِي منها حلول نقمته وعذابه بأقوام كذّبوا رسله، وحاربوا أَوْلِيَاءَه، وما أعد لهم في الآخرة من الجحيم والعذاب والسلاسل والأغلال، وما فيه من أوصاف الكمال لله تعالى؛ فإن ذلك يُحَرِّكُ الخَوْفَ في قلب الإنسان ويزيده؛ ولهذا نجد أن الذين يفهمون معاني القرآن، ويتدَبَّرونه هم أعظم الناس خوفًا.

ولهذا قال ابن جرير رحمه الله: «إني أعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يَلْتَذّ بقراءته؟!»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته؛ من تدبّر القرآن، وإطالة التأمّل فيه، وجَمْع الفِكْر على معاني آياته... فلا تزال معانيه تُنْهِض العبد إلى رَبِّهِ بالوعد الجميل، وتُحَذِّره وتُخَوِّفه بوعيده من العذاب الوَبِيل، وتحثّه على التَّضَمُّر والتَّخَفّف للقاء اليوم الثقيل»[٢].اهـ.

لكن الغفلة والجهل بمعاني القرآن، وغَلَبَة الفضول على أحوالنا صَرَفَنا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، لا سيما مع ما يُزَاحم ذلك من اشتغال أقوام بسماع البَاطِل، من اللهو المحرَّم وغير ذلك.

ولذلك؛ قال النبي ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[٣].

فهذا الإنسان الذي يقوم، ويَسْتَيْقِظ، وينام، ويمشي، ويَتَحَرَّك على سماع الأناشيد، والقصائد، بصورة دائمة، كيف له أن يتأثّر بالقرآن؟! وكيف له أن يخشع عند سماعه؟!

بخلاف مَنْ كَانَ شغلُه القرآن والذِّكْر؛ فإنه لا تطيب له أيامه، ولا يَهْنَأ له عيش إلا بذلك.

ثم إنه لا يمكن أن يَحْصل التدبّر لمن لا يعرف معاني القُرْآن.

ولذلك؛ فإن أعداء الله ﷻ يبذلون جهودًا مُضْنِية في سبيل الحيلولة بين المسلمين وكتاب ربِّهِمْ تبارك وتعالى.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «والله لو أن مؤمنًا عاقلًا قَرَأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص بتفكُّر وتَدَبُّرٍ؛ لَتَصَدَّع من خَشْية الله قَلْبُه، وتَحَيَّر في عظمة الله لبّه»[٤].اهـ.

---

(١) «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٥٣).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «التذكرة في الوعظ» (ص٧٣ ـ ٧٤).

وهذا أمر لا يُسْتَغْرب؛ وذلك أن الله ﷻ «إذا تَجلَّى بصفات العَدْل والانتقام، والغضب، والسّخط، والعقوبة؛ انقَمَعَت النَّفس الأمَّارَة، وبطلت أو ضَعُفَتْ قُوَاها من الشهوة، والغضب، واللَّهْو، واللعب، والحرص على المحرَّمات، وانقبضت أعِنَّة رُعُوناتها، فأحضرت المطيَّة حظَّها من الخوف والخشية والحَذَر»[1].

ثالثًا: معرفة الله ﷻ معرفة صحيحة بأسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ:

فَبِالْعِلْم بها يَزْدَاد المسلم معرفة بربِّهِ سبحانه، فيزداد خوفًا منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم الذي يُورِث الخشية هو العلم بالمعبود ﷻ؛ بِأسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، والعلم بالطريق الموصِّلِ إليه، والعلم بحدوده ومعالم الطريق التي وصفها للسالكين مِنْ أجل أن يسلكوها. فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة للعبد، مع معرفة بالنَّفْس، بحيث لا يتعدَّى طَوره، فيعرف أنه ضعيف عاجز مسكين؛ فإن ذلك يُثْمِر الثمار اليانعة في نفْسه، فلا يتطاول، ولا يتكبَّر، ولا يشمَخ بأنفه، وإنما يكون حاله الإشفاق، والإخبات، والتواضع، والوَجَل، والخوف من الله ﷻ؛ ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: «كفَى بخشية الله علمًا»[2].

قال السعد ﷺ بعد تفسير الآيات التي تصف أهوال القيامة من سورة التكوير: «وهذه الأوصاف التي وَصَفَ الله بها يوم القيامة من الأوْصَافِ التي تَنْزَعِجُ لها القلوب، وتَشْتَدّ من أجلها الكروب، وتَرْتَعِد الفرائص، وتعُمّ المَخَاوف، وتحثّ أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجُرهم عن كل ما يُوجِبُ اللَّوْم»[3].اهـ.

وإنما يكون نقصان الخوف غالبًا بسبب نقصان العلم؛ فأعرفُ الناس بالله أخشاهم له. وكذلك كلّما كان العبد جاهلًا بأمر ربه كان أكثر تفريطًا في حق ربه، وحق عباده، وحقِّ نَفْسه. فمن عرف الله اشْتَدَّ حياؤُهُ مِنْهُ، وخوفه له، وحبه له. وكُلَّما ازْدَادَ مَعْرِفَة ازداد حياء وخوفًا وحُبًّا؛ وهذا خوف الصدِّيقِينَ، وخوف الموحِّدِين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى.

وقد تكلم ابن القيم ﷺ عن هذه المعاني، وشرحها شرحًا مُطَوَّلًا ومختصرًا، ونوَّعَ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٩٨ ـ ٩٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١)، وأحمد (ص١٥٨) في «الزهد»، والطبراني في «الكبير» (٨٩٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٢).

(٣) «تفسير السعدي» (ص١٩٤١).

بسْطَهَا وبَيَانَهَا، وذلك أن العبد إذا لاحظ أن هذا المُلْك كله لله ﷻ، وأن نواصي الخَلْق بيده، وأنه يدبّر أمْر الممالك، يأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويُحْيِي ويميتُ، ويُعِزّ ويُذِلّ، ويُقَلِّب اللَّيْلَ والنهار، ويُدَاوِلُ الأيام بين الناس، ويَقْلِب الدّول، فيذهب بِدَوْلَةٍ ويأتي بأخرى، وأمره وسلطانه نافذ في السمٰوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووَسِع سَمْعه الأصوات، فلا تختلف عليه، ولا تَشْتَبه عليه، بل يسْمَع ضجيجها، باختلاف لغاتها، على تَفَنّن حاجاتها، فلا يَشْغله سَمْع عن سَمْع، ولا تُغَلِّطه كثرة المسائل، ولا يتبرّم بإلحاح المُلِحّين ذوي الحاجات، قد أحاط بصره بجميع المرئيّات، فيَرَى دَبِيبَ النملة السوداء، على الصخرة الصَّمَّاء، في الليلة الظلماء، والغيب عنده شهادة، والسِّر عنده علانية: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويُفَرِّج هَمًّا، ويَكْشف كَرْبًا، ويَجْبر كَسْرًا، ويُغْنِي فَقِيرًا، ويَهْدِي ضَالًا، ويُرْشِد حَيران، ويغيث لهْفَان، ويُشْبِع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويُعَافِي مُبتلى، ويَقْبل تَائِبًا، ويَجْزِي مُحْسِنًا، وينصر مظلومًا، ويَقْصِم جبارًا، ويَفك عانيًا، ويُقيل عَثْرة، ويَسْتر عورة، ويُؤَمِّن رَوْعَة، ويَرْفَعُ أقْوَامًا، ويَضَعُ آخرين. لَوْ أنَّ أهل السمٰوات، وأهل الأرض، وأوّل الخَلْق وآخرهم، وإنسهم وجِنّهم؛ كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

فإذا نَظَر العبد إلى هذه الأمور، وتأمَّلَهَا صار سِرُّه كعلانيته، ولم يقدِّم على رَبِّه أحدًا، فيخافه فوق خوفه. ولم يُفَرِّط في شيء من حدوده، فيتَنَامَى هذَا الخوف في قلبه، ويزداد، ويزدان[١].

وهذا يقتضي العناية بطلب العلم الشرعي؛ لأنه الطريق إلى معرفة الله بأسمائه وصفاته؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال ﷻ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

فلو لاحَظْتَ هذه الآيات، وتمَعَّنْتَهَا لوجَدْتَ أن كل ما دَلَّ على فضيلة العلم دَلّ على فضيلة الخوف؛ وذلك لأن الخوف ثمرة من ثِمَار شجرة العلم. وتأمَّل قول حبيبنا المصطفى ﷺ حيث قال: «فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[٢].

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (ص١٥١ ـ ١٥٣)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٦١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

فمَنْ عَلِمَ أنه حقير، وأن الله هو العظيم خاف منه، وأكثر خوف الملائكة والنبيين من الله من هذا الباب، ألا وهو خوف التعظيم.

رابعًا: اليقين الراسخ بوَعْد الله ووعيده، وتصديق كتابه ورسوله ﷺ:

وقد قيل: «إذا صح اليقين في القلب صحّ الخوف فيه»[(١)]. ولكل شيء صِدْق، وصِدْق اليقين الخوف من الله تعالى.

وقد وصف الله ﷻ أهل الإيمان بأنهم يُؤمنون بالغيب، ويخشون ربهم بالغيب، وذلك يتضمن الإقرار بوجوده، وربوبيته، وقُدْرته، واطّلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمّن الإقرار بكتبه ورسله، وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تَصِحّ خشية الرحمٰن بالغيب إلا بعد هذا كله.

«ولو آمن الإنسان بالله وحده، وجزم يقينًا بما بعد الحياة من الجنة والنار، وما أعدّ الله لأهل هذه وهذه إجمالًا وتفصيلًا؛ لما اجترأ يومًا أن يتخطّى شريعة الله، أو ينتهك محارم الله التي حذَّره من تخطيها بقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]»[(٢)].

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!»**[(٣)].

فلو تأمَّلَ الإنسان مثل هذا المعنى لانكفّ عن شهوة عارضة، في لحظة يلتذّ بها فيها، فيعقبها أَلَم يُنَغِّص عليه عيشَه، ويكدّر عليه صَفْوه، مع ما ينتظره في الدار الآخرة من العقاب إن لم يغفر الله ﷻ له.

فالخوف من الله يَرْسخ رسوخًا ثابتًا إذا وُجِدَ اليقين الكامل في نَفْس العبد؛ بحيث يكون العبد مُصَدّقًا مُستيقنًا بما أخبر الله ﷻ به، مما أعدَّهُ لأوليائه من النعيم، وما أعده لأهل الشقاء من العذاب والنّكال؛ سواء كان ذلك في الحياة

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٩٧٩) من كلام ذي النون.

(٢) ما بين الأقواس من كتاب «الخوف من الله تعالى»، لمحمد شومان (ص٥٩) بتصرُّف واختصار.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٧٤٧٠)، والحاكم (٢/ ٢٩٤، ٤٥١)، والذهبي، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٢٧٣٥، ٣١٣٨)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٠) وغيره. ثم تراجع فأعله بالوقف والتدليس وذلك في «الضعيفة» (٦٧٨٢).

الدنيا من العقوبات التي يُنْزِلها بهم، أم كان ذلك مما يدّخِره لهم في الآخرة. فهذا الأمر إذا قوي في النَّفْس قوي الخوف وازْدَادَ، وإذا ضَعُفَ ضَعُف الخَوْف حتى يتلاشى مِنَ القَلب.

ولذلك؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن مسعود ﷺ: «ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية»[١].

ويقول قتادة رحمه الله: «كان يُقال: كفى بالرَّهْبَةِ عِلْمًا»[٢].

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «الخشية أن تخشى الله حتى تَحُول خشيته بينك وبين معصيته»[٣].

وقال الحسن رحمه الله: «العالِم: من خشي الرحمٰن بالغيب، ورغِبَ فِيمَا رَغَّبَ الله فيه، وزَهِدَ فيما سَخَطَ الله فيه»[٤].

وقال مسروق رحمه الله: «كفى بالمَرْءِ عِلْمًا أن يخشى الله، وكَفَى بالمَرْءِ جَهْلًا أن يَعْجَبَ بنفسه»[٥].

لأنه إذا أُعْجِب بعمله التَفَتَ إِلَى نَفْسه، فإذا الْتَفَتَ إلى نَفْسه لم يحترز، وإنما تكون ثقته بنَفْسه عظيمة، فيُجرِّئه ذلك على ما لا يَلِيقُ من الأقوال والأفْعَالِ، ويكون في حال غير مَرْضية.

وقال ابن عَبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: «العلماء بالله الذين يخافونه»[٦].

وقال صالح أبو الخليل رحمه الله: «أعلمهم بالله أشدّهم له خشية»[٧].

وقال رجل مرَّة للشَّعْبِي رحمه الله: أيها العالم! فقال: «العالِم من يخاف الله»[٨].

وعن عبد الأعلى التيمي رحمه الله، **قال**: «من أُوتِيَ من العلم ما لا يُبْكِيهِ، لخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِي عِلْمًا ينفعه؛ لأن الله تبارك وتعالى نَعَتَ العلماء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٤)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٣٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٣٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٣٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٥٤٤ _ ٥٤٥).

(٥) أخرجه الدارمي في مقدمة «مسنده» (٣٢٢، ٣٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣، ٧٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٥).

(٦) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٧٨).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٤٩١)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٨٠)، واللفظ له.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣١١).

مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]»[١].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩]، فهذا هو العالِم الذي حمله العلم على خشية الله ﷻ، فخَافَهُ، فَاتّبع أمره، وتَرَك نهيه، وسَارَعَ في الامتثال لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ، وتَرْك المنكرات، وهو معنى تَتَابَعَ على إيراده وتقريره أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨]: «والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالِم، فقد أَخْبَرَ الله أن كُلَّ مَنْ خَشِيَ الله، فهو عالِم»[٢].اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «لأنَّ مَنْ عَرَفَ الله خافه، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ لَمْ يَخَفْهُ، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قَدْر المعرفة تكون الخشية»[٣].اهـ.

وقال ابن قدامة رحمه الله: «ليس الخوف بكثرة الذنوب، ولكن بصَفَاءِ القُلُوبِ، وكمال المعرفة، وإنما أَمِنّا لغلبة الجهل»[٤].اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كل عاصٍ لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالِم مُطِيع لله، وإنما يكون جاهلًا لِنَقْصِ خَوْفِهِ من الله؛ إذ لو تَمَّ خَوْفُهُ من الله لم يَعْصِ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفَى بِخَشْيَةِ الله عِلْمًا، وكفَى بالاغْتِرَارِ بالله جهلًا»[٥]؛ وذلك لأن تَصَوُّر المَخُوف يُوجِب الهَرب منه، وتَصَوُّر المحبوب يُوجِبُ طَلَبَه، فإذا لم يَهْرُب من هذا، ولم يطلب هذا؛ دلّ على أنه لم يتصوّره تصوُّرًا تامًّا»[٦].اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨] يقتضي الحَصْرَ من الطَّرَفَيْنِ: ألَّا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالِمًا إلا مَنْ يَخْشَاهُ، فلا يخشاه إلا عالِم، وما من عالِم إلا وهو يخشاه، فإذا انْتَفَى العِلْم انْتَفَت الخَشْيَةُ، وإذا انْتَفَتِ الخَشْيَةُ دَلَّت على انتفاء العِلْم»[٧].اهـ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨٨)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٤٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢١).
(٣) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٢٠).
(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٩٩).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٣٢).
(٦) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).
(٧) «شفاء العليل» (٢/ ٤٩٢).

وقد يتساءل بعضنا، فيقول: ألم يَقُلِ الله ﷻ عن أولئك الظالمين: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: آية مبصرة واضحة لا إشكال فيها، ولا خفاء فيها. وقال عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فحصَل لهم اليقين، وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال موسى ﷺ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فهذه الآيات أَخبَرَت أنهم عرفوا الحق وعلموه، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فنقول: ليس هناك تعارض بين نصوص القرآن، فالقرآن يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ولكن تَخَلُّف الخشية:

تَارَةً: يكون بانعدام العلم أصلًا؛ كأن لَا يَعلم أن هذا الأمر مطلوب لله ﷻ، أو أنه منهيٌّ عَنْه مُحَرَّم.

وتارةً: يكون لِعَدم اليَقِين التام بالمعلوم، فلا يخشى الله ﷻ الخشية المطلوبة، كما أخبر الله ﷻ عن الناكفين عن الإيمان به أنهم يقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

فضَعْفُ اليقين بما وعد الله ﷻ به، وبما قصَّهُ وأخْبَرَ به يُضْعِفُ الخوف في نَفْس العبد. وهذا حال كثير مِنَ الخلق، إنما نَقَص خوفهم لنقص يَقِينِهِمْ.

وتارة: تَنْقُص الخشية لنقص عِلْمه بالمعبود ﷻ؛ فلو أنه عَرَفَه مَعْرِفَة حقَّة لخَافَهُ حَقًّا.

ولهذا قال مَنْ قَالَ من السلف رضي الله تعالى عنهم: «من عَصَى الله ﷻ فهو جاهل»[1]؛ وذلك أنه لو عَرَفَ رَبَّهُ حق المعرفة لما اجْتَرَأَ عَلَى معصيته.

وتارة: يحصل العِلْمُ لِلإِنْسَانِ، ولكنه يُنَازَع بأُمُورٍ أُخرَى قد شُغِل بها قلبه؛ من اتباع

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩ ـ ٩٠) عن عطاء ومجاهد، وثبت عن قتادة، والسدي، وعبد الرحمٰن بن زيد، والحسن. راجع: «تفسير ابن جرير» (٨/ ٨٩ ـ ٩٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٠١)، و«شعب الإيمان» (٦٦٧١)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٥).

الهوى، وما يزيّن له الشيطان من الفتنة والشهوات، وما يَنْشَغِلُ به من زُخْرف الحياة الدنيا، والقلب ضعيف لا يَتَمَالك، إذا انصرفَت هِمَّته إلى شيء لم يلتفت لغيره.

ولهذا نهى الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يَلْتَفِتَ إلى شيء مما مَتَّعَ الله ﷻ به الكافرين؛ من مَبَاهِجِ الحَيَاة الدنيا، ونهاه عن أن يُعْجبه شيء من أموالهم وأولادهم، وما أعطاهم الله ﷻ من ألوان التَّرَفِ والأزواج، وما إلى ذلك، مما يَسْتَدعي نَظَر الناظرين.

فهذه أمور مُتَنَوِّعَة، إذَا حَصَل واحد منها أضعف الخَوْف والخشية في قلب الإنسان[1].

فالمقصود: أن هذا الإنسان الذي اجْتَرَأ على الله ﷻ بِمَعْصِيَتِه يَسْتَحِقّ أن يُوصَف بالجهل، وأن يُسلَب عنه وَصْفُ العِلْم.

وقد تقدَّمَ أن العلماء ثلاثة: **عالمٌ بِأَمْرِ الله**، فهذا هو الفقيه بالأحكام وشرائع الإسلام، ولكنه قد لا يكون عالمًا بالله.

والثاني: عَالِمٌ بِاللهِ وأسمائه وصِفَاتِه، ولكنه ليس بعالِم بأمر الله، ولا بَصَر له بالأحكام.

والثالث: عالمٌ بالله، عالم بأمر الله ﷻ؛ **فهذا هو المُهَيّأ** لخشيته، وامتثال أمره، والقيام بحقوقه.

وهذا هو السبب في أن كثيرًا من المُشْتَغِلين بالعلُوم الشرعية من الفقه، والتفسير، والحديث وغير ذلك قد يكون عندهم نوع جَفَاف فِيمَا يَتَعَلَّق بالإقبال على الله ﷻ، وخشيته، ومراقبته، ومحبّته.

ولذلك؛ فالعلم لا بُدَّ معه من تربية تُرَوِّض النَّفْس، وُتَهذِّب الأخلاق، وتُخَوِّف العبْدَ مِن الله تبارك وتعالى، فلا يجترئ عليه.

ومن هنا قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ـ كما تقدم ـ**: «ليس الخوف بكثرة الذنوب، ولكن بصفاء القلوب، وكمال المعرفة، وإنما أمِنًا لغلبة الجهل»[2]. اهـ.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧].

وعن أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يُحَدِّثُ أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: «كل

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩٥)، و«شفاء العليل» (٢/ ٤٩٢).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٩٩).

ذَنْب أصابه عبدٌ، فهو بجهالة»[١].

وهذا أيضًا جاء عن جماعة مِنَ السَّلَف رضي الله تعالى عنهم بعد أصحاب النَّبِيّ ﷺ، كما تقدَّمَ.

وقد جعل الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ أهل العلم على **مراتب**[٢]:

فمِنْهُمْ: مَنْ يَكُونُ في بداياته، فهذا يحتاج إلى وعْظٍ وَزَجْرٍ، ويحتاج إلى الحدود، وإلى التعزيرات، وما جرى هذا المجْرَى.

ومنهم: من توسط فيه، فهو يحتاج إلى ألوان من المُجَاهَدَات، وأن يحمل نَفْسه على فِعْل التكاليف تكلّفًا.

ومنهم: من رَسَخ فيه؛ فصار العلم لهم سَجِيَّة وسِمَة، فخضعت نفوسهم، وارْتَاضَتْ على مقتضى العلم، من فِعْل المأمور، وتَرْك المحْظور، وهؤلاء هم العلماء حقًّا. وهذا لا يحْصل للإنسان إلا بعد مُجَاهَدات وطُول طَلَبٍ.

«فإن قيل: مجرَّد ظن المَخُوف قد يُوجِب الخوف، فكيف قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؟ قيل: النَّفْس لها هوى غالب، قاهر، لا يصرفه مجرَّد الظن، وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة، وأما من كان يظن أن العذاب يقع، ولا يُوقِن بذلك فلا يترك هواه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال تعالى في الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية: ٣٢]، ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون، وأقسم الرب على وقوع العذاب والساعة»[٣].

«ويدلُّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألتُ أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: «كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب»[٤]، وكذلك قال سائر المفسرين.

قال مجاهد: «كل عاص فهو جاهل حين معصيته»[٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩). (٢) انظر: «الموافقات» (١/ ٨٩ ـ ٩١).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣) بتصرُّف يسير.

(٤) أخرجه ابن جرير (٨/ ٨٩) مختصرًا.

(٥) تقدم تخريجه.

وقال الحسن وقتادة وعطاء والسّدي وغيرهم: «إنما سُمُّوا جُهَّالًا لمعاصيهم، لا أنهم غير مُمَيِّزين»[(١)].

وقال الزجاج: «ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يُواقِع سوءًا؛ وإنما يحتمل أمرين:

أحدهما: أنهم عملوه، وهم يجهلون المكروه فيه.

والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعِلْم بأن عاقبته مكروهة، وآثروا العاجل على الآجل؛ فَسُمُّوا جهالًا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعافية الدائمة»[(٢)].

فقد جعل الزجاج (الجهل) إما عدم العلم بعاقبة الفِعْل، وإما فساد الإرادة؛ وقد يقال: هما مُتلازمان. . .

والمقصود هنا: أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم»[(٣)].

خامسًا: ذِكْرُ المَوْتِ وما بعده؛ فَكَفَى بِهِ واعظًا:

وقد أحسن من قال[(٤)]:

أَمَــا وَالــلَّــهِ لَــوْ عَــرَفَ الْأَنَــامُ ... لِمَـا خُـلِقُـوا لَـمَـا غَـفَـلُـوا وَنَـامُـوا
لَـقَـدْ خُـلِقُـوا لِـمَـا لَـوْ أَبْـصَـرَتْـهُ ... عُـيُـونُ قُـلُـوبِـهِـمْ سَـاحُـوا وَهَـامُـوا
مَـمَـاتٌ ثُـمَّ قَـبْـرٌ ثُـمَّ حَـشْـرٌ ... وَتَـوْبِـيـخٌ وَأَهْـوَالٌ عِـظَـامُ
لِـيَـوْمِ الـحَـشْـرِ قَـدْ خُـلِـقَـتْ رِجَـالٌ ... فَـصَـلَّـوا مِـنْ مَـخَـافَـتِـهِ وَصَـامُـوا
وَنَـحْـنُ إِذَا أُمِـرْنَـا أَوْ نُـهِـيـنَـا ... كَـأَهْـلِ الْـكَـهْـفِ أَيْـقَـاظٌ نِـيَـامُ

فهي ساعة يَعْرَق لها الجبين مِنْ هَوْلها، وتَخْرس من فَجْأتها الأَلْسُن، وتَقْطُر دموع الأسى والأَسَف من الأعْيُن على ما مضى من التَّفْرِيط، فهو أمر جدير بأن يُتَذَكَّر ويُتَأَمَّل، والله يقول: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].

وَكَـيْـفَ قَـرَّتْ لِأَهْـلِ الْـعِـلْـمِ أَعْـيُـنُـهُـمْ ... أَوِ اسْـتَـلَـذُّوا لَـذِيـذَ الـنَّـوْمِ أَوْ هَـجَـعُـوا
وَالْـمَـوْتُ يُـنْـذِرُهُـمْ جَـهْـرًا عَـلَانِـيَـةً ... لَـوْ كَـانَ لِـلْـقَـوْمِ أَسْـمَـاعٌ لَـقَـدْ سَـمِـعُـوا
وَالـنَّـارُ ضَـاحِـيَـةٌ لَا بُـدَّ مَـوْرِدُهُـمْ ... وَلَـيْـسَ يَـدْرُونَ مَـنْ يَـنْـجُـو وَمَـنْ يَـقَـعُ
أَفِـي الْـجِـنَـانِ وَفَـوْزٍ لَا انْـقِـطَـاعَ لَـهُ ... أَمِ الْـجَـحِـيـمِ فَـلَا تُـبْـقِـي وَلَا تَـدَعُ

(١) تقدم تخريجها.
(٢) انظر: «معاني القرآن» (٢/ ٢٩).
(٣) ما بين الأقواس من «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢).
(٤) «المدهش» (ص١١٥).

لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا[١]

وقال أبو العتاهية[٢]:

أَلَا رُبَّ ذِي أَجَلٍ قَدْ حَضَرْ ... كَثِيرِ التَّمَنِّي قَلِيلِ الحَذَرْ
إِذَا هَزَّ فِي المَشْيِ أَعْطَافَهُ ... تَعَرَّفْتَ مِنْ مَنْكِبَيْهِ الْبَطَرْ
يُؤَمِّلُ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَيَزْدَادُ يَوْمًا بِيَوْمٍ أَشَرْ

وله أيضًا[٣]:

لِأَمْرٍ مَا بَنِي حَوَّا ... ءَ قَدْ نُصِبَتْ لَكُمْ سَقَرُ
أَلَيْسَ المَوْتُ غَايَتَهَا ... فَأَيْنَ الخَوْفُ وَالحَذَرُ
رَأَيْنَا المَوْتَ لَا يُبْقِي ... عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَذَرُ

وله أيضًا[٤]:

لِحَثٍّ تَقَارُبِ الآجَا ... لِ تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
تَفَكَّرْ أَيُّهَا المَغْرُو ... رُ قَبْلَ تَفُوتُكَ الْفِكَرُ
فَإِنَّ جَمِيعَ مَا عَظُمْـ ... ـتَ عِنْدَ المَوْتِ مُحْتَقَرُ

فـ«ابكِ على نفسك قبل أن يُبْكَى عليك، وتفكَّرْ فِي سَهْم قد صُوِّب إِلَيْكَ، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينتَ قبرًا فتوهَّمْه قبرك، وعُدَّ بَاقِي الحَيَاة رِبحًا»[٥].

يَا غَافِلَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ المَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَلِيلٍ سَتُلْقَى بَيْنَ أَمْوَاتِ
فَاذْكُرْ مَحلَّكَ مِنْ قَبْلِ الحُلُولِ بِهِ ... وَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ
لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... قَدْ آنَ لِلْمَوْتِ يَا ذَا اللُّبِّ أَنْ يَاتِي[٦]

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كَرْب ولا هَوْل ولا عَذَاب سوى سكرات الموت بمُجَرَّدِها؛ لكان جديرًا بأن يَتَنَغَّصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ، ويَتَكَدَّر عليه سروره، ويفارقه سَهْوه وغفلته، وحقيقًا بأن يُطَوِّل فيه فِكْرُهُ، ويُعَظِّم له استعداده، لا سيما وهو في كل نَفَس بصدده»[٧]. اهـ.

فَاذْكُرِ المَوْتَ وَدَاوِمْ ذِكْرَهُ ... إِنَّ فِي المَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ
وَكَفَى بِالمَوْتِ فَاعْلَمْ وَاعِظًا ... لِمَنِ المَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قُدِرْ[٨]

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧١).
(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٠٢).
(٣) المصدر السابق (ص١٠٤).
(٤) المصدر السابق (ص١٠٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٦٧).
(٦) «لطائف المعارف» (ص٥٨٧) باختصار.
(٧) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٦١).
(٨) «لطائف المعارف» (ص١٩٦)، وأوردها القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥٩)، ونسبها لطَرَفة.

يقول أبو عبد الله الراعي[١]:

أُفَكِّرُ فِي مَوْتِي وَبعْدُ فَضِيحَتِي ... فَيَحْزَنُ قَلْبِي مِنْ عَظِيمِ خَطِيئَتِي
وَتَبْكِي دَمًا عَيْنِي وَحُقَّ لهَا الْبُكَا ... عَلَى سُوءِ أَفْعَالِي وَقِلَّةِ حِيلَتِي
وَقَدْ ذَابَت اكْبَادِي عَنَاءً وَحَسْرَةً ... عَلَى بُعْدِ أَوْطَانِي وَفَقْدِ أَحِبَّتِي
فَمَا لِيَ إِلَّا اللَّهُ أَرْجُوهُ دَائِمًا ... وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اقْتِرَابِ مَنِيَّتِي

سادسًا: الوقوف عند الآيات الكونية التي يخوّف الله ﷻ بها عباده:

كالخسوف والكسوف، وتغيّر الأحوال الأرْضِيَّة والسماوية، ومما يقع من البلايا والأهوال العِظَام، من الزلازل والبراكين؛ فلو أن الناس تَفَكَّرُوا في هذه الآيات العِظَام، وما أجراه الله تعالى على المكذِّبين من العذاب والنِّقَم، فبَقِيَتْ بَعْض آثارهم، وما يجريه الله سبحانه في هذه العصور مِنْ أَلْوَان العقوبات والمَثُلَات، وتَسْلِيط الأعداء، وما يجريه الله ﷻ من بعض الجوائح التي تُصيب الناس، ؛ لرَأوا في ذلك أعْظَم العِبَر، ولكن العِبْرة: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

أمَّا مَنْ كَانَ غافلًا سادرًا في غَفْلَتِهِ، فإنه لا يرْعوي وإن جاءته الآيات كلّها. وقد رأى قوم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام، ورأوا ما أظهر الله على أيديهم مِنَ المعجزات والآيات البيِّنات، ومع ذلك أعرضوا، فكُبُّوا على وجوههم في النار؛ فالآيات لا تَنْفَع من خَتَم الله ﷻ على قلبه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]. ولا يزال هؤلاء فيما هم فيه من الغيّ والضَّلَال والإِسْرَاف على أنفسهم، وإذا رأوا الآيات الكونية فسَّرُوهَا تَفْسِيرات مادِّيَّة، لا يُعَوِّلون فيها على التفكّر والاتّعاظ.

سابعًا: الدعاء:

فالعَبْدُ فَقِير إلى رَبِّهِ كل الافتقار، فهو بحاجة شديدة إلى عَوْنه وتسديده وتَأْيِيدِهِ، وأن يُفْتَح على قلبه، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرَّحْمَن، يقلبها كيف يشاء.

فينبغي لِلْعَبْدِ أن يُلِحَّ في الطَّلَب والسؤال، وأن يسأل ربه قائمًا وقاعدًا، وأن يذكره بقلب خائف يخشاه، ويَهَابه، ويَتَّقِيهِ، والنبي ﷺ وهو أعْظَمُ الأمَّةِ خَشْيَة لله ﷻ، ومع ذلك كان يقول: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ**

(١) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٢/ ٦٩٥ ـ ٦٩٦).

وَالشَّهَادَةِ...» الحديث[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كانت خشية الله عَزَّ وَجَلَّ رأس كل خير في المَشْهد والمغيب سأله خشيته في الغيب والشهادة»[٢]. اهـ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم مِنْ مجْلِس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ» الحديث[٣].

وكان من دعائه ﷺ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ...»، إلى أن قال: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا...» الحديث[٤].

ثامنًا: أن يُجيل الإنسان فِكْرَهُ وعقله، وينظر ويفكّر في قُبْح الجناية التي يُريد أن يُقْدِم عليها، أو التي أقدم عليها، واجترأ على فِعْلها:

وينظر فيما قد يقع به من العقوبة بسبب ذلك في الدنيا والآخرة، وأنه قد يُحْرَم من التوبة، فلا يُوَفَّق إليها، فيموت مُصِرًّا على هذا الذنب، فيَخْسر كثيرًا إذا لَقِيَ رَبَّهُ؛ فهو مُشْفِقٌ من ذنبه، طالِبٌ مِنْ رَبِّه أن يدخله فيمن غفر الله لهم.

فهذه الأمور وغيرها إذا أجال الإنسان نَظَرَه فيها كانت رادعًا له عن اقتراف الآثَام، وعن التَّقْصِير في حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ، فينهض مُسْتعينًا بالله عَزَّ وَجَلَّ على تحقيق الامتثال.

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخُوفٌ فيها؛ فاشْتَغِلْ بالاستعداد لها، فوَاظِبْ عَلَى ذكر الله تعالى، وأخْرِج مِنْ قَلْبِكَ حُبَّ الدنيا، واحرُسْ عَنْ فِعْلِ المَعَاصِي جوارحك، وعن الفكر فيها قَلْبَك، واحْتَرِزْ عن مُشَاهَدة المعاصي، ومُشاهدة أهلها جهدك؛ فإن ذلك أيضًا يُؤَثِّر في قلبك، ويَصْرِف إليه فكرَك وخواطِرَكَ، وإياك أن تُسَوِّف، وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كُلَّ نَفَس من أنفاسك خاتمتك؛ إذ يمكن أن تُخْتَطَف فيه روحك، فَرَاقِبْ قلبك في كل تَطْرِيفَة، وإيَّاكَ أن تُهْمِلَهُ لحظة، فلَعَلَّ تلك اللحظة خاتمتك؛ إذ يمكن أن تُخْتَطَفَ فيها روحك، هذا ما دُمْتَ في يقظتك.

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦) عن عمارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٩)، والألباني في «ظلال الجنة» (١٢٩).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود (١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٩٤٧، ٩٤٨)، والحاكم (١/ ٥١٩)، والذهبي، والألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٤).

وأما إذا نِمْت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غَلَبَةِ ذِكْرِ الله على قلبك، لست أقول: على لسانك؛ فإن حركة اللسان بمُجَرّدها ضعيفة الأثر.

واعْلَمْ قَطْعًا أنه لا يَغْلِبُ عِندَ النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبًا عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبًا قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموتُ والبَعْثُ شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غَلَبَ عليه في يقظته، ولا يَسْتَيْقِظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموتُ المرءُ إلا على ما عاش عليه، ولا يُحْشَر إلا على ما مات عليه»[1]. اهـ.

والعُلَمَاء رحمهم الله كثيرًا ما كانوا يُوصُون بهذا النوع من المُعَاهَدة؛ تَعَاهُد النَّفْس، وتعاهد القلب، وأن يتفكَّر الإنسان في هَوْلِ المَطْلَع عند مفارقة الدنيا، ويتَفَكَّر فيما يبذل أهل الدنيا من أجْلِهِ الأوْقَات والأنفاس والمُهَج، ويُدَنِّسُونَ بِسَبَبِه أعراضهم وأخلاقهم ومروءاتهم، ثم يفارقون ذلك جميعًا، ويُقْدِمون على الله ﷻ فُرَادى، يَرِدُونَ على وَحْشَة القُبُور، وسؤال الملكين، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله ﷻ، والمُساءلة عن جميع ما كان منهم من قليل أو كثير، حتى إنَّهم ليُسْألُونَ عَنْ مَثَاقِيل الذَّرِّ، ومَوَازِين الخَرْدَل. ويُسْأل الإنسان عن شبابه فيما أبْلَاهُ، وعن عُمْرِهِ فيما أفْنَاه، وعن مَالِهِ من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، وعن العلم ماذا عَمِلَ فِيهِ، وعن جميع الأعمال التي صَدَقوا فيها والتي كَذَبوا فيها.

فإذا شَغَلَ الإنْسَانُ قَلْبَه بهذه الأمور، وتفكَّر فيها؛ أُعِينَ على تحْقِيق هذه الخلَّة؛ فهو بحاجة إلى أن يتذكَّر هُجُومَ المَوْتِ، وعظيم حق الله عليه، وما يجب عليه مِنْ طَاعَتِهِ، مَعَ شِدَّةِ تَقْصِيرِهِ في حَقِّهِ:

طُوبَى لِمَنْ هَمُّهُ المَعَادُ وَمَا ... أَخْبَرَهُ اللَّهُ يَوْمًا مِنْ خَبَرِهْ
طُوبَى لِمَنْ لَا يَزِيدُ إِلَّا تُقًى ... لِلَّهِ فِيمَا يَزِيدُ مِنْ كِبَرِهْ
قَدْ يَنْبَغِي لِامْرِئٍ رَأَى نَكَبَا ... تِ الدَّهْرِ أَلَّا يَنَامَ مِنْ حَذَرِهْ
الْوَقْتُ آتٍ لَا شَكَّ فِيهِ فَلَا ... تَنْظُرْ إِلَى طُولِهِ وَلَا قِصَرِهْ[2]

فإذا دَامَتْ مِنَ العبد الفِكْرة في ذنوبه، مع العلم بِعَظَمَةِ مَنْ عَصَى وجَلَالِهِ، وشِدَّةِ بَطْشِه، واستيلاء قَهْره؛ أثمر له ذلك شِدّة الخوف، فينْكَفّ عن المعصية، وتَضْعف

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٩).

(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص١١٠ ـ ١١١).

خَوَاطر النَّفس السَّيِّئة، فيسلم العبد من هلاك الأبد، ويَفُوز بالنعيم المقيم.

وهذا لا يكون أبدًا إلا مع الخوف العظيم؛ وكما قيل: لا يمحو الشَّهوات إلا خوف مُزعِج، أو شَوْق مُقْلِق.

يقول ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: «فافزع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، والتضرّع والتذلّل، وطَلَب أسباب الرِّقَّةِ والتَّخْويفِ العَظِيم لنفسك من الوقوع في الشّقوة الكبرى بعذاب الآخرة، فإنَّ مِنْ طَبَائِعِ النفوس الإيمانَ عند شِدَّةِ الخوف، ولذلك آمن قوم يونس لما رأوا العذاب، وآمن فرعون حين شاهد الغَرَق»(١).اهـ.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا كان العبد في حال حضور ذِهْنه وقوّته، وكمال إدراكه قد تمكَّن مِنْه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطَّلَ لسانه عن ذِكْره، وجوارِحَه عن طاعته، فكيف الظنّ به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونَفْسه بما هو فيه من أَلَم النَّزْع، وجَمَع الشيطان له كل قوَّتِهِ وهِمَّتِهِ، وحَشَد عليه بجميع ما يَقْدر عليه لينال منه فُرْصَته؟! فإنَّ ذَلِكَ آخر العمل؛ فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضْعَف ما يكون هو في تلك الحال»(٢).اهـ.

وقال ابن شُبْرُمة رَحِمَهُ اللهُ: «عَجِبْتُ لمن تَحَمَّى من الطعام والشراب مخافة الداء كيف لا يَحْتَمِي من الذنوب مخافة النار!!»(٣).

يَا عَجَبًا مِنْ مُوقِنٍ بِالجَزَا ... وَهْوَ قَلِيلُ الخَوْفِ لِلَّهِ
كَأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مُخْبِرٌ ... بِأَمْنِهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ(٤)

وقد رُوِي عن النبي ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا**»(٥).

أَرَاكَ لَسْتَ بِوَقَّافٍ وَلَا حَذِرٍ ... كَالحَاطِبِ الخَابِطِ الْأَعْوَاد فِي الْغَلَسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ(٦)

فالنار وسط الكَفّ، قريبة لمن أرادها، وشهوات الدنيا مَصَائِد تقطع عن الوصول.

---

(١) «إيثار الحق على الخلق» (ص٥٨).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٢١٨).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٥).

(٤) «ديوان الإلبيري» (٦٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة وضعفه، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٣٣٦)، والمنذري في «الترغيب» (٣/ ٤٥٣)، والذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٩٥)، وابن رجب في «التخويف من النار» (ص١٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٤٥٣)، وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٠) من حديث أنس ﷺ.

(٦) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٢٤).

فإذا بَطلَت الشهوات بحلول الموت أحسَّ الهَالِك بِمَا لم يكن يدري، كما أن خوف المُبَارِز يَشْغله عن أَلَم الجِرَاح، فإذا عاد إلى المأمن زَادَ الأَلَم، فإذا مَاتُوا انْتَبهُوا، وإذا شَيَّعَ الناس الجنائز فقد سَمِعُوا نَذِيرًا بلا صوت. كم شَيَّعْنَا مِن الجنائز! وكم تركنا في تلك المقابر! ثم قَسَتْ قلوبنا من بعد ذلك. والحَازِم لا يترك الحذر حتى يصل المأمن[١].

قال أبو إسحاق الإلبيري[٢]:

تَـفُـتُّ فُـؤَادَكَ الأَيَّـامُ فَـتًّـا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا
وَتَدْعُـوكَ الْـمَـنُـونُ دُعَـاءَ صِـدْقٍ ... أَلَا يَـا صَـاحِ أَنْـتَ أُرِيـدُ أَنْـتَـا
أَرَاكَ تُـحِـبُّ عِـرْسًـا ذَاتَ خِـدْرٍ ... أَبَـتَّ طَـلَاقَـهَـا الأَكْـيَـاسُ بَـتًّـا
تَـنَـامُ الـدَّهْـرَ وَيْـحَـكَ فِـي غَـطِـيـطٍ ... بِـهَـا حَـتَّـى إِذَا مِـتَّ انْـتَـبَـهْـتَـا

فـ«العبد إذا عَلِم أنَّ اللهَ ﷻ هو مُقَلِّبُ القلوب، وأنه يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقلبه، وأنه تَعَالى كل يوم هو في شأن، يفعل ما يشاء، ويحْكُم ما يريد، وأنه يهدي مَنْ يَشَاء، ويضلّ مَنْ يَشَاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، فما يُؤَمِّنه أن يقلب الله قلبه، ويَحُولُ بينه وبينه، ويُزيغه بعد إقامته، وقد أثْنَى الله على عِبَادِهِ المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]؛ فلولا خوف الإزاغة لما سألوه ألَّا يزيغ قلوبهم»[٣].

تاسعًا: مُجَالَسة مَنْ يُخَوِّفنا من الله ﷻ بالتذكير:

لأن الله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، وقد كان أسلافنا «يتراسلون بالمواعظ، لتقع المساعدة على اليقظة؛ كصياح الحارس بالحارس»[٤].

قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: يا أبا سعيد! كيف نصنع بمُجَالَسة أقوام يُخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تتقطَّع؟ فقال: «والله لأن تَصْحب أقْوامًا يُخوّفونك حتى تُدْرك أَمْنًا، خير لك من أن تَصْحَب أقْوامًا يُؤَمِّنُونَك حتى تلحقك المَخَاوف»[٥].

---

(١) انظر: «اللطف في الوعظ» (ص٧٨).
(٢) «ديوان الإلبيري» (ص٢٤).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦).
(٤) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٤٢).
(٥) تقدم تخريجه.

ولما جاء الواعظ شيبان إلى هارون الرشيد، قال له هارون الرشيد: عِظْنِي. فقال له: «يا أمير المؤمنين! لأن تصحب من يخوفك حتى يُدْرِكك الأمن خيْر لك من أن تصحب مَنْ يُؤَمِّنكَ حتى يدركك الخوف»[١].

فينبغي على الإنسان أن يَتَحَرَّى في صحبته، فيصحب من يُذَكِّرُهُ بالله بقوله، وإذا رآه تَذَكَّرَ الله ﷻ؛ لأن الطبع سَرَّاق، والصُّحْبة قد تجعل الشرّير خيِّرًا، والخَيِّر شرّيرًا. أما رأيتم الهواء كيف يَفْسد بمجاوَرَةِ الجِيَف؟ فكيف بالنَّفْسِ التي هي في غاية الحساسية، يَنْطَبع فيها ما يشاهده الإنسان، وما يراه، وما يحصل له مِنْ ألوان التأثرات التي يلقاها في ذهابه ومجيئه، فتبقى مُنْطَبِعَة في نَفْسه، فإذا حاول أن يُزِيلَهَا ويَرْفعها لم يتمَكَّنْ من ذلك.

وقال جعفر بن سليمان رَحِمَهُ اللهُ: «كنتُ إذا وجدتُ من قلبي قسوة نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع نظرة، وكنتُ إذا رأيتُ وجه محمد بن واسع حسبتُ أن وجْهَهُ وجه ثَكلى»[٢]، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ**»[٣].

إِنَّ الْـقَـرِيـرَةَ عَـيْـنُـهُ عَـبْـدٌ ... خَـشِـيَ الْإِلَـهَ وَعَـيْـشُـهُ قَـصْـدُ
عَـبْـدٌ قَـلِـيـلُ الـنَّـوْمِ مُـجْـتَـهِـدٌ ... لِـلَّـهِ كُـلّ فِـعَـالِـهِ رُشْـدُ
نَـزِهٌ عَـنِ الـدُّنْـيَـا وَبَـاطِـلِـهَـا ... لَا عَـرَضَ يَـشْـغَـلُـهُ وَلَا نَـقْـدُ
مُـتَـذَلِّـلٌ لِـلَّـهِ مُـرْتَـقِـبٌ ... مَـا لَـيْـسَ مِـنْ إِتْـيَـانِـهِ بُـدُّ
رَفَـضَ الـحَـيَـاةَ عَـلَـى حَـلَاوَتِـهَـا ... وَاخْـتَـارَ مَـا فِـيـهِ لَـهُ الـخُـلْـدُ
فَـاشْـدُدْ يَـدَيْـكَ إذا ظَـفِـرْتَ بِـهِ ... مَـا الْـعَـيْـشُ إِلَّا الْـقَـصْـدُ وَالـزُّهْـدُ[٤]

هذا ما يتعلّق بالأسباب التي يُسْتَجْلَب بها الخوف.

❁ ❁ ❁

---

(١) «المنتظم» (١٨/ ٢٥٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٢١٧)، والبزار (٣٦٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٢٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٥٧)، وصحَّحه في موضع آخر من «صحيح الجامع» (٢٥٨٧)، إلا أنه مُعَلّ بالإرسال، كما في «كشف الأستار»، راجع: «تخريج الكشاف» للزيلعي (٥٩٨)، و«الصحيحة» للألباني (١٦٤٦، ١٧٣٣).

(٤) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٣٧).

ثمرات الخوف

ثمرات الخوف والخشية من الله سبحانه كثيرة جدًّا؛ **فمن ذلك:**

أولًا: أنه سببٌ مُوَصِّل لِجَنَّةِ الله ﷻ، كما أَنَّهُ سَبَب للخلاص مِنْ عَذَاب الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة:

وقد ضمن الله ﷻ الجنَّة لمنْ خَافَه من أهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

قال مجاهد رحمه الله: «هو الرَّجُل يريد أن يُذْنِبَ، فيَذْكر مقام ربِّه، فيَدَع الذنب»[١].

وعنه قال: «مَنْ خَافَ الله عند مقامِهِ على المعصية في الدنيا»[٢].

وقال أيضًا: «هو الرجل الذي يذكر الله عند المعاصي، فَيُحْجَز عنها»[٣].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما **قال:** «وعَدَ الله جلَّ ثناؤه المُؤْمِنِينَ الذين خافوا مقامَه فأدَّوا فَرَائِضَه الجنة»[٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ...**» الحديث، وذكر منها: «**خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ**»[٥].

قال المناوي رحمه الله: «قَدَّم السِّرَّ؛ لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العَلَنِ؛ لما يخاف

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٧٠)، وهناد في «الزهد» (٨٩٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٥).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه، واستنكره العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١١٣٦)، والذهبي في «الميزان» (١/ ٦١١) و(٣/ ٣٤٩)، إلا أن له شواهد عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم رضي الله عنهم، بها حسَّنه المنذري في «الترغيب» (١/ ٢٨٦)، والألباني في «الضعيفة» (١٨٠٢)، وراجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٨٩٩).

من شَوْب رؤية الناس، وهَذِهِ درجة المُرَاقبة، وخشيته فيهما تمْنَع من ارتكاب كل مَنْهِيّ، وتحثّه على فِعْل كل مأمور، فإن حَصَل للعبد غفلة عن مُلاحظة خوفه وتقواه، فارْتكب مُخَالفة مولاه لجأ إلى التوبة، ثم دَاوَم الخشية»[١]. اهـ.

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»**[٢]، واللبن لا يعود في الضَّرْعِ أبدًا.

ثانيًا: أنه أمان للخائفين:

أمانٌ لهم يوْمَ الفَزَعِ الأكبر؛ كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي...»**[٣].

وقال أبو أيوب الأنصاري ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ ليعمل المُحَقَّرات حتى يأتي الله وقد أحْطَنَ بِهِ، وإن الرجل ليَعْمَلُ السيئة فيَفْرَق منها حتى يأتي الله آمنًا»[٤].

وفي حديث السَّبْعة الذين يُظِلّهم الله في ظِلِّه يَوْمَ لا ظل إلا ظله: **«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»**[٥].

والشاهد من هذا: أن هؤلاء الذين صاروا في ظلِّ الرَّحْمَنِ تبارك وتعالى لا تَطُوْلُهم المخاوف، فهم في غاية الأمن؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، فحكم لهم بالأمن المُطلق، وقد علَّقَه الله سبحانه على وَصْفٍ، وهو الإيمان الذي لم يُلَابِسُه ظلم؛ فعَلَى قَدْرِ ما عندهم من الإيمان الذي منه الخوف من الله يكون أمْنُهم وطُمَأْنِينتُهم، وكذلك يكون اهتداؤهم؛ ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: **«من خاف الله تعالى لم يضرّه شيء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد»**[٦].

---

(١) «فيض القدير» (٣/ ٣٠٧).

(٢) هذا الحديث روي مرفوعًا وموقوفًا؛ أخرجه الترمذي (١٦٣٣، ٢٣١١) واللفظ له، والنسائي (٣١٠) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، وصحَّحه الترمذي، والحاكم (٤/ ٢٦٠)، والذهبي، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٦٩، ٣٣٢٤). وأخرجه النسائي (٣١٠٧) عن أبي هريرة ﷺ موقوفًا عليه. راجع: «العلل» للدارقطني (٨/ ٣٣٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره البغوي في «شرح السُّنَّة» (٤/ ٣٧٤).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٨) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٤).

وقال الربيع المرادي[١]:

مَـنْ خَـشِـيَ الـلَّـهَ لَـمْ يَـنَـلْـهُ أَذًى   وَمَـنْ رَجَـا الـلَّـهَ كَـانَ حَـيْـثُ رَجَـا

ثالثًا: أنه سبب لِنَيْلِ مَغْفِرَة الله تبارك وتعالى:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَقُولُ اللهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً»[٢].

وفي لفظ لمسلم[٣]: «وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»؛ أي: مِنْ أجلي، خوفًا مني.

وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قال: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ؛ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ»[٤]. فكانت هذه الخشية العظيمة التي وقعت له سببًا لمغفرة الله عز وجل.

رابعًا: أنه يورث المَهَابة:

فيكون للخَائِفِ مِنَ الله عز وجل مِنَ الهَيْبَةِ في قلوب الخَلْق ما لا يكون للمُسْتَرسِلين في معْصِيَة الله تعالى، الذين لا يرفعون لخشيته رأسًا.

وقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «عَلَى قَدْر حبك لله يُحبّك الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ خَوْفِكَ مِنَ الله يَهابُكَ الخَلْق»[٥].

وقال عُمَرُ بن عبد العزيز رحمه الله: «مَن خاف الله أخاف منه كُلَّ شيء، ومَن لَم يَخَفِ الله أخافَه مِن كلِّ شيء»[٦].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥٨٩)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه، وهذا لفظ البخاري.

(٣) برقم: (١٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦) واللفظ له.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤٨).

(٦) المصدر السابق (٩٤٣).

وقال يوسف بن أسْبَاط رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ لأبي وكيع**: رُبَّمَا عَرَض لي في البيت شيء يُدَاخِلُني الرّعب، فقال لي: «يا يوسف! مَنْ خَافَ اللهَ خَافَ مِنْهُ كلّ شيء». قال يوسف: فما خفتُ شيئًا بعد قوله[1].

فهذا علاج لأولئك الذين يعانون من خوف لا يدرون ما سببه، فإنه إذا خاف الله تبارك وتعالى تَلَاشت عنه تلك المخاوف.

وكذلك مَن كَان يَسْتَوْحِش لوجوده منفردًا في بيته أو نحو ذلك، فإنه يتذكَّر هذا المعنى، فإذا مُلِئَ قلبُهُ بالخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه لا يلتفت بعد ذلك إلى شيء.

وذلك أن هذا القلب وعاء، فهو بحسب ما مُلِئَ به؛ فإن مُلِئَ بِالخوف من المخلوقين لم يَعُد فيه موضع للخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا مُلِئَ بالخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ لم يَعُد فيه موضع للخوف من المخلوقين.

ومن عجيب ما يُذْكَر في ذلك خبر بنان الزَّاهِد حين أَمَر ابنَ طولون بالمعروف، فأمر أن يُلقَى بين يدي السَّبُع، فجعل السَّبُع يَشُمّه ولا يضره، فلما أُخْرِج من بين يدي السَّبُع قيل له: «ما الذي كان في قلبك حين شمك السَّبُع؟ قال: كنت أتفكر في اختلاف الناس في سؤر السَّبُع ولعابها»[2].

خامسًا: أنه يحمل صاحِبَهُ على الإحسان إلى الخَلْق وتَرْك ظلمهم:

فهو يعاملهم بالمعروف، ويَتَّقِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ؛ لأنه يعلم يقينًا أنه كما يدين يُدان، فليس في قلبه رجاء لهؤلاء المخلوقين، وليس في قلبه خوف من أحد منهم، فهو يحسن إليهم، وينتظر الجزاء مِن الله سبحانه، لا ينتظر العطِيَّة منهم. وهو أيضًا يقوم بأمْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم، فلا يترك أمر الله تبارك وتعالى تمَلُّقًا لهم، ومُداهنةً ورياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن طلب من العباد العِوَض ـ ثناء أو دعاء أو غير ذلك ـ لم يكن مُحسنًا إليهم لله. ومن خاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله كان محسنًا إلى الخلق وإلى نفسه؛ فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم، ويَكُفّ عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم؛ حيث خاف غير الله وَرَجَاه؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرَّهم عنه بكل وجه؛ إما بمُدَاهنتهم ومُرَاءَاتِهم، وإما بمُقَابلتهم بشيء أعظم من شرِّهم أو مثله، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم؛ فإن طَبْع النَّفْس الظلم لمن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٢٤).

لا يظلمها، فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضَّرْب كثير الخوف من الخلق، كثير الظلم إذا قَدِر، مَهِينًا ذليلًا إذا قُهِر، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك، وهذا مما يُوقِع الفتن بين الناس.

وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم، فلا بد أن يبغضهم، فيظلمهم إذا لم يكن خائفًا من الله ﷻ، وهذا موجود كثير في الناس، تجدهم يخاف بعضُهم بعضًا، ويرجو بعضهم بعضًا، وكلٌّ من هؤلاء يتظلم من الآخر، ويطلب ظلمه، فهم ظالمون بعضهم لبعض، ظالمون في حق الله؛ حيث خافوا غيره، ورجوا غيره، ظالمون لأنفسهم؛ فإن هذا من الذنوب التي تُعَذَّب النَّفْس بها وعليها»[1] .اهـ.

فهذه حال كثيرين. والمؤمن الذي قد كَمُل إيمانه بتحقيق هذه المعاني القَلْبِيَّة لا يكون بهذه المثابة، وهو يعلم أن الله يُرَاقِبُهُ ويَرَاه ويطَّلِع عليه، وأن الدَّهْرَ دُوَل، يوم لك ويومٌ عَلَيْكَ. والْعَاقِل إذا تمكَّنَ، فإنه يتذكر أنَّ ذَلِكَ لا يَدُوم، ولا يبقى إلا العمل الصالح، ودعاء أهل الإيمان له. وأمَّا إِذَا أَسَاء إليهم، وتسلط عليهم بغير حق؛ فإنه يبقى له منهم الدعاء عليه، والبُغْض في قلوب أهل الإيمان. وقد يُسَلِّط الله ﷻ عليه مَنْ يَظْلِمه، وهذا أمْرٌ مُشَاهَد.

ولذلك؛ تجد مَن يخافُ من الله تبارك وتعالى يَتَّقِي الله ﷻ في الخَلْق، فلا يظلم خادمًا، ولا زَوْجَة، ولا غلامًا، ولا طالبًا، ولا يظلم أحدًا من الناس؛ لأنه يخاف من الله سبحانه.

سادسًا: أنه سائق يَسُوق العبد إلى امتثال المأمور واجتناب المحظور:

فيعمل بطاعة الله ﷻ، ويُشَمِّر في ذلك، ويَقْمع هذه النَّفْس التي تريد أن تستولي عليه بالشهوات، فيكون من أهل الورَع الكامل الذي يُجْتَنب فيه الحرام، ويُتَّقى فيه المكروه وفضول المباح.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «الخوف سَوْط الله تعالى يَسُوق به عباده إلى المُوَاظَبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رُتْبة القُرْب من الله تعالى»[2] .اهـ.

وقيل: «الخوف سَوْط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه»[3] .

وقال عمرو بن عثمان رَحِمَهُ اللهُ: «العِلْم قائد، والخوف سائق، والنفس حَرُون[4] بين

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٤).
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٤).
(٣) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٢).
(٤) حَرُون؛ أي: واقفة غير منقادة.

ذلك، جَمُوح، خدَّاعة، روَّاغة فاحْذَرْهَا، ورَاعها بِسِيَاسَة العلم، وسُقْهَا بتهديد الخوف، يَتِمّ لك ما تُريد»(١).

وعن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: «كان يُقَال: ما استعان عبْدٌ على دِينِهِ بمثل الخشية من الله»(٢).

وذلك أن هذه الخشية هي التي تَحْمله على صيام النهار، وقيام الليل، وفعل الفَرَائِض، وتَرْك المحرَّمَات؛ ولولا الخَشْيَةُ لأخلد الناس إلى المعاصي والشَّهَوات والذنوب.

وعن ابن عباس ﵄ قال: «الخائف مِنْ رَكِب طاعة الله، وتَرَكَ مَعْصِيته»(٣).

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي ﵀: «علامة الخوف أن يسعى، ويَجْتَهِدَ في تكميل العمل، وإصلاحه، والنُّصْح به»(٤). اهـ.

وقال عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]: «أمر تعالى بخشيته التي هي رأس كل خير، فمَنْ لَمْ يَخْشَ الله لم ينكفّ عن معصيته، ولم يمتثل أمْره»(٥). اهـ.

والمقصود: أن الخوف هو الذي يضبط النفس، ويَكْبح جِمَاحَها، فلا تنطلق في أودية المعصية والهَلَكة، ثم بعد ذلك يكون أمره فُرُطًا.

ولهذا قال إبراهيم بن شيبان ﵀: «إذا سَكَن الخوف القلبَ أحْرَقَ مَوَاضع الشهوات منه، وطرَدَ رغبة الدنيا عنه»(٦).

قال ابن قدامه رحمه الله تعالى: «من ثمرات الخوف أنه يَقْمع الشهوات، ويُكَدِّرُ اللَّذَّات، فتَصِير المَعَاصِي المحْبُوبَة عنده مكروهة... فتَحْتَرق الشَّهَوات بالخوف، وتتأدَّب الجوارح، ويذلّ القَلْب ويَسْتَكِين، ويُفَارِقُهُ الكِبْر والحقد والحسد، ويصير

---

(١) أخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٢٠٣) عن عمرو بن عثمان المكي، والقشيري في «رسالته» (١/ ٩٠)، وورد أيضًا عن عبد الله بن عبيد بن عمير بنحوه. أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٥٤)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٨٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٨٠).

(٤) «تفسير السعدي» (ص٦٠٤).

(٥) المصدر السابق (١/ ١٠٩).

(٦) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٥)، وأخرجه السلمي بنحوه في «طبقات الصوفية» (ص٨١) عن أبي سليمان الداراني.

مُسْتَوعب الهَمّ لخوفه، والنَّظَر في خَطَر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له شغل إلَّا المُرَاقبة والمُحَاسبة والمُجَاهدة. . .

فقوة المُراقبة والمُحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوّة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصِفَاتِهِ، وبعيوب النَّفْس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال»[(١)]. اهـ.

ولذلك؛ نشاهد أن الذين يقلّ خَوْفهم تَمْتَلِئ قلوبهم بأنواع الشهوات: شهوة الرِّئَاسَة، وشهوة الفواحش، وشهوة المال، وشهوة السّكر، إلى غير ذلك؛ ليس لأحدهم في ليله ونهاره، وقيامه وقعوده، إلا هذه الشهوات. فهي التي تسيّره؛ فبِهَا يسمع، وبها يبصر، وبها يقوم ويقعد.

وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»[(٢)].

وذلك يعني: أنَّ من خاف أَسْرَع وشَمَّر وبَادَر، حتى لا يُدْرِكه عدوه فَيَبْغَته.

وسُئِلَ ابن المبارك عن صفة الخائفين، فقال[(٣)]:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخُرْسٌ بِالنَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ ... عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن نبي الله يوسف عليه السلام: «فدَلَّ عَلَى أنه كان معه من خوف الله ما يَزَعُه عن الفاحشة، ولو رَضِي بها الناس، وقد دعا رَبّه ﷻ أن يصرف عنه كيدهن»[(٤)]. اهـ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فأخبر أن الهدى والرَّحْمَة للذين يَرْهَبُون الله.

وهكذا الذين انْشَغَلَتْ قُلُوبهم بالغِشّ والهوى، إنما انشغلت بذلك لخلوّهَا من خشية الله ﷻ، ومحبَّتِهِ، والإقبال عليه.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٤).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «ديوان ابن المبارك» (ص٩٠ ـ ٩١).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٥/١١٩).

وفي الحديث ـ كما تقدَّمتِ الإشارة إليه ـ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ...» الحديث(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فخشية الله بإزاء اتّباع الهوى؛ فإن الخشية تمنع ذلك؛ كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]»(٢). اهـ.

فالذي يخاف مقام رَبِّهِ لَا يُقْدِم على معصية، فإذا أقدم عليها بِحُكْم ضَعْفِهِ البشريّ؛ قاده خوف هذا المقام الجليل إلى النَّدَم والاستغفار والتوبة، فظلّ فِي دَائِرَة الطاعة.

«والخَوْف مِن الله هو الحَاجِز الصَّلْب، أمام دفعات الهوى العنيفة، وقَلَّ أَنْ يَثْبُتَ غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومِنْ ثَمَّ يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. . .

ولم يُكَلّف الله الإنسان ألا يشتجر في نَفْسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلَّفَه أن ينهاها، ويَكْبَحَهَا، ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف مِنْ مَقَامِ رَبِّهِ الجليل العظيم»(٣).

فبالخَوْف مِن الله وحْدَهُ تَنْكَفّ النَّفْس عن أهوائها، وتنصرف عن غَيِّهَا إلى رشدها.

وتأمَّل قول الله عز وجل في صِفَةِ أَهْلِ الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله: «ثم وصَفَهم بالحَامِل لهُمْ على هذه الصِّلَة، وهو خشيته، وخوف سوء الحساب يوم المَآب. ولا يمكن لأحد قَطّ أن يصل ما أمر الله بِوَصْلِه إلا بخشيته، ومتى تَرَحّلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوُصَل»(٤). اهـ.

والخلاصة: أنه لا يمكن للإنسان أن يَمْتَثِلَ أمر الله إلا إذا كان مُحقّقًا لهذا المقام.

سابعًا: أنه سبب للتَّوْفِيقِ والرحمة:

كما قال الله تعالى في شأن التوراة: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وهذه الآية تدلّ على أن أصْلَ كل خير في الدنيا والآخرة الخَوْف من الله تعالى، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله(٥).

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (٦/ ٣٨١٩).
(٤) «عدة الصابرين» (ص٥٢). (٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠).

ثامنًا: الخوف يدل على كل خير:

ولو أردنا أن نتتبَّع هذا لطال بنا المَقَام.

قال في الكشاف: «مَنْ خَشِي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجْتَرَأ على كل شرّ»[١]. اهـ.

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ خَافَ الله دَلَّه الخوف على كل خير»[٢].

وقال أبو سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»[٣].

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرجاء والخوف مَطِيَّتَا المؤمن»[٤].

وقيل: «الخَوْفُ سِرَاج القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر»[٥].

فـ«رَهْبَة الله وخشيته هي التي تَفْتَحُ القلوب للهدى، وتُوقِظُهَا مِن الْغَفْلَة، وتُهَيِّئها للاستِجَابَة والاستقامة»[٦].

ومِن هذا الخير الذي يحصل للإنسان بالخوف: الإنابة والتذكرة، وهذه أمورٌ مُتلازمة، فإذا تذكَّر الإنسان أَنَابَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وخَشِيَه، وإذا كان ممَّن يخشى؛ فإن ذلك يحمله على التذكرة والإنابة.

«فالخشية مُسْتَلْزِمة للتذكّر، فكُلّ خَاشٍ مُتَذَكِّر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فلا يخشاه إلا عَالِم، فكل خَاشٍ لله فهو عالم...

وقال السلف وأكثر العلماء: «إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله، كما دلّ غيرها على أن كل مَنْ عَصَى الله فهو جاهل. فمن لم يَخْشَ الله فليس من العلماء، بل مِنَ الجُهَّال»[٧].

وصحّ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، قال: «فاتقوا الله، ما خشيَ اللهَ عَبْدٌ قَطّ إلا ذَكَّره ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلى: ١١]، قال: فلا والله، لا يتَنَكَّب عبد هذا الذِّكْر زُهْدًا فيه، وبُغْضًا

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٥٧١).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٦١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٦).

(٥) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/ ٢٥٢)، ونقله ابن القيم في «المدارج» (١/ ٥١٣).

(٦) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (٣/ ١٣٧٦).

(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

لأهله، إلا شَقِيّ بيِّن الشقاء»(١).

قال الله ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ١٠]، فجعل التَّذَكُّر لأهل الخشية؛ فَدَلَّتْ هذه الآية على أن كل من يخشى فلا بُدَّ أن يتذكر.

كما قال الله تبارك وتعالى في الآية الأخرى، حينما أمر موسى وهارون أن يأتيا فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]، والله يقول: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]، فكلّ مَنْ خَشِيَ الله ﷻ فلا بُدَّ أن يرجوه، وأن يطمع في رحمته، فيُنِيب إليه تبارك وتعالى؛ ليُحَصِّل الرحمة، وينجو من العقوبة، وهذا هو حامل العبد على الإنابة.

«فمن ثمرات الخوف: الورع، والاستعانة، وقِصَر الأمل»(٢).

فالخوف من الله سبب لاجتناب المحارم والمعاصي والشهوات، وباعث على العمل بالفرائض، والمُداومة على السُنَن والمستحبَّات، ولا يَخْفَى مَا في هذه الآثار مِنْ فَضْلٍ وأجرٍ، فهي المُوصِلة إلى إرْضاء الله ﷻ.

وكما قلنا أنه يُورِث الورع والتقوى اللَّذَيْنِ هما أفضل الأعمال في العبادة، «حتى إن العاقبة صارت مَوْسُومَة بالتقوى، مخْصُوصة بها، كَمَا صَارَ الحمد بالله تعالى، والصلاة مخصوصة بالرسول ﷺ، حتى يقال: الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمُتَّقِين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٣١٧ ـ ٣١٨).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٨) بتصرُّف.
(٣) «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٢١٠).

من أخبار أهل الخوف

أولًا: خوف الجمادات:

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر: ٢١].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «كل حجر يتفجّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردّى مِنْ رَأسِ جبل، فهو من خشية الله ﷻ، نزل بذلك القرآن»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **قال:** «إن الحجر ليقع إلى الأرض، فلو اجتمع عليه قوم من الناس ما استطاعوا القيام به، وإنه ليهبط من خشية الله»(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾: «وَهَذا يدل على أنها تَعْرِفُ رَبَّهَا معرفة تليق بها، وإلا لما هبطت من خشيته؛ فإن الخشية تَسْتَلزم العلم بالمخشيّ»(٣).اهـ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصّلبة، وهذه رقّتها وخَشْيَتها وتَدَكْدُكُهَا من جَلَال رَبِّهَا وعظمته، وقد أخبر عنها فاطِرُهَا وباريها أنه لو أنزل عليها كلامَه لخشَعَت، ولتصدَّعَت من خشية الله.

فيا عَجَبًا مِنْ مُضْغَةِ لحْم أقسى من هذه الجبال! تَسْمَع آيات الله تتلى عليها، ويُذْكَر الرب تبارك وتعالى فلا تَلِين، ولا تخْشَع، ولا تُنيب. فليس بمُسْتَنْكَر على الله ﷻ، ولا يُخالِف حكمتَه أن يَخْلق لها نارًا تُذِيبها ـ يعني: القلوب ـ؛ إذ لم تَلِن بكلامه وذِكْره وزواجره ومَوَاعِظِهِ، فمَنْ لم يَلِنْ للهِ في هذه الدار قَلْبُه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذِبْه بحبّه والبُكاء من خشيته، فليتمَتَّع قليلًا؛ فإن أمامه المُلين الأعظم، وسَيَرِد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم»(٤).اهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٢٤٠).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٤٧).
(٣) «مجموعة الرسائل الكبرى» (٢/ ٣٤٢).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٩).

ثانيًا: خوف البهائم:

فالبهائم تَفْرَقُ مِنْ خشية الله، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا ابْنَ آدَمَ»(١).

ثالثًا: خوف الملائكة:

وقد وصَفَهُمْ الله ﷻ بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والمعنى: أن الذين تدعونهم مِنْ دون الله، من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقرَّبون إلى رَبِّهِمْ، ويخافونه، ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم مِنْ دُونِهِ وأنتم وهم عبيد له؟!»(٢).اهـ.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ»(٣).

رابعًا: خوف الأنبياء والمرسلين:

فقد وَصَفَهُم الله ﷻ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ووصف إبراهيم ﷺ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥].

فقيل: «الأوّاه: هو الذي إذا ذَكَر خطاياه استَغْفَر منها»(٤).

---

(١) أخرجه النسائي (١٤٣٠) ضمن حديث طويل، وصحَّحه ابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١/ ٢٧٨ - ٢٧٩)، والذهبي، والألباني في «الإرواء» (٣/ ٢٢٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦١٣ - ٦١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩) واللفظ له، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٦٢١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٨): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٨٤)، و«الجامع الصغير» (١٠٨٠٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩).

(٤) ذكره الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٥٨١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمُطابق لمعنَى الأوَّاه لغة أن يقال: إنه الذي يُكثِرُ التأوّه مِنْ ذُنوبِهِ»[(١)]. اهـ.

وقال عطاء: «هو الخائف من النار»[(٢)].

وقال أبو عبيدة: «هو المُتأوّه شَفقًا وفرَقًا، المُتضرِّع يقينًا»[(٣)].

وأما النبي ﷺ فشأنه معْرُوف، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[(٤)].

وكان ﷺ ـ وقد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ـ يقول: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، اسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرَ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخَ؟!»، فكأنّ ذلك ثَقُل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! قد شِبْتَ! فقال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[(٦)].

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أتيتُ النبي ﷺ وهو يُصَلِّي، ولجوْفِهِ أزِيز كَأزِيز المِرْجَل»؛ يعني: يَبْكِي[(٧)].

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رَسُول الله ﷺ كان إذا رأى غيمًا أو رِيحًا عُرِفَ في وجهه، فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رَأوا الغَيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «يَا عَائِشَةُ، ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّب قوم بالرِّيح، وقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(٨)].

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما مَرَّ النبي ﷺ بالحِجْرِ قال: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»، ثم قَنَّع رأسه، وأسرع السَّير حتى أجاز الوادي[(٩)].

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥٨١).

(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ١٠٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) واللفظ له، وصحَّحه ابن خزيمة (٩٠٠)، وابن حبان (٦٦٥، ٧٥٣)، والحاكم (١/ ٢٦٤)، والذهبي، وابن رجب في «فتح الباري» (٦/ ٢٦٢)، والألباني في «صحيح الموارد» (٤٣١).

(٨) أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩/ ١٦).

(٩) أخرجه البخاري (٤٤١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٠).

خامسًا: خوف الصحابة ﷺ:

فعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَة بليغة، ذَرِفَتْ مِنهَا العيون، وَوَجِلَتْ مِنهَا القلوب[١].

فهذا وصف أصحاب النبي ﷺ، وهو الوَصْف الذي مَدَح الله ﷻ أهله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وعن عبيد الله بن النَّضْرِ عَنْ أبيه، قال: كانت ظلمة على عهد أنس بن مالك، قال: فأتيتُ أنسًا، فقلت: يا أبا حمزة! هَلْ كان يصيبكم مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: «معاذ الله! إن كانت الريح لتَشْتَدّ، فنبادر المسجد؛ مخافة القيامة»[٢].

قال ابن أبي مُلَيْكَة: «أدركْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النِّفَاق على نَفْسه»[٣].

وكان الحسن البصري ﷺ يُعَاتِب أهل زمانه، فيقول: «لقد مضى بين يديكم أقوام، لو أن أحدهم أنْفَقَ عَدَد هذا الحصى لخشي ألَّا ينجو من عِظَم ذلك اليوم»[٤].

وقال ابن القيِّم رَحِمه الله: «ومَنْ تَأَمَّل أحْوَال الصَّحَابَةِ ﷺ وجدهم في غاية العمل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣) واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ٩٥ ـ ٩٧)، والبَزَّار ـ كما في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٤) ـ، وأبو نعيم ـ كما في «جامع العلوم والحكم» (ص٤٨٦) ـ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٤)، والذهبي في «السير» (١٧/ ٤٨٣)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٧٨)، والألباني في «الصحيحة» (٩٣٧)، وفي كتابه «النصيحة» (ص٣١) نَقَل الإجماع على تصحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود (١١٩٦)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٣٣٤)، وابن حجر في «إتحاف المهرة» (٢/ ٣٥٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/ ٢٩). وراجع: «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ٤٠١).

(٣) ذكره البخاري مُعلقًا (١/ ٣٠) في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ووَصَله غَيْر وَاحِد؛ منهُم محمد بن نَصْر في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٦٨٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠).

مع غاية الخوف. ونحن جَمَعْنَا بين التقصير - بل التفريط - والأمن»[١]. اهـ.

(فصل) في بيان جملة مِنْ أحْوَالِهِمْ فِي باب الخوف على التفصيل:

فهذا أبو بكر ﷺ، كان يمسك بلسانه ﷺ، ويقول: «إنَّ هذا أوردني الموارد»[٢]. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله ﷻ[٣].

ولما احْتُضِر قال لعائشة ﷺ: «يا بُنَيَّة! إني أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحِلَاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب. ثم قال: والله لوددتُ أني كنتُ هذه الشجرة، تُؤْكَل وتُعْضَد»[٤].

وقال قتادة ﷺ: بلغنا أن أبا بكر ﷺ قال: «ليتني كنت خَضِرَة تأكلني الدوَابّ»[٥].

ولما قال ﷺ في مرض موته: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، قالت عائشة: إن أبا بكر رجل أَسِيف، إن يقم مكانَك يَبْكي فلا يقدر على القراءة[٦].

وهذا خليفته عمر رضي الله تعالى عنه، قال يومًا لكعب ﷺ: يا كعب! خَوِّفْنَا. فقال كعب: «يا أمير المؤمنين! اعمل عمل رجل لو وافَيْتَ يوم القيامة بعمل سبعين نبيًّا لازدريتَ عملك مما ترى»[٧].

ورأى ﷺ في يد جابر بن عبد الله ﷺ لحمًا معلّقًا، فقال: «ما هذا يا جابر؟!» فقال جابر ﷺ: هذا لحم اشتريته، اشتهيته. فقال عمر: «أوكلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟!»[٨].

وسُمِعَ نَشِيجُه ﷺ من آخر الصفوف لما قرأ في صلاة الفجر من سورة يوسف:

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٩١).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٨٢٥). وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٦٤)، وابن أبي شيبة (٧٢٤٥)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٤).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١١٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٢٣٩٣).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١١٢)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١١) واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري (٧١٢)، ومسلم (٦٣٤)، وأسيف: فعيل بمعنى فاعل من الأسف، وهو شدة الحزن، والمراد: أنه رقيق القلب، إذا قَرَأَ القرآن غلبه البكاء من خشية الله.

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩) واللفظ له.

(٨) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٧٠٣)، وأحمد في «الزهد» (ص١٢٤) واللفظ له.

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][١]؛ وذلك من خشية الله والتضرّع والشكاية إلى الله ﷻ.

وقرأ سورة الطور، إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [الطور: ٧]، فبَكَى، وَاشْتَدَّ بُكاؤُه حَتَّى مَرِض وعادُوه[٢].

يقول أبان بن عثمان رحمه الله: دخلتُ على عمر بن الخطاب حين طُعِن، ورأسه في التراب، فذهبتُ أرفعه، فقال: «دعني، ويلي، ويل أمي إن لم يغفر لي. ويلي، ويل أمي إن لم يغفر لي»[٣].

وكان يمرّ رَضِيَ الله تعالى عنه بالآية في وِرْدِهِ من الليل فتخنقه، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يُعَاد، يحسبونه مريضًا[٤].

وكان في وجهه رضي الله عنه خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ.

وقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يُهَوّن عليه: مَصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعَلَ بك وفَعَلَ. قال: «وَدِدْتُ أنِّي أنجو لا أَجْر ولا وِزْر»[٥].

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة، فقال: «يا ليتني مثل هذه التبنة، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئًا، ليتني كنت نَسْيًا منسيًا»[٦].

ولما طُعِن رضي الله عنه قال: «والله لو أنَّ لي طِلَاع الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عَذَابِ الله ﷻ قبل أن أراه»[٧].

وربما تُوقَد له النار، ثم يُدْنِي يديه منها، ثم يقول: «يا ابن الخطاب! هل لك على هذا صبر؟!»[٨].

وهذا كان يفعله جماعة؛ كالأحنف بن قيس، فقد كان يجيء المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: «حِس» ثم يقول: «يا حُنَيف! ما حملك على ما صنعتَ يوم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٩٥).
(٢) «الجواب الكافي» (ص٩٢)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٠) بنحوه.
(٣) أخرجه أحمد (ص١١٨)، وأبو داود (٤٦) كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٤٥) واللفظ له.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٢٦٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/٥١).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٤) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٥٢).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٩).
(٧) أخرجه البخاري (٣٦٩٢).
(٨) «التخويف من النار» (ص٤٨).

كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!»[١].

وهذا الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، يقول: «وَدِدْتُ لَوْ أني إذا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ». وكان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته[٢]. وقال: «لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما يؤمر بي لاخترتُ أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيهما أصِير»[٣].

وهذا أمين هذه الأمة، وقائد الجيوش في الشام أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ، كان يقول: «لوددتُ أني كنتُ كَبْشًا، فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي، ويشربون مرقي»[٤].

وهذا صاحب رسول الله ﷺ عمران بن حصين ﷺ، يقول: «وددتُ أني رماد على أكَمَة، تَنْسِفُنِي الرياح في يوم عاصف»[٥].

وكانت عائشة ﷺ زوج النبي ﷺ تقول: «وددتُ أني كنتُ نسيًا منسيًّا»[٦]. وكانت إذا قرأت: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: ٢٧]، قالت: «اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيَّ، وَقِنِي عَذاب السَّموم»[٧].

وكان أبو ذر الغفاري ﷺ يقول: «والله لوددتُ أني كنتُ شجرة تُعْضد»[٨].

وعُرِضَتْ عَلَيْهِ النفقة فقال: «عندنا أَعْنُز نَحْتَلِبها، وأَحْمر ننقل عليها، ومُحَرَّر - يعني: رقيق - يخدمنا، وفضل عباءة، إني أخاف الحساب فيها»[٩].

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٣٥)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٢٤)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «المشكاة» (١٣٢)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٣٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» (١٣٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٩) واللفظ له، ومن طريقة أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٠).

(٥) المصدر السابق (٧٧٠).

(٦) أخرجه وكيع في «الزهد» (١٦٠)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص١٦٤) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٠).

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٢٤) واللفظ له.

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٦/ ٢١٥)، وأخرجه البيهقي عن أبي الدرداء في «الشعب» (٧٦٨).

(٩) أخرجه وكيع (١٣٧)، ومن طريقه أحمد (١٤٦) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٣).

وصح عن زرارة بن أوفى كَلَّهُ أنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨]، فخرَّ ميّتًا(١).

وقال عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام: سمعتُ عبد الله بن حنظلة يومًا، وهو على فراشه، وَعُدْتُه من عِلَّة، فَتَلا رَجُلٌ هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبكى حتى ظننتُ أن نَفْسه ستخرج، ثم قال: «صاروا بين أطباق النار». ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمٰن! اقعد. فقال: «مَنع مني ذِكْرُ جهَنَّمَ القعودَ، ولا أدري لعلي أحدهم»(٢).

وقال سليمان بن سُحَيم: «أخبرني مَنْ رَأى ابن عمر يصلي، وهو يَتَرَجَّح، ويتمايل، ويتأوَّه، حتى لو رآه غيرنا ممن يجهله لقال: لقد أُصيب الرَّجُل. وذلك لذِكْر النار إذا مَرَّ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣]»(٣).

وهذا ابن عباس رضي الله تعالى عنه، كان في أسفل من عينيه مثل الشِّرَاك البالي من الدموع(٤).

وقرأ تميم الداري رضي الله تعالى عنه ليلة سورة الجاثية، فلَمَّا أتى على قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، جعل يُرَدِّدُهَا، ويَبْكِي حتى أصبح(٥).

ومَرَّ رَجُل على عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وهو سَاجِد في الحِجْر - حِجْر الكعبة - وهو يبكي، فقال: «أتعجب أن أبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وهذا القمر يبكي من خشية الله؟!»(٦).

وبكى أبو هريرة ﷺ في مَرَضِهِ، فقيل: ما يُبْكِيكَ؟ قال: «أمَا إني لا أبْكِي على دنياكم هذه، ولكني أبكي على بُعْد سَفَرِي، وقِلَّة زادي، وأني أمْسَيْتُ فِي صُعُود ومَهْبَطة على جَنَّة ونار، ولا أدري إلى أيِّهِمَا يُؤْخَذ بي»(٧).

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٤٥)، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٣٨٧١).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٤٢٦).
(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص١٣٨).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٤٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٧).
(٥) أخرجه ابن المبارك (٩٤)، وأحمد (ص١٨٢) كلاهما في «الزهد».
(٦) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٥)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٢٧).
(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨٣).

وغُشِيَ عَلَيْهِ ثلاث مَرَّات وهو يُحدِّث بحديث الثلاثة الذين هم أوّل مَنْ تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة[(١)].

وهذا ابن مسعود ﷺ، صاحب نعلَيْ رسول الله ﷺ يقول: «لو تَعْلمون ذنوبي ما تَبِعَنِي منكم رجلان، ولَوَدِدْتُ أني دُعِيتُ عبد الله بن روثة، وأن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي»[(٢)].

وكان يقول: «وددتُ أني نُسِبْتُ إلى روثة، وأن الله تقبَّل مني حَسَنَةً واحدة من عملي»[(٣)].

وكان يقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ عَلَى أنفِهِ، فقال به هكذا»[(٤)].

وهذا أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه، كان يقول: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفتُ على الحساب أن يُقال لي: قد عَلِمْت، فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْت؟»[(٥)].

وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم راؤون بعد الموت، لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شَرِبْتُمْ شَرَابًا على شَهْوَة، ولا دخلتم بيتًا تستظلّون فيه، ولخرجتم إلى الصُّعدات ـ يعني: الطرقات ـ تضربون صدوركم، وتَبْكُون على أنفسكم، ولوَدِدْتُم أنكم شجرة تُعْضَد ثم تُؤْكَل»[(٦)].

وعن جُبَير بن نُفَير قال: دخلتُ على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسْجِدِه، فلمَّا جَلَس يتشهد جعل يتعوَّذ بالله من النفاق، فلمَّا انصرف قلتُ: غفر الله لك يا أبا الدرداء! ما أنت والنفاق؟ قال: «اللَّهُمَّ اغفر ـ ثلاثًا ـ من يأْمَنُ البَلاء؟ مَنْ يأْمَنُ البلاء؟ واللهِ إن الرجل ليُفْتَتن في ساعة، فينقلب عن دينه»[(٧)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣١٦)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٨٢١، ٨٢٢) واللفظ له، ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٧)، ويعقوب بن سفيان (٢/٥٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨٢٠)، ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(٥) أخرجه ابن المبارك (٣٩)، وأحمد (١٣٦) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (١٥/٣٤٨).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/٢٦٨).

(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣١) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/١٨١ ـ ١٨٢).

وقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه: «باب خوف المؤمن من أن يُحْبَطَ عمَلُهُ وَهو لا يشعر»[١].

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضتُ قَوْلِي على عملي إلا خَشِيتُ أنْ أكُون مكذِّبًا»[٢].

وقال ابن أبي مُلَيْكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافُ النِّفَاقَ على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[٣].

ويُذْكَر عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «ما خافه إلا مؤمن، وما أمِنَهُ إلا منافق»[٤]؛ يعني: النفاق.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «مر بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة! إن فلانًا قد مات، فاشهد. قال: ثم مضى، حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليَّ، فرآني، وأنا جالس، فَعَرف، فرجع إليَّ، فقال: يا حذيفة! أَنْشُدُك بالله أَمِنَ القوم أنا؟ - يعني: المنافقين - قال: قلت: «اللَّهُمَّ لا، ولن أُبَرِّي أحدًا بعدك»[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلم لك عِلْمه، فأتاه، فوجده جالسًا في بيته، مُنَكِّسًا رَأْسَه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شر. كان يرفع صوته فوق صوت النبيِّ ﷺ، فقد حَبِط عمله، وهو مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فأتى الرجل النبيَّ ﷺ، فأخبره أنه قال كذا وكذا... فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: اذهب إليه فقُل له: «**إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[٦].

ويقول معاذ رضي الله عنه: «إن المؤمن لا يسكن رَوْعه حَتَّى يترك جسر جهنَّم وراءه»[٧].

وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، خطب الناس بالبصرة، فذكر في خطبته النار،

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٠).

(٢) أورده البخاري معلقًا بصيغة الجزم (١/ ٣٠)، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وجاء موصولًا في «الزهد» لأحمد (ص٣٥٧، ٣٥٨)، وفي «الصمت» لابن أبي الدنيا (١٠٤)، وصحَّحه ابن رجب في «الفتح» (١/ ١٨١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) علقه البخاري بصيغة التَّمْرِيض (١/ ٣٠)، ووصله الفريابي في «صفة المنافق» (٨٦)، وصحَّحه ابن رجب في «الفتح» (١/ ١٣٦)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ١٣٦)، والألباني في «مختَصر البخاري» (١/ ٣٥).

(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» (٤٧٧).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٤٦) واللفظ له، ومسلم (١١٩).

(٧) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٣)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٨).

فبَكَى حَتَّى سَقَطت دموعه على المنبر، وبكى الناس يومئذ بكاء شديدًا[١].

وهذا شدَّاد بن أوس ﷺ كان إذا دخل الفِرَاش يتقلَّب على فِرَاشه؛ لا يأتيه النوم، فيقول: «اللَّهُمَّ إن النار أذهبت مني النوم»، فيقوم، فيصلي حتى يصبح[٢].

وكان أنس بن مالك ﷺ يقول لبنيه: «يا بَنِي! إيَّاكم والسَّفِلَة». قالوا: وما السَّفِلَة؟ قال: «الذي لا يخاف الله ﷻ»[٣].

وبعد؛ فهذا طَرَف من أخبار أصحاب النبي ﷺ، يبيّن بعض ما كانوا عليه من خوف الله ﷻ وإجلاله، ليقتدي بهم المُشَمِّر والمُقَصِّر، فيزيد الله المُشَمِّر من فضله، وينظر المُقَصِّر فيما كان من عمله.

سادسًا: خوف التابعين رحمهم الله:

فعن الوليد بن السائب[٤] ﷺ قال: «ما رأيتُ أحدًا قط الخوف أبْيَن على وجهه من عمر بن عبد العزيز»[٥].

وقال مرة لزوجته: «إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم»، بصوت حزين. فبكَت، وقالت: «اللَّهُمَّ أعِذْه من النار»[٦].

وكانت تقول في صِفَته: «ما رأيتُ أحدًا قط أشَدَّ فَرَقًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه»[٧].

وقالت: «قد يكون من الرجال مَنْ هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، ولكني لم أرَ من الناس أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربِّه من عمر؛ كان إذا دخل البيت ألقى نَفْسه في مسجده، فلا يزال يبكي، ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع»[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٥٤).

(٤) في الحلية: الوليد بن أبي السائب.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦).

(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٠/ ٣٢).

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٨ ـ ٢٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٩) واللفظ له، وغيرهم.

(٨) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦٠).

وعن عبد السلام مولى مَسْلَمَة بن عبد الملك قال: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة ـ زوجته ـ فبَكَى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العَبْر قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مِمَّ بكيت؟ قال: «ذكرت يا فاطمة مُنْصَرَف القوم من بين يدي الله، فريق في الجنة وفريق في السعير»(١).

وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، فدخل بيته، وتفرَّقَ الناس(٢).

وعن النضر بن عربي قال: «دخلتُ على عمر بن عبد العزيز، فكان لا يكاد يبكي، إنما هو ينتفض أبدًا، كأن عليه حزن الخَلْق»(٣).

وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة وذِكْر الآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة(٤).

وقال يزيد بن حَوشَب: «ما رأيتُ أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأنَّ النَّارَ لم تُخْلَق إلا لهما»(٥).

وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز لما رأى الناس في الموسم ـ يعني: موسم الحج ـ: «أما ترى هذا الخَلْقَ الذي لا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا الله تعالى، ولا يَسَعُ رزقَهُم غيرُهُ؟ فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء اليوم رَعِيَّتُكَ، وغدًا خصماؤك». فبكى بكاء شديدًا، ثم قال: «بالله أستعين»(٦).

وعن إبراهيم بن عبيد بن رِفَاعة قال: «شهدتُ عمرَ بن عبد العزيز ومحمدُ بن قيس يحدثه، فرأيتُ عمر يبكي حتى اختلفت أضلاعه»(٧).

وأُتِيَ يومًا بِسَلْق وأقراص، فأكل، ثم اضطجع على فراشه، وغطى وجهه بطَرَف ردائه، وجعل يبكي، ويقول: عَبْدٌ بَطِيءٌ بَطِينٌ يَتَبَاطَأ، ويتمنى على الله منازل الصالحين(٨).

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) «الرقة والبكاء» (٨٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٣٦).

(٦) «فوات الوفيات» (٢/ ٦٩)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٢).

(٧) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٨٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٢٥).

(٨) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٥٨٥)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥١).

وكان لا يجفّ دمعه من هذا البيت:

وَلَا خَيْرَ فِي عَيْشِ امْرِئٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللَّهِ فِي دَارِ الْقَرَارِ نَصِيبُ(١)

وقيل له: لو جعلتَ على طعامك أمينًا لا تُغْتَال، وحرسًا إذا صليتَ لا تُغْتَال، وتنَحَّ عن الطاعون، قال: «اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أني أخاف يومًا دون يوم القيامة فلا تُؤَمِّن خوفي»(٢).

وقال الحسن كَلَلهُ: «ما خافه ـ أي: النفاق ـ إلا مؤمن، وما أَمِنه إلا منافق»(٣).

وقال أيضًا: «إن الرجل لَيَتَعَلَّقُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القيامة، فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بلى، أنت أخذت لَبِنَة من حائطي، وأخذت خيطًا من ثوبي»(٤).

وقيل له: نراك طويل البكاء؟ فقال: «أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي»(٥).

وأُتِيَ بكوز من ماء ليُفْطِر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: «ذكرتُ أمنية أهل النار؛ قولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وذكرتُ ما أُجيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف: ٥٠]»(٦).

وكان يقول: «المؤمنون قوم ذُلُل، ذلّت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحْسَبُهم الجاهل مَرْضَى، والله ما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحّاء القلوب. ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا عِلْمهم بالآخرة، وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة؛ أبكاهم الخوف من النار»(٧).

وكان يقول: «المؤمن مَنْ يعْلَمُ أن ما قال الله ﷻ كما قال. والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جَبَلًا من مال ما أَمِنَ دون أن يُعَاين، ولا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة إلا ازداد فَرَقًا؛ يقول: لا أنجو، لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغْفَر لي، ولا بأس عليَّ، يسيء العمل، ويتمنَّى على الله تعالى»(٨).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه يعقوب بن سفيان في «تاريخه» (١/ ٦١١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/ ٢٤٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٧٣).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٨٩).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٩٧).

(٨) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٣٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٣).

وقد عُوتِبَ رَحِمَهُ اللهُ في شدة حُزْنِه وخوفه، فقال: «ما يُؤَمِّنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض ما يكره، فمَقَتَنِي، فقال: اذهب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل في غير مُعْتَمل»[1].

وقال يونس بن عبيد: «ما رأيتُ أحدًا أطول حزنًا من الحسن، وكان يقول: نضحك، ولعلَّ الله قد اطلع على أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا»[2].

فالمؤمن لا تراه إذا أصبح وإذا أمسى إلا خائفًا وَجِلًا، ولا يَسَعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين: بين ذنبٍ قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أَجَلٍ بَقِي لا يدري ما يصيب فيه.

يقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إن المؤمن يصبح حزينًا، ويُمْسي حزينًا، ويَنْقَلِب باليقين في الحزن. يكفيه ما يكفي العُنَيْزَة: الكفّ من التمر، والشَّرْبة من الماء»[3].

وكان يقول: «يَحِق لمن يعلم أن الموت مَوْرِدُه، وأن الساعة مَوْعِدُه، وأن القيام بين يدي الله تعالى مَشْهده؛ أن يطول حُزْنه»[4].

وقال له رجل: «يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ فتبسَّم الحسن، وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة، حتى توسَّطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلّق كل إنسان منهم بخشبة، على أيِّ حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشد من حالهم»[5].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حَزِن وذَبُل، وإلَّا نَصِب، وإلا ذاب، وإلا تَعِب»[6].

وأما ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ **فكان ـ كما قال نعيم بن حماد ـ**: إذا قرأ كتاب الرِّقاق يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة من البكاء. لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه[7].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٦)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩) واللفظ لهما، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٣٦).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٥٨) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣) واللفظ له، والبيهقي في «الزهد» (٥٤٣).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٧).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٣).

(٧) تقدم تخريجه.

وكان الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «إني أحبه - يعني: ابن المبارك -؛ لأنه يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وخرج - أي: ابن المبارك - **على أصحابه يومًا، فقال:** «إني اجترأت البارحة على الله عَزَّ وَجَلَّ، سألته الجنَّة»(٢).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يتقلّب على فراشه من الغمّ، ويقول:** «مَنْ يَصْبِر على أَخْذ الله، إنَّ أخْذَهُ أليم شديد»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نَفْسه تقصيرًا، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه»(٤).

وقال أيضًا: «إن البُصَرَاء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يُدْرَى ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقي، لا يُدْرى ماذا فيه من الهَلكات، وفضل قد أُعْطِيَ، لعله مَكْر واستدراج، وضَلَالة قد زيّنت له فَيَرَاهَا هدًى. ومن زَيْغ القلب ساعةً أسرع من طَرْفة عين، قد يُسْلَب دينه وهو لا يَشْعر»(٥).

وعن القاسم بن محمد قال: «كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي: بأي شيء فُضِّلَ هذا الرجل علينا، حتى اشْتُهِر في الناس هذه الشهرة؟! قال: فكنا في بعض مسيرتنا في طريق الشام ليلة نتعشّى في بيت، إذ طفئ السراج، فقام بعضنا، فأخذ السراج، وخرج يَسْتَصبح، فمكث هُنَيْهَة، ثم جاء بالسراج، فنظَرْتُ إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتَلَّتْ مِنَ الدموع، فقلتُ في نفسي: بهذه الخشية فُضِّلَ هَذَا الرجل علينا، ولعَلَّه حين فُقِد السراج، فصار إلى الظلمة ذَكَرَ القيامة»(٦).

وهذا طاوس بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ، كان يُفْرَش فراشه، ثم يضطجع، فيتقَلَّى كما تتقَلَّى الحَبَّة على المِقْلَى، ثم يَثِب فَيُدْرِجه، ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول: «طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّم نَوْمَ العابدين»(٧).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤١٦).
(٢) «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٥٧)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٥).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٧).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٧).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣٥) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٤٣٧).
(٦) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥) باختصار.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٩٠).

ومَرَّ بِرَوَّاس - أي: برجل يطبخ الرؤوس - قد أخرج رأسًا، فَغُشِي عليه[١].

وكان إذا رأى تلك الرؤوس المشوية لم يتعش تلك الليلة[٢].

وعن حفص بن عبد الرحمٰن قال: «أتيت مِسْعَر بن كِدَام ليحدّثني، فكأنه رَجُل أُقيم على شفير قَبْرٍ لِيُدْفَع فيه. - وقال مرة أخرى -: على شفير جهنم لِيُلْقَى فيها»[٣].

ولما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ سفيان الثوري، فوجده جَزِعًا، فقال له: لِمَ تَجْزَع؟ فوالله لوددتُ أنّي مِتّ الساعة. فقال مِسْعَر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيان الكلام. فقال: إنك إذًا لواثق بعملك يا سفيان! لكني والله لكأني على شاهق جبل لا أدري أين أَهْبِط؛ فبكى سفيان، فقال: أنت أخوف لله ﷻ منّي[٤].

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: «أدْرَكْتُ من لم يكن يملأ عينيه من السماء خوفًا مِنْ رَبِّهِ ﷻ»[٥].

وقال هَرِم بن حيان رحمه الله: «والله لوددتُ أني شجرة من هذه الشجر، أكلتني هذه الناقة، فقذفتني بَعْرًا، فاتُّخِذْت جِلَّة، ولم أكابد الحساب يوم القيامة... إني أخاف الداهية الكبرى»[٦].

وقال مكحول رحمه الله: «بأي وجه تلقون رَبَّكُمْ، وقد زَهَّدَكم في أمْر فرَغِبْتُم فيه، ورَغَّبَكُمْ في أَمْر فزهدتم فيه»[٧].

وعن عمارة بن زاذان أن مالك بن دينار رحمه الله **لما حَضَرَهُ الموت قال:** «لولا أني أَكْرَهُ أن أصنع شيئًا لم يصنعه أحد كان قبلي لأوصيتُ أهلي إذا أنا مِتّ أن تُقيّدوني، وأن تجمعوا يدي إلى عنقي، فيُنْطَلَق بي على تلك الحال حتى أُدْفَن، كما يُصْنَع بِالعَبْدِ الآبق»[٨].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٠).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢١٢).

(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٠٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٨) واللفظ له.

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٣) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٩ - ١٢٠)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٣٧).

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٠/ ٢٢٣).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١١٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤٣٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦١).

وقال سُويد بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا عند سفيان بن عُيَيْنة، فجاء محمد بن إدريس، فجلس، فروى ابن عُيَيْنة حديثًا رقيقًا، فغُشِيَ على الشافعي، فقيل: يا أبا محمّد! مات محمد بن إدريس. فقال ابن عُيَيْنة: إنْ كان قد مات محمد بن إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه»(١).

وهذا الإمام الكبير أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا ذُكِرَ المَوْتُ خنَقَتْهُ العَبْرَة، وكان يقول: «الخوف يمنعني أكْل الطعام والشراب، وإذا ذكرتُ الموت هان عليَّ كل أَمْر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيَّام قَلَائل، ما أَعْدِل بالفقر شيئًا، ولو وجدتُ السبيل لخرجتُ حتى لا يكون لي ذِكْر»(٢).

وقال له المَرُّوْذِي مرة: ما أكثر الداعي لك! قال: «أخاف أن يكون هذا استدراجًا، بأيِّ شيء هذا؟!»(٣).

وهذا يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «والله ما ضَرَّ رجلًا اتقى الله على ما أصبح وأمسى من أَمْر الدنيا، وما الدنيا إلا كحِلْم، لقد حججتُ وأنا ابن أربع وعشرين سنة، خرجتُ راجلًا من بغداد إلى مَكَّة، هذا منذ خمسين سنة، كأنما كان أمس»(٤).

وقال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يحيى بن أبي كثير من العُبَّاد، إذا رأى جنَازة لم يَتَعَشَّ تِلْكَ الليلة، ولا قَدِر أحد من أهله أن يكلّمه»(٥).اهـ.

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جلستُ مع سفيان الثوري في مسجد صالح المُرِّي، فتَكَلَّمَ صَالِح، فرأيتُ سفيان الثوري يبكي، وقال: ليس هذا بقاص، هذا نذير قوم»(٦).

وقُرِئَ عند يحيى البكَّاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، فصَاح صيحة، فعادوه منها أربعة أشهر(٧).

وقال يحيى بن أبي بكير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلنا للحسن بن صالح: صِفْ لَنَا غسل الميت، فما قَدِر عليه من البكاء»(٨).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٩٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٠٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، و«تاريخ الإسلام» (١٨/ ٨١)، وانظر: «الورع» لأحمد (٢٤٥) ـ رواية المَرُّوذِي ـ.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٠)، و«تاريخ الإسلام» (١٨/ ٧٦).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٧/ ٢٤٣).
(٥) «الثقات» لابن حبان (٧/ ٥٩٢)، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٥٠٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٧) واللفظ له، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٠٨).
(٧) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٢٦٨).
(٨) أخرجه ابن عدي «في الكامل» (٢/ ٣١١).

وخرج مرَّة، فنظر إلى جَراد يطير، فقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧]، ثم خَرَّ مَغْشِيًّا عليه[١].

وقال بعضهم: «كنتُ أقرأ على علي بن صالح، فلما بلغتُ إلى قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم: ٨٤]، سقط الحسن بن صالح يخور كما يخور الثور، فقام إليه علي، فرَفَعَه، ومسح على وجهه، ورَشّ عليه الماء، وأسنده إليه»[٢].

وقال حماد بن زيد: «كنتُ إذا رأيتُ حسان بن أبي سنان كأنه أبدًا مريض». وذُكِر ذلك لمخلد بن حسين، فقال: «هكذا كان إذا رأيته كأنه أبدًا ناقة»[٣].

وقال محمد بن سُوْقَة: «إن المؤمن الذي يخاف الله لا يسمَن، ولا يزداد لونه إلا تغيُّرًا»[٤].

وكان عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ يُحَدِّثُ أصحابه ولحيته ترتشّ بالدموع[٥].

وهذا إبراهيم بن أدهم يقول: «الهوى يُرْدِي، وخوف الله يشفي. واعلم أنما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت مَن تعلم أنه يراك»[٦].

وكان عباد بن زياد التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ له إخوة مُتَعَبِّدون، فجاء الطاعون، فماتوا جميعًا فرثاهم بقوله:

فِتْيَةٌ يُعْرَفُ التَّخَشُّعُ فِيهِمْ ... كُلُّهُمْ أَحْكَمَ الْقُرَانَ غُلَامَا
قَدْ بَرَى جِلْدَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى ... عَادَ جِلْدًا مُصَفَّرًا وَعِظَامَا
تَتَجَافَى عَنِ الْفِرَاشِ مِنَ الْخَوْ ... فِ إِذَا الْجَاهِلُونَ بَاتُوا نِيَامَا
بِأَنِينٍ وَعَبْرَةٍ وَنَحِيبٍ ... وَيَظَلُّونَ بِالنَّهَارِ صِيَامَا
يَقْرَؤُونَ الْقُرَانَ لَا رَيْبَ فِيهِ ... وَيَبِيتُونَ سُجَّدًا وَقِيَامَا[٧]

وقال السَّري السَّقَطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرارًا مخافة أن يكون وجهي قد اسودَّ»[٨].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٩٨)، و«الزهد» (٥٣٠).
(٢) أخرجه ابن عدي «في الكامل» (٢/ ٣١١)، والبيهقي في «الشعب» (٩١٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١٥). (٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ٦٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٠)، و«الزهد» (٣٢٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٣٤٤).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٨٢).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ١٨٢).

وسمعه **الجُنَيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: «ما أُحِبّ أنْ أموتَ حيث أُعْرَف، فقيل له: ولِمَ ذلك يا أبا الحسن؟ قال: أخاف ألَّا يقبلني قبري، فأفتضح»(١).

وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للخائف عشرة مقامات ـ فذكر منها ـ: الحُزْن اللَّازِم، والهمّ الغالب، والخشية المُقْلِقَة، وكثرة البكاء، والتضرّع في الليل والنهار، والهَرَب من مواطن الرَّاحَة... ووَجَل القلب»(٢).

وقال أبو إسحاق السَّبِيْعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أوَى أبو مَيْسرة عمرو بن شرحبيل إلى فراشه، فقال: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له امرأته: أبا ميسرة! أليس قد أحسن الله إليك، وهداك إلى الإسلام، وفَعَل بك كذا؟ قال: بلى؛ ولكِنَّ الله أخْبَرَنا أنَّا وَارِدُون على النار، ولم يبيِّن لنا أنَّا صَادِرُونَ عنها»(٣).

ولما أُهْدِيَت مُعَاذة العَدَوِيَّة إلى زَوْجِهَا صِلَة بن أَشْيَم أدخله ابن أخيه الحَمَّام، ثُمَّ أدخله بيتًا مُطَيَّبًا، فقام يصلي، فقامت فصلّت، فلم يزالا يُصَلّيان حتى برق الفجر، فلما عاتبه ابن أخيه على فِعْله، قال له: «إنك أدخلتني بالأمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة؛ فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ»(٤).

وعُوتِب يزيد الرقاشي من ابنه على كثرة بكائه، وقال له: لو كانت النار خُلِقَتْ لك ما زدتَ على هذا البكاء!! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خُلِقَت النار إلا لي، ولأصحابي، ولإخواننا من الجن والإنس؟ أما تقرأ يا بني: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرحمٰن: ٣١]؟! أما تقرأ يا بني: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمٰن: ٣٥]؟! فجعل يقرأ عليه حتى انتهى إلى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمٰن: ٤٤]، فجعل يجول في الدار، ويبكي حتى غُشِي عليه(٥).

وقال ابن السَّمَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة وإما في النار»(٦).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/١٨٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١١٧ ـ ١١٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٢)، ومن طريقه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٣٦٣)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٥٢، ٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٤١ ـ ١٤٢) واللفظ له.

(٤) «صفة الصفوة» (٣/٢١٩)، و«البداية والنهاية» (١٢/٢٦٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٤٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥/٨٦).

(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/١٨٨).

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: «ما الذي بلغ بك ما أرى؟» فقال: «يا أمير المؤمنين! أمراض وأسقام!» فأعاد عليه عمر، قال: سألتك بالله إلا صَدَقتني. فقال: «يا أمير المؤمنين! ذُقْتُ حلاوة الدنيا فوجدتها مُرَّة، فصَغُر في عيني زهرتها وحلاوتها، واسْتَوَى عندي حجارتها وذهبها، وكأني أنظر إلى عَرْش ربي والناس يُسَاقُونَ إلى الجنة والنار؛ فأظْمَأْتُ لذلك نهاري، وأسهرتُ له ليلي، وقليل حقير كلُّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله ﷻ وعقابه»[١].

وهذا سفيان الثَّوْرِي الإمام الكبير رَحِمَهُ اللَّهُ، حُمِلَ ماؤه إلى الطبيب في مرضه، فلما نظر إليه قال: «هذا ماء رجل قد أحرق الخوف جوفه»[٢].

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد خفت الله خوفًا وددتُ أنه خُفِّف عني»[٣].

وكان يقول: «خفتُ الله خوفًا عجبتُ لي كيف ما متّ، إلا أنَّ لي أجلًا أنا بالغه»[٤].

وكان إذا ذَكَر الموت لا يُنْتَفَعُ به أيَّامًا، فإذا سُئِلَ عن الشيء قال: «لا أدري، لا أدري»[٥].

وكان لا ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فَزِعًا مرعوبًا، ينادي: «النَّار، شغلني ذِكْر النار عن النوم والشهوات»[٦].

وكان إذا أخذ في ذِكْر الآخرة يبول الدم[٧].

وكان مَنْ يَرَاه يراه كأنه في سفينة يخاف الغَرَق، أكثر ما تسمعه يقول: «يَا رب سلِّم سَلِّم»[٨].

وقال عطاء الخفَّاف رَحِمَهُ اللَّهُ: ما لقيتُ سفيان الثوري إلا باكيًا، فقلتُ: ما شأنك؟ قال: «أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًّا»[٩].

وجلس مرة مع مالك بن مِغْوَل، فتذاكرا حتى رَقًّا، فقال سفيان: «وددتُ أني لا أقوم من مجلسي حتى أموت». فقال مالك: «لكني لا أُحِب ذلك، مُعَايَنَة الرُّسُل! معاينة الرسل!» ثم قام يبكي يخط الأرض برجليه[١٠].

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٨٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٨/ ١٩١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٤). (٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٣).
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٧، ٧/ ٥٨).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٦٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٩).
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٢٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣) بنحوه.
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥١). (٩) المصدر السابق (٧/ ٢١).
(١٠) المصدر السابق (٧/ ١٨).

ولما احتضر جعل يبكي، ويجزع. فقيل له: يا أبا عبد الله! عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعْظَم مِنْ ذُنُوبِكَ. فقال: «أوَعلى ذنوبي أبكي؟! لو علمتُ أني أموت على التوحيد لم أُبَال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا»(١).

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي، قال: «مات سفيان الثوري عندي، فلما اشتد به جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله! أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض فقال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا. إني أخاف أن أُسلَب الإيمان قبل أن أموت»(٢).

وقال بشر بن منصور رَحِمَهُ اللهُ: «إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا أُلَهِّي بِهِ نفْسِي عن ذِكْر الآخرة، أخاف على عقلي»(٣).

وكان منصور بن المُعْتَمِر رَحِمَهُ اللهُ إذا رأيتَه قلتَ: قد أُصِيب بمصيبة، ولقد قالت له أمّه: ما هذا الذي تصنع بنفسك؟! تبكي اللَّيْل عامَّته... لا تكاد أن تسكت؟! لعلك يا بني أصبتَ نَفْسًا؟ أقتلت قتيلًا؟ فقال: «يا أمه! أنا أعلم بما صنعَت نَفْسي»(٤).

وكان الضحاك بن مُزَاحِم رَحِمَهُ اللهُ إذا أمسى بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «لا أدري ما صعد اليوم من عملي»(٥).

وهذا الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ، الإمام الزاهد العابد المعروف كان قد أَلِفَ البكاء، حتى ربما بكى في نومه حتى يسمعه أهل الدار(٦).

ووقف مرة بعرفة، فوضع يده على خده، وبَكَى، ثُمَّ رَفع رأسه إلى السماء، وقال: «وا سوأتاه والله منك، وإن عفوت» ثلاث مرات(٧).

وقال هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ: ما رأت عيناي مثل الفضيل، قال لي وقد دخلت عليه: «يا أمير المؤمنين! فَرِّغْ قَلْبَكَ لِلْحُزْنِ والخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن معاصي الله تعالى، ويباعداك من عذاب الله»(٨).

ودخل عليه زافر بن سليمان، فجَعَلَ الفُضَيْل ينظر إليه، ثم قال: «يا أبا سليمان!

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٧٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٢).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٢٤١).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١٢٧)، و«محاسبة النفس» (٩٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٨١٣).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٧٦).
(٦) المصدر السابق (٢٣٠).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٨٨).

هؤلاء أصحاب الحديث، ليس شيء أحب إليهم من قُرْبِ الإسناد. ألا أُخْبِرُك بإسنادٍ لا شَكَّ فيه؟! رسول الله ﷺ عن جبريل ﷺ عن الله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، قرأ الآية. فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، ثم غُشِي عليه»[1].

وكان أصحابه إذا خرجوا معه في جنازة لا يزال يَعِظ، ويُذَكِّر، ويبكي حتى لكأنَّهُ يودِّع أصحابه ذاهبًا إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر، فيجلس، فكأنه بين الموتى جلس من الحزن والبكاء، حتى يقوم ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها[2].

وقال إسحاق بن إبراهيم ﷺ: «ما رأيتُ أحدًا أخْوَف على نَفْسه، ولا أرجى للناس من الفضيل»[3].

وكان يقول: «ما أغبط مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرْسَلًا يُعايِن القيامة وأهوالها، وما أغبط إلَّا من لم يكن شيئًا»[4].

وكان يقول: «طوبى لمن اسْتَوْحَشَ مِنَ الناس، وكان الله أنيسه، وبَكَى على خطيئته»[5].

وكان يقول: «إذا قيل لك: أتخاف الله؟ فاسكت؛ فإنك إن قلت: لا، فقد جِئْت بأمر عظيم. وإن قلتَ: نعم، فالخائف لا يكون على ما أنت عليه»[6].

وعن منصور بن عمار، قال: «تكلَّمْتُ يومًا في المسجد الحرام، فذكرتُ شيئًا من صفة النار، فرأيتُ الفضيل بن عياض صاح حتى غُشِي عليه»[7].

وعلى طريقته من الخوف سار ابنه عليّ؛ يقول أبوه الفضيل: «أشرفتُ ليلة على عليّ وهو في صحن الدار، وهو يقول: النار، ومتى الخلاص من النار؟»[8].

وقال: «يا أبت! سَلِ الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة»[9].

وقال الفضيل ﷺ: «قال لي عليٌّ: سل الذي جمعنا في الدنيا أن يجمعنا في الآخرة. فلم يزل مُنْكسر القلب حزينًا»، ثم بَكَى، ثم قال: «حبيبي من كان يُساعدني على الحزن والبكاء»[10].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٣٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩٠).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩١).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٣٩٦).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٠)، وذكره ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٩).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٨).
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٢٣). (٧) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣٨).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٩). (١٠) المصدر السابق.

وقال أيضًا: «قال لي ابن المبارك: يا أبا علي! ما أحسن حال مَنِ انْقَطَعَ إِلَى الله! فسمع ذلك عليّ ابني، فسقط مغشيًّا عليه»[(١)].

وقال أيضًا: «بكى عليّ ابني يَوْمًا، فقلتُ: يا بني ما لك؟! فقال: أخاف ألَّا تجمعنا القيامة»[(٢)].

وكان لا يستطيع أن يقرأ القارعة، ولا تُقْرَأ عليه[(٣)].

ويقول أبو بكر بن عياش: «صَلَّيْتُ خَلْف فضيل بن عياض صلاة المغرب، وعليٌّ ابنه إلى جانبي، فقرأ ـ أي: الفضيل ـ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١]، فلما قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٦] سقط عليُّ بن فضيل على وجهه مَغْشِيًّا عليه، وبقي فُضَيْل عند الآية، فقلتُ في نفسي: ويحك، ما عندك ما عند فضيل وعلي! فلم أزل أنتظر عليًّا، فَمَا أفاق إلى ثلث من الليل بقي»[(٤)].

وكان يومًا عند سفيان بن عُيَيْنة، فحدَّث سفيان بحديث فيه ذِكْرُ النَّارِ، وفي يد علي قِرْطَاس فيه شيء مَرْبوط، فشَهِقَ شهقة، ووقع، ورمى بالقرطاس، أو وقع مِنْ يَدِهِ، فالتفت إليه سفيان فقال: «لو عَلِمْت أنك هاهنا ما حدَّثْت به»[(٥)].

وصلى خلف إمام قرأ في صلاته سورة الرَّحْمَن، فلما سلم قيل لعليٍّ: أما سمعت ما قرأ الإمام: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرحمٰن: ٧٢]؟! فقال: «شغلني ما كان قبلها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمٰن: ٣٥]»[(٦)].

وقرأ الفضيل الحاقة في صلاة الصبح يومًا، فلما بلغ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ [الحاقة: ٣٠] غلبه البكاء، فسقط ابنه علي مغشيًّا عليه[(٧)].

وقال الخطيب البغدادي في ترجمته: «كان مِنَ الوَرَعِ بمحلٍّ عظيم، ومات قبل أبيه بمُدَّة، وكان سبب موته أنه سمع آية تُقْرأ، فغشي عليه، وتوفي في الحال»[(٨)].

وقال ابن حبان في ترجمته من كتاب «الثقات»: «كان من الخائفين، كان يُقَدَّم على أبيه في الخَوْف والعبادة، مات قبل أبيه، وكان سبب موته أنه بات يتلو القرآن في مِحْرَابِهِ، فأصبح ميتًا في محرابه»[(٩)].اهـ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٢٩٩).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٣).

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٧٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٨).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

(٧) أخرجه المزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٩٩).

(٨) «تهذيب الكمال» (٢١/ ٩٧).

(٩) «الثقات» لابن حبان (٨/ ٤٦٤).

قال إبراهيم بن بشار: «الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فيمن صلى عليه»[١].

وهذا محمد بن المنكدر، من أئِمَّةِ التابعين وعُبَّادِهِم، بينما هو ذات ليلة قائم يُصَلي إذ استبكى، وكثُر بكاؤه، حتى فَزِعَ أهله، وسألوه ما الذي أبكاه؟ فاسْتَعْجَمَ عليهم، وتمادَى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم، فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه، فإذا هو يبكي. قال: يا ابن أخي ما الذي أبكاك؟! قد رُعْت أهلك، أفمن عِلَّة، أم ما بك؟ فقال: إنه مرَّتْ بِه آية في كتاب الله ﷻ. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ [الزمر: ٤٧]، فبَكَى أبو حازم أيضًا معه، واشْتَدَّ بكاؤهما[٢].

وبكى ثابت البُنَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى كادت عينه تذهب، فجاؤوا برجل يعالجها، فقال: «أعالجها على أن تطيعني»، فقال: «وأي شيء؟» قال: «على ألَّا تبكي»، قال: «فما خيرهما إن لم تبكيا؟!» وأبى أن يتعالج[٣].

وكان عطاء السَّلِيْمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبكي حتى خَشِيَ على عينه، فأُتِي بطبيب يداوي عينه، قال: «أداوي بِشَرْط ألَّا تبكي ثلاثة أيَّام»، فاستَكْرَه ذلك، وقال: «لا حاجة لنا فيك»[٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَكَيْتُ عَلَى ذَنْبٍ أرْبَعِين سنة»[٥]. وكان إذا انتبه في جوف الليل يضرب بيده فزعًا إلى أعْضَائِهِ يحسُّها مخافة أن تكون قد غيّر خِلْقَتَه[٦]. وكان قد نسي القرآن مِنْ الخوف[٧].

وكان يقول: «الْتَمِسُوا لي هذه أحاديث الرُّخَص، عسى الله أن يُرَوِّحَ عَنِّي ما أنَا فِيهِ»[٨].

وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئًا؟ قال: «إنَّ خَوْفَ جهنم لم يَدَع في قلبي موضعًا للشهوة»[٩].

وكان يقول: «ليت عطاء لم تلده أمّه»[١٠]. **وقال له صالح المُرِّي:** «قلتُ لعطاء السَّلِيْمِي: إنك قد ضعفت، فلو صنعنا لك سَوِيقًا وتكلَّفناه. قال فصنعتُ له سويقًا، فشرب منه شيئًا، ثم مكث أيامًا. فقلتُ: صنعنا لك سويقًا وتكلفناه. فقال: يا أبا

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٤٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٦٧).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٣).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٩٦).
(٥) المصدر السابق (٧٩٩).
(٦) المصدر السابق (٨٩٣).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٧).
(٨) المصدر السابق.
(٩) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٥).
(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٧).

بشر! إني إذا ذكرتُ النار لم أسِغه»(١).

وقيل: «إنه بَكَى رَحِمَهُ اللهُ حَتَّى عَمِش، وربما غُشِي عليه عند الموعظة»(٢).

وقال بشر بن منصور: قلتُ لعطاء السَّلِيْمِي: يا عطاء، ما هذا الحزن؟ قال: «ويحك! الموت في عنقي، والقبر بيتي، وفي القيامة موقفي، وعلى جسر جهنم طريقي، وربي لا أدري ماذا يصنع بي»(٣).

وقال العلاء بن محمد: «دخلتُ على عطاء السَّلِيْمِي، وقد غُشِي عليه، فقلتُ لامرأته أم جعفر: ما شَأْنُ عطاء؟ فقالت: سَجَّرَتْ جارتنا التَّنُورَ، فنظر إليها، فخَرَّ مَغْشِيًّا عليه»(٤).

ومرَّ على صبيّ بيده مِشْعَلة نار، فأصابت النارَ الرِّيحُ، فسمع ذلك منها ـ سمع صوت النار ـ فخر مغْشِيًّا عليه، فحُمِلَ إلى منزله لا يعقل(٥).

وكان بعض السلف إذا رأى النار اضطرب، وتغيَّرَت حاله، والله يقول: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣].

قال مجاهد في قوله: (تذكرة)، قال: «تذكرة النار الكبرى»(٦)؛ يعني: أنَّ نَارَ الدنيا تُذَكِّرُ بِنَارِ الآخرة.

وَمَرَّ ابن مسعود رضي الله عنه بالحدَّادِين، وقد أخرجوا حديدةً من النار، فقام ينظر إليه، ويبكي(٧).

وقال سَرَّار أبو عبيدة: عاتبتُ عطاء السَّلِيْمِي في كثرة بكائه، فقال: «يا سَرَّار! كيف تُعاتبني في شيء ليس هو إليّ؟ إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعِقَابِهِ تَمَثَّلَتْ لي نَفْسي بهم. فكيف لنَفْس تُغَلّ يدُها إلى عُنُقِهَا، وتُسْحَب إلى النار ألَّا تصيح وتبكي؟! وكيف لنفسٍ تُعَذَّب ألَّا تبكي؟!»(٨). فهو يضع نَفْسه في مكانهم وقت إمكان الفرصة قبل فوات الأوان؛ فإنَّ الأنفَاسَ إذا تَقَضَّت، والعمر إذا انقضى فلا مَجَال للاستعتاب، أو الرجوع، أو التوبة والإنابة؛ فهذا مما يَسْتَجْلِب به الإنسان الخوف لنَفْسه من الله عز وجل.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٤٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) بنحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٧٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٨).

(٥) المصدر السابق (٦/ ٢٢٢).

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦) واللفظ له، وهناد في «الزهد» (٢٣٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٨) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٠) مطولًا.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٣٦)، و«الرقة والبكاء» (٢٥٦).

وهذا الإمام الكبير عبد الله بن وهب المصريّ رَحِمَهُ اللهُ، وهو مِنْ أئمة السُّنَّة وحُفَّاظها، قُرِئ عليه كتاب أهوال القيامة، فخَرَّ مغشيًّا عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ثلاثة أيام[(١)].

وهذا هشام الدستوائي رَحِمَهُ اللهُ كان إذا فقد السِّراج من بيته تَمَلْمَل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسِّراج، ثم كلمته في ذلك، فقال: «إذا فقدت السِّراج ذكرت ظُلْمَة القبر»[(٢)].

وقد بكى رَحِمَهُ اللهُ حتى فسدت عينه، فكانت مفتوحة وهو لا يكاد يبصر بها شيئًا[(٣)].

وهذا الإمام الفَقِيه أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى قام ليلةً بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦]، يُردّدها، ويَبْكي، ويَتَضَرَّع[(٤)].

وقيل ليزيد بن مَرْثَد: ما لي أرى عينيك لا تجفّ؟ قال: «وما مسألتك؟» فقال له السائل: لعل الله أن ينفع به، فقال: «إن الله ﷻ تَوَعّدني إن أنا عصيته أن يَسْجنَنِي في النار. والله لو توعَّدني أن يَسْجننِي في الحمام كنت حَرِيًّا ألَّا يَجِفَّ لي دمع». فقال: هكذا في خَلْوتك؟ قال: «والله إنه لتوضع القصعة بين أيدينا، فيَعْرِض لي، فأبكي، ويبكي أهلي، ويبكي صبياننا، لا يدرون ما أبكانا. والله إني لأسكن إلى أهلي، فيَعْرِض لي، فيحول بيني وبين ما أُرِيد»[(٥)].

وعن حفص بن حميد قال: «قال لي زياد بن حدير: اقرأ عليَّ، فَقَرأْتُ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ١ ـ ٣]، فقال: أنقض ظَهْرَ رسول الله ﷺ، فجعل يبكي كما يبكي الصبي»[(٦)].

وكان يُسْمَع وَقْع دموع سعيد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ على الحصير في الصلاة[(٧)].

وقيل له مرة: ما هذا البكاء الذي يَعْرِض لك في الصلاة؟ فقال: «ما قُمْتُ في صلاتي إلا مُثِّلَت لي جَهَنَّم»[(٨)].

وكان العلاء بن زياد رَحِمَهُ اللهُ ربَّانِيًّا، تقيًّا، قانتًا لله ﷻ، بَكَّاءً مِنْ خَشْيَةِ الله، بكى حتى عَشِي بصرُهُ، وكان إذا أراد أن يَتَكَلَّمَ أو يقرأ جَهَشَه البكاء، وكان أبوه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٤).
(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٤٩)، وأخرجه الدوري في «تاريخ ابن معين» (٢/ ٦١٧) بنحوه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٩٥).
(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٥٦).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٢) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٨) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥/ ٣٧٧).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٧).
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٢).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٢٠٣).

قد بكى حتى عَمِي[1].

وهذا شيخ الإمام أحمد، شيخ السُّنَّة يزيد بن هارون رَحِمَهُ اللهُ، قال الحسن بن عرفة: «رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو مِنْ أحسَنِ الناس عَيْنَيْن، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته وقد ذهبت عَيْنَاه، فقلتُ له: يا أبا خالد! ما فعلت العَيْنَان الجميلَتَان؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار»[2].

وقال العباس بن الوليد عن الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «كان إذا أخذ في ذِكْر المعَاد أقول في نفسي: أتُرى في المجلس قَلْب لم يَبْك»[3].

وكان يُحْيي اللَّيْلَ صلاة وقرآنًا وبكاء[4]. وكانت أمه تَدْخُل منزله، وتتَفَقَّد موضع مُصَلَّاه، فتجده رطْبًا من دموعه في اللَّيْلِ[5].

ولما احْتُضِر عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ اللهُ **بكى، فقال له أصحابه**: علام تبكي من الدنيا؟ فوالله لقد كنت غضيض العيش أيَّام حياتك؟ فقال: «والله ما أبكي على الدنيا، وإنما أبكي خوفًا من أن أُحْرَم خير الآخرة»[6].

وهذا الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ صاحب السنن، بكى حتى عَمِي وبقي ضريرًا سنين[7].

وبكى علي بن بَكّار حتى عمي، وكانت الدموع قد أثَّرت في خَدَّيْهِ[8].

وجلس عنده بعض أصحابه، فمَرَّت سحابة، فسأله عن شيء، فقال له: «اسكت حتى تجوز هذه السحابة، أما تخْشَى أن يكون فيها حجارة نُرْمَى بها؟!»[9].

وقال عَنْبَسَة الخَوَّاص: كان عُتْبَة الغُلام يزورني، فربما بات عندي، فبات عندي ذات ليلة، فبكى في السَّحَر بكاء شديدًا، فلمَّا أصْبَحَ قلتُ: فزَّعْت قلبي منذ الليلة ببكائك، فَبِمَ ذَاكَ يا أخي؟! فقال: «يا عَنْبَسَة! والله إني تذكرتُ يوم العَرْض على الله»[10].

ونظر يونس بن عُبَيْد إلى قَدَمَيْهِ عند موته فبكى، فقيل له: ما يُبْكِيكَ أبَا عبد الله؟! قال: «قدماي لم تَغْبَرَّا في سبيل الله»[11].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٨٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨١٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٤٣).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩).
(٤) المصدر السابق (٣٥/ ١٩٧). (٥) المصدر السابق.
(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٤٢).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٣)، و«تاريخ الإسلام» (٢٠/ ٤٦١).
(٨) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٥٨٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/ ٢٦٢).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٦) واللفظ له.
(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠١).
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩) واللفظ له.

وكان أبو وائل شَقِيق بن سلمة إذا صلَّى في بيته ينشج نشيجًا، لو جُعِلَت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فَعَله[(١)].

ويقول الأعمش رَحِمَهُ اللهُ واصفًا مَنْ عَاصَرَهم مِنْ سَلَفِ هذه الأمة مِنْ صَالحيها: «إن كنّا لنشهد الجنازة، فلا ندري مَنْ نُعَزِّي مِنْ حُزْنِ القَوْمِ»[(٢)].

وقال ثابت البُنَاني رَحِمَهُ اللهُ: «كنا نتبع الجنازة، فما نرى إلّا مُتقَنّعًا باكيًا، أو متقنّعًا مُتفكّرًا»[(٣)].

وحكى القاضي حسين عن أستاذه القَفَّال: أنه كان في كثير من الأوقات في الدَّرس يقع عليه البكاء، ثم يرفع رأسه ويقول: «ما أغْفَلَنَا عمَّا يُرَاد بنا!»[(٤)].

امْنَعْ جُفُونَكَ أَنْ تَذُوقَ مَنَامَا ... وَذَرِ الدُّمُوعَ عَلَى الخُدُودِ سِجَامَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ وَمُحَاسَبٌ ... يَا مَنْ عَلَى سَخَطِ الجَلِيلِ أَقَامَا
لِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ ... فَرَضِي بِهِمْ وَاخْتَصَّهُمْ خُدَّامَا
قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمُ ... بَاتُوا هُنَالِكَ سُجَّدًا وَقِيَامَا

فالأمر كما قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مَتَى أقْحطت العَيْن مِنَ البكاء من خشية الله تعالى؛ فاعْلَم أن قَحْطَها مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي»[(٥)]. اهـ.

عن عمرو بن دينار رَحِمَهُ اللهُ **قال**: «سمعتُ رجلًا يطوف بالبيت ويبكي، فإذا هو طاوس! فقال: «عجبتَ من بكائي؟ قلت: نعم، قال: ورب هذه البَنِيَّة[(٦)]، إن هذا القمر ليبكي من خشية الله، ولا ذنب له»[(٧)].

وهذا سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ بات يُرَدِّدُ آية في الصلاة بضعًا وعشرين مرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١][(٨)]. وشرب مرَّة شَرْبة من عسل في قَدَح، ثم قال:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٨)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٥٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٢).

(٤) «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٠٠)، وطبقات الشافعية لابن السبكي (٥/ ٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٠٧).

(٥) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).

(٦) أي: الكعبة.

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٧٩)، وقد تقدم نحوه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧٠) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٢).

«والله لأُسألنّ عن هذا»، فقيل له: لماذا؟ قال: «شربته وأنا أستلذّه»(١).

وقال جعفر بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عُدْت هارون بن رِئَاب فإذا هو يَجُود بنفسه، فما فقدت وجه رجل فاضل إلا وقد رأيته عنده. فجاء محمد بن واسع، فقال: يا أخي! كيف تَجِدك؟ قال: «هو ذا أخوكم يُذْهب به إلى النار، أو يعفو الله عنه»(٢)، يقول ذلك مع عظيم العبادة وكَثْرة الاجتهاد.

وهذا محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **يقول**: «يا إخوتاه! تدرون أين يُذْهَب بي؟ يُذْهَب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النار أو يعفو الله عنِّي»(٣).

وكان علي بن الحسين زين العابدين إذا قام إلى الصلاة أخذته رِعْدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: «ما تدرون بين يدي مَنْ أقوم ومَنْ أناجي؟!»(٤).

ووقع حريقٌ في بيته مرَّة وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله! النار، يا ابن رسول الله! النار، فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: «ألهتني عنها النار الأخرى»(٥).

وعن أُوَيْس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال**: «لا تنال هذا الأمر حتى تكون كأنَّكَ قتلت الناس أجمعين»(٦).

وعن ابنة الربيع بن خُثَيم قالت: «كنتُ أقول لأبي: يا أبتاه! ألا تنام؟ فيقول: يا بنيَّة! كيف يَنَام مَنْ يَخَافُ البَيَاتَ؟»(٧).

ولما رأت أمّهُ ما يلقاه من البكاء والسهر نادته، فقالت: «يا بني! لَعَلَّكَ قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا والدة! قد قتلت قتيلًا. قالت: ومَنْ هَذَا القتيل يا بني؟! يُتحمَّل على أهله، فيعفون. والله لو يَعْلَمُون ما تَلْقَى مِنَ البكاء والسَّهر بعد لقد رحموك، فيقول: يا والدة! هي نفسي»(٨).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٤١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٣٦)، و«المحتضرين» (١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٨) واللفظ له.

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٩٤) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢/ ٢٨٢).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٤ ـ ١١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٤، ٩٥٥) واللفظ له.

(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٤).

أَدِمِ الصِّيَامَ مَعَ الْقِيَامِ تَعَبُّدًا فَكِلَاهُمَا عَمَلَانِ مَقْبُولَانِ
قُمْ فِي الدُّجَى وَاتْلُ الْكِتَابَ وَلَا تَنَمْ إِلَّا كَنَوْمَةِ حَائِرٍ وَلَهَانِ
فَلَرُبَّمَا تَأْتِي المَنِيَّةُ بَغْتَةً فَتُسَاقُ مِنْ فُرُشٍ إِلَى الْأَكْفَانِ
يَا حَبَّذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

وعن أبي كبير البصري رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «قالت أم محمد بن كعب القُرَظي لابنها: يَا بني! لولا أني أعرفك صغيرًا طيِّبًا وكبيرًا طيبًا لظننتُ أنك أحدثتَ ذنبًا مُوبقًا؛ لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار. قال: يا أماه! وما يُؤَمِّنني أن يكون الله قد اطَّلَعَ عليَّ وَأنَا في بعض ذنوبي فمَقَتَني، وقال: اذهب لا أغفر لك»[١].

وقيل لعبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أفضل العبادة؟ قال: «طول الحُزْن في الليل والنهار»[٢].

وفي هذا يقول شَقِيق البَلْخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس للعبد صاحب خير مِنْ الهَمّ والخَوْفِ؛ همٌّ فيما مضى من ذنوبه، وخوف فيما لا يدري ما ينزل به»[٣].

ولإبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ **كلمة مشهورة في هذا، حيث يقول:** «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون مِنْ أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يُشْفِق أن يخاف ألَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]»[٤].

وعن مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «الحزن تَلقِيح العمل الصالح»[٥]، **وقال:** «لولا أن يقول الناس: جُنَّ مالك للَبِسْت المُسُوح ـ يعني: الصوف ـ ووضعتُ الرماد على رأسي، أنادي في الناس: من رآني فلا يعصِ ربّه»[٦]. **ويقول:** «لو استطعت ألَّا أنام لم أنَمْ، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائِم. ولو وجدتُ أعوانًا لفرَّقْتُهم ينادون في سائر

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٢٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٣٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٦٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٣).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٤).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٧).

الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارَ النارَ»(١).

وقال له رجل: «رأيتُ البارحة كأن مناديًا ينادي فيقول: يا أيها الناس! الرحيلَ الرحيلَ، فما رأيتُ أحدًا يَرْتَحِل إلا محمد بن واسع»؛ فصاح مالك صيحة، وخَرَّ مغشيًا عليه(٢).

وكان يصلي من الليل، ويأخذ بلحيته، ويقول: «يا رب! إذا جمعتَ الأوَّلين والآخرين فَحَرِّمْ شَيْبَة مالك على النار»(٣).

وقال جعفر بن سليمان: «كنتُ إذا وجدت مِنْ قَلْبِي قَسْوَةً نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع نَظْرة، وكنت إذا رأيتُ وجْهَ محمَّدَ بن واسع حسبتُ أن وجْهَهُ وَجْه ثكلى»(٤).

ويقول مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ اللهُ: «لو أتاني آتٍ من ربي فخيرني بين أن يُخبرني أفي الجنة أنا أم في النار، وبَيْنَ أن أصِيرَ تُرَابًا لاخْتَرْتُ أن أصير ترابًا»(٥).

وهو الذي يقول: «لقد كاد خوف النار أن يحول بيني وبين أن أسأل ربي الجنة»(٦).

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ(٧):

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

وقد وَصَفَهم رَحِمَهُ اللهُ بقوله(٨):

وَمَا فُرُشُهُمْ إِلَّا أَيَامِنُ أُزْرِهِمْ ... وَمَا وُسْدُهُمْ إِلَّا مُلَاءٌ وَأَذْرُعُ
وَمَا لَيْلُهُمْ فِيهِنَّ إِلَّا تَخَوُّفٌ ... وَمَا نَوْمُهُمْ إِلَّا عِشَاشٌ مُرَوَّعُ

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٩ ـ ٣٢٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤١٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٦) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ٤١٣).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «المتمنين» (٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨٨٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٠١) واللفظ لهما.

(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان (٢/ ٨١)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٣٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٠٢).

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٨٣).

وَأَلْـوَانُـهُـمْ صُـفْـرٌ كَـأَنَّ وُجُـوهَـهُـمْ عَـلَـيْـهَـا جِـسَـادٌ هِـيَ بِـالْـوَرْسِ مُـشْـبَـعُ
نَوَاحِلُ قَدْ أَزْرَى بِهَا الجَهْدُ والسُّرَى إِلَى اللَّهِ فِي الظَّلْمَاءِ وَالنَّاسُ هُجَّعُ
وَيَـبْـكُـونَ أَحْـيَـانًـا كَـأَنَّ عَـجِـيـجَـهُـمْ إِذَا نَـوَّمَ الـنَّـاسَ الـحَـنِـيـنُ الـمُـرَجَّـعُ
وَمَـجْـلِـسُ ذِكْـرٍ فِـيـهِـمُ قَـدْ شَـهِـدْتُـهُ وَأَعْـيُـنُـهُـمْ مِـنْ رَهْـبَـةِ الـلَّـهِ تَـدْمَـعُ

وبعدُ، فَهَذِهِ بعض أخبار سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم في خَوْفِهِمْ مِن الله ﷻ، مع شِدَّةِ اجتهادهم في العمل. فأَينَ نحن من هؤلاء؟! فينبغي أن يَعْرِض العاقل نَفْسه على حالهم، وأن ينظر في تقصيره، ولعله أن يَسْتَدْرِك بعض ذلك، وأن يَصِل إلى شيء من حالهم.

أما القَسْوة المُسْتَدِيمة، والغفْلَة التَّامَّة التي نَعِيشها، ونزعم أننا على الصراط المستقيم، وأننا على الجادَّة، فإن هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر ومُراجعة، فإن اتباعهم ليس بمجرَّد الدعوى، إنما هو بالاقتداء بهم حقيقه، في القول، والاعتقاد، والعمل، والأخلاق، والسلوك.

فهكذا ينبغي أن نكون، أما أنْ تَمُرَّ على الواحد منا السَّنَة والسَّنَتَان وهو لم تَدْمَع له عين، ولم يَرِق له قلب، وإن بكى فإنما يبكي على سبيل الموافَقَة، فهذا أمرٌ لا شَكَّ أنه يَسْتَدْعِي النَّظَر، ويَسْتَدْعي من العبد توبة نصوحًا.

لقد أشغلنا فضول الكلام، والقيل والقال، والوَقِيعَة في أعراض الناس عن النَّظَرِ في أحوالنا، وما عليه قلوبنا من الشدة والقساوة. فمِنْ أَيْنَ لَنَا بالخشوع؟! ومن أَيْنَ لنا برقة القلب ونحن سادرون في غفلة كبيرة؟! قد شغلتنا الحياة الدنيا وزينتها عن التبصُّر في أمر الآخرة، والله ﷻ يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

هذا ما أردت ذكره في موضوع الخوف، والله أعلم

الحادي عشر

الصَّبْر

توطئة

يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤]، فالإنسان يخرج من بطن أمّه باكيًا، يُعَانِي آلَام الولادة، ثم بعد ذلك يخرج إلى هذه الدار؛ بِحَرِّها وبَرْدِهَا، وما يصيبه فيها من آلام وأمراض، وأوجاع وأسقام، وما يلمّ به من جوع، وفقر، وحاجات، ومصائب يتقلَّب فِيهَا صباحَ مساءَ، يُكابِدُ في كل شيء، كما يكابد لإقامة طاعة الله ﷻ، فذلك يتطلب مجاهدة كبيرة.

كما يجاهد الإنسان داعي النَّفْس إلى الإخلاد والكَسَل، ويجاهد أيضًا في التخلُّص من شهواته وأهوائه.

والإنسان أيضًا بحاجة إلى مكابَدَةٍ وصَبْرٍ عظيم لمواجهة ما يقع عليه من المصائب والآلام التي تنزل بعَامَّةِ الناس، أو تنزل به على وجه الخصوص؛ فقَدْ يخْسَرُ ماله كله أو بعضه، وقد يُصاب هو، أو يُصَاب عزيزٌ له بمرض يَعْجز الأطباء عن عِلَاجِهِ، وقد يكون سماع اسم المرض وحْدَه كافيًا في بيان حَجْمِ المصيبة التي تنزل بأهل هذا المريض، وقد يخرج سليمًا معافًى من بيته، وفي لحظة يُصيبُه قدَرُهُ المحْتُوم، فإذا به مُتَشَحِّط في دَمِهِ وسط الطريق، هالك في الهالكين.

وقد تخرج الأسرة بكاملها وهي في غَمْرَة الفَرَح والسرور والبهجة للتنزّه والترفّه أو لغير ذلك، ثم يَفْجَؤُهم ما يَفْجَؤُهم من البلاء، فإذا هم من بعد الفَرَح والسرور قد صاروا على الضد من ذلك.

فكل هذا يحتاج إلى صبر ورَبَاطَة جَأْش، ويحتاج إلى شيء مِنَ المُكَابَدَةِ من أجل حَمْل النَّفْس على لَوْن من الثبات، حتى لا تجزع.

وربما أسَاءَ إليه أقرب قريب، وربما سمع كلامًا يؤذيه، وربما رُمِيَت المرأة في عِرْضها جَوْرًا وظلمًا، وقد يسمع الرجل من امرأته كلامًا يجرحه أو العكس، وقد يواجه الإنسان عقوقًا من ولده، أو ظلمًا من والِدِهِ ويتألّم لذلك غاية الألم، إلى غير ذلك مِنَ البَلَاءِ الذي يحتاج إلى صبر.

فالمصائب والآلام محيطة بالإنسان من كل جانب، وهذه طبيعة هذه الحياة، ومَنْ

ظَنَّ أن هذه الحياة دار يَسْتَرْوِح الإنسان فيها، ويَجِد بغيته من السعادة والهناءة فهو واهم لا محالة.

ثم إن جميع المطالب العالية، والمقاصد السامية؛ من تحقيق إنجازات علميّة، أو تحصيل ربح، أو نجاح في عمل، أو تربية ولد، ونحو ذلك؛ لا تُنال إلا بالصبر.

فنحن بحاجة إلى طَرْحِ مِثْلِ هذا الموضوع، وتذكير النفوس بهذه القضايا التي يُحتاج إليها؛ حينما ينزل المكروه، أو حينما تتطلع النَّفْس إلى معالي الأمور.

فالصبر «خُلُق فاضل من أخلاق النَّفْسِ يمنع صاحبه مِنْ فِعْلِ مَا لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل، وهو نوع مِنْ قُوَى النَّفْسِ الَّتِي بها صلاح شأنها، وقِوام أمْرِهَا»[1]، وهذه القوة تمكِّن الإنسان من تحمُّل المَشَاق والمَتَاعب والآلام، وهذه الخاصية هي خاصية الإنسان، ولا تُتصوّر من البهائم؛ لنقصها، وتَغَلُّب الشهوات عليها، كما أنه لا يُوصف بها الملائكة الكرام؛ لما جَبَلَهم وفطَرَهُم الله ﷻ عليه من الكمالات: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

أما الإنسان فيخرج من بطن أمه في أول أمره كالبهِيمَةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، لا رغبة له إلا في الاغتذاء والنوم، ثم مَا يَلْبَثُ أن تظهر فيه شهوة أخرى؛ وهي شهوة اللَّعِب والزينة، ثم بعد ذلك شهوة النكاح، فإذا تحرَّك العقل، وقَوِي ظهرت عليه إشراقات أنوار الهداية عند سن التمييز، وينمو على التَّدَرّج إلى سن البلوغ، إلا أن طَبْعه يحمله على ما يُحِب ويهْوَى، وباعث الشرع والعقل يمنعه من كثير من ذلك، والحرب بينهما قائمة، وهو بِحَسَب ما غلب عليه، فهو في معركة وصِراع مرير؛ تارة يغلب عليه هذا، وتارة يغلب عليه هذا، والميدان هو أشْرَف عضو فيه؛ وهو القلب، والصبر عِبَارَة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات. فهذه الخاصية وهذا الصّراع لا يُوجَد إلا عند الإنسان.

وقد قيل: «الصَّبْر شجاعة النَّفْس، ومن ها هنا أخذ القائل قوله: الشَّجَاعَةُ صَبْر ساعة»[2].

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩) بتصرُّف يسير.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٨).

معنى الصبر وحقيقته

الصبر في اللغة(١):

«مأخوذ من الحَبْسِ والمَنْع، فهو حبس النَّفْس عن الجَزَع، واللّسان عن التشَكِّي، والجوارح عن لَطْم الخدود، وشقِّ الثياب، ونحو ذلك»(٢)، بل هو حَبْس النَّفْس عن الخروج عن مُرَاد الإنسان إلى ما تَهْوَاه نَفْسه من الدَّعَة والرَّاحة.

وقيل: «أصْلُ الكلمة من الشِّدَّةِ والقُوَّةِ، ومنه: الصَّبِر، للدواء المعروف؛ لشدة مَرَارته وكراهته»(٣).

قال الأصمعي: «إذا لَقِيَ الرَّجُل الشِّدَّةَ بِكَمَالِهَا قيل: لقيها بأصبارها»(٤).

وقيل: «مأخُوذ مِنَ الجَمْع وَالضَّمِّ، فالصَّابِر يجْمَع نَفْسه، ويضمّها عن الهَلَع والجَزَع، ومنه صُبْرة الطعام»(٥).

وأما الصبر في معناه الشرعي:

فيمكن أن يُقال: إن هذه المعاني السابقة جميعًا متحقِّقة في الصبر، فهو حبسٌ للنفس وفِطَام لها عن مشتهياتها، ودواعيها التي تدعوها إلى المَيْل مع الشهوات، والملذّات، والرَّاحَة، والكسل، والإخلاد إلى الأرض، وهو أيضًا مُرّ المذاق، قال الله ﷻ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]، فإن الصبر لما كان فيه من الخشونة والضِّيق على نَفْس الصابر عَوَّضَهم الله ﷻ بالجَنَّةِ التي فيها البرودة والسَّعَة بَدَلًا من الصبر وضيقه، وعَوَّضهم بالحرير لما فيه من النعومة في مقابل خشونة الصبر؛ والقول باجتماع تلك المعاني فيه هو اختيار الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى(٦).

والله ﷻ يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٣/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، مادة: (صبر)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٧١ - ٢٧٣)، مادة: (صبر).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٥).

(٣) المصدر السابق (ص١٦).

(٤) المصدر السابق (ص١٦).

(٥) المصدر السابق (ص١٦).

(٦) انظر: «حادي الأرواح» (١/ ٣٩٣)، و«روضة المحبين» (ص٦٤١). وراجع: «جامع الرسائل» (١/ ٧٣).

[الكهف: ٢٨]، وذلك بحَمْلِها على الجلوس معهم، وإنْ كانت تُنازع أحيانًا إلى أمور أخرى. وهذا وإن كان مُوَجّهًا إلى النبي ﷺ، إلا أن الأمَّة تُخاطَب في شَخْص قائدها، وقُدْوَتِها، ومُقَدَّمها، وكبيرِهَا عليه الصلاة والسلام.

ويُقَابِل الصَّبْر: الجَزع، وقد جمع الله ﷻ بينهما، فقال عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: ٢١]، فهو حبس للنَّفْس عن الجَزَع إن كان ذلك في الأمور المُؤْلِمة والمصائب، وهو معنى قول مَنْ قال: «هو الإمساك في ضيق»[١]، بمعنى: أنَّ الإنْسَان إذا كان مُقِيمًا على أمر يَسْتَرْوِحُ فِيهِ، ويَجِد فيه لذَّته لا يُقَال: هو صابر عليه، وإنما يُقال ذلك إذا كان يُكَابِد عَناءً في الإقامة على هذا العمل كما هو معلوم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر: مَنْع النَّفْس مَحَابَّها وكفُّها عن هواها»[٢].

وقيل: «الصبر: حَبْس النَّفْس عن الجَزَع، وحَبْس اللسان عن الشَّكْوَى، وحَبْس الجوارح عن كل فِعْلٍ مُحَرَّم؛ كلطْم الخُدود، وشَقّ الجيوب، والدّعاء بالويل والثبور»[٣]، وهذا إنما يصلح في نوع من الصبر، وهو الصبر على المصائب.

ومن قائل بأنه: «حَبْس النَّفْس على مكروه، وعَقْل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغُصَص في تَحَمُّله، وانتظار الفَرَج عند عاقبته»[٤]، وهذا فيه تفصيل؛ فإن الشكوى لله ﷻ لا تنافي الصبر كما سيأتي، وإنما الذي قد ينافيه الشكوى إلى المخلوقين، وهذا يختص أيضًا بالصبر على البلاء؛ كما قال الحافظ ابن القيم[٥]، ولكن أوّله قد لا يختصّ بذلك؛ حيث إن حَبْسَ النَّفْس على المكروه قد يدخل فيه حبسها على الطاعة، وحبسها عن المعصية.

وقيل: «تجرُّع المَرَارَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبُّس»[٦].

وقيل: «الوقوف مع البلاء بحُسْن الأدَب»[٧].

وقيل: «المقام مع البلاء بحُسْنِ الصُّحْبَة كالمقام مَعَ الْعَافِيَةِ»[٨]، وهذا كله في الصبر على البلاء.

---

(١) قاله الراغب في «مفردات القرآن» (ص٢٧٣). (٢) كما في «جامع البيان» (٢/ ١١).

(٣) «عدة الصابرين» (ص١٥) بتصرُّف. وراجع: «الوابل الصيب» (ص٦)، «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).

(٤) «طريق الهجرتين» (ص٢٦٤). (٥) انظر: «عدة الصابرين» (ص٦٣).

(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨). (٧) المصدر السابق

(٨) المصدر السابق

وقيل: «هو حَبْس النَّفس على ما أُمِرَتْ بِهِ مِنْ مكابدة الطاعات، والصبر على البلاء وأنواع الضرر في غير معصية»[١].

ومِنْ أوْسَعِ مَا قِيلَ في معناه ومِنْ أحْسَنِهِ أنه: «حَبْس النَّفْس على ما يقتضيه العقل والشرع»[٢].

وعرَّفَهُ بعضهم بأنه: «التباعد من المخلفات، والسّكون عن تَجَرُّع غُصَصِ البَلِيَّةِ، وإظهار الغِنَى عند حلول الفقر بساحات المعيشة»[٣].

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر: القُوَّة على مقاومة الآلام والأهوال»[٤]. اهـ.

وقال غيره: «حَبْس النَّفْس على طاعة الله؛ بالمحافظة عليها دومًا، ورعايتها إخلاصًا، وتحسينها عِلْمًا»[٥].

وقيل: «هو كفّ النَّفْس عن المعاصي، وثباتها في مقابلة الشهوات ومقاومة الهوى، مع الرضا بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقَدَرِهِ».

وكان سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ثلاث من الصبر: لا تُحَدِّث بمصيبَتِكَ، ولا بوجعك، ولا تُزَكِّ نفسك»[٦].

وقال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مِنْ إجْلَالِ الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعَكَ، ولا تذكر مصيبتك»[٧]؛ ولهذا فسَّرَه بعضهم بترك الشكوى[٨]. وهذا إنما يكون في المصائب فحسب.

والصبر نوعان: صبر محمود، وصبر مذموم، ويجمع هذين النوعين أنه حَبْسُ النَّفْس على مُرَاد صاحبها ومُبْتَغَاهُ، وإن خالف ما تطمع إليه نَفْسه، وتميل إليه من الهوى والدَّعَة والسكون إلى الراحة، فيدخل في هذا الصبر المحمود والصبر المذموم.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «مفردات القرآن» للراغب (ص٢٧٣).
(٣) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٣).
(٤) «فيض القدير» (٦/ ٢٨٨).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٦) بتصرُّف.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٩)، ومن طريقه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ٥٨٥ - ٥٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٩) عن سفيان الثوري، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٤٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٦٩) من كلام أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بنحوه.
(٧) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٧٣)، وقد روي مرفوعًا، ذكره السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٦/ ٣٥٩)، قال العراقي في «تخريج الإحياء» (ص١٠١٧): «لم أجده مرفوعًا».
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١).

وحقيقة الصبر: أنه خُلُقٌ فاضل، يحمل صاحبه على ما يحسن ويجمل، وهو قوَّة من قُوَى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها[١].

وهذه القُوَّة تُمَكّن الإنسان من ضبط نَفْسه لتحمُّلِ المَتَاعب والمَشَاق والآلام، فيفعل المأمور، ويجتنب المحظور، ويصبر على المقدور.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٩).

أسماء الصبر(١)

تتنوع أسماء الصبر بَحَسَب مُتَعَلَّقِهِ، فإذا ارتبط بجانب من الجوانب كان له اسم يخصه، **فمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا**:

إذا كان الصبر بحبس النَّفْس عن شهوة الفَرْج المحرَّمة؛ فإنَّه يُقال له: العِفَّة، وضدّها الزِّنَا والفُجُور والعُهْر.

وإن كان حَبْسُهَا عن شهوة البطن، وعدم التسرّع إلى الطعام، أو عن تناول ما لا يجمل منه؛ قيل له: شِبَع النَّفْس، وشَرَف النَّفْس، وضده الشَّرَه، والدَّنَاءة، ووضَاعَة النَّفْس.

وإن كان حَبْس النَّفْس عن الثَّرْثَرَة، والكلام الكثير، الذي لا يَجْمُل، ولا يَحْسُن أن يتكلَّم بِهِ الإنسان؛ سُمِّيَ: كِتْمَان السِّر، وضدّه إذاعةً، وإفشاء، أو تهمة، أو فُحْشًا إن كان سبًّا أو كذبًا أو قذفًا.

وإن كان عن فضول العيش والتَّوسُّع سُمِّيَ: زُهْدًا، وضده حِرْصًا.

وإن كان على قَدْر يكفِي من الدنيا سُمِّيَ: قناعة، وضدّها الحِرْص.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمِّي: حِلْمًا، وضده تَسَرّعًا.

وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمِّيَ: وقارًا وثباتًا، وضده طَيْشًا وخِفَّة.

وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهَرَب سُمِّيَ: شجَاعَة، وضده جُبْنًا وخَوَرًا.

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمِّيَ: عفوًا وصَفْحًا، وضده انتقامًا وعقوبة.

وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي: جودًا، وضده بُخْلًا.

وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمِّيَ: صومًا.

وإن كان عن إجابة داعي العَجْز والكسل سُمِّيَ: كَيْسًا.

وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلّ(٢) على الناس، وعدم حَمْل كَلّهم(٣)؛ سُمِّيَ: مروءة.

فله عند كل فعل وترك اسم يخصّه بحسب مُتَعَلّقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر، وهذا يدل على ارتباط مقامات الدِّين كلها بالصبر؛ مِنْ أَوَّلِهَا إلى آخِرِهَا.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٢٨ ـ ٣٠).

(٢) هكذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: الكُلَف.

(٣) هكذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: كُلَفِهم.

الفروقات في باب الصبر

أولًا: الفرق بين الصبر، والتَّصبر، والاصطبار، والمصابرة، والمرابطة:

أمرنا الله ﷻ بالصبر، والمصابرة، والمرابطة، والاصطبار، والتصبر، وبين هذه الألفاظ فروق دقيقة، وهي تتفاوت «بحَسَب حال العبد في نَفْسه، وبحَسَب حاله مع غيره؛ فإن حَبَس نَفْسَه، ومنعها عن إجابة داعي ما لا يَحْسُن؛ إنْ كان ذلك خُلُقًا، وسَجِيَّة، ومَلَكة؛ سُمِّيَ: صَبْرًا، وإن كان بتكلّف، وتَمَرُّن، وتَجَرُّع لمرارته؛ سُمِّيَ: تَصَبّرًا. وهذا كالتَّحَلّم، والتَّشجّع، والتَّكَرُّم، والتَّحمُّل إذا تُكُلّف ذلك»[(١)].

وقيل: الصَّبْر: «ألا يُفَرِّق بين حال النعمة وحال المِحْنة، مع سكون الخاطر فيهما، والتصبّر: هو السكون مع البلاء، مع وِجْدان أثقال المحنة»[(٢)].

وعلى ذلك فالصبر أرْفَع مِنَ التَّصَبّر.

«**وأما الاصطبار**: فهو أبلغ من التَّصَبُّر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتَّصَبُّر مَبْدَأ الاصطبار، كما أن التَّكَسُّب مُقدِّمَة الاكتساب، فلا يزال التَّصبر يتكرَّر حتى يصير اصطبارًا.

وأمَّا المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مُفاعلة، تستدعي وقوعها بين اثنين؛ كالمشاتمة والمضاربة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم بهذه الأحوال كلها، فقد يصبر العبد ولا يُصابِر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر، ويصابر، ويرابط من غير تعبّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن مِلَاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها...

والمرابطة كما أنها لزوم الثَّغْر الذي يُخاف هجوم العدوّ منه في الظاهر، فهي لزوم ثَغْر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان، فيُزيلُه عن مَمْلَكته»[(٣)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣١ ـ ٣٤) بتصرُّف واختصار.
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣٣ ـ ٣٤) بتصرُّف يسير.

ثانيًا: الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام:

«كل إنسان لا بد له أن يصبر إمَّا اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا؛ وذلك لعلمه بِحُسْن عاقبة الصبر. وأما اللئيم فيصبر اضطرارًا، واللئام أَصْبَر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم، وأَقَل الناس صبرًا في طاعة ربهم؛ يصبر اللئيم على تحمّل المشاق لهوى نَفْسه، وفي مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة رَبِّهِ، فالكريم يصبر في طاعة الرحمٰن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان»[1].

وقد قال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوّ البهائم»[2].

فالمصيبة واقعة لا محالة، وعادة الله في خلقه قاضية في آخر الأمر بالسُّلُوّ والنسيان، ولولا ذلك لما استمرت الحياة، ولما هَنَأَ أحد بعيشه، فالعاقل يصيب بقوة إيمانه وكرم سَجِيَّته مَحاسِنَ لطائف الله في خَلْقه عند وقوع المصائب، باستثمار بوادر الصبر والرضا، حتى يقع قضاء الله في خلقه في تلك المصيبة موقع الرضا والصبر الجميل، وهذا المقام وتلك المنزلة لا تُكْتَسَب بالقول والتعريف، وإنما تكتسب بقلب مؤمن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ثالثًا: الفرق بين الصبر، والصبر الجميل:

قالوا: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه لأحدٍ من المخْلُوقِينَ، ولا تُنَافِيه الشكوى إلى الله ﷻ.

أما الصَّبْرُ بمُجرَّدِهِ، فقد يكون معه شَكْوَى للمَخْلُوقِ، كأن يُصَاب أحدهم بمصيبة، فإذا جاءه أحد جعل يقول: أصابني كذا، وحصل لي كذا.

وهذا نوعان:

الأول: ما يُقْصَد به الشكاية، **وهي نوعان أيضًا:**

١ ـ نوعٌ تكون فيه الشَّكَاية إلى مَنْ يَرْجُو عنده علاجًا؛ كالمريض يُخْبِر الطبيب بشكاياته وآلامه.

٢ ـ ونوع تكون فيه الشَّكاية إلى مَنْ لَا حِيلَةَ عنده، ولا رجاء في الشكوى إليه.

والثاني: ما يُقْصَد به مُجَرَّد الإخبَار، أصابني كذا، فذَهَبْتُ إلى المستشفى، فعملوا لي تحاليل كذا كذا، وفعلوا كذا وكذا. فهذا ليس من الشَّكْوَى، ولا يكون نقصًا في مرتبة العبد إن تَعَلَّق به مصلحة.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٩٤) بتصرُّف واختصار.

(٢) «تسلية أهل المصائب» (٢٩).

والصبر الجميل ألا يتكلَّم بعِلَّتِهِ، وإذا سُئِلَ عن حاله قال: أنا بخير، والحمد لله، ونحو ذلك.

أمَّا ما يقع فيه كثير من الناس؛ كلما زاره زَائِر جعل يقصّ عليه أمره مُفَصَّلًا من أوَّلِهِ إلى آخره، فهو وإن كان في غالب أحواله ليس من الشكوى، لكنه قد يُنْقِصُ الأجر، فعلى الإنسان أن يجتنب ذلك، وليَتَحَلّ بالصبر، والله قد وعد الصابرين وعدًا حسنًا فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وقد قال نبي الله يعقوب ﷺ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ورسول الله إذا وعد وفَّى، ثم حمله الوَجْد على يوسف والشوق إليه أنْ قَال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فلم يكن عدم صبره عنه مُنافيًا لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فإنه لما جاء يشكو إنما شكا إلى الله وحده فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

«وأما قول بعضهم: «إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى مَن هو» فهذا من الصبر الجميل، لا أنَّ مَنْ فقده فقَدَ الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه»(١).

إنما الشأن فيمَنْ يتَكَلَّم ويشكو، ويتغير حاله بالمصيبة للأسوأ، ويبكي بكاءً شديدًا يُخرِجُه عن حَدّ الصبر في مثل ذلك، ونحو هذه الأمور.

وأما أصحاب المنازل العالية، فإنهم يتركون حتى الأنين في شدة المرض، إلا أن يغلبهم فلا يستطيعون دفْعَه.

«فقد ذُكِرَ عند الإمام أحمد رحمه الله ـ لما كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتّى مَاتَ(٢).

وذلك أن المشتكي طالِب بلسان الحال: إما إزالة ما يضره، أو حصول ما ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خَلْقه»(٣).

«ولا بد للإنسان من شيئين: طاعة الله بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. فالأول هو التقوى، والثاني هو الصبر.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٩٢ ـ ٩٣).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٧) بتصرُّف.

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقال جلَّ في علاه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]»[1].

رابعًا: الفرق بين الصبر، والعزم على الصبر:

كثير من الناس مَنْ يَعْزِم على أنواع من الطاعات متى آن أوانها قبل أوانها، ومنهم من يوطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى الرِّضَا قَبْل وقوع البلاء، فإذا آن أَوَانُ الطَّاعَاتِ، أو حَلَّ وقوع البلاء انْفَسَخَت عزائمهم.

وتجد من يقول: لو أنَّ لِي من المال كذا وكذا لأنفقتُ في سبيل الله، ولفعلتُ كذا وكذا. وآخر يقول: لو قامت الحرب ليرينَّ الله مني ما يحب. وهَذَا عزم على الصبر، فإذا جاء أمر الله تبيّن من يصبر ومن لا يصبر.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

وهذه الآية نزلت لما قالوا: «لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله لَعَمِلْنَا»[2]. فأنزل الله آية الجهاد فكَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ.

ولهذا كُرِه للمَرْء أن يتعَرَّض للبلاء، بأن يطلب ولاية، أو يَقْدَم على بلد فيه طاعون، وأمثال ذلك.

والواجب على الإنسان إذا ابْتُلِيَ أنْ يَصْبر، وَيَثْبت، وإذا كان في عافية فَلْيسأل الله تمامها عليه.

وقد قال النبي ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ»[3].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) وغيرها، باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩)، وصحّحه ابن حبان (٤٥٩٤)، والحاكم(٢/ ٦٩)، وابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٢٠)؛ إذ قال: «إسناده صحيح، قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله»، والألباني في «صحيح الموارد» (١٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) عن ابن أبي أوفى ﷺ.

وقال ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»[١].

ولهذا كره النبي ﷺ النذر، ونهى عنه[٢].

خامسًا: الفرق بين الصبر والقسوة:

الصبر: خُلُق كسْبِي يتخلَّق به العبد، وهو حَبْس النَّفْس عن الجَزَع والهَلَع والتَّشكِّي، وهو ثبات القلب على الأحكام القَدَرِيَّة والشرعية. وقد تقدَّمَ بيان ذلك.

وأما القَسْوة: فيُبْسٌ في القلب يمنعه من الانفِعَال، وغِلْظةٌ تمنعه من التأثر بالنَّوَازِل، فلا يتأثر لغِلْظته وقَسْوَتِهِ، لا لصبره واحتماله»[٣].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة ﷺ، وحكم أبو حاتم بنكارته كما في «العلل» (١٣٨)، وصحَّحه الترمذي كما في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٤)، وفي المطبوع: «حسن غريب»، وصحَّحه الهَيْثَمِيّ في «المجمع» (٧/ ٢٧٤)، والعراقي في «تخريج الإحياء»، كما نقله الزّبيدي في «الإتحاف» (١/ ٣٣)، والألباني في «الصحيحة» (٦١٣)، وحسَّنه ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الروح» (٢/ ٧١٦) بتصرُّف يسير.

منزلة الصبر

قال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر جِمَاع الأمر، ونظام الحَزْم، ودَعامة العقل، وبَذْر الخير، وحِيلَة مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ»[1]. اهـ. وقد ذكره الله ﷻ في القرآن عشَرات المرَّات كما سيأتي، وذلك يدلُّ على شدة طَلَب الشرع له، وقيمته، وقدره، وأنه لا غنى للعبد عنه بحال. وقد قرنه الله ﷻ بالصلاة، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله في هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآية [غافر: ٥٥]؛ وذلك أن الاستعانة بهذين الأمرين يُسَهّل على الإنسان القيام بسائر الطاعات، وكفّ النَّفس عن سائر المعاصي؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أَوْجَبِ الصبر فَطْم النَّفْس عن أهوائها.

والعبد في الطاعات محتاجٌ إلى الصبر ليأتي بما أمر الله به، ويَثْبُت عليه، وإنك لتجد الرجل في بادئ أمره يُسَارِع في الخيرات، فإذا طال به العهد، ونازَعَتْه نَفْسه إلى شهواتها ومألوفاتها؛ ترك ما هنالك ممَّا كان سارع إليه.

والعبد في باب المعصية مُحتاج إلى الصبر ابتداءً لا يفارقها، فإذا واقعها، ثم تاب احتاج إلى الصبر حتى تصحّ توبته، ولا ينتقض عَزْمه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته؛ فهو ظاهر لكلِّ أحَدٍ أَنَّهُمَا من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه؛ فإنَّ الإيمان كله صبر على ما يحبه ويرضاه، ويقرّب إليه، وصبر عن محارم الله؛ فإن الدِّين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نَهْيِهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم، ولكن خُصَّ بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به؛ فإنَّ العَبْدَ متى عَلِمَ أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم

(١) «روضة العقلاء» (ص١٦١).

الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رَضِي بقضاء الله، وَسَلَّمَ لأمره، وصَبَر على المكاره تقرّبًا إلى الله، ورجاءً لثوابه، وخوْفًا مِنْ عقابه، واغتنامًا لأفضل الأخلاق؛ فاطمأن قلبه، وقَوِيَ إيمانه وتوحيده»[١]. اهـ. وقد قال النبي ﷺ: **«ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»**[٢].

وقال عمر ؓ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[٣].

وقال: «إن أفضل عيش أدْرَكْنَاهُ بالصَّبْرِ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا»[٤].

وقال عليّ ؓ: «الصَّبْر مطيَّة لا تكبو»[٥].

وقال الحسن رحمه الله: «الصبر كَنزٌ من كنوز الخَيْرِ، لا يُعْطِيهِ الله إلا لعبد كريم عليه»[٦].

والعبد في كافة أنواع البر محتاجٌ إلى الصبر، وخاصة في أوَّل أمره؛ لأنه يحتاج إلى مجاهدة النَفْس حينما يريدها أن تخرج عن مألوفاتها، أو تترك بعض شهواتها، فلا يزال يُرَوِّضها بالصبر، ويُرَغِّبها في موعود الله حتى تلين.

ومن الناس من لا يزال على حاله من الترويض، ومعالجة النَّفْس حتى يصير ما كان شاقًّا عليها أحب شيء إليها، بحيث لا تستطيع مفارقته، ولا تحتمل البعد عنه.

وإنما أَوَّلُ المسَاعِي في ذلك وغيره بالصبر.

وقد قال ثابت البُنَاني رحمه الله: «كابَدْتُ الصَّلَاةَ عِشْرين سنة، وتنعَّمْتُ بها عشرين سنة»[٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «والنَّفْس مطيَّة العبد التي يسير عليها إلى الجنَّة أو النار،

---

(١) «القول السديد» (ص٢١٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد ؓ.
(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا (٤/ ٢٣٩)، ووصله ابن المبارك في «الزهد» (٢٢٢)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (ص١١٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٠)، وابن أبي الدنيا في «الصبر» (٤٧)، وصحح ابن حجر إسناده في «الفتح» (١١/ ٣٠٩).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٦)، وقد روي مرفوعًا، ولا يثبت. أخرجه أبو نعيم (٨/ ٢٩٠) وضعفه، وأعله ابن الجوزي في «العلل» (١٤٥٤)، وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٣). راجع: «الضعيفة» (٣٨٨٩).
(٥) عزاه القشيري إليه في «رسالته» (١/ ٣٢٤).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٦).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢١).

والصبر لها بمنزلة الخِطَام والزِّمَام للمطيَّة، فإن لم يكن للمطية خِطَام ولا زمام شردت في كل مذهب.

وحُفِظ مِن خُطَب الحَجَّاج: «اقْدَعُوا هذه النفوس؛ فإنها طُلَعَة إلى كل سوء، فرَحِم الله امرءًا جعل لنَفْسه خِطامًا وزمامًا، فقادها بخِطَامِها إلى طاعة الله، وصرفها بزِمامِها عن معاصي الله؛ فإن الصبر عن محَارِمِ الله أيْسَرُ من الصبر على عذابه»[1]»[2]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «فمتى فقَدْتَ الصبر واليقين كنت كمَنْ أرَادَ السَّفَرَ في البحر في غير مَرْكب»[3]. اهـ.

وقد قيل[4]:

فَالصَّبْرُ طِلَّسْمٌ عَلَى كَنْزِ الْعُلَا ... مَنْ حَلَّ ذَا الطِّلَّسْمَ فَازَ بِكَنْزِهِ

ولهذا جاء عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وإذا ذَهَبَ الرأس ذهب الإيمان»[5].

ويقول إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما مِنْ عَبْدٍ وهَبَهُ الله صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبرًا على المصائب إلا وقد أوتي فضلًا ما أُوتِيه أحد بعد الإيمان بالله»[6].

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنْعَمَ الله على عبد نِعْمَةً فانْتَزَعَهَا منه، فعَاضَهُ مكان ما انْتَزَع منه الصَّبْر، إلا كان ما عَوَّضَه خيرًا مما انْتُزِع منه»[7].

وقال سليمان بن القاسم: «كل عمل يُعْرَفُ ثوابه إلا الصبر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر»[8].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر أوَّلُ منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ١٤٣) مختصرًا.

(٢) «عدة الصابرين» (ص٢٥ ـ ٢٦).

(٣) «الفوائد» (ص٢٢٠).

(٤) «زاد المعاد» (٤/ ٣٠٥)، و«الفوائد» (ص٤٢، ١١٢).

(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» (١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥ ـ ٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠) واللفظ له، موقوفًا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد روي مرفوعًا، ولكن لا يثبت، كما قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٢)، والألباني في «الضعيفة» (٣٩٣).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٢) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٥).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٠).

فإن صاحب الرضا والشكر لا يُعدَم الصَّبْر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يَتَحَقَّقُ الرِّضَا والشكر، لا تَصَوُّر ولا تَحقُّق لهما بدونه»[١]. اهـ.

ولا يزال العبد يصبر، ويَتَّقِي، ويَرْتَقِي حَتَّى يَصِلَ إِلَى المَنَازِلِ العاليات، وأعالي الدرجات، وهو في ذلك كله يُلَازِمُهُ الصَّبْر، باعتباره منزلة ومَرْحَلَة كمراحل السفر بالأبدان، والتي كُلَّمَا انْقَطَعَتْ مَرْحَلة خلَّفَها وراء ظهره، واستقبل الأخرى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل هذا كمنزلة التاجر الذي كُلَّمَا بَاعَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، وربح فيه، ثم باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا، وهكذا أبدًا يكون ربحه في كل صفقة مُتضاعِفًا بانضمامه إلى ما قبله، فالرِّبْحُ الأول انْدَرَجَ في الثاني ولم يُعْدَمْ»[٢]. اهـ.

وهكذا الأعمال القلبية، فحينما يصل العبد إلى حالة مُرْضِيَة إنما يكون ذلك بِتَرَقِّي المجموع، لا باعتبار الوحدة، ومثل ذلك العِلْم، فالعالِمُ عالِمٌ باعتبار مجموع علومه.

وهكذا مستوى الإنسان التربوي، فإنه يُحَصِّله بمجموع أمور ينتج عنها ما ينطوي في نَفْسه مِنْ أخْلَاقٍ، ومُثُل، وأعمال، وهِمَّة عالِيَة، وإرادةٍ للخير، ومجافاةٍ ومباعدَةٍ عن الشر والباطل والمنكر، إضَافَةً إلى ما يحْصُل من جَرَّاء ذلك من العمل في الخارج بطاعة الله وترك معاصيه، وبِهَذا يَتَفَاضَل الناس، فتجد هذا إذا رأيته ذكرت الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا رأيت الآخر استعذْتَ بالله مِنْ شَرِّهِ، فالصَّبْر بجميع أقسامه أصلُ مَقَامَات الإيمان وأجلّها، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه.

و«الخاصَّة أحوج إليه من العامَّة»[٣].

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر نِصْف الإيمان»[٤].

وإذا اعتبر العبد الدِّين كله رآه يرجع بجُمْلَتِه إلى الصبر والشكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [إبراهيم: ٥].

«وقد ذُكِر لهذا التصنيف اعتبارات:

الأول: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فِعْل وتَرْك، فالفِعْلُ هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، والتَّرْكُ هُوَ الصَّبْرُ عن المعصية، والدِّينُ كلّه في هذين الشيئين: فِعْل المأمور، وتَرْك المحظور.

الثاني: أن النَّفْس لها قُوَّتَانِ: قوة الإقدام، وقوة الإحْجَام، وهي دائمًا تتَرَدَّدُ بين

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

(٣) من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٨).

(٤) تقدم تخريجه.

أحكام هاتين القوّتين، فتُقْدِم على ما تحبه، وتُحْجِم عمَّا تكْرَهه، والدِّين كله إقدام وإحجام؛ إقدام على طاعة، وإحْجَامٌ عن معاصي الله، وكلٌّ منهما لا يمكن حصوله إلا بالصَّبْرِ.

الثالث: أن الدِّين كله رغبة ورهبة، فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرَهْبَتُهُ تحْمِله على الصَّبْرِ، ورَغْبَتُهُ تقوده إلى الشكر.

الرابع: أن جميع ما يُبَاشِرُه العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدَّارَيْن، ويضرّه في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة، ويترك ما يضرّه فيها، وهو حقيقة الإيمان. ففعل ما ينفعه هو الشُّكْر، وتَرْك ما يضره هو الصبر.

الخامس: أن العبد لا ينفَكّ عن أمْرٍ يفْعَله، ونهي يتركه، وقَدَر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر؛ ففِعْل المأمور هو الشكر، وتَرْك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

السادس: أن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة، وما أُعِدَّ فيها لأوليائه من النعيم المقيم. فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

السابع: أن الدِّينَ مَدارُهُ على أصلين: العَزْم والثبات، وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قُوَّةُ الثبات.

الثامن: أن الدين مبنيٌّ علَى أصْلَيْنِ: الحق والصبر، وهما المذْكُورَان في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نَفْسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر، لم يمكنه ذلك إلَّا بالصَّبْرِ عليه، فكان الصبر نِصْف الإيمان. والله ﷻ أعلم»[(١)].

وهذه الأوجه ترجع إلى ما ذَكَره في الوجه الأول، كما لا يخفى على من تَدَبَّرَها.

وحاصل ذلك كله يدل على أهمية الصبر وعِظَم مرتبته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين. وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة. وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها. وحاجة المُحِب إليه ضرورية»[(٢)]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٠٥ ـ ٢٠٩). باختصار وتصرف.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٢).

وبالصبر يُعْلَم صحيح المحبَّة من معلولها، وصادقها من كاذبها، وبه يُعْرَفُ المُحِبّ الصَّادق من المُحِب الكاذب، فالمُحِب الصادق يصبر على التقرّب إلى الله بأنواع الطاعات والبَذْل، ولا يصدّه عن ذلك ما قد يتَعَرَّض له من أذى الناس وظلمهم؛ ولهذا «كانت محَبَّة أكثر الناس كاذبة؛ لأنَّهم ادَّعَوْا محبَّة الله، فحين امْتَحَنَهُمْ بالمكاره انْخَلَعُوا عن حقيقتها، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاق، وتَجَشّم المكاره بالصبر لمَا ثَبَتَتْ صِحَّة محبتهم، وبهذا تعْرِف أن أشد الناس محبة هم أشد الناس صبرًا؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ تَعَالى بالصبر خاصَّةَ أَوْلِيَائِه، فقال عن أيوب ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، وقد أثنى عليه بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وأمر أحب الخَلْق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وأثنى على الصابرين أحْسَنَ الثَّناء كما سيأتي، وضَمِن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب، وقَرَنَ الصَّبْرَ بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، فجعله قرين اليقين، والتوكّل، والإيمان، والأعمال، والتقوى، وأخْبَرَ أنَّ آيَاتِهِ إنما ينتفع بها أهل الصبر، وأن الصَّبْرَ خَيْر لأهله، وأنَّ الملائكة تُسَلِّم عليهم بصبرهم»(١): ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وحينما ذكر الله ﷻ جزاء المطيعين في الجنة ذَكَرَ صَبْرَهُمْ في الدنيا: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وهذا الذي أسلفوه في الأيام الخالية مبناه على الصبر.

والعبد في هذه الدنيا لا يخرُج عن أربعة أحوال: أمرٌ يجِبُ أن يَمْتَثِلَهُ، ونَهْيٌ يجب أن يكُفّ عنه، وقَدَرٌ يَجِبُ التسليم له، ونِعَمٌ يَجِبُ علَيْهِ الشكر فيها، وهذه الأحوال جميعًا تحتاج إلى الصبر.

فهو فيما يجب عليه يحتاج إلى الصبر، وفيما نُهِيَ عنه يحتاج إلى الصبر عنه، وفيما ابْتُلِيَ به يحتاج إلى الصبر فيه، وفيما أصَابَهُ من نِعْمَة الله يحتاج إلى الصبر أيضًا؛ لئلا يغْتَرَّ بها، فيحمله غروره على البَطَر والأشَر، ولئلّا يَنْهَمِك في تحصيلها، وطلب المزيد منها، ويبالغ في استقصائها، فتنقلب إلى أضدادها، إلى غير ذلك.

«والعبد فيما أُمِر به يحتاج إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أولًا: قبل الشروع في العمل؛ بتصحيح النية والإخلاص.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣) بتصرُّف.

ثانيًا: الصبر حال العمل، فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط.

ثالثًا: الصبر بعد الفراغ من العمل، **وذلك من وجوه**:

الأول: أن يُصَبِّر نفْسَهُ عن الإتيان بما يُبْطِلُ عمَلَهُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الثاني: أن يَصْبر عن رؤية العمل والعُجْب به.

الثالث: أن يصبر عن نقله من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية.

فلا يظنّ أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يُعين عليه قَطْع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقَطْع العوائد.

وأمَّا الصَّبْر على المصائب، فالمصائب نوعان:

الأول: ما لا صُنْع للعبد الآدميّ فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة الآدمي، كالسبِّ، والضَّرْبِ، والظلم.

فالنوع الأول للعبد فيه أربعة مقامات:

المقام الأول: **مقام العَجْز**، وهو مقام الجَزَع والشَّكوى والسَّخط، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: **مقام الصبر**.

المقام الثالث: **مقام الرضا**، وهو أعلى من مقام الصبر.

المقام الرابع: **مقام الشكر**، وهو أعلى من مقام الرّضا.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَل الناس، فلَهُ فيه هذه المقامات، **ويضاف إليها أربعة أُخر**.

الأول: مقام العفو والصَّفح.

والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفّي والانتقام.

الثالث: مقام شهود القَدَر، بأن ذلك بتقدير الله العزيز الحكيم.

الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء، ومقابلة إساءته بإحسانك»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١٤ ـ ١٢١) باختصار وتصرف.

فضل الصبر(١)

ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، ومن أهْل العِلم مَنْ أوْصَلَه إِلَى تِسْعِين موضعًا، وكثْرَة ذِكْره وتكراره يدل على منزلته وفضله ومكانته عند الله تبارك وتعالى، كما أضاف الله إليه أكثر الخيرات والدَّرَجات، وجَعَلَها ثمرة له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، والقُرُبَات - كما هو معلوم - قَدَّرَ الله ﷻ أُجُورها وثوابها إلا الصبر؛ ولهذا لما كان الصَّوْم من الصبر قال: «الصَّوْمُ لِي وأَنا أَجْزِي بِهِ»(٢)، فأضَافَهُ إلى نَفْسه مِنْ بين سائر العبادات، وممَّا يَدُلّ على فضله أيضًا أن الله ﷻ وَعَد الصابرين بمعيَّتِهِ فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]، وجَمَع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧](٣)، فذكر ثلاثة أشياء: الصلاة عليهم، والرَّحْمَة، والاهتداء، وصلاته تبارك وتعالى على الصابر هي ذِكْره في الملأ الأعلى، كما أن صلاته على العبد تدلّ على هدايته وعنايته به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقد بشَّر الله تبارك وتعالى أهل الصبر، وأعطاهم زيادة فوق البشارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧]، فجعل الاهتداء فوق الصلوات والرحمة، وقد قال عمر رضي الله عنه: «نِعْم العَدلان، ونِعْم العلاوة»(٤)؛ يعني بالعدْلَيْن: الصلوات والرحمة، والعلاوة: الاهتداء.

ومما يدلُّ على فضله أيضًا: أن الله أثنى على الصبر فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]، «أي: من الأمور التي يُعْزَم عليها، ويُنَافَس فيها، ولا يُوَفَّق لها إلا أهل العزائم والهِمَم العالية»(٥).

وأثْنَى على أيوب عليه السلام لعِظَم صبره فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٢٩) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١/ ١٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (٣٤٢).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧٠)، وعنه البيهقي في «الكبرى» (٤/ ٦٥).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (ص١٦٠).

[ص: ٤٤]؛ ولهذا قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «عدة الصابرين»: «فأطلق عليه نِعْمَ العبد؛ بكونه وجده صابرًا، وهذا يدل على أن مَنْ لَمْ يَصْبر إذا ابْتُلِي فإنَّه بِئْس العبد»[1]. اهـ.

وممَّا يَدُلُّ على فضله أيضًا: أن الله أمر به نبيَّه الكريم ﷺ كما أمر به إخوانه من النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، وحَثَّ نبيَّه ﷺ على التصَبُّر على ما يناله من أذى قومه، وذكَّرَهُ بأنه لا يستطيع الصَّبْرَ إلا بإعانة من الله ﷻ وتوفيقه، فقَالَ تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، فإنه لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يَحْصُل لِعَبْدٍ شَيء من الأمور التي يطلبها أو ينتفع بها إلا بتوفيق الله، وتيسيره، وهدايته.

ومما يَدُلّ على فضله أيضًا: أن التواصي بالصبر قرينُ الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]؛ لأنه لا يمكن أن يحقق العبد الإيمان، وأن يَسْلُك الصراط المستقيم الذي أمَرَهُ الله ﷻ بسلوكه إلا بالصبر، وقد لا يتمكَّن من الصبر إلا بالتَّوَاصِي عليه؛ لأنَّ النَّفْس قد تشغلها المصائب والهموم، وقد تُرْهقها الأعمال والتكاليف التي أُنِيطت بها، فيَحْتَاجُ إلى التذكير بين الحين والآخر حتى يبلغ العبد رحمة الله ﷻ، ويصل إلى مطلوبه.

وأيضًا: فالصبر خَصْلَة من خِصَالِ البِرِّ، وشُعْبَة مِنْ شُعَبِ الإيمَانِ بالله ﷻ، والله يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وممَّا يَدُلُّ أيضًا على فضله: ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيرًا وأوْسَعَ مِنَ الصَّبْر**»[2]، فإذا أُعْطِيَ العبد الصبر أعطي ما يدفعه، ويرفعه، ويثبته على الطريق حتى يبلغ بإذن الله.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبْرُ كَنْز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عنده»[3]؛ ولذلك فالذي يُقارِف ما يَخْطُر على ذِهْنِهِ من معصية الله ﷻ، ومما لا يليق،

---

(١) «عدة الصابرين» (ص١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٦).

إنما يفعل ذلك من قلَّةِ صَبْرِهِ، والذي يجزع إذا نزل به مكروه، ويفقد صوابه، إنَّمَا يقع منه ذلك لِقِلَّة صَبْرِهِ؛ ولذلك كان لبعض المتقدِّمِينَ رُقْعَة في جَيْبِهِ ينظر فيها بين الحين والآخر، فيها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨](١)، فكان يُذَكِّرُ نفْسَه بما أمر الله بها نبِيَّه مِن الصَّبر؛ لِيُثَبِّت نَفْسه على الحق، ويقَوِّي عزْمَهُ على العمل.

وقد وَصَفَ النبي ﷺ الصلاة بأنها نور، ووَصَفَ الصَّبْرَ بأنه ضياء(٢)، فالصلاة نور في قلبه، ووجْهِهِ، وقَبْرِهِ، وحشْرِهِ؛ ولذلك فكلَّما كان العبد أكثر صلاة كان وجهه أكثر إشراقًا؛ ولهذا قال بعض السلف: «من طال قيامه بالليل حَسُن وجهه بالنهار»(٣).

والصبر ضياء؛ أي: فيه نور، لكنه نور مع حرارة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فالضوء لا بد فيه من حرارة، وهكذا الصبر لا بد فيه من حرارة وتَعَب؛ لأنَّ فيه مشقَّة كبيرة؛ ولهذا كان أجره بغير حساب.

واعلم أن الصبر يشتمل على أكثر مكارم الأخلاق، فيدخل فيه الحلم؛ فإنه صبر على دواعي الانتقام عند الغضب، والأناة صبر على إجابة دواعي العَجَلة، والعفو والصَّفح صبر عن إجابة دواعي الانتقام، والجود والكرم صبر عن إجابة دواعي الإمساك، والكسب صبْر عن إجابة دواعي الكسل والخمول، والعدل صبر إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين، وسِعَة الصَّدْر صبر عن الضَّجَر، والكتمان وحفظ السر صبر عن إظهار ما لا يحسن إظهاره، والشجاعة صبْر عن إجابة دواعي الفرار.

وهذه هي التربية الحقيقية التي تسمو بالإنسان وتمنحه من التَّهْذِيب والرِّفْعَةِ وسُمُوّ النَّفْس على قدر ما يتحقَّق فيه من هذه المعاني، فيَكْمُل في شؤونه كلها، ويؤدّي الحقوق إلى أصحابها، ولا يصل أذاهُ إلى الناس، وما وصَل إليه من أذى الناس وظلمهم عفا عنه وصفح.

وهذا هو جهاد النَّفْس وترويضها على مكارم الأخلاق، وإلا فالإنسان من حيث هو ظلوم جهول كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وجماع الشر الجهل والظلم.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) روي مرفوعًا ولا يثبت؛ إذ أطبق أهل العلم على القول بوضعه، راجع: «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٦)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٩٣)، و«الكامل» لابن عدي (٢/ ٣٤١)، و«الموضوعات» للصغاني (٨٩)، و«الحاوي» (٢/ ١٤٦)، و«اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٣ - ٣٥)، و«المقاصد الحسنة» (١١٦٩)، و«الضعيفة» (٤٦٤٤)، وقد توارد العلماء على التمثيل بهذا الحديث فيمن وضع الحديث على سبيل الغلط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإنسان خُلِق ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه عدم العِلْم، وميْله إلى ما يَهْوَاه مِن الشَّرِّ»[١]. اهـ.

فلولا صَبْرُهُ على ترك ما يهواه، وغض الطَّرْف عمَّا يتَمَنَّاه؛ لنازعَتْهُ نفْسُهُ إلى فِعْل كُلِّ شرٍّ، وتَرْك كل خير. فالمعْصُومُ مَنْ عَصَمَه الله عَزَّ وَجَلَّ.

يقول الشاعر[٢]:

وَالصَّبْرُ فَاعْلَمْ مِنْ أَعَدِّ الْعُدَدِ ... عَلَى صُرُوْفِ النَّائِبَاتِ الْعُوَّدِ
فَاجْعَلْهُ إِنْ هَمٌّ أَلَمَّ مَعْقِلَا ... وَاجْعَلْهُ عِنْدَ النَّائِبَاتِ مَوْئِلَا
فَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى مِضْمَارِ ... مُخْتَلِفُ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ البَلَايَا صَابِرَا ... سَلَا كَمَا يَسْلُو الْبَهِيمُ صَاغِرَا
فَاصْبِرْ إِذَا مَا عَضَّكَ الزَّمَانُ ... فَكُلُّ يَومٍ لِلْمَلِيكِ شَانُ
مَنْ يَعْتَصِمْ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْحَادِثِ ... فَالْحَبْلُ فِي يَدَيهِ غَيرُ نَاكِثِ
إِذَا أَتَى مَا لَا تُطِيقُ دَفْعَهُ ... فَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اقْتَنَيْتَ نَفْعَهُ
حُلُول مَا حَلَّ مِنَ الْبَلَاءِ ... كَالضَّيْفِ يَوْمًا حَلَّ فِي الْفِنَاءِ
فَاصْبِرْ لِضَيْفٍ بِكَ يَوْمًا نَزَلَا ... لَا يَلْبَثُ النَّازِلُ أَنْ يَرْتَحِلَا

يقول عبد الله بن أحمد: «حَدَّثَنِي ثابت بن أحمد بن شَبُّويَه، قال: كان يُخَيَّلُ إِلَيَّ أن لأبي فضيلة على أحمد بن حنبل؛ للجهاد، وفكاك الأسارى، ولزوم الثغور، فسألت أخي عبد الله بن أحمد: أيهما كان أرجح في نفسك؟ فقال: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فلم أَقْنَع بقوله، وأَبَيْتُ إلا العُجْب بأبي أحمد بن شَبُّويَه، فأُرِيتُ بعد سنة في منامي كأن شَيْخًا حوْلَهُ الناس، يسمعون منه، يسألون، فقعدت إليه، فلما قام تبعته، فقلتُ: أبا عبد الله! أخْبِرني: أحمد بن حنبل، وأحمد بن شَبُّويَه، أيهما عندك أفضل وأعلى؟ فقال: سبحان الله! إن أحمد بن حنبل ابتُلِي فصبر، وإن أحمد بن شَبُّويَه عوفي، المبتلى الصابر كالمعافى؟! هيهات، ما أبعد ما بينهما!»[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠١).
(٢) القائل: عبد الله السَّابوري. «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٤/ ٨٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٦) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ١٧٠).

المفاضلات في باب الصبر

أولًا: المفاضلة بين الصبر والشكر:

اختلف الناس في المفاضلة بين الصبر والشكر:

فذهبت طَائِفَة إلى أن الصبر أفضل؛ «لأن الله سبحانه أثْنَى عليه، وعلى أهله، ومدَحَه، وأمَرَ به، وعلَّق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد تقَدَّمَتِ النّصوص في بيان فضله.

قالوا: ويدلُّ عليه:

١ - قوله ﷺ: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»[١]، فذكر ذلك في مَعْرَض تفضيل الصبر، ورَفْع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر، وشَبَّهَه به، ورتبةُ المشبّه به أعلى من رُتْبَة المُشَبَّه. وهذا كقوله ﷺ: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ كعَابِدِ وَثَنٍ**»[٢].

٢ - أنَّا إذا وازنَّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها.

٣ - أن الصبر يدخل في كل مسألة من مسائل الدين.

٤ - أن الله ﷻ علَّق على الشكر الزيادة، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وعلَّق على الصبر الجزاء بغير حساب.

٥ - أنه قد صحَّ عن النبي ﷺ، كما في الحديث القدسي: «**كُلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْم فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[٣]، وما ذاك إلا لأنه صبّر النَّفْس، ومنعها من شهواتها، كما في الحديث: «**يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي**»؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، والحديث صحَّحه ابن خزيمة (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن حبان (٣١٥)، والحاكم (١/ ٤٣٦)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٦٥٥). وراجع: «الفتح» (٩/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وضعفه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢٩)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١١٧)، وصحَّحه ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٢٠) بهامش تخريج الزيلعي. وفي الباب عن ابن عباس، وابن عمرو، وأنس، وجابر، وغيرهم ﷺ. وبها صحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٧).

(٣) تقدم تخريجه.

عن أفضل الأعمال: «عَلَيْكَ بالصَّوْمِ؛ فإنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ»[1].

ولما كان الصبر حَبْس النَّفْس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم؛ فإنه حَبْسُ النَّفْس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجِمَاع؛ فُسِّرَ الصَّبْر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسُمِّيَ رمضان شهر الصبر. والصبر في الجملة أوْسَع من الصوم.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١١١]، فجعل فوْزَهم جزاء صبرهم. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولا شيء يعْدِلُ مَعِيَّتَه لعبده سبحانه.

٧ ـ أن الله قد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد منها خيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧].

٨ ـ أنه قد دَلَّ الدليل على أنَّ الزّهْد في الدنيا، والتقلّل منها ـ مهما أمكن ـ خير من الاستكثار منها، والزّهْد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر.

٩ ـ أن أفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحُبّ والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة.

فكل عِلْم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته؛ فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب، فكلّ حال كان أقرب إلى المقصود الذي خُلِقَ له؛ فهو أشرف مما دونه.

وكذلك الأعمال، فكل عملٍ كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره.

وإذا كان ذلك كذلك فالشكر ببذل المال عمل صالح، يحصل به للقلب حال؛ وهو زوال البخل والشُّح، فهو دواء للدَّاءِ الذي في القلب يمنعه من المقصود.

وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفَّرَتْ قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

---

(١) أخرجه النسائي (٢٢٢٠) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفي سنده اختلاف، ومع ذلك صحَّحه ابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٦)، والحاكم (١/ ٤٢١)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٤/ ٥٧٤)، وأجاب عن الاختلاف الواقع في سنده في «تعليقه على ابن خزيمة» (٢/ ٩١٣).

وذهبت طائفة أخرى إلى أن الشكر أَفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ؛ وذلك من علة أَوْجُهٍ:

١ ـ أن القول بتفضيل الصبر تقديم للوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفْسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، وقد قَرَنَ الله تعالى ذِكْرَه الذي هو المراد من الخلق بذِكْرِه، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر وسيلة إليهما، وعون عليهما، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢ ـ أن الله تعالى قرن الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خَلْقه إن شكروا، وآمنوا به، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

٣ ـ أنه سبحانه أخبر أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

٤ ـ أن الله قسَّم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

٥ ـ أنه سبحانه علَّق المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

٦ ـ أن الله تعالى وَصَفَ الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٧ ـ أنه سبحانه قد أخبر أنما يعبده مَنْ شَكَره، فمَنْ لَمْ يشْكُرْهُ لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأخبر أن رضاه في شُكْرِه، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

٨ ـ أنه سبحانه أخبر أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١]، إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٩ ـ أن الله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نِعْمته، كما جاء عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوبٍ دُون، فقال: «أَلَكَ مَالٌ؟» قال: نعم.

قال: «مِنْ أَيِّ المال؟» قال: قد أتاني الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرَّقِيق. قال: «فإذا آتاكَ اللهُ مالًا فَلْيُرَ أثرُ نِعْمَةِ الله عليك وكَرَامَته»[١].

١٠ ـ أن الله سبحانه يحِبّ أن يُسْأل العافية، وما يُسْأل شيئًا أحَبّ إليه مِنَ العَافِيَة، فعن رِفَاعَة بن رافع ﷺ قال: قام أبو بكر الصِّدِّيق على المنبر، ثم بكى، فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر، ثم بكى، فقال: «اسْألُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ؛ فإنَّ أحَدًا لم يُعْطَ بَعْد الْيَقِين خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ»[٢].

وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثروا سؤال العافية، فإن المُبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المُعافى الذي لا يَأْمَن البلاء، وما المُبْتَلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم»[٣]»[٤].

وتوسطت طائفة ثالثة، فقالت: ليس لأحدهما فضيلة إلا بالتقوى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد تنازع كثير من متأخّري المسلمين في الغَنِيِّ الشاكر والفقير الصَّابِر، أيهما أفضل؟ فرجَّح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد، ورجح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد... وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر.

وقالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، وإن اسْتَوَيَا في ذلك اسْتَوَيَا في الفضيلة، وهذا أصح الأقوال»[٥]. اهـ.

وقد ذُكِر عن عمر ﷺ أنه قال: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيّهما رَكِبتُ»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) واللفظ له، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٥٢٢٣، ٥٢٢٤)، والحديث صحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥٤١٦)، والحاكم (٤/ ١٨١)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٥٧).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١١ ـ ١٤٠) باختصار وتصرف.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الصبر» (٧)، والدينوري في «المجالسة» (١٥٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧١). وجاء نحوه أيضًا عن عمر بن عبد العزيز، أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٥٤٤).

ثانيًا: المفاضلة بين الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية:

من أهل العلم من قال: إن «الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة، وذكروا وجوهًا لِهَذَا التَّفْضِيل، فَمِنْ ذَلِك:

١ ـ أن الصبر عن المعصية أشقّ وأصعب؛ لأن أعمال البِّر يعملها البَرُّ والفَاجِر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدِّيقون.

٢ ـ أن الصبر عن المُحَرَّمَات صبر عن المخالفة وأهواء النَّفس، وهو أشَقّ شيء عليها، ومن أفضل الأشياء أن تُحْبَس النَّفس عن داعية الهوى، وعن المَيْلِ مَعه.

٣ ـ أن تَرْك المحبوب الذي تحبّه النفوس دليل على أنَّ مَنْ تُرِك ذلك لأجله أحب إليه من نَفْسه وهواه، بخلاف فِعْل ما يحبّه المحبوب؛ فإنَّ ذلك لا يستلزم أنه أحبّ إليه مِنْ نَفْسِهِ وهَوَاهُ.

٤ ـ أنه ليس العَجَبُ ممَّن يَصْبِرُ على الأوَامِرِ؛ فإنَّ أكْثَرَها محبوبات للنَّفس السَّلِيمَة؛ لأنَّها توافق الفطرة، وفيها من العَدْلِ، والإحسان، والإخلاص، والبِّر ما هو مُحَبَّبٌ إلى النفوس الفاضلة الزَّكِيَّة، بل العَجَب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها مَحَابّ للنفوس، فيترك المحْبوب العاجل للمحبوب الآجل. والنَّفْس مُوكلة بِحُبِّ العاجل، فصبرها عنه مُخَالِف لطَبْعها.

٥ ـ أن المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نَفْس الإنسان، والشيطان، والهوى، والدنيا، فلا يَتْرك المنهيات حتى يُجَاهِدَ هَذِهِ الأربعة، وذلك أشق شيءٍ على النفوس.

٦ ـ قالوا: ولذلك كان باب النهي مسدودًا كلّه، وباب الأمر إنما يُفْعَل منه المستطاع، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١). قالوا: وهذا يدل على أنَّ باب المنهيَّات أضيق من باب المأمورات، وأنه لم يُرَخص في ارْتِكَاب شيء منها إلا للضَّرُورَات، بينما رُخِّص للإنسان في تَرْك بعض المأمورات لعوارض، مثل مَنْ عَجَزَ عن القيام قَعَد في الصلاة، ومَنْ سَافَرَ وهو قادِرٌ على الصوم، فإنه يفطر ويقضي.

٧ ـ أن عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيَّات، بخلاف تَرْك المأمور؛ فإنَّ الله لَمْ يُرَتِّبْ عليه حَدًّا مُعَيَّنًا، فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اخْتَلَف العلماء أَعَلى تاركها حَدّ أم لا؟

وذهب آخرون إلى إن الصبر على فِعْل المأمور أفْضَل، وأعظم، وأجَلّ من الصبر على

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تَرْك المحظور، وقالوا: إن فِعْلَ المأمور أحَبّ إلى الله مِنْ تَرْكِ المحظور، والصَّبْر على أحَبّ الأمْرَيْن إلى الله ﷻ أفضل، وبَيَانُ ذَلك مِنْ وجُوه:

١ ـ أن فِعْل المأمور مقصود لذاته، فهو مشروع شرع المقاصد؛ فَإِنَّ مَعْرِفَة الله وتوحيده وعبودِيَّته وحده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وإخلاص العمل له، ومحبَّته، والرضا به؛ هو الغاية التي خُلِقَ الإنسان من أجْلِهَا، وبها ثَبَتَ الأمر، وذلك أمر مقصود لنَفْسه. والمَنْهِيَّات إنما نُهِيَ عنها؛ لأنَّها صَادِرة عن ذلك، أو شاغلة عنه، أو مُفَوِّتة لكماله؛ ولذلك كانت درجاتها في النهي بحسب صَدِّها عن المأمور، وتعويقها عنه، وتفويتها لكماله، فهي مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لِنَفْسِهِ، فلو لم يَصُدّ الخمر والمَيْسر عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن التَّوادّ والتَّحَابّ الذي وضعه الله بين عباده؛ لما حرمه، وكذلك لو لم يحُل بين العبد وبين عَقْلِهِ الذي به يعرف الله، ويعبده، ويحمده، ويُمَجّده، ويُصَلّي له ويسجد؛ لما حرمه، وكذلك سائر ما حرمه، إنَّما حَرَّمَه لأنه يصُدّ عمَّا يحبّه ويَرْضَاه، ويحول بين العبد وبين إكْمَالِهِ.

٢ ـ أن المأمورات مُتَعَلِّقة بمعرفة الله ﷻ، وذِكْرِه، وشُكْره، ومحَبَّته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فمُتَعَلَّقها ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته، وأما مُتَعَلَّق المنهيات فذَوَات الأشياء المنهيّ عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

٣ ـ أن ضرورة العبد وحاجته إلى فِعْل المأمور أعظم من ضرورته إلى تَرْك المحظور؛ فإن الإنسان بحاجة شديدة إلى معرفة الله، وتوحيده، والإخلاص له، والعمل في طاعته، وضرورته إلى هذه الأشياء أعظم من ضرورته إلى نَفْسه، ونَفْسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذي به قَوَام بَدَنِه، بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه، لا ببدنه وقَالبِه، كما قيل[1]:

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... فَأَنْتَ بِالْقَلْبِ لَا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

فتَرْك المنهِيَّات إنما شُرِع له تحصيلًا لهذا الأمر؛ لأنها تُؤَثّر على المطالب، وتضعفها، وتَعُوقه عن تحصيلها، والقيام بها.

٤ ـ أن تَرْك المنهِيّ من باب الحِمْية، وفِعْل المأمور من باب حِفْظ القُوَّة، والغذاء الذي لا تقوم البُنْيَة بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تَرْك الحِمْية، وإن كان بدنه عَلِيلًا، لكنه لا يعيش بدون القوة والغذاء الذي به قوامه، فهذا مثل المأمورات والمنهيَّات.

---

(١) القائل: أبو الفتح البستي، كما في «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٥٥١).

٥ ـ أن جميع الذنوب ترجع إلى هذين الأصلين؛ إما تَرْك المأمور أو فِعْل المحظور، ولو أن العبد فَعَل جميع المحظورات، وجاء من المأمورات بشيء واحد؛ وهو مثقال ذرة من الإيمان ـ يعني: الإيمان المُنْجي ـ فإنه ينجو، لكن لو أنه تَرَك جميع المحظورات، ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مُخَلَّدًا في النار، قالوا: فأي شيء مَثاقِيل الذر منه تُخرِج من النار إلى شيء وزْن الجبال منه أضعاف مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار؟!

٦ ـ أن جميع المنهيات تسقطها التوبة، لكن المأمورات لا يسقطها من معصية الله ﷻ إلا الشرك.

٧ ـ أن ذنْب آدم ﵇ كان بفعل المحظور، وذنْب إبليس كان بتَرْك المأمور، أما إبليس فطُرِدَ ولُعِنَ، وأما آدم فاجتباه ربّه، وهداه، وتاب عليه.

٨ ـ أن المأمور محبوب إلى الربِّ، والمنْهِيّ عنه مكْروهٌ له، والله ﷻ حينما يُقَدّر عليه فِعْل المكروه، فإن ذلك قد يقتضي محبوب الله ﷻ؛ كالتوبة، والندم، والاستغفار، والخضوع، والذلّ، والانكسار، وذهاب العُجْب والغرور والزُّهُوّ وما أشبه ذلك، وكذا محبوبه من نفْسه؛ كالمغفرة، والتوبة، والعفو، والحِلْم، وغير ذلك.

٩ ـ أن تَرْك المحظور لا يكون قُرْبة ما لم يُقَارنه فِعْل المأمور، فلو تَرَك العبد كل محظور لم يُثِبْه الله عليه حتى يُقَارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تَرْكه المحظور قُرْبَة حتى يقارنه مأمور النِيَّة، بحيث يكون تَرْكه لله ﷻ، فيفتقر تَرْك المنهيات بكونه قُرْبة يُثَابُ عليها إلى فِعْل المأمور، ولا يفتقر فِعْل المأمور من كونه قُرْبَة وطاعة إلى تَرْك المحظور.

١٠ ـ أن المنهيّ عنه مطلوب إعدامه وإزالته، وأمّا المأمور فإنه مطلوب إيجاده، فإذا قُدّرَ عدم الأمرين، أو وجودهما؛ كان وجودهما خيرًا من عدمهما؛ فإنه إذا عُدِمَ المأمور لم ينفع عَدَم المحظور، وإذا وُجِد المأمور فقد يُسْتَعان به على دَفْع المحظور، أو دَفْع أثَرِه، فوجود القوّة والمَرَض خير من عدم الحياة.

١١ ـ أن باب المأمور الحسنةُ فيه بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة، وأما السيئات فإن السيئة بمثلها، وهي بِصَدَدِ الزوال بالتوبة، والاستغفار، والحَسَنَة الماحية، والمصيبة المُكَفِّرة، واستغفار الملائكة للمؤمنين، واستغفار بعضهم لبعض، وغير ذلك.

فهذا يدلُّ على أن الصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ لأن مُتَعَلَّقه أفضل؛ وهو الطاعات.

١٢ ـ أنَّ بَابَ المنْهِيَّات يمحوه الله سبحانه، ويُبْطِل أَثَرَه بأمور عديدة كما تقدَّم، مما يُبين أن المقصود إقامة الأمر على وجهه، وأما تَرْك المنهيّ عنه فإنه يستلزم إقامة الأمر.

١٣ ـ أن فاعل محبوب الربّ يستحيل أن يفعل جميع مَكْروهه، بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه، فغَايَتُهُ أنه اجتمع الأمران، فيحبه من وجه، ويبغضه من وجه.

أمَّا إذا تَرَكَ المأمور به جملة، فإنه لم يقم به ما يحبّه الرَّبّ عليه؛ فإن مجرد تَرْك المنهي لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقَدَّم، فصار مبغوضًا للربِّ تعالى من كل وجه.

١٤ ـ أن الله سبحانه لم يعلِّق محبّته إلا بأمر وجودِيّ، أَمَرَ بِهِ إيجابًا أَوِ اسْتِحْبَابًا، ولم يُعَلِّقها بالتَّرْك من حيث هو تَرْك، فإنه يحبّ التوابين، ويحب المحسنين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدّقين.

١٥ ـ أن المنهِيَّات لو لم تصدّ عن المأمورات، وتمنع وقوعها على الوجه الذي أُمِر به لم يكن للنهي عنها معنى، فالنَّهْيُ عنْهَا من باب التَّكْمِيل والتتمَّة للمأمور. وإذا تبين أن فِعْل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور، والصبر على المقدور؛ فإن الصبر الأعلى يتضمّن الصبر الأدنى دون العكس»(١).

«إذًا: الصبر ثلاثة أنواع: أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلَّق به، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فُتِن الإنسان ـ مثلًا ـ بامرأة جميلة تدعوه إلى نَفْسها، في مكان خال، لا يَطَّلِعُ عليه إلا الله، وهو رَجُلٌ شَابٌ ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشَقّ ما يكون على النفوس، قدْ يُصَلِّي الإنسان مائة ركعة، وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يُصَاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلًا قريب، أو صديق، أو عزيز عليه جدًا، فتَجِده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٧٥ ـ ٧٦) بتصرُّف.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يُورِدُهُ بعض الناس، ويقول: إن هذا الترتيب فيه نَظَر؛ إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقَطْع النَّظَر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزامًا وفِعْلًا، فتُلزم نفْسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحجّ فتحجّ... ففيه إلزام، وفعل، وحركة فيها نوع من المشقّةِ، والتَّعَب، ثم الصبر عن المعصية؛ لأنَّ فيه كفًّا فقط؛ أي: إلزامًا للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فِعْلًا، ولا تركًا، وإنما هو مِنْ قَدَرِ الله المحْضِ»[(١)].

وهذه «الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يُعِينُ على النوعين الآخرين. وإن كان مِنَ الناس مَنْ قُوَّة صَبْره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوّة صبره هناك ضعيفة، ومنهم مَنْ هُوَ بالعكس مِنْ ذَلِكَ، ومنهم مَن قُوَّة صَبْره في جانب الأمْر أقوى، ومنهم مَنْ هو بالعكس»[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفَصْل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدَّنِيَّة، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلًا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوّعًا ونحوه. فهذا فَصْل النِّزاع في المسألة، والله أعلم»[(٣)]. اهـ.

وقال أيضًا: «كل صبرٍ في مَحَلِّه وموضعه أفضل؛ فالصبر عن الحرام في مَحَلِّه أفضل، وعلى الطاعة في مَحَلِّها أفضل»[(٤)]. اهـ.

وذكر في «المدارج» أن الصبر على الطاعة أفضل، وعلّل ذلك بـ«أن ترك المعصية إنَّما كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصود للأمر، فالمنهي عنه لما كان يُضْعِف المأمور به ويُنقصه: نُهِي عنه حمايةً وصيانةً لجانب الأمر، فجانب الأمر أقوى وآكَد، وهو بمنزلة الصِّحة والحَيَاة، والنهي بمنزلة الحِمْية التي تُراد لحفظ الصِّحة وأسباب الحياة»[(٥)].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن عثيمين في «القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ١١٠ ـ ١١١).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٦٤ ـ ٧٦).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠). (٤) المصدر السابق (٢/ ١٥٧).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كَلَلهُ: «الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل؛ فإن مصلحة فِعْل الطاعة أحبّ إلى الشارع من مصلحة تَرْك المعصية، ومَفْسدة عَدَم الطاعة أبغض إليه وأكره من مَفْسدة وجود المعصية»(١).

والراجح ـ والعلم عند الله ﷻ ـ: أنَّ الصَّبْرَ على جنس الطاعة أفضل من الصبر عن جنس المعصية ـ من حيث الجنس ـ؛ للأمور التي ذكرناها، وأما فيما يتعلق بآحاد الطاعات وآحاد المعاصي ـ يعني: الجزئيات والمفردات ـ فإن ذلك لا شك أنه يختلف، كما يُقَال مثلًا في أيهما أعظم: جنس المأمورات أم جنس المنهيَّات؟ فإذا قيل بأن جنس المأمورات أعظم من جنس المنهيات؛ فالله ﷻ قد أمر إبليس أن يسجد فأبى، فطَرَدَهُ من رحمته، ونهى آدم أن يأكل من الشجرة فأكل منها، فتاب عليه ربه، واجتباه، فجنس فِعْل الطاعة أفضل.

يقال: هذا من حيث الجنس، أما من حيث المفردات والجزئيات فإن ذلك يختلف، فليس مَنْ أفطر يومًا في رمضان متعمِّدًا كَمَنْ أشرك بالله مثلًا، وليس مَنْ وقَعَ في يسير الرياء كمَنْ سَفَكَ الدم الحرام بغير الحق، وسعى في الأرض بالفساد.

وصَبَر يوسف ﷺ عن المعصية لما دعَتْه امرأة العزيز، وحصل له هذا البلاء العظيم، فهل هذا مثل من صَبَر على صلاة الضحى مثلًا، أو على صيام الاثنين والخميس؟! فإن هذا الصبر عن المنهي أعظم من الصبر على الطاعة.

ثالثًا: المفاضلة بين الصبر على الطاعة وعن المعصية والصبر على المقدور:

قال ابن القيِّم كَلَلهُ: «فإن قيل: أيّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور؟

قيل: الصبر المُتَعَلّق بالتكليف، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مُجَرَّد القدر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بُدَّ لكل أحد من الصبر على القَدَر، اختيارًا أو اضطرارًا.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتّبَاعًا أصْبَرهم في ذلك»(٢). اهـ.

وقال أيضًا: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قَدَّسَ الله روحه يقول:

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل مِنْ صَبْرِهِ على إلقاء

---

(١) نقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).

(٢) «عدة الصابرين» (ص٦٣ ـ ٦٤).

إخوته له في الجبّ، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرَتْ عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صَبْره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقْوَى معها دواعي الموافقة»(١).اهـ.

«**وقال ميمون بن مهران:** «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حَسَن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي»(٢).

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: «صبَّروا أنفسهم على ما أُمِروا به من طاعته، وصبَّروا أنفسهم عن ما نهاهم عنه من معصيته»(٣). فكأنَّهُ جعل الصبر على المصيبة من قسم المأمور به»(٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما كان الصبر على السرّاء شديدًا؛ لأنه مقرون بالقدرة. والجائع عند غَيْبة الطعام أقْدَر منه على الصبر عند حضوره. وكذلك الشَّبِق عند غَيْبة المرأة أصبر منه عند حضورها»(٥).اهـ.

رابعًا: المفاضلة بين العافية والبلاء مع الصبر:

هل الأفضل في حَقِّ العَبْدِ أن يكون في عافية الله عَجَّلَ، أو أن يُبْتَلَى فيصبر؟

والحق أن السلامة لا يعْدِلها شيء، وساحة العافية أوْسَعُ للعبد مِن ساحة الصَّبْر، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»(٦).

فإن البلاء إذا وقع بالعبد لا يدري؛ أيصبر أم يجزع؟ فالعافية في الجملة خير له؛ لأنها أوسع له.

«ولا يناقض هذا قوله ﷺ: «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(٧)؛ فإن هذا بعد نزول البلاء، ليس للعبد أوسع من الصبر. وأما قبله فالعافية أوسع له»(٨).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (٢٩) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٦).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٢٨) بتصرُّف.

(٥) المصدر السابق (ص١١٧).

(٦) أخرجه البخاري (٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢) واللفظ له، من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٧) تقدّم تخريجه.

(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (٢٢ ـ ٢٣).

وقد قال مُطَرِّف بن عبد الله: «لأن أُعَافَى فأشكر أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أُبْتَلَى فأصْبِر، نظرتُ في العافية فوجدتُ فيها خير الدنيا والآخرة»(١).

خامسًا: المفاضلة بين الصبر بالله والصبر لله:

قالت طائفة: الصبر لله أكمل؛ فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، فـ«العبد بِحَسَب نصيبه من معيَّة الله يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره؛ ولذلك قيل: فاز الصابرون بعزّ الدَّارَيْنِ؛ لأنهم نالوا من الله معيّته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

ومَنْ تَعَلَّق بصفة من صفات الربّ تعالى أوصَلَتْهُ تلك الصفة إليه، والرَّبّ تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه سبحانه»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢)، وهناد (٤٤٢) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢١) واللفظ له، وجاء ذلك عن أبي الدرداء ﷺ فيما أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣١٠٢)، و«الصغير» (٣٠٤)، و«الكبير» ـ كما في «المجمع» (٢/ ٢٩٠) ـ إلا أنه لا يثبت، كما في «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٥٦ ـ ٥٧)، و«الميزان» (١/ ٢١)، وراجع: «الموضح» للبغدادي (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠١)، ترجمة إبراهيم بن النضر.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٨٠ ـ ٨٥) بتصرُّف.

الصبر في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: الصبر في القرآن:

«قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا»[(١)]. وذلك على وجوه متنوعة متعددة، فَمِنْ ذَلِكَ:

١ ـ أنَّ الله تبارك وتعالى أَمَرَ به أمرًا صريحًا في مواضع كثيرة جدًّا من القرآن: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل ١٢٧]، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨]، ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨].

٢ ـ النهي عن ضدِّه: قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، والوَهَن من عدم الصبر. وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تَوْلِيَةَ الأدبار تَرْك للصبر والمصابرة، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]؛ فإنَّ إِبْطَالَهَا تَرْك الصبر على إِتْمَامِهَا»[(٢)].

وبالجملة، فكُلّ مَا نهى الله عنه فإنه يضادّ الصَّبْر المأمور به.

٣ ـ تعليق الفلاح به: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤ ـ الإخبار عن مضاعفة أجْرِ الصَّابِرِين على غيرهم: كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢)، و«عدة الصابرين» (ص١٢٩).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢) باختصار وتصرف.

وقال سليمان بن القاسم: «كُلّ عَمَل يُعْرَف ثوابه إلا الصبر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ قال: كالماء المنهمر»[1].

٥ ـ **تعليق الإمامة بالدين به وباليقين:** قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين.

٦ ـ **الظفر بمَعِيَّة الله:** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٧ ـ **جعل الله للصابرين من الفضل ما لم يجعله لغيرهم:** فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فجمع لهم بين الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم.

وقال بعض السلف وقد عُوتِب على ادِّهانه ولبسه للثياب الحسنة عند موت ابنه، فقال: «قد وَعَدَنِي ربي تبارك وتعالى عليها ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليّ من الدنيا كلها»[2].

٨ ـ **جعل الله الصبر عَوْنًا وعُدَّة، وأمر بالاستعانة به:** قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فمَنْ لَا صبر له لا عون له.

٩ ـ **تعليق النصر بالصبر والتّقوى:** فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»[3].

١٠ ـ **وجعل سبحانه الصبر مع التقوى جُنَّة عظيمة من كيد العدو:** فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١١ ـ **وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم على الصابرين في الجنة بصبرهم:** فقال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٤٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩١) من كلام مُطَرِّف بن الشِّخِّير ﵀.

(٣) هذا الحديث جزء من حديث ابن عباس ﵄: «**احفظ الله يحفظك**»، وقد تقدم تخريجه، وموضع الشاهد أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وصحَّحه الإشبيلي في «الأحكام الكبرى» (٣/ ٣٣٤)، وحسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٣٤٣) وما بعدها، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٣٣٦) وغيرهم.

تعالى: ﴿...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

١٢ ـ أنه ﷻ أباح لهم أن يُعَاقِبُوا على ما عُوقِبُوا به، ثم أَقْسَمَ قَسَمًا مُؤَكَّدًا أن صبرهم خيرٌ لهم، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

١٣ ـ أنه سبحانه رتّب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح: فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

١٤ ـ أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

١٥ ـ أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظَّفر، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

١٦ ـ أنه سبحانه عَلّق محبّته بالصبر، وجعلها لأهله: فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

١٧ ـ أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون: فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

١٨ ـ أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته وَيَتَّعِظُ بها الصبَّار الشكور: فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

١٩ ـ أنه أثنى على عَبْدِهِ أيوب بِأَحْسَنِ الثناء على صَبْرِهِ: فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

٢٠ ـ أنه سُبْحَانَهُ حَكَم بالخسران على كل مَنْ لَمْ يُؤْمِن، ولم يكن من أهل الحق والصبر، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

٢١ ـ أنه سبحانه خصَّ أهل المَيْمَنة بأَنَّهُمْ أهل الصبر والمَرْحَمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بها غيرهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١٧، ١٨].

٢٢ ـ أنه سبحانه قَرَنَ الصَّبْرَ بِأَرْكَان الإسلام ومقامات الإيمان كلها؛ كالصلاة، والرَّحْمَة، والتَّقْوَى، والصِّدق، والاتّباع، وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩]، إلى غير ذلك من الآيات»[١].

ثانيًا: الصَّبْر في السُّنَّة:

وَرَدَ ذِكْر الصَّبْرِ في السُّنَّة في غَيْرِ ما حديث صحيح، فمن ذلك قوله ﷺ: «**الصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ...**»[٢] الحديث.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[٣].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد مضى جملة منها في أثناء الحديث عن الصبر[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١٢٩ ـ ١٣٦) باختصار وتصرف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٣٧) وما بعدها.

حكم الصبر

سبق أن ذكرنا أن الصبر ذكر في القرآن في بِضْعَة وتسعين موضعًا بتصاريف من الخطاب عديدة، تدل بمجموعها على وجوبه، **منها**:

١ - **الأمر به**؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢ - **النهي عن ضِدِّه**، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٣ - **الأمر بالاستعانة به**، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٤ - **الثناء على أهله**، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

٥ - **إيجابه محبته لهم**؛ كقوله جلَّ ثَناؤه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٦ - **إيجابه معِيَّته لهم**؛ كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

٧ - **إخباره بأن الصبر خَيْرٌ لأصحابه**؛ كقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥][(١)].

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّبْر واجب على المؤمن حَتْم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله أمر به، ووعد عليه جزيل الأجر»[(٢)].اهـ.

وقد ذكر طائفة من أهل العلم أن الصبر مستحبّ أو أنه مسْنون، وهم يقصدون بذلك أنه مشروع، أو أن بعض أنواعه مُسْتَحَبّ.

والتَّحْقِيق أن الصبر تجري عليه أحكام **التَّكْلِيف الخمسة**:

فتَارَة: يكون الصبر واجبًا؛ كالصبر على الواجبات، والصبر عن المحرَّمَات، والصبر على المصائب التي لا صُنْع للعبد فيها؛ كالأمراض، والفقر، وفَقْد الأنفس والأموال، وغير ذلك.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٣٦٧ - ٣٦٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر واجب - باتّفاق المسلمين - على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب»[(١)]. اهـ.

وتارة: يكون مندوبًا؛ كالصَّبْرِ عن المكروهات، والصَّبْر على المستحبات، فهذا صبر مندوب مستحبٌّ.

وتارة: يكون محرمًا؛ كالصبر على المحرَّمَات، وذلك كمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يموت، أو يصبر على ما يهلكه؛ من سَبُع، أو حية، أو حريق، أو ماء وهو يستطيع دفع ذلك عنه ولا يفعل. وكذلك مَنْ جُرِحَ جراحة شديدة، فيمتنع عن التداوي بحجة الصبر، فهذا إن مات فهو قاتل لنفسه. وهكذا صَبْر أهل الفجور والمعاصي على ما يلقون في سبيل ذلك من الأذى والمشقَّات، ويدخل في ذلك: صبر الكافرين على كفرهم.

وتارة: يكون مكروهًا، كَمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يتأذَّى بذلك، ويتَضَرَّر منه، وكمن يصبر على فعل المكروهات أو على تَرْكِ المستحبَّات.

وتارة: يكون مباحًا، وهو كل صبر على الأفعال المستوية الطرفين، التي خُيِّر فيها بين فِعْلها، وتَرْكها، والصبر عليها؛ كالذي يصبر على تجارته، وبيعه، وشرائه، وعمله، واكتسابه، وما أشبه ذلك.

وبالجملة، فالصبر على الواجب واجب، والصبر عن المُحَرَّم واجب، والصبر على المحرَّم حَرَام، والصبر على تَرْك الواجب محرَّم، والصبر عن المكروه مستحب، والصبر على فعل المكروه مكروه، والصبر على ترك المستحب مكروه، والصبر على المباح مباح[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩) (١١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٩)، و«عدة الصابرين» (٥٤ _ ٥٨).

شروط الصبر

لا بد من توافر شروط في الصبر حتى يُؤجَر عليه العبد، والمشروط بشرط موقوف عليه، ويتأكَّد ذلك في تلك الأعمال الجليلة التي يصل بها أصحابها إلى المنازل السامية، وإلا فكيف يقال في حق عبدٍ يصبر لعِلَّة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]؟!

الشرط الأول: الإخلاص:

فالصبر يشترك فيه الناس جميعًا، ولكن الذي يميز الصبر الشرعي عن غيره هو الدافع عليه، فالصبر المحمود في القرآن والسُّنَّة هو ما كان لله تعالى؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٧]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢]، وهذا هو مقام الإخلاص الذي تنتفي عنده حظوظ النَّفْس، وتزول به شوائب الرياء.

الشرط الثاني: عدم شكوى الله إلى عباده:

فإنها تُنَافِي الصبر، وتُخْرِج العبد إلى السَّخَط والجَزَع.

وقد قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ»[(١)].

وقد قيلَ[(٢)]:

وَإِذَا بُلِيتَ بِعُسْرَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْزَمُ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩) واللفظ له، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٧٥)، وفي «الشعب» (٩٢٣٩، ٩٩٤٣)، وصحَّحه الحاكم، والبيهقي، والذهبي، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠١٦)، والسيوطي في «اللآلئ» (٢/ ٣٩٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٢).

* تنبيه: هذا الحديث عزاه ابن عمار الشهيد في «علل صحيح مسلم» (ص١١٧) إلى مسلم في «صحيحه»، وحكم بنكارته، وكذا ابن رجب في «شرح العلل» (٢/ ٧٦٨)، ولكن قال البيهقي: «قد نظرت في صحيح مسلم فلم أجده فيه، ولا ذَكَره أبو مسعود في تعليقه»، وأجاب السيوطي في «اللآلئ»، فقال: «فكان في صحيح مسلم في غير الرواية المشهورة؛ فإنه روايات متعددة»، راجع: «النكت الظراف» (١٠/ ٣٠١)، و«إتحاف المهرة» (١٥/ ٤٦٨).

(٢) «الكشكول» (١/ ٥٧).

لَا تَشْكُوَنَّ إِلَى الخَلَائِقِ إِنَّمَا ... تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

الشرط الثالث: أن يكون في أَوَانِهِ:

فالصبر المحمود المأجور عليه صاحبه هو ما كان في أوانه، أمَّا إذا فات الأوان فلا جدوى منه.

وهذا ما حكاه الله ﷻ عن صَبْرِ أهْلِ النار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

وعن أنس ﷺ قال: مر النبي ﷺ بامرأة تَبْكِي عند قبر، فقال: «اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي»، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي! فإنك لم تُصَب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «**إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٩٢٦).

مجالات الصبر

للصبر مجالات كثيرة في حياتنا، فَمِنْ ذَٰلِكَ:

١ ـ ضبط النَّفْس عن السَّأم والمَلَل عند القيام بالأعمال التي تتطلَّب الصبر والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المُستعجل مدة طويلة، وهذا للأسف يفقده الكثيرون، ولا سيما في الأعمال التطوّعية، حيث يبدأ الإنسان مُنْدَفِعًا مُتَحَمِّسًا، يريد أن يُقَدِّم، ويبذل، ثم ما يلبث أن يَضِيق صدره، وتركبه المَلَالَة، حتى يُعْرِض عن أداء العمل المطلوب.

ولذلك؛ فينبغي للإنسان ألا يدخل في أمرٍ حتى يعرف من نَفْسه أن له فيه نية، وأنه قادر على القيام به على الوجه المطلوب، وأنه يستطيع الاستمرار فيه حتى تمامه، فإن كان هذا العمل يحتاج إلى أعوانٍ؛ فليبحث عمَّن يُعِينه على القيام به على الوجه اللائق.

٢ ـ ضبط النَّفْس عن الضَّجَر، والجَزَع عند حلول المصائب والمكاره.

٣ ـ ضبط النَّفْس عن العَجَلة والرُّعونة عند العمل على تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

٤ ـ ضبط النَّفْس عن الغضب والطَّيْش حينما تنبعث عوامل الغضب في النَّفَس، ومُحَرِّضات الإرادة للاندفاع بطَيْش لا حكمة فيه، ولا اتّزان في القول أو في العمل.

٥ ـ ضبط النَّفْس عن الخوف عند توفر مُثِيرات الخوف في ا لنَّفْس، حتى لا يَجْبُن الإنسان في المواضع التي تَحْسُن فيها الشجاعة، وتكون خيرًا، ويَقْبُح فيها الجُبْن، ويكون شرًّا.

٦ ـ ضبط النَّفْس عن الطَّمَع عند حصول مثيرات الطَّمَع، حتى لا يندفع الإنسان وراءه، فيقع في أمور يقْبُح فيها.

٧ ـ ضبط النَّفْس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

٨ ـ ضبط النَّفْس لتتحمّل المتاعب والمشاقّ، والآلام الجسديَّة والنَّفْسِيَّة، كلَّما كان في هذا التحمّل خير عاجل أو آجل[1].

والمقصود: أن «الصَّبْر ـ كما قيل ـ هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.

---

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/ ٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢).

الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النَّفْس ورغائبها وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعَجَلَتِها وملالها من قريب.

والصبر على شهوات الناس، ونقصهم وضعفهم، وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم وغرورهم والتوائهم، واستعجالهم للثمار.

والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء.

والصبر على قلة الناصر، وضَعْف المُعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكَرْب والضِّيق.

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النَّفْس من انفعالات متنوعة؛ من الألَم، والغَيظ، والحَنَق، والضِّيق، وضَعْف الثِّقة أحيانًا في الخير، وقِلَّة الرجاء أحيانًا في الفطرة البشرية، والمَلَل، والسَّأم، واليأس أحيانًا، والقنوط.

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النَّفْس، في ساعة القدرة، والانتصار، والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خُيَلاء، وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القِصَاص الحق إلى الاعتداء، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، وردّ الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع.

والصبر على هذا كله وعلى مثله مما يُصَادِفُ السالك في هذا الطريق الطويل لا تصوّره حقيقة الكلمات، فالكلمات لا تنقل المَدْلول الحقيقي لهذه المعاناة، إنما يُدرك هذا المدلول مَن عانى مَشَقَّات الطريق، وتذوقها انفعالات وتجارِب ومرارات»[١].

«ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوّة، وأعوز نيْله من مسرة مأمولة؛ فإن الصبر عنها يُعْقب السُّلُوّ منها، والأسَف بعد اليأس خَرَق...

ومن جميل الصبر: الصبر فيما يُخْشَى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجَّل همّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع...

ومن جميل الصبر: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلَّ من أمر مخُوف، فبالصبر في هذا تنفَتِح وجوه الآراء، وتُسْتَدفع مكائد الأعداء، فإنَّ مَنْ قَلَّ صبْرُهُ عزب رأيه، واشتد جَزَعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه»[٢].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام سيد قطب في «الظلال» (١/٥٥١ ـ ٥٥٢).

(٢) ما بين الأقواس من كلام الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (ص٤٥٤ ـ ٤٥٦) مع زيادة يسيرة.

إنما الصبر عند الصدمة الأولى

تقدم قريبًا حديث أنس ﷺ في قوله ﷺ للمرأة: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى»[١].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مُقْتضيات الجَزَع؛ فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتَّب عليه الأجر.

وأصل الصَّدْم: ضرب الشيء الصَّلْب بمثله، فاسْتُعِير للمصيبة الواردة على القلب.

قال الخطابي: «المعنى: أنَّ الصَّبْرَ الذي يُحْمَدُ عليه صاحبه ما كان عن مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك، فإنه على الأيام يَسْلو».

وحكى الخطابي عن غَيْرِهِ أنَّ المرء لا يؤجر على المصيبة؛ لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حُسْنِ تثبّته، وجميل صبره»[٢].اهـ.

وقال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن مفاجآت المصيبة بغتة لها رَوعة تُزَعزع القلب، وتُزْعِجُه بصدمها، فإنْ صَبَر عند الصدمة الأولى انكسر حَدّها، وضعُفَت قوَّتُها، فهان عليه استدامة الصبر، وأيضًا فإن المصيبة تَرِدُ عَلَى القَلْبِ وهو غير مُوَطّن لها، فتزْعِجُه، وهي الصدمة الأولى، وأمَّا إذا وردت عليه بعد ذلك تَوَطَّن لها، وعَلِم أنه لا بد له منها، فيصير صبره شبيهَ الاضطرار.

قال أبو عبيد ـ القاسم بن سلام[٣] ـ: «معناه أن كل ذي رَزِيَّة فإنَّ قصاراه الصبر، ولكنه إنما يُحْمَد على صبره عند حِدَّة المصيبة وحرارتها»[٤].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «فتح الباري» (٣/ ١٧٩).
(٣) وهو في «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٦٢).
(٤) «عدة الصابرين» (ص١٣٧ ـ ١٣٨).

الصبر لا يكفي وحده

لا بُدَّ مع الصبر من اليقين؛ فإن الصبر من غير يقين لا يكتمل، ولا يصل به العبد إلى المطلوب، قال زُهير بن نُعَيم: «إن هذا الأمر لا يتم إلا بشيئين: الصبر واليقين؛ فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتم، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين لم يتم»[١].

والله ﷻ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٤٧).

مراتب الصبر

إن مما يُعْلَم بالضرورة أن الناس ليسوا في الصبر على درجة واحدة، ولكنهم يتفاوتون فيه باعتبارات متعدِّدة، ومن تلك الاعتبارات:

أولًا: حال الإنسان:

فيختلف حال الإنسان في صبره باعتبار مقدار تماسُكِهِ أو جزعه، وأحسن الناس حالًا من رَضِيَ بِمَقْدُورِ الله، فلم يغيِّر ما أصابه من حالِهِ.

وعن يونس بن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن: ما منتهى الصبر؟ قال: «أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه»(١).

وعن قيس بن الحجاج في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥] قال: «يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى مَنْ هُوَ»(٢).

مَلَكْتُ دُمُوعَ الْعَيْنِ ثُمَّ رَدَدْتُهَا   إِلَى نَاظِرِي فَالْعَيْنُ فِي الْقَلْبِ تَدْمَعُ(٣)

ثانيًا: قوة الدَّاعِي:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مشقة الصبر بِحَسَب قوة الداعي إلى الفِعْل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشقّ شيء على الصابر... ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشاب عن الفاحشة، وصبر الغنيّ عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان...

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني، والمَلِك الكذاب، والفقير المختال أشَدّ العقوبة، لسهولة الصَّبْر عن هذه الأشياء المحرَّمَات عليهم؛ لضعف دواعيها في حَقِّهِمْ، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلًا على تَمَرُّدِهِمْ على الله، وعتوّهم عليه؛ ولهذا كان الصبر عن معاصي اللِّسان والفرْج من أصعب أنواع الصبر»(٤).اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) واللفظ له.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٩/ ٣٧٦).
(٣) «شعب الإيمان» (٩٧٢٣).
(٤) «عدة الصابرين» (ص١٢٥ ـ ١٢٦).

ثالثًا: الصبر الاختياري:

جعل صاحب المنازل الصبر على البلاء أفضل من الصبر على الطاعة وعن المعصية[(١)].

وخالفه غيره؛ **يقول ميمون بن مهران:** «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حَسَن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعصية»[(٢)].

وقد تقدم معنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل مِنْ صَبْرِهِ على إلقاء إخوته له في الجبّ، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرَتْ عليه بغير اختياره، لا كَسْب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صَبْره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنَّفْس»[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد عرفت بما تقدَّم أنَّ الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره، كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام، فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة، وبينهما من البَون ما قد عرفت، وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام على ما نالهم في الله باختيارهم وفِعْلهم ومقاومتهم قومهم أكمل منَّا صبرًا.

وبالجملة؛ فالصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره»[(٤)]. اهـ.

وقال أيضًا: «والمقصود أنه سبحانه أمَرَ رَسُولَهُ أن يصبر صبر أُولِي العَزْمِ، الذين صبروا لحُكْمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دَارَتْ قِصَّة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى رَدوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحُكْمِ اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلاَمُه عليهم أجمعين»[(٥)]. اهـ.

رابعًا: داعي الصبر وباعثه:

فمِنْ دَوَاعِي الصبر عن المعصية مُطَالَعَةُ الوَعِيد، إبقاءً على الإيمان، وحَذَرًا من الحرام، وأحْسَن من ذلك: الصبر عن المعصية حياءً من الله تعالى[(٦)].

---

(١) انظر: «المدارج» (٢/ ١٦٦). (٢) تقدم تخريجه.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٦٩) بتصرُّف، وقد مضى الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.
(٥) «عدة الصابرين» (ص٦٣). (٦) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان الحَيَاءُ مِنْ شِيَم الأشْرَاف وأهل الكرم والنفوس الزَّكِيَّة؛ كان صاحبه أحسن حالًا من أهل الخوف؛ ولأن في الحياء من الله ما يَدُلُّ على مراقبته، وحضور القلب معه؛ ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخَوْفِ، فمَنْ وَازِعُهُ الخوف قلبه حاضر مع العقوبة، ومَنْ وَازِعُهُ الحياء قلبه حاضر مع الله. والخائف مُرَاعٍ جانب نَفْسه وحمايتها، والمستحي مُرَاعٍ جانب رَبِّهِ، وملاحظٌ عَظَمَته. وكِلَا المقَامَيْنِ من مقامات أهل الإيمان، غير أن الحَياء أقرب إلى مقام الإحسان وألْصَق به؛ إذ أنزل نَفْسه منزلة من كأنَّه يرى الله، فنَبَعَتْ يَنَابِيع الحياء مِنْ عين قلبه، وتَفَجَّرَتْ عيونها»[1]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأحسن من ذلك: أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبَّة له»[2]. اهـ.

خامسًا: بالنظر إلى الفعل ومصلحته:

اعتبر صاحب «المنازل» أن الصبر على فِعْل الطاعة أكمل من الصبر عن المعصية، وأقرّه ابن القيم على ذلك، وعلَّلَهُ: بـ«أنَّ تَرْكَ المعصية إنَّمَا كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصودٌ للأمر»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر على أداء الطاعات أكْمَل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل؛ فإنَّ مَصْلَحَةَ فِعْلِ الطاعة أحبّ إلى الشارع مِنْ مَصْلَحَةِ تَرْك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[4].

سادسًا: باعتبار ارتباطه بالله تعالى:

ذكر صاحب «المنازل» أن أضعف منازل الصبر: الصبر لله؛ أي: رجاء ثوابه وخوف عقابه. وفوقه: الصبر بالله؛ أي: بقوته ومعُونَتِهِ. وفوقهما: الصبر على أحكام الله الجارية على العبد، الجالِبَة عليه ما جَلَبَت من محبوب ومكروه[5].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب أن الصَّبْرَ لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل؛ فإن الصَّبْرَ لله مُتَعَلِّق بإلْهيَّتِهِ، والصبر به مُتَعَلِّق بربوبيته، وما تعلّق بإلْهيَّتِهِ أكمل وأعلى مما تعلّق بربوبيته.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٦٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٦٤).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).
(٤) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).
(٥) انظر: «منازل السائرين» (ص٥٠ ـ ٥١).

ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة، والغاية مُرادة لنفسها، والوسيلة مُرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مُشْتَرك بين المؤمن والكافر، والبَرّ والفاجر، فكل من شَهِد الحقِيقَةَ الكونية صبر بها، وأمَّا الصبر له فمنزلة الرُّسُل والأنبياء والصدِّيقين...

ولأن الصبر له صبر فيما هو حق له، محبوب له، مرضيّ له، والصبر به قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟!»[(١)]. اهـ.

وأما الصبر على أحكام الله ـ وهو الذي يسمّونه بالصبر على الله ـ فهو الصبر على أحكامه الدِّينيَّة والكونية، فهو يرجع إلى الصبر على أوامره[(٢)]، والصبر على ابتلائه، فليس في الحقيقة قِسْمًا ثالثًا[(٣)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا عن مراتب الصبر: «المراتب أربعة:**

إحداها: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أُولِي العَزْم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون في صبره مُبتغيًا وجه الله، صابرًا به، مُتَبَرِّئًا من حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، فهذا أقْوَى المراتب، وأرفعها، وأفْضَلها.

الثانية: ألا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخَسّ المَرَاتِب وأرْدَأ الخَلْق...

الثالثة: مرتبة مَنْ فيه صَبْرٌ بالله، وهو مُستعينٌ مُتوكِّل على حَول الله وقوَّتِهِ، مُتبَرِّئ من حَول نَفْسه هو وقوته، ولكن صبره ليس لله؛ إذ ليس صبره فيما هو مُراد الله الديني منه، فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، ورُبَّما كانت عاقبته شر العواقب...

الرابعة: من فيه صبر لله، لكنه ضعيف النَّصيب من الصبر به، والتوكّل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف، عاجز، مخذول في كثير من مطالبه؛ لضعف نصيبه من إياك نعبد وإياك نستعين، فنصيبه من الله أقوى من نصيبه

(١) المصدر السابق (٢/١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ حيث ذكّر سبحانه نبيَّه ﷺ لما أنعم عليه من تنزيل القرآن عليه بأن يصبر لحكمه، وهو يَعُم الحكم الديني الذي أمره به في نَفْسه، وأمره بتبليغه، والحكم الكوني الذي يجري عليه مِنْ رَبِّهِ؛ فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمْرِهِ ونَهْيِهِ، وهو حكمه الديني، وابتلاهم بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ، وهو حُكْمُه الكوني، وفَرَضَ عليهم الصبر على كل واحد من الحكمين.

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٨٦).

بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف، وصابر بالله لا لله حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، فصابر لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجز محمود»[١]. اهـ.

سابعًا: من حيث قوته وضعفه:

وله في ذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون القَهْر والغَلَبة لداعي الدِّين، فيردّ جيش الهوى مغلوبًا، وهذا إِنَّمَا يَصِلُ إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا.

الثانية: أن تكون القُوَّة والغَلَبَةُ لِدَاعِي الهَوَى، فيُسْقِط مُنَازِعه باعثَ الدين بالكلّية، فيستَسْلِم البَائِسُ للشَّيْطَان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا.

وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شِقْوَتُهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

الثالثة: أن تتنازعه القوّتان: قوة الدِّين وقوة الهوى، فتارة: يكون صاحب ديانة وصيانة، وتارة: يكون صاحب هوى. ثم هو مِنْ بعد لمن غلب عليه منهما[٢].

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) بتصرُّف يسير.

(٢) انظر: «عدة الصابرين» (ص٣٩ ـ ٤٢).

أنواع الصبر

أولًا: أقسام الصبر باعتبار مُتَعَلَّقه:

إذا نظرنا إلى الصبر باعتبار مُتَعَلَّقه فإن عامّة أهل العلم يجعلونه **ثلاثة أنواع**، مَنِ اسْتَكْمَلَها فقد استكمل الصبر.

الأول: الصبر على الطاعات:

وما أمر الله به من العبادات، وما يلحق النَّفْس في إقامتها من المشَقَّة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ العَبْدَ لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبر ومُصَابرة ومُجاهدة لعدوِّه الظاهر والباطن، فبِحَسَب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات، وفِعْله للمستحبات»[1]. اهـ.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

قال صاحب «المنازل»: «الصَّبْرُ عَلَى الطاعة بالمُحَافَظَةِ عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها عِلْمًا»[2]. اهـ.

والصبر على الطاعة هو الثبات على أحكام الكتاب والسُّنَّة، وينقسم إلى «ثلاثة أحوال:

١ ـ حال قبل العبادة: وهو الإخلاص، وتصحيح النية، والصبر عن شوائب الرياء.

٢ ـ حال في نَفْس العبادة: وهو ألَّا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن.

٣ ـ حال العبد بعد الفراغ من العبادة: وهو الصبر عن إفشاء العمل، والتظاهر به؛ لأجل الرياء والسُّمْعة، وعن كل ما يُبْطِل عمله، فمَنْ لَمْ يَصْبِرْ بعد الصَّدَقَةِ عَنِ المَنِّ وَالأذَى أبْطَلَها»[3].

---

(١) «جامع المسائل» (١/ ١٦٦).

(٢) «منازل السائرين» (ص٥٠).

(٣) ما بين الأقواس من «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٤٥) باختصار وتصرف، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠).

ومن الصور الداخلة تحت الصبر على الطاعة[1]:

أ ـ الصبر على مشاق الدعوة إلى الله:

قال تعالى عن عَبْدِهِ لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

«ويحتاج الداعي إلى الله الصبر في ثلاثة أحوال:

١ ـ قبل الدعوة بتصحيح النيَّة والإخلاص، وتجنّب دَوَاعِي الرِّيَاء والسمعة، وعقد العزم على الوفاء بالواجب.

٢ ـ أثناء الدَّعْوَة، فيُلَازِمُ الصَّبر عن دواعي التقصير والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذِكْر النية، وعلى حضور القلب بين يدي الله تعالى، ولا ينساه في أمره.

٣ ـ بعد الدعوة، **وذلك من وجوه:**

ـ أن يُصَبِّر نَفْسه عن الإتيان بما يُبطل عمله، فليس الشأن في الإتيان بالطاعة، وإنما الشأن في حِفْظها مما يُبْطِلها.

ـ أن يصبر عن رؤيتها، والعُجب بها، والتَّكبّر والتَّعظّم بها.

ـ أن يصبر على نقلها من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية؛ فإنَّ العَبْدَ يَعْمَلُ العمل سِرًّا بينه وبين الله سبحانه، فيُكْتَب في ديوانه السِّر، فإن تحدث به نُقِلَ إلى ديوان العلانية»[2].

ب ـ الصبر حين البأس:

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ج ـ الصبر في مجال العلاقات الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ۝١٩﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) انظر: «رفقاً بالقوارير» (٤٨٧ ـ ٤٨٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١١٨ ـ ١١٩) باختصار وتصرف.

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الثاني: الصبر عما نهى الله عنه من المحرمات والمعاصي، وقَمْع الشهوات ومجاهدة النَّفْس:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإن النَّفْس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء تأمره بالمعصية، وتُجَرِّئه عليها، فبِحَسَب قوّة الصبر يكون تَرْكه لها. قال بعض السلف: «أعمال البِرّ يفعلها البَرّ والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلَّا صِدِّيق»[١]»[٢]. اهـ.

وهكذا الصبر عن مُشْتَهَيات النَّفْس:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

الثالث: الصبر على المصائب المُؤْلمة، والكوارث المُفْجِعة، والابتلاء والامتحان:

وهي ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ «**نوعان:**

نوع: لا اختيار للخَلْقِ فيه كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسْهل الصبر فيها؛ لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقَدَره، وأنه لا مَدْخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارًا وإما اختيارًا.

فإن فَتَح الله على قلبه باب الفِكْرة في فوائدها، وما في حَشْوها من النِّعم والألْطاف، انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها، والرِّضا بها...

النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرْضه أو نَفْسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًّا؛ لأن النَّفْس تسْتَشْعر المُؤذي لها، وهي تكره الغَلَبَة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصدِّيقون.

وكان نبيّنا ﷺ إذا أُوذِيَ يقول: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٧، ٢١١) عن سهل التستري رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «جامع المسائل» (١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخبر عن نبيٍّ من الأنبياء أنه ضَرَبَهُ قومُهُ، فأَدْمَوْهُ، وهو يمْسَحُ الدَّمَ عن وجهه، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»(١). وقد روي عنه ﷺ أنه جرى له هذا مع قومه، فجعل يقول مثل ذلك(٢). فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون»(٣).اهـ.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وإن كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاثة؛ فالصبر لازم له أبدًا، لا خروج له عنه البتة»(٤).اهـ.

«فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فِعْل المأمور، وتَرْك المحظور، والصبر على المقدور، وقد ذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢]، فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف»(٥).

وزاد بعضهم نوعًا رابعًا، وهو «الصبر على النِّعَم، وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبّر بها»(٦).

وقال بعضهم: «الصبر صبران: صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وصبر عما تحب»(٧).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر صَبْرَان: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة، كما قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «ما تجرَّع عبدٌ جُرْعة أعظم من جُرْعة حِلم عند الغضب، وجُرْعة صبر عند المصيبة»(٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٦/ ١٢٠/ ٥٦٩٤)، وصحَّحه ابن حبان (٩٧٣)، والألباني في «الصحيحة» (٧/ ٣١)، و«الضعيفة» (١٤/ ١١٩٢)، وراجع: كلام ابن حبان على هذا الحديث.

(٣) «جامع المسائل» (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧). (٤) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٥٠) باختصار وتصرف.

(٦) ذكره ابن جزي في «التسهيل» (١/ ٦٥)، وانظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٦١).

(٧) «شرح نهج البلاغة» (١٨/ ١٨٩).

(٨) هذا الأثر لم أجده من قول الحسن، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٩) ومن طريقه البيهقي في =

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المُؤلم... ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟»** قالوا: الرَّقُوب الذي لا يُولَدُ لَهُ. قال: **«لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ، وَلَكِن الرَّقُوب الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا»**. ثم قال: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟»** قلنا: الذي لا يَصْرَعُهُ الرِّجَال. فقال: **«لَيسَ بِذَاكَ، وَلَكِنَّ الصُّرَعَةَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**[(١)].

فذكر ما يتضمَّنُ الصَّبْرَ عند المصيبة، والصبر عند الغضب.

قال الله تعالى في المصيبة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، وقال تعالى في الغضب: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥]. وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النِّعْمَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١]، وقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وكلتا النِّعْمَتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر، أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السَّرَّاءِ فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السَّرَّاءِ أعْظَم من فتنة الضراء، كما قال بعض السلف: «ابْتُلِينَا بالضَّرَّاء فصبرنا، وابْتُلِينَا بالسَّرَّاء فلم نَصْبِر»[(٢)]...

والفقر يصلح عليه خلقٌ كثير، والغنى لا يصْلُحُ عليه إلّا أقلّ منهم؛ ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم اشتهر ذِكْر الشكر في السراء، والصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ

= الآداب (١٦٧)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٧٢)، كلهم عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) من كلام عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٥٩٣).

لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١]، ولأن صاحب السراء أَحْوَج إلى الشكر، وصاحب الضراء أَحْوَج إلى الصبر؛ فإن صبر هذا وشكر هذا واجب، إذا تَرَكه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء، فقد يكون مُسْتحبًا إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجبًا، ولكن لإتيانه بالشكر الذي هو حسنات يَغْفِر له ما يَغْفِر من سيئاته.

وكذلك صاحب الضراء، لا يكون الشُّكر في حقِّه مستحبًا إذا كان شكرًا يصير به من السابقين المقرَّبين. وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغْفَر له، لما يأتي به من الصبر؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعًا يكون مع تألم النَّفْس وتَلَذُّذِها، يصبر على الألم، ويشكر على النِّعم»[١]. اهـ.

ثانيًا: أقسام الصبر باعتبار ما يُوصَف به من الحَمْد والذَّم:

«ينقسم الصبر بالنظر إلى ما يوصف به من الحَمْد أو الذَّم إلى قسمين: **قِسْم مذموم، وقِسْم ممدوح؛ فالمذموم: الصبر عن الله، وإرادته، ومحبته، وسَيْر القلب إليه؛ فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية، وتفويت ما خُلق له، وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظَمُه وأبلغه؛ فإنَّهُ لا صبر أبْلَغ مِن صَبْر مَن يَصْبر عن مَحْبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زُهْدَ أبْلَغ مِن زُهْد الزَّاهِد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعَجَّب لزهده: «ما رأيت أزهد منك! فقال: أنت أزهد مني؛ أنا زَهِدت في الدنيا، وهي لا بقاء لها ولا وفاء، وأنت زهدت في الآخرة؛ فمَن أزهد منا؟!»**[٢].

قال يحيى بن معاذ الرازي: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون؟!».

وفي هذا قيل:

الصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

وقيل: «الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء»[٣].

وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ١٧١ ـ ٢٧٤)، مع «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٦).

(٢) ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات» (٢٤/ ٦٠)، عن الفضيل رحمه الله.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٨٠).

العبد وفلاحه في محبته؟!»[1].

«الثاني: الصبر المحمود الممدوح، وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالصبر بالله هو الاستعانة به، والصبر لله هو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرّب إليه.

والصبر مع الله هو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرًا نَفْسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها... وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هَيِّن على المؤمن، وهُجْران الخَلْق في جنب الله شديد. والمسير من النَّفْس إلى الله صَعْب شديد، والصبر مع الله أشدّ»[2]»[3].

«وزاد بعضهم قِسْمًا آخر من أقسام الصبر وسَمَّاه: الصبر فيه، وهو غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة»[4].

وقال ابن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «في القرآن اثنان وثمانون موضعًا: الصبر محمود، وموضعان مذموم. قال: المذموم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، أو قال: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾ [البقرة: ١٧٥]»[5].

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الصبر ضَرْبان: أحدهما**: ضَرْب بدني، وهو إمَّا بالفِعْل، وإمَّا بالاحْتِمَال. **والضَّرْب الآخر**: الصَّبْر بالنَّفْس عن مُشْتَهيات الطَّبْع، ومقتضيات الهوى»[6]. اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **أن له ثلاثة أحوال**[7]:

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٧٨) باختصار وتصرف يسير.

(٢) أخرجه القشيري في «رسالته» (٣٢٢) عن أبي عبد الرحمٰن بإسناده إلى الجنيد.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧) بتصرُّف واختصار، وانظر: «عدة الصابرين» (ص٨٧)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٥).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٨٧) بتصرُّف يسير.

(٥) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٠٣٣).

(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٦ ـ ٦٧) باختصار وتصرف.

(٧) انظر: «عدة الصابرين» (ص٢٤ ـ ٢٧).

أحدها: أن يكون القهر والغَلَبة لداعي الدِّين.

الثاني: أن تكون القوة والغَلَبة لداعي الهوى.

الثالث: أن تتجاذبه القوَّتان، فهو للأغلب منهما.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا عرفت هذه الأقسام فَهِيَ مُخْتَصَّة بِنَوْعِ الإِنْسَانِ دون البهائم، ومشاركة للبهائم في نوعين منها، وهما صبر البدن والنَّفْس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسان، وإِنَّمَا يَتَمَيَّز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم، لا في النَّوْع الذي يخص الإنسان، فيُعَدّ صابرًا، وليس من الصابرين»(١).اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٣٥).

مراتب الصبر

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مراتب الصبر خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبَّار»[١]. اهـ.

«**فالصابر**: أعمها، **والمصطبر**: المُكتسب الصبر المليء به، **والمُتصبّر**: المُتكلّف، حامل نَفْسه عليه، **والصبور**: العظيم الصبر، الذي صَبْره أشدّ مِنْ صَبْرِ غيره، **والصبَّار**: الكثير الصبر»[٢].

«وقيل: الصبر على ثلاثة مقامات مُرَتَّبَة بعضها فوق بعض، فالأول: هو **التَّصَبُّر**؛ وهو تحمّل مشقة، وتَجَرُّع غصّة، والثبات على ما يجري من الحكم، وهذا هو التصبّر لله.

والثاني: **الصبر**، وهو نوع سهولة، تخفّف عن المُبْتَلى بعض الثِّقل، وتُسَهِّل عليه صعوبة المُراد، وهو الصبر لله.

والثالث: **الاصطبار**، وهو التلذّذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله، وهو صبر العارفين... والاصطبار افْتِعَالٌ مِنَ الصبر، وهو مُشْعِر بزيادة المعنى على الصبر؛ كأنه صار سجيَّة وملَكَة... وإذا عُلِمَ هَذَا فالتَّلَذّذ بِالْبَلْوَى، والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخصّ الاصطبار، بل يكون مع الصبر، ومع التصبّر، ولكنه لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى؛ كان بهذا التلذّذ والاستبشار أَوْلَى، والله أعلم»[٣].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

قال بعضهم: «معنى ذلك: اصبروا على دينكم، وصابروا الكفار»[٤].

وهذا يُرْوَى عن الحسن[٥] ونحوه عن قتادة؛ حيث عبَّر عن ذلك بقوله: «اصبروا على طاعة الله، وصابروا أهل الضلالة»[٦].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٧٨).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٨).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٧) باختصار وتصرف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠١). (٥) المصدر السابق (٧/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٦) المصدر السابق (٧/ ٥٠٢).

وقيل: «اصبروا على الجهاد، وصابروا عدوّكم»، وهذا مرْوِيٌّ عن زيد بن أسلم[١].

وقيل: «اصبروا على دينكم، وصابروا لوعدي الذي وعدتكم»، وهذا مروِيٌّ عن محمَّدِ بن كَعْب[٢].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «قيل في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المُصابرة، والمُصابرة دون المُرابطة...

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله...

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله...

وقيل: اصبروا على النّعماء، وصابروا على البأساء والضَّرَّاء...

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوِّك»[٣]. اهـ.

«وقد يَصْبر، ويُصَابِر، ويرابط من غير تعبُّد بالتَّقْوَى، فأخْبَرَ سُبْحَانَه أن مِلَاك ذلك كله: التَّقْوَى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: ١٨٩]»[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠٣) واللفظ له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٠٣)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٣٤).

أقسام الناس في الصبر

يمكن أن نُجْمِل ذلك في أربعة أقسام[١]:

الأول: من يشهد الأمر الكوني؛ يعني: القضاء، والقدر، والحقيقة الكونية، دون أن يشهد الأمر الشرعي؛ أي: الحقيقة الشرعية، وهذا حال كثير ممَّنْ قَدْ يَصْبِرُون على ألوان البلايا والآلام والمصائب، إلَّا أنَّهُم لا يقفون عند أمر الله الشرعي، فلا يقفون عند حدود الحلال والحرام، ولا يفعلون ما أمرهم الله تبارك وتعالى به، لكنهم قد يتجلّدون، ويصبرون، ويتحمَّلُون كثيرًا، ولكنّ تحمّلهم هذا إنما هو في الأمور التي لا اختيار لهم فيها، فهؤلاء لا يُفَرِّقُون في حقيقة الأمر بين ما يُحِبّه الله ﷻ وبين ما يسخطه.

الثاني: مَنْ يَشْهَدُونَ الأمر الشرعي دون الأمر الكوني عكس أولئك... وهؤلاء هم ضعفاء أهل الإيمان، قد تجد الرجل مُصَلِّيًا، صائمًا، ذاكرًا، عابدًا، ولكنه إذا وقع في مَكْرُوه، أو أصابته مصيبة، فهو في غاية الجَزَع، لا يتحمَّل، ولا يصبر، وسَرْعان ما ينكسر، ويَتَضَعْضَع، وربما انقلب على وجهه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١]، وهذا حال كثير من الناس، يكون الرجل صاحب عبادة، ولكن لا صبر له على المصائب، والآلام، والأمور المكروهة، فهؤلاء ليسوا من أهل الاستطاعة، ولا من أهل الثبات والصبر، وإنْ كانت لهم طاعة.

الثالث: مَنْ لا صَبْرَ له على القضاء، وليس له صبر أيضًا على الطاعة، وهو أسوأ الأقسام ـ نسأل الله العافية ـ، لا يعبد الله ﷻ، ولا يتقَرَّب إليه، ولَا يصبر على إقامة عبوديته، ولا يصبر عن شهوات النَّفْس ومحبوباتها، ومع ذلك هو جَزِعٌ، هَلِعٌ، بعيد عن الصبر غاية البُعْدِ.

الرابع: وهو أعلى هذه الأقسام، وهم مَنْ جَمَعُوا بين الصبر على مُرِّ القضاء وبين الصبر على الطاعة وعن المعصية، فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، شهدوا أمر الله الشَّرْعِيّ، والحقيقة الشرعية، وشَهِدُوا أيضًا الأمر الكوني، فجمعوا بين الصبرَيْنِ؛ فهؤلاء هم

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٨ ـ ٦٧٣).

عباد الله المتّقون، وهذا يُعلم بالاستقراء والتَّتبّع لأصناف الناس، فإنهم لا يخرجون عن هذه الأقسام الأربعة. وقد قسَّمَهُمْ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ باعتبار التقوى والصبر إلى أربعة أقسام، وهي في الواقع تعود إلى ما ذُكِر[1].

وهؤلاء الذين لا صبر لهم ولا تَقْوى هم الذين ذكرهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾؛ أي: لا يصبر على المصائب، وهذا هو الأمر الكوني.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾؛ أي: لا يفعل ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ من إخراج زكاة المال والصدقات، وهذا هو الأمر الديني، وهؤلاء في حال التمكّن من أشد الناس عُتُوًّا وجبروتًا وظلمًا للعباد، وفي حال الانكسار تجدهم أذلَّ الناس، وأكثر الناس جَزَعًا وهَلَعًا وضعفًا، وهذه شَرّ أوصاف العبد.

والكامل مَنْ كَانَ لله أطْوَع، وعلى ما يُصِيبُهُ أصْبَر، فكُلَّما كان العبد أكثر اتّباعًا لما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به، وأعظم اجتنابًا لما نهاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، وأعظم صبرًا على الأقدار؛ كان أعظم تحقيقًا للإيمان، وتكميلًا للنَّفْس، ورِفْعة في الدرجات؛ فإن نَقَص منه شيء مِنْ هَذِه الأوصاف نقصت مرتبته. والناس في هذا يتفاوتون؛ فمنهم من تكون قُوَّةُ صَبْرِهِ على فِعْل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى مِنْ صَبْرِهِ عما يضرّه، فيصبر على مشقَّة الطَّاعَةِ، ولا صبر له على داعي هواه إلى ارتكاب ما نُهِيَ عنه؛ ومنهم مَنْ لَا صبر له على هذا ولا ذاك. وأفضل الناس أصبرهم على النَّوْعَيْنِ.

وهذه قضايا للتربية فيها مدخل كبير، وتأثير عظيم بليغ، وعلى العاقل أن يُعَوِّل على الصبر في أمره كلّه، فلا سبيل له إلى جَلْب ما ينفعه، أو دَفْع ما يضرّه إلا بالصبر.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧٣ ـ ٦٧٤)، و«دقائق التفسير» (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

مراتب الناس حال المصيبة

الناس حال المصيبة على مراتب أربع[١]:

الأولى: التَّسَخُّط، وذلك قد يكون بالقلب، كأن يسخط على ربه، ويغضَب على قَدَرِهِ، وقد يُؤَدِّي به إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

وقد يكون باللّسان؛ كالدعاء بالوَيْلِ والثبور، وما أشبه ذلك.

وقد يكون بالجوارح؛ كَلَطْمِ الخُدُودِ، وشَقِّ الجُيُوبِ، ونَتْفِ الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر[٢]:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه، ويكرهه، لكنه يتحمله، ويصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا، ولكن إيمانه يحميه من السَّخَط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، وإنْ كان قد يحزن من المصيبة، فهو إن أُصيب بنعمة أو أصيب بضدِّها فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميّت، بل لتمام رضاه بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، فيكون في عباد الله الشاكرين، فيرى الواحد منهم أن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وقد قال النبي ﷺ: **«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»**[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما طُعِنَ حَرَام بن مِلْحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر

---

(١) انظر: «مغني المريد» (٢٢٨٠ ـ ٢٢٨١).

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومن حديث عائشة رضي الله عنها (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

معونة، قال بالدم هكذا، فنَضَحه على وجهه ورأسه، ثم قال: «فزْتُ وَرَبِّ الكعبة»[١].

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدتُ حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك؟ قال: «**إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يَا رسول الله! أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»[٢].

وخطب معاذ بن جبل ﷺ، فذكر الطاعون، فقال: «إنها رحمة الله ربكم، ودعوة نبيكم ﷺ، وقَبْض الصالحين قبلكم، اللَّهُمَّ أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذه الرَّحمة»[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٠٧)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٩٦) و(٥/ ٢٤٠، ٢٤١) من طرق عن معاذ ﷺ، وقد جوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٢)، وراجع: «بذل الماعون» للحافظ ابن حجر (ص٢٥٩ ـ ٢٦٢).

ما ينافي الصبر وما لا ينافيه

أولًا: الشكوى:

«الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصَّبر؛ فإن نبي الله يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وَعَد لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكذلك أيوب عليه السلام أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]»[1]، فعُلِم أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه فإن ذلك لا يقدح في صبره، وقد عُرِّفَ الصَّبْرُ بأنه ترك الشكوى من أَلَمِ البَلْوَى لِغَيْر الله.

«فإعراض العبد عن الشكوى إلى غير الله جملة، وجَعْل الشكوى إليه وحده سبحانه هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه، وتضرّعه، ودعاءه. وقد ذم سبحانه من لم يتضرَّع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٦]، والعبد أضعف من أن يتجلّد على رَبِّه، والرب تعالى لم يُرِدْ مِنْ عَبْدِهِ أن يتجلَّدَ علَيْه، بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرَّعَ إِلَيْهِ، وهو تعالى يمقت مَنْ يَشْكُوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه»[2]. وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إليه.

وقد قيل[3]:

وإِذَا عَـرَتْـكَ بَـلِـيَّـةٌ فَـاصْـبِـرْ لـهَـا ... صَـبْـرَ الْـكَـرِيـمِ فَـإِنَّـهُ بِـكَ أَعْـلَـمُ
وَإِذَا شَـكَـوْتَ إِلَـى ابْـنِ آدَمَ إِنَّـمَـا ... تَـشْـكُـو الـرَّحِـيـمَ إِلَـى الَّـذِي لَا يَـرْحَـمُ

وقد قال شقيق البلخي: «مَنْ شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا»[4].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦١) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٦٣) بتصرُّف.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦١).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٤٤).

وقال أبو علي الدقّاق: «الصبر حَدّه ألَّا تعترض على التقدير»[١].

فأما إظهار البلاء على غير وَجْهِ الشَّكْوَى، فإنه لا ينافي الصبر؛ «فالشَّكْوَى نوعان: الشكوى إلى الله، فهذا لا ينافي الصبر، والثاني: شكوى المبْتلى بِلِسَان الحال أو المقال»[٢]، فهذه فيها تفصيل، وقد تقدَّم الكلام على ذلك، **وخلاصة القول في ذلك أن المراتب أربع:**

الأولى: ألَّا يشكو إلَّا إلَى الله، وهذه أعلى المَرَاتِب.

الثانية: أن يذكر عِلَّته، ويصفها عند مَنْ يَرْجُو عنده الدواء؛ كشَكْوَى المريض إلى الطبيب، فمثل هذا جائز.

الثالثة: ما يُذْكَر من ذلك على سبيل الإخبار لا الشكاية. وهذا جائز أيضًا، وقد يكون تَرْكه أوْلَى إلا لمصلحة أو حاجة.

الرابعة: ما يُذكَر منه على سبيل التشكِّي، وعدَم الصبر على أقدار الله. وقد يكون ذلك بلسان الحال لا المقال، وكل ذلك من قِلَّة العقل، وضَعْف الإرادة.

وأما ما ورد في الباب مما يُوهِم خلاف ما ذكرنا، فليس على ما يتوهّمه المُتَوَهِّم، فمِنْ ذلك أن النبي ﷺ لما سمع عائشة ﵂ تقول: وا رأساه، قال: «**بَلْ أَنَا وا رَأْسَاهُ**»[٣]. ومن اعتبر هذه الجملة في سياقها من الحديث أدرك ما يتعلق بذلك من المصلحة.

وهكذا قوله ﷺ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»[٤].

وقوله عليه الصلاة والسلام في مرض موته: «**إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**»[٥].

وقوله: «**يَا عَائِشَةُ! مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»[٦].

ومنه قول سعد بن أبي وقاص ﵁ للنبي ﷺ: إني قد بلغ بي الوَجَع، وأنا ذو مال، ولا يَرِثُني إلا ابنة... الحديث[٧].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٤ ـ ٢٥) باختصار وتصرف.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

(٦) أخرجه البخاري (٤٤٢٨).

(٧) أخرجه البخاري (١٢٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

فهذا ونحوه إنما هو على سبيل الإخبار، لا على سبيل الشكاية والتسخُّط، وهذا مما يُعْلَم، ولا يخفى.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «صحيحه»**: «باب قول المريض: إني وَجِع، أو وا رأساه، أو اشتد بي الوجع. وقول أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]».

ثم أورد تحته الحديثين السابقين، وحديث كعب بن عُجْرَة لما قال له النبي ﷺ: «**أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**». قال: نعم. وحديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما قال للنبي ﷺ: إنك لتوعك وعكًا شديدًا! قال: «**أَجَلْ، كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلتُ: لعلّ البخاري أشار إلى أن مُطْلَق الشكوى لا يُمنَع، ردًا على من زعم من الصوفية أن الدعاء بكشف البلاء يَقْدَح في الرضا والتسليم! فنبَّه على أن الطلب من الله ليس ممنوعًا، بل فيه زيادة عبادة لما ثبت مثل ذلك عن المعصوم، وأثنى الله عليه بذلك، وأثبت له اسم الصبر مع ذلك...

فكأن مُراد البخاري أن الذي يجوز من شَكْوى المريض ما كان على طريق الطَّلَب من الله، أو على غير طريق التَّسَخُّط للقَدَر والتَّضَجُّر، والله أعلم.

قال القرطبي: «اختلف الناس في هذا الباب، والتحقيق أن الألَم لا يقدر أحد على رفعه، والنفوس مَجْبُولة على وِجْدَان ذلك، فلا يُسْتَطاع تغييرها عما جُبِلَت عليه، وإنما كُلِّف العبد ألَّا يقع منه في حال المصيبة ما له سبيل إلى تَرْكه؛ كالمبالغة في التَّأَوُّه والجَزَع الزائد، كأنّ مَن فَعَل ذلك خَرَج عن معاني أهل الصبر، وأما مُجرّد التَّشَكِّي فليس مذمومًا، حتى يحصل التَّسَخُّط للمقدور، وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه، وشكواه إنما هو ذِكْره للناس على سبيل التَّضَجُّر، والله أعلم».اهـ.

وروى أحمد في «الزهد» عن طاوس أنه قال: «أنين المريض شكوى»(١). وجزم أبو الطيب، وابن الصَّبَّاغ، وجماعة من الشافعية أن أنين المريض، وتَأَوُّهَه مكروه، وتَعَقَّبَه النووي فقال: «هذا ضعيف، أو باطل؛ فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود، وهذا لم يثبت فيه ذلك»، ثم احتج بحديث عائشة في الباب، ثم قال: «فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى؛ فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى»(٢).اهـ.

---

(١) لم أقف عليه في كتاب «الزهد»، ولكن قد أخرجه أبو نعيم وغيره، وهو في «سيرة الإمام أحمد» لابنه صالح، وقد تقدم تخريجه: «أنه ذُكِرَ عند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتَّى مَاتَ».

(٢) انظر: «المجموع» (٥/ ١١٢).

ولعلهم أخذوه بالمعنى؛ من كون كَثْرة الشكوى تدل على ضَعْف اليقين، وتُشْعِر بالتَّسَخط للقضاء، وتُورِث شماتة الأعداء.

وأما إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به اتفاقًا...

وفيه ـ أي: حديث عائشة ﵂ ـ أن ذِكْر الوَجَع ليس بشكاية، فكم من ساكت وهو ساخط؟! وكم من شاك وهو راض؟! فالمُعَوَّل في ذلك على عمل القلب، لا على نُطْق اللسان»[(١)]. اهـ.

ثانيًا: الجزَع:

«والصبر والجَزَع ضِدَّانِ؛ ولهذا يُقَابَل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

والجَزَع قرين العَجْز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادته»[(٢)].

وقال أحمد بن حمدون عن أبيه: «لا يجزع من المصيبة إلا مَن اتَّهَمَ رَبَّه»[(٣)].

وقال عمر بن عبد العزيز ﵀: «ليس الجَزَع بمُحْيِي مَنْ مَاتَ، ولا برادٍّ مَا فات»[(٤)].

وقال عبيد بن عُمَير ﵀: «ليس الجَزَع أن تدْمَعَ العَيْن ويحْزَنَ القلب، ولكن الجَزَع القول السيِّئ، والظن السيِّئ»[(٥)].

ولما مات أبو الحسين بن عبد العزيز الجروي قيل لأمه: تَعَزّي، فقالت: «مصيبتي أعْظَم مِنْ أنْ أُفْسِدها بجَزَع»[(٦)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، فالجزع عند ورود المصيبة يضادّ الصبر، والمَنْع عند ورود النعمة يضادّ الشكر.

ثالثًا: البكاء والحزن[(٧)]:

مذهب أحمد وأبي حنيفة[(٨)] جواز البكاء على الميت، قبل الموت وبعده، وكرهه

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ١٣١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الاعتبار» (١٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ١٠٨).

(٥) «عدة الصابرين» (١٨٦ ـ ١٨٧).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٧٢٠).

(٧) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٨٩ ـ ١٩٤).

(٨) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٣١٠)، و«الإنصاف» (٦/ ٢٧٩).

الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخّصوا فيه قبل خروج الروح[١]، واحتجوا بما يلي:

١ ـ عن جابر بن عَتِيك ﷺ، أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غُلِبَ، فصاح به رسول الله ﷺ، فلم يُجِبْهُ، فاسْتَرْجَع رسول الله ﷺ، وقال: «غُلِبْنَا عليك يا أَبَا الرَّبِيعِ!»، فصاح النسوة، وبكَيْن، فجعل ابن عَتِيك يسكّتهن، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ»، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟! قال: «الْمَوْتُ»[٢].

٢ ـ عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»[٣].

٣ ـ عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ مَرَّ بِنِسَاءِ عبد الأشهل يبكين هَلْكَاهُنَّ يوم أُحُد، فقال رسول الله ﷺ: «لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ»، فجاء نساء الأنصار يبكين حمزة، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: «وَيْحَهُنَّ، مَا انْقَلَبْنَ بَعْدُ، مُرُوهُنَّ فَلْيَنْقَلِبْنَ، وَلَا يَبْكِينَ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الْيَوْمِ»[٤].

قالوا: وهذا صريح في نَسْخ الإباحة المتقدِّمة، والفرق بين ما قبل الموت وبعده: أنه قبل الموت يُرْجَى، فيكون البكاء عليه حَذرًا، فإذا مات انقَطَع الرجاء، وأُبْرِمَ القَضَاء، فلا ينفع البكاء.

واحتجَّ المُجَوِّزون بما يلي:

١ ـ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما قُتِل أبي جعلتُ أكْشف الثوب عن وجهه أبكي، وينهوني عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»[٥].

٢ ـ عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (١/٣١٨ ـ ٣١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١١) واللفظ له، والنسائي (١٨٤٦)، وفي سنده اختلاف يسير لا يضر، كما في «الإصابة» (١/٢١٥)، ولذا صحّحه ابن حبان (٣١٨٩، ٣٩٠)، والحاكم (١/٣٥٢)، والذهبي، والألباني في «صحيح الموارد» (١٣٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٩١)، وصحّحه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/٤٥٢)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٥٥٦٣، ٥٦٦٦)، والألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٣٠٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/١٢٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧١).

الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا ـ وأشار إلى لسانه ـ **أَوْ يَرْحَمُ**»(١).

٣ ـ عن أسامة بن زيد ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته، يدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»، فأعادت الرسول أنها قد أقسَمَت لتأتينّها، فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه ونَفْسه تَقَعْقَع كأنها في شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله! ما هذا؟ قال: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(٢).

٤ ـ عن عائشة ﷺ، أن سعد بن معاذ لما مات ﷺ حَضَرَهُ رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، قالت: «فوالذي نَفْس محمَّد بِيَدِهِ، إنّي لَأعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي»(٣).

٥ ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: «زار النبي ﷺ قَبْرَ أمِّه، فبَكى، وأبْكى مَنْ حَوْلَه»(٤).

٦ ـ وعن عائشة ﷺ أنَّ النبيّ ﷺ قبَّل عُثْمَان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي(٥).

فهذه الأدلة وغيرها تدل على عدم كراهة البكاء، فتعيَّن حَمْل أحاديث النهي على البكاء الذي معه نَدْب ونياحة؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر ﷺ: «**الميّت يُعَذَّب فِيْ قبره بما نِيحَ عليه**»(٦)، وفي بعضها: «**إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه**»(٧).

وأمَّا دَعْوَى النسخ في حديث حمزة ﷺ فلا يصحّ؛ إذ معناه: لا يبكينّ على هالك

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٤١ ـ ١٤٢)، وصحَّحه ابن حبان (٧٠٢٨)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ١٩١)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٥١)، والألباني في «الصحيحة» (٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وصحَّحه الترمذي، والحاكم(١/ ٣٦١) (٣/ ١٩٠)، والذهبي، وابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩٣)، وأما الشيخ الألباني ﷺ فقد ضَعَّفَهُ في «الإرواء» (٦٩٣)، ثم عاد وحسَّنه في «صحيح ابن ماجه» (١٢٠٠)، ثم انتهى أمره إلى تضعيفه في «الضعيفة» (٢٨/١٣)، والله أعلم.

(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).

(٧) أخرجه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٨).

بعد اليوم مِنْ قَتْلَى أُحُد، ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخِّرة عن غزوة أُحد، وقولهم: إنما جاز قبل الموت حَذرًا، بخلاف ما بعد الموت، فجَوَابُهُ: أن البَاكِي قبل الموت يبكي حُزنًا، وحزنه بعد الموت أشد، فهو أوْلَى بِرُخْصَة البكاء من الحالة التي يُرْجَى فيها، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

رابعًا: الندب والنياحة:

قال ابن عبد البر رحمه الله: «أجمع العلماء على أنَّ النّياحة لا تجوز للرِّجَال، وَلَا للنساء»[2]. اهـ.

«**وقال بعض المتأخّرين من أصحاب أحمد**: يُكرَه تنزيهًا[3]، والصواب القول بالتحريم»[4]، وعلى ذلك أدلة كثيرة، مِنْهَا:

١ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[5].

٢ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «أنا بريء مما بَرِئَ مِنْهُ رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَة، والحَالِقَة، والشَّاقّة»[6].

٣ ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ**»[7].

٤ ـ وعن أُمِّ عطيَّة رضي الله عنها قالت: «أخَذَ عَلَيْنَا النبي ﷺ عند البيعة ألَّا نَنُوح»[8].

٥ ـ وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «الاستذكار» (٨/ ٣١٤).

(٣) «الهداية» للكلوذاني (ص١٢٤).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٩٥) باختصار وتصرف، وانظر: «الإنصاف» (٦/ ٢٨٠)، و«الفروع» (٣/ ٤٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣).

(٦) ذكره البخاري تعليقًا (١٢٩٦)، وأخرجه مسلم (١٠٤).

(٧) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣).

(٨) أخرجه البخاري (١٣٠٦) واللفظ له، ومسلم (٩٣٦).

وقال: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[١].

وكيف لا تكون هذه الخصال مُحَرَّمة وهي مُشْتملة على التَّسَخّط على الرَّبِّ، وفِعْل ما يُنَاقِض الصبر، والإضرار بالنَّفْس مِنْ لَطْمِ الوَجه، وحلْق الشعر، ونَتْفه، والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلّم من الله سبحانه، وإتلاف المال بشقّ الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه؟! ولا رَيْبَ أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صِدْقًا، لا على وجه النَّوح والتَّسَخط فلا تُحَرّم، ولا تنافي الصبر الواجب.

فعن أنس ﷺ قال: لمَّا ثَقُلَ النبي ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمة ﷺ: وا كَرْبَ أبَاهُ! فقال لها: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**»، فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب رَبًّا دعاه، يا أبتاه! مَنْ جَنَّة الفردوس مأواه، يا أبَتاه! إلى جبريل نَنْعَاهُ[٢].

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «يُسْتَفَادُ من الحديث جواز التوجُّع للميت عند احتضاره بمثل قَوْلِ فاطِمَةَ ﷺ: «وا كَرْبَ أباه»، وأنه ليس من النياحة؛ لأنه ﷺ **أَقَرَّهَا** على ذلك. وأما قولها بعد أن قُبِضَ: «وا أبتاه»... إلخ فيؤخذ منه أن تلك الألفاظ إذا كان الميت متَّصِفًا بها لا يُمْنع ذِكْره لها بعد موته، بخلاف ما إذا كانت فيه ظاهرًا، وهو في الباطن بخلافه، أو لا يتحقَّق اتصافه بها، فيدخل في المنع»[٣]. اهـ.

وقد قال النبي ﷺ: «**وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[٤].

فهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلّم للمقدور، ولا تسخّط على الرَّبِّ، ولا إسخاط له، فهو كمجرّد البكاء[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٧٥٦ ـ ٧٥٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) انظر: «عدة الصابرين» (٢٠٠ ـ ٢٠١).

الطريق إلى تحقيق الصبر

والطريق إلى تحقيق الصبر والتحلي به يتأتى بأمور، منها[(١)]:

الأول: أن يتذكَّر الإنسان أن الله قد ارتضى له هذا الأمر، واختارَهُ له، وأنَّ العبودية الحقَّة تقتضي أن يرضى بما رَضِيَ الله ﷻ له، فلا يَتَبَرَّم، ولا يتسخَّط، ولا يَنْدب حظّه، ولا يشكو ربَّه، ولا يجزع مما قَدَّرَه الله عليه.

الثاني: أن يتذكَّر العبد أن الذي ابتلاه بهذا هو أرحم الراحمين، وهو أحكم الحاكمين، فهو أرحم به من نَفْسه، وإن كان نقص، وإن كان فَقْد، وإن كان عيب: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

الثالث: «أن يعلم أنَّ هَذِه المصيبة هي دواءٌ نافع، ساقَهُ إليه الطبيب العليم بمصلحته، الرحيم به، فلْيَصْبِرْ على تجرُّعِهِ، ولا يتقيّاه بتَسَخّطه وشكواه، فيَذْهَب نفعه باطلًا»[(٢)].

الرابع: التذكر جيّدًا، بأن هذه الأمور المكروهات التي تقع إنَّمَا هي بسبب الذنوب والتقصير، والله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، فيكون شُغْل العبد - بدلًا من الجَزَع والتفكير في المصيبة - التفكير في أسباب المصيبة، وهي التي جَرَّهَا العبد على نَفْسه؛ فإنَّ مِنْ حُسْنِ العقل في ذلك أن يكون التفكير بالتقصير، ومعرفة الذنوب التي أَوْجَبَت له مثل هذه المصيبة، فيتدارك ذلك، ويرجع إلى الله ﷻ، وتكون هذه المصيبة سببًا لتصحيح مساره، وتقويم سلوكه، وتهذيب نَفْسه، وإصلاح قلبه، بدلًا من أن يَرْجِع على نَفْسه باللَّوْم على أُمور قَدْ فاتت، لا يُجْدِي التلوّم عليها، وكما قيل: «لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولا يُكْشَف إلا بتوبة»[(٣)].

الخامس: أن يشهد حَقَّ الله عليه في هذه المصيبة، وهو الصبر، فحقّ الله علينا في البلية والمصيبة هو الصبر، فنَحْنُ مأمورون بأداء هذا الحق لله ﷻ، وإذا كان الله تعالى قد قَدَّرَ المصيبة وأمر بالصَّبْرِ، فقد وعد على الصبر بحُسْن الجزاء وأحسن العطاء،

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٦٠٠ - ٦٠١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٠١).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٢٧) عن العباس ﵁.

فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، وعلى المؤمن إذا وقع به ما يكره أن يتذكر قولَ المؤمنين لما رأوا الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأجود ما قيل في تفسير الآية والله تعالى أعلم: «أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يُطَوِّقون المدينة تذكَّروا ما وعد الله به من الابتلاء والاختبار والامتحان، الذي يعقبه النصر القريب.

قال ابن عباس وقتادة ﷺ: «يعنون قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا...﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ذلك الحال والضِّيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾»[١].

السادس: **أن يعلم الإنسان أن هذه قضية مقدَّرة ثابتة لا بُدَّ من وقوعها**، وأن الله ﷻ قد كَتَبَ مَا للإِنْسَانِ وهو في بطن أمه أيضًا، حينما بعَث إليه المَلَك، فأمَرَهُ بأربَع كلمات: بكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقيٌّ أم سعيدٌ، فهذه الأشياء التي تقع للإنسان لا بد من حصولها، فلا يُقَال: لو أنه لم يسافر هذه الساعة لما حصل كذا، ولو أنه ما فعل كذا لما كان كذا.. فذلك لا يجدي؛ فإن هذا أمر لا بُدَّ أن يقع، ولكن لو أنَّهُ قال ذلك يستدرك على نَفْسه ويراجعها، لا على سبيل التحسّر والتسخّط لم يضرّه، فلا بأس أن يستفيد الإنسان من أخطائه، وأن يراجع عمله، هذَا لا إشكال فيه. لكن إن كان على سبيل التحسّر فلا؛ لأنَّ هَذَا قَدَر لا بد من وقوعه، فالجَزَعُ لَا يزيد المُتَسَخِّط إلا بَلَاءً، نسأل الله العافية، وقد قال النبي ﷺ: **«أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمُ، فَأَمَرَهُ فَكَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ»**[٢].

فالعاقل لا يجزع من أمرٍ قد فُرِغ منه، فمَا قدَّرَهُ الله ﷻ فلا بد من وقوعه وتحقّقِهِ، ولو اجتمع الخلق جميعًا على دفْعِهِ لا يمكن أن يدفعوه.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٠)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٥٧، ١٧/ ١٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه الدَّارِمِي في «الرد على الجهمية» (٢٥٣)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٠٨) واللفظ له، وعبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٨٥٤)، والبَيْهَقِيّ في «الكبرى» (٩/ ٣)، وغيرهم، من حديث ابن عباس ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣). وفي الباب عن عبادة بن الصامت ﷺ: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، والحديث حسَّنه ابن المديني - فيما نقله ابن حجر في «النكت الظراف» (٤/ ٤٦١) - والألباني في «ظلال الجنة» (١٠٢) وما بعدها، والله أعلم. وفي الباب عن أبي هريرة، وابن عمر ﷺ.

كما ثبت من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»(١).

وقال أبو حاتم ابن حبان ﷺ: «الواجب على العاقل أن يُوقِن أن الأشياء كلها قد فُرِغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حِيلة للخلق في تكوينه، فإن دَفَعَه الوقت إلى حال شِدَّة فيجب أن يتَّزِر بإزار له طرفان؛ أحدهما: الصبر، والآخر: الرضا؛ ليستوفي كمال الأجر بفِعْله ذلك، فكم مِنْ شِدَّةٍ قد صعبت، وتعذَّرَ زَوَالهَا على العالَم بأسْرِه، ثم فَرَّج عنها المُسَهِّل في أقل من لحظة...

وعن أبي الحجاج الأزدي، قال: «سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»...

هَوِّن عَلَى نَفْسِكَ مِنْ سَعْيِهَا ... فَلَيْسَ مَا قُدِّرَ مَرْدُودُ
وَارْضَ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ... كُلُّ قَضَاءِ اللَّهِ مَحْمُودُ

... ولمَّا حاصر الحجَّاجُ ابنَ الزبير في مكة، وكان الحجَّاج يَضْرِبُ بالمَنْجَنِيق الحائط، فقيل للزبير: لا نأمَنُ عليك أن يصيبك منها حجر، فقال:

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلَا قَاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُهَا»(٢)

وقال شُرَيح القاضي ﷺ: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم ممَّا كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت»(٣).

السابع: أن يتذكر أن الجَزَعَ كما أنه لا يرد الفائت فإنه يُسرّ الشَّامِت. وقد قال بعض العقلاء لبنيه ينصحهم: «إياكم والجَزَع عند المصائب؛ فإنه مجْلَبَة للهَمّ، وسوء ظَنّ بِالرَّبّ، وشَمَاتة للعدوّ»(٤).

فإذا علم العاقل ذلك دعاه ذلك إلى الصبر، والرضا بالمقدور.

«ثامنًا: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصِّحَّة وزوال الألم ما

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٥٧ ـ ١٥٨) بتصرُّف.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤١ ـ ٤٢).
(٤) «العقد الفريد» (٣/ ٩٧).

لا يحصل بدونه، فإذا طالعت نَفْسُه كراهة هذا الداء ومرارته فلينظُرْ إلى عاقبته وحُسْن تأثيره.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ   وَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ[1]

فقد يكون هذا الأمر المكْرُوه كلَسْعَةِ الكَيِّ التي يكون بعدها الشِّفَاء بإذن الله ﷻ، والعِبْرَةُ بِالنِّهَايَاتِ.

التاسع: أن يعلم الإنسان أن المصيبة ما جاءت لتُهْلِكهُ وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبيّن عند ذلك مَنْ يصلح للعبودية ومَنْ لا يصلح لها، ويتبيّن مَنْ هُمْ أولياء الله ﷻ ومَنْ هم الذين لا يصلحون لولايته، فالله يجتبي أهل الولاية والصبر والرّضا والشكر، ويَخْلع عليهم خِلَعَ الإكرام، ويُدْنِيهم، ويُلْبسهم ملابس الفضل، ويكونون من أهل قربه، وأما الذي يَجْزَع، ويَنْقَلِبُ على وجْهِهِ، ويَنْكص على عَقِبَيْه؛ فإنه يُطْرد، ويُصْفَع قَفَاه، ويُقْصَى، وتَتَضَاعَف عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بِأَنَّ المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أنَّ المصيبة في حَقِّهِ صَارَت نِعَمًا عديدة، وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، فيَحْتَاجُ إلى تشجيع القَلْبِ تلك الساعة؛ ليتجاوز هذا الضيق، ثم بعد ذلك يصيرُ إلى سعَة وعافية، والله المستعان.

العاشر: أنْ يعلم أنَّ الله ﷻ يُرَبِّي عِبَادَهُ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والنِّعْمَة والبَلَاءِ، فيستخرج منهم عبوديَّته في جميع الأحوال؛ عبودية في حال السَّرَّاءِ، وعبودِيَّة في حال الضرَّاء. والعَبْدُ على الحقيقة هو مَنْ قَام بعبودية الله ﷻ في الأحوال كلها، وأمَّا عَبْد السراء والعافية؛ الذي يعبد الله على حَرْف، فإنْ أَصَابَهُ خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجْهِهِ؛ فليس من عباد الله الذين اختارهم لعبوديَّتِهِ.

فلا رَيْبَ أنَّ الإيمان الذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، فالابتلاء كِيْر العبد، ومحكُّ إيمانه، فإمَّا أن يخْرج بعد الابتلاء تِبْرًا أحمر، وإمَّا أن يخرج زَغلًا مَحْضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان: ذَهَبِيَّة ونُحَاسِيَّة»[2]؛ فلا يَزَالُ

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص٣٧٤) مع «العرف الطيب».

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص٦٠١ ـ ٦٠٣) بتصرُّف.

البلاء به شيئًا فَشَيْئًا، مرّةً بعد مَرّةً، حتى يخرج ما به من دَخَل، ويَبْقَى ذهبًا خالصًا، يُنقيه الله ﷻ، فيردّ إلى الآخرة وليس عليه ذنب، قد صحّ إيمانه، وصَلحَ عمله، وهُذِّبَ ونُقِّيَ[١].

الحادي عشر: أن يعلم العبد حقيقة الدنيا، وأنها ظلٌّ زَائِل، ومتاعٌ قليل، وأنها سجنُ المؤمن، وجنَّة الكافر. إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سَرَّتْ يَوْمًا أساءَتْ دَهْرًا، وإن متَّعَت قَلِيلًا مَنَعَت طَويلًا.

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَكْدَارِ[٢]

ولو فَتَّشْتَ العالَم لم تر فيهم إلا مبتلى: إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور هذه الدنيا أحلامُ نائم، وظِلٌّ زَائِل، وسَحَابُ صَيْفٍ. وَرَحِمَ الله الشافعي إذ يقول[٣]:

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقَضِي ... وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَعْيَادِ

مَلَكَ الْأَكَابِرَ فَاسْتَرَقَّ رِقَابَهُمْ ... وَتَرَاهُ رِقًّا فِي يَدِ الْأَوْغَادِ

وقال الآخر[٤]:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَطِيَّةُ بُلْغَةٍ ... عَلَا رَاكِبُوهَا فَوْقَ أَعْوَجَ أَحْدَبَا

شَمُوسٌ مَتَى أَعْطَتْكَ طَوْعَ زِمَامِهَا ... فَكُنْ لِلْأَذَى مِنْ عَسْفِهَا مُتَرَقِّبَا

وقال أبو نواس[٥]:

الْمَرْءُ نَصْبُ مَصَائِبٍ لَا تَنْقَضِي ... حَتَّى يُوَارَى جِسْمُهُ فِي رَمْسِهِ

فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ ... وَمُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ

وقال أبو الطيب[٦]:

عَلَى ذَا مَضَى النَّاسُ اجْتِمَاعًا وَفُرْقَةً ... وَمَيْتٍ وَمَوْلُودٍ وَقَالٍ وَوَامِق

وقال لبيد بن أبي ربيعة[٧]:

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٨٨ ـ ٦٠٠) (٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠٤).

(٢) هذا البيت لأبي الحسن التهامي، انظر: «الثبات عند الممات» (ص٢٦).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص٤٧)، و«مناقب الإمام الشافعي» للبيهقي (٢/ ٩١).

(٤) «ديوان أبي نواس» (ص٥٩).

(٥) «الثبات عند الممات» (ص٢٩)، ونسبها ابن كثير لسيف الدولة في «تاريخه» (١٥/ ٣٥٣)، ولَعَلَّه قصد أنه قالها مُتَمَثِّلًا، وهي في «ديوان أبي فراس» (ص٧٥).

(٦) «ديوان المتنبي» (ص٩٣) مع «العرف الطيب».

(٧) «ديوان لبيد» (ص٨٩).

وقال أبو البقاء الرَّنْدِي(١):

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

فهذا أمر لا بد منه، فإذا أدرك العاقل ذلك هَانَ عليه ما يَلْقَى من المصائب؛ لأنه قَدْ رَوَّضَ نَفْسَهُ على لُقْيَاها، والمشكلة في كثير من الأحيان أن الإنسان ينسى، ويظن أنه يمكن أن يصفو له العيش وتندفع عنه المُكَدِّرات والمُنَغِّصات، وهذا أمر لا يتأتَّى إطلاقًا، ولكنَّ الإنسان لأنه لا يعرف إلا حال نَفْسه غالبًا، ويجهل ما يعانيه ويُكَابِدُه أكثر الناس؛ فإنه يتألَّم كثيرًا ممَّا يصيبه، ولَوْ تَأَمَّل حال الناس لوَجَد البلاء لم يغادر أحدًا إلا بِحَظٍّ مِنْه.

الثاني عشر: تحقيق اليقين؛ فإن اليقين إذا كان ثابتًا راسخًا في قلب العبد، فإِنَّهُ يثبت في الشدائد، «ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئنّ به، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»(٢).

الثالث عشر: توجيه قوى النفس: «فالنفس فيها قوَّتَان: قوّة إِقْدَام، وقوة إحجام، وحَقِيقَةُ الصَّبْرِ: أن يجعل قوة الإقدام مَصْرُوفة إلى ما ينفعه، وأن يجعل قوَّة الإحجام إمساكًا عَمَّا يضرّه»(٣)، فهو لا يُقْدِمُ على فِعْل من الأفعال إِلَّا إذا كان نافعًا، فلا يُقْدِم على الضَّجَر ولَطْم الخَدّ وشَقّ الجَيْبِ، وما إلى ذلك، وهو أمر لا يمكن أن ينفعه، لَكِنْ يجعل قوة الإقدام في الاسْتِرْجَاع وهو قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، وما أشبه ذلك من الأُمُورِ الَّتِي تزيده ثباتًا، ويجعل فِكْرَهُ مُتَوَجِّهًا إلى الأمور النافعة التي يَحْصُلُ بها طمأنينة القلب، لا أن يُفَكِّرُ في المصيبة مَرَّةً بعد مرة، وفي أمثال بعض الأمم كالصينيين يقول: «إِنَّكَ لَا تستطيع أن تمنع طيور الهَمِّ من أن تُحَلِّقَ فوْقَ رَأْسِكَ، لَكِنَّكَ تستطيع أن تمنعها مِنْ أَنْ تُعَشِّشَ فيه»، وهذا صحيح؛ فالأحزان لا بد أنْ تَرِدَ، لكن مِنَ الناس مَنْ يَدْفَعُ ذلك، ومنهم مَنْ يَجْعَل قَلْبَه مَحَلًّا لهذه الأحزان والآلام، وربما تتبَّعَ ذَلِكَ تتبُّعًا، وذلك إذا كان ليس له شُغْل إلا سماع الأخبار المُحْزِنَة، والحوادث المؤلمة، فمِثْل هذا متى يثبت قلبه؟!

الرابع عشر: تكلّف الصَّبْر، «فَإِذَا تَكَلَّفَه الإنسان واستدعاه صار سجيَّة له، كَمَا في

(١) «نفح الطيب» (٤/ ٤٨٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥٣).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٦) بتصرُّف.

الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[(١)]، وهَكَذَا إذا تكَلَّفَ التَّعَفُّف صار عفيفًا، فالمُزَاوَلَات ـ كما قيل ـ تُعطِي المَلَكَات، فمَنْ زَاوَلَ شَيْئًا، واعْتَادَهُ، وتَمَرَّنَ عليه صار مَلَكَة له، وسجيَّة وطبيعة؛ ولهذا قيل: «العوائد تنقل الطبائع»، فَلَا يزال العبد يتكلَّف الصبر حتى يصير الصبر له سجيَّة، ولكن هذا النَّقْل قد يكون نَقْلًا ضعيفًا، فما يلبث أن يَزُولَ إِذَا وَاجَهَ أضداده، وقَدْ يَكُونُ النَّقْل متوسِّطًا في قُوَّتِهِ وثباته، وقَدْ يكون قويًّا ثابتًا فلا يَنْدَفِع، وإن وُجِدَت أضداد على أيّ صورة كانت[(٢)]، فقد يكون الإنسان من طبعه قِلَّةُ الصَّبْرِ، ولكنه بالترويض والتصبّر وتكلّف تحمّل المشاق يوفّقه الله إلى الصبر والاحتمال، وبِتَعَوّد ذلك وممارسته يصل إلى الرضا بالمقدور، وهو فوق مجرّد الصَّبْر.

وقال لقيط بن زُرَارَةَ التَّمِيمِي[(٣)]:

لَا يَمْلَأُ الهول صَدْرِي قَبْلَ وَقْعَتِهِ ... وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

مَا سُدّ لِي مَطْلَعٌ ضَاقَتْ ثَنِيَّتُهُ ... إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَ الضِّيقِ مُتَّسَعَا

الخامس عشر: اللَّجوء إلى الصَّلَاةِ والذِّكْرِ وقِيَام الليل: قال الله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، قال ابن جريج: «إنهما معونتان على رحمة الله»[(٤)]. ولما بلغ ابن عباس نَبأ وفاة أخيه قُثَم وهو في سفر نزل، واسْتَرْجَع، وصَلَّى، وقَرَأَ هذه الآية[(٥)].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۝٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ۝٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لمَّا كانَ لَا سبيل إلى الصبر إلَّا بِتَعْوِيضِ القلب بشيء هو أحبّ إليه مِنْ فَوَاتِ ما يصبر على فَوْته أمره بأن يذكر ربّه سبحانه بكرة وأصيلًا؛ فإنَّ ذِكْره أعظم العَوْن على تحمُّل مَشَاق الصَّبْر، وأن يصبر لربِّهِ بالليل، فيكون قيامه بالليل عَوْنًا على ما هو بِصَدَدِهِ بالنهار، ومادَّة لقوَّتِهِ ظاهرًا وباطنًا، ولنعيمه عاجلًا وآجلًا»[(٦)]. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «عدة الصابرين» (ص٣٢ ـ ٣٣).
(٣) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ١٥).
(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٩٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١/ ٢٩٨) بسندٍ صحيح. كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على «تفسير الطبري» (٢/ ١٤).
(٦) «جامع الرسائل» (١/ ٧٥).

السادس عشر: أن يستحضر أن هذه الشدَّة قد تكون سببًا لدفع ما هو أعظم.

وهذا مما يتسلَّى به كثير من العُقَلَاء إذا أصابتهم مصيبة، أو نزلت بهم معضلة.

فعن عثمان بن الهيثم قال: «كان رجل بالبصرة من بني سعد، وكان قائدًا من قوّاد عبيد الله بن زياد، فَسَقَط من السطح، فانكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قِلَابة يعوده، فقال له: أرجو أن يكون ذلك خيْرَةً!! فقال له: يا أبا قِلَابة! وأيّ خيْرَة في كسر رِجْلَيّ جميعًا؟ فقال: ما ستر الله عليك أكثر. فلمَّا كانَ بعد ثلاث وَرَد عليه كتاب ابن زياد يسأله أن يخرج، فيُقَاتِل الحسين بن علي رضي الله عنهما، قال: فقال له: قد أصابني ما أصابني ـ قال ذلك للرسول ـ فمَا كان إلَّا سبعًا حتى وافى الخبرُ بقَتْل الحُسَيْن رضي الله عنه. فقال الرجل: رحم الله أبا قلابة، لقد صدق، إنه كان خيرةً لي»[1].

ويُذكَر أن مَلِكًا كان له وزير يذكر ربّه دائمًا، وكلما حصل شيء من الأمور السارَّة أو الأمور المكروهة بادر الوزير قائلًا: الخير فيما اختاره الله، فكان هذا دَأْبه دائمًا، فبينما هو على مائدة المَلِك إذ جُرِحَت إِصْبَع المَلِك، فقال: قد جُرِحْتُ، فقال ذلك على السَّجيَّة: الخير فيما اختاره الله، فغضب عليه الملك، وقال له: تَشْمتُ بي، وتفرح لمصابي؟! أوْدِعوه السجن، فقال: الخير فيما اختاره الله!! فازداد ذلك المَلِك غَيْظًا عليه، وكان من عادة هذا الملك أن يخرج للصيد، وكان الذي يخرج معه هو هذا الوزير، فلما كان هذا الوزير في السجن خرج الملك للصيد وحده، وبينما هو يَتْبع الصيد إذ خرج من حدود مملكته إلى أرض قوم يعبدون الأوثان، ويقرّبون لها القرابين، فأدركه بعضهم وهم لا يعرفونه، فأخذوه، ووضعوه عند صنمهم الكبير، ولما وضعوا السكّين على رقبته ليُقَدَّم قُرْبانًا لهذا الصنم صاح أحدهم، وأشار إليهم لا يذبحوه، وأشار إلى إِصْبَعه ـ يعني: أن هذا لا يصلح للقُرْبان؛ لأن به عيبًا ـ فأطلقوه، فقال: عرفتُ أن هذا الجُرْح كان سببًا لعتْق رقبتي من القتل، فرجع وهو مسرور، وقال: أخرجوا الوزير، فجاؤوا بالوزير، وقال: قد عرفتُ أن هذا الجرح في الإِصْبَع كان سببًا لعتق رقبتي، لكن أخبرني حينما قلتُ: أدخلوه السجن، قلتَ: الخير فيما اختاره الله، قال: من الذي يخرج معك عادة إلى الصَّيْد؟ قال: أنت أيها الوزير، قال: إذًا سأكون أنا القُربان لو كنت معك. فانظر كيف كان السجن سببًا لخلاصه، وحفظًا له من تقديمه قربانًا لصنم يُعْبَد من دون الله.

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥١٨) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢/ ٣٠٧).

وقد يطلب العبد أمرًا، ويُعِدّ له عُدّته، ويسعى له سَعْيه، حتى إذا كاد أن يُدْركه فاته، فيحزن، ثم يتبيّن له بعد حين أن الخير في فواته.

وقد يَخْطُب رجل امرأة، ثم يَصْرِف نظره عن ذلك، فتَحْزَن المرأة لذلك، وتَغْتَمّ، ثم تدرك بعد ذلك أنه لم يكن قط أهلًا لها.

وقد يهمّ أحدهم بالأمر مما يطلب تحصيله، ويصلي له الاستخارة، ثم يفوته، فيصيبه ما يصيبه من فواته. ولو أمْعَنَ النظر، وأحْسَنَ الظَّنَّ بالله لعلم أن فواته ربما كان خيرًا له من تحصيلِهِ. أليس يقول في استخارته ودعائه: «**وإنْ كُنتَ تعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِيني ومَعَاشِي وعَاقِبَةِ أمْرِي؛ فاصْرِفْهُ عَنِّي، واصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثم رَضِّنِي بِهِ**»[1]؟

السابع عشر: تهوين المصيبة، ويكون ذلك بعدَّة أمور، منها:

١ ـ بذكر ما هو أعظم وأشد وأخطر؛ فهذه امرأة من العابدات، كانت بالبصرة، كانت تُصَاب بالمصيبة العظيمة فلا تَجْزَع، فقيل لها ذلك، فقالت: «مَا أُصَابُ بمصيبة فأذْكُر معها النار إلا صَارَتْ في عيني أصغر من التراب»[2].

٢ ـ أن نذكر مُصَابنا برسول الله ﷺ، وقد جاء في الحديث: «**إذَا أُصِيبَ أحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أعْظَمُ المَصَائِبِ عِنْدَهُ**»[3]، وقد كتب بعض العقلاء إلى أخٍ له يُعَزِّيه في ابن له يقال له: (محمد)، كتب إليه يقول[4]:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا ذَكَرْتَ مُصِيبَةً تَشْجُو بِهَا ... فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

٣ ـ أنها حيث وقعت لم تكن أعظم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٦٩٥)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٢١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٧١٨) من حديث سابط الجُمَحِي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢): «فيه أبو بردة عمرو بن يزيد، وثَّقَهُ ابن حبان، وضَعَّفَهُ غَيْره»، وحسَّنَ الحَافِظ إسناده في «الإصابة» (٢/ ٢)، لكنه قال: «اختلف فيه على علقمة». وفي الباب عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم موصولًا، وعن عطاء والقاسم ومكحول مرسلًا، ساقها الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦)، وصحَّحه بمجموعها. راجع: «التمهيد» (١٩/ ٣٢٢)، و«الشعب» للبيهقي (٩٦٧٦ ـ ٩٦٧٨).

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٧٩)، وانظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٥٨ ـ ٥٩)، و«روضة العقلاء» (ص١٦٣).

قال شُرَيْح القاضي: «إنّي لأصاب بالمصيبة فأحْمَد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقَنِي للاسترجاع لِمَا أرْجُو فيه من الثواب، وأحْمَدُه إذ لم يجعلها في ديني»(١).

ولذلك؛ كان رَحَمَهُ ٱللَّهُ في المصيبة هو الرجل؛ فعَنْ مُحَمَّدِ بن سيرين رَحَمَهُ ٱللَّهُ قال: «مات ابن لِشُرَيْح، قال: فغَدَوْنَا ـ يعني: لنعزّيه ـ فإذا هو قاعِدٌ للقضاء»(٢).

وقد جاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان من دعاء النبي ﷺ: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»(٣).

وقال عبد العزيز بن أبي روَّاد: «رأيت في يد محمد بن واسع قُرْحَة، فكأنه رأى ما قد شق عليَّ منها. فقال لي: تدري ما عليّ في هذه القُرْحَة مِنْ نِعْمَة؟ قال: فسكَتُّ، قال: حيث لم يجعلها على حَدَقَتِي، ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذَكَري، قال: فهانت عليّ قرحته»(٤).

٤ ـ النَّظَر في حال المُبْتَلِين بالمصائب من أمثاله.

تقول الخنساء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا(٥):

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

فلما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تَسْلِية لمن شاركه في مصيبته؛ كان النَّظَر في أحوال المُبْتَلَين مما يُهوِّن المصيبة على صاحبها؛ وَلِذَلِكَ فإن الموت والقتل في الحروب يكون أخفّ وَقْعًا مِنْ قَتْلِ وَاحِدٍ في المدينة، يتسامع به الناس في أطرافها، وإذا كَثُرَ الموتى والقَتْلَى فإنَّ ذلك يُهَوِّن وقْعَ المصائب، وهذا شيء معروف؛ ولهذا قال الله ﷻ عن أهل النار: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ [الزخرف: ٣٩]، فالاشتراك في العذاب لا يخفف عنهم، كما هو الحاصل لأهل الدنيا، حينما يشتركون في البلاء.

قال لبيد بن ربيعة(٦):

أَتجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ... وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ(٧)

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ١٤١ ـ ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٤٢). (٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/ ١٦٤).

(٥) «محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٣٢). (٦) «ديوان لبيد» (ص٩٠).

(٧) لا يُنسَب هذا للدهر، لكنهم يتجوَّزُون بذلك، ويتوسَّعون في التعبير.

٥ - النظر في حال المصابين ممَنْ هُوَ أشدّ مِنْهُ:

فعن سلام بن أبي مطيع قال: «دخلتُ على مَرِيض، فإذا هو يَئِنُّ، فقلتُ له: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم، ولا مَنْ يخدمهم. قال: ثم دَخلتُ عليه بعد ذلك، فلم أسمعه يَئِنّ، قال: وجعل يقول: اذْكُر المطْرُوحين في الطَّرِيق، اذْكر مَنْ لا مأوى له، ولا مَنْ يَخْدمه»(١).

«أن يعدّ العبد نِعَم الله ﷻ وأياديه عنده، فإذا عجز عن عَدِّهَا، وأيِسَ مِنْ حَصْرِهَا هانَ عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونِعَمِهِ كقَطْرة بَحْر»(٢).

وقد قال بعض السلف: «ذِكْرُ النِّعمة يُوَرِّث الحبّ لله»(٣).

ورأى رَجُلٌ فقيرًا مريضًا كَفِيفًا مُقْعَدًا، وهو يردد: «الحمد لله الذي فَضَّلَنِي على كثير من عباده». فقال: يرحمك الله، وبماذا فضَّلك؟ قال: «رزقني لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وجسدًا على البلاء صابرًا»(٤).

وهذا عروة بن الزبير رحمه الله لمَّا قُطِعَت رِجْله بالمنشار أخذها، وقال: «أمَا والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بها إلى حَرَام»... ثُمَّ أمر بها فغُسِّلَتْ، وطُيِّبَت ولُفَّت في قُبْطِيَّة، ثم بعثَ بِهَا إلى مقابر المسلمين(٥)، فقال له عيسى بن طلحة: «إنا والله ما كنا نَعدُّك للصِّرَاع، قد أبقى الله أكبر عقلك، ولسانك، وسمعك، وبصرك، ويديك، وإحدى رجليك، فقال له: يا عيسى! ما عَزَّانِي أحَدٌ بمِثْل ما عزَّيْتَنِي»(٦). يقول له: نحن لا نحتاج رِجْلَكَ لأننا لم نَعُدّك يومًا للصِّراع والعِرَاك، وإنَّما الذي نُؤَمّله بَقِيَ عندنا؛ وهو فِقْهك، وعِلْمك، وقَلْبك، وبَصَرُك في الأمور.

وقال جعفر بن ورقاء: «اجتزت بابن الجصاص (وكان من كبار التجّار ببغداد) وكان مُصَاهِري، فرأيته على رَوشَن داره حافيًا حاسرًا، يعدو كالمجنون، فلما رآني استحيا، فقلت: ما لك؟ قال: يحقّ لي، أخذوا مني أمرًا عظيمًا (وكانوا قد أخذوا منه مالًا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٤٠) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٨٩).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢١).

(٤) انظر: «الثقات» لابن حبان (٥/ ٣ - ٥).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٠٦).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٦٦)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ٣١٩).

جزيلًا مُصَادَرة) فسَلَّمْتُه، وقلتُ: ما بَقِيَ يَكْفِي، وإنما يَقْلَق هذا القَلَق مَنْ يخاف الحاجة، فاصبر حتى أُبيّن لك غِناك. قال: هات، قلت: أليس دارك هذه بآلتها وفرشها لك؟ وعقارك بالكَرْخ وضِياعك؟ قال: بلى، فمَا زِلْت أُحَاسِبُه حَتَّى بلغ قيمة سَبْعمائة ألف دينار، ثم قلت: واصْدُقْني عما سَلِم لك. فحسبناه؛ فإذا هو بثلاثمائة ألف دينار، قلت: فَمَنْ له ألف ألف دينار ببغداد؟ هذا وجاهك قائم، فَلِمَ تَغْتَمّ؟! فسجد لله، وحَمِدَه، وبكى، وقال: أنقَذَنِي الله بك، ما عَزَّانِي أحد بأنفع من تَعْزِيَتِكَ، ما أكلتُ شيئًا منذ ثلاث، فأقِمْ عِنْدِي لنأكل، ونتحدث، فأقمت عنده يومين»[١].

«وجاء رَجُلٌ إلى يونس بن عبيد، فشكا إليه ضِيقًا من حاله ومعاشه، واغتمامًا منه بذلك، فقال له يونس: «أيسرّك بِبَصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فَسَمْعِكَ الذي تسمع به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فلسانك الذي تنطق به مائة ألف؟ قال: لا. قال: ففؤادك الذي تعقل به مائة ألف؟ قال: لا. قال: فيداك يسرك بهما مائة ألف؟ قال: لا، قال: فرجلاك؟... فذكَّره نِعَم الله عليه. فأقبل عليه يونس قال: أرى لك مئين ألوفًا وأنت تشكو الحاجة»[٢].

فبهذا يمكن أن يرتفع الغَمّ عن الإنسان ويصبر.

٦ ـ أن يتذكر سَوَالِف النِّعَم التي أنْعَم الله بها عليه في الماضي.

يقول إبراهيم بن مسعود: «كان رجل من تجّار المدينة يَخْتَلِف إلى جعفر بن محمّد، فيخالطه، ويعرفه بحُسْنِ الحال، فتَغَيَّرَتْ حَاله، فجعل يشكو حاله إلى جعفر، فقال جعفر:

فَلَا تَجْزَعْ وَإِنْ أَعْسَرْتَ يَوْمًا ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ

... قال: فخرجت من عنده وأنا أغنى الناس»[٣].

٧ ـ تَذَكُّر أن وقت الشدة وقت محدود محصور، وسيذهب لا محالة، فإنما هي ساعة فكأنها لم تكن.

وقد كان محمد بن شُبْرُمة إذا نزل به بلاء قال: «سحابة، ثم تَنْقَشِع»[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، و«تاريخ الإسلام» (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (١١٥)، ومن طريق البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٥).

(٤) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٢٧).

أَيُّـهَـا الـحَـامِـلُ هَـمًّـا إِنَّ هَـذَا لَا يَـدُومُ
مِـثْـلَـمَـا تَـفْـنَـى الـمَـسَـرَّا تُ كَـذَا تَـفْـنَـى الـهُـمُـومُ[(١)]

ويقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي: «سيأتي على هؤلاء المُتَألِّمِينَ المعذبين بمرض يُنَغِّصُ عليهم عِيْشتهم، أو فَقْرٍ يُنكِّد عليهم أيَّامَهُمْ، أوْ سِجْن ظالم يُقَيِّد أيديهم، ويحرمهم أهلهم وأولادهم، أو عذاب مُستمرّ من جبار آثم يغاديهم به ويماسيهم، سيأتي عليهم يوم يكون فيه هذا كله ذكرى في النَّفْس، وحديثًا في المجالس، ومهما اشتَدَّ الضِّيق فالفَرَجُ موْجُود... وإنْ لم يَر البائس الفرج في الدنيا، فما الدنيا؟ أيَّام معدودة، وإن الحياة الباقِيَة لهي الحياة الآخرة، وهنالك يُعَوّض المظلوم تعويضًا يُرْضِيه، ويرى الظالم ما قدَّم لنفسه...» إلى آخر ما ذكر[(٢)].

نعم، تبقى هذه الأشياء ذكريات، لكن يبقى عمله؛ ماذا عمل في تلك الساعة؟ كيف كان تصرّفُه وضبطه لنفسه؟ هل جَزِع؟ هل صبر؟

تَـسَـلَّ عَـنِ الـهُـمـوم فَـلَـيْـسَ شَـيْءٌ يُـقِـيـمُ وَمَـا هُـمُـومـك بـالـمُـقِـيـمَـهْ
لَـعَـلَّ الـلَّـهَ يَـنْـظُـرُ بَـعْـدَ هَـذَا إِلَـيْـكَ بِـنَـظْـرَةٍ مِـنْـهُ رَحِـيـمَـهْ[(٣)]

ومن الأمور المُعِينَة على الصبر أيضًا:

الثامن عشر: أن يتذكَّر أن أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، كما في حديث سعد ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: **«الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»**[(٤)].

وقال ابن مسعود ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك، فمسسته بيدي، وقلت: يا رسول الله! إنَّكَ لتُوعَكُ وعكًا شديدًا، فقال: **«أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»**، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: **«أَجَلْ»**، ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «ديوان بهاء الدين زهير» (ص٢٣٠).
(٢) «ذكريات علي الطنطاوي» (٢/ ٣٧٥).
(٣) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٩٩)، و«شعب الإيمان» (٩٥٤٩).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) واللفظ له، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٠١وغيرها)، والحاكم (١/ ٤٠، ٤١)، والضياء، والذهبي، وابن كثير في «التفسير» (٦/ ٢٦٣)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٣). راجع: «العلل» للدارقطني (٤/ ٣١٦).

«**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدتُ حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك! قال: «**إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يَا رسول الله! أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»(٢).

وعن عائشة ﵂ قالت: «ما رأيت أحدًا أشدّ عليه الوَجَع من رسول الله ﷺ»(٣).

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ الْمَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ ... وَيُعْرَفُ عِنْدَ الصَّبْرِ فِيمَا يُصِيبُهُ
وَمَنْ قَلَّ فِيمَا يَتَّقِيهِ اصْطِبَارُهُ ... فَقَدْ قَلَّ فِيمَا يَرْتَجِيهِ نَصِيبُهُ(٤)

ويقول وهب بن منبه: «مَنْ أصيب بشيء من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»(٥).

التاسع عشر: أن يعلم أنه على خير ما دام أنه صابر شاكر. فعن صُهَيْب ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٦).

«فعِبَاد الله المؤمنون دائمًا في نِعْمَة مِنْ رَبِّهِم، أصابهم ما يحبّون أو ما يكرهون، وقد جعل الله تعالى أَقْضِيَته وأقداره التي يقضيها لهم ويقدّرها عليهم مَتَاجِر، يربحون بها عليه، وطُرُقًا يَصِلُون منها إليه»(٧).

«وما يصيب الإنسان إن كان يَسُرُّه فهو نعمة بيِّنة، وإن كان يسوءه فهو نِعْمَة مِنْ جهة أنه يُكَفِّر خطاياه، ويُثَاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمةً ورحمةً لا يعلمها العبد: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١) واللفظ له.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).
(٤) «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٩٧).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٥٦).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «قاعدة في الصبر» (١/ ١٦٥) بتصرُّف.

وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]»(١).

العشرون: **أن يعلم أنه إذا مَرِضَ أو ابْتُلِيَ فإنه يجري عليه عملُهُ الَّذِي كان يعمله حينما كان صحيحًا معافًى**؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ عز وجل الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ، فَقَالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ مَا كَانَ فِي وِثَاقِي**»(٣).

الواحد والعشرون: **أن يتذكر أنَّ الله أراد به خَيْرًا**؛ كما في حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**»(٤).

وفي حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ**»(٥).

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ**»(٦)، نسأل الله العافية.

يقول **الفضيل بن عياض** رحمه الله: «إنَّ الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء، كما يتعاهَد الرَّجلُ أهلَه بالخير»(٧).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٠٩) بتصرُّف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠١)، وصحَّحه الحاكم (١/ ٣٤٨)، والضياء في «كتاب الأمراض» (٢٦)، وقال: «رجاله على شرط الشيخين»، والذهبي، والمناوي في «تخريج المصابيح» (١١٢٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٣٢)، و«الإرواء» (٢/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩)، قال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٨٣): «رُوَاتُه ثِقَات»، وقوَّاه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ١١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٠٦).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) واللفظ له، وابن ماجه (٤٠٣١)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦).

(٧) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٣٣)، وقد رُوِيَ مَرفوعًا بنحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه. أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٤٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ٢٨٨)، وضَعَّفَهُ الألباني في «الضعيفة» (٣١٠٢).

فالإنسان يتعاهد أهله بالنفقة، وما يُروّح به عنهم، والله يتعاهد عبده الذي يُحبّه بالبلاء.

وكان يقول: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يَعُدّ البلاء نِعْمة، والرَّخاء مصيبة»(١).

أي: من جهة الاستدراج، وأن الذنوب تجتمع عليه حتى يوافي بها يوم القيامة.

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ **أنه قال:** «ليْسَ بفقيهٍ مَنْ لم يَعُدّ البَلَاءَ نعمة والرخاء مصيبة»(٢).

وقد قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣).

قال الشيخ ابن عُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، إما بماله، أو بأهله، أو بنَفْسه، أو بأحد ممَّن يَتَّصِلُ بِهِ؛ لأن العُقُوبَة تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، فإذا تعجَّلت العقوبة، وكفَّر الله بها عن العبد، فإنَّهُ يُوَافِي الله وليس عليه ذَنْب، قد طهّرته المصائب والبلايا؛ حتَّى إنه ليُشَدَّد على الإنسان موته لبقاء سيّئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا نَقِيًّا من الذّنوب...

لكن إذا أراد الله بعبده الشَّرّ أمْهَل له، واستدرجه، وأدرَّ عَلَيْهِ النِّعَمَ، ودَفَعَ عنه النِّقَم، حتى يبطر ـ والعياذ بالله ـ، ويفرح فَرَحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه. وحينئذ يُلَاقِي رَبّه وهو مغمور بسيئاته، فيُعَاقَب بها في الآخرة»(٤).اهـ.

الثاني والعشرون: أن العبد قد تكون له منزلة في الآخرة في الجنة لا يبلغها بالعمل، فيصيبه ما يُصِيبُهُ مِنَ بَلَاءِ الدنيا، فيَصْبِر ويَحْتَسِب حتى يبلغها، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الرَّجُل لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةَ، فَمَا يَبْلُغُهَا**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٥) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب»، وصحَّحه ابن حبان (٢٩١١) من حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٨٧٩٩)، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٠٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٢٠). وفي الباب عن ابن عباس، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم.

(٤) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(١).

السادس والعشرون: أن يتذكَّرَ أن البلاء كفَّارَة، وقَدْ جَاءَ في هذا كثير من الأحاديث الصحيحة، منها: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «وَصَبُ الْمُؤْمِنِ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَاهُ»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا اشْتَكَى الْمُؤْمِنُ أَخْلَصَهُ ذَلِكَ كَمَا يُخْلِصُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لحمًا خَيْرًا مِنْ لحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ»(٥).

وعادَ شداد بن أوس رضي الله عنه رجلًا مريضًا، فقال له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنعمة، فقال شداد: أبْشِرْ بِكَفَّارات السَّيِّئات، وحَطّ الخطايا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقُول: إني إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِك كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الخَطَايَا، ويَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ»(٦).

وعن مسلم بن يسار قال: «كان أحدهم إذا برئ قيل: لِيَهْنِكَ الطُّهر»؛ يعني: الخَلَاص من الذنوب(٧).

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٨) واللفظ له، والحاكم (١/ ٣٤٤)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والألباني في «الصحيحة» (١٥٩٩، ٢٥٩٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الكفارات» (٥٨، ١٣١)، والبزار (٩٩٨٩)، والحاكم (١/ ٣٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٥)، وأعله أبو حاتم في «العلل» (٢/ ١٦٧) بالوقف، وصحَّحه الحاكم، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٤١٠).

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٧)، وابن حبان (٢٩٣٦) واللفظ له، وفي سنده اختلاف، وصحَّحه ابن حبان، والألباني في «الصحيحة» (١٢٥٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، وصحَّحه ابن كثير في «جامع المسانيد» (٤/ ٢٠٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٠٩).

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩٤).

فهذه الأخبار وغيرها تدُلّ على أن المرض والمصائب تُكفِّر الخطايا، وتغسل الذنوب غَسلًا، لكن هل يُؤجَر على هذا؟

جاء عن أبي مَعْمر الأزدي، قال: كنا إذا سَمِعْنَا من ابن مسعود شيئًا نكرهه سكتنا حتى يُفَسِّرَه لنا، فقال لنا ذات يوم: «إلا أنَّ السّقم لا يُكْتَب له أجر»، فساءنا ذلك، وكبُرَ علينا، قال: «ولكن يكفّر بِهِ الخطَايَا»، قال: فَسَرَّنَا ذَلِكَ، وأَعْجَبَنَا[1].

وهذا صريح في أنَّ الإنسان لا يُؤْجَرُ على المصائب، بل تُكَفّر ذُنُوبه، وقَدْ أَكَّدَ هذا المعنى الحافظ ابن القَيِّم رَحمه الله، وقرَّرَه، فقال: «إن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية، وما تولَّد منها، كَمَا ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التَّوْبَة في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي: ﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ**﴾، وفي المتولّد من إصابة الظمأ والنَّصَب والمخْمَصَةِ في سبيله وغَيْظ الكفار: ﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ**﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالثواب مرْتَبِط بهذين النوعين، وأمَّا الأسْقَام والمصائب، فَإِنَّ ثوابها تكفير الخطايا»[2]. اهـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «المصائب تكون على وجهين: تارة إذا أُصِيبَ الإنسان تذكّر الأجر، واحتسب هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات. وتارة يغفل عن هذا، فيضيق صدره... ويغفل عن نية احتساب الأجر والثواب على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته»[3]. اهـ.

لكن يُشكِل على هذا القول بعض الأحاديث الصحيحة، فمن ذلك:

ما جاء عن أبي سعيد الخدْرِي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صُدَاعُ الْمُؤْمِنِ، أَوْ شَوْكَةٌ يُشَاكُهَا، أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَرَجَةً، وَيُكَفِّرُ بِهَا عَنْهُ ذُنُوبَهُ**»[4].

وما جاء عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهِ دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**»[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٦) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٩٣/ ٨٥٠٦)، وحسَّنه الهَيْثَمِي في «المجمع» (٢/ ٣٠١).

(٢) «عدة الصابرين» (ص١٥٥).

(٣) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٨٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧/ ١٦٥٨)، وقال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٩٧): «رجاله ثقات»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤٣٤).

(٥) تقدم تخريجه.

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ **في «صحيحه»**: «باب الصبر على الأذى، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]»[١]. اهـ. وهذا مُشْعِر أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أنَّ الإنسان يؤجر على المصيبة تُصِيبُهُ فيصبر لها، وهو الأقرب، والله أعلم.

الرابع والعشرون: **ملاحظة الثواب**، فإذا لاحظ الثواب والأجر وحُسْنَ الجَزاء فإنه يطمئن قلبه إلى ذلك، وتَرْتَاض النَّفْس، «ويَخِفُّ عليه حمْل البلاء؛ لشهود العِوَض، وهذا كما يَخِفّ على كل مُتَحمِّل لمشقَّةٍ عظيمة حَمْلَها؛ إذ لاحظ حُسْن العاقبة والظَّفر الذي يكون بعدها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحدٌ على تَحمُّل مشقَّة عاجلة إلا لثمرة مُؤَجَّلة؛ إمّا في الدنيا وإما في الآخرة، والنفوس مُولَعَة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل هو تلميح العَواقِب، ومطالعة الغايات، وقد أجمع عُقلاء كل أمة على أن النَّعيم لا يُدْرَكُ بالنَّعيم، وأن مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، وعلى قدر التَّعَبِ تكون الراحة.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَيَكْبُرُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ[٢]»[٣]

فينبغي أن يتذكَّر الإنسان دائمًا ما أعدَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ لأهل البلاء في الآخرة، ولذلك جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»**[٤].

فهؤلاء الذين يَلْحظون هذا المعنى جيِّدًا إذا وقع بهم البلاء فَهُمْ فِي غَايَةِ الصَّبْرِ والرِّضا وتمام الشكر.

فعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابْنُ عَبَّاس رضي الله تعالى عنهما: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قلت: بَلَى. قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ التي أتت النبي ﷺ، فقالت: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أتكشَّف فادْعُ اللهَ لِي. قال: **«إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»**، فقالت: أصبر، فقالت: إنّي أتكشّف، فادْعُ الله لي ألَّا

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الأدب (٤/ ١٦٢).

(٢) البيتان للمتنبي كما في «ديوانه» (ص٤٠١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٦ - ١٦٧) بتصرُّف.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢) وضعَّفَهُ، وحسَّنه الصدر المناوي (١١٤٠)، والألباني في «الصحيحة» (٢٢٠٦).

أتكشفَ، فدَعَا لها[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاءت امرأة إِلَى النبي ﷺ بها لَمَمٌ فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يَشْفِيَنِي، فقال: «**إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلَا حِسَابَ عَلَيْكِ**»، قالت: بل أصبر، ولا حِسَاب عليّ[٢].

فالعاقل لا يَتَمَنَّى البلاء، ولا يدعو به، ولكن إذا طرقه أمرٌ من أمر الله، فإنَّهُ يصبر ويحتسب. والعَافِيَة خيرٌ للمؤمن من البلاء في أيام سلامته، والبلاء مع الصبر والاحتساب خيرٌ للمؤمن من العافية في أيام شِدَّتِه؛ حيث قدَّره الله عليه، وتقدير الله للمؤمن كلّه خَيْر.

قال إبراهيم بن الوليد: دخلت على إبراهيم المغربي وقد رَفَسَتْه بَغْلَةٌ، فَكَسَرَتْ رِجْلَهُ، فقال: «لولا مَصَائِب الدنيا لقَدِمنا على الله مفاليس»[٣].

ومثل هذا لا يقوله إلا رجل رشيد؛ فإنه أساء الظنّ بنَفْسه، وأحسن الظنّ بربِّه.

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: «إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَر في كل شيء، حتى في النَّكْبَة وانقطاع شِسْعه - يعني: شِسْع النَّعْل - والبضاعة تكون في كمّه... فيفْزع لها، فيجدها في ضَبَّته»[٤].

وقال ابن قدامة ﷺ: «لو أن ملكًا قال لرجلٍ فَقِيرٍ: كُلَّما ضَربتك بهذا العود اللطيف ضربةً أعطيتك ألف دينار لأَحَب كثرة الضرب، لا لأنه لا يُؤْلم، ولكن لِما يرجو من عاقبة، وإن أنكاه الضرب، فكَذَٰلِكَ السَّلَف تلمَّحُوا الثَّوَاب، فهان عليهم البلاء»[٥]. اهـ.

وعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٤١)، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٠٢)، وحسَّنه الهيثمي في «المجمع» (٢/٣٠٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٥٠٢).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٦٤) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٢١).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٠٩)، ورجاله ثقات، لكنه منقطع، وقد روي مرفوعًا من حديث عائشة ﷺ، أخرجه أحمد (٢٥٨٣٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢٠٠٠)، و«الضعيفة» (٢٩٢٤).
(٥) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٥٠).
(٦) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»(١).

الخامس والعشرون: أن يَتَلَمَّحَ المصاب، ويتأمَّل ما في هذه المصيبة من الفوائد والمنافع، فإنَّ الإنسانَ إذا لاحظ ما في مضامين المصيبة هانت عليه، والكلام في هذا يطول، وقد كَثُرَتْ أمْثَال العَرَب والعَجَم في التعبير عن هذه الحقيقة، فهي قضيَّة مؤكّدة مقرّرة عند العالمين؛ ففي بعض الأمثال عند الرّوس يقولون: «لو لم تكن المصيبة لما كانت هناك سعادة»؛ يعني: لا تعْرِف طَعْم اللَّذّة إلا إذا ذُقْتَ طعْمَ المرارة في أيام النَّكَد والألَم والبُؤس.

ومن أمثال بعض الأُمَم: «المصيبة: هي القَابِلَة القانونية التي تُوَلِّد العبقرية» القَابِلَة؛ يعني: التي تقوم بالتوليد.

ويقول آخر: «الريح التي تهبّ في الوجه تجعل المرء حكيمًا، يَعْرِف كيف يَتَصَرَّف، تكون قد عَرَكَته التجارِب».

والعرب يقولون: «المصائب مَحَكّ الرجال»(٢).

ومن حِكَمِهِم: «المصيبة مِهْمَاز الشجاعة»(٣).

ومن أمْثالهم: «عند الشدائد يُعْرَف الإخوان»(٤).

السادس والعشرون: اللجوء إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء، قال الله تعالى عن عباده المؤمنين المجاهدين في سبيله: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالإنسان يسأل ربه أن يرزقه الصَّبْر، ويعينه على بَلِيَّتِهِ، فإذا أعان الرب عبده هان عليه كل بلاء.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٨٤)، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٥/٤٩)، وابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» (٣/٢٩٦)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٠٨).

(٢) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/٥٣٧).

(٣) موقع اقتباسات: http: //araquotes.com

(٤) «مجاني الأدب في حدائق العرب» (١/٢٧).

إِلَيْكَ وَقَدْ سُدَّتْ بِوَجْهِي الشَّرَائِعُ ... تَوَجَّهْتُ يَا مَوْلَايَ وَالطَّرْفُ دَامِعُ
يَرُومُونَ إِذْلَالِي فَجِئْتُكَ أَحْتَمِي ... وَمَا ذُلَّ عَبْدٌ أَنْتَ عَنْهُ تُدَافِعُ
فَأَنْتَ الَّذِي يَدْرِي خَفِيَّ خَوَاطِرِي ... وَهَاجِسَ فِكْرِي إِنْ جَفَتْنِي الْمَضَاجِعُ
فَإِنْ رَابَنِي أَمْرٌ قَصَدْتُكَ عَائِذًا ... وَكُلُّ الَّذِي قَدَّرْتَ لَا بُدَّ وَاقِعُ

وقال آخر يستسقي ربه:

يَا مَنْ أَجَبْتَ دُعَاءَ نُوحٍ فَانْتَصَرْ ... وَحَمَلْتَهُ فِي فُلْكِكَ الْمَشْحُونِ
يَا مَنْ أَحَالَ النَّارَ حَوْلَ خَلِيلِهِ ... رَوْحًا وَرَيْحَانًا بِقَوْلِكَ كُونِي
يَا مَنْ أَمَرْتَ الْحُوتَ يَلْفِظُ يُونُسًا ... وَسَتَرْتَهُ بِشُجَيْرَةِ الْيَقْطِينِ
يَا رَبِّ إِنَّا مِثْلُهُ فِي كَرْبِهِ ... فَارْحَمْ عِبَادًا كُلُّهُمْ ذُو النُّونِ[1]

ويقول الألوسي رَحِمَهُ اللهُ[2]:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ ... وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤَمِّلُ خَائِبُ
وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ ... وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

ويقول الآخر[3]:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ مُلْكِهِ فِي قَوْلِ كُنْ ... امْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رَدَدتَّ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَمَنِ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِجُودِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

السابع والعشرون: أن نتذكَّر جيِّدًا أن الجَزَع لا يُجْدِي شيئًا، وأن القلق والهمّ والحَزَن لا يردّ قَدَرًا، وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان إذا حَزَبَهُ أمر صلى[4]. وقال

(١) «ديوان نفحات ولفحات» (ص٦٦).
(٢) «روح المعاني» (١/ ٩١).
(٣) وهو: السهيلي كما في ترجمته في «وفيات الأعيان» (٣/ ١٤٣).
(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وسكت عنه، وحسَّنه ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٧٢)، والألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال للأشعث بن قيس في مصيبة حلَّتْ به: «إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القدر وأنت مأجور، وإن جَزعْت جَرى عليك وأنت مأثوم»[(١)].

لَا تَجْزَعَنَّ إِذَا مَا الْأَمْرُ ضِقْتَ بِهِ ... ذَرْعًا وَنَمْ وَتَوَسَّدْ فَارِغَ الْبَالِ
فَبَيْنَ غَفْوَةِ عَيْنٍ وانْتِبَاهَتِهَا ... تَبَدَّلَ الدَّهْرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ
وَمَا اهْتِمَامُكَ بالمُجْدِي عَلَيْكَ وَقَدْ ... جَرَى الْقَضَاءُ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ[(٢)]

وفي ديوان الشافعي[(٣)]:

سَهِرَتْ أَعْيُنٌ وَنَامَتْ عُيُونُ ... لِأُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ
فادرأ الهَمَّ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ النَّفْـ ... ـسِ فَحِمْلَانُكَ الهُمُومَ جُنُونُ
إِنَّ رَبًّا كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَا ... نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ

وفي بعض الحكم: «لماذا نُلقِي أنفسنا في الماء قبل أن تغرق السفينة». وكثيرًا ما يجلب الوَهْمُ والاحتمالاتُ السّيئة على العبد الكَمَدَ والألمَ والحسرةَ، ثم بعد ذلك تَخُور قواه، ويَنْكَسِرُ، ويضعف، ولم يحصل شيء مما توهّمه بعد. وقد تكون المصيبة صغيرة فيراها كبيرة، ويتوهّمها مَاحِقَة، فلا يزال به ذلك حتى يُطْبِق عليه الوَهْم، ويعظم الخَطْب، فلا يكاد يهنأ بعيش.

وقد قيل[(٤)]:

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ ... لَمْ يَبْدُ مِنْهُ عَلَى عِلَّاتِهِ الهَلَعُ

وقال آخر[(٥)]:

صَبَرْتُ فَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرَ مَغَبَّةٍ ... وَهَل جَزَعٌ يُجْدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ
مَلَكْتُ دُمُوعَ الْعَيْنِ حَتَّى رَدَدْتُهَا ... إِلَى نَاظِرِي فَالْعَيْنُ فِي الْقَلْبِ تَدْمَعُ

وأنشد أحمد بن موسى الثقفي[(٦)]:

نُبِّئْتُ خَوْلَةَ أَمْسِ قَدْ جَزِعَتْ ... مِنْ أَنْ تَنُوبَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٩/ ١٣٩).
(٢) «طبقات الفقهاء الشافعية» (١/ ٢٤٣)، ونسبها لأبي إسماعيل المنشئ.
(٣) «ديوان الشافعي» (ص١٤٧)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٦٧)، وقد نسبها لغيره لسان الدين ابن الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» (٣/ ٤٠٨)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٣٦٩).
(٤) «ديوان علي بن أبي طالب» (ص٦٤).
(٥) انظر: «شعب الإيمان» (٩٧٢٣).
(٦) «عدة الصابرين» (ص١٨٥).

لَا تَـجْـزَعِـي يَـا خَـوْلُ وَاصْـطَـبِـرِي ... إِنَّ الْـكِـرَامَ بُـنُـوا عَـلَـى الـصَّـبْـرِ

الثامن والعشرون: «انتظار الفرَج؛ فَإِنَّ انتظاره ومطالعته وترقّبه يُخَفِّف حمْل المشقّة، ولا سيما عند قوّة الرَّجاء، أو القَطْع بالفرَج، فإنه يَجِد في حَشْو البلاء من رَوْح الفرَج ونسيمه وراحته ما هو من خَفِيّ الألْطافِ، وما هو فَرَجٌ مُعَجَّل، وبه ـ وبغيره ـ يُفْهم معنى اسمه (اللطيف)»[1].

و«مَنْ تلَمَّح حَلَاوَةَ العافية هان عليه مرارة الصبر»[2].

وقال الشاعر[3]:

إِذَا تَـضَـايَـقَ أَمْـرٌ فَـانْـتَـظِـرْ فَـرَجًـا ... فَـأَضْـيَـقُ الْأَمْـرِ أَدْنَـاهُ إِلَـى الْـفَـرَجِ

وقال آخر[4]:

إِذَا دَجَـا لَـيْـلُ الـخُـطُـوبِ وَأَظْـلَـمَـتْ ... سُـبُـلُ الـخَـلَاصِ وَخَـابَ فِـيـهَـا الْآمِـلُ
وَأَيِـسْـتَ مِـنْ وَجْـهِ الـنَّـجَـاةِ فَـمَـا لـهَـا ... سَـبَـبٌ وَلَا يَـدْنُـو لـهَـا مُـتَـنَـاوِلُ
يَـأْتِـيـكَ مِـنْ أَلْـطَـافِـهِ الْـفَـرَجُ الَّـذِي ... لَـمْ تَـحْـتَـسِـبْـهُ وَأَنْـتَ عَـنْـهُ غَـافِـلُ

وقد وَعَد الله عباده الصابرين بقُرْبِ الفرج في صوَرٍ شَتَّى، منها:

١ ـ الوَعْدُ بالسّعة بعد الضيق، والرَّخاءِ بعد الشِّدّة، واليُسْرِ بعد العُسْر، وفي هذا يقول الله جلَّ وعلا: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

لَا تَـيْـأَسَـنَّ وَإِنْ طَـالَـتْ مُـطَـالَـبَـةٌ ... إِذَا اسْـتَـعَـنْـتَ بِـصَـبْـرٍ أَنْ تَـرَى فَـرَجَـا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ بِالْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا[5]

٢ ـ الوَعْدُ بحُسْنِ العَاقبة، والعِبْرَة بالعَوَاقب، والمدار على الخواتيم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٩].

صَـبْـرًا جَـمِـيـلًا مَـا أَسْـرَعَ الْـفَـرَجَـا ... مَـنْ صَـدَقَ الـلَّـهَ فِـي الْأُمُـورِ نَـجَـا
مَـنْ خَـشِـيَ الـلَّـهَ لَـمْ يَـنَـلْـهُ أَذًى ... وَمَـنْ رَجَـا الـلَّـهَ كَـانَ حَـيْـثُ رَجَـا[6]

٣ ـ الوعد بحُسْن العِوَض عَمَّا فات؛ فإن الله لا يضيع أجر مَنْ أحْسَنَ عَملًا، قال

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٧) بتصرُّف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٦٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٩٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٧).
(٤) «حياة الحيوان» للدّميري (٢/ ٢١١).
(٥) «البيان والتبيين» (٢/ ٣٦٠).
(٦) «البداية والنهاية» (١٣/ ٥٦٣)، و«السير» (١٢/ ٥٨٩)، و«طبقات السبكي» (٢/ ١٣٤).

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

فوائد تأخير الفرج:

وليعلم المسلم المتعلّق بحبال الفرج أن في التأخير لطائف وأسرارًا، منها:

١ ـ أنَّ الكَرْبَ كلَّما اشْتَدَّ كَانَ الْفَرَج قريبًا، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١١٠﴾ [يوسف: ١١٠].

ولقد أحسن القائل:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ[١]

وقال ابن المعتز[٢]:

وَلَا هَمَّ إِلَّا سَوْفَ يُفْتَحُ قُفْلُهُ ... وَلَا حَالَ إِلَّا بَعْدَهَا لِلْفَتَى حَالُ

ويقول آخر[٣]:

تَصَبَّرْ إِنَّ عُقْبَى الصَّبْرِ خَيْرٌ ... وَلَا تَجْزَعْ لِنَائِبَةٍ تَنُوبُ
فَإِنَّ الْيُسْرَ بَعْدَ الْعُسْرِ يَأْتِي ... وَعِنْدَ الضِّيقِ تَنْكَشِفُ الْكُرُوبُ
وَكَمْ جَزِعَتْ نُفُوسٌ مِنْ أُمُورٍ ... أَتَى مِنْ دُونِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

وقال هُدْبة بن خَشْرَم[٤]:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ
فَيَأْمَنُ خَائِفٌ وَيُفَكُّ عَانٍ ... وَيَأْتِي أَهْلَهُ النَّائِي الْغَرِيبُ

ولله در القائل[٥]:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ... ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

---

(١) اختُلف في قائل هذا البيت، ورُويَ شطره الأوَّل مرفوعًا، ولا يصحُّ. ينظر: «التذكرة» للزَّرْكَشِي مع «حَاشِيَةِ الصبَّاغ» (١١٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٥٣٩)، و«المقاصد الحسنة» (١١٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٣٩١).

(٢) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٦).

(٣) «رسائل ابن رجب» (٣/ ١٦٩).

(٤) «تاريخ دمشق» (٧٣/ ٣٧١).

(٥) «وفيات الأعيان» (١/ ٤٦)، ونسبه لأبي بكر الصولي.

وقال محمد بن حازم الباهلي[(١)]:

وَمَا مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا سَيَأْتِي ... لَهَا مِنْ بَعْدِ شِدَّتِهَا رَخَاءُ

٢ - أَنَّ الكَرْب كُلَّمَا اشْتَدَّ وُجِد اليأس مِن كَشْفه من جهة المخلوق، وازداد التعلُّق بالخالق، حتى يَصِلَ العَبْدُ إلى مَحْضِ التَّوَكّل، الذي هو مِنْ أَعْظَم الأسباب التي تُطْلَب بها الحوائج، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

٣ - أن الكَرْب كُلَّمَا اشْتَدَّ فَإِنَّ العَبْدَ حينئذ يحتاج إلى زيادة مجاهدة الشيطان؛ لأنه يأتيه فيقنّطه، ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته، ودفعه، فيحوز ثواب مجاهدة عدوّه ودَفْعه؛ ولِهَذا قَال النبي ﷺ: **«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[(٢)].

٤ - أن المؤمن كُلَّما اسْتَبْطَأ الْفَرَجَ واسْتَيْأس منه، ولا سِيَّما بعد كثرة الدعاء وإلحاح التضرّع، ولم يظهر له أثر الإجابة؛ رجع إلى نَفْسه يلومها قائلًا: إنما أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ.

وهذا اللَّوْم أحبّ إلى الله من كثير من الطاعات؛ لأَنَّهُ يورث العَبْد انْكِسَارًا لِرَبِّه، فَذَلِكَ يُسْرِع إليه الفَرَج؛ لأن اللهَ عِنْدَ المنكسرة قلوبهم لِأَجْلِهِ، وعَلَى قَدْرِ الكسر يكون الجَبْر.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

لَا تَيْأَسَنَّ مِنِ انْفِرَاجِ شَدِيدَةٍ ... قَدْ تَنْجَلِي الْغَمَرَاتُ وَهِيَ شَدَائِدُ
كَمْ كُرْبَةٍ أَقْسَمْتُ أَلَّا تَنْقَضِي ... زَالَتْ وَفَرَّجَهَا الجَلِيلُ الْوَاحِدُ[(٣)]

ويقول آخر[(٤)]:

يَا صَاحِبَ الهَمِّ إِنَّ الهَمَّ مُنْفَرِجٌ ... أَبْشِرْ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْفَارِجَ اللَّهُ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ... لَا تَيْأَسَنَّ فَإِنَّ الْكَافِيَ اللَّهُ
اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ الْعُسْرِ مَيْسَرَةً ... لَا تَجْزَعَنَّ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللَّهُ
إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ ... فَحَسْبُكَ اللَّهُ فِي كُلٍّ لَكَ اللَّهُ

---

(١) كما في «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٤). ونسبها الهاشمي في «جواهر الأدب» (٢/ ٧٠٣) لأبي تمام.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «جمهرة الأمثال» (٢/ ٨١)، و«مجمع الحكم والأمثال» (١١/ ٤١).

(٤) انظر: «المحاسن والأضداد» (ص١٥٧)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٢٠).

ويقول آخر[(١)]:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَقْرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

❁ ❁ ❁

(١) «أمالي القالي» (٢/ ٣٠٣).

وقائع من الفرج

فهذه بعض الوقائع التي حصل فيها فرَجٌ لِبَعْضِ المَكْرُوبِينَ، نَسُوقُها لتسلية المُصَابِ، ولتَعْظُم في نَفْسِهِ الرَّغْبَة في الصبر رجاء الفرج؛ لِيُحسِنَ الظَّنّ بالله تعالى؛ فإن بيديه أمر الكروب تقديرًا ورفعًا.

عن محمد بن عثمان العجلي قال: «لما حَدَّثَ شريك (بن عبد الله) بحديث الأعمش عن سلمان عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا لِقُرَيْشٍ مَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ، فَإِذَا خَالَفُوكُمْ فَضَعُوا سيُوفَكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ، فَأَبِيدُوا خَضْرَاءَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَكُونُوا زَرَّاعِينَ أَشْقِيَاءَ**»[1]، فسُعِيَ بِهِ إلى المهدي، فبَعَثَ إلى شريك، فأتاه، فَقَالَ: حدَّثْتَ بها؟ قال: قلت: نعم، قال: عَمَّنْ رَوَيْتَها؟ قلت: عن الأعمش، قال: وَيْلِي عليه! لو عَرَفْتُ مَكَانَ قبْرِهِ لأخرجته فأحرقته بالنار. فقلت: إن كان لمأمونًا على ما رَوَى، قال: يا زنديق لأقتلنَّك. قلت: الزنديق مَنْ يَشْرَب الخمر، ويسفك الدم. قال: والله لأقتلنَّك. قلت: أوْ يكفي الله؟ قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلني الفضل بن الربيع، فقال: ليس لك موضع تهرب إليه، قلت: بلى، قال: فإنَّهُ قَدْ أَمَرَ بِقَتْلِكَ، قال: فخرجت إلى جبل، فخرجت يومًا أتجسس الخَبَرَ، فأقبل ملَّاح من بغداد، فاستقبله مَلَّاح آخر مِنَ البصرة، فسأله: ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين، قلت: يا مَلَّاح قَرِّب، فَقَرَّب»[2].

تَجْرِي المَقَادِيرُ مِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ ... وَلِلْمَقَادِيرِ أَسْبَابٌ وَأَبْوَابُ
مَا اشْتَدَّ عُسْرٌ وَلَا انْسَدَّتْ مَذَاهِبُهُ ... إِلَّا تَفَتَّحَ مِنْ مَيْسُورِهِ بَابُ[3]

وعن عبد الرزاق بن همام قال: «بعث أبو جعفر (المنصور) الخشَّابين حين خرج إلى مَكَّةَ، فَقَال: إن رأيتم سفيان الثَّوْرِي فاصْلُبُوه. قال: فجاء النَّجَّارُونَ، فنصبوا الخشَبَ، ونودِيَ سُفْيَان، وإذا رأسه في حِجْر فُضَيْل بن عياض، ورجلاه في حِجْرِ ابْنِ عُيَيْنَةَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وضَعَّفَهُ الإمام أحمد كما في «السُّنَّة» للخلَّال (٨٢)، والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ١٢٥)، والألباني في «الضعيفة» (١٦٤٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

(٣) «روضة العقلاء» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

فقالوا له: يا أبَا عَبْدِ اللهِ! اتَّقِ اللهَ، ولا تُشمِت بنا الأعداء، قال: فتقَدَّم إلى الأستار ـ أي: أستار الكعبة ـ ثم دخله، ثم أخذه وقال: بَرِئْتُ مِنْهُ إن دخلها أبو جعفر، قال: فمات قبل أن يدخل مَكَّة، فأُخبر بذلك سفيان، فلم يقل شيئًا»(١).

وعن أبي عمرو بن العلاء قال: «خرجتُ هاربًا من الحَجَّاج إلى مكة، فبينا أنا أطوف بالبيت إذ أعرابي يُنْشِد:

يَا قَلِيلَ العَزَاءِ فِي الْأَحْوَال ... وَكَثِيرَ الهُمُومِ والأَوْجَال

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ يُكْـ ... ـشَفُ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ

صَبِّرِ النَّفس عِنْد كُلِّ مُلمّ ... إنّ فِي الصَّبْر رَاحَة المُحْتَال

ربَما تَجْزَع النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ ... لَهُ فَرْجَةٌ كحلّ العِقَالِ

فقلت: مه؟ فقال: مات الحجاج.

قَالَ: فَلَا أدْرِي بِأيِّ الْقَوْلَيْنِ كنت أسَرّ، بقوله: فَرْجَة بِفَتْح الْفَاء، أو بِمَوْت الْحجَّاج»(٢).

وقال أبو الحسن التّنوخي: «كان في باب الشام رجل يُقَال له: لبيب العابد، زاهدٌ ناسك صالح فأخْبَرَنِي، قال: كنت مملوكًا روميًا، فمات مولاي، فعتَقَنِي، فَحَصَّلْت لنفسي رزقًا... وتزوجت زوجة مولاي، وقد علم الله أني لم أتزوجها إلا لصيانتها، لا لغير ذلك، فأقمت معها مدة. ثم إني رأيت يومًا حيَّة وهي داخلة إلى جُحْرِهَا، فأخذتها، فمسكتها بيدي، فانْثَنَتْ عَلَيَّ، فَنَهَشَت يَدِي، فشُلَّتْ، ثُمَّ شُلَّتِ الأخرى بعد مُدّة، ثم زَمِنَتْ رِجْلَايَ، واحدة بعد أخرى، ثم عَمِيتُ، ثم خَرستُ؛ فمكثت على هذه الحال سنة، لم تَبْقَ فيَّ جَارحة صحيحة، إلا سمعي، أسمع به ما أكره، وكنتُ طَرِيحًا على ظهري، لا أقدر على إشارة، ولا إِيمَاء، فأُسْقَى وأنا رَيَّان، وأُترك وأنا عطشان، وأُطْعَم وأنا مُمْتلئ، وأُفْقِد الطعام وأنا جائع، لا أدفع عن نفسي، ولا أقْدر على إيماء بما يُفْهِمُ مُرادي منه.

فدخلَت امرأة بعد سنة إلى زوجتي، فسألتها عني، فقالت: كيف لبيب؟ فقالت لها وأنا أسمع: لا حيّ فيُرْجَى، ولا مَيِّت فيُنْسَى.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠١) واللفظ له، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٦)، والتنوخي في «الفرج بعد الشدة» (٤/ ٦٩ ـ ٧٠) واللفظ له.

فغمَّني ذلك، وبكَيت، وضَجَجْتُ إلى الله تعالى في سِرِّي.

وكنت في جميع ذلك الحال لا أجِد ألمًا في شيءٍ من جِسْمِي، فلما كان في ذلك اليوم؛ ضُرِب بدني كله ضربًا شديدًا، لا أُحْسِن أن أصِفَهُ، وألِمْتُ ألمًا مُفْرِطًا، فلَمَّا كان في اللَّيْلِ، سَكَن الألَم، فَنِمْت، وانْتَبَهْتُ ويدي على صدري، فَعَجِبْت من ذلك، وكيف صارت يدي على صدري! ولم أزل مُفَكِّرًا في ذلك، ثم قلتُ: لعل الله قد وَهَب عافيتي، فحرَّكْتُهَا، فإذا هي قد تحَرَّكَتْ، ففرحت، وطَمِعْت في العافية، وقلت: لعل الله أذِنَ بخلاصي، فقبضتُ إحدى رجليّ إليَّ فانْقَبَضَتْ، وبسطتها فانْبَسَطَتْ، وفعلتُ بالأُخْرَى كذلك فتحَرَّكَتْ، فقمت قائمًا، لا قَلَبَة بي[1]، ونزلت عن السرير الذي كنتُ مطروحًا عليه، فخرجتُ إلى الدار، ورفعْتُ طرفي، فرأيتُ الكواكب وإذا أنا قد أبصرتُ، ثم انطلق لساني، فقلت: يا قديم الإحسان بإحسانك القديم.

ثم صِحْتُ بزوجتي، فقالت: أبو علي؟ فقلتُ: الساعة صِرْتُ أبَا عَلي؟

فأسرَجتُ، وطلَبْتُ مِقراضًا، وكان لي سِبَال كما يكون للجند، فقصصته، فضجَّت من ذلك، وقالت: ما هذا؟ فقلت: بعد هذا لا أخدم غير ربّي، فصار هذا سبب عبادتي.

قال: وخبره مستفيض، ومنزلته في العبادة مشهورة، وصارت هذه الكلمة عادته، لا يقول في حشو كَلَامِهِ وأكثر أوقاته غيرها: يا قديم الإحسان»[2] .اهـ.

وكان بعض الصَّالِحين قد أَلَحّ عَلَيْهِ الْغَمّ، وضِيْق الصَّدْر، وَتَعَذُّر الْأُمُور، حَتَّى كَاد يَقْنَط، فَكَانَ يَوْمًا يمشي، وهو يَقول:

أَرَى الـمَـوْتَ لـمَـنْ أَمْـسَـى ... عَـلَـى الـذُّلِّ لَـهُ أَصْـلَـحْ

فَهَتَفَ بِهِ هَاتِف، يَسْمَع صوته، وَلَا يرى شَخْصه ـ أو أُرِي فِي النّوم ـ كَأن قَائِلًا يَقُول:

أَلَا يَـا أَيُّـهَـا الـمَـرْءُ الْـ ... ـلَـذِي الـهَـمُّ بِـهِ بَـرَّحْ
إِذَا ضَـاقَ بِـكَ الْأَمْـرُ ... فَـفَـكِّـرْ فِـي أَلَـمْ نَـشْـرَحْ
فَـإِنَّ الْـعُـسْـرَ مَـقْـرُونٌ ... بِـيُـسْـرَيْـنِ فَـلَا تَـبْـرَحْ

قَالَ: فواصلتُ قرَاءَتهَا فِي صَلَاتي، فشرح الله صَدْرِي، وأزال همي وكربي، وَسَهّل أَمْرِي[3].

---

(١) أي: لا وجع ولا داء بي. انظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٢٣٢).
(٢) «نشوار المحاضرة» (٢/ ٢٨٧).
(٣) «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

روى أبو مُظَفر السَّمْعَاني عن والده، قال: سمعت سعد بن نصر الواعظ الحيوان يقول: «كنتُ خائفًا من الخليفة؛ لحادِث نَزَل، واشتد الطَّلَب لي، فاخْتَفَيْتُ، فرأيت في النوم ليلة من الليالي كأني في غرفة جالس على كُرْسِيّ وأنا أكتب شيئًا، فجاء رجل فوقف بإزائي، وقال: اكتب ما أُملي عليك، وأنشدني:

ادْفَعْ بِصَبْرِكَ حَادِثَ الأَيَّامِ ... وَتَرَجَّ لُطْفَ الْوَاحِدِ الْعَلَّامِ
لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ تَضَايَقَ كَرْبُهَا ... وَرَمَاكَ رَيْبُ صُرُوفِهَا بِسِهَامِ
فَلَهُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فُرْجَةٌ ... تَخْفَى عَلَى الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ
كَمْ مِنْ نَجِيٍّ بَيْنَ أَطْرَافِ الْقَنَا ... وَفَرِيسَةٍ سَلِمَتْ مِنَ الضِّرْغَامِ

قال: فلما أصبحت أتى الفرج، وزال الخوف والحَرَج»(١).

وبعد بيان هذه الأمور التي تُعين على الصبر بوجه عام يَحْسُن بنا أن نتحدَّث عن ثلاثة أمور مما تكثر حاجة الناس إلى بيانها في مسألة الصبر:

الأمر الأوَّل: في الأمور التي تُعِينُ على الصبر عن الشهوة.

والأمر الثاني: في الأمور التي تُعِين على الصبر عن معصية الله ﷻ.

والأمر الثالث: في الأمور التي تعين على الصبر على أذى الناس.

أولًا: الأمور التي تعين على الصبر عن الشهوة:

«لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تُعين عليه، وتوصِّلُ إليه. والصبر وإن كان شاقًّا كريهًا على النفوس لكن تحصيله مُمْكِنٌ، وهُوَ يَتَرَكَّبُ من مُفْرَدَيْن: العِلْمُ والعَمَلُ؛ فَأَمَّا الجُزْء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنَّفع واللَّذَّة، وإدْرَاك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية، فمَتَى فعل ذلك حصل له الصبر، وهانت عليه مشاقُّهُ.

وقد عُلِمَ أَنَّ فِي الصبر عن الشهوات المُحَرَّمَة مصارعة باعث العقل والدِّينِ لباعث الهوى والنَّفْس، وكلّ مُتَصَارِعَيْنِ يُرَاد أن يَتَغَلَّبَ أحَدُهُمَا على الآخر، فالطريق فيه تقوية مَنْ يُرَاد أن تكون الغَلَبَة له، وإضعاف الآخر. فإذا عزم على التَّدَاوِي، ومقاومة هذا الدَّاء، **فليضْعِفْهُ أولًا بأمور:**

١ ـ أن ينظر إلى مادة قوّة الشهوة فيحدّها، فإن لم تَنْحسم فليُبَادِرْ إلى الصوم؛ فإنه يُضْعِف مجارِي الشَّهْوَة، ويكسر حِدَّتها.

---

(١) «حياة الحيوان» للدميري (٢/ ١٠١).

٢ ـ أن يَقْصُر لِجَام طَرْفه ما أمكنه، فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يُهَيَّج بالنظر.

٣ ـ تسلية النَّفْس بالمباح المُعَوَّض عن الحرام.

٤ ـ التَّفَكُّر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوَطَر.

٥ ـ التفكُّر فِي مَقَابِحِ الصّورة التي تدعوه نَفْسه إليها.

وأمّا تَقْوِيَةُ باعث الدِّينِ، فإنه يكون بأمور:

١ ـ إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعْصَى وهو يرى ويسمع.

٢ ـ تحقيق محبَّتِهِ سبحانه، فيترك معصيته محبَّةً لَهُ؛ فإن المُحِب لمن يُحِبّ مُطِيع.

٣ ـ استحضار النِّعْمَةِ والإِحْسَانِ؛ فإن الكريم لا يُقَابِل بالإساءة مَنْ أَحْسَن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس.

٤ ـ استحضار الغضب والانتقام؛ فإنَّ الرَّبَّ تَعَالى إذا تمَادَى العَبْدُ في مَعْصِيَتِهِ غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شَيْءٌ.

٥ ـ ملاحظة الفَوَات، وَهُوَ مَا يفوته بالمعصية مِنْ خَيْرَي الدّنْيَا والآخرة.

٦ ـ استحضار لذة القَهْر والظَّفَر؛ فإنَّ قَهْرَ الشَّهْوَةِ والظَّفَر بالشيطان له حلاوة ومسَرَّة وفَرْحَة عند مَنْ ذَاقَ ذلك أعظم من الظَّفَر بعدوِّهِ من الآدميِّينَ.

٧ ـ انتظار العِوَض، وهو ما وَعَدَ الله سبحانه من تعويض مَنْ تَرك المحارم لأجله، ونهى نَفْسه عن هواها.

٨ ـ استحضار المعية، وهي نَوْعَانِ: معية عامَّة، ومعِيَّة خاصَّةٌ.

فالعامة: اطِّلَاعُ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وكونه بعينه، لا تَخْفَى عليه حاله.

والمقصود هنا: المعية الخاصة، وهي التي تقتضي النَّصْر والتَّأييد لمن أُضِيْفَت له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨](١).

٩ ـ الخوف من المُعاجلة والمُبَاغَتة، وهو أن يخاف أن يُعَاجِلَهُ الأَجَل، فيأخذه الله على غِرَّة، فيُحَالُ بَيْنَهُ وبين ما يشتهي مِنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ.

١٠ ـ التفكر في البلاء والعافية؛ فإن البلاء في الحقيقة ليس إلَّا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها؛ فأهل البلاء هم أهل المعصية، وإن عُوفِيَتْ أبْدَانُهُمْ، وأهل العافية هم أهل الطاعة، وإن مَرِضَتْ أبْدَانهم.

---

(١) انظر: «فتح البرية بتلخيص الحموية» (٥٧ ـ ٥٨).

١١ ـ أن يُعَوِّد باعث الدِّينِ ودَوَاعِيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلًا قليلًا، حتى يُدْرِكَ لَذَّةَ الظَّفَرِ، فتقوى حينئذ هِمَّتُهُ.

١٢ ـ كف الباطل عن حديث النَّفْس، وإذا مَرَّتْ بِهِ الخواطر نفاها، ولا يُؤْويها ويساكنها؛ فإنَّها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس.

١٣ ـ قَطْعُ العَلَائِقِ والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهَوَى، فيصرف هَوَاهُ إلى ما ينفعه، ويَسْتَعْمِلُه في تنفيذ مراد الرَّبّ تعالى؛ فإن ذلك يدفع عنه شَرّ استعماله في معاصيه.

١٤ ـ صَرْف الفِكْر إلى عجائب آيات الله التي نَدَب عباده إلى التفكّر فيها، وهي آياته المَتْلُوّة، وآياته المَجْلوّة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه وساوس الشيطان.

١٥ ـ التفكر في الدنيا، وسرعة زَوَالِهَا، وقُرْب انقضائها، فلا يَرْضى لنفسه أن يتزوَّد منها إلى دار بقائه، وخلوده بأخسّ ما فيها وأقلّه نفعًا إلا ساقط الهِمَّة، دَنِيء المروءة، ميّت القَلْبِ.

١٦ ـ تعرّضه إلى مَنِ القلوب بين إصبعيه، وأَزِمَّةُ الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه، فَلَعَلَّهُ أن يُصَادف ساعة من الساعات التي لا يُسْأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

١٧ ـ أن يعلم العبد أنَّ تَفْرِيغَ المَحل شرطٌ لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدَّغَل شرط لكمال الزَّرْعِ، فإذَا طَهَّرَ العبد قلبه، وفَرَّغَهُ مِنْ إرَادَة السّوء وخواطره، وبذَرَ فيه بَذْر الذِّكْر والفِكْر والمحبة والإخلاص، وعرَّضَهُ لمهابِّ رياح الرحمة، وانتظر نزول الغيث في أوانه كان جديرًا بحصول المُغَلّ.

١٨ ـ أن يعلم العبد بأن فيه جاذِبَيْن متضادَّيْنِ، ومِحْنَته بين الجاذِبَيْن: جاذب يجذبه إلى الرّفيق الأعلى من أهل عِلّيين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين.

١٩ ـ أن يعلم العبد أن الله سبحانه خَلَقه لبقاء لا فناء له، ولِعِز لا ذُلّ معه، وأَمْن لا خوف فيه، وغِنَاء لا فَقْرَ معه، ولَذَّة لا أَلَم معها، وكمال لا نَقْصَ فيه.

٢٠ ـ أَلَّا يغترّ العبد باعتقاده أن مجرَّدَ العِلْمِ بِمَا ذَكَرْنا كافٍ في حصول المقصود، بل لا بد أن يُضِيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر عن الشهوة أسْهَل من الصبر على ما تُوجِبُهُ الشهوة، فإنها إما أن توجب أَلَمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذَّة أكمل منها، وإما أن تُضَيّع وقتًا إضاعتُه حسرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلُم عِرْضًا توفيرُه أنفع للعبد من ثَلْمه، وإما أن تُذهب

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (١٠٢ ـ ١١٣) باختصار وتصرف.

مالًا بقاؤه خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تَضَع قَدرًا وجاهًا قيامُه خير من وَضْعِهِ، وإما أن تَسْلُب نعمة بقاؤها ألَذّ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تَطْرُق لِوَضِيْع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تَجْلِب همًّا وغمًّا وحُزْنًا وخوفًا لا يقارب لذَّةَ الشهوة، وإما أن تُنْسِي عِلْمًا ذِكْرُه أَلَذّ من نَيْلِ الشهوة، وإمَّا أن تُشْمِت عدوًّا، وتُحْزِنَ وليًّا، وإما أن تَقْطَع الطريق على نِعْمَة مقبلة، وإمَّا أنْ تُحْدِث عَيْبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإنَّ الأعمال تُورِثُ الصفات والأخلاق»[1]. اهـ.

ثانيًا: الأُمور المُعِينَة على الصبر عن المعصية:

«اعلم أن الصبر عن المعصية ينشأ من عدة أسباب، **منها**:

١ ـ علم العبد بِقُبْحِهَا ورذَالتها ودناءتها، وأن الله إنما حَرَّمَهَا، ونَهَى عنها صيانة وحمايةً من الدَّنَايَا وَالرَّذائل.

٢ ـ الحياء من الله ﷻ؛ فإن العبْدَ مَتَى عَلِمَ بِنَظَره إليه، وأنه بمرأى منه ومسْمَع، وكان حيِيًّا استحيا مِنْ رَبِّه أن يتعرَّضَ لمساخطه.

٣ ـ مراعاة نِعَمِهِ عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تُزِيلُ النِّعم.

٤ ـ خَوْف الله وخشية عِقَابِهِ، وهذا السبب يَقْوَى بِالْعِلْم.

٥ ـ مَحَبَّةُ اللهِ، وَهِيَ أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه؛ فإن المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبّ مطيعٌ، وكُلَّمَا قَوِيَ سُلْطَان المحَبَّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقْوَى.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ المحبة المُجَرَّدة لا تُوجِب هذا الأثر ما لم تَقْتَرِنْ بإجْلَالِ المحبوب وتعظيمه، فإذا قارَنَهَا الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة.

٦ ـ شَرَف النَّفْس، وزكاؤها، وفضلها، وأَنَفَتُها، وحَمِيَّتُها أن تَخْتَار الأسباب التي تَحُطّها، وتضع من قَدْرِها، وتخفض منزلتها.

٧ ـ قوة العِلْم بسوء عاقبة المعصية، وقُبْح أثرها، والضرر الناشئ منها؛ من سواد الوجه، وظلمة القلب وضِيقِهِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ وألمِهِ.

ومنها: فَقْره بعد غِنَاهُ، ونقصان رزقه.

ومنها: زوال المهابة والحلاوة التي لَبِسَها بالطاعة.

ومنها: حصول البِغْضة والنُّفْرة منه في قلوب الناس.

---

(١) «الفوائد» (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

ومنها: ضياع أعز الأشياء عليه، وأنْفَسِها، وأغلاها؛ وهو الوقت الذي لا عِوَضَ منه، ولا يعود إليه أبدًا.

ومنها: طَمَع عدوِّهِ فيه، وظَفَره به.

ومنها: الطَّبْع والرَّين على قَلْبِهِ.

ومنها: أن يُحْرَمَ حَلَاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومَزِيدِ الإيمان.

ومنها: أن تمنع قلبه من تَرَحّله من الدنيا، ونزوله بساحة القيامة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه.

ومنها: أن الذَّنْب يستدعي ذنبًا آخر، ثُمَّ يقوى أحدهما بالآخر، فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعًا، وهلُمَّ جرًّا، حتى تَغْمُرَهُ ذنوبه، وتُحِيط به خطيئته.

ومنها: عِلْمه بفوات ما هو أحب إليه وخيرٌ له منها، فإنَّهُ لا يجمع الله لعبده بين لذَّة المحرَّمات في الدنيا ولذَّة ما في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ومنها: عِلْمه بأنَّ عَمَلَهُ هو وليّه في قَبْرِهِ، وأنيسه فيه، وشفيعه عند رَبِّه، والمُخَاصِمُ والمُحَاجّ عنه.

ومنها: عِلْمه بأن أعْمَال البرّ تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصْعَد إلى الله به. وأعمال الفجور تهوي به، وتجذبه إلى الهاوية.

ومنها: خروجه من حصْن الله الذي لا ضَيْعَة على مَنْ دَخَله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهبًا للصوص وقُطَّاع الطريق.

ومنها: أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحْقِ بَرَكَتِهِ.

وبالجملة: فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يُحِيط بها العبد عِلْمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها عِلْمًا.

٨ ـ قِصَر الأمل، وعِلْمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية، وهو مُزْمِع على الخروج منها، أو كراكب قَالَ في ظِلِّ شَجَرَة، ثم سار وتركها، فَهُوَ ـ لعِلْمه بقِلَّة مُقَامِهِ، وسرعة انتقاله ـ حريص على تركِ مَا يُثْقله حمْله، ويضرّه، ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بِحَضْرَتِهِ.

٩ ـ مجانبة الفضول في مَطْعَمِهِ، ومشربه، وملبسه، ومنامه، واجتماعه بالناس؛ فإنَّ قوة الدَّاعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات.

١٠ ـ وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بِحَسَب قوَّة إيمَانِهِ، فكُلَّما كان إيمانه أقوى كان صبره أَتَمّ، وإذا ضَعُفَ الإيمان ضَعُفَ الصبر.

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة، والآثار الجميلة»[١].

ثالثًا: الأمور المعينة على الصبر على الأذى الواصل إليه من الخلق:

فهناك أمورٌ تُعِين على هذا النوع من الصبر، وقد ذكر جملة منها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالة لطيفة عنوانها: «قاعدة في الصبر»[٢]:

«أحدها: أن يشهد أنَّ اللهَ تعالى خالقُ أفْعَالِ العباد، فلا يتحرَّك شَيْء إلا بمشيئته، فانظر إلى الَّذِي سَلَّطَهُمْ عَلَيْكَ، ولا تنظر إلى فِعْلهم بك تَسْتَرِحْ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ.

الثاني: أن يشهد العبد ذُنُوبَهُ، وأن الله سَلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

الثالث: أن يشهد العبد حُسْن الثواب الذي وَعَدَه الله لمن عفا وصَبَر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أَوْرَثَهُ ذلك مِنْ سَلَامَةِ القلب لإخوانه، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذَّته ومَنْفَعَته عاجلًا وآجلًا، على المَنْفَعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفة، كما يدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الخامس: أن يعلم أنَّه ما انتقم أحد لنفسه قط إلَّا أَوْرَثَهُ اللهُ ذَلِكَ ذُلًّا يجده في نَفْسه، فإذا عفا أعَزَّهُ الله، وقد قال النبي ﷺ: «وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»[٣].

السادس: أن يشهد أن الجزاء مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وأنه نَفْسه ظالم مذنب، وأن مَنْ عَفَا عن الناس عفا الله عنه، ومَنْ غَفَرَ غَفَرَ اللهُ لَهُ.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نَفْسه بالانتقام ضاع عليه زمانه، وتَفَرَّقَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/٥٨٨ ـ ٥٩٨) باختصار وتصرف.
(٢) «جامع المسائل» (١/١٦٨ ـ ١٧٤) بتصرُّف واختصار.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الثامن: أن يستحضر أن رسول الله ﷺ لم ينتصر لِنفْسه قط[١]، مع أن أذاه أذًى لله، ويتعلَّق به حقوق الدِّين، وأن نَفْسه أشرف الأنفس وأزْكَاهَا وأبرّها.

التاسع: أن يَشْهَدَ معيَّة الله ومحبَّته له إذا صَبر، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

العاشر: أن يشهد أن الصبر نِصْف الإيمان، فإذا صبر أحرز نِصْف إيمانه من النَّقْص.

الحادي عشر: أن يشهد أن صَبْرَه حُكْم منه على نَفْسه، وقهرٌ وغلَبَة لها، فمتى كانت النَّفْس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه وأسره وإلقائه في المهالك.

الثاني عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولا بد، فالله وكيل مَنْ صَبَرَ، ومَنِ انْتَصَرَ لِنَفْسه وَكَله الله إلى نَفْسه، فكان هو الناصر لها، فأين من نَاصِره الله خير الناصرين إلى مَنْ نَاصِره نَفْسه أعجز الناصرين وأضعفهم؟!

الثالث عشر: أن صبره على مَنْ آذاه واحتماله له يُوجِب رجوع الخَصْم عن ظلمه، ويوجب ندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مُسْتحيًا منه، نادمًا على ما فعله، بل يصير مُواليًا له، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وشَتَم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته قال: «يا عكرمة! انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكَس الرجل رأسه، واستحيا»[٢].

الرابع عشر: أنه ربما كان انتقامه ومقابلته سببًا لزيادة شَرّ خَصْمه، وقوة نَفْسه، فإذا صبر وعفا أمِنَ مِنْ هَذَا الضَّرَر.

الخامس عشر: أنَّ مَنِ اعْتَادَ الانْتِقَامَ وَلَمْ يَصْبِر لا بد أن يقع في الظلم؛ فإن الغضب يَخْرُج بصاحبه إلى حَدٍّ لَا يَعْقِل معه ما يقول ولا ما يفعل.

السادس عشر: أن هذه المظلمة التي ظلمها هي سبب إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة؛ فإذا انْتَقَمَ ولم يصبر لم تكن مُكَفِّرة لسيئته، ولا رافعة لِدَرَجَتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب» كما عزاه إليه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٣٣)، وحسَّنه المحب الطبري في «ذخائر العقبي» (ص٣٨٨).

السابع عشر: أنَّ صَبْرَهُ وعفوه من أكبر الجند له على خصمه، فإن مَنْ صَبر وعفا كان ذلك مُوجِبًا لذُلّ خصمه وخوفه وخشيته منه ومن الناس.

الثامن عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نَفْس الخصم أنه فوقه، وأنه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نَفْسه دونه، وكفى بهذا فضلًا وشَرَفًا للعفو».

والنفوس الشريفة التي شرُفت بما تحمله من المعاني الطيّبة، والعقائد الصحيحة، والأعمال القويمة تنجذب إلى الأعلى، وترتفع هِمَم أصحابها، ويكون اشتغالها بمعالي الأمور.

وأما النفوس الوضيعة فتسعى لسفاسف الأمور وسافلها، وتتطلّع إليها.

التاسع عشر: أن نعرف طبيعة كل أحد ممَّن نَتَعَامَل معه من الناس، فنُعَامِلُهُ بمقتضى ما نَعْرِفُه من حاله.

فلعلَّك تجد الرجل من عادته ألا يضبط لسانه، فتنفلت منه الكلمة الساقطة المؤذية وهو لا يشعر بها، ولا يقصد بها أذى أحد من الناس، ولكنها عند التحقيق والتأمل تكون مما ألقاه الشيطان على لسانه.

فعِلْمنا بأنه سليم الناحية، خالي الصدر من إضمار السوء، مع عِلْمِنَا بهذا الداء فيه مما يُعِين على الصبر على أذاه واحتماله، ولعله إذا ذُكِّرَ نَدِم وتأسَّف لما بَدَرَ منه.

العشرون: أن يجعل العَبْد حظ نَفْسه خَلْف ظهره، ولا يَكْتَرِث بما يسمعه من الناس، وما يَصِله من أذاهم، بل ويُحْسِن الظنّ بمَنْ أسَاءَ إليه، ويحمل كلامه على خير محامله.

وأمَّا مَنْ تَتَبَّعَ الناس في زلَّاتِهِمْ، وسَقَطَات ألسنتهم، وأسَاءَ الظَّنَّ بِهِمْ، وحاسَبَهُمْ على كل حركاتهم وسكناتهم؛ فإنه حرِيٌّ أن يُنَغِّص عليه عيشه، وتتابع الأحزان على قلبه، ولا يكاد يصفو له خليل أو صاحب.

❁ ❁ ❁

عقبات في طريق الصبر

وقد نَصَب الشيطان في طريق الخير كل عَقَبَة يستطيع وضْعَها؛ ليصدّ عن سبيل الله، وجعل على طريق الصبر عَقَبَة كؤودًا، وهي ضَعْف العزيمة، وقلّة الاحتمال، وجعل مِنْ دُونِهَا عَقَبَات وعَقَبَات. فمِنْ ذَلِكَ:

١ ـ **العَجَلَة**: قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفي الحديث: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[١].

وقد قال مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز حين وَلَّاهُ مِصْرَ: «لا تَعْجَلْ بالعُقُوبَةِ إذا أشكل عليك الأمر؛ فإنك على العقوبة أقدر منك على ارتجاعها»[٢].

وقد قيل[٣]:

تَـأَنَّ وَلَا تَـعْـجَـلْ وَكُـنْ مُـتَـرَفِّـقًـا ... وَكُـنْ رَاحِـمًـا بِـالـنَّـاسِ تُـبْـلَ بِـرَاحِـمِ

٢ ـ **اليأس**: واليأس والصبر لا يجتمعان أبدًا؛ ولذلك فالمؤمن لا ييْأس.

٣ ـ **الضيق**: وهو ضيق الصَّدْر عن الاحتمال، مما يؤدّي في الغالب إلى سوء التصرّف.

٤ ـ **الغضب**: وهو عدوّ الصبر، وأكبر مُعِين للشيطان على ابن آدم.

فعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فردَّدَ مِرارًا، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»[٤].

ولذلك؛ كان الذي يملك نَفْسه عند الغضب أعْظَم الناس قُوَّةً، وأشدّهم صبرًا واحتمالًا لأذى الخلق.

والغضب يؤول إلى التَّقَاطُع ومنع الرفق، ورُبَّما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه، ويُفْرط في أذاهُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٢) من حديث سهل بن سعد ﷺ، وضعفه الترمذي، والألباني في «الجامع» (٢٣٠٠). ورُوِيَ أيضًا من حديث أنس ﷺ أخرجه البيهقي (١٠/ ١٠٤) وغيره، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٩٥)، وفي الباب عن ابن عباس، وعقبة بن عامر ﷺ وعن الحسن مرسلًا، راجع: «اللآلئ المنثورة» للزَّرْكَشِي (٣٤)، و«المقاصد» (٣١٢)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٦٥).

(٢) «بهجة المجالس» (١/ ٢٦٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٦).

ثمرات الصبر(١)

١ ـ الصبر يُنير الطَّرِيقَ، وذلك أنه يهدي العبد للخير، ويدلّه عليه، ويأخذ بيده؛ فَلَا يَزَالُ العبد مُسْتضيئًا بالصَّبْر، ومُستمرًا على الصَّوَاب.

فعن أبي مالك الأشعريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... **والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»(٢).

٢ ـ الصبر يُعِينُ عَلَى تحمُّلِ المشاقّ: فالصَّبْرُ عَوْنٌ على تحمّل ما يشقّ من تكاليف شرعيَّة، والقيام بها طاعة لله بنَفْسٍ مطمَئِنَّة رضيَّة إن كانت أوامر، وحَجْز النَّفْس وقهرها عن ارتكابها إن كانت نواهي، والصبر عليها، واحتسابها عند الله إن كانت أقدارًا مؤلمة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، ومَنْ كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإنْ كَانَتْ أعظم من الجبال.

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك! فقال: «**كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ يَكُونُ البَيْتُ فِيهِ بِالْوَصِيفِ؟**» ـ يعني: القبر ـ قلت: الله ورسوله أعلم ـ أو: ما خَارَ الله لي ورسوله ـ، قال: «**عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ**» أو قال: «**تَصَبَّرْ**»(٣).

وعن أنس ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قَبْرٍ، فقال: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**» الحديث(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: «الرِّضا قليل، والصبر مُعَوَّل المؤمن»(٥).

---

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/ ٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٦١، ٤٤٠٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وصحَّحه ابن حبان (٥٩٦٠، ٦٦٨٥)، والحاكم (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧) و(٤/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، والذَّهبي، والألباني في «الإرواء» (٨/ ١٠١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٩٣). وهناد في «الزهد» (٣٩٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤٢).

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَة له في ظِلّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمنشَارِ، فيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِك عَنْ دِينِهِ»**(١).

٣ - **الثبات على الحق، قال شيخ الإسلام** رحمه الله: «وليصبر على ما يَعْرِض له من الموانع والصّوارف؛ فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه»(٢). اهـ.

وفي حديث أصحاب الأُخدُود، لـمَّا أمر المَلِك بالأخاديد، فخُدَّتْ في أفواه السِّكَك، وأضْرَم النيران، وقال: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عن دينه فأحْمُوه(٣) فيها - أو قيل له: اقتحم -؛ ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أنْ تَقَعَ فِيهَا، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ(٤).

ولما خرج قارون على قومه في كامل زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا في حَسْرة وتلهُّف: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

٤ - **النَّجاح في الابتلاء**: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»**(٥).

٥ - **الأجر والثَّواب ودخول الجنَّة**: فالصَّبْر من صفات عباد الرحمٰن التي استحقّوا بِهَا الجَنَّة العَالِيَة بفضل الله، ولُقُّوا فيها التَّحِيَّة وَالسَّلَامَ، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥](٦).

وقال تعالى: ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٧).
(٣) هكذا هو في عامة النُّسَخ من «صحيح مسلم»، ونقل القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٨/ ٥٥٧) اتفاق النسخ على هذا، ووقع في بعض النسخ عند النووي: (فأقحموه).
(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) راجع: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٣٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولمَّا كان في الصبر من حَبْس النَّفْسِ، والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن؛ من التَّعَب والنَّصَبِ والحرارة ما فيه، كان الجزاء عليه بالجنَّةِ الَّتِي فيها السَّعة، والحرير الذي فيه اللِّين والنّعومة، والاتِّكاء الذي يَتَضَمَّن الرَّاحة، والظِلال المنافية للحرّ»[1]. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا عظمت المِحْنَة كان ذلك للمؤمن الصالح سَبَبًا لِعلُو الدرجة وعظيم الأجر»[2]. اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ قال: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَر عَوَّضْتُه مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لِنِسْوَة من الأنصار: «**لَا يَمُوتُ لإحْدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبُهُ إلا دَخَلَتِ الجَنَّةَ**». فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟! قال: «**أَوِ اثْنَيْنِ؟**»[4].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ضَرَّهُمْ مَا أَصَابَهُمْ في الدنيا، جَبَرَ الله لهم كل مصيبة بالجنة»[5].

وكما قيل:

اصْبِرْ فَصَبْرُ الْمَرْءِ بِالرَّحْمَنِ ... وَالصَّبْرُ شَطْرُ الدِّينِ وَالإِيمَانِ
وَاللَّهُ يُعْطِي الصَّابِرِينَ أُجُورَهُمْ ... مِنْ غَيْرِ عَدٍّ مِنَّةُ الرَّحْمَنِ
الصَّابِرُونَ هُمُ الضِّيَاءُ بِأَرْضِنَا ... وَمَكَانُهُمْ فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ

٦ ـ الفلاح في الآخرة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لا سَبِيلَ إلى الفلاح بدون

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٨٤).
(٢) «الاستقامة» (٢/ ٢٦٠).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٣٢/ ١٥١).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٧٩).

الصبر والمُصَابَرة والمُرَابَطَة المذكورات، فلم يفلح مَنْ أفلح إلَّا بِهَا، ولم يَفُتْ أحَدًا الفَلَاحُ إلا بالإِخْلَال بها أو ببعضها»[1].اهـ.

٧ ـ **مجازاتهم بأحسن الأعمال**: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل: ٩٦].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «قَسَمٌ مِنَ الرَّبِّ ﷻ مُتَلَقًّى باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويَتَجَاوَز عن سيِّئها»[2].اهـ.

٨ ـ **توفيتهم أجورهم بغير حساب**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن جُزَي رحمه الله تعالى: «قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر محصور، من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلَّا الصبر؛ فإنه لا يُحْصَر أجره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾»[3].اهـ.

٩ ـ **محبة الله للصابرين**: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهذا أعظم شرف لهم، وأكرم عطاء، وأجلّ كَرَامَة.

١٠ ـ **معيَّة الله**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، وفي هذا دليل على أنه مُعَان من قِبَلِ الله، وأن الله يُعِين الصابر، ويُؤَيِّده، ويكْلَؤُه، حتى يتم له الصبر على ما يحبّه الله.

١١ ـ **لهم البشرى من الله والصلاة والرحمة والهداية**: قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فـ«نِعْمَ العِدْلان، ونعمت العِلَاوة، فبِالهُدَى خلصوا من الضلال، وبالرَّحْمَةِ نجوا من الشقاء والعَذَابِ، وبِالصَّلَاةِ عَلَيْهِم نالوا مَنْزِلَةَ القُرْبِ والْكَرَامة.

والضالون حصل لهم ضِدّ هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضِدِّ الرَّحْمَة؛ من الألَم والعذاب والذَّمّ، واللَّعن الذي هو ضِدُّ الصَّلَاة»[4].

١٢ ـ **السلامة من الشرور**: ففي الصبر السلامة من شَرّ الأشرار، ووقاية مِنْ كَيْدِ الفُجَّار، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧٣).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠١).
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٦٥).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٩٩).

١٣ ـ **النصر**: «وقد ذكر الله الصبر والتقوى جميعًا في غير موضع من كتابه، وبيَّن أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى مَنْ ظَلَمه من المسلمين، ولِصَاحِبِه تكون العاقبة، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]. . . وقال الله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال إخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]»[1].

وقد قال النبي ﷺ: «**النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ**»[2].

١٤ ـ **التمكين**: **قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى**: «سُئِلَ الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل: أن يُمَكَّن ـ يعني: فيَشْكُر الله ﷻ ـ أو يُبْتَلَى؟ ـ يعني: فيصبر ـ، قال: لا يُمَكَّن حتَّى يُبْتَلَى، والله تعالى ابْتَلَى أولي العَزْمِ من الرسل، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ»[3]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «جَعَلَ الله الإمامة في الدِّين موروثة عن الصبر واليقين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فإن الدِّينَ كله عِلْم بالحق وعمل به، فالعمل به لا بُدَّ فِيهِ من الصبر، بل وطلب عِلْمه يحتاج إلى الصَّبْرِ، كَمَا قَالَ معاذ بن جبل رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ طَلَبَهُ للهِ عِبَادَة، ومعرفته خَشْيَة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يُعْرَف الله ويُعْبَد، وبه يُمَجَّد الله ويوحَّد. يرفع الله بالعلم أقوامًا، يجعلهم للناس قادة وأئمّة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم»[4].

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥]، فالعِلْم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغَيّ، فالضلال العمل بغير عِلْم، والغَيّ اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧٥ ـ ٦٧٦).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ١٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٨) بنحوه.

﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١، ٢]، فلا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا يُنال الرَّشَادُ إلَّا بِالصَّبْرِ؛ ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمان بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ». ثم رفع صوته فقال: «ألا لَا إيمانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ له»»[1]. اهـ.

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «الصبر لِقاح اليقين، فإذا اجْتَمَعَا أَوْرَثَا الإمامة في الدِّين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]»[2]. اهـ.

قال ابن عُيَيْنة: «أخذوا برأس الأمر فجعَلَهم رؤساء»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «جَمَع سبحانه بين الصَّبْرِ واليَقِينِ؛ إِذْ هُمَا سعادة العبد، وفَقْدَهُما يُفْقِده سعادته؛ فإن القلب تَطْرُقُه طوارق الشهوات المُخَالِفة لأمْرِ اللهِ، وطوارق الشبهات المخالِفَة لخَبَرِه، فبِالصَّبْرِ يَدْفع الشَّهَوات، وباليقين يَدْفع الشبهات؛ فإن الشَّهْوَةَ والشُّبْهَةَ مضادَّتَان للدِّينِ من كُلِّ وَجْهٍ، فلا يَنْجُو من عذاب الله إلَّا من دفع شهواته بالصَّبْرِ، وشبهاته باليَقِينِ»[4]. اهـ.

١٥ ـ **بالصبر يرتفع العبد: قال ابن رجب** رحمه الله: «فمَنْ صَبَرَ على مجاهدة نَفْسه وهواه وشيطانه غَلَبَهُ، وحصل له النَّصر والظَفَر، ومَلَكَ نَفْسه، فصار عزيزًا مَلِكًا، ومَنْ جَزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلِبَ، وقُهِرَ، وأُسِرَ، وصَارَ عبدًا ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه.

كما قيل:

إِذَا الـمَرْءُ لَـمْ يَـغْـلِـبْ هَـوَاهُ أَقَـامَـهُ ... بِـمَـنْـزِلَـةٍ فِـيـهَـا الْـعَـزِيـزُ ذَلِـيـلُ»[5]. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله: «الإنسان منَّا إذا غَلَبَ صَبْرُه بَاعِثَ الهَوَى والشهوة الْتَحَقَ بالملائكة، وإن غَلَبَ بَاعِثُ الهوى والشهوة صَبْرَه الْتَحَقَ بِالشَّيَاطِين. وإنْ غَلَب باعث طَبْعِهِ مِنَ الأَكْلِ والشرب والجِماع صَبْرَه الْتَحَقَ بالبَهَائِم.

قال قتادة: «خلق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان، وجعل له عقلًا وشهوة، فَمَنْ غَلَبَ عقلُهُ شَهْوَتَهُ فهو مع الملائكة، ومَنْ غَلَبَتْ شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم»»[6]. اهـ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩ ـ ٤٠). (٢) «الفوائد» (ص٢٨٩).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٠).

(٤) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص١٨)، وانظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٩٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٧٠).

(٦) «عدة الصابرين» (ص٣٧).

١٦ ـ **ضبط النفس**: وذلك من وجوه عدة، قد مضى الكلام على جملة منها عند بيان مجالات الصبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الصبر احتمال الأذى، وكَظْم الغيظ، والعفو عن الناس، ومخالفة الهوى، وتَرْك الأشَر والبَطَر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ٩ ـ ١١]»[١]. اهـ.

١٧ ـ **الانتفاع والاتعاظ بِعِبَر التاريخ، وآيات الله في الأنفس والآفاق:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾ [لقمان: ٣١].

١٨ ـ **نيل المطالب:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إلا مِن قِبَل إضاعة الشكر، وإهمال الافْتِقَار والدعاء، ولا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ بمشيئة الله وعونه إلَّا بقيامه بالشكر وصِدْق الافتقار والدعاء، ومِلَاك ذلك الصبر»[٢]. اهـ.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: «مكتوب في الحكمة: قُصَر الغايات ثلاث: قُصَر[٣] السَّفَه الْغَضَبُ، وقُصَر الحِلْم الراحة، وقُصَر الصبر الظَّفَر»[٤].

وقد قيل[٥]:

إِنِّـي رَأَيْـتُ وَفِـي الأَيَّـامِ تَـجْـرِبَـةٌ ... لِـلـصَّـبْـرِ عَـاقِـبَـةٌ مَـحْـمُـودَةَ الأَثَـرِ
فَـقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فِـي أَمْـرٍ يُـطَـالِـبُـهُ ... فَـاسْـتَـصْـحَـبَ الـصَّـبْـرَ إِلَّا فَـازَ بِـالـظَّـفَـرِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٦٣).
(٢) «الفوائد» (ص١٤٢).
(٣) قُصَر الشيء وقصاراه: غايته وثمرته. ينظر: مادة: (قصر) من «الصحاح» (٢/ ٧٩٣)، «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٦٩).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٧١).
(٥) أخرجها البيهقي في «الشعب» (٩٦٢٠)، ومن طريقه ابن عساكر في (٤٢/ ٥٣٠) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال أسامة بن منقذ[١]:

اصْبِرْ عَلَى مَا كَرِهْتَ تَحظَ بِمَا تَهْوَى فَمَا جَازِعٌ بِمَعْذُورِ
إِنَّ اصْطِبَارَ الجَنِينِ فِي ظُلَمِ الْـ أَحْشَاءِ أَفْضَى بِهِ إِلَى النُّورِ

وعن ميمون بن مهران قال: «ما نال رجل من جسيم الخَيْرِ، نبيٌّ ولا غيره، إلا بالصَّبْرِ»[٢].

وقال مالك بن دينار: «ما من أعمال البِرِّ شَيْء إلا ودونه عَقَبَة، فَإِنْ صَبر صاحبها أفْضَتْ بِهِ إلى رَوْح، وإن جَزِع رَجَع»[٣].

وقد قيل: «الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَائِدِ ينتج الفوائد»[٤].

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا[٥]

١٩ ـ الصبر سبب لتحصيل كل كمال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الصبر سَبَبٌ في حصول كل كمال، فأكمَل الخَلْقِ أصْبَرُهم، ولم يتخَلَّفْ عن أحد كماله المُمْكِن إلا من ضَعْف صَبْره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمَنْ لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انْضَمَّ الثَّبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل؛ ولهذا في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»[٦].

ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر»[٧]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إذا انْضَافَ إلى الصبر قوّة اليقين والإيمان ترقَّى العَبْد في درجات السعادة بفضل الله تعالى»[٨]. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: «الشجاعة من القلب، وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خُلُقٌ يَتَوَلَّدُ مِنَ الصَّبْرِ وحسْنِ الظن، فإنه متى ظنّ الظَّفَر، وساعده الصبر ثبت،

---

(١) «وفيات الأعيان» (١/ ٤٦١).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب» (١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٠) واللفظ له.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧١).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٩٨).
(٥) تقدم.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩).
(٨) قاعدة في «الصبر» (ص١٦٨) بتصرُّف يسير.

كما أن الجُبْن يتولَّدُ مِنْ سوء الظن وعَدَمِ الصبر، فلا يظن الظَّفَر، ولا يساعده الصبر»[١]. اهـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر لِقَاحُ البَصِيرَةِ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما. قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك»»[٢]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «الروح» (٢/ ٧٠٥).

(٢) «الفوائد» (ص٢٩٠).

من أخبار أهل الصبر

١ ـ **عن الحارث بن عُمَيْرَة، قال:** إني لجالسٌ عند معاذ بن جبل وهو يموت، وهو يُغْمَى عليه مرّة ويفيق مرّة، فسَمِعْتُه يقول عند إفاقته: «اخْنُق خَنْقَك، فوَعِزَّتِكَ إنّي لأُحِبّك»[(١)].

٢ ـ **وعن أنس بن مالك** ﷺ، **قال:** «اشتكى ابنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، قال: فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هَيَّأَتْ شَيْئًا، ونَحَّتْه في جانب البيت، فلمّا جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هَدَأَت نَفْسه، وأرجو أن يكون قد اسْتَرَاحَ، وظَنَّ أبو طلحة أنها صادقة، قال: فَبَات، فلَمَّا أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعْلَمَتْهُ أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: **«لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا...»** قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن»[(٢)].

والمراد بقوله: (فرأيت لهما)؛ أي: لولدهما المدعو له بالبركة.

٣ ـ وعن منصور بن عبد الرحمٰن عن أُمِّه قالت: «لما صُلِبَ ابْنُ الزّبَيْرِ دخل ابن عمر المسجد، وذلك حين قُتِلَ ابن الزبير وهو مصلوب مطروح، فقيل له: إن أسماء في ناحية المسجد، فمال إليها، فقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاتَّقِي اللهَ، وعَلَيْكِ بالصَّبْرِ، فقالت: وما يَمْنَعُنِي وقد أُهْدِيَ رأس يحيى بن زكريا إلى بَغِيٍّ مِنْ بَغَايا بني إسرائيل»[(٣)].

٤ ـ **وقيل لسعد بن أبي وقاص** ﷺ ـ وهو المعروف بإجابة الدعوة ـ: لو دعوتَ الله لبَصَرِك ـ وكان قد أُضِرَّ ـ فقال: «قضاء الله أحبّ إليَّ مِنْ بَصَرِي»[(٤)].

٥ ـ **وعن محمد بن يزيد قال:** قيل للحسن بن علي: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ مِنَ الغِنَى، والسّقم أحبّ إليَّ مِنَ الصِّحَّة، فقال: رحم الله أبَا ذَرّ، أمّا أنا أقول:

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٤٤) ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٤٦٢)، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠١).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ٢٦).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٩٨٩).

«فمَنِ اتَّكَلَ على حُسْن اختيار الله له لم يتَمَنَّ أنه في غير الحالة التي اختار الله تعالى له، وهذا حَدّ الوقوف على الرضا بما يصرف به القضاء»(١).

٦ ـ **وقال المغيرة:** شكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجعًا بضرسه، فقال الأحنف: «لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، فما ذكرتها لأحد»(٢).

٧ ـ **ولما أرادوا قَطْع رجل عروة قيل له:** لو سقيناك شيئًا حتى لا تشعر بالوَجَع؟ قال: «إنما ابتلاني ليرى صبري، أفأُعَارِض أمره بِدَفْع؟!»(٣).

٨ ـ وكان له ابن يقال له: محمَّد، وكانَ مِنْ أَحَبِّ وَلَدِهِ، رَكَضَته بغلة فقتلته، فقال عروة: «اللَّهُمَّ كان لي بنون سبعة، فأخذتَ منهم واحدًا، وأبقيت سِتَّة، وكانت لي أطراف أربعة، فأخذت مني طَرَفًا وأبقيت لي ثلاثة، وايمك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»(٤).

٩ ـ **وعن الربيع بن أبي مسلم، قال:** «دخلت على سعيد بن جبير حين جِيءَ به إلى الحجاج وهو مُوثَق، فَبَكَيْت، فقال لي: ما يُبْكِيكَ؟ قُلْت: الذي أرى بك، قال: فلا تَبْكِ، إن هذا كان في علم الله ﷻ أن يكون، ثم قرأ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]»(٥).

١٠ ـ **وعن الشَّعْبِي أن شُرَيْحًا القاضي قال:** «إنّي لأصاب بالمصيبة فأحْمَد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقَنِي للاسترجاع لِمَا أرْجُو فيه من الثواب، وأحْمَدُه إذ لم يجعلها في ديني»(٦).

١١ ـ **وعن عمران القصير قال:** «أُصِيبَ مُطَرِّف بن عبد الله بابن له، فأتاه قوم يعزّونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْرًا، ثم قال: إني لأستحيي من الله أن أتَضَعْضَع لمصيبة»(٧).

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٢٥٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٨٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٢).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٤١) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٠/ ٢٦١).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٩).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣١٨).

١٢ ـ **وعن ثابت البُنَاني** عن صِلَة بن أَشْيَم أنه كان يأكل يومًا، فجَاءَهُ رجل، فقال له: مات أخوك، فقال: هيهات!! نُعِيَ إليَّ، اجْلِسْ فَكُلْ، قال: ما سَبَقَنِي إليك أحد!! قال: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠][1].

١٣ ـ **وعن ثابت أيضًا** أن صِلَةَ بن أَشْيَم كان في مَغْزًى لَهُ، ومعه ابن له فقال: أي: بُنَيّ تَقَدَّم فقَاتِلْ حتى أحتسبك، فَحَمَل، فقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فاجتمَعَت النساء عند امرأته مُعَاذَة العدوِيَّة، فقالت: مرحبًا، إن كنتنَّ جِئْتنَّ لِتَهْنِئَتِي فمَرْحَبًا بِكُنَّ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن»[2].

١٤ ـ **وكان أبو قلابة عبد الله بن زيد** ممَّن ابْتُلِيَ في بدنه ودينه، أُرِيدَ على القضاء، فهَرَبَ إلى الشام، فمَات بِعَرِيشِ مِصْرَ، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبَصَرُهُ، وهو مع ذلك حامد شاكر[3].

١٥ ـ **وقال إبراهيم بن عبد الله**: «صُدِعَ فَتْحُ الموصلي، فقال: يا رَبّ ابْتَلَيْتَنِي ببلاء الأنبياء، فشُكْر هذا أن أصلّي الليلة أربعمائة ركعة»[4].

١٦ ـ **وعن إبراهيم بن الوليد قال**: دخلت على إبراهيم المغربي وقد رفَسَتْهُ بغلة، فكسرت رجله، فقال: «لولا مصائب الدنيا لَقَدِمْنا على الله مَفَالِيس»[5].

١٧ ـ **وقال إبراهيم الحربي** رَحِمَهُ اللهُ: «قميصي أنظف قميص، وإزاري أوسخ إزار، ما حدَّثت نفسي أنهما يستويان قط. وفرد عقبي مقطوع، وفرد عقبي الآخر صحيح... لا أُحَدِّثُ نفسي أني أصلحها، وما شكوتُ إِلَى أمي، ولا إِلَى أختي، ولا إلى امرأتي، ولا إلى بناتي قط حمى وجدتها، الرجل هو الَّذِي يُدْخِل غَمَّه عَلَى نَفْسه، ولا يُغِمّ عياله، كَانَ بي شقيقة خمسًا وأربعين سنة، ما أخبرت بِهَا أحدًا قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت بِهِ أحدًا، وأفنيتُ من عمري ثلاثين سنة برغيفَين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي أكلتُ، وإلا بقيتُ جائعًا عطشان إِلَى الليلة الثانية»[6].

١٨ ـ وذُكِرَ عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتَّى مَاتَ[7].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩٥) واللفظ له.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٠٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٩) واللفظ له.
(٣) انظر: «الثقات» لابن حبان (٥/ ٣ ـ ٥).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٢).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٠).
(٧) تقدم تخريجه.

١٩ ـ **وقال محمد بن الحسين:** «كتب رجل إلى بعض إخوانه يعزّيه: مَنْ أيْقَنَ بالثواب عدَّ المصيبة نعمة، ومصيبة وجَبَ أجْرُهَا خَيْر مِنْ نِعْمَة لا يُؤَدّى شكرها»(١).

٢٠ ـ **وكان ثابت بن أحمد بن شَبُّويَه يقول:** «كان يُخيَّلُ إليَّ أن لأبي فضيلة على أحمد بن حنبل؛ للجهاد، وفكاك الأسارى، ولزوم الثغور، فسألت أخي عبد الله بن أحمد: أيهما كان أرجح في نفْسك؟ فقال: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فلم أقنع بقوله، وأَبَيْتُ إلا العُجْب بأبي أحمد بن شَبُّويَه، فأُرِيتُ بعد سنة في منامي كأن شَيْخًا حوْلَهُ الناس، يسمعون منه، يسألون، فقعدت إليه، فلما قام تبعته، فقلتُ: أبا عبد الله! أَخْبِرني: أحمد بن حنبل، وأحمد بن شَبُّويَه، أيهما عندك أفضل وأعلى؟ فقال: سبحان الله! إن أحمد بن حنبل ابتُلِي فصبر، وإن أحمد بن شَبُّويَه عوفي، المبتلى الصابر كالمعافى؟! هيهات، ما أبعد ما بينهما!»(٢).

٢١ ـ **وقال يونس بن عبد الأعلى:** «ما رأيت أحدًا لَقِيَ مِنَ السّقم ما لقي الشافعي، فدخلت عليه يومًا فقال لي: يا أبا موسى! اقرأ عليّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأَخِفَّ عليَّ ولا تُثْقِل، فقَرَأْتُ عليه، فلما أردت القيام قال: لا تَغْفَلْ عَنِّي فَإنِّي مَكْرُوبٌ. قال يونس: عَنَى الشافعي ﷺ بِقَرَاءَتِي ما لقَى النَّبِيّ ﷺ وأصحابه أو نحوه»(٣).

٢٢ ـ ولما انهزم هولاكو بِعَيْنِ جَالُوت وحمص أحضر الناصر وأخاه ـ وكان قد أَسَرَهُما ـ وقال للترجمان: قل: أنت زعمت البلاد ما فيها أحد وهم في طاعتك حتى غررتَ بي، فقال الناصر: هم في طاعتي لو كنتُ هناك ـ وما كان يُشْهِر أحد سيفًا ـ أمَّا مَنْ هو بتوريز كيف يحكم على الشام؟! فرماه هولاكو بِسَهْم أصابه، فاستغاث، فقال أخوه: اسْكُتْ، ولا تطلب مِنْ هَذَا الكلب عفوًا، فقد حضرت، ثم رماه بسهم آخر أتلفه(٤).

٢٣ ـ ودخل أبو حفص النيسابوري على مريض، فقال المريض: آه، فقال: ممَّنْ؟ فسكت، فقال أبو حفص: مَعَ مَنْ؟ قال: فكيف أقول؟ قال: «لا يكن أنينك شكوى، ولا سكوتك تَجَلُّدًا، ولكن بين ذلك»(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٧١٩). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٤٢٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٠٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١١)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٨٦) بنحوه مختصرًا.

٢٤ ـ **وقال عبد المجيد بن إبراهيم للإمام البخاري رحمهم الله**: «كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك، ويتناولونك، ويَبْهَتُونَكَ؟ فقال: قال النبي ﷺ: «**اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ**»[(١)]»[(٢)].

٢٥ ـ **وعن محمد بن كناسة قال**: «لمَّا مات ذرّ بن عُمَر بن ذَر الهمداني، وكان موته فجأة، جاء أباه أهلُ بيته يبكون، فقال: ما لكم؟! إنا والله ما ظُلِمْنَا، ولا قُهِرْنَا، ولا ذُهِبَ لَنَا بِحَقٍّ، ولا أُخْطِئَ بِنَا، ولا أُرِيدَ غَيْرنا، وما لنا على الله مُعْتب»[(٣)].

٢٦ ـ **وعن عطية بن قيس قال**: مرض كعب، فعادَهُ رَهْط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟! قال: «بخير، جسد أُخِذَ بذنبه، إن شاء ربُّه عَذَّبَه، وإن شاء رَحِمَهُ، وإن بَعَثَهُ بَعَثَه خَلْقًا جديدًا لا ذنب له»[(٤)].

٢٧ ـ **وقال وَهْب بن منبّه**: «لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يَعُدّ البلاء نعمة، ويَعُدّ الرَّخاءَ مُصِيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرَّخاءَ، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء»[(٥)].

٢٨ ـ **وقال يحيى بن يمان**: سمعت سفيان يقول: «ما في الأرض أحب إليَّ مِن سعيد ـ يعني: ابنه ـ وما في الأرض أحد يموت أحب إليَّ منه»[(٦)]؛ يعني: فيصبر، ويحتسب.

٢٩ ـ **وقال بشر الحافي**: «كان المُعَافَى في الفَرَحِ والحُزْنِ وَاحدًا، قَتَلَت الخوارج له ولَدَيْنِ، فما تبيَّن عليه شيء، وجَمَع أصحابه وأطعمهم، ثُمَّ قال لهم: آجَرَكُم الله في فلان وفلان»[(٧)].

٣٠ ـ **وعن أبي السفر قال**: مَرِضَ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: «قد رآني»، قالوا: فأيّ شيءٍ قال لك؟ قال: قال: «إني فعَّالٌ لما أريد»[(٨)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٦١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٩٣٦٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥/ ١٧٣).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (١٦٣).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٣).

(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١١٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٣٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٠/ ٤١٠).

٣١ ـ **وقال أبو حيان التيمي**: دخلوا على سويد بن مَثْعَبة، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله ـ أي: ابن مسعود ـ وأهله تقول له: نفسي فداؤك، ما نطعمك، وما نسقيك؟ قال: فأجابها بصوت ضعيف: «دَبِرَت الحَرَاقِف[١]، وطالت الضِّجْعة، والله ما يسرني أنَّ الله نقصني منه قُلَامَة ظُفرْ»[٢].

٣٢ ـ **وعن القاسم بن محمد قال**: «هلكت امرأتي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزّيني بها، فقال: إنه كان في بني إسرائيل رَجُل فقيه، عالِم، عابد، مجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها مُعْجبًا، ولها مُحِبًّا، فماتت، فَوَجَد عليها وَجْدًا شديدًا، ولقِيَ عليها أَسَفًا، واحْتَجَب من الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد، وإن امرأة سمعتْ به، فجاءته، فقالت: إن لي إليه حاجة أريد أن أستفتيه فيها، ليس يجزئني إلا مُشَافَهَتُه، فذهب الناس، ولزمَتْ بابه، وقالت: ما لي منه بُدّ، فقال له قائل: إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك، وقالت: إنْ أَرَدتُ مُشَافَهَتُه، وقد ذهب الناس، وهي لا تفارق الباب، فقال: ائذنوا لها، قال: فَدَخَلَت عليه، فقالت: إني جئتك أستفتيك في أمر، قال: وما هو؟ قالت: إني اسْتَعَرْتُ من جارة لي حُلِيًّا، فكنتُ أَلْبَسُه، وأُعِيُره، فلَبِث عندي زمانًا، ثم إنهم أرسلوا إليَّ فيه، أَفَأُرُدَّه إليهم؟ فقال: نعم، والإله. فقالت: إنه قد مكث عندي زمانًا، فقال: ذلك أحقّ لردِّك إياه إليهم، حين أَعَارُوكِيْهِ زمانًا. فقالت: أي: رحمك الله، أَفَتَأَسَّف على ما أَعَارَك الله، ثمّ أَخَذَه منك وهو أحقُّ به منك؟ فَأَبْصَر ما هو فيه، ونَفَعَه الله بقولها»[٣].

٣٣ ـ **وعن علي بن عثمان قال**: «رُئِيَ إبراهيم بن أدهم مُتَنَفِّط الرِّجْلَيْنِ، رَافِعُهما على ميل، وهو يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد: ٣١]»[٤].

هذا آخر ما أردت ذكره في باب الصبر، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) الحَرْقَفَة: عَظْم رأس الوَرِك. يُقال للمريض إذا طالت ضَجْعَتُه: دَبِرَت حَرَاقِفُه؛ أي: تَقَرَّحت، أو كان بها جروح؛ وذلك لطول الضَّجْعَة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٧٢)، م: (حرقف).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٣٦).

(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٦٠).

الثاني عشر

الرِّضَا

توطئة

إن مقام الرضا من أشرف مقامات السالكين، وأجلّ منازل العابدين، المُبْتَغِين رضا الله رب العالمين.

ولا يزال العبد يرضى عن الله تعالى في كل مقدور حتى يرضى الله تعالى عنه.

والله تعالى أكْرَم من عبده، وأوْلَى بِكل خَيْر؛ ولذلك فإنه لا يَصِلُ إلى هذا المقام إلا خاصة عباد الله الصالحين؛ وذلك أنه لا يمكن الوصول إلى منزلة الرضا حتى يتم تحصيل منزلة الصبر، وإذا كان الصابرون يوفّيهم الله أجُورهم يوم القيامة بغير حساب، فكيف بالرَّاضِين الذين رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه؟!

إنه مقام صحابة رسول الله ﷺ، ونحن إذ نتكلّم عنهم وعن مقامهم نستبشر بقول رسول الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1].

وقد قال أنس رضي الله عنه: «فما رأيتُ أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بشيء قط، إلا أن يكون الإسلام ما فرحوا بهذا، من قول رسول الله ﷺ»، وقال: «فنحن نحب رسول الله ﷺ، ولا نستطيع أن نعمل كَعَمَلِه، فإذا كنا معه فحسبنا»[2].

ونحن نأمل أن يكتبنا الله تعالى من مُحِبِّيهِم، وأن يجمع المحبِّين مَع مَنْ أَحَبّوا، إنه سميع قريب.

هذا وينبغي أن يُعْلَم أن الرضا مُتَوَقِّف على الصبر، ولا يحصل بدونه، فيحتاج العبد إلى أن يُحَقِّق الصبر، ثم يُعالِج نَفْسه، ويُرَوّضها حتى ترضى، فيحصل له من الطمأنينة والسرور والانشراح ما يجعله يَفْرَح بالبلاء كما يفرح الناس بالرخاء.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣١٧) واللفظ له، والبخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

معنى الرِّضا وحقيقته

الرِّضَا في اللغة[١]:

الرضا: مصدر ضدُّ السُّخط، والسُّخْط: الكراهية للشيء، وعدم الرِّضَا به. وفي الحديث: «أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ»[٢].

ومن الألفاظ التي لها تَعَلُّق بالرضا:

١ ـ القناعة؛ وهي الرِّضا باليسير، قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وهو من القُنُوع، وهو الرِّضَا باليسير من العطاء[٣].

٢ ـ القَنَى: بمعنى الرِّضا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٤٨] على قول ابن عباس ﷺ في الآية[٤]، وقَنِيَ الرجل ـ بالكسر ـ قِنًى؛ أي: صار غنيًّا راضيًا[٥].

والرضا نقيض الغضب، والرِّضا والغِبْطَة ضد الندامة والحسرة. والتسليم: بذل الرضا بالحكم.

معنى الرضا بالقضاء والقدر في الاصطلاح[٦]:

وقد جاء في تعريف الرضا بالقضاء أقوال كثيرة، منها:

ـ أنه ارتفاع الجزع في أيِّ حُكْم كان.

ـ أنه سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

ـ أنه سرور القلب بمُرِّ القضاء.

---

(١) راجع: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٦٤)، مادة: (رضي)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٣٥)، مادة: (رضي).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٢٢٠)، والقاموس (٣/ ٧٨)، مادة: (قنع).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٨٣).
(٥) راجع: «تهذيب اللغة» (٩/ ٣١٣)، مادة: (قنا)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٦٨)، و«لسان العرب» (٢/ ٦٥)، مادة: (قنا).
(٦) انظر: «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا (٢٢)، و«الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٧)، و«التوقيف على مهمات التعاريف» (ص١٧٨).

- ألا يتمنّى خلاف حاله.
- أنه استقبال الأحكام بالفرح.

وقال بعضهم: «الرِّضا: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد»(١).

وقال آخر: «معنى الرِّضا فيه ثلاثة أقوال: تَرْك الاختيار، وسرور القلب بِمُرّ القضاء، وإسقاط التدبير من النَّفس حتى يُحْكَم لها أو عليها»(٢).

وسُئِلَ ابن شمعون عن الرّضا، فقال: «الرضا بالحق، والرضا عنه، والرضا له... الرضا به مُدَبِّرًا، والرضا عنه قاسِمًا، والرضا له إلٰهًا وربًّا»(٣).

وقيل للفضيل رَحِمَهُ اللهُ: مَنِ الراضي عن الله؟ قال: «الذي لا يحبّ أن يكون على غير منزلته التي جُعِلَ فيها»(٤).

وقال ابن عون رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرّضا حتى يكون رِضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والبَلَاء، كيف تَسْتَقْضِي الله في أمْرِك، ثم تَسْخط إن رأيت قضاءه مُخَالفًا لهواك، ولعل ما هَوَيت من ذلك لو وُفِّقَ لك لكان فيه هَلَكَتك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلَّةِ عِلْمِكَ بالغيب، وكيف تَسْتقضيه إن كنت كذلك؟ ما أنصفتَ من نَفْسك، ولا أصبت باب الرضا»(٥).

وقال رُوَيْم رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر تَرْك الشكوى، والرِّضا اسْتِلْذَاذ البَلْوى»(٦).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: «رضا العبد عن الله: ألَّا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مُؤْتمِرًا لأمره، ومُنْتَهِيًا عن نَهْيِه»(٧).اهـ.

والخلاصة: أنه يمكن تعريف الرِّضَا بالقضاء والقدر تبعًا لما تَقَدَّم، بأنه: التسليم بالقضاء، والقناعة بما قُسِمَ، قَلَّ أوْ كَثُر، والسكون إلى الله، وتَرْكُ الحسرة على ما فات، وعَدَم التَّسَخّط أو الاعتراض على ما وقَع من قضاء الله الكوني.

وحقيقة الرِّضَا: أن يرضى العبد بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا؛ فإذا تَمَّ له ذلك حصل له سكون وطمأنينة بتدبير الله ﷻ له، وحُكْمه عليه.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٣١). (٣) المصدر السابق (٢٣٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٢٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣١).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٠٧).
(٧) «مفردات القرآن في غريب القرآن» (ص١٩٧).

الفروقات في باب الرضا

أولًا: الفرق بين الرِّضا والصبر:

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا عزيز، ولكنَّ الصبر مُعَوَّل المؤمن»[١].

وقال سليمان الخَوَّاص رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر دون الرضا؛ الرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضيًا بأي ذلك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر»[٢].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفرق بين الرِّضا والصبر: أن الصبر كَفّ النَّفْس وحَبْسها عن التَّسخّط، مع وجود الألَم... والرضا يُوجِب انشراح الصدر وسَعَته بالقضاء... وإن وُجِد الإحساس بالألَم، لكن الرضا يُخَفِّفه؛ لما يباشر القلب من رَوْح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يُزِيل الإحساس بالألم بالكُلِّيَّة»[٣]. اهـ.

وقالت طائفة من السلف؛ كعمر بن عبد العزيز[٤]، والفضيل[٥]، وابن المبارك[٦]: إن الراضي لا يتمنَّى غير حاله التي هو عليها، بخلاف الصابر.

ثانيًا: الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله:

الرضا بالله: أن ترضى به ربًّا، وأنه المعبود لا غيره، وأن الحكم له لا لغيره، وأن ترضى بما شرع، وتُسَلِّم. وهذا لا يكون إلا للمؤمن.

أمَّا الرِّضَا عن الله: فهو أن ترضى بما قضى وقَدَّرَ، ويدخل فيه المؤمن والكافر.

ولا بد من اجتماع الأمرين معًا: الرضا بالله، والرِّضَا عن الله.

والرضا بالله أعلى شأنًا، وأرفع قَدْرًا؛ لأنها مرتبة مختصّة بالمؤمنين.

والرضا عن الله مُشْتَرَك بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر؛ فقد تجد تَصَرُّف كافر، فتقول: هذا راض بالقضاء ومُسَلِّم به، ولا اعْتِرَاضَ عِنْدَه، لكنه لم يَرْضَ بالله رَبًّا.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٩٣)، وأبو نعيم (٥/ ٣٤٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٧).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٦٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠٠).
(٥) المصدر السابق (١٦، ٢٣). (٦) المصدر السابق (٢٢).

فالرِّضَا بالله رَبًّا آكَدُ الفروض باتفاق الأمة، فمن لا يرضى بالله ربًّا فلا يَصِحّ له إسلام ولا عمل.

والرضا بالله فرض، والرضا عنه ـ وإن كان من أجَلّ الأمور، وأشرف أنواع العبودية ـ لم يُطالَب به العموم؛ لعجزهم عنه، ومشقته عليهم. وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به[1].

ثالثًا: الفرق بين الرضا والعزم على الرّضا:

الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرّضا حقيقة.

يقول أبو سليمان الداراني: «لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما قاله أبو سليمان ليس هو رضًا، وإنما هو عَزْم على الرضا، وإنما الرّضا ما يكون بعد القضاء، وإن كان هذا عَزْمًا؛ فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ العزائم! خصوصًا عزائم الصوفية»[3].اهـ.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن أبي أوفى مرفوعًا: **«لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، واسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»**[4].

فهذا وأمثاله «مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يُوجِب عليه أشياء، فيبخل بالوفاء»[5].

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه، لَمَّا ابْتُلُوا به كرهوه، وفرّوا منه، وأين ألَم الجهاد من ألَم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟!

مثل هذا ما يُذْكَر عن سَمْنُون المُحِبّ؛ أنه كان يقول:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ ... فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (١٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٨).

فأخذه عُسْر البول من ساعته، فكان يدور على المَكَاتِب، ويُفَرّق الجَوْز على الصبيان، ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذّاب...

قال أبو نعيم: «فهذا الرِّضا الذي ادّعى سَمْنُون ظَهَر غَلَطُه فيه بأدنى بلوى، هذا مع أن سَمْنُون كان يُضرب به المثل في المحبة، وله مقام مشهور»[1].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «الاستقامة» (٢/ ٨٨) بتصرُّف يسير، وقصة سَمْنُون في «الحلية» (١٠/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

المفاضلة بين الرضا والصبر والشكر والزهد

أولًا: المفاضلة بين الرضا والصبر:

الرّضا أفضل من الصبر. «قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرّضا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّل المؤمن»[١].

والرّضا مستحبّ في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر»[٢].

وقال ابن جُزَيّ: «وفوق الصبر التسليم، وهو تَرْك الاعتراض والتسخّط ظاهرًا، وتَرْك الكراهة باطنًا، وفوق التسليم الرّضا بالقضاء، وهو سرور النَّفْس بفِعْل الله، وهو صادر عَنِ المحبّة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب»[٣]. اهـ.

ثانيًا: المفاضلة بين الرّضا والشكر:

إذا كان الرضا أعلى منزلة من الصبر، فإن الشكر أعلى منزلة من الرضا[٤].

ثالثًا: المفاضلة بين الرّضا والزهد:

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الزهد: الرضا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وقال أيضًا: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته»[٦].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «الاستقامة» (٢/ ٧٤)، و«الفتاوى» (١٠/ ٤٠) بتصرُّف.
(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٦٥).
(٤) انظر: «الفوائد» (ص١٦٣).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٤).

حكم الرضا

«لفظ الرضا بالقضاء لفظٌ محمود، مأمور به، وهو من مقامات الصدِّيقِين، فصارت له حُرْمَة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل»[(١)].

«تنازع العلماء من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في حكم الرضا بالقضاء في المصائب، أهو واجب أم مستحبّ؟ **على قولين:**

الأول: أنه واجب، وعلى هذا فهو من أعمال المُقتَصِدِين، ومعنى ذلك: أنه فرض وعبادة كالصبر.

الثاني: أنه مُسْتحَبّ، وعلى هذا فهو من أعْمَالِ المُقَرَّبين»[(٢)].

والقول بأنه واجب هو قول في مذهب الإمام أحمد، وممَّن ذهب إلى ذلك الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث قال: «فالواجب على كل امرئ الرِّضَا بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما يَكْرَه خَيْر له من قضائه له فيما يحبّ»[(٣)].اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «في هذا الحديث ـ حديث قصة موسى والخضر ـ تنبيه على أصول عظيمة منها: أن الله يفعل في مُلْكِهِ ما يريد، ويحكُم في خَلْقِه بما يشاء، مما ينفع أو يضُرّ؛ فلا مَدْخَل للعقل في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه؛ بل يجب على الخَلْق الرِّضَا والتسليم؛ فإنَّ إدْرَاكَ العقول لأسرار الربوبية قاصر»[(٤)].اهـ.

أدِلَّة القائلين بالوجوب:

١ ـ **قال ابن القيِّم**: «فمَنْ أوْجَبه قال: السّخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا؛ وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب»[(٥)].اهـ.

فجعلوه من باب ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب.

٢ ـ أنه من تمام الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٩).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠ ـ ٤١) بتصرُّف.

(٣) «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٥٤).

(٤) «المفهم» (٦/ ٢١٦) بتصرُّف يسير، و«فتح الباري» (١/ ٢٦٦).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ١١١).

٣ ـ أنه إذا لم يكن راضيًا بقضاء الله وقدره فهو ساخط؛ إذ لا واسطة بين الرضا والسخط، وسَخَط العبد على قضاء الله تعالى منافٍ لِرِضَاه به.

٤ ـ أن عدم الرّضا بالقضاء والقدر يستلزم سوء الظنّ بالله.

٥ ـ ما رُوِي في «الأثر»: «من لم يَرْضَ بقضائي، ولم يصبر على بلواي، فليَتَّخِذْ رَبًّا سِوَاي»(١).

ويجاب عن هذه الأدلة بما يلي:

١ ـ «أن الرضا بكلّ ما يخلقه الله ويقضيه ليس عليه دليل من كتاب الله، ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، ولا قال به أحد من السَّلَف.

٢ ـ أن الرضا يُشْرَع بما يرضى الله به، والله قد أخبر أنه: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فإذا لم يرضه، كيف يأمر العبد بأن يرضاه؟!

بل الواجب على العبد أن يسخط ما يسخطه الله، ويُبْغِض ما يبغضه، ويرضى بما يرضاه الله»(٢).

٣ ـ «وأما قولهم: (إنه لا يتخلص من السخط على ربه إلا بالرّضا عنه؛ إذ لا واسطة بين الرضا والسَّخط)؛ فكلام مدخول؛ لأن السّخط بالمَقْضِيّ لا يسْتَلْزم السّخط على مَنْ قَضَاه.

٤ ـ قولهم: (إنه يستلزم سوء ظَنِّ العَبْدِ بربه، ومنازعته له في اختياره)، فليس كذلك، بل هو حُسْن الظن بربه في الحالتين؛ فإنه إنما يسخط المقدور، وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القَدَر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه.

٥ ـ قولهم: (إنه يختار لنَفْسه خِلَاف ما يختار الرَبّ)، فهذا مَوضِع تفصيل؛ فاختيار الربِّ تَعالى لعبده **نوعان:**

أحدهما: اختيارٌ دِينيّ شرعي، فالواجب على العبد ألَّا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربّه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

---

(١) رُوِي مرفوعًا: أخرجه الطبراني (٢٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧)، وعدَّه الذهبي في منكرات سعيد بن زياد في «الميزان» (٢/ ١٣٨)، وضَعَّفَهُ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٥٨)، والهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٧)، والحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٨٢)، و«اللسان» (٣/ ٣٠)، وحكم الألباني بشدة ضعفه في «الضعيفة» (٥٠٥)، راجع: «جهود شيخ الإسلام» للفريوائي (٢/ ٢١٧)، و«الضعيفة» (٥٠٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة» (٣/ ٢٠٦) باختصار وتصرف.

النوع الثاني: اختيار كونيّ قدريّ، لا يسخطه الرَّبّ؛ كالمصائب التي يَبْتَلِي بها اللهُ عبدَه، فهذه لا يضرّه فراره منها إلى القدر الذي يرفَعُها عنه.

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قَدَر المعايب والذنوب ـ فالعبد مأمور بِسُخْطها، ومنهيٌّ عن الرِّضَا بها، وهذا هو التفصيل الواجب في الرِّضَا بالقَضَاءِ»[١].

والقضاء الكَوْنِيّ القَدَرِي فهو على **ثلاثة أقسام**[٢]:

الأول: قِسْم مُوَافق لمحبّة العبد وإرادته ورضاه؛ من صحة وغِنًى وعافية ولَذَّة، فهذا أمر لازمٌ بمقتضى الطبيعة؛ وليس في الرِّضَا به عبودية، لكن العبودية فيه مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمِنَّةِ، ووَضْع النِّعْمة في المواضع التي يحبّ الله تعالى أن تُوضَع فيها، وألَّا يعصي العبد بها المُنْعِم ﷻ.

الثاني: ما جاء على خلاف مُرَاد العبد ومحبَّتِه، وذلك مثل المرض، والفقر، وأذى الخَلْق، والحَرّ والبرد، والآلام، ونحو ذلك من المصائب التي تصيب العبد المؤمن، فالمؤمن من أكثر الناس بلاء، ولكنه أعظمهم قَدْرًا، والمصائب ابتلاء، واختبار للعبد، أيرضى أم يسخط، ويُبْتَلَى المؤمن على قدر إيمانه.

وهذا النوع منه ما يمكن مُدافعته، وذلك لا ينافي الرضا. ومنه ما لا يمكن مُدافعته، فالواجب فيه التسليم والصبر.

القسم الثالث: وهو الجاري باختيار العبد وقضاء الرَّبّ، مما يكره الله، ويسخطه، وينهى عنه، وهو الرِّضا بالمعصية، وهو مذمومٌ، منهيٌّ عنه[٣].

٦ ـ أن الأثر المُسْتَدَل به من الآثار الإسرائيلية، فلا تقوم الحجة به، ولا تصحّ نسبته إلى النبيّ ﷺ.

القول بالاستحباب:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الرضا بالمصائب مُسْتحبٌّ، وليس بواجب، وبه قال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠٦) باختصار وتصرف.

(٢) وأما ما يصيب الإنسان فَقِسْمان أيضًا: ما كان من صحة وغِنى لذَّة وغيرها من النِّعَم، وهذا القِسْم يجب الرضا به، وأنه فَضْل وإحسان من الله، يُحْمَد عليه، ويُشْكَر.
وأما ما يصيب العبد المؤمن من فَقْر، ومَرَض، وجوع، وأذى، وحَرّ، وبَرْد وغير ذلك مما يكرهه، ويبغضه العبد؛ فيُسْتَحب الرضا به، ولو عمل الأسباب لتغييره إلى ما هو أحسن.
«مجلة جامعة أم القرى» العدد (٢١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٩).

(٤) انظر: «منهاج السُّنَّة» (٣/ ٢٠٤)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

قال ابن تيمية: «وأكثر العلماء على أن الرضا بذلك مُسْتَحَبٌّ، ولَيْسَ بِوَاجِب».اهـ.

أدلة القائلين بالاستحباب:

١ ـ أن الإيجاب يتطلّب دليلًا شرعيًا على الوجوب، ولا دليل عليه.

٢ ـ أنَّ الرضا من القُرَب التي يُتَقَرَّب بها، وليس من الفرائض؛ كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «الرِّضَا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّل المؤمن»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لِعِزَّتِه، وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خَلْقه، رحمةً بهم، وتخفيفًا عنهم، ولكن نَدَبهم إليه»[2].اهـ.

٣ ـ أنه لم يَرِد الأمر بالرِّضَا في الكتاب ولا في السُّنَّة، مثل الصبر؛ فالصبر أَمَر الله به في مواضع كثيرة من كتابه. وأما الرِّضَا، فلم يأمر به في آيةٍ واحدة.

٤ ـ أن القول بوجوبه يلزم منه الرِّضَا بما حَرَّم الله، مثل الرضا بالكفر والفسوق وغيرهما من القضاء الكوني القَدَري.

والصحيح أن المصَائِبَ هي قضاء الله، ومنسوبة إليه على وجهين:

الأول: كَوْنُهَا فِعْلُ الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرِّضَا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عَدْل الله، وحِكْمَتُهُ، وقُدْرَتُهُ، وعِلْمُه سبحانه، وخَلْقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المَقْضِي المُنْفَصِل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومعايب، فالمعايب لا شك أنه يحرم الرضا بها.

٥ ـ أن المأمور به هو الرضا المشروع الديني، ولم يأمرنا بالرِّضَا بالمَقْدُورِ الكوني[3].

والأدلة على استحباب ذلك كثيرة هي ما ذكره أصحاب القول الثاني، وغيرها كثير:

منها: أن الله ﷻ أثنى على أهل الرضا بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨] فأثنى عليهم، ولم يوجب ذلك عليهم.

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم مِنْ مَدْح الرَّاضِين بما يفعله الله بعبده من المصائب؛ كقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠ ـ ٤١، ١١/ ٢٦٠)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٨٧ ـ ١٩٦).

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، والبأساء: الفَقْر، والضراء: المَرَض، وحين البأس: حين القتال.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، والزلزال في القلوب»(١). اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مَدْحُ أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به»(٢). اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٣١).

الفرق بين أفعال الربِّ سُبْحَانَه ومفعولاته

ومما يلزمنا عند الكلام على الرِّضَا التفريق بين أفعال الربِّ ومفعولاته سبحانه، فليُعْلَم «أنَّ ما يحبه الله من المأمورات فهو مُتَعَلِّق بصفاته سبحانه، وما يكرهه من المنهيّات، فمُتَعَلِّق بمفعولاته.

فالمنهيات شرور، وتفضي إلى شرور؛ والمأمورات خير، وتفضي إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه، والشرّ ليس إليه؛ فإن الشر لا يدخل في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإنما هو من المفعولات، مع أنه شرٌّ بالإضافة والنِّسْبة إلى العبد؛ وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه، فليس بِشَرّ مِنْ هَذِهِ الجِهَة»[1].

والله ﷻ حيث قَدَّرَ المَقَادِير، وقضى بوجود الكائنات، فإنه سبحانه له الحَمْد، وله النِّعْمَة، وله الثناء الحَسَن على ذلك، وهو سبحانه لا يفعل شيئًا إلا لحِكْمة بالغة، وأفعاله صادرة عن عِلْم تامّ.

فإنه سبحانه لما قضى بِخَلْق إبليس مثلًا، فإن هذا الفِعْل ـ الذي هو قضاء الرَّبِّ ـ ناتج عن عِلْم وحِكْمة؛ فعلينا أن نرضى عن فِعْله وتقديره؛ فهو العزيز الحكيم، له التدبير الكامل المُطْلَق في مخلوقاته كلّها.

وفي خَلْقِ إبليس من الحِكَمِ الجليلة، والآثار العظيمة ما لا يُحصَى، فنحن نرضى بخَلْقه، وهو فِعْل الرَّبِّ تَعَالى.

ولكنا لا نرضى بفِعْل هذا المخلوق، وهو ما نسمِّيه مفعول الربّ، فهذا المفعول الناتج عن قضاء الرب تبارك وتعالى لا نرضى به، ولا نحبّه.

والإنسان قد يكره المرض، ويكره المصيبة؛ ولكنه إذا الْتَفَتَ إلى فِعْل الرب؛ الذي هو خير، وإحسان، وحكمة كله، فإنه يجب عليه أن يرضى ويُسَلِّم، ففرق بين هذا وهذا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته؛ فذاته سبحانه مُسْتَلْزمة لصفاته وأفعاله، ومفعولاته منفصلة عنه، تلك مخلوقة مُحْدَثة، والرب تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله»[2]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٨٥) بتصرُّف يسير.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥١).

الرِّضَا بالمعاصي

وهو القِسْم الثالث من القضاء الكوني القدري كما تَقَدَّمَ، وهو جارٍ بِاخْتِيَارِ العبد وقضاء الرَّبِّ، مما يبغضه ولا يرضاه.

ولقد فَتَح إبليس لكثير من الناس باب الأهواء، فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يَرون إلا أنهم على الحقّ، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]؛ أي: هَيَّأْنَا لهُم من شياطين الإنس والجِنّ مَنْ زَيَّنَ لهم المعاصي، فآثروا العصيان على أمر الله، ورَضُوا بسَخَطه، وسَخِطُوا على رضاه، ورَكَنُوا إلى أعمالهم في الدنيا، ونسوا الآخرة، فحَقّ عليهم العذاب، وكانوا من الخاسرين.

ومن الناس من انتكست قلوبهم، حتى رأوا المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومنهم مَنْ يُبَرِّر ما هو عليه مِنْ مَعَاصٍ بادعاء أن الإيمان في القلب، ويَسْتَدِلّ بما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١).

وما أكثر مَنْ يتعبَّد الله بما حَرَّمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقُرْبَة، وحاله في ذلك شَرّ من حال مَنْ يَعْتَقد ذلك معصية وإِثْمًا، وهذا هو حال أهل البدع.

يقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «البدعة أحَبّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتَابُ مِنْهَا، والبدعة لا يُتَابُ منها»(٢).

وقد تتمكّن المعصية من القلب، فيرضى بها صاحبها، بل ويغلو في ذلك؛ وذلك على حساب دينه وعقله.

ومعاشرة أهل البدع، وأهل الفسوق والعصيان من جملة هذا الرّضا المحرم المذموم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٩) مختصرًا.

فتجد مِنَ الناس مَنْ يُعَاشِرُ هؤلاء المذمومين، وينادمهم، ويقرّبهم، ويُقْصِي أهل الإيمان، وأهل الطاعة، ويذمّهم، ويُبغضهم. ومَنْ يَفْعَل ذلك فهو من أولئك المَقْبُوحين، ولو لم يَتَلَبَّس بفِعْلِهم.

وقد روى أبو داود عن العُرْسِ بن عَمِيرة الكِنْدي، عن النَّبِي ﷺ قال: **«إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»**(١).

فالرِّضَا بالمعصية معصية، فعن عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ أنَّ عبد الله بن عمرو قال يومًا: «ما أفْرَق على نفسي إلا من ثلاث مواطن: في دم عثمان». فقال له عبد الله بن صفوان: «إن كنت رَضِيتَ قتله، فقد شركت في دمه»(٢).

فجعل الرِّضَا بالقَتْل قَتْلًا.

وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا ظهر منهم مُنْكر، وهذا مُقْتَضَى عدم الرضا بالمعصية؛ لأن مَنْ لم يجتنبهم فقد رضِيَ فِعْلهم، والرضا بالكفر كفر؛ كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

وعن إبراهيم التيمي عن أبي وائل، قال: «إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة في المجلس من الكذب ليُضْحِكَ بها جلساءه فيسخط الله عليهم». قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النَّخَعِي، فقال: «صدق أبو وائل، أوَلَيْسَ ذلك في كتاب الله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾؟!»(٣).

وعن هشام بن عروة قال: «أخذ عمر بن عبد العزيز قومًا على شراب، فضربهم وفيهم صائم، فقالوا: إنّ هذا صائم! فتَلا: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٥، ٤٣٤٦) موصولًا ومرسلًا، وفيه اضطراب، وصحَّحه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٩١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (١/ ٧١٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٩)، وقارن بـ«الضعيفة» (٣١١٠).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٨٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٣٢١).

(٤) المصدر السابق (٩/ ٣٢١).

الرضا بالقضاء الديني الشرعي

إن من لوازم الإسلام وقواعد الإيمان الرضا بالقضاء الديني الشرعي؛ فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حَرَج، ولا مُنَازَعة، ولا مُعَارَضة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكِّموا رسوله ﷺ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم مِنْ حُكْمه، وحتى يسلِّموا لحُكْمه تسليمًا.

وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتَّحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحَرَج في مقام الإيمان، والتَّسْلِيم في مقام الإحسان»[1]. اهـ.

«فحُكْمُ الله تعالى الشَّرْعي الديني حقّه أن يُتَلَقَّى بالمسالمة والتَّسْلِيم، وتَرْك المُنازَعة؛ بل بالانقياد المَحْضِ، وهذا تَسْليم العبودية المَحْضَة، فلا يُعَارَض بذَوق، ولا وَجْد، ولا سياسة، ولا قياس، ولا تقْلِيد، ولا يرى إلى خلافه سبيلًا البتّة.

فإذا تلقى بهذا التسليم إقرارًا وتصديقًا، بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذًا وعملًا.

فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذه حقيقة القلب السليم الذي سَلِم من شُبْهة تُعَارِض الحَقَّ، وشهوة تُعَارِض الأمر»[2].

ولم يتنازع العلماء في أن الرِّضَا بما أمر الله به ورسوله واجب مُحَبَّب، لا يجوز كراهة ذلك وسُخْطِه، وأنَّ مَحَبَّه ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويُسْخِط ما سَخِطه الله من المحظور، ويُحِبّ ما أحَبَّه، ويرضى ما رَضِيَهُ الله من المأمور.

والخلاصة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الرِّضَا بالقضاء ثلاثة أنواع:**

أحدها: الرِّضَا بالطاعات، فهذا طاعة مأمور بها.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٢).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

والثاني: الرضا بالمصائب، فهذا مأمور به؛ إما مستحب، وإما واجب.

والثالث: الكفر والفسوق والعصيان، فهذا لا يُؤْمَر بالرِّضَا به، بل يُؤْمَر بِبُغْضه وسخطه؛ فإن الله لا يحبه، ولا يرضاه»[1].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

منزلة الرِّضَا

الرِّضَا بَاب اليقين الأكبر، وبستان العبودية. . . وهو مُسْتَنْزَل الرحمة، ومُسْتَدَرّ الزيادة، ومُسْتَوجَب الرِّضَا منه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

والرضا مطْرَدة للهموم والغموم، مَذْهَبة للأحزان، وهو علاج التَّرَدّد والحَيْرَة والاضطراب؛ لأنه التسليم بالحِكْمَة والتصديق بالشرع، والاطمئنان إلى حُسْن الاختيار.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع سبعون رجلًا من التابعين، وأئمَّةِ المسلمين، وفقهاء الأمصار على أن السنة التي تُوُفِّيَ عليها رسول الله ﷺ أولها: الرِّضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، والصبر تحت حُكْمِه، والأَخْذ بما أمر الله به، والنهي عمَّا نهى عنه، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشرّه»(١).

وعن غيلان بن جرير قال: «مَنْ أُعْطِي الرِّضَا والتوكّل والتفويض فقَدْ كُفِيَ»(٢).

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أما بَعْدُ؛ فَإِنَّ الخَيْرَ كلّه في الرِّضَا؛ فإن استطعت أن ترضى، وإلا فَاصْبِر»(٣).

وقال عبد الواحد بن زيد: «ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقَدَّم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشْرَف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة»(٤).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن ارتقى إلى الرضا ـ يعني: الصابر ـ رأى أن الرضا جنة الدنيا، ومُسْتَرَاح العابِدِين، وباب الله الأعظم»(٥). اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّضَا آخِذٌ بِزِمَام مقامات الدِّين كلها، وهو رُوحها وَحَيَاتُهَا، فإِنَّهُ رُوح التوكُّل وحقِيقَتُهُ، ورُوح اليقين، ورُوح المحَبَّةِ وصحة المُحِبّ، ودليل صِدْق المحبة، ورُوح الشكر ودليله»(٦). اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٩ ـ ٣٥٠)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٤٠) واللفظ له، والألوسي في «جِلَاء العينين» (١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (ص١٠١).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٤٥)، وقال شيخ الإسلام في «الاستقامة» (٢/ ٨٤): «هذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٧).

(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٧ ـ ١١٨).

قال الربيع بن أنس: «علامة الشكر الرضا بقضاء الله، والتسليم لقدره»[١]. فـ«الرِّضا كالرُّوح لهذه المقامات، والأساس الذي تنبني عليه، ولا يصح شيء منها بدونه البتة»[٢].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان.

قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم، والرّضا بالقدر»[٣]»[٤]. اهـ.

وقال أبو عبد الله البراثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن يرد يوم القيامة أرفع درجات من الراضين عن الله على كلِّ حال... ومن وُهِبَ له الرضا فقد بَلَغ أفضل الدرجات، ومَنْ لم يَعْرِف ثواب الأعمال ثقلت عليه جميع الأحوال»[٥].

وقال ميمون بن مهران: «مَنْ لم يرضَ بالقضاء فليس لحُمْقِه دواء»[٦].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: «ليس الشأن في أكْل خبز الشعير والخَلّ، ولا في لبْس الصُّوف والشَّعْر؛ ولكن الشَّأن في الرِّضَا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[٧].

وقال بعض العارفين: «مَنْ يتوكّل على الله، ويَرْضَى بِقَدَرِ الله؛ فقد أقام الإيمان، وفَرَّغ يديه ورجليه لكَسْب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره»[٨].

وسُئِلَ أبو عبد الله الصَّبِيْحي عن أُصول الدِّين، فقال: «اثنان: صِدْق الافتقار عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وحُسْن الاقتداء برسول الله ﷺ. وفروعه أربعة: الوفاء بالعهود، وحِفْظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود»[٩].

فمنزلة الرضا هي التي تُثْمِر محبَّة الله، والنجاة من النار، والفوز بالجنَّة، ورضوان الله، وحُسْن ظنّ العبد بِرَبِّهِ، والنفس المطمئنة، والحياة الطيِّبة.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال داود لابنه سليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: يا بني! إنَّما يُسْتَدَل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحُسْن توكّله على الله فيما نابه، وبحُسْن رضاه فيما آتاه، وبحُسْن صبره فيما ينتظره»[١٠].

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٩٨).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٢٤، ٣١)، وبعضه في «الزهد» (١٣٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣٨) واللفظ له.

(٦) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٦).

(٧) السابق.

(٨) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).

(٩) «شعب الإيمان» (٩٦٤٠).

(١٠) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٦٤).

الرِّضا في الكتاب والسُّنَّة

النصوص الواردة في الرِّضا كثيرة جدًّا، وحسْبُنا أن نشير إلى بعضها:

١ ـ قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذه الآية تضمَّنَت الحَضّ على التزام أمر الله ﷻ، وإن شقّ على النفوس، وعلى الرِّضَا بقضائه، وإن كرهته النفوس؛ فالله هو العليم والخبير والحكيم في اختياره، لا يعلم العواقب في الأمور كلها إلا الله ﷻ، فقد يكره العبد شيئًا وهو عين الخير له، وقد يفرح بشيء ويحبه وهو عَيْنُ الشَّرِّ لَهُ؛ فما على العبد إلا أن يَرْضَى إذا وقعت به مصيبة، أو أصابه ما يكره؛ فإن الله هو العليم بمصالح العباد وما ينفعهم.

وقد اقتضت حكمته ومشيئته أن يُقَدِّر هذا المكروه، فمن رَضِيَ فله الرِّضَا، ومن سَخِط فله السَّخَط.

٢ ـ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فما أصاب العباد من المصائب؛ مِنْ قَحْطٍ وجَدْب وذَهَاب زَرْع وغير ذلك، أو في الأنفس؛ من الأمراض والأوجاع والأسقام، قَلَّ ذلك أو كثر، عَظُم ذلك أو صَغُر؛ فكله مكتوب في اللَّوْحِ المحفوظ من قبل أن يُوْجِدَه الله ﷻ، فلا يحزن العبد على ما فاته، ولا يَفْرَح فَرَح مُخْتَال فخور، ولكن يَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ ﷻ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١]، فكل ما يصيبنا من الآفات والآلام والمكاره؛ فبقدر الله ﷻ. فإذا تيقَّنَ العبد هذه الحقيقة، فإنه يحتسب، ويُسَلِّم، ويرضى بقضاء ربه، فيُعَوّضه الله ﷻ عَمَّا فاته، ويهدي قلبه، ويحصل له اليقين.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۝٤٨﴾ [النجم: ٤٨].

قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت المفسّرين من كل جانب يقولون في قوله: ﴿أَغْنَى﴾، قال:

أرضى». قال سفيان: «لا يكون غنيًّا أبدًا حتى يرضى بما قَسَم الله له، فذلك الغنى»(١).

والمعنى: أنَّ الله ﷻ أعطى عباده ما أعطاهم من الأموال، وما مَلَّكهم وخوَّلهم من الأملاك، وأرضى كلّ واحد بما أعطاه.

ويقول **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللهُ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: ٣٤] قال: «المُطْمَئِنّين، الرَّاضِين بقضائه، المُسْتَسْلِمين له»(٢).

٥ - وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فهذا متضمّنٌ الأمر بالرضا والتوكل، وهما يكْتَنِفَان المقدور؛ فالتوكّل يكون قبل وقوعه، والرّضا بعده؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي ما عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا والْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ...**» الحديث(٣).

وعن أبي معاوية الأسود رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال: «الرِّضا والقناعة»(٤).

وهذا شيء مُشَاهَد؛ فإن الإنسان إذا كان راضيًا بما قَسَم الله ﷻ له؛ فإنه يحصل له من السكون والطّمأنينة والحياة الطيبة النَّصيب الأوفى، بخلاف الساخط المُتَذَمِّر الذي لا يهنأ بعيش، ولا يرضى بحال.

ومن السُّنَّة:

١ - عن العباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(٥).

٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ**

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب التفسير، باب سورة الحج (٣/٢٧٦)، ووصله ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (ص٩٦).

(٢) المصدر السابق (٧٩). (٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٢، ٧١).

(٥) أخرجه مسلم (٣٤).

بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[١].

٣ ـ وفي حديث الاستخارة: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ»** الحديث، وفي آخره: **«وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»**[٢]؛ فالعبد محتاج إلى أن يُرْضِيَه الله ﷻ بما قُسِمَ لَهُ، وقُدِّرَ عَلَيْهِ؛ وإلا فإنه قد يقع له الأمر يكرهه، فيسخط، ويتبرَّم؛ ولذلك فإن الكثيرين يستخيرون، فإذا وقع بهم ما لا يحبونه، أو فاتهم محبوبهم حصل منهم من التَّسَخّط، والتذمّر، والانزعاج ما هو خلاف الصبر على المقدور والرِّضَا به، والمستخير ربّه مُفَوّض أمره إليه، راكنٌ إلى حُسْن اختيار الرب له، مُقِرٌّ بالعَجْز والتقصير والجهل على نَفْسه، وهذا مقام الرِّضا.

٤ ـ عن ابن عباس ﷺ، قال: كنتُ خلْف النبي ﷺ يومًا، فقال: **«يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ؛ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»**[٣].

فإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة، وأن التسخّط أو التحسّر لن يكشف الضر أو يجلب النفع اطمأنت نَفْسه بالرّضا بما قسم الله تعالى، فصبر على ما أصابه، وقنع بما آتاه الله.

فالعاقل الرشيد يجري مع المقادير على قَدَمِ الرِّضَا، فيَقْنَع، ويَرْضَى، وتسلو نَفْسه عن الرّكون إلى تلك الأوهام التي تجلب له المواجع، وتزيده حسرة وألمًا.

وإذا احتَوَشَت العبد المخاوف، وتتابعت عليه الهموم؛ ولم يكن له ما يركن إليه ويُعَوِّل عليه من اليقين والرضا؛ فإن الخوف والتوجس والحزن سِمَة مُلَازِمة له، وإن لم يوجد سبب ظاهر لهذا الخوف أو القلق أو الحزن أحيانًا؛ فيبقى الإنسان في هم لا ينقضي، وخوف متجدّد، وحزن مُسْتَبِدّ، فلا يجد لعيشه لذة، ولا في حياته راحة، تُسَاوِرُه الشكوك، وتنغّص عليه الأوهام، ويحمله الوَهْم إلى كل بغيض من سوء الظن والخوف من المستقبل.

وما يضرّ العبد إذا ما عاش يومه على ما قَدَّره الله له راضيًا قانعًا مقبلًا على ربّه بقلبٍ مُنْفَتحٍ، ونَفْس مُنْشَرحة، حسن الظن، طيّب الحال، إذا أصابه الضرّ صبر

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وتجلَّد، وقال: عسى أن يكشفه الله كاشف الضر، فهو وإن قدَّره عليَّ بحكمته وعلمه، قادر على أن يكشفه عنّي برحمته وفضله.

وإذا أصابته نعمة حَمِد وشكر، وسأل الله المزيد من فضله، وعمل على استخدامها في طاعة ربّه.

ولا يزال هذا حاله، وذلك دَأبه حتى يلقى الله على الرّضا؛ فعسى لهذا وأمثاله أن يكونوا مع الذين رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه.

ولو تأمل العاقل قوله ﷺ في الحديث السابق: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»؛ لاستراح مِنْ عَنَتٍ كثير، وأوجاع وأوهام تَسْلُب الراحات، وتقضّ المضاجع.

❁ ❁ ❁

أنواع الرضا

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١)، وقوله: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ... رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(٢)، قال:

«وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيَّته سبحانه وألوهيته، والرِّضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له.

ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقًّا. وهي سهلة بالدَّعْوَى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يُخَالِفُ هَوَى النَّفْس ومُرَادها من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرِّضا بإلٰهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتّل إليه، وانجذاب قُوَى الإرادة والحُبِّ كلها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

والرِّضا بربوبيته: يتضمَّن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكّل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا بالله ربًّا: ألا يَتَّخِذ ربًّا غير الله تعالى يَسْكن إلى تدبيره، ويُنْزِل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سيِّدًا وإلٰهًا»؛ يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو ربّ كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا، ومُعِينًا ومَلْجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلًا، مُبَيِّنًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حقَّ التَّأَمُّل رأيتها هي نَفْس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ورأيت الحديث يُتَرْجِم عنها، ومُشْتَقًّا منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا. بل يوالي من دونه أولياء. ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله»[1]. اهـ.

وقال: «وأما الرضا بنبيِّه رسولًا: فيتضمَّن كمال الانقياد له، والتسليم المُطلق إليه، بحيث يكون أوْلى به من نَفْسه... ولا يرضى بحُكْم غيره البتَّة...

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حَكَم أو أمَرَ أو نَهَى رَضِيَ كلّ الرضا، ولم يبقَ في قلبه حرج من حُكْمه وسَلَّم لَهُ تسليمًا؛ ولو كان مخالفًا لمراد نَفْسه أو هواها، أو قول مُقَلِّده وشيخه وطائفته»[2]. اهـ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فمَا رَضِيَهُ لنا سبحانه، وهو الغني الحميد، فنحن أوْلَى أن نرضى به وأحَق؛ فالرِّضَا بالدِّينِ هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا بلا حَرَج ولا مُنَازعة ولا مُعَارضة.

وقد سُئِلَ ابن شمعون عن الرِّضَا فقال: «أن ترضى به مُدبّرًا ومُخْتَارًا، وترضى عنه قَاسِمًا ومُعْطِيًا ومانعًا، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا»[3].

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٨١).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، وانظر: (ص١٩٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢٥).

علامات الرضا

الرضا عن الله يتحقق بثلاثة أمور:

١ ـ استواء النعمة والبليّة عند العبد؛ لأنه يشاهد حُسْنَ اختيار الله له.

٢ ـ سقوط الخصومة عن الخلق، إلا فيما كان حقًّا لله ورسوله؛ فالراضي لا يُخَاصِم ولا يُعاتب إلا فيما يتعلق بحقّ الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «والله ما انتقم لنَفْسه في شيء يُؤتَى إليه قطّ، حتى تُنْتَهك حرمات الله فينتقم لله»[(١)].

«فالمخاصمة لحظّ النَّفْس تُطْفِئ نور الرِّضَا، وتُذْهِب بهجته، وتُبَدِّل بالمرارة حلاوته، وتُكَدِّر صَفْوَه.

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مَشَاهِد القدر والتَّوْحِيدِ والحكمة والعَدْل انْسَدَّ عنه باب خصومة الخَلْق، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله ﷺ.

٣ ـ الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. **قال ابن عباس**: «إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء»، فالإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه»[(٢)].

ينضاف إلى ما تقدَّم: ترك التذمّرِ والشكوى؛ لأن ذلك قَدْح في مقام الصبر الذي هو دون مقام الرّضا.

وقال ابن عون رحمه الله: «ارْضَ بِقَضَاء الله على ما كان من عُسْرٍ ويُسْر؛ فإن ذلك أقلّ لهمِّك، وأبلغ فيما تطلب من آخرتك. واعلم أنَّ العَبْدَ لن يُصِيب حقيقة الرّضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟! ولعلَّ مَا هويت من ذلك لو وُفِّقَ لَكَ لكان فيه هلكتك. وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلّة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه إن كنت كذلك؟! ما أنصفت من نَفْسك، ولا أصبت باب الرضا»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣١) باختصار وتصرف.

(٣) تقدم تخريجه.

مقتضيات الرضا ولوازمه

وهذا أَمْر ينبغي التَّفَطُن له ـ خاصة في الأعمال القلبية ـ فكما أن للرضا أَمَارَات تدل على تَحَقُّقِه فكذلك تلزم عند تحقُّقِهِ لوازم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها؛ بل حقيقة العبودية أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به، ويسخط منها ما سَخِطه. . .

فإن قيل: لازم الرّضا عَدَم الكُرْه، فكيف يجتمع الرّضا بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والألَم مع كراهته؟

قيل: لا تنافي في ذلك؛ فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحبّ، ويكرهه من جهة تَألُّمه به؛ كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به، وكراهته له.

فإن قيل: كيف يرضى الله لعبده شيئًا، ولا يُعِينُهُ عليه؟

قيل: لأن إعانته عليه قد تَسْتَلْزِمُ فَوَاتَ محْبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رَضِيَهَا له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مُسْتَلْزِمة لمفسدة راجحة، ومُفَوِّتًا لمصلحة راجحة»[1]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الرّضا مُتَرَتِّب على الصبر لتوقّف الرّضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه. . . لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدَّم له قبله مقام الصبر»[2]. اهـ.

وقال أيضًا: «مقامات الإيمان لا تُعْدَم بالتنقّل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى؛ كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول. ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرَّجاء في الحب، لا أنهما يزولان»[3]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠١) بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٤).

(٣) «عدة الصابرين» (ص٢٩٥).

فتأمل أهمية التلازم حتى يتم الرضا بشرطه، ومقتضياته، ولوازمه، وتكامل مراتبه في نَفْسه، وأيضًا بتلازمه وغيره من أعمال القلوب.

الصلة بين الرضا والتوكل:

«التوكل من مقامات المؤمنين، لا انفكاك للمؤمن منه، والرِّضا أعلى درجات التوكّل، فهو ثمرته. وقد قيل: «إن حقيقة التوكّل الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته ومُوجبه اسْتدلّ له عليه استدلالًا بالأثر على المُؤَثِّر، وبالمعلول على العِلَّة»[1]، لا أن التوكل هو الرِّضَا، أو الرضا هو التوكّل.

وقد سُئِلَ أبو بكر الواسطي عن ماهية التوكّل، فقال: «الصبر على طوارق المِحَن، ثم التفويض، ثم التسليم، ثم الرّضا، ثم الثقة.

وأما صِدْق التوكل، فهو صدق الفاقة والافتقار ـ يعني: إلى الله ﷻ ـ»[2].

هذا ولا بدّ من فِعْل ما أمر الله به، وتَرْك ما نَهَى الله عنه، في التوكّل والرّضا، ومَنْ قال فيهما بتَرْك الأسباب، والركون إلى مُسَبِّب الأسباب فقد طعن في سُنَّة رسول الله ﷺ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الرّضا والتوكّل يكتنفان المقدور؛ فالتوكّل قبل وقوعه، والرّضا بعد وقوعه»[3]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٧٤١) باختصار وتصرف.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٧).

الطريق إلى تحقيق الرِّضا

إن «طريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدًّا، مُوصِلة إلى أَجَلّ غاية؛ ولكن فيها مشقة - كما تقدم - ومع هذا فليست مشقتها أصعب من مشقَّة طريق المُجَاهَدة، ولا فيها من العقبات والمَفَاوِز ما فيها، وإنما عقبتها هِمَّة عالية، ونَفْس زكيَّة، وتوطين النَّفْس على كل ما يَرِدُ عليها من الله.

ويُسَهِّل ذلك على العبد: عِلْمه بضعفه وعجزه، ورحمة ربّه به، وشفقته عليه وبرّه به. فإذا شَهِد هذا وهذا، ولم يَطْرح نَفْسه بين يديه، ويرضى به وعنه، وتنجذب دواعي حبّه ورضاه كلها إليه؛ فنَفْسه نَفْس مطرودة عن الله، بعيدة عنه، ليست مُؤَهَّلة لقربه وموالاته. أو نَفْس مُمْتَحَنَة مُبتلاة بأصناف البلايا والمِحَن»[1].

وقد ذَكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الرضا يُوجِبه **شاهدان**:

«**الأول**: عِلْم العبد بأن الله سبحانه مُسْتوجِب لذلك، مُسْتحِق له لنَفْسه؛ فإنه أَحْسَنَ كلَّ شيء خَلَقَهُ، وأَتْقَنَ كُلَّ شَيْء، وهو العليم الحكيم، الخَبِيرُ الرحيم.

والثاني: عِلْمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خيرٌ من اختياره لنَفْسه، وقد قال النبي ﷺ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**[2].

فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء، ويشكر على السراء فهو خير له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

فأمَّا من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء؛ فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له»[3].

وهناك أمور أخرى يُتَوَصَّل بها إلى الرضا - إضافة إلى ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ - **فمن ذلك**:

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٥ - ١٧٦) بتصرُّف يسير.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٣ - ٤٤) بتصرُّف.

الثالث: الثقة بالله تعالى وحُسْن تَدْبيره؛ «لأن العبد لا يريد مصلحة نفْسه مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولو عَرَف أسبابها فهو جاهل ظالِم، وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها ما يكرهه العبد؛ فإنَّ مصلحته فيما يكره أضعاف مصلحته فيما يحبّ.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]»[(١)].

و«العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المَسَرَّة من جانب المَضَرَّة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد...

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى مَنْ يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حُسْنِ العَاقِبَة.

ومنها: أنه لا يقترح على رَبِّه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به عِلْم؛ فَلَعَلَّ مضرَّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على رَبِّهِ شيئًا؛ بل يسأله حُسْنَ الاختيار له، وأن يُرْضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك»[(٢)].

قال أبو العباس بن عطاء: «الفرح في تدبير الله تعالى لنا، والشقاء في تدبيرنا»[(٣)].

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: «مَنْ لم يَصلح على تقدير الله لم يصلح على تدبير نَفْسه»[(٤)].

وسُئِل بعضهم عن الرضا فقال: «من لم يندم على ما فات من الدنيا، ولم يتَأسَّف عليها».

ولله در القائل[(٥)]:

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ ... وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ وَالرِّزْقُ مَقْسُومُ
وَالخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا ... وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْعُ الله ﷻ لعبده المؤمن المُحِبّ عطاءٌ، وابتلاؤه إياه

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢١٦).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢١٧).
(٥) وهو: الجنيد الطبري، كما في «شعب الإيمان» (٢٥٠).

عافية... وذلك أنه لم يمنع عن بُخل ولا عَدَمٍ، وإنما نَظَر في خير عبده المؤمن، فَمَنَعَه اختيارًا، وحُسْن نظر...

فالعاقل الراضي من يَعُدّ البلاء عافية، والمَنْع نعمة، والفقر غِنًى...

فالراضي هو الذي يَعُدّ نِعَم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نِعَمِهِ عليه فيما يحبه... وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال بعض العارفين: «ارْضَ عَنِ الله في جميع ما يفعله بك، فإنَّه مَا منعك إلا ليُعْطِيكَ، ولا ابتلاك إلا ليُعَافِيكَ، ولا أمرضك إلا ليَشْفيك، ولا أماتك إلا ليُحْيِيكَ؛ فإياك أن تفارق الرضا عنه طَرْفَةَ عين»[١]. اهـ.

الرابع: العلم بالله تعالى ومعرفته معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته؛ «فإن جميع ما في الكون أوجبه سبحانه بمشيئته وحكمته، فهو مُوجَب أسمائه وصفاته؛ فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بما رضي به ربّه لم يرض بأسمائه وصفاته»[٢].

فـ«الراضي عارفٌ بربه، حَسَن الظن به، لا يتَّهِمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره»[٣].

وقيل للحسن رَحِمَهُ اللهُ: «يا أبا سعيد! مِنْ أَيْنَ أتى هذا الخُلُق؟ قال: من قلّة الرِّضَا عن الله، فقيل له: وَمِنْ أين أتى قلة الرضا عن الله؟ قال: مِنْ قلة المعرفة بالله»[٤].

وقال أحمد بن عمارة: «لا يجزَع من المصيبة إلا من اتَّهم رَبَّه»[٥].

وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللهُ: «نَظَر الفضيل بن عياض إلى رجل يشكو، فقال: يا هذا! تشكو مَنْ يَرْحَمُكَ إلى منْ لَا يَرْحَمك؟»[٦].

فالرّضا إنما هو بحسب معرفة العبد بعدل الله وحكمته ورحمته، وحُسن اختياره، فكلما كان بذلك أعْرَف كان به أرْضَى.

فقضاء الله سبحانه في عبده دَائِر بين العَدْلِ والمصلحة، والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتّة؛ كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) بتصرُّف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦) بتصرُّف.

(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٦٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٦/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣١).

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٠٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٠١).

عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»[١].

فقوله ﷺ: «عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ» يتناول كل قضاء يَقْضِيهِ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ، والله سبحانه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له[٢].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفتَه رضيتَ بقضائه، وقد يجري في ضمن القضاء مَرَارَات يجد بعض طَعْمِها الراضي»[٣]. اهـ.

الخامس: «أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمُظْهِر لكل شيء، والمالك لِكُلّ شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يُشْرِكُ في حكمه أحدًا... فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فإذا تَيَقَّنَ العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له مُعَوّل بعد ذلك غير الرضا بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربّه الاختيار»[٤].

السادس: اليقين الراسخ «بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادّ لحكمه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق، وقدرٍ حتم»[٥].

و«عدم الرّضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبّه ويريده، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقّن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليُخطئه؛ فلا فائدة في سَخَطِه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه، وحصول ما يضرّه»[٦].

السابع: أن يعلم «أن حكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاءه عدلٌ فيه، كما تقدم، وَمَنْ لَمْ يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجَور.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وصحّحه ابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩) - وتعقبه الذهبي - وابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩١٣) وغيره، وحسّنه ابن حجر في «اللسان» (٩/ ٨٣)، و«تخريج الأذكار» - كما في «الفتوحات» (٤/ ١٣) -، وصحّحه أحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٤٣١٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٤)، و«الفوائد» (ص٣٤)

(٣) «صيد الخاطر» (ص١٠٩).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٦ - ٢١٧).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف يسير.

(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٤).

وقوله في الحديث المتقدم: «**عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ**»، يَعُمّ قضاء الذنب وقضاء أَثَرِه وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه ﷻ، وهو أحكم الحاكمين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب؛ فلأنّ الذنب عقوبة على غفلته عن رَبِّهِ، وإعراض قلبه عنه؛ فإنه إذا غَفَل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه استحق أن يُضْرَب بهذه العقوبة؛ لأن قلوب الغافلين معْدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة، وإلا فَمَعَ كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله ﷻ وذكره يستحيل صدور الذنب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]»[١].

الثامن: «أن يعلم أن حظَّه من المقدور إنما هو ما يتلقَّاهُ بِهِ من الرِّضَا والسّخْط حقيقة، فالمقدور لا بد منه؛ فمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السخط»[٢].

التاسع: أن يعلم العبد بأنه إذا رَضِيَ عن أقضية الله ﷻ وأقداره المؤلمة؛ فإنها تنقلب في حقه نعمة ومِنْحة، وهذا الفهم والتصوّر يخفّف عليه حِمْل المصائب والآلام. أما إذا سخطها وتَبَرَّمَ بِهَا زادته ثقْلًا وأَلَمًا، وازداد شدة وحَسْرة، ولو كان السُّخْط يُجْدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة، لكنه لا ينفعه؛ إنما الذي ينفعه ويرفعه هو الرّضا.

العاشر: أن يعلم أن تمام العبودية الحَقَّة في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو أن الإنسان لم يحصل له إلا ما يحبّ، لكان أبعد الناس عن حقيقة العبودية؛ فعبودية الصبر، وعبودية التوكّل، وعبودية الرضا، والتضرّع والافتقار، والذل، والخضوع، والمسكنة، وغير ذلك لها تَعَلُّق كبير بالأمور التي يكرهها الإنسان. وليس الشأن في الرضا بالقضاء المُلَائِم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المُؤْلِم المُنَافِر للطَّبْع[٣].

الحادي عشر: أن يعلم أنَّ كل قَدَر لا يُلَائِم العبد مما تنفر منه نَفْسه لا يخلو إمَّا أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء للعلّة والمرض تَدَارَكه به رَبّه تبارك وتعالى؛ لئلا يسترسل به هذا المرض، فيَعْطَب، ويهلك، وقد يكون ذلك سببًا لنعمة لا تُنَال إلا بذلك المكروه؛ فالمكروه ينقطع، ويتلاشى، ويذهب، وما يترتّب عليه من النعمة

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦) بتصرُّف يسير.
(٣) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

يبقى، ويدوم، ولا ينقطع، فإذا تذكّر العبد هذه المعاني انفتح له باب الرّضا[1].

الثاني عشر: أن يتذكر «أنه مسلم، والمسلم مَنْ قَدْ سَلَّمَ نَفْسَهُ لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك»[2].

الثالث عشر: أن يستشعر أنه «مُفَوِّض، والمُفَوِّض راض بكل ما اختاره الله له، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولُطفه وحُسْن اختياره له.

الرابع عشر: أن يتذكر أنه عبدٌ مَحْض، والعَبْدُ المَحْض لا يسخط جريان أحكام السيد المُحْسن، بل يتلقاها بالرضا به وعنه.

الخامس عشر: أن يستشعر أنه مُحِب، والمُحِب الصادق مَنْ رَضِيَ بما يعامله به محبوبه»[3].

السادس عشر: أن ينظر الإنسان في النصوص الواردة في الثناء على أهل الرِّضا؛ فإن ذلك ينشط النَّفس، ويحفّزها، ويُحَرِّكها لتصل وترتقي، ويُهَوِّن عليها الشدّة التي يلقاها بسبب المجاهدات في سَيْرِهِ إلى هذا المطلوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧]، إلى أن قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ»[4].

السابع عشر: استحضار الثواب والجزاء، كما قال شقيق البلخي رحمه الله: «مَنْ يَرَى ثواب الشِّدَّةِ لا يَشْتَهِي المخْرَج منها»[5].

الثامن عشر: تحقيق بعض الأعمال التي يتوقف عليها الرِّضا؛ فالرضا يتوقف على جملة من الأمور: من أعمال البدن، ومن أعمال القلب، ومن أعمال اللسان؛ فنلزم ما

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢١٢).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥) بتصرُّف.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٨).

جعل الله ﷻ رضاه فيه، فإنه يُوَصِّلنا إلى مقام الرِّضا[١].

ولو تأمّل الإنسان نصوص الكتاب والسُّنَّة، ونَظَر في الأمور التي أخبر الله ﷻ أنها تُوَصِّل العبد إلى حال الرِّضَا؛ فإنه بذلك يعرف الطريق فيسلكه، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾؛ فهذه الآيات ذكر الله ﷻ فيها الصدق، والإيمان، والأعمال الصالحة، والمجاهدة لأعدائه، وترك مُوالاتهم، فرضي الله ﷻ عن هؤلاء وأرضاهم[٢].

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: «إذا أقام نَفْسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قَبِلْت، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دَعَوْتَني أجبتُ»[٣].

وهكذا الأعمال القلبية: الخوف والرجاء والقناعة، وغير ذلك كلّه يُثمِر الرضا، والرضا من توابع المحبة لله ﷻ؛ فمَنْ أحَبَّ الله محبَّة حقيقية رضي به، ورَضِيَ عنه.

و«الرضا آخر التوكل، فمَنْ رَسَخَ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بد»[٤].

والرِّضا بالله ﷻ هو أصل الرضا عنه؛ لأنك إذا رضيت به ربًّا فإنك ترضى به مُدَبِّرًا؛ لأن ذلك من معاني ربوبيته، فـ«الرضا به مُتَعَلِّق بأسمائه وصفاته ـ كما تَقَدَّمَ ـ والرضا عنه مُتَعَلِّق بثوابه وجَزَائِهِ»[٥].

التاسع عشر: أن ينظر عند وقوع المكروه أو المصيبة إلى من هو دونه، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[٦]، هذا في المصائب، وفي الأمور الدنيوية.

وأمَّا في الطاعات، فإن الإنسان ينظر إلى مَنْ هو فَوْقَه، لِيُحَرِّضَه النظر على مزيد من العَزْمِ والتَّشْمِيرِ فِي طَاعَةِ الله تعالى.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٤). (٢) انظر: «المدارج» (٢/ ١٨٧).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٧٤)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٦٦) بنحوه.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٥).
(٦) تقدم تخريجه.

ثمرات الرِّضَا

وثمرات الرضا كثيرة ومتنوّعة ومتجدِّدة، يصعب حصرها، ويكفينا أن نذكر منها على سبيل الاختصار أبرزها وأهمّهَا، فمن ذلك:

الأول: رضا الله تعالى عن العبد:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «رضا الله عن العبد أكبر من الجَنَّة وما فيها؛ لأن الرِّضَا صفة الله، والجنة خَلْقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذا الرِّضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال»[١]. اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْك رَبَّنَا وَسَعْدَيْك، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْك، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِك؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ**»[٣].

«أي: مَنْ رَضِيَ بما قضاه الله وقدَّره عليه من الابتلاء؛ فله الرِّضا من الله، جزاءً وفاقًا؛ كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا دليلٌ على فضيلة الرِّضَا، وهو ألا يعترض على الحُكْم، ولا يتسخّطه، ولا يكرهه»[٤].

«فَرِضَا العبد عن رَبِّه ﷻ في جميع الحالات يُثْمِر رِضَا رَبِّهِ عنه، فإذا رَضِيَ عنه

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ما بين الأقواس من «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٢٢).

بالقليل من الرزق رَضِيَ ربُّه عنه بالقليل من العَمَل»(١).

الثاني: كفاية الله للعبد:

فعن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ**»(٢).

فمن «عَرَض له أمْرٌ في فِعْله رضا الله وغضب الناس، أو عكسه؛ فإن فَعَل الأول رضي الله عنه، ودفع عنه شر الناس؛ وإن فَعَل الثاني وَكَلَه إلى الناس؛ يعني: سلَّط الناس عليه حتى يؤذوه ويظلموه، ولم يدفع عنه شرهم في النهاية»(٣).

ولذلك؛ قال الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

«فمن لُطْف الله بعباده المؤمنين أنَّهُ رَدَّ كَيْدَ الكافرين في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أدْيَانِهِمْ ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يَصِلُونَ إليه من الأذى أذيَّة الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل مُعَادٍ»(٤).

الثالث: لُطْف الله بالعبد:

قال ابن القيم ﵀: «يريح الله عبده المؤمن من الأفكار المُتْعِبة في أنواع الاختيارات، فلو رَضِيَ باختيار الله أصابه القَدَر وهو محمود، مشكور، ملطوفٌ به فيه؛ وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختياره لنَفْسه.

ومَتَى صَحَّ تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العَطْف عليه، واللُّطْف به، فيصير بين عَطْفه ولُطْفه؛ فعَطْفه يَقِيه ما يحذره، ولُطْفه يُهَوِّن عليه ما قَدَّره»(٥). اهـ.

وكان من لُطْف الله ﷻ وكفايته لابن تيمية ﵀ أنْ جعل له من قلبه بما استقرَّ بِهِ من الرِّضَا بمقدور الله ﷻ أعظم المواساة لما كان يجده ويلقاه من أذى الناس.

وكان ﵀ يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أَنَّى رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، إنَّ حَبْسِي خُلْوَة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»(٦).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصحَّحه ابن حبان (٢٧٦، ٢٧٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٣١١).

(٣) ما بين الأقواس من «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٣١٨) بتصرُّف.

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (١/ ٢٣٣) بتصرُّف.

(٥) «الفوائد» (ص٢٠٠) بتصرُّف.

(٦) «الوابل الصيب» (ص١٠٩)، وقد تقدم.

وكان يقول في محْبَسِه في القَلْعة: «لو بذلت مِلْء هذه القلعة ذهبًا ما عَدَل عندي شكر هذه النِّعْمَة»(١).

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣﴾ [الحديد: ١٣](٢).

يقول ابن القيِّم الله: «وعَلِم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم؛ بل ضدّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم لُبًّا وأسَرّهم نفْسًا، تلُوح نَضْرة النعيم على وجهه»(٣).اهـ.

فهذا وأمثاله إنما يحصل لمن حَقَّق رضا الله تبارك وتعالى، فيلْطُف الله به، ويُقَدِّرُ له ما فيه الخير، ويُدَبّر له أمره أحسن التدبير.

الرابع: أنه يُبَارَك له بالرضا فيما أعطاه الله:

قال الحسن رحمه الله: «من رضي بما قَسَم الله له وَسِعَهُ، وبارك الله له فيه، ومَنْ لم يَرْضَ لم يسعه ولم يُبَارك له فيه»(٤).

الخامس: «ومنها:

أنه إذا فَوَّضَ إلى ربه، ورَضِيَ بما يختاره له؛ أَمَدَّهُ فيما يختارُهُ له بالقوة عليه والعزيمةِ والصبر، وصَرَفَ عنه الآفات التي هي عُرْضَة اختيار العبد لنَفْسه، وأراه من حُسْن عواقب اختيارِهِ له ما لم يكن ليصِلَ إلى بعضه بما يختارُهُ هو لنَفْسه»(٥).

السادس: حصول العِوَض مما فاته:

فعن أم سلمه رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»(٦).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «لمَّا حضرت أبا سلمة الوفاة، قالت أم سلمة: إلى

---

(١) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٢) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٣) المصدر السابق، وقد تقدم.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٩٥).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٢٠٠).
(٦) أخرجه مسلم (٩١٨).

مَنْ تَكِلُنِي؟ فقال: اللَّهُمَّ إنك لأم سلمة خير من أبي سلمة، فلما تُوُفِّي خطبها رسول الله ﷺ»(١).

السابع: أنه يُورِث اليقين:

«فالسّخط يَفْتَحُ عليه باب الشك في الله، وقضائه، وقَدَره، وحِكْمته، وعِلْمِه، ولو فتَّش الساخط نَفْسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولًا مدخولًا؛ فإن الرضا واليقين إخوان مصطحبان، والشكّ والسخط قرينان»(٢).

الثامن: تحقيق الثبات:

قال ابن القيم رحمه الله: «السخط يُوجِب تَلَوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طَبْعه ونَفْسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يُلَائِمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رَضِيَ عن ربِّه في جميع الحالات استقرَّت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التَّلَوّن عن العبد شيءٌ مثل الرضا»(٣).اهـ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وهؤلاء هم عبيد العافية، الذين يعبدون الله ﷻ إذا وَسَّع عليهم وعافاهم، فإذا حصل لهم المكروه انقلبوا.

التاسع: يُوَرِّث الطمأنينة والراحة:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «أعظم راحة العبد وسروره ونعيمه في الرضا عن ربه تعالى وتقدّس في جميع الحالات؛ فإن الرضا باب الله الأعظم، ومُسْتَراح العارفين، وجنَّة الدنيا؛ فجدير بمن نَصَحَ نَفْسه أن تشْتَدَّ رغبته فيه، وألَّا يَسْتَبدل بغيره منه.

كما أن السُّخط باب الهَمّ، والغَمّ، والحَزَن، وشتات القلب، وكَسْف البَالِ، وسُوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يُوجِب له الطمأنينة، وبَرْد القلب، وسكونه وقراره. والسُّخط يُوجِب اضْطِراب قلبه، ورِيبَته، وانْزِعَاجه، وعدم قراره.

والرضا يُنْزِل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام،

---

(١) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٧/ ٦٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٦١) واللفظ له، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٣).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٨) بتصرُّف يسير.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

وصلحت أحواله، وصَلح باله؛ وإذا ترَحَّلَتْ عنه السكينة ترَحَّلَ عَنْه السرور، والأمن، والدّعة، والراحة، وطيب العيش.

فمن أعظم نِعَم الله على عبده تَنَزُّل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات»(١). اهـ.

وقد قيل: «الرّضا ألَّا تُرْضِي الناس بسَخَط الله، ولا تَحْمَد أحدًا على رِزْق الله، ولا تَلُم أحدًا على ما لم يُؤْتِك الله؛ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يردّه كَرَاهِية كاره، والله بِقِسْطه وعِلْمه جعل الرَّوْحَ والفَرَحَ في اليقين والرِّضَا، وجعل الهَمَّ والحَزَن في الشَّكِّ والسَّخَط»(٢).

قال عبد الله بن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «ارض بقضاء الله على ما كان من عُسْرٍ ويُسْرٍ؛ فإن ذلك أقلّ لهمّك، وأبلغ فيما تطلب من آخرتك»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا يُثْمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النَّفْس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفْزِع مُهْلِع من أُمور الدنيا، وبَرْد القناعة، واغتباط العبد بِقِسْمه من رَبِّه، وفَرَحِه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يُجْريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حُسْن تدبيره، وكمال حكمته»(٤). اهـ.

العاشر: القناعة:

يقول عليّ بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ قَنِع بما قَسَم الله له فهو من أغنى الناس»(٥).

وقال أكثم بن صَيْفِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ رَضِيَ بالقَسْم طابت معيشته، ومَنْ قَنِع بما هو فيه قرَّت عينه»(٦).

«فمن ملأ قلبه من الرّضا بالقَدَر مَلَأ الله صدره غِنًى وأَمْنًا وقناعة، وفَرَّغ قلبه لمحبَّتِهِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب اليقين» (٢٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٠٥) واللفظ له، من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رُوِي مرفوعًا من حديث ابن مسعود وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. كما في «الشعب» (٢٠٣، ٢٠٤)، ولا يثبت، كما قال البيهقي، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤١)، وحكم الألباني بوضعه في «الضعيفة» (١٤٨٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٥).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتَّعَفُّف» (١٣١).

والإنابة إليه والتوكّل عليه. ومَنْ فَاتَه حَظّه من الرضا امتلأ قلبه بضدّ ذلك، فالرِّضَا يُفَرِّغ القلب لله، والسُّخْط يُفَرِّغ القلب من الله...

والرّضا ينفي عن العبد آفات الِحْرص، والكَلَب على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بَلِيَّة، وأساس كل رَزِيَّةٍ.

فَرِضَاهُ عن ربِّه في جميع الحالات يَنْفِي عنه مادة هذه الآفات»[1].

الحادي عشر: السعادة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرّضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخّط على القضاء من أسباب الشقاوة»[2]. اهـ.

وقال إبراهيم الحَرْبِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «أجْمَعَ عُقَلاء كل أمّة أنّه من لم يجرِ مع القَدَرِ لم يتهنّأ بعيشه»[3].

وسرّ سعادة العبد في الرضا أنه لا يتسخّط على المقدور، ولا يتبرّم من البلاء، فإذا لم يَشْقَ بالعَسِيرِ هَنِئَ بكل سرور؛ لأنه لا يُنَغِّص عليه شيء، فيَخْلُص سروره من كل تنغيص.

الثاني عشر: «صاحب الرضا لا يأسى على فائت، ولا يَفْرَح بما أُوتي:

أما عدم أساهُ على فائِتٍ؛ فظاهر. وأما عَدَمُ فَرَحِهِ بما آتاه؛ فلأنه يعلم أن المُصِيبَةَ فيه مكتوبة من قَبْل حُصُولِهِ، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة مُنْتَظَرَة، ولا بد»[4].

وهذا على أحد التفسيرين لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣]، والثاني: أنه فَرَح البَطَر.

الثالث عشر: حلاوة الطاعة:

قال شقيق البَلْخي رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ شَكَا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا»[5].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٢٠٨ - ٢٠٩) بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق (٢/٢٠٨).
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٦/ ٣٠).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٢٠٨) بتصرُّف.
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠١).

الرابع عشر: الثواب والأجر:

عن أبي موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»[(١)].

فـ«الراضي مُتَلَقٍّ أوامر ربِّه الدينية والقدرية بالانشراح، والتسليم، وطيب النَّفْس، والاستسلام، والساخط يتلقَّاها بضدِّ ذلك، إلا ما وافق طَبْعه وإرادته منها، والرضا بذلك لا ينفعه، ولا يُثَاب عليه، فإنه لم يَرْضَ به لكون الله قدَّره، وقضاه، وأمر به، وإنما رَضِيَ به لموافقته هواه وطَبْعه»[(٢)].

الخامس عشر: «الرضا يُخَلِّص العبد من عَيْب ما لم يَعِبْه الله، ومن ذم ما لم يذمّه الله:

فإن العبد إذا لم يَرْضَ بالشيء عَابَه بأنواع المَعَايِب، وذمَّه بأنواع المَذَام؛ وذلك منه قِلَّة حياء من الله، وذَمّ لما ليس له ذنب، وعيب لَخَلْقه، وذلك يُسْقِط العبد من عين ربِّه.

ولو أنَّ رَجُلًا صنع لك طعامًا وقدَّمه إليك، فعِبْتَه وذممته؛ كنتَ مُتَعَرِّضًا لمَقْتِه وإهانته، ومُسْتدعِيًا منه أن يقطع ذلك عنك...

السادس عشر: يُذْهِب عن العبد شكوى ربّه إلى غيره، وتبَرُّمه بأقضيته:

ولهذا سَمَّى بعضهم الرضا: حُسْن الخُلُق مع الله؛ فإنه يوجب تَرْك الاعتراض عليه في مُلْكِه، وحذف فضول الكلام التي تَقْدَح في حُسْن خُلُقه؛ فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر! ولا يقول: هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد. ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال همّ وغمّ. ولا يسمي شيئًا قضاه الله وقدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه الله ﷻ، فإن هذا كله ينافي رضاه»[(٣)].

والشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السَّخَط والشهوة، فهناك يصطاده؛ ولا سيما إذا استحكم سَخَطُه، فإنه يقول ما لا يُرْضي الرب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١١) بتصرُّف يسير.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) بتصرُّف.

يرضيه؛ ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(١).

فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلّمون بما لا يُرْضي الله، ويفعلون ما لا يُرْضِيه، إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض رُئي في الجنازة ضاحكًا، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟! فقال: «إن الله ﷻ أحب أمرًا، فأحببت ما أحب الله»(٢).

وقد «أنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل، وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن القلب يحزن، والعين تدمع، وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يُعَدّ هذا من مناقب الفضيل؟!

والتحقيق أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل جميع المراتب، من الرضا عن الله، والبكاء رحمة للصبي؛ فكان له مقام الرضا، ومقام الرحمة، ورقة القلب.

والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضا، ومقام الرحمة، فلم يجتمع له الأمران»(٣).

السابع عشر: «يُخَلِّص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته:

فإن السَّخَط عليه مخاصمة له فيما لم يَرْضَ به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لِرَبِّهِ من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية»(٤).

الثامن عشر: أنه «يُخَلِّص العبد من أن يُرضِي الناس بِسَخَط الله، وأن يذمهم على ما لم يُؤْتِهِ الله، وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله:

فيكون ظالمًا لهم في الأوّل - وهو رضاهم وذمهم - مُشْرِكًا بهم في الثاني - وهو حَمْدهم - فإذا رَضِيَ بالقضاء تَخَلَّص من ذمهم وحمدهم، فخَلَّصه الرضا من ذلك كله»(٥).

التاسع عشر: الرِّضا مفتاح باب حُسْن الخلق:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «الرِّضا يفتح باب حُسْن الخُلُق مع الله تعالى ومع الناس، فَإِنَّ حُسْن الخُلُق من الرضا، وسوء الخُلُق من السَّخَط، وحُسْن الخُلُق يَبْلُغ بصاحبه درجة

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٩٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٠).
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٣).

الصائم القائم، وسوء الخُلُق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحَطَب»[١] .اهـ.

العشرون: الرضا يُوَرِّث سلامة القلب:

فـ«الرضا يفتح للعبد باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِشّ والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا مَنْ أتَى الله بقلب سليم، وتستحيل سلامة القلب مع السَّخَط، وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم؛ فالخبث والدَّغَل والغشّ قرين السَّخَط، وسلامة القلب وبِرّه ونُصْحه قرين الرضا. وكذا الحسد، هو من ثمرات السَّخَط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا»[٢] .

الحادي والعشرون: الشكر:

«والشكر من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يُثْمر ضدّه؛ وهو كُفْر النِّعَم، وربما أثمر له كُفْر المُنْعِم.

فإذا رَضِيَ العبد عن رَبِّهِ في جميع الحالات أوجب له ذلك شُكْره؛ فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسَلَك سبيل الكافرين»[٣] .

الثاني والعشرون: أنه يخرج الهوى من القلب:

فالراضي هواه تَبَع لمراد رَبِّه منه؛ فلا يجتمع الرّضا واتّباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شُعْبة من هذا، وشعبة من هذا؛ فهو للغالب عليه منهما.

والرضا بالقضاء أشق على النَّفْس؛ فإنه مخالفة هواها وطَبْعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنّة قط حتى ترضى بالقضاء؛ فحينئذ تستحقّ أن يُقَال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

الثالث والعشرون: الرضا أصل الطاعات:

فـ«المخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلّها أصلها من الرضا؛ وهذا إنما يعرفه حق المعرفة مَنْ عَرَفَ صفات نَفْسه، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي؛ فعدم الرِّضَا يفتح باب البدعة، والرضا يُغْلِق عنه ذلك الباب، ولو تأمّلتَ بِدَع النواصب والخوارج والروافض لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني، أو الديني، أو كليهما. . .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٢٠).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٧) بتصرُّف يسير.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٩) بتصرُّف يسير.

وإن أوَّل معصية عُصِيَ الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرِّضا، فإبليس لم يَرْضَ بحكم الله الذي حكم به كونًا؛ من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني؛ من أمره بالسجود لآدم.

وآدم لم يَرْضَ بما أبيح له من الجنَّة، حتى ضم إليه الأكل من الشجرة التي نُهِيَ عنها، ثم ترتَّبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا»(١).

الرابع والعشرون: أن مَنْ أخذ به فقد أخذ بِحَظّ وَافِرِ من الدِّين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّضا مَعْقد نظام الدِّين ظاهره وباطنه، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع؛ فتنقسم قسمين: دينية، وكونية، وهي: مأمورات، ومنهيَّات، ومباحات، ونِعَم مُلَذَّة، وبلايا مؤلمة، فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله فقد أخذ بالحَظِّ الوافر من الإسلام، وفاز بالقِدْح المُعَلَّى»(٢) .اهـ.

وذلك أنَّ الراضي في الأمر الكوني صابِرٌ على البلاء، شاكرٌ على الرَّخاءِ، وفي الأمر الشرعي مستقيم على الصراط؛ فله بذلك أوفى حَظٍّ في أمر دينه وأمر دنياه.

الخامس والعشرون: الرضا والمحبة يسيران بالعبد وهو مُسْتلْقٍ عَلَى فِرَاشِهِ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل(٣):

فهما أصل كل خُلُقٍ كريم وعمل صالح، فالمُحِبّ مُتَلَهِّف على طاعة المحبوب، والراضي قانع مُكْتَفٍ، غير ساخط ولا مُتَضَجِّر؛ فالعمل صالح، والقلب سليم، والنَّفْس مطمئنة، والسعي مشكور.

السادس والعشرون: الرضا يُثْمِر الفرح والسرور:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه في المنام، وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته ـ لا أذكره الآن ـ فقال: أمّا أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرور به، أو نحو هذا من العبارة. وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله»(٤) .اهـ.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن تبارك وتعالى بقسطه وحِلْمه جعل الرَّوْحَ والفَرَح في اليقين والرِّضا، وجعل الغَمَّ والحَزَن في الشك والسّخط»(٥).

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢١١، ٢١٤) بتصرُّف يسير.
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٧٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٧٦).
(٥) تقدم تخريجه.

ما لا ينافي الرّضا وما ينافيه

أولًا: الأمور التي لا تتنافى مع الرضا:

١ ـ **الإحساس بالألم**، فإن هذا بمجرّده لا ينافي الرّضا، ولا يضر العبد أن يجتمع في قَلْبِه الرضا وحرارة المصيبة؛ وذلك كالإنسان الذي يكابد الجوع والعطش في الصيام، وهو في غاية الرِّضَا، فهذا الشعور بالجوع لا يُخْرِجه عن حال الرِّضا؛ لأنه إنما صام طلبًا لمرضاة الله ﷻ، فيهون عنده ذلك في سبيل تحقيق مرضاة الرب. وهكذا حينما يشعر الإنسان بالألم أو يجد حرارة المصيبة أو نحو ذلك، وهو في غاية الرضا، وهكذا المجاهد يستقبل الطعن والضرب بالسيوف وهو يجد ألم ذلك، ولكنه يُقْبِل بنَفْس رَضِيَّة لما يرجو عند الله ﷻ من الأجر والثواب.

وكذا ما يجده من إرهاق؛ من سهر اللّيل للقيام، وما يجده من مشقّة في المناسك عند التنقُّل بين المناسك وفي الزحام وما إلى ذلك؛ فمثل هذا لا ينافي الرّضا ولا يضاده بحال.

فمهما أصيب الإنسان بمصيبة، فأحَسّ بألمها، وأنَّ لوجعها؛ فإنه لا يضرّه ذلك ما لم يكن على سبيل الشكايَة والتَّسخُّط.

وقد يتناول المريض الدواء المرّ الكريه، وهو راضٍ تمام الرّضا؛ لِمَا يرجوه من الشفاء والعافية بإذن الله، فلا يُخْرجه كرهه له، وما يجده من مرارته وغصّته عن حَدّ الرّضا[1].

٢ ـ **الإخبار بما يجده من الجوع والفقر، من غير شكاية ولا ضجر ولا جزع**، فإن كان يخبر على سبيل الشكاية؛ فإنّ هذا يخرجه عن حال الرّضا؛ بل يُخْرجه عن حال الصبر. وهكذا الذي يجزع أو يتسخَّط ونحو ذلك.

وقد قال موسى ﷺ في رحلته التي قَصَّها الله ﷻ علينا في القرآن: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ [الكهف: ٦٢]، فهذا مجرّد إخبار، وكذلك النبي ﷺ حينما خرج ذات ليلة، فلقي أبا بكر وعمر فسألهما: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قالا:

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١١٢).

الجوع يا رسول الله! قال: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**»(١).

وفي «صحيح البخاري» أن عائشة رضي الله عنها قالت: وا رأساه! فقال النبي ﷺ: «**بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ!**»(٢).

وقال عروة بن الزبير رحمه الله: «دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء ـ يعني: بنت أبي بكر، وهي أمّهما ـ قبل قتل عبد الله بعشر ليال، وأسماء وَجِعَة، فقال لها عبد الله: كيف تجِدينك؟ قالت: وَجِعَة»(٣).

فمجرّد الإخبار لا إشكال فيه.

٣ ـ **الحزن والبكاء**؛ فإنَّ هذا لا يخرجه عن حال الرضا، كما حصل للنبي ﷺ عند وَفَاةِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وحصل للأنبياء قبله، كما حصل لنبيّ الله يعقوب عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، لكنه كان يشكو بثّه وحزنه إلى الله تبارك وتعالى، ولم يكن يشكو إلى المخلوق؛ فالحزن الذي لا يُخرج الإنسان عن كونه صابرًا راضيًا لا يُؤَاخَذ به.

٤ ـ **الدعاء**، فالدعاء عبادة، والله عز وجل قد يسوق للإنسان البليّة والمرض والمصيبة حتى ينكسر، ويتصدَّع، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فالله يحبّ ضَرَاعَةَ العبد وانكساره بين يديه، فهذا من المطالب الشرعية، فلا ينافي الرِّضَا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الرضا لا يتضمن تَرْك واجب، ولا تَرْك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تَرْكه من الرّضا، كما أن تَرْك سائر الواجبات لا يكون من الرِّضَا المشروع، ولا فِعْل المحرَّمَات من الرِّضَا المشروع»(٤).اهـ.

٥ ـ **فِعْل الأسباب**: فلا يكون فِعْل الأسباب مانعًا من الرِّضَا، بل هي من الرضا بقضاء الله وقَدَرِه، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلا بفِعْل الأسباب المأمور بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٧، ٨](٥)،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٠٩)، وصحح الألباني «إسناده في صحيح الأدب» (٣٩٤).

(٤) «الاستقامة» (٢/ ١٣٢) بتصرُّف يسير.

(٥) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٣٣).

فالأعمال الصالحة محبوبة لله ﷻ، وهي سببٌ لتحصيل مرضاته، وسبب لرضا العبد عن ربّه؛ لِمَا يلقاه من الجزاء الحَسَن؛ فالعبد يُوقِن أن ما قَدَّره الله ﷻ وقضاه لا بُدَّ أن يَقَعَ، ولكنه يرفع يديه؛ لأن الله تعبَّده بذلك. والنبي ﷺ أخبر أنه: **«لَا يَرُدّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»**[1]، فيكون الله ﷻ قد قدّر لهذا العبد أن يلتجئ إليه، وأن يكون ذلك سببًا لدفع المصيبة.

فالعبد إذا تَرَكَ الانقياد للجوع والعطش والبرد ونحو ذلك من أقدار الله، ودَفَعَه بقَدَر آخر من الأكل والشرب واللباس ونحوه لم يكن فِعْله ذلك منافيًا للرضا بحال.

وإذا وقع حريق ـ مثلًا ـ في دار أو مَتْجر أو مَرْكب، فهذا بقدر الله تعالى. وعلى العبد ألَّا يستسلم له، ويتلقَّاه بالإذعان، بل عليه أن ينازعه ويدافعه بالماء والتراب، وغير ذلك مما يُطفِئُ الحريق، وهو بذلك لم يخرج عن قدر الله.

بل يجب أن يفعل الأسباب في عدم حصول ذلك أصلًا، كما في الحديث: **«إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»**[2].

ومن ذلك: تغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها، وإطفاء السُّرج عند النَّوْم.

وهكذا؛ إذا أصاب المؤمن مرض، فهو بقدر الله تعالى وقضائه الكوني، فله أن يدافعه، وينازعه بقدر الله؛ فيستعمل الأدوية الدافعة للمرض، فإن غَلَبَه وقَهَرَه حرص على دفع آثاره، ومُوجِباته بالأسباب التي نَصَبَها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، كما في قصة عمر بن الخطاب ؓ عندما عُوتِبَ على فراره من الطاعون، وعدم دخوله أرض الشام بمَنْ معه من الصحابة والتابعين ؓ، فقال له أبو عبيدة: أَفِرَارًا من قدر الله؟ فقال: «نعم، نفرّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدْوَتان: إحداهما خَصْبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخَصْبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟»[3].

قال ابن القيم ؒ: «ومَنْ لَمْ يستبصر في هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سلمان ؓ وقال: «حسن غريب»، وله شاهد من حديث ثوبان ؓ: أخرجه ابن ماجه (٩٠، ٢٢، ٤٠)، وصحّحه ابن حبان (٨٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والمنذري ـ كما نقل المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٣٣) ـ وحسّنه العِراقي ـ كما نقل البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ١٥) ـ، والألباني في «الصحيحة» (١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦) من حديث أبي موسى الأشعري ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس ؓ.

للقدر أو الشرع، شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه، وأسباب معاشه، ومصالحه الدنيوية، ولا يُنَازِعُ أَقْدَارَهُ فِي حَقِّ مَوْلَاه، وأوامره ودينه؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية؟ ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه؟»[(١)]. اهـ.

وأما ما ليس للعبد فيه اختيار، ولا طاقة، ولا حيله في منازعته ومدافعته ـ وهذا ما أشار إليه الحديث: **«وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»**[(٢)] ـ فهذا لا تنفع فيه المنازعة ولا المدافعة، فهذا يُقَابَل بالرّضا والاستسلام، وتَرْك المخاصمة والسَّخَط، والعلم والإيمان بأنَّ الأمر والحكم والقضاء لله مِنْ قَبْل ومِنْ بعد، وأنه سبحانه له حِكْمة في ذلك هو يعلمها سبحانه، وهو عدلٌ في قضائه، ولا يظلم أحدًا شيئًا.

ثانيًا: الأمور التي تنافي الرضا:

وهي التي تُخْرج الإنسان عن حَدِّ الرِّضَا، بل تُخْرِجُه عن الصبر، **فَمِنْ هَذِهِ الأمور**:

١ ـ الاعتراض على الله ﷻ، ومضادته في إلٰهيّته وربوبيّته، وأسمائه وصفاته، فلا يرضى به ربًّا، ويجعل له شركاء من دونه؛ كما قال هؤلاء المشركون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وهكذا أولئك الذين يُنازِعون في ربوبية الله ﷻ؛ كالذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فِعْله.

وكذلك الذين يعترضون على أسماء الله ﷻ وصفاته، وينفون عن الله ﷻ السمع والبصر، والرحمة والغضب، وما أشبه ذلك من صفات الكمال.

وكذلك أيضًا أولئك الذين يعترضون على أخبار الله ﷻ، ويكذّبونها، وهذا يقع لكثير من أصحاب النظريات التي استمدّوها من الكفار؛ كالتي تنافي وتناقض ما أخبر الله عنه من الحقائق إخبارًا صريحًا في القرآن؛ كالذي يقول: إن الشمس لا تجري!! والله يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]، فيقول: إن الشمس ثابتة لا تتحرّك؛ فهذا مُكَذِّبٌ لِخَبَرِ اللهِ ﷻ.

وكذلك الذين يعترضون على الله في أحْكَامِه الشرعية، فيقولون مثلًا: لماذا حَرَّمَ اللهُ الرِّبَا وعليه عَصَب الاقتصاد اليوم؟! ولماذا لا تَرِثُ المَرْأَة مِثْلَ مَا يَرِث الرجل، سواء بسواء؟! وما الداعي لحَجْب المرأة ومَنْعها من الاختلاط؟! ولماذا تُحَرِّمُون عليها

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٧٧).

(٢) هذا الحديث جزء من حديث ابن عباس ﭭ الطويل، وقد تقدم تخريجه.

السفر إلا بِمَحْرَم؟! فهذا وأمثاله من الاعتراض على شرع الله، وهو راجع إلى عدم الرّضا بالله ربًّا، وإلهًا، ومعبودًا، وحَكَمًا.

وهؤلاء وأمثالهم غوايتهم من نوع غواية إبليس الذي اعترض على حُكْم ربه، قائلًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]، ومن غواية أتباعه من الكفرة الآثمين، المعترضين، القائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، والقائلين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، والقائلين: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]، والقائلين: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

٢ ـ الاعتراض على أفعال الرب وقضائه وقَدَرِه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا اعتراض الجُهَّال... وهو أنواع لا تُحصَى، وهو سارٍ في النُّفُوس سَرَيَان الحُمَّى في بَدَنِ المحْمُومِ، ولو تأمَّل العبد كلامه، وأمنيته، وإرادته، وأحواله لرأى ذلك في قلبه عِيَانًا.

فكل نَفْس مُعْترِضة على قَدَرِ الله وقَسْمِهِ وأفعاله، إلا نَفْسًا قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حَظُّها التسليم، والانقياد، والرضا كل الرضا»[1].اهـ.

ومن صور هذا الاعتراض:

أ ـ التَّسَخُّط:

فالسَّخَط ضد الرضا، وفيه شقاوة الساخط، وقد جَعَل الله فيه الهمّ، والغَمّ، والحَزَن، وشتات القلب، وهو من سوء الخُلُق مع الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن السَّاخِط مُخَاصِم لله تعالى فيما لم يَرْضَ بِهِ، مِنْ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، أو قضائه ورزقه، وما يُصِيبه من نوائب ومصائب. وهذه المخاصمة هي أَصْل مَنْهَج إبليس مع رَبِّهِ، فقد كان مَنْهجه عَدَم الرِّضَا بأقضيته، وأحكامه الدينية، والكونية القدرية.

و«السَّخَط يفتح باب الشَّك في الله، وقضائه وقَدَره، وحكمته وعِلْمه؛ فَقَلّ أن يَسْلَم السَّاخِط مِنْ شَكٍّ يُداخِلُ قلبه، ويتَغَلْغل فيه، وإن كان قد لا يَشْعُر به، لكنه لو فَتَّش نَفْسه غاية التَّفْتيش، واختبرها لوجد إيمانه معلولًا، وتصديقه مَدْخولًا، ورضاه مَنْقُوصًا؛ فإن الرضا واليقين متلازمان، كما أن السَّخَط والشك قرينان»[2].

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكثر الناس يظنّون بالله غير الحق ظنّ السوء فيما يختصّ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٧١).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠١) بتصرُّف يسير.

بهم، وفيما يفعله بغيرهم. ولا يَسْلم عن ذلك إلّا مَنْ عَرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف مُوجَب حِكمته وحَمْده. . . ولو فَتَّشْت مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عنده تعنُّتًا على القدر، ومَلامَة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلّ ومُسْتَكْثِر. وفتّش نَفْسك هل أنت سالم من ذلك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا»[1] اهـ.

والتَّسخّط تارة يكون بالقلب، وقد يؤدّي بصاحبه إلى الكفر. وتارة يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور، وما أشبه ذلك.

ويكون التسخّط أيضًا بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشَقّ الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك. وقد قال النبي ﷺ: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»**[2].

ب - عدم الرِّضا بالمَقْسُومِ مِنَ الرِّزْق:

وهو من الاعتراض على أفعال الرَّبِّ وقضائه، ولو عَلِمَ العبد عِلْمَ اليقين أن ما قدَّرَهُ الله له مِنْ رزقه سيصله لا محالة، وما لم يكن مقسومًا له فلا حيلة في تحصيله لاستراح، وسكنَت نَفْسُه.

ج - الجَزَع والهَلَع:

والمصيبة قد تُوَرِّث نوعًا من الجَزَع، يقتضي لَوْمَ مَنْ كان سببًا في وقوعها، فإذا تبين للعبد أن هذه المصيبة وسببها مقدور مكتوبٌ صَبَر وسَلَّم لأمر الله، فإن لم يصبر ويُسَلِّم فقد ضَادَّ الله في حُكْمه. والجَزَع ضَعْف النَّفْس، وخوف القلب، يمدّه شدَّة الطَّمَع والحِرْص، ويتولَّد من ضَعْف الإيمان بالقدر، والهَلَع أفحش الجَزَع، فَمَنْ أَرَاد بلوغ مقام الرضا فليحبس نَفْسه عن الجَزَع، والهَلَع، والتشكّي، والتسخّط باللّسان والجوارح عما لا ينبغي فِعْله، وهذا هو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعيّة.

والنياحة من الجَزَع والاعتراض على القضاء، وكذا ما يصحبه من صكّ الوَجْهِ، أو لَطْم الخَدّ، أو سبّ الدَّهرِ ونحو ذلك.

وعن أبي مالك الأشعري؛ أن النبي ﷺ قال: **«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»**.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١) بتصرُّف.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وقال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٍ مِنْ جَرَبٍ»(١).

د ـ تمنّي الموت لِضُرٍّ نَزَلَ به أو مصيبة:

ففي الحديث: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»(٢).

ففي هذا الحديث دليل على النهي عن تمنّي الموت، بسبب بلاء أو مِحْنة، أو مَرض، أو فاقة، أو نحوها من المصائب التي تُصِيبُ الإنسان في حياته؛ لِمَا في ذلك من الجَزَع، وعدم الصبر على المقدور، وعدم الرِّضا بالقضاء.

وقد قال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»(٣).

هـ ـ ومِن أعظم ما ينافي الرّضا: الحسد:

فالحاسد مُعْترض على الله ﷻ، وعلى تقديره وتفضّله.

ولو علم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، ويصيب برحمته مَنْ يشاء من عباده، ويمتنّ بفضله على مَنْ يَشَاء، لمَا أصابه هذا الداء.

قال محمود الورَّاق(٤):

أَعْطَيتُ كل النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضا ... إلا الحسودَ فإنه أعْيَانِي
ما إنَّ لي ذَنبًا إليه عَمِلتُهُ ... إلا تَظَاهُر نِعْمة الرَّحْمَنِ
ما إنْ أرَى يُرْضِيهِ إلا ذِلَّتِي ... وَذهابُ أمْوالي وقطعُ لِسَاني

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) واللفظ له من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة ﷺ، وصحَّحه التِّرْمِذِي، والحاكم (١/ ٣٣٩)، والذَّهَبِي، وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة، وعبد الله بن بُسْر، وجابر ﷺ، انظر: «الصحيحة» (١٢٩٨، ١٨٣٦).

(٤) «ديوان محمود الوراق» (ص١٥٦)، و«بهجة المجالس» (١/ ٤١٥)، و«غرر الخصائص» (ص٦٠١ ـ ٦٠٢).

من أخبار أهل السخط

يقول ابن عقيل الحنبلي في كتاب «الفنون»: «الواحد من العوام إذا رأى مراكب مُقَلَّدة بالذهب والفضة، ودورًا مشيّدة مَمْلُوءة بالخَدَم والزينة، قال: انظر إلى ما أعطاهم مع سوء أفعالهم. ولا يزال يلعنهم، ويذمّ مُعْطِيهم... حتى يقول: فلان يصلّي الجماعات والجُمَع ولا يذوق قَطْرة خَمْر، ولا يؤذي الذَّر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحجّ، ويجاهد، ولا ينال خُلَّة بِقُلَّة، ويُظْهِر الإعجاب كأنه ينطق عن تخايله أنه لو كانت الشرائع حقًّا لكان الأمر بخلاف ما نرى، وكان الصالح غنيًّا والفاسق فقيرًا»(١).

والنبي ﷺ لما رآه عمر رضي الله عنه على حصير قد أثَّر في جنبه، بكى عمر، فسأله النبي ﷺ عن هذا، فقال: كِسْرَى وقَيْصَر فيما هما فيه ـ يعني: من النعيم ـ وأنت يا رسول الله؟! فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»(٢).

وهذا فهم فاسد، فالله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، وهذا من لُطف الله عز وجل.

وهذه حالة قد شَمَلت خلقًا كثيرًا، أولهم «إبليس؛ فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين، فَرَدَّ حِكْمَة الخالق، ومَرَّ على هذا خَلْقٌ كثيرٌ من المُعْترضين، مثل ابن الرَّاوَنْدي»(٣)، والمَعَرِّي، ومن قوله(٤):

إِذَا كَانَ لَا يَحْظَى بِرِزْقِكَ عَاقِلٌ ... وَتَرْزُقُ مَجْنُونًا وَتَرْزُقُ أَحْمَقَا
فَلَا ذَنْبَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ عَلَى امْرِئٍ ... رَأَى مِنْكَ مَا لَا يَشْتَهِي فَتَزَنْدَقَا

وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وانطلقوا

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٧٩/ ٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص٤١٣).
(٤) «المنتظم» (١٦/ ٢٤ ط. دار الكتب العلمية)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٤).

مع أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جلَّ وعلا.

وكان أبو طالب المكي يقول: «ليس على المخلوقين أضرّ من الخالق»(١)!! عياذًا بالله.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «دخلتُ على صَدَقَة بن الحسين الحَدَّاد، وكان فقيهًا، غير أنه كان كثير الاعتراض ـ يعني: على القدر ـ وكان عليه جَرَب، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جَمَل لا عليّ. وكان يتفقّده بعض الأكابر بمأكول، فيقول: بعث ـ يعني: ربه ـ لي هذا على الكِبَر وقت لا أقدر آكله!

وكان رجل يصحبني، قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض، واشتدّ به المرض، فقال لي: إن كان يريد أن أموت فيُمِتني، فأما هذا التعذيب فما له معنى!! والله لو أعطاني الفردوس كان مَكْفُورًا!! ـ نسأل الله العافية! ـ.

ورأيت آخر يتزيّا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه، يقول: إيش هذا التدبير؟ وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما نريد نصلي. وإذا رأوا رجلًا صالحًا يُؤْذَى، قالوا: ما يستحق، قد حاف القَدَر!

وكان قد جرى في زماننا تَسَلُّط من الظلمة، فقال بعض مَنْ يَتَزَيَّا بالدين: هذا حُكْم بارد، وما فهم ذلك الأحمق أن الله يملي للظالم.

وفي الحمقى مَنْ يقول: أيُّ فائدة في خَلْق الحيات والعقارب؟! وما علم أن ذلك أُنموذج لعقوبة المخالف، وهذا أمرٌ قد شاع»(٢).

«وكان في زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السَّقَم، فقال: وا رَحْمَتِي لكِ! وا قلة حيلتي في إقامة التأويل لمُعَذِّبك! فقال له ابن عقيل: إن لم تقدر على حَمْل هذا الأمر لأجل رِقَّتِك الحيوانية، ومناسبتك الجنسية، فعندكَ عَقْل تعرف به تحكّم الصانع وحكمته تُوجِب عليك التأويل، فإن لم تجد اسْتَطْرَحْتَ لفاطر العقل حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة في ذلك»(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيتُ رجلًا كبيرًا قد قارب الثمانين، وكان يحافظ على الجماعة، فمات ولد لابنته، فجزع، وتلفَّظ بكلام فيه تَسَخّط؛ فعلمتُ أن صلاته وفِعْله

---

(١) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٠٣).

(٢) نقله ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٣).

للخير عادة؛ لأنه لا ينشأ عن معرفة وإيمان، وهؤلاء الذين يعبدون الله على حَرْف»[1]. اهـ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أكثر الخَلْق بل كلهم إلا مَنْ شَاءَ الله يظنّون بالله غير الحق وظنّ السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مَبْخوس الحقّ، ناقص الحظّ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونَفْسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه يُنْكِره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومَنْ فَتَّش نَفْسه وتَغَلْغَل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنًا، كُمون النار في الزِّناد»[2]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «الثبات عند الممات» (ص٤١) بتصرُّف.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١).

من أخبار أهل الرضا

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة[١]، فوق زَمْزَم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرَابا فيه تمر، وسِقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم مُنْطَلقًا، وذَهَبَ، فتبِعَته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيّعنا[٢]، وفي رواية قالت: رضيت بالله[٣].

ولما كَبر إسماعيل عليه السلام، وقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

فكانوا جميعًا عليهم السلام على غاية الرضا والتسليم لأمر الله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنَفْسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: **«إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»**[٤].

عن الحارث بن عميرة، قال: «إني لجالس عند معاذ بن جبل وهو يموت، وهو يُغْمَى عليه مرة ويُفيق مَرَّة، فسمعته يقول عند إفاقته: اخنق خَنْقك، فوعزّتِك إني لأحبّك»[٥].

عن مُطَرِّف بن عبد الله قال: قلت لعمران بن حصين: ما يمنعني من عيادتك إلا ما أرى مِنْ حَالك، قال: «فلا تفعل، فإنَّ أحبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله»[٦].

---

(١) **الدَّوحة**: الشجرة الكبيرة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).
(٣) أخرجها البخاري (٣٣٦٥).
(٤) تقدّم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٢٨) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦١٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٤٦٢) (٥٨/ ٤٥٢).
(٦) أخرجه ابن المبارك (٤٦١) في «الزهد»، وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ١٩٥) واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (ص١٤٨). ورُوِي نحوه عن أبي العالية. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الكفارات» (٢٠٦)، و«الرضا عن الله» (٣٩).

ولمَّا قدم سَعْد بن أبي وقَّاصٍ إلى مكَّة، وقد كان كُفَّ بَصَرُهُ، جاءه الناس يُهْرَعُون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيَدْعُو لهذا ولهذا، وكان مُجَابَ الدَّعْوَةِ. قال عبد الله بن السائب: فأَتَيْتُهُ وأنا غُلَام، فتعرَّفْتُ إليه فعَرَفَنِي، وقال: «أنت قارئ أهل مكة؟» قلت: نعم ـ فذكر قصة، قال في آخرها ـ: فقلتُ له: يا عم! أنت تدعو للناس فلو دعوتَ لنَفْسك، فردَّ الله عليك بصَرَك! فتبسم، وقال: «يا بُنَي! قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري»[1].

قال الحسن بن علي البصري: «أصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثير، فقال:

لَا وَالَّذِي أَنَا عَبْدٌ فِي عِبَادَتِهِ ... لَوْلَا شَمَاتَةُ (أَعْدَاء ذَوِي إِحَنِ)[2]
مَا سَرَّنِي أَنَّ إِبْلِي فِي مَبَارِكِهَا ... وَأَنَّ شَيْئًا قَضَاهُ اللهُ لَمْ يَكُنِ»[3]

وقال ابن مسعود ﷺ: «الفقر والغنى مطيَّتان، ما أُبالي أيّهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل»[4].

وقال: «ما أبالي إذا رجعتُ إلى أهلي على أي حال أراهم؛ أبسراء أم بضراء، وما أصبحتُ على حال، فتمنيتُ أني على سواها»[5].

وقال عمر ﷺ: «ما أُبالي على أيِّ حال أصبحتُ على ما أحب أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أُحِب أو فيما أكره»[6].

وقال ﷺ **يومًا لامرأته عاتكة بنت زيد وقد غضب عليها:** «والله لأَسُوْأَنَّكِ، فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله؟ قال: لا، فقالت: فأي شيء تَسُوْءني به إذًا؟!»[7].

وعن أبي عمرو الكندي قال: «أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري، نحوًا من أربعمائة جاموس، فركبت معه أنا وابن له، فلقينا عَبِيده الذين كانت معهم الجواميس معهم عصيّهم، فقالوا: يا مولانا ذهبَت الجواميس، فقال: وأنتم أيضًا، فاذهبوا معهم فأنتم أحرار لوجه الله. فقال له ابنه: يا أبت، أفْقَرْتَنَا؟ قال: اسكت يا بُنَيّ، إن ربي

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٥٠).
(٢) هكذا في «عيون الأخبار» (٣/ ١١٤)، و«العقد الفريد» (٤/ ١٥)، وفي «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا (١١) (أَعَادِيهِ أظنِ) ولا يستقيم الوزن بذلك.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١١).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٠).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٥).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٣٠)، راجع: التعليق على «المجالسة» للدينوري (١٥٥٨).
(٧) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢١).

اختبرني فأحببتُ أن أزيده»[١].

وقال علي بن بَكّار: «شكا رجل إلى إبراهيم بن أدْهَم كثرة عياله، فقال له إبراهيم: يا أخي، انظر كُلَّ مَنْ في منزلك ليس رزقه على الله، فحوّله إلى منزلي»[٢].

وعن أبي حيان التيمي، قال: «دخلوا على سويد بن مَثْعبة، وكان من أفضل أصحاب عبد الله، وأهله يقولون له: نفسي فداؤك، مَا نُطْعِمُكَ؟ وما نسقيك؟ قال: فأجابها بصوت ضعيف: دَبِرَت الحَرَاقِف[٣]، وطالت الضِّجْعة، واللهِ ما يَسُرُّنِي أنَّ اللهَ نقصني منه قلامة ظُفر»[٤].

وعن داود القطان، قال: «أصاب الربيع بن خُثَيْم الفالج، فكان بكر بن ماعز يقوم عليه ويَدْهنه، ويَفْلي رأسه ويغسله، قال: فبينا هو ذات يَوْم يَغْسِلُ رَأْسَ الربيع إذ سال لُعَاب الربيع، فبكى بكر، فرفع الربيع رأسه إليه فقال له: ما يُبْكِيك؟ فوالله ما أحب أنه بأعتى أهل الدّيلم على الله»[٥].

وعن محمد بن علي أن بعض أهله اشتكى، فوَجَد عليه، ثم أُخبِر بموته، فسُرِّي عنه، فقيل له، فقال: «ندعو الله فيما نحبّ، فإذا وَقَع ما نكْرَه لم نُخَالِف الله فيما أحب»[٦].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد تَرَكَتْنِي هؤلاء الدعوات، وما لي في شيء من الأمور كلِّها أَرَب إلا في مواقع قدر الله»[٧].

وكان كثيرًا ما يدعو: «اللَّهُمَّ رَضِّنِي بقضائك، وبارك لي في قَدَرك، حتى لا أُحِب تعجيل شيء أَخَّرْتَه، ولا تأخير شيء عجّلته»[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣٠) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٧٢).

(٣) **الحَرْقَفَة**: عَظْم رأس الوَرِك. يُقال للمريض إذا طالت ضَجْعَتُه: دَبِرَت حَرَاقِفُه؛ أي: تَقَرَّحَت، أو كان بها جروح؛ وذلك لطول الضَّجْعَة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٧٢)، م: (حرقف).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ١٩٠)، وهناد في «الزهد» (٣٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٥)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢١٤).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٧) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٤/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٤).

(٨) المصدر السابق.

وعن رجاء بن أبي سلمة قال: «لمّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار ينهى أن يُنَاح عليه، وكتب: «إنَّ الله ﷻ أُحِبّ قبضه، وأعوذ بالله أن أُخَالِف محبَّته»[1].

وعن الربيع بن سَبْرة قال: «لما هَلَك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز، ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة، دخل عليه الربيع بن سَبْرة، وقال: أعظَم الله أجْرَكَ يا أمير المؤمنين! فما رأيتُ أحدًا أُصِيب بأعظم من مصيبتك في أيّام متتابعة، والله ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قطّ!! فطَأطَأ عمر رأسه، فقال لي رجل معه على الوسادة: لقد هيَّجْتَ عليه!! قال: ثم رفع رأسه، فقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدتُ عليه ما قلتُ أولًا. قال: لا والذي قضى عليه ـ أو قال: عليهم ـ بالموت، ما أُحِبّ أن شيئًا من ذلك كان لم يكن»[2].

وقال أحمد بن أبي الحواري: «قلتُ لسليمان: إن ابن داود قال: ليت الليل أطول مما هو، قال: قد أحسن وقد أساء؛ قد أحسن حين تمنَّى طول الليل للطاعة، وأساء حين تمنَّى طول ما قصره الله»[3].

وقال ابن شَوْذَب: «اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش، فقال مالك: ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غَلَّة يعيش فيها. وقال محمد: طوبى لمن وجد غداء ولم يجد عشاء، ووجد عشاء ولم يجد غداء، وهو عن الله ﷻ راض»[4].

وقال عبد العزيز بن أبي روَّاد: «رأيت في يد محمد بن واسع قُرْحَة، فكأنه رأى ما قد شق عليَّ منها. فقال لي: تدري ما عليّ في هذه القُرْحَة مِنْ نِعْمَة؟ قال: فسكَتُّ، قال: حيث لم يجعلها على حَدَقَتِي، ولا على طَرَف لساني، ولا على طَرَف ذَكَري، قال: فهانت عليّ قُرْحته»[5].

وعن إبراهيم النخعي أنَّ أمّ الأسود قَعَدَت من رجليها، فجزعت ابنة لها، فقالت: «لا تجزعي، اللَّهُمَّ إن كان خيرًا فزد»[6].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٧) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٠٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣٠) واللفظ له.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٧)، وهو عند أبي نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٩) بنحوه، وزاد: «فانصرف القوم وهم يرون أن محمدًا أقوى الرجلين».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٣)، و«الصبر» (١٨٣).

وعن أبي عبد الرحمٰن الجرجاني، قال: «ذهبتُ أُعَزِّي رجلًا، وقد قَتَلَت التُرْك ابنه، فبكى حيث رآني، فقلتُ: ما يُبكيك وقد قُتِل ابنك في سبيل الله؟ قال: يا أبا عبد الرحمٰن أنت تظنّ أني أبكي لقتله؟! إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذته السيوف»(١).

وعن عليّ بن الحسن قال: «كان رجل بالمصِّيصَة، ذاهب النصف الأسفل، لم يبقَ منه إلا روحه في بعض جَسَده، ضريرٌ على سرير مثقوب، فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحتَ يا أبا محمد؟ قال: مُلْك الدنيا مُنْقَطِع إلى الله، ما لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام»(٢).

وقال بعض الصالحين: «ذنبٌ أذنبته، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة. قيل: وما هو؟ قال: قلتُ لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه، أو ليته لم يكن»(٣).

وقال بعض السلف: «لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض، لكان أحبّ إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه»(٤).

وقال عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللهُ**، لمّا مات ابنه وقُطِعَت رِجله:** «اللَّهُمَّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ منهم واحدًا وأبقيتَ ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذتَ مني طرفًا وأبقيتَ لي ثلاثة، وايْمُك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»(٥).

هذا آخر ما أردنا إيراده في الكلام عن الرضا، والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» (٧٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٥) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٨٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢١٧).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٥٠).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (ص١٣٩) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٠/٢٦١).

الثالث عشر

الشكر

توطئة

الشكر عبادة قلبية، عظيمة القَدْر، تفيض آثارها الجميلة على اللسان، فَيَلْهَج بالحمد والثناء والاعتراف بالإحسان والإفضال، كما يظهر أثرها على الجوارح، فتزداد عملًا بطاعة الله تعالى، واجتهادًا في طلب مرضاته، مع تسخير النِّعَم فيما يكون مَرْضيًّا لله ﷻ؛ وذلك مُؤْذِن بثبات الحاصل من الإنعام مع الزيادة عليها، كما وَعَد الله عباده بقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما إذا كان الشكر صادرًا من العبد في مُقابل ما يقع له من المصائب؛ فإن ذلك يُعَدّ من أعلى درجات العبودية، ولا يَصِل إليه إلا خواصّ المؤمنين، وعباد الله المتقين.

فنسأل الله أن يُبَلِّغَنا هذه المنازل، إنه سميع مجيب.

❁ ❁ ❁

معنى الشكر وحقيقته

أولًا: الشكر في اللغة:

«أصل الشكر في كلام العرب: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيِّنًا، تقول: شكرَتِ الدَّابَّة: إذا ظَهَر عليها أثَرُ العَلَفِ.

ودابّة شكور: إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تأكل وتُعْطَى من العَلَف»[١].

وفي حديث يأجوج ومأجوج: **«فَيَخْرُجُ الناسُ، ويُخْلون سَبِيلَ مَوَاشِيْهِمْ، فَمَا يكونُ لَهُمْ رَعْيٌ إلّا لحُومُهُمْ، فَتَشْكَرُ عَلَيْهَا كَأَحْسَنِ مَا شَكِرَتْ مِنْ نَبَاتٍ أَصَابَتْهُ قَطّ»**[٢].

«وكذلك حقيقته في الشرع، وهو ظهور أثر نِعْمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبَّة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٣].

ثانيًا: الشكر في الاصطلاح:

اعلم أن الشكر يكون من العبد لربِّه، ويكون من الربِّ لعبده.

فأما شكر الرب لعبده: فيقول الزَّبِيدي رَحِمَهُ اللهُ: «الشَّكُور في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ فمعناه: أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيُضَاعِف لهم الجزاء...

وقال شيخُنا[٤]: الشكور في أسمائه: هو مُعْطي الثواب الجزيل بالعمل القليل»[٥]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤) باختصار وتصرف، وانظر: «لسان العرب» (٦/ ٩٣)، مادة: (شكر)، و«القاموس المحيط» (٢/ ٦٢)، مادة: (شكر)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٢٤ ـ ٤٣٤)، مادة: (شكر).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٧٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣١٦)، والذهبي، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٠٠ ط. دار العربية): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٧٣)، والأرنؤوط في تحقيق «سنن ابن ماجه» (٥/ ٢٠٦).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤) بتصرُّف.

(٤) يقصد: شيخه محمد بن الطَّيِّب الفَاسِي (ت سنة ١١٧٠هـ)، وله شرح على «القاموس» في مجلدين ضخمين، انظر: مقدمة «تاج العروس» (١/ ٢).

(٥) «تاج العروس» (١٢/ ٢٢٧)، مادة: (شكر).

قال الله ﷻ عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما **وغيره:** «غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات»(١).

وقال شِمْر بن عَطِيَّة: «غفر لهم الذنوب التي عملوها، وشكر لهم الخير الذي دَلَّهم عليه، فعملوا به، فأثابهم عملهم»(٢).

وفي القرآن أيضًا تسميته سبحانه **(شاكرًا)**، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

وتسميته أيضًا **(شكورًا)**، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]، فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أنْ شَكَرَ سَعْيَهُمْ وأثابَهُم عليه.

والله تعالى يشكر عبده إذا أحْسَن طاعته، ويغْفِر له إذا تَابَ إليه، فيجمع للعَبْدِ بين شُكْرِه لإحسانه، ومغفرته لإساءته.

وهو سبحانه يُعْطِي العبد ويوفّقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يستَقِلّه أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله؛ بأن يُثْني عليه في المَلَأ الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بِفِعْله، فإذا تَرَك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بَذَلَ له شيئًا رَدَّه عليه أضعافًا مُضَاعفة، وهو الذي وفَّقَه للتَّرْك والبَذْل، وشَكَره على هذا وذاك.

ولما عَقَر نبيُّه سليمانُ الخيلَ غَضَبًا له؛ إذ شغلته عن ذِكْره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى؛ أعاضه عنها مَتن الرِّيحِ.

ولما تَرَكَ الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها أن مَلَّكَهُم الدنيا، وفَتَحَها عليهم.

ولمّا احتمل يوسف الصدّيق ﷺ ضِيْق السجن شَكَر الله له ذلك، فمكَّنَ له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولمّا بذل الشهداء أبدانهم له في سبيل الله ﷻ، حتى مَزَّقَها أعداؤه؛ شكر لهم ذلك

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٧٨٥)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٨، ٦٧٤٠، ٦٧٤٧) واللفظ له، وأخرجه الخرائطي في «الشكر» (٤) من قول قتادة.

بأن عوَّضهم عنها، فجعل أرواحهم في جَوْف طير خضر، تسْرَح في الجَنَّةِ حيث شاءت، حتى تُرَدَّ عليهم تلك الأبدان أحسن ما تكون في يوم البعث والنشور.

ولما بذل رسله عليهم الصلاة والسلام أعراضهم في سبيل الله ﷻ لأعدائهم، فنالوا منهم وسَبُّوهم؛ أعاضهم الله ﷻ بأن صَلَّى الله عليهم وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في السمٰوات والأرض وبين خَلْقِهِ، فأخْلَصَهم بخَالِصَة ذكرى الدار.

ومِن شُكْرِه تبارك وتعالى أنه يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، فيعطيهم في الدنيا ما يُعْطِيهِم من السَّعَة في الأرزاق والعافية في الأبدان وغير ذلك، ويُخَفِّف به عنهم يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، ومع أن هؤلاء الكفار مِنْ أبْغَضِ خَلْقِهِ إليه.

ومِنْ شُكْرِه تبارك وتعالى أن غَفَرَ لتلك المرأة البغيّ التي سَقَتْ كَلْبًا يلعق الثرى من شدة العَطَش[(١)]، وغَفَر لآخر بتَنْحِيَته غُصْن شَوْك عن طريق المسلمين[(٢)]، فالله ﷻ يَشْكر العبد على إحسانه لنَفْسه. والمخلوق إنما يشكر مَنْ أحسن إليه. وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحْسِن به إلى نَفْسه، وشَكَرَهُ على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نِسْبة لإحسان العبد إليها، فهو المُحْسِن بإعطاء الإحسان، وإعطاء الشكر.

ومِنْ شُكْرِهِ تبارك وتعالى للعباد أنه يُخْرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من الإيمان[(٣)]، فلا يَضِيع عنده هذا القَدْر، وكذلك أيضًا إذا قام العبد لربِّه مقامًا يرْضيه عنه؛ فإنَّ الله يُنَوِّه بِذِكْره بين عباده وملائكته، كما شَكَرَ لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثْنَى به عليه، فذكره الله ﷻ في أشرف كتاب، وقَصَّ خبره على أشرف نبي وأشرف أمَّة، وكذلك شَكَر لصاحب يس مقامه ودعوته إليه. فلا يهلك على الله بين شُكْره ومغفرته إلا هالك.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحبّ الخلق إليه مَنِ اتَّصَف بهذه الصفة، وأبْغَضهم إليه مَنْ عَطَّلَها، واتَّصَفَ بضِدِّهَا[(٤)].

وأمَّا شُكْر العبد لربِّه:

فمن العلماء مَنْ فَسَّرَهُ بجزء معناه.

---

(١) وذلك فيما رواه البخاري (٣٣٢)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) كما روى ذلك البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥٤٠ ـ ٥٤٤).

قال أبو بكر الورَّاق: «شُكْر النعمة مُشاهدة المِنَّة»[١].

وقيل: «رَأس الشكر: الاعتراف بالنعمة، وأنها من المُنْعِم وحده. فإذا أُضِيفَت إلى غيره كان جَحْدًا لها»[٢].

وقيل: «الاعتراف بنعمة المُنْعِم على وجْه الخضوع»[٣].

وقيل: «حقيقة الشكر: إظهار النعمة، كما أن كفرانها: إخفاؤها»[٤].

وقال الراغب: «الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها... ويضادّه الكفر، وهو نسيان النعمة»[٥]. اهـ.

ومنهم مَنْ فَسَّره بملاحظة لازمه ومقتضاه.

يقول مَخْلَد بن الحسين: «كان يُقَال: الشكر تَرْك المعاصي»[٦].

وسُئِل الجُنيد بن محمّد عن حقيقة الشكر فقال: **«ألا يُسْتَعَان بشيء من نِعَمِه على معاصيه»**[٧].

وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ اللهُ: «الشكر تقوى الله، والعمل بطاعته»[٨].

وقال أبو بكر الشِّمْشَاطي: «أصل الشكر: رؤية المِنّة بالقلب، والمعرفة بأنه من الله ﷻ، وحقيقة الشكر في الأصل والفرع أن تتقي الله ﷻ»[٩].

وذُكِرَ عن بعض السلف أنه قال: «الشكر تقوى الله ﷻ، ألَا ترى أنه يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]»[١٠].

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: «فالمتَّقي في هذه الآية: هو الشاكر لنعمة الله، فهذه الآية تدل على أن المتَّقي هو الشاكر، ومَنْ لم يَكُنْ مُتَّقِيًا لم يكن شاكرًا»[١١]. اهـ.

وقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقد كان النبي ﷺ يصلي حتى تَرِم قدماه، فيُقَال له، فيقول: **«أفَلَا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»**[١٢].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٥).
(٢) «شفاء العليل» (١/ ١٥٦).
(٣) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٣٨).
(٤) «فيض القدير» (٣/ ٤١٨).
(٥) «مفردات القرآن» (ص٢٦٥).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦٨)، وللشكر عدة تعريفات أخرى تجدها في «الرسالة» للقشيري (١/ ٣١٢).
(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٥).
(٩) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٢٤١).
(١٠) «شعب الإيمان» (٤٢٤١).
(١١) المصدر السابق (٧/ ٣١٦).
(١٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شُعْبة رضي الله عنه. وفي الباب عن عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري (٤٨٣٧).

قال أبو عبد الرحمٰن الحُبُلي: «الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تفعله لله شكر، وأفضل الشكر الحَمْد»(١).

فلا يَصْدُق على العبد أنه شاكر لله بمُجَرّد حُسْنِ الثَّنَاءِ حتى يُصَدِّق ذلك منه قلبُه وعملُه.

وقال رجل لأبي حازم رَحِمَهُ اللهُ: «ما شكر العينين يا أبا حازم؟! قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ؛ قال: فما شُكْرُ الأذنين؟ قال: إن سمعتَ بهما خيرًا وعَيْته، وإن سمعتَ بهما شرًّا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله عَزَّ وَجَلَّ هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه عِلْمًا. قال: ما شكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال: فما شكر الرِّجْلَيْن؟ قال: إن رأيت حيًّا غَبَطْته استعملت بهما عَمَلَه، وإن رأيت مَيْتًا مقتَّه كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عَزَّ وَجَلَّ. فأمّا مَنْ شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمَثَلُهُ كَمَثَل رجل له كِسَاء، فأَخَذ بطَرَفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحرّ والبَرْد والثلج والمطر»(٢). و«أن الذِّكْر رأس الشكر، فما شَكَر الله تعالى من لم يذْكُره»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بِنِعْمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عُدِم منها واحدة اختَلَّ من قواعد الشكر قاعدة، وكل مَنْ تكلّم في الشكر وحَدِّه فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور»(٤). اهـ.

قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الشُّكْر: ظهور أَثَر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»(٥). اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «أصل الشكر: هو الاعتراف بإنعام المُنعم على وجْهِ الخضوع له والذلّ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٦) مختصرًا، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٠٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٢٩)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٢٤٤) واللفظ له.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦١).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٢٤٤) بتصرُّف يسير. وقد تقدم.

والمحبة، فمن لم يعرف النِّعْمة، بل كان جاهلًا بها لم يشكرها، ومَنْ عَرَفَها ولم يعرف المُنعم بها لم يشكرها أيضًا.

ومَنْ عَرَف النِّعْمة والمُنْعِم لكن جحدها... فقد كَفَرَها.

ومَنْ عَرَفَ النِّعْمة والمُنْعِم، وأقرّ بها، ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبّه، ويرض به وعنه؛ لم يشكرها أيضًا.

ومن عَرفها، وعرف المُنْعِم بها، وأقَرَّ بها، وخَضَع للمُنْعِم بها، وأحبَّه، ورَضِيَ به وعنه، واستعملها في مَحَابّه وطاعته؛ فهذا هو الشاكر لها.

فلا بد في الشكر من عِلْم القلب، وعمل يَتْبع العِلْم، وهو المَيْل إلى المُنْعِم ومحبته والخضوع له»[(١)]. اهـ.

فأصل الشكر ذكر المُنْعِم والعمل بطاعته.

ومن أهل العلم مَنْ قَسَّمَ الشكر إلى قسمين:

«الشكر اللغوي: وهو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، على النعمة من اللسان والجَنَان والأركان.

والشكر العُرْفي: هو صَرْف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خُلِقَ لأجله»[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٠٣).

(٢) ما بين الأقواس من «التعريفات» للجرجاني (ص١٣٣ ـ ١٣٤) بتصرُّف يسير.

الفرق بين الشكر والحمد

سُئِلَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن الحمد والشكر: ما حقيقتهما؟ هل هما بمعنى واحد أو معنيان؟

فأجاب: «الحمد يتضمّن المدح والثناء على المحمود بِذِكْر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلّا على إحسان المشكور إلى الشاكر.

فمن هذا الوجه الحمد أعمّ من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان...

وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخَصّ مِن الحَمْد مِنْ هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

والحمد إنَّمَا يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشّكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه»(١). اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «إذا كان الحمد لا يقع إلّا على نعمة، فقد ثبت أنه رأس الشكر(٢)، فهو أوّلُ الشكر، والحمد وإن كان على نعمته، وعلى حِكْمته، فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلٰهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلًا في الشكر. ولهذا عَظَّم القرآن أمر الشكر، ولم يعظّم أمر الحمد مجرّدًا؛ إذ كان نوعًا من الشكر، وشَرَع الحمد ـ الذي هو الشكر المَقُول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد»(٣). اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب أبو جعفر الطبري(٤) وأبو العباس المُبَرِّد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بِمَرْضِي...

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) جاء ذلك في حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (١٩٥٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨٥)، وحسَّنه السيوطي في «الجامع» (٦٥٣٦)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٣٧٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٤) وذلك في «تفسيره» (١/ ١٣٨).

واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرًا.

قال ابن عطيّة(١): وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك: شكرًا إنما خصَّصت به الحمد؛ لأنه على نعمة مِنَ النِّعَم.

وقال بعض العلماء: إن الشّكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللّسان، وبالجوارح، والقلب، والحمد إنّما يكون باللّسان خاصّة.

وقيل: الحمد أعمّ؛ لأن فيه معنى الشكر، ومعنى الحمد، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يُوضَع مَوْضِعَ الشكر، ولا يُوضَع الشكر مَوضِع الحمد. . .

قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سَبْق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أَوْلى من الإحسان، وعلى هذا الحَدّ قال علماؤنا: الحمد أعمّ من الشكر»(٢).اهـ.

فحقيقة الحمد ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ـ «الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبَّةِ له»(٣)، فلو أخبر مُخْبِر بمَحَاسن غيره من غير محبَّة له لم يكن حامدًا؛ فالحمد لا بد فيه من ذِكْرٍ باللسان، ومن محبَّةٍ وتعظيم بالجَنَان.

وبعض أهل العلم يُفَسِّرون الحمد بالثناء، وهذا غير دقيق، فالحمد إضافة المحامد وأوصاف الكمالات للمحمود، فإن أعاد ثانية فهو الثناء، فإن أعاد ثالثة فهو التَّمْجِيد، ويدلّ على هذا حديث أبي هريرة المشهور: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قَالَ الْعَبْدُ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قال: الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، قال اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قال الله: مَجَّدَنِي عَبْدِي...**» الحديث(٤).

وحَمْده تبارك وتعالى على نوعين: حَمْده على إحسانه إلينا، فهذا من الشكر، وحَمْده لما يستحقّه بنفسه من صفات الجلال، ونعوت الكمال.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «اختلفوا ـ أي: العلماء ـ أيهما أعمّ: الحمد أو الشكر؟ على قولين.

والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعمّ من الشكر من حيث ما يقعان

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٣٧ ـ ١٣٨).
(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٧).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٥٩).
(٤) رواه مسلم (٣٩٥).

عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمُتَعَدِّية، تقول: حَمِدْتُه لفروسيته، وحَمِدتُه لكرمه، وهو أخَصّ؛ لأنه لا يكون إلَّا بالقَوْلِ.

والشكر أعَمّ من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفِعْل والنية، وهو أخصّ؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المُتَعَدِّية، لا يُقَال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه...

وقال أبو نَصْر إسماعيل بن حماد الجَوْهري[1]: الحمد نقيض الذمّ... والتَّحْمِيد أبلغ من الحَمْد، والحمْد أعَمّ من الشكر.

وقال في الشكر: والشكر هو الثناء على المُحْسِن بما أوْلَاكهُ من المعروف...

وأما المدح فهو أعَمّ من الحمد؛ لأنه يكون للحيّ وللميت وللجماد أيضًا، كما يُمْدَح الطعام والمال ونحو ذلك»[2].اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الشكر أعَمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة مُتَعَلَّقاته، والحمد أعمّ من جهة المُتَعَلَّقات، وأخصّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا. ومُتَعَلَّقه النِّعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يُقَال: شكرنا الله على حياته وسَمْعِه وبَصَرِه وعِلْمِه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعَدْلِه. والشكر يكون على الإحسان والنِّعَم، فكل ما يتعلَّق به الشكر يتعلَّق به الحمد من غير عَكْس. وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عَكْس؛ فإنّ الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللّسان»[3].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «الصحاح» (١/ ١٢٨) (٢/ ٤٤٦).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٢٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٦).

المُلَازمة بين الشكر والصبر

لا بدّ أن نستحضر دائمًا القول بضرورة التلازم بين الأعمال القلبية؛ لأنها التي تمدّ القلب بمواد الإيمان فيحيا، ولولا أنَّ اللهَ يَمُنّ على قلوب عباده المؤمنين بتلك الفضائل لمرضت تلك القلوب ولَمَاتَت.

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «الشكر يتضمَّن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية.

قال بعض الأئمة[1]: الصبر يَسْتلزم الشكر، لا يتمّ إلا به، وبالعكس، فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فَمَنْ كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر، أمَّا الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية.

ومَنْ كان في بَلِيَّة ففرضه الصبر والشكر. أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحقّ الله عليه في تلك البَلِيَّةِ؛ فإنَّ لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء»[2]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يخلو العبد قطّ من أن يكون في نِعْمة أو بَلِيّة، فإن كان في نعْمَة ففرضها الشكر والصبر. أما الشّكر فهو قَيْدها وثباتها، والكفيل بمزيدها. وأمَّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تَسْلِبها، وعلى القيام بالأسباب التي تَحْفَظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المُبْتَلى. وإن كان في بَلِيَّة ففَرْضُها الصبر والشكر أيضًا. أمَّا الصَّبْر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحقِّ الله عليه في تلك البليَّة؛ فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا»[3]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٦).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣١١).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧).

المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر والرضا

أولًا: المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر[١]:

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الصبر أفضل من الشكر، واحتجّوا لهذا بأن النصوص الواردة في الصبر، والحثّ عليه، والأمر به، والثناء على أهله؛ أكثر من النصوص الواردة في الشكر، وكثرة الأدلة على الشيء تدل على أهميته وشَرَفه، مثل: الصلاة والزكاة من بين سائر العبادات؛ كذلك في مقام الثناء على أهل هذه الأعمال.

قالوا: والصبر يدخل في جميع الأبواب، وله تَعلُّق بكل مسائل الشريعة؛ ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: والله ﷻ علَّق على الشكر الزيادة فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَعَلَّق على الصبر الجزاء بغير حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وذهب فريق آخر إلى أن الشكر أفضل من الصبر.

يقول مُطَرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «لأنْ أُعَافَى فأَشْكُر أحبّ إليّ من أن أُبْتَلى فأصْبِر. نظرتُ في العافية فوجدتُّ فيها خير الدنيا والآخرة»[٢].

واستدلوا على ذلك: بأن الصبر وسيلة، والشكر غاية، والغاية أشرف من الوسيلة، وقد قَرَن الله تعالى ذِكْره ـ الذي هو المراد من الخَلْق ـ بذكره، وكلاهما هو المراد بالخَلْق والأمْر، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، كما قَرَن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أن أهل الشكر هم المخصوصون بمِنّته عليهم من بين عباده، وقَسَّم الناس إلى شكور وكَفُور، فأبْغَضُ الأشياء إليه الكُفْر وأهله، وأحَبّ الأشياء إليه الشكر وأهله، وعَلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٧٧)، و«عدة الصابرين» (ص٢٩٧) وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٤٢)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢١).

وتوسطت طائفة ثالثة، فقالت: ليس لأحدهما فضيلة إلا بالتقوى، وقد يكون صبر الغني أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل، فأفضلهما أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبرًا.

وقد تقدم هذا المبحث بشيء من الاستفاضة في الكلام على الصبر.

ثانيًا: المُفَاضَلَة بين الشكر والرضا:

قال الفيروزآبادي رحمه الله تعالى: «الشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة الرضا؛ فإنه يتضمَّن الرضا وزيادة، والرضا مندرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان»(١).اهـ.

وقال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «مَقَام الشكر أعلى من مَقَام الرضا؛ فإن الشاكر يَشْهَد البليَّة نعمة، فيشكر المُبْتلي عليها»(٢).اهـ.

وبيان ذلك: أن لله عبودية في قضاء المصائب؛ وهي الصبر عليها، وأعلى من الصبر: الرضا بها، فتراه راضيًا بقضاء الله، لا يجزع، ولا يتبَرَّم. فإذا شاهد مِن البَلِيّة آثار النعمة، وأنها مُكَفِّرة للسيئات، ورِفْعَة في الدَّرَجات، وأَحْسَن الظنّ بربِّه، وعَلِم أن البلاء لا يَزَال بالعبد حتى يَمْشِيَ على الأرض وليست عليه خطيئة، وأن الأَوَّلِينَ من الصالحين كانوا أشَدّ فَرَحًا بالبلاء مِنْ أحَدِنَا بالرَّخَاءِ؛ انتقلت المصيبة إلى ديوان النِّعْمة المُسْتَلْزِمة للشكر، فصار الشُّكر بهذا الاعتبار أرْفَع من الرِّضَا.

❁ ❁ ❁

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٣٥).

(٢) «عدة الصابرين» (ص١٢٠) بتصرُّف.

حكم الشكر

يجب على العباد تجاه الله تعالى أن يشكروه، و«وجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب، وكيف لا يجب على العباد حَمْده، وتوحيده، ومحبته، وذِكْر آلائه، وإحسانه، وتعظيمه، وتكبيره، والخضوع له، والتَّحَدّث بنعمته، والإقرار بها بجميع طُرُق الوجوب.

فالشكر أحب شيء إليه، وأعظم ثوابًا، وأَنَّهُ خلَقَ الخَلْقَ، وأنزل الكُتُبَ، وشَرَّعَ الشرائع، وذلك يَسْتَلْزم خَلْق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل، ومِنْ جُمْلَتِهَا أن فاوَتَ بَيْنَ عِبَاده في صفاتهم الظاهرة والباطنة؛ في خَلْقهم، وأخلاقهم، وأديانهم، وأرزاقهم، ومعايشهم، وآجالهم، فإذا رأى المُعَافى المُبْتلى، والغنيُّ الفقيرَ، والمؤمنُ الكافر، عَظُم شكرُه لله، وعَرَف قَدْرَ نِعْمَتِهِ عليه، وما خَصَّه به، وفضَّله به على غيره، فازْدَاد شكرًا وخضوعًا واعترافًا بالنِّعْمة»[1].

ويتبيّن وجوبه من وجه آخر، وهو أن العبد إمّا شاكر لِنِعَمِه سبحانه، وإما كافر بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال عن نبيِّه سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان: ١٢].

فَمَنْ لَمْ يشكر وقَعَ في الكفر؛ إما في الكفر الأكبر، وإما في كفران النِّعْمة، فلا يُنَجّي من الوقوع في هذا الضلال إلا الشكر، فتَعَيَّن القول بفرضِيَّته، ووجوبه على الناس.

هذا حكم الشكر من حيث الجملة، وأما على سبيل التفصيل؛ فإن منه ما هو واجب، ومنه ما هو مُستحب، وذلك أن المصائب ـ كما سبق ـ يجب فيها الصبر، وأما الشكر عليها فمُستحب كما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «شفاء العليل» (٢/ ٦١٣).

منزلة الشكر

الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أخصّ خلقه وأقربهم إليه، وأيّ مقام أرْفَع من الشكر، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان؟! حتى المحبة والرِّضا والتوكل وغيرها؛ فإن الشكر لا يَصِحّ إلا بعد حصولها، فهو «جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كان أرفعها وأعلاها. . . فجميع المقامات مُنْدَرِجة فيه، لا يستحقّ صاحبه اسمه على الإطلاق إلّا باستجماع المقامات له؛ ولهذا كان الإيمان نصفين: نِصْف صبر، ونِصْف شُكر، والصبر داخلٌ في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا، والشاكرون هم أقَلّ العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]»(١).

«وقد أمر الله به، وأثنى على أهله، ووَصَف به خَوَاصَّ خَلْقه، وجعله غاية خَلْقه وأمْره، ووَعَد أهله بأحسن جزائه، وجَعَله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنِعْمَته، وأخبر أن أهله هم المُنْتَفِعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يُوصِل الشاكرَ إلى مَشْكُوره، بل يُعِيد الشاكرَ مشكورًا، وهو غاية الربّ ـ تبارك وتعالى ـ من عبده»(٢)، «وقد أثنى الله ﷻ على خليله إبراهيم ﷺ بشُكر نِـعَـمِـه، فـقـال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]؛ فأخبر عنه سبحانه بأنه كان: ﴿أُمَّةً﴾؛ أي: قُدْوة يُؤْتَم به في الخير، وأنه كان: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، وهو المطيعُ المُقِيم على طاعته، ثم خَتَم له بهذه الصفات؛ بأنه شاكر لأنْعُمِه؛ فجَعَل الشكر غاية خَلِيلِه»(٣).

ثم إن مبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكرِ والشّكر، وقد جمَعَهُما الله بقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، «وقال النبي ﷺ لمعاذ ﷺ: **«أوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُر كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٧، ٢/ ٢٤٩).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٢).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص٢٢٢ ـ ٢٢٣).

وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١].

والذِّكر رأس الشكر، والذِّكر والشكر جِمَاع السعادة والفلاح»[٢].

«وليس المراد بالذِّكْر مجرّد ذِكْر اللسان، بل الذِّكْر القلبي واللساني، وذلك يتضمن ذِكْر أسمائه وصفاته، وذِكْر أَمْره ونهيه، وذِكْره بكلامه.

وذلك يَسْتَلْزِم معرفته، والإيمان به، وبصفات كماله، ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذِكْره الحقيقي يَسْتَلْزم ذلك كله، ويَسْتَلْزم ذِكْر نِعَمِه، وآلائه، وإحسانه إلى خَلْقه.

وأمّا الشكر فهو القيام بطاعته، والتقرّب إليه بأنواع مَحَابّه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران هما جِمَاع الدِّين؛ فذِكْره مُسْتلزم لمعرفته، وشكره مُتَضَمِّن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خُلِق لأجلها الجنّ والإنس، والسمٰوات والأرض، ووُضِع لأجلها الثواب والعقاب، وأُنزِل الكتب، وأُرسِل الرسل، وهي الحق الذي به خُلِقت السمٰوات والأرض وما بينهما، وضِدّها هو الباطل والعبث الذي يَتَعَالَى ويتقَدَّس عنه سبحانه»[٣].

والعبد لا يخلو قَطّ مِنْ أن يكون في نِعْمة أو بَلِيَّة، فإنْ كَانَ في نِعْمة ففرضها الشكر والصبر؛ فالشكر قَيْدها، والصبر لئلا يقع فيما يتسبَّب في سَلْبِهَا.

عن عون بن عبد الله قال: قال بعض الفقهاء: «إني رَوَّأْت في أمري، فلَمْ أرَ خَيْرًا لا شَرَّ مَعه إلا المعافاة والشكر؛ فرُبَّ شاكر في بلاء، ورُبَّ معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله ﷻ، فسلوهما جميعًا»[٤].

ويكفي في بيان مَنْزِلَته ومعرفة فضله أن الله تبارك وتعالى سَمَّى نَفْسه (**شاكرًا**)، و(**شكورًا**)، وسمَّى الشاكرين بهذين الاسمين، وهذا تشريف وتكريم لهم، وحَسْبك بهذا محبّة للشاكرين وفضلًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧]، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقِلَّة أهله في العالَمين تدلّ على أنهم هم خواصّه، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦١) باختصار وتصرف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٨٦) بتصرُّف يسير.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٧٥) واللفظ له.

الشكر في الكتاب والسُّنَّة

والنصوص الواردة في الشكر كثيرة جدًا، وحسبنا أن نشير إلى بعضها:

أما القرآن: فقد أمر الله بالشكر، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وأخبر عن الشاكرين بأنهم القليل من عباده، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وأخبر عن إبليس أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، فتحقق ما ظنه إبليس بذرية آدم عليه الصلاة والسلام. ووعد الله بالمزيد على الشكر، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن هذا الشكر إنما يعود نَوَاله وأجره على صاحبه، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأمَّا في السُّنَّة:

١ - فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ»**[(١)].

قال المناوي في «فيض القدير»: «(التحدث بنعمة الله شكر)؛ أي: إشاعتها من الشكر، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، والشكر ثلاثة أقسام: شكر اللّسان؛ بالتَّحَدُّث بالنعمة، وشكر الأركان؛ بالقيام بالخدمة، وشكر الجَنَان؛ بالاعتراف بأنَّ كل نِعْمَة منه تعالى.

(**وتَرْكها كفر**)؛ أي: سَتْر وتغطية لما حَقّه الإظهار والإذاعة. قال بعض العارفين: «ذِكْر النعم يُورِث الحُبّ في الله»[(٢)].

ثم هذا الخبر مَوْضِعه ما لم يترتّب على التَّحَدُّث بها ضرر كحسد، وإلا فالكِتْمان أَوْلى... وإنما يجوز مثل هذا إذا قَصَد أن يُقْتَدى به، وأَمِنَ على نَفْسه الفتنة،

---

(١) رواه أحمد وابنه عبد الله (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥)، وضَعَّفه ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٢٧)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٧) وقارن بـ«الضعيفة» (١٠/ ٤٣٤).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢١) من كلام أبي سليمان الدَّارَاني.

وإلا فالستر أفضل، ولو لم يكن فيه إلّا التشبّه بأهل السُّمْعَة والرِّيَاء لكفى. . .

(ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله)؛ أي: مَنْ كَانَ طَبْعُهُ وعادته كفران نِعْمة الناس، وتَرْك الشكر لمعروفهم؛ كان عادته كفران نِعَم الله، وتَرْك الشكر له.

أو المراد أن الله لا يقبل شُكْر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويُنْكر معروفهم لاتِّصال أحد الأمرين بالآخر»[١]. اهـ.

وكان التحدّث بنعمة الله شكرًا؛ لأنه مِنْ حُسْنِ الثَّناء على الله تعالى، والاعتراف له بالجميل، وأنه المُنْعِم على الحقيقة، بخلاف مَنْ يتحدّث بها تَكَبُّرًا وترفعًا على الناس، وينسبها إلى نفسه، وأنها من عمله وكَدِّهِ؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، فإن هذا من أعظم الكفر بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]؛ أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتَّحدّثُ بِنِعَم الله والاعترافُ بها شُكْر»[٢]. اهـ.

وعن الحسن بن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا**، قال:** «إذا أصبت خيرًا، أو عملت خيرًا فحدِّث به الثقة من إخوانك»[٣].

وعن أبي نضرة، قال: «كان المسلمون يرَوْن أنّ مِنْ شكر النِّعم أن يُحَدِّثَ بها»[٤].

٢ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»[٥].

٣ ـ عن صُهَيْب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٦].

«فالعبد ما دام قلمُ التَّكْلِيفِ جَارِيًا عليه فمناهج الخير مفتوحة بين يديه، فإنَّهُ بين نِعْمَة يجب عليه شُكْر المُنْعِم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأمْر يُنَفِّذه، ونهي يجتنبه؛ وذلك لازم له إلى الممات»[٧].

٤ ـ عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ**

---

(١) «فيض القدير» (٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٢) «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٣٥١).
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٤٤).
(٤) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩١).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) ما بين الأقواس من كلام المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٠٢).

أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»(١).

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»**(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

درجات الشكر

١ ـ **الشكر على المَحَابِّ**: وهو الاعتراف بِنِعَمِه سبحانه، والثناء عليه بها، والإحسان إلى خَلْقه منها، وهذا بلا شك يُوجِب حِفْظها على الشاكر، والمزيد منها. وحقيقة الشكر الاستعانة بها على مرضاته، وقد كَتَبَت عائشة ﵂ إلى معاوية ﵁: «إن أقلّ ما يجب للمُنْعِم على مَنْ أنْعَم عليه ألا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته»[(١)].

٢ ـ **الشكر في المَكَاره**: وهو أشَدّ وأصعب من الشكر على المَحَابّ؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة.

٣ ـ أن يَتَعَرّف على المُنْعِم بأسمائه وصفاته من وَرَاء النِّعمة، ويعلم أنه المُنْعِم حقيقة، وأنه المُسْتَحقّ للحمد على كلِّ حال.

وهذا المقام هو تمام المقامَيْنِ السابقين، وحقيقة بلوغهما[(٢)].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «الشكر الواقع على التفضيل والتخصيص أعلى وأفضل من غيره؛ ولهذا كان شكر الملائكة وخضوعهم وذُلُّهم لعظمته وجلاله بعد أن شاهدوا من إبليس ما جرى له... أعلى وأكمل مما كان قبله...

ولهذا كان شُكْر الأنبياء وأتباعهم بعد أن عاينوا هلاك أعدائهم، وانتقام الربّ منهم، وما أنزل بهم من بأسه أعلى وأكمل...

.... **فالضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَه الضِّدُّ**

.... **وَبِضِدِّهَا تُتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ**[(٣)]

ولولا خَلْق القبيح لما عُرِفَت فضيلة الجمال والحُسْن، ولولا خَلْق الظلم لما عُرِفت فضيلة النور، ولولا خَلْق أنواع البلاء لما عُرِفَ قَدْر العافية...

وَلَا رَيْبَ أنَّ أولياء الله تعالى نالوا بوجود عدوّ الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابْتُلِي بِعَدُوِّه، ثم اجتباه ربه وتاب عليه، وقَبِلَهُ»[(٤)]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٣).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٥).

(٣) «ديوان المتنبي» مع «العرف الطيب» (ص١٤٦).

(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٦١٤ ـ ٦٥١). بتصرُّف يسير.

وبالجملة، فإنَّ النِّعَم التي يختصّنا الله ﷻ بها من بين عموم الخَلْق تتطلب شكرًا خاصًا، وعبودية خاصة، وقيامًا بحقّ الله ﷻ أعظم من قيام العبد إزاء النِّعَم العامة التي تحصل لجميع الناس، ونخُصّ بالذِّكْرِ تلك النِّعَم التي يخص بها الله عباده المؤمنين، والتي تتمثل في إنجائهم من كيد أعدائهم، ونَصْرهم عليهم، ورد كيدهم في نحورهم، فتَتَعَدَّد النِّعَم، وتَتَوالى على عباد الله المؤمنين، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وشكرًا إلى شكرهم، لهم في كل مَوْقف شكر، إذا تذكّروا في حال قوّتهم حالَ ضَعْفهم من قَبْل شكروا ربّهم، وإذا شاهدوا نَصْر الله الذي نَصَرَهم به على عدوِّهم شكروا ربهم، وإذا رأوا مَصَارِع القوم شكروا الله أنْ لَمْ تكن تلك مَصَارعهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥]؛ أي: ذكّرهم بِنِعَمِه عليهم في إخراجه إيَّاهم «من أسْرِ فِرْعَون وقَهْره، وظُلْمه وغَشْمه، وإنجَائِهِ إيَّاهم من عدوهم، وفَلْقه لهم البحر، وتظليله إيَّاهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنّ والسلوى، إلى غير ذلك من النِّعَم؛ قال ذلك مجاهد[١] وقتادة[٢] وغير واحد»[٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾؛ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا من بني إسرائيل، حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المُهِين؛ لعبرة لكل صبّار - أي: في الضراء - شكور - أي: في السراء - كما قال قتادة: «نِعْمَ العبد عبدٌ؛ إذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أُعْطِيَ شكر»[٤].

وعن محمد بن سُوقَة، قال: «مررت مع عَوْن بن عبد الله بالكوفة على قصر الحَجَّاج، فقلتُ: لو رأيتَ ما نزل بنا هاهنا زمن الحَجّاج؟ فقال: مَرَرت كأنك لم تَدْع إلى ضُرٍّ مَسَّك، ارجع فاحمد الله واشكره»[٥].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والمعنى: وإن تعدّوا - أيها الناس - نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عَدَدِها، والقيام بشكرها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٢١). (٢) المصدر السابق.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٧٨).

(٤) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٥٢٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٥).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٥) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٧٧)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧).

كما قال طَلْق بن حَبِيب: «إنّ حَقّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإنّ نِعَمَ الله أكثر من أن يُحْصِيها العباد، ولكن أصبحوا توَّابين، وأمسوا توَّابين»(١).

فالذي بَدَّلَ نعمة الله كفرًا ظلوم؛ لأنه يشكر غير مَنْ أَنْعَمَ عليه، فهو بذلك مِنْ فعله واضع الشكر في غير مَوْضعه، وذلك أنَّ الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واسْتَحَقَّ عليه إخلاص العبادة له، فعَبَد غيره وجَعَل له أندادًا ليضل عن سبيله، وذلك هو ظُلْمه.

والذي بَدَّل نعمة الله كفرًا كَفَّار، جاحد نعمة الله التي أنعم بها عليه؛ لِصَرْفِهِ العِبَادَةَ إلى غَيْرِ مَنْ أنْعَم عليه، وتَرْكه طاعة وشُكْر مَنْ أنعم عليه(٢).

وقد كان من دعائه ﷺ: **«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**(٣).

فقوله: **(لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ)**؛ أي: لا أُطيقه، ولا آتي عليه، ولا أُحِيط به.

يقول مالك رحمه الله تعالى في معناها: «لا أُحصي نعمتك، وإحسانك، والثناء بها عليك؛ وإن اجتهدتُ في الثناء عليك»(٤).

«وقوله: **(أنتَ كَما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ)** اعترافٌ بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، وردٌّ للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين، فَوَكَل ذلك إلى الله ﷻ، المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا، وكما أنه لا نهاية لصفاته، لا نهاية للثناء عليه؛ لأن الثناء تابعٌ للمُثْنَى عليه، وكل ثناء أثنى به عليه، وإنْ كَثُر وطال وبُولِغَ فيه، فقَدْر الله أعظم، وسلطانه أعزّ، وصفاته أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ»(٥).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٠٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) نقله ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣٥٠).

(٥) ما بين الأقواس من كلام النووي في «شرحه على مسلم» (٤/ ٢٠٤).

الطريق إلى تحقيق الشكر

ويكون ذلك بأمور متعددة:

أولًا: تنمية المحبة الصادقة لله تبارك وتعالى:

فإنّ العبد إذا كان مُحبًّا لله، فإنه يستعظم ما يصل إليه من الله من النِّعَم، ويَعْتَرِفُ بها، فهو مسرور بذلك؛ لأن الله ﷻ قد اختاره، وأَوْلاه، وحَرَمَ آخَرين، وقد يكون ذلك أعظم في نَظَره من النّعمة نَفْسها، وقد قال الشاعر[١]:

لَئِنْ سَاءَني أنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ   لقَدْ سَرَّنِي أنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَا

يقول ذلك لمحبوبه الذي وَصلت إليه منه الإساءة، فإذا وصلت المَسَرَّات إلى العبد من ربه تبارك وتعالى؛ فهي ـ وإن دَقَّت ـ لا يراها إلا جليلة عظيمة؛ كما أنه لا يرى الذنب منه ـ وإنْ دَقَّ ـ إلا عظيمًا، ولا يأتي من الربّ تعالى إلّا الخير؛ كما قال النبي ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[٢]، فالشرّ لا يُضَاف إلى الله ﷻ، ولا يُنْسَب إليه، ولا يَصْدر منه، فإنَّ أسماءَه كلها حسنى، وصفاته كلّها كمال، وأفعاله كلّها فضل، وعدل، وحكمة، ورحمة، ومصلحة؛ فالشرّ لا يُنْسَب إليه بوجه من الوجوه، وإنما يقع الشر في مفعولاته؛ فالكل خَلْقه، ولكنَّ الشرَّ وإن كان من مخلوقات الله ﷻ إلّا أنَّه لا يُضَاف إلى الله تبارك وتعالى، على أنه من أفعاله؛ فكلّ ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر، وله فيه النّعمة والفضل[٣].

و«إنما يتأتّى الشكر لله من العبد إذا تمكّن حب الله من قلبه، وعَلِم حُسْن اختياره له، وبرّه به، ولُطْفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة، وإنْ كَرِه المصيبة، وعبوديّته في قضاء المَعَائِب المُبَادرة إلى التوبة منها، والتَّنَصُّل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار»[٤].

ثانيًا: النَّظَر في عظمة الله تعالى وصفات كماله:

فالله ﷻ هو المُسْتَحق بذاته للعبادة والتعظيم والإجلال؛ وكما قيل[٥]:

---

(١) وهو: ابن الدمينة الخثعمي، كما في «ديوانه» (ص١٧).

(٢) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي ﷺ.   (٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٥).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٦٣ ـ ١٦٤).

(٥) نسبه شيخ الإسلام لابن الجوزي في «الفتاوى» (١٦/ ٢٥٣). وهو في «المدهش» (ص٥١٥).

هَبِ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسْلُهُ　　وَجَاحِمَةَ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقِّ　　عَلَى ذِي الْوَرَى الشُّكْرُ لِلْمُنْعِمِ

فالنفوس العَلِيَّة الزَّكِيَّة تَعْبُده؛ لأنه أهلٌ لأنْ يُعْبد، ويُجلّ، ويُحَبّ، ويُعَظَّم، فهو لذاته مُسْتَحقٌّ للعبادة.

ولا ينبغي للعبد أن يكون كأجير السوء، إن أُعْطِي أجره عمل، وإن لم يُعْطَ لم يعمل.

فكيف وهو يَمْتَنّ عليه بوافر النِّعَم التي لا تحصى؟! ويتفَضَّل عليه بأنواع الفضائل التي لا تُسْتَقْصَى؟![1].

وقد قيل: «لو لم يُعذِّبِ الله ﷻ على معصيته؛ لكان ينبغي أَلَّا يُعْصَى؛ لشكر نعمته»[2].

ثالثًا: حسْن النظر في نِعْمة الله الحاضرة:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«انظرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ»**[3].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: «قال الطبري: وهذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المَرْءَ لا يكون بحال تتعلق بالدِّين؛ من عبادة ربِّه مُجْتهدًا فيها إلّا وَجَد مَنْ هو فوقه، فمتى طلبت نَفْسه اللّحاق به اسْتَقْصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تَقَرُّب من ربِّه. ولا يكون على حالٍ خَسِيْسَة من الدنيا إلّا وَجَد من أهلها مَنْ هُوَ أخسّ حالًا منه، فإذا تفكَّر في ذلك عَلِمَ أنَّ نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممّن فُضِّل عليه بذلك، من غير أمْر أوْجَبه؛ فيُلْزِم نَفْسه الشكر، فيَعْظم اغتباطه بذلك في مَعَاده»[4].اهـ.

وقال غيره: «في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يُؤَثِّر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى مَنْ هُوَ أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر»[5].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٧٥ _ ٧٦).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠٨)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٧) عن بعض الحكماء.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٩٩) بتصرُّف.

(٥) نقله ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٣٠).

ولذلك؛ فالعاقل إنما ينظر إلى مَنْ هُوَ دُونَه، أو ينظر إلى مَنْ يُشَاكِلُهُ؛ في أمر الصحبة، والزواج، والإنفاق، والمسكن، واللباس، ونحو ذلك، حتى يتعرّف بحقّ على نعمة الله ﷻ عليه، فلا يَزْدَرِيها، فيؤدّي به ازدراؤها إلى الكفر بها، ونسيان شكر المُتَفَضِّل عليه سبحانه، وإلّا فإنه إذا تطلعت عيناه إلى مَنْ هو أعلى منه نعمة تَطَلَّع قلبه، وإذا تطلع قلبه إلى نِعْمَةٍ من نِعَم الدنيا، فلم يَطَلْها سَخِط وتَبَرَّم. والشاكر راضٍ بالقليل، مُقِرٌّ بالفَضْل للمُتَفَضِّل الجواد الكريم، رابضٌ، لا يترمرم.

وما أكثر تلك المشكلات الاجتماعية، والمساوئ الأخلاقية التي تنتج عن قلة المعرفة بنعمة الله.

وكم من امرأة سَخِطَتْ معيشة زوجها، وكرهت معاشرته، وهو حَسَنُ التَّبَعّل، نبيل الأخلاق، كريم الأصل؛ للعلَّة ذاتها.

والمرء بطَبْعِه حريصٌ شَحِيح، جَمُوع مَنُوع جَزُوع، ظَلُومٌ جهول، لا يملأ جوفه إلا التراب، ولا ينقضي طَمَعُه حتى يموت.

ومَنْ تَنَزَّهَ في أعماله عن تلك النسبة، وأحسن التعرُّف على نعمة الله عليه عاش شاكرًا، ومات حميدًا.

وإنما تكون غاية الوصول بحسن الترقِّي في منازل العبودية بهذه العلوم الشرعية، وتلك المعارف القلبية، ولا يجتبيها إلّا قلبٌ سليم.

وعلى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ينبغي أن ينظر المرء إلى من هو فوقه إذا تعلق الأمر بدينه، فليس من العزم وعلو الهمة أن ينظر ـ مثلًا ـ إلى مَنْ لا يصلّي، ويقول: أنا أحسن حالًا منه؛ فيستكين، ويطمئنّ، ثم لا تدعوه نَفْسه إلى هِمّة هي أعلى من ذلك، وكلما جَالَ بخاطره شيءٌ منه سَكَن إلى ما كان إليه من قبل، فهذا ضعيف الهمّة، ناقص العزيمة، ذو خَوَر، عمّا قريب ينحدر.

ولكن الواجب أن ينظر إلى مَنْ هو فوقه؛ لتَسْمُو نَفْسه، وتعلو هِمّته، ويزداد طَمَعه في فضل الله، حتى يصير من أهل العَزْم والتَّشْمِير، ويمْتَثِل قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، فإنْ هو فعل ذلك ازداد نعمة، فازداد شكرًا.

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠].

فَمَنْ حرص على الدنيا لم يأته منها إلّا ما قَدَّره الله له.

ومَنْ حَرَص على الآخرة، وسعى لها سعيها، وهو مؤمن شكر الله له.

رابعًا الدعاء:

فإذا علم العبد أن النِّعَم كلها من الله وحده، نِعَم الطاعات، ونِعم اللّذات، رغب إليه لِيُلْهِمَهُ، ويُوزِعَهُ شكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أنَّ تلك النِّعَم منه وحده سبحانه، فذِكْرها وشكرها لا يُنال إلَّا بتوفيقه.

والعبد مفْتَقِر مضطر إلى الضراعة إلى الله ﷻ والابتهال إليه أن يدفع عنه العوارض، والأمور التي تصرفه عن القيام بحقّ الله في الشكر.

وإن الذنوب لَمِنْ خِذْلَانه، وتخلِّيه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه؛ فإذا بالعبد يَسْعَى بنعمة الله التي أنعم بها عليه سعيًا في مَسَاخِطه، وما يجلب عليه غضبه وعذابه، وإعراضًا منه، فلا يفلح بعده أبدًا.

قال الله ﷻ عن نَبِيِّه سليمان ﵇: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وعن معاذ بن جبل ﵁، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: **«يَا مُعَاذُ! واللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»**، فقال: **«أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»**[1].

وعن أبي هريرة ﵁، قال: قال النبي ﷺ: **«أَتحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»**[2].

«فجمع ﷺ بين الذِّكر والشّكر، كما جَمَع الله ﷻ بينهما في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالذِّكر والشكر جِماع السعادة والفلاح»[3].

يقول ابن القيم ﵀: «فأنفع الدعاء: طلب العَون على مرضاته سبحانه، وأفضل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٩٩)، وصحَّحه الحاكم (٢/ ٢٩٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٧٢): «رجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق، وهو ثقة»، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٧٩٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٨٤٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٦٥) بتصرُّف.

المواهب: إسْعاف العبد بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مَدَارها على هذا، وعلى دَفْع ما يُضَادّه، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: تأمّلت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العَون على مرضاته»[(١)] . اهـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيّ ﷺ يدعو: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ هُدَايَ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»[(٢)] .

وقال بكر بن عبد الله المزني ـ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مجاب الدَّعْوة ـ: «اللَّهُمَّ ارزقنا من فضلك رزقًا تَزِيدنا به لك شكرًا، وإليك فاقة وفقْرًا، وبك عَمَّنْ سِوَاك غَنَاء وتَعَفُّفًا»[(٣)] .

خامسًا: التفكّر في نِعَم الله:

وهو أمْرٌ جدير بالعناية، ومِنْ أعْظَم ما يُتَوَصَّل به إلى معرفة النِّعم.

فعن عبد الله بن أبي نوح، قال: «قال لي رجل على بعض السواحل: كم عامَلْته تعالى اسمه بما يكره، فعامَلَك بما تحب؟ قلت: ما لا أحصي ذلك كثْرَةً. قال: فهل قصدت إليه في أمْرٍ كَرَبَك فخذلك؟ قلتُ: لا والله، ولكنه أحسن إليَّ، فأعانني. قال: فهل سألته شيئًا قط فأعطاك؟ قلت: وهل منعني شيئًا سألته؟! ما سألته شيئًا قط إلا أعطاني، ولا استعنتُ به إلا أعانني. قال: أرأيتَ لو أنَّ ابن آدم فَعَل بك بعض هذه الخِلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنتُ أقدر له على مكافأة ولا جزاء. قال: فربّك أحقّ وأحرى أن بذلت نفسك له في أداء شكر نِعَمِهِ عليك، وهو المُحْسِن قديمًا وحديثًا إليك، والله لَشكره أيْسَر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رَضِي بالحَمْد من عباده شكرًا»[(٤)] .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨) بتصرُّف.

(٢) رواه أبو داود (١٥١١) واللفظ له، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحّحه الترمذي، وابن حبان (٩٤٧، ٩٤٨)، والحاكم (١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠)، والذهبي، والألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٤).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٩/ ٢١٠) واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (ص٣١٥)، ومن طريق أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٥)، والدينوري في «المجالسة» (١٦٨٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٤١)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٩٨).

فإذا لاحظ العبد ما هو فيه من نِعْمة الله، ومحْضِ جُوْده، شَهِد مع ذلك فَقْره إليه في كل لَحْظَة، وعدم استغنائه عنه طَرْفَة عين؛ فَكَانَ ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النِّعَم عليه.

«وكلَّما توالت عليه النِّعم أنشأت في قلبه سحائب السرور، وإذا انْبَسَطَتْ هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ بها أُفُقه؛ أمطرت عليه وَابِل الطَّرَب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإنْ لم يُصِبْه وابل فطَلّ، وحينئذ يجري على لسانه وظاهره نَهْر الافتخار من غير عُجْب، ولا فخر؛ بل فَرَحًا بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]»(١).

«فإذا تَدَبَّر العبد عَلِمَ أنَّ ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فَشَكر الله، فزاده الله من فضله عملًا صالحًا، ونِعَمًا يفيضها عليه.

وإذا عَلِمَ أنَّ الشَّر لا يحصل له إلا من نَفْسه بذنوبه استغفر وتاب؛ فزال عنه سبب الشر، فيكون العبد دائمًا شاكرًا مُسْتغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشرّ يَنْدَفِعُ عنه؛ كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته: «**الحمْدُ للهِ**»، فيشكر الله، ثم يقول: «**نسْتَعِينُه ونسْتَغْفِرُهُ**»، نستعينه على الطاعة، ونستغفره من المعصية، ثم يقول: «**ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا**»(٢)، فيستعيذ به من الشر الذي في النَّفْس، ومن عقوبة عمله؛ فليس الشر إلا من نَفْسه، ومن عَمَل نَفْسه، فيستعيذ الله من شر النَّفْس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا، ثم إذا عَمِل استعاذ بالله من سيئات عَمَلِه، ومن عقوبات عَمَله.

فاسْتَعَانَهُ على الطاعة وأسبابها، واسْتَعَاذَ به من المعصية وعِقَابِهَا؛ فَعَلِم العبد بأنّ ما أصابه من حسنة فَمِنَ الله، وما أصابه من سيِّئة فَمِنْ نَفْسِه»(٣).

فالحاصل أن العبد بين أمرين:

- نعمة من الله سابغة يجب عليه شكرها، ولا يتمّ له ذلك إلا بالاستعانة بربه.
- وذنبٌ فَعَله، يجب عليه لله الاستغفار منه، ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله؟! فما أفقر

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٨٦).

(٢) رواه أبو داود (١٠٩٧، ٢١١٩)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (٣٢٧٧)، وابن ماجه (١٨٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن الجارود في المنتقى (٦٧٩)، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» (٢٧٤٤)، وصحَّحه ابن حبان - كما في «الفتح» (٩/ ١٠٩)، ولم أجده في «صحيح ابن حبان» إلا عن ابن عباس - وابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٤١٥)، والألباني في تحقيق «المشكاة» (٣١٤٩) وغيرها.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٦١ - ٢٦٢).

العبد في سَرَّائه وضرَّائه، وحسنته وسيئته إلى رَبِّهِ الغفور الرحيم، الجَوَاد الكريم!

ولا يلاحظ العبد في ذلك إلا تمام فَقْره إليه، وتمام غِنَى رَبِّهِ عنه؛ فحاله حال مضطر ليس له إلّا الله.

والأصل فيما يضطرّ العبد إليه من حاجته أن يُخْلِص فيه ويُعَوِّل على المُضْطَر إليه، فإذا علم أنَّ المُضْطَر إليه هو الله رَبّ العالمين رَبّه، فما أسعد مُضْطَر إلى خَيْرِ مُضطرٌ إليه.

عَطِيَّتُهُ إِذَا أَعْطَى سُرُورُ ... وَإِنْ أَخَذَ الَّذِي أَعْطَى أَثَابَا
فَأَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَعَمُّ نَفْعًا ... وَأَحْسَنُ فِي عَوَاقِبِهَا إِيَابَا
أَنِعْمَتُهُ الَّتِي أَهْدَتْ سُرُورًا ... أَم الْأُخْرَى الَّتِي أَهْدَتْ ثَوَابَا؟
بَلِ الْأُخْرَى وَإِنْ نَزَلَتْ بِحُزْنٍ ... أَحَقُّ بِشُكْرِ مَنْ صَبَرَ احْتِسَابَا[١]

يقول: ليست نعمة حلّت فَأَهْدَت سرورًا بأَوْلَى بالشكر من نعمة نزلت فَأَهْدَت ثوابًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَه الله تعالى: «لو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية، لَشَغَلَ قَلْبَهُ بشكره ولسانه بقوله: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[٢]، وكيف لا يشكر مَنْ قَيَّضَ له ما يستخرج خُبْثه، ونجاسته، وصَيَّرَهُ تِبْرًا خالصًا، يصلح لمُجَاوَرَته، والنظر إليه في داره؟!»[٣]. اهـ.

وقال أبو حازم رَحِمَهُ الله: «نعمة الله فيما زَوَى عني من الدنيا أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا»[٤].

وَكَمْ حَاوَلْتَ مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ... مُنِعْتَ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَخِيرَهْ
وَكَمْ مِنْ مَدْخَلٍ لَوْ مِتَّ فِيهِ ... لَكُنْتَ بِهِ نَكَالًا فِي الْعَشِيرَهْ
وُقِيتَ السُّوءَ وَالْمَكْرُوهَ فِيهِ ... وَرُحْتَ بِنِعْمَةٍ فِيهِ سَتِيرَهْ
وَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ تُمْسِي ... وَتُصْبِحُ لَيْسَ تَعْرِفُهَا كَبِيرَهْ[٥]

فلو عرف العبد حقّ المعرفة نعمة الله عليه في السرَّاء والضرَّاء، والعافية والبلاء، والعناء والرخاء؛ لَمَا كان له شغلٌ غير الحَمْد والشكر.

ولعلَّك تجد في عموم المسلمين وأغمارهم مَنْ له دراية بحق هذا المقام الشريف مِنْ

(١) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٣٤)، وانظر: «العقد الفريد» (٣/ ٢٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «طريق الهجرتين» (١/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٣).

(٥) «كتاب التوبة» لابن أبي الدنيا (١٢٤).

مقامات العبودية هي أصدق دلالةً وأسمى مقامًا من كثير ممَّن يُنْسب إلى العلم والمعرفة.

قال الله تعالى مُعَدِّدًا نِعَمه على عباده: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أعطاكم من كلّ ما تعلقت به أمانيكم وحاجاتكم، مما تسألونه إيَّاه بلسان الحال أو بلسان المقال، من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾، فضلًا عن قيامهم بشكرها.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إنه ظلوم كفَّار؛ فهو ظالمٌ مُتَجَرِّئ على المعاصي، مُقَصِّر في حقوق ربِّهِ، كفَّار لنِعَم الله، لا يشكرها، ولا يعترف بها إلّا مَنْ هَدَاه الله فشكر نِعَمَه، وعَرَف حَقَّ ربّه»[1]. اهـ.

وقال طَلْق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ حَقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نِعَمَ الله أكثر من أن يُحْصِيها العباد، ولكن أَصْبِحُوا تَوَّابِين وأَمْسُوا تَوَّابِين»[2].

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَانَ شُكْرِي إِذْ أَشَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَجْمَل فِي الْإِحْسَانِ وَالمِنَنِ[3]

و«مَنْ لَمْ ير نعمة الله عليه إلَّا في مَأكله، ومَلْبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس؛ فليس له نصيبٌ من هذا النور الذي يُوجِب اليقظة، فيَسْتَنِير القلب به.

فنِعْمة الله بالإسلام والإيمان، وجَذْب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعّم بذكره، والتلذّذ بطاعته؛ هو أعظم النِّعَم»[4].

وإذا تَأَمَّل المرء نَفَسَه الذي يُلْهِمه في كل لحظة، وعَلِم أنه يتنفّس في اليوم ما يقرب من ثلاثٍ وعشرين ألف مرة، وأيقن أنَّ ذلك بقُدْرَة الله ونعمته السابغة على عبده؛ عَلِمَ أن نعمة الله لا تُحْصَى.

يقول أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يعرف نِعْمَة الله عليه إلَّا في مَطْعَمه ومَشْرَبه؛ فقَدْ قَلَّ عِلْمه، وحضر عذابه»[5].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٥١) بتصرُّف. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تاريخ بغداد» (١/ ٣٥٠).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٤٤) بتصرُّف.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٥١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٢) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٠) (٥/ ١٧٣).

وقال **وَهْب بن مُنَبِّه**: «رؤوس النِّعَم ثَلَاث: **فأوَّلها**: نعمة الإسلام التي لا تتمّ نِعْمة إلا بها، **والثانية**: نِعْمة العافِيَة التي لا تطيب الحياة إلَّا بها، **والثالثة**: نِعْمة الغِنَى التي لا يتم العيش إلا بها»(١).

وقال **بكر بن عبد الله المُزَنِي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا ابن آدم! إذا أردت أن تعلم قَدْرَ ما أنعم الله عليك؛ فغمِّضْ عينيك»(٢).

فإنَّ مَنْ سُلِبَ النِّعْمَة يعرفها حقَّ المعرفة، ويقدِّرها حق قَدْرها. أمَّا الإنسان من حيث هو فظلوم كفَّار، لا يعرف النعمة إلا مِنْ جِهَةِ تحصيل اللذة؛ ولذلك فإنه إذا حُرِمَ اللَّذَّةَ بفقدان النِّعْمَة عرف قَدْر النعمة.

ومن فَتَح الله بصيرته، وأدرك قدر مَوْفُور النِّعَم؛ عَلِمَ أنَّ نِعَم الله سابغة لا تُنْسَى، ومِنَنه متكاثرة لا تُحْصَى، وأيقن أن تمام النِّعْمَة عند قول أهل الجنَّة، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

قال **الحسن بن عليّ البزار**: «سمعت أبا بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وسأله رجل فقال: ما تمام النِّعْمة؟ قال: أن تضع رِجْلًا على الصِّراط ورِجْلًا في الجنَّة»(٣).

وصَعَد عبد الله بن محمد الشَّرْعبي على المِنْبَر، ونظر إلى الناس، وقد تجَمَّلوا، ولبسوا الثياب الحسنة، فقال: «يا حُسْنَاه! ويا جمالاه بعد العَدَم... أصبحتم زُهْرًا، وأصبح الناس غُبْرًا، وأصبح الناس يَنْسِجُون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يُعْطُون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس يَنْتِجُون(٤) وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون»؛ فبكى، وأبكاهم(٥).

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨]، قال الزبير:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٧٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٥١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨١).

(٤) يُقَال: نَتج الناقة، يَنْتِجُها نَتْجا، إذا وَلِيَ نَتَاجَها، فهو نَاتِج. وهو للبهائم كالقَابِلة للنساء. انظر: «تاج العروس» (٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، مادة: (نتج).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٧).

يا رسول الله! فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أَمَا إِنَّه سَيَكُون»[١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]، قال: «عن كل شيء مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا»[٢].

وكتب بعض الحُكَمَاء إلى أخ له يقول: «أَمَّا بَعْد، يا أخي! فقد أصبح بنا مِنْ نِعَم الله ما لا نُحْصِيه، مع كثرة ما نَعْصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أَجَميلُ ما ظَهَر، أم قبيح ما سَتَر؟»[٣].

وقال بكر بن عبد الله المزني: «كان أبو تميمة إذا قالوا: كيف أنتم؟ قال: بين نعمتين: بين ذَنْب مَسْتُور، ولا يعلم به أحد، وثناء مِنْ هَؤلاء الناس، لا والله ما بلغته، ولا أنا كذلك»[٤].

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: «أما الظاهرة فالإسلام. وأما الباطنة فَسَتْره عليكم المعاصي»[٥].

والمعنى أوسع من هذا وأعمّ، وهذا الذي ذَكَره مما يدخل فيه، فالنِّعَم الظاهرة: هي تلك النِّعَم المُشَاهَدة المُتَكَاثِرة؛ من المراكب، والملابس، والمساكن، وما أشبه ذلك. والنِّعَم الباطنة؛ وهي تلك التي لا يَتَفَطَّنُ إليها كثير من الناس، من ألوان فُيُوض الله ﷻ عليهم.

ولو تأَمَّلَ العبد ظاهر النِّعَم التي تتوالى عليه كُلَّ حِين، وتفطَّن إلى بعض خفيِّهَا مما لا يُحْصَى؛ لَعَلِمَ أنه لا يمكن أن يُؤَدَّى شُكْر ذلك كلّه، بل لا يمكن أن يُؤَدَّى شكر بعضه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٣].

وعن رَوْح بن القاسم «أن رجلًا مِنْ أَهْلِهِ تَنَسَّكَ، فقال: لا آكل الخَبِيص ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٥٧)، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «الصحيحة» (١/ ٦٦٥)، وفي الباب عن أبي هريرة ومحمود بن الربيع ﵄.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨١).

(٣) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٩٧) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٨٤).

الفَالُوذَج[١]، لا أقوم بشكره.

قال: فلقيتُ الحسن، فقلتُ له في ذلك، فقال الحسن: هذا إنسان أحمق، هل يقوم بشكر الماء البارد؟!»[٢].

ويدل لقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ـ يعني: العبد ـ **من النَّعِيمِ، أن يُقَالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟!**»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[٤].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**» كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية»[٥]. اهـ.

ففي هذا الحديث «تنبيهٌ للأُمَّة على عظيم نعمة الله على عِبَادِه في الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مَكْفِيًّا مؤُنة العيش في الدنيا، فَمَنْ أَنْعَم الله عليه بهما فليحذر أن يُغْبَنهما.

وممَّا يُسْتَعَانُ به على دَفْع الغَبْن: أَنْ يَعْلَمَ العبد أن الله تعالى خَلَق الخَلْق من غير ضرورة إليهم، وبَدَأهم بالنِّعَم الجليلة من غير اسْتِحْقاق منهم لها؛ فَمَنَّ عليهم بصحّة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمَّن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يُضَاعِفْ عليهم السيئات، وأَمَرَهُم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به مِنَ النِّعَم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأَحْرفٍ يسيرة»[٦].

وكيف يبلغ العبد شكر نعمة رَبِّهِ، وتوفيقه إلى الحَمْد والشكر نِعْمَةٌ؟! إنه لا يزال في نِعْمَة لا يبلغ شُكْرها أبدًا؛ ولذلك قال النبي ﷺ في ثنائه على ربه عَزَّ وَجَلَّ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً**

---

(١) **الخبيص والفالُوذَج**: نوعان من الحلواء. انظر: «مختار الصحاح» (ص٨٧)، مادة: (خبص)، و«تاج العروس» (٩/ ٤٥٤)، مادة: (فلذ).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٢) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٥٨) وضعفه، وصحّحه ابن حبان (٧٣٦٤)، والحاكم (٤/ ١٣٨)، والذهبي، والصدر المناوي في «تخريج المصابيح» (٤١٧٥)، والألباني في «الصحيحة» (٥٣٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٤).

(٦) ما بين الأقواس من «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه: لا أُحْصِي نِعْمَتَكَ وإحسانك، والثناء بها عليك، وإن اجتهدتُ في الثناء عليك»[٢].

قال محمود الوَرَّاق[٣]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ وَفِي أَمْثَالِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَإِن مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ليس للعبد من نَفْسه مثقال ذرَّة من الخير... وهو سبحانه وحده هو المُنْعِم من جميع الوجوه على الحقيقة، بالنِّعَم وأسبابها، فأسبابها من نِعَمِه على العبد، وإنْ حَصَلَتْ بِكَسْبه فَكَسْبه مِنْ نِعَمِهِ؛ فكلّ نِعْمَة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نِعْمَة، وهي منه سبحانه؛ فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه؛ كما قال داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «يا رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من نِعَمِك عليَّ تَسْتَوجِب شكرًا آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود». ذكره الإمام أحمد[٤]»[٥]. اهـ.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْدَدْ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ ... لِمُولِيكَهَا شُكْرًا فَلَسْتَ بِشَاكِرِ[٦]

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «على كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم للتوفيق للشكر عليها نِعْمة أخرى تحتاج إلى شكْرٍ ثَانٍ، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا؛ فلا يَقْدر العبد على القيام بشكر النِّعَم. وحقيقة الشكر الاعتراف بالعَجْز عن الشكر»[٧]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٣)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٠٩٩).
(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٦٩ ـ ٧٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٠٠).
(٥) «شفاء العليل» (١/ ١٥٧).
(٦) نسبه ابن عبد البر في «بهجة المجالس» (١/ ٣١٧) لأبي العتاهية.
(٧) المصدر السابق.

ثمرات الشكر

إن «إنعام الربّ تعالى على عَبْده إحسان إليه، وتَفَضُّلٌ عليه، ومجرَّد امتنان؛ لا لحاجة منه إليه، ولا لِمُعَاوَضَة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثّر به مِنْ قِلَّة، ولا ليتعزّز بِهِ مِنْ ذِلّة، ولا ليقوى به من ضَعْف سبحانه وبحَمْده.

وأَمْره له بالشكر أيضًا إنعام آخَر عليه، وإحسانٌ منه إليه؛ إذ منفَعَة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]. . .

ومن تمام نِعْمَته سبحانه، وعظيم برِّهِ وكرَمِهِ وجودِهِ محبَّته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصَّة بالعبد، لا تعود منفعته على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه؛ يُنْعِم عليك، ثم يُوزِعُك شُكْر النِّعْمة، ويَرْضى عنك، ثم يُعِيدُ إليك مَنْفَعة شُكْرك، ويجعله سببًا لتوالِي نِعَمِه، واتِّصالِها إليك، والزيادة على ذلك منها»(١).

قال الأبرش(٢):

الشُّكْرُ يَفْتَحُ أَبْوَابًا مُغَلَّقَةً ... لِلَّهِ فِيهَا عَلَى مَنْ رَامَهُ نِعَمُ
فَبَادِرِ الشُّكْرَ وَاسْتَغْلِقْ وَثَائِقَهُ ... وَاسْتَدْفِعِ اللَّهَ مَا تَجْرِي بِهِ النِّقَمُ

والله ﷻ غنيٌّ حميد، والعباد فقراء إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]؛ فخير النِّعْمة عائد إليه، وإن شَكَر عاد خير شكرها عليه، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فالنفع راجعٌ إليكم في الدنيا والآخرة، ولا يزال العبد يزداد بالإنفاق في سبيل الله غِنًى وبركة، ولا يزال يزداد بالشكر نعمةً وفضلًا، حتى يلقى الله وهو راضٍ عنه، فيجازيه الجزاء الأوْفَى.

وبعد هذا الإجمال نذكر جملة من ثمرات الشكر، **فمن ذلك:**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).
(٢) المصدر السابق (ص٢٦٥).

أولًا: المحبة لله تعالى:

قال أبو سليمان الواسطي: «ذِكْر النعمة يُورِث الحُبّ لله»[1]؛ وذلك أنَّ القلوب مجبولة على حُبِّ مَنْ أحسن إليها، وبُغْضِ من أساء إليها.

وكيف لا يحب المؤمن ربه وخالقه ورازقه وهاديه، وما انفكّ مِنْ تَوَاتُرِ نعمته قط، ولا ينفكّ أبدًا؟!

ثانيًا: القرب من الله تعالى:

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلّ نعمة لا تُقَرِّب من الله فهي بَلِيَّة»[2].

ولا يمكن أن تُقَرِّب النعمة من الله إلَّا بالشكر عليها.

ثالثًا: تحقيق النجاة:

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرجو ألَّا يَهْلَكَ عَبْد بين نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»[3].

وقال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تضرّكم دنيا إذا شكرتموها»[4].

رابعًا: قوة الإيمان والانتفاع بآيات الله:

فـ«الصبر والشكر سببان لانتفاع صاحبهما بالآيات... فعلى حَسَب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما يَنْتَفِعُ بها مَنْ آمَن بالله، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر»[5].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

فالصابر الشاكر هو المنتفع بآيات الله.

خامسًا: دوام النِّعْمَة:

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَيِّدوا النعم بالشكر»[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٠)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٦٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١٩) واللفظ له.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٩) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٨٦).

(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٩١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤٠).

وقال الفضيل بن عياض: «عليكم بمُلَازَمة الشكر على النِّعم، فقَلَّ نعمة زالت عن القوم، فعادت إليهم»[١].

وقال بعض السلف: «النعم وحْشِيَّة، فقيِّدوها بالشكر»[٢].

وقال سليم بن عامر: سمعت عبد الله بن قُرْط الأَزْدِي ـ وكان من أصحاب رسول ﷺ ـ على المِنْبَر يقول، في يوم أضحى، ورأى على الناس أنواع الثياب: «يا لها من نعمة ما أَسْبَغها! ويا لها من كرامة ما أظهرها! إنه ما زال عن جادَّة قوم شيء أشد عليهم من نعمة لا يستطيعون رَدَّها، وإنما تثبت النعم بشكر المُنْعَم عليه للمُنْعِم»[٣].

وقالت هند بنت المُهَلَّب: «إذا رأيتم النِّعَم مُسْتَدِرَّة، فبادروها بتعجيل الشكر قبل حُلُول الزوال»[٤].

وقال جعفر بن محمد لجليس له يومًا: «اشكر المُنْعِم عليك، وأَنْعِم على الشاكر لك، فإنه لا نفاد للنِّعَم إذا شُكِرَتْ، ولا بقاء لها إذا كُفِرَتْ. والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِيَر»[٥].

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ الله لَيُمَتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشْكر قَلَبَهَا عليهم عذابًا»[٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الرزق إنما يَتِمّ ويَكْمُل بالشكر، والشكر مادة زيادته، وسبب حفظه وبقائه، وتَرْك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن الله تعالى تَأَذَّن أنه لا بدَّ أن يزيد الشكور من نِعَمِهِ، ولا بد أن يَسْلُبها مَنْ لَمْ يَشْكُرها»[٧].اهـ.

سادسًا: مع الشكر المزيد:

«وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مِفْتاحًا يُفْتَح به؛ فجعل مِفْتاح الصلاة الطهور... ومِفْتاح الحجّ الإحرام، ومِفْتاح البِرّ الصِّدْق، ومِفْتاح الجنّة التوحيد، ومِفْتاح العِلْم حُسْن السؤال، وحُسْن الإصغاء، ومِفْتاح النصر والظَّفَر الصبر، ومِفْتاح المزيد الشكر»[٨].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٧). (٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٨)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٣) واللفظ له.
(٤) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٠/ ١٩٢).
(٥) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٤).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٧). (٧) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٣٤٧).
(٨) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «حادي الأرواح» (١/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

«وقد قيل: «مَنْ قَصُرت يداه عن المكافآت، فلْيَطُل لسانه بالشكر». والشكر معه المزيد أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتى لم تَرَ حالك في مزيد فاستقبل الشكر»[١].

وقال علي رضي الله عنه لرجل من همدان: «إن النعمة مُوَصَّلَة بالشكر، والشكر مُعَلَّق بالمزيد، وهما مقرونان في قَرْن، فلن ينقطع المَزِيْد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٢].

وبالجملة، فلا بدَّ في النِّعْمة مِنْ شكرها؛ لحِفْظِها ودوامها، ولا بُدَّ مِنْ شُكْرِها لطلب المزيد.

والمُتَأمِّل في أحداث التاريخ يستطيع أن يعرف كيف تزول النِّعم بكفرانها، وكيف تتحوّل عن أهلها، ويُبَدِّل الله القوم من بعد رَغَدِهم ضَنكًا، ومِنْ بعد أمْنهم خوفًا.

وهَذِه سُنَّة كونية شرعية، لا تتبدل، ولا تتغيّر، إلا ما شاء الله؛ مما يُحْدِثه في خَلْقه بحِكْمته وعِلْمه.

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

وهذه «اعتماد الرُّمَيْكِيَّة، شاعرة أندلسية، كانت جارية لِرُمَيْك بن حَجاج، فنُسِبَت إليه، وآلت إلى المُعْتَمِد بن عبَّاد، فتزوَّجها، وكانت معه في أرْغَد عَيْش وأحسن حال.

اطَّلعت يومًا، فرأت بعض نساء البادية بإشْبِيلِيَة يَبِعْنَ اللَّبَن في القِرَب، وهنّ ماشيات في الطين، فاشتهت أن تفعل فِعْلَهنّ، فأمر المُعْتَمِد بالعَنْبَر والمِسْك والكافور وماء الورد، وصَيَّرها جميعًا طِيْنًا في قَصْره، وجَعَل لها قِرَبًا وحبالًا من إبْرِيْسَم[٣]، فخاضت هي وبناتها وجواريها في ذلك الطين.

وأغار يوسف بن تَاشِفِيْن على إشْبِيْلِية، فأسر المُعْتَمِد والرُّمَيْكِيَّة، وأرسلهما إلى أغْمَات من مَرَاكِش مُعْتَقَلَين، بعد أن قتل ولديهما، ثم ما لبثت الرُّمَيْكِيَّة أن ماتت في أغْمَات، ثم بعدها بأيام مات المُعْتَمِد»[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢١٤).
(٣) **الأبريسم**: الحرير الخام. «تاج العروس» (٣١/ ١٨١)، مادة: (أبْرِيسَم).
(٤) «الأعلام» للزركلي(١/ ٣٣٤) بتصرُّف.

وهكذا فإنه لا يَجِد مَنْ كَفَر بنعمة رَبِّه إلا الوَهَن في العبادة، والضِّيْق في المَعِيشة، والتَّنْغِيص في اللَّذَّة؛ فلا يكاد يُصَادِف لذَّة حلال إلّا جاءه مَنْ يُنَغِّصها عليه؛ وقد جعل الله لنا في أخبار الماضين عِبرة لمُعْتَبِر.

ثم إن الشكر من كَمَال الإيمان، وحُسْنِ الإسلام، وهو نِصْف الإيمان، ونِصْفه الآخر الصبر.

وفيه دليل على سُمُوِّ النَّفْس، ووفُور العقل.

والشَّكُور قرير العين بحبِّ الخير للآخرين، لا يحسد الناس، ولا يحمل في قلبه تجاه أحد غِلًّا ولا حِقدًا.

وهو لِمَا يرى من فضيلة الشكر، ولما في قلبه من السَّلامة وحبّ الخير للآخرين يتمنّى أن لو كان الناس كلّهم شاكرين.

والشكور مُغْتَبط بِمُلَاحظة أَثَر النعمة، وحُسْن الظنّ بربِّه؛ يرجو أن يكون من أولئك الأَقَلِّين الشاكرين.

وهو يعلم أن نِعَم المُنْعِم مُتَكاثِرة مُتَوافِدة تَتْرى، لا يمكن عَدّها وإحصاؤها، ولا سبيل إلى القيام بحقِّهَا إلا بالشكر عليها، واستعمالها في طاعة الله، وصَوْنها وإكرامها عن الوُلُوج بها في معصية المُمْتَنّ الجواد الكريم.

❁ ❁ ❁

أسباب الغفلة عن النِّعَم

قال في الإحياء: «اعلم أنه لم يَقْصُر بالخَلْق عن شُكْر النِّعْمة إلا الجهل والغفلة؛ فإنهم مُنِعُوا بالجهل والغفلة عن معرفة النِّعَم، ولا يُتَصَوَّر شُكْر النِّعْمَة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نِعْمَة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر: أن يَسْتَعْمِل النِّعْمة في إتمام الحكمة التي أُرِيدَت بها؛ وهي طاعة الله ﷻ. . .

أما الغفلة عن النِّعَم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس بِجَهْلِهم لا يَعُدُّون ما يَعُمّ الخَلْق ويَسْلَم لهم في جميع أحوالهم نِعْمَة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النِّعَم؛ لأنها عامة للخَلْق، مَبْذُولَة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنَفْسه منهم اختصاصًا به، فلا يَعُدّه نِعْمَة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أُخِذ بمُخْتَنَقِهم لَحْظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبِسُوا في بيتِ حَمَّام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثَقُل برطوبة الماء؛ ماتوا غَمًّا.

فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قَدَّر ذلك نِعْمة، وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل؛ إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تُسْلَب عنهم النِّعْمَة، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنِّعْمة في جميع الأحوال أولى بأن تُشْكَر في بعضها، فلا ترى البصير يَشْكر صِحَّة بَصَرِه إلا أن تعمى عيناه، فعند ذلك لو أُعِيد عليه بصره أَحَسّ به، وشَكَره، وَعَدَّه نِعْمَة. . .

إذًا؛ كل من اعتبر حال نَفْسه، وفَتَّش عما خُصَّ به؛ وَجَد لله تعالى نِعَمًا كثيرة، لا سيما من خُصَّ بالسنة والإيمان والعلم والقرآن، ثم الفراغ والصحة والأمن، وغير ذلك»[1]. اهـ.

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فاستسقى الرشيد، فأُتي بقُلَّة فيها ماء مُبَرَّد، فقال لابن السَّمَّاك: عِظْنِي. فقال: يا أمير المؤمنين! بِكَم كنت مُشْتَرِيًا هذه الشَّرْبَة لو مُنِعتها؟ فقال: بِنِصْف مُلْكي. فقال: اشرب هنيئًا. فلما شرب قال: أرأيت لو مُنِعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بِنِصْف مُلْكي الآخر. فقال: إن

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٣ ـ ١٢٥) بتصرُّف يسير.

مُلكًا قيمة نِصْفه شربة ماء، وقيمة نِصْفه الآخر بولة لخَلِيق ألا يُتَنَافس فيه. فبكى هارون(١).

وُولِدَ لِبَعْضِ أمراء الكوفة بنت، فساءه ذلك، وامتنع عن الطعام، فدخل عليه بهلول، فقال: ما هذا الحزن؟ أجزعت بخَلْق سَوِي وَهَبَه ربّ العالمين؟! أيسرّك أن مكانها أبناء مثلي؟ فَسُرِّي عنه(٢).

والعاقل يُدْرِك حقيقة النعمة في العطيَّة والبَلِيَّة والوقاية، ومَنِ الْتَمَسَها في العطيَّة فَحَسْب فاته تَعْدادٌ كَثِير.

وعزَّى موسى المهديُّ إبراهيمَ بن سَلْم على ابنٍ له مات، فجزع عليه جَزَعًا شديدًا، فقال له: «أيَسُرُّك وهو بَلِيَّة وفتنة، ويُحْزِنك وهو صلوات ورحمة؟!»(٣).

وقال عليُّ بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنا أهل بيت نُطِيع الله فيما نُحِبّ، ونحمده على ما نَكْرَه»(٤).

وقال سعيد بن جبير: «ما أُعْطِيَ أحد ما أعْطِيَت هذه الأمة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]»(٥).

وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿...وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦]، فجعلها بشارة لهم، وهذا مما يَفْتَح أبواب الشكر.

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ ... وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمْ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى ... تَشْكُو المُصِيبَاتِ وَتَنْسَى النِّعَمْ(٦)

وقال في الإحياء: «ما من عبد إلا ولو أمْعَن النَّظَر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرة تَخُصّه، لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يَعْتَرِف به كل عبد في **ثلاثة أمور**: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عَقْلِه، يعتقد أنه أَعْقَل الناس، وقَلَّ مَن يسأل الله العقل... فواجب عليه أن يشكره الله.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ذكره ابن الجوزي في «الأذكياء» (ص٢٦٣).
(٣) «العقد الفريد» (٣/ ٣٠٧)، ونحوه في «عيون الأخبار» (٣/ ٥٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٥).
(٦) «كتاب الشكر» (٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣١٠).

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يَذُمّها، وإنما يَذُمّها من حيث يرى نَفْسه بريئًا عنها، فإذا لم يشتغل بِذَمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى؛ إذ حَسَّن خُلُقه، وابتلى غيره بالخُلُق السَّيِّئ.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بَوَاطِن أمور نَفْسه، وخفايا أفكاره، وما هو مُنْفَرِد به، ولو كُشِف الغطاء حتى اطَّلَع عليه أحد من الخَلْق لافْتَضَح، فكيف لو اطَّلَع الناس كافة. فَلِمَ لا يشكر سَتْر الله الجميل الذي أرسله على وَجْه مَسَاوِيه؟! فأظْهَر الجميل، وسَتَر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخَصَّص عِلْمه به حتى لا يَطَّلِع عليه أحد»[١]. اهـ.

ولو تأمل الغَنِيّ حال الفقير، والمُعَافَى حال المُبْتَلَى، والقويّ حال الضعيف، والسليم حال السَّقِيم، والآمن حال الخائف، وتأمّل المنقُوص حال مَنْ هو أنقص منه؛ لأدرك كلّ مُتَأمِّل حقيقة نعمة الله، ومَوْفُور فضله عليه.

وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَل مِنْهُ**»[٢].

ولو مَرَّ الواحد مِنَّا بأهل القبور، وتأمَّل حالهم، وما هم فيه، وكيف أنَّهم بين مُعَذَّب ومرحوم، وكيف أن الواحد منهم يَوَدّ أن لو شُقَّ عنه قبره ليرجع إلى الدنيا، فيسجد لله سجدة، أو يسبِّح تسبيحة، تُزَاد له في عمله.

ثم تأمّل حاله وهو مفسوحٌ له، مُوَسَّعٌ عليه، له بقيَّة من عمره يمكن أن يغتنمها؛ لَعَلِمَ عظيم فضل الله عليه، وجليل نِعَمه الوافدة إليه.

قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَّلْتُ نفسي في النار، أعالج أغلالها وسعيرها، وآكُل من زَقّومِهَا، وأشْرَبُ من زمهريرها؛ فقلت: يا نَفْس! أيّ شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا أعمل عملًا أنجو به من هذا العذاب.

ومثَّلت نفسي في الجنة مع حُورها، وألْبَس من سُنْدسها وإِسْتَبْرقها وحريرها، فقلتُ: يا نفس! أيّ شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عَمَلًا ازداد من هذا الثواب.

فقلت: أنت في الدنيا وفي الأُمْنِية»[٣].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٤).

(٢) تقدم تخريجه، والتعليق عليه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١١).

ومَنْ تَرَبَّى في العافية لا يعلم ما يُقَاسِيه المبْتَلَى، ولا يعرف مقدار النعمة إلّا أن يتَّعِظَ به.

وقال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «لو عَرَفَ أهل طاعة الله أنهم هم المُنْعَم عليهم في الحقيقة، وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم، وإن توسَّدُوا التراب، ومضَغُوا الحصى؛ فهم أهل النعمة المطلقة. وأن من خلَّى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه، وأنَّ ذلك ليس من كرامته على رَبِّه، وإن وَسَّعَ الله عليه في الدنيا، ومدّ له من أسبابها؛ فإنَّهم أهل الابتلاء على الحقيقة.

فإذا طالبَت العبد نَفْسُه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام، وأرَتْهُ أنه في بلية وضائقة، تداركه الله برحمته، وابتلاه ببعض الذنوب، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لِمَا كان فيه من النِّعَم إلى ما طلبته نَفْسه من الحظوظ، فحينئذٍ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله، وأن يُمَتِّعه الله بعافيته»[1].اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٨١).

من مظاهر الشكر وصوره

أولًا: الحمد:

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ: الحَمْدُ للهِ»(١).

وعَنْ أبي ذر ﷺ، أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أيّ الكلام أفضل؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(٢).

وعن سمرة بن جندب ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»(٣).

وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ في مَسِير له، فنَزَل، ونَزَل رجل إلى جانبه، فالتفت النبيّ ﷺ فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ القُرْآنِ؟»، قال: فتَلَا عَلَيْهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾(٤).

وعن جابر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَهُ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(٥).

وعن بكر بن عبد الله المزني قال: لقيت أخًا لي من إخواني الضعفاء، فقلت: يا أخي! أَوْصني، فقال: ما أدري ما أقول، غير أنه ينبغي لهذا العبد أَلَّا يفتر عن الحَمْد والاستغفار، وابن آدم بين نعمةٍ وذنب، ولا تصلح النعمة إلّا بالحَمْد والشكر، ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وصحَّحه ابن حبان (٨٤٦)، والحاكم (١/ ٤٩٨، ٥٠٣)، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (٥/ ٤٩)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧).

(٤) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٢٣)، وابن حبان (٧٧٤)، والحاكم (١/ ٥٦٠)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٤٩٩)، واحتج به شيخ الإسلام في رسالة: «جواب أهل العلم والإيمان» (ص٦٤).

(٥) رواه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤)، عن جابر ﷺ، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٣٤١٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦١٧).

الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، قال: فأوْسِعْنِي عِلْمًا ما شئت»(١).

ثانيًا: سجود الشكر:

وهو سجود مخصوص لحصول نعمة.

ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه المشهور في توبته حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة العُسْرة، قال: «فبينا أنا جَالِس على الحال التي ذَكَر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت؛ سمعتُ صوت صارخ أوْفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فَخَرَرْتُ ساجدًا، وعرفت أنْ قَدْ جاء فَرَج»(٢).

ولما بُشِّرَ عليّ رضي الله عنه بوجود المُخدَّج ذي الثُّدَيَّة بين قتلى النهروان، خَرَّ ساجدًا(٣).

وعن عليّ بن زيد بن جُدْعان قال: «كنَّا عند الحسن البصري وهو متوارٍ في منزل أبي خَلِيفة العبدي، فجاء رجل فقال: يا أبا سعيد! توفي الحَجَّاج؛ فَخَرَّ ساجِدًا»(٤).

ثالثًا: التحدث بها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»**(٥).

وأنشد مُحْرِز بن الفضل(٦):

عَلامَةُ شُكْرِ المَرْءِ إعْلَانُ شُكْرِهِ ... وَمَنْ شُكِرَ المَعْرُوفُ مِنْهُ فَمَا كَفَرْ

رابعًا: إعْمَال الجوارح بطاعة الله:

قال رجل لأبي حازم رحمه الله: «ما شكر العينين يا أبا حازم؟! قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ؛ قال: فما شُكْرُ الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرًا وعَيْته، وإن سمعتَ بهما شرًّا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًّا لله عز وجل هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه عِلْمًا. قال: ما شكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٦) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤١٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) رواه أحمد (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨، ١٤٧)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٨٤٨)، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٤٧٦).

(٤) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٦٦) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجها الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٤).

عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال: فما شكر الرِّجْلَيْن؟ قال: إن رأيت حيًّا غَبَطْته استعملت بهما عَمَلَه، وإن رأيت ميتًا مقتَّه كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله ﷻ. فأمّا مَنْ شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه؛ فمَثَلُهُ كَمَثَل رجل له كساء، فأَخَذ بطَرَفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحرّ، والبَرْد، والثلج، والمطر»(١).

وعن عبد الرزاق بن هَمَّام قال: «قدم علينا الثوري صنعاء، فطبخت له قِدْر سِكْبَاج(٢)؛ فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم قال: يا عبد الرزاق! اعْلِف الحمار وَكُدّه، ثم قام يصلي حتى الصباح»(٣).

وعن محمد بن منصور الطوسيّ أنه سُئِلَ: «إذا أكلتَ وشبعتَ فما شُكْر تلك النعمة؟ قال: أن تصلّي، حتى لا يبقى في جَوْفِك منه شيء»(٤).

خامسًا: ظهور أَثَر النعمة على العبد:

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»(٥).

سادسًا: الرضا والتسليم بقضاء الله:

فعن الرَّبِيع بن أنس عن بعض أصحابه قال: «علامة حبّ الله: كثرة ذِكْره، وعلامة الدّين: الإخلاص لله. وعلامة العِلْم: الخشية لله، وعلامة الشكر: الرِّضا بقضاء الله، والتسليم لقَدَرِه»(٦).

سابعًا: شكر الناس:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**»(٧).

قال الخطابي ﷺ: «هذا الكلام يُتَأَوَّل على وجهين:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وهو لحم يُطْبَخ بِخَل، وهو مُعَرَّب من سركه باجه. ينظر: «تاج العروس» (٦/ ٤١)، مادة: (سكرج).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢١٣).

(٥) رواه الترمذي (٢٨١٩)، وحسَّنه، وصحَّحه الحاكم (٤/ ١٣٥)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٧٥)، وفي الباب عن أبي الأحوص.

(٦) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤).

(٧) رواه الترمذي (١٩٥٤) واللفظ له، وأبو داود (٤٨١١)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٣٤٠٧)، والألباني في «الصحيحة» (٤١٦)، وقال العقيلي (٣/ ٨١٦): «إسناده صالح».

أحدهما: أنَّ مَنْ كَانَ طَبْعه وعادته كفران نعمة الناس، وتَرْك الشكر لمعروفهم، كان من عادته كفران نعمة الله تعالى، وتَرْك الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر: أنَّ الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتّصال أحد الأمرين بالآخر»[1] .اهـ.

وعن الأشعث بن قيس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ للهِ ﷻ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ**»[2].

وبالجملة: فالشكر كما قيل[3]:

لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ فَوْقَ الشُّكْرِ مَنْزِلَةً ... أَعْلَى مِنَ الشُّكْرِ عِنْدَ اللَّهِ فِي الثَّمَنِ
إِذًا مَنَحْتُكَهَا مِنِّي مُهَذَّبَةً ... حَذْوًا عَلَى حَذْوِ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ

وقال الآخر[4]:

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانِ
لَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ ... فَقَالَ اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

ولعِمْرَان بن مُوسَى الْمُؤَدِّب[5]:

فَإِنَّكَ إِنْ ذَوَّقْتَنِي ثَمَرَ الْغِنَى ... حَمِدْتَ الَّذِي أُجْنِيكَ مِنْ ثَمَرِ الشُّكْرِ
وَإِنْ يَفْنَ مَا أَعْطَيْتَ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ ... فَإِنَّ الَّذِي أُعْطِيكَ يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ

وأنْشَدَ مُحْرِزُ بن الْفَضْلِ الرَّازِيُّ[6]:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ ... إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ
وَلَا أَلُومُكَ إِذْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ ... فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ الْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

❁ ❁ ❁

---

(١) «معالم السنن» (٤/ ١١٣).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢١٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨٠): «رجاله ثقات»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٠٨).

(٣) أخرجها ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٩٢) عن الحسين بن عبد الرحمٰن، ومن طريقه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٦).

(٤) «فضيلة الشكر» (٩١)، و«بهجة المجالس» (١/ ٣١٤)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣٤٤).

(٥) رواها عنه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٩٥).

(٦) المصدر السابق (٩٦).

من أخبار أهل الشكر

عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلّي حتى تَرِمَ قدمَاه أو ساقاه، فيُقَال له، فيقول: **«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»**(١).

عن أبي بَكْرَة، عن النبي ﷺ أنه كان إذا جاءه أمر سرور أو بُشِّر به خرّ ساجدًا شاكرًا للهِ(٢).

وذكر الذهبي في تاريخه في ترجمة عبد الله بن عامر أنه افْتَتَح خُرَاسان، وأَحْرَم من نِيْسَابُور شكرًا، وكان سَخِيًّا كريمًا(٣).

وعن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، قال: ما قَلَّب عمر بن عبد العزيز بصره على نعمة أنعم الله بها عليه إلّا قال: «اللَّهُمَّ إِني أعوذ بك أن أُبَدِّلَ نِعَمَك كُفْرًا، أو أَكْفُرها بعْدَ مَعْرِفَتِهَا، أو أَنْسَاهَا فلا أُثْنِي بها»(٤).

ومرض الصاحب بن عَبَّاد بالإسْهَال، فكان إذا قام عن الطَّسْت تَرَكَ إلى جنبه عشرة دنانير للغلام، ولما عوفي تصدق بخمسين ألف دينار(٥).

وكان أبو حمزة السُّكَّري إذا مرض الرجل من جيرانه تصدّق بمثل نَفَقَة المريض، لِمَا صُرِفَ عنه من العِلَّة(٦).

وأُمطِر أهل الكوفة مَطَرًا، فَهُدِمَت منه البيوت، فأعتق ابن أبي داود جارية له شكرًا لله ﷻ إذ عافاه من ذلك(٧).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلت: بلغنا أن المُزَني كان إذا فَرَغ من تبييض مسألة، وأودعها

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه أبو داود (٢٧٧٤) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٩٤)، وصحّحه الألباني (٢/ ٥٣٤).
(٣) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٣١).
* تنبيه: لا يُشْرَع الإحرام قبل المواقيت التي حَدَّدَها الشارع.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٧) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٥).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥١٣).
(٦) «تاريخ ابن معين» (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) برواية الدوري.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٠).

مُخْتَصَره صلى لله ركعتين»[١]. اهـ.

وقال أبو بكر الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت السَّرِيّ يقول: «حمدت الله مرة فأنا أسْتَغْفِرُ الله من ذلك الحَمْد منذ ثلاثين سنة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كان لي دُكَّان، وكان فيه مَتَاع، فوقع الحريق في سوقنا، فقيل لي، فخرجت أَتَعَرَّف خبر دُكَّاني، فلقيت رجلًا فقال: أبشر؛ فإن دُكَانك قد سَلِم. فقلت: الحمد لله، ثم إني فكَّرْت فرأيتها خطيئةً»[٢].

وإنما رآها خطيئة؛ لأنه لم يشاهد مَوْقف البلاء الذي أصاب إخوانه من أهل السوق، كما شاهد مَوْقف العافية من نَفْسه الذي اسْتَوْجَب عنده الشكر لأول وهلة.

وعن مُضَارِب بن حَزْن قال: «بينا أنا أسير من الليل إذا رجل يُكَبِّر، فألحقته بعيري، قلتُ: من هذا المُكَبِّر؟ قال: أبو هريرة. قلتُ: ما هذا التكبير؟ قال: شكرًا. قلت: علامَه؟ فقال: على أني كنتُ أجيرًا لبُسْرَة بنت غَزْوَان بِعُقْبَة رِجْلي، وطعام بَطْني، فكان القوم إذا ركبوا سُقْتُ لهم، وإذا نزلوا خَدَمْتُهم، فَزَوَّجَنِيْها الله، فهي امرأتي اليوم، فأنا إذا رَكِب القوم ركبتُ، وإذا نزلوا خدمتُ»[٣].

وقال شريح القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأُصَاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أَحْمَد إذ لم يكن أعظم منها، وأَحْمَد إذ رزقني الصبر عليها، وأَحْمَد إذ وفَّقَنِي للاسْتِرْجَاع لِمَا أرجو من الثواب، وأَحْمَد إذْ لم يجعلها في ديني»[٤].

وقال جعفر بن محمد بن علي: «فَقَد أبي بَغْلَتَهُ، فقال: إنْ رَدَّهَا الله عليَّ لأَحْمدنَّه بمَحَامِد يرضاها، فما لبث أن أُتِيَ بها؛ بِسَرْجِها ولِجَامِها فركبها، فلمَّا استوى عليها، وضمَّ إليه ثيابه؛ رفع رأسه إلى السماء، فقال: الحمد لله، لم يَزِدْ عليها، فقيل له في ذلك، فقال: وهل تركتُ شيئًا، أو أبقيت شيئًا؟ جعلتُ الحمد كله لله عَزَّ وَجَلَّ»[٥].

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرجو ألَّا يَهْلِك عبدٌ بين نِعْمَتَين: نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»[٦].

هذا آخر ما أردت إيراده في باب الشكر، والله أعلم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٥)، وابن حبان (٧١٥٠) واللفظ له، وغيرهما، وصحَّحه ابن حبان، وابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٢٥٢)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٦١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٦)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨٢) واللفظ له.

(٦) تقدم تخريجه.

الرابع عشر

الغَيْرة

توطئة

إن الغَيْرة غريزة وخَصْلَة فَرِيدة، أودعها الله تعالى في الإنسان من أَجْل صِيَانة ضرورات كبرى تقوم عليها حياة الناس؛ فإنه إذا اختلَّت هذه الغريزة حصل من الفساد ما لا يُقادَر قَدْره.

فليس حديثنا عن قَضِيَّة تَكْمِيلِيّة ثانوية، أو قَضِيّة تَحْسِيْنِيَّة، إنما هو عن أصل كبير لا بد من وجوده، وإلا تَحَطَّمت الأخلاق والقِيَم، وذهبت الأعراض، واخْتَلَط الحَابِل بالنَّابِل، وعمَّ الفساد.

ونحن بحاجة مُلِحَّة للحديث عن هذه الغَرِيزة في مثل هذه الأيام؛ حيث إن العَوَادي قد عَدَت على هذه الخَصْلَة الفاضلة، فَتَحَطَّمَت واخْتَلَّت في كثير من النفوس، ووقع لها من الضَّعْف والخَلَل ما لا يُقَادَر قَدْرُه، فَتَرَتَّب على ذلك آثار فاسدة لا تخفى على كل متأمِّل.

ومن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للغَيْرة في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.

۞ ۞ ۞

معنى الغَيْرة وحقيقتها

الغَيْرة لغة: «مُشْتَقَّة من تَغَيُّر القلب، وهَيَجَان الغَضَب بسبب المُشَاركة فيما به الاختصاص»(١). يُقَالُ: رجل غَيُور، وغَيْرَان، ومِغْيَار، وامرأة غَيْراء، وغَيُور.

والعرب تُطْلِق على الرجل الغَيُور: المُشَفْشِف والمُشَفْشَف، وهو الذي شَفَّت الغَيْرة فؤادَه، فأضمَرَتْه وهَزلَتْه، والشَّفْشَف: هو الذي كأن به رِعْدةً واختلاطًا من شدة الغَيْرة.

ويُقَابِل الرجل الغَيُور: الدَّيُوث، ويقال له: المُمَاذِل، والمُمَاني، والمُمَاذي، والخُنْذُع والقُنْذُع(٢).

الغَيْرة في الاصطلاح:

الغَيْرة اصطلاحًا: كراهة الرجل اشْتِراك غَيْره في حقِّه الذي يختص به(٣).

فهي حَمِيّة وأَنَفَة جعلها الله تعالى في النفوس الأبيَّة، تَغَار على ما يَجِب أن يُغَار منه، وهي فَوَرَان الغضب حمايةً على إكرام الحُرَم.

والغَيْرة: لا تختص بالرجال، بل تكون للكرام من الرجال والنساء، الصغار والكبار.

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام الحافظ في «الفتح» (٨/ ٢٣١).

(٢) «الصحاح» (٢/ ٧٧٦)، مادة: (غير)، و«تاج العروس» (٢٠/ ٥٣١)، مادة: (خنذع) (٢٣/ ٥٢٣)، مادة: (شفف) (٣٩/ ٥٧٤)، مادة: (منو).

(٣) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٦)، و«الكليات» للكفوي (ص٦٧١).

الفرق بين الغَيْرة من الشيء والغَيْرة عليه وله

«الغَيْرة من الشيء: هي أن تَكْره مُزَاحَمَته ومُشَارَكته لك في محبوبك؛ كالمرأة حينما تَغَار من ضرائرها، وكالأَقْران يَغَار أحدُهم من الآخر.

وأما الغَيْرة على الشيء: فهي شِدّة حِرْصك على المحبوب أن يَفُوز به غيرك»[1].

و«أما الغَيْرة للشيء: فهي الحَمِيَّة والغضب له إذا اسْتُهين بحقِّه، وانْتُقِصَت حُرمتُه، فيغضب له، وتأخذُه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التَّغْيير، وهذه هي غَيْرة المُحِبِّين حقًّا، وهي من غَيْرة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم لله تعالى، ممن أشْرك بالله، واسْتَحَلَّ مَحَارِمَه؛ فالمؤمن يَغَار على حدود الله وحرماته إذا انتُهِكت، والدين كلُّه من هذه الغَيْرة، بل الغَيْرة هي الدين، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه، ولا أَمَرَ أحدٌ بمعروف ولا نهى عن مُنكر إلا بهذه الغَيْرة، ومتى خَلَت من القلب خلا من الدين»[2]، واضمحلَّ ذلك فيه.

۞ ۞ ۞

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٤١١) باختصار وتصرف، وانظر: «الفوائد» (ص٤٨ ـ ٤٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٣).

منزلة الغَيْرة

الغَيْرة منزلة عظيمة، جَلِيلَة القَدْر، يَعْرِف منزلتها وفضلها ومكانتها كلُّ العقلاء، ويَكْفيها شَرَفًا وفَضْلًا أنها صفة من صفات الله تعالى، يقول ﷺ: «**إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ**»[1]. فهذا أصلٌ في باب الغَيْرة.

«ومن غيرتِه تبارك وتعالى لعبده وعليه أن يحْمِيَه مما يَضرُّه في آخرته؛ فقد جاء من حديث محمود بن لبيد ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؛ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**»[2]»[3].

وبهذا نعلم أن الغَيْرة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى يُحِبُّها، ويُدْني صاحبها.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٧)، وصحَّحه الحاكم (٢٠٨/٤)، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٢٩٥) بتصرُّف واختصار.

الغَيْرة المذمومة والممدوحة

يقول النبي ﷺ: «**مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ، فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ**»(١).

فالغَيْرة إذا تَجاوَزت حدَّها، وتَعَدَّت قَدْرها؛ فإنها تتحول إلى صفة ذم، كما لو صار ذلك مُلَازِمًا للإنسان، وتَرَتَّب عليه شيء من سُوء الظن بأهل العفَاف والطُّهْر والنَّزاهة؛ كمن يغار ويَظُنُّ بأهله وقراباته الظنون الفاسدة من غير مُوجِب.

بخلاف الغَيْرة المَمْدُوحة فإنها تكون في مَحَلِّها، مُقْتَرِنة بالعُذْر؛ إذا وَجَد عذرًا لمَن يَغَار عليه عَذَرَه من غير تَفْرِيط، ولا تَمْيِيع، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ**»(٢).

وفي رواية: «**وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ**»(٣).

«فَجَمَع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الغَيْرة التي أصلها كراهة القَبَائِح وبُغْضُها، وبين مَحَبَّة العُذْر الذي يُوجِب كَمَال العَدْل والرحمة والإحسان من غير ظلم لأحدٍ، ولا تَحْمِيل للأمور ما لا تَحْتَمِل، وهذا غاية المَجْد والإحسان، ونِهَايَة الكمال؛ وذلك أن بعض الناس تَحْمِلهم شِدّة الغَيْرة على سُرْعة الإِيْقَاع والعقوبة، والأَخْذ من غير إعْذار»(٤).

وبالمقابل نجد آخرين يبحثون عن المَعَاذِير المُسْتَكْرهة والمُسْتَبْعدة التي لا تخطر

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨) من حديث جابر بن عَتِيك الأنصاري ﷺ، وأخرجه ابن ماجه (١٩٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصحَّحه ابن حبان (٢٩٥)، وَجَوَّد إسناده ابن الملقن في «التوضيح» (١٠٨/٢٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٢١) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، من حديث المغيرة ﷺ، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص١٦٤ ـ ١٦٥) بتصرُّف.

على بَال؛ وما ذلك إلا لأجل تَمْرير المنكر، وتَقْرِير الخَبَث في أهلهم؛ فيكون بذلك دَيُّوثًا[١].

والاعتدال في ذلك هو المطلوب، وقد جاء عن سليمان بن داود المنْقَري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال لابنه: «لا تُكثر الغَيْرة على أهلك ولم ترَ منها سُوءًا، فتُرْمَى بالشَّر من أَجْلِك وإن كانت منه بريئةً»[٢].

وقد أحسن من قال[٣]:

مَا أَحْسَنَ الغَيْرةَ فِيْ حِيْنِهَا ... وَأَقْبَحَ الغَيْرَةَ فِيْ غَيْرِ حِيْن
مَنْ لَمْ يَزلْ مُتَّهِمًا عِرْسه ... مُتَّبِعًا فِيْهَا لِقَول الظُّنُون
يُوْشِك أَنْ يُغْرِيَها بِالَّذِي ... يَخَاف أَنْ يُبْرِزَها لِلْعُيُوْن
حسْبُكَ مِنْ تَحْصِيْنِهَا وَضْعُها ... مِنْكَ إِلَى عِرْضٍ صَحِيْح وَدِيْن
لا يطلعن مِنْكَ عَلَى رِيْبَةٍ ... فَيَتْبَع المَقْرُوْنُ حَبْلَ القَرِيْن

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧١) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٥).

(٣) وهو: أبو يعقوب الخزيمي. انظر: «عيون الأخبار» (٤/ ٧٩).

أنواع الغَيْرة(١)

النوع الأول: غَيْرة الله تعالى، وهي أنواع، ومنها:

١ ـ غَيْرة الله ﷻ على عبده: وذلك بألَّا يَجعله للخَلْق عبدًا، بل يتَّخِذه لنَفْسه عبْدًا، فالله تعالى يَغَار من عبده أن يَتَوَجَّه بقلبه أو بعمله إلى ربٍّ ومعبودٍ سواه، كما أنه «يَغَار على قلب العبد أن يكون مُعَطَّلًا من حبِّه، وخوفه ورجائه، أو أن يكون فيه غَيْره...

كما أنه سبحانه يَغَار على لسان عبده أن يَتَعَطَّل من ذِكْره، ويَشْتَغِل بِذِكْر غَيْرِه.

ويَغَار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته، وتَشْتَغِل بمعصيته»(٢).

ومن سُنَّته تعالى مع أوليائه إذا ساكنت قلوبُهم أحدًا غيره، أو رَكَنُوا إلى شيء سواه، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا، فشوَّش عليها صفوَ العبودية؛ فمن سُنَّته أنه يَغار على هذه القلوب؛ فيُسَلِّط عليها أنواع الآلام والمَكَارِه والمصائب حتى يُعيدها خالصة لنَفْسه جلّ في علاه(٣).

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِيْ وَاحِدِ ... أَعْنِيْ سَبِيْلَ الحَقِّ والإِيْمَانِ(٤)

ومن غَيْرته ـ تبارك وتعالى ـ على عبده: أن العبْد لربَّما حَصَّل مراتب عاليةً من مَرَاتب العبودية، فَيَرْكُن إلى ذلك، ويَأْنَس ويُسَرّ به، ولَرُبَّما حَصَل له نوع ارتفاعٍ بذلك، فيُلْجِئه الله تعالى بألوان الآلام والمصائب، مما يضطرُّه إلى الافتقار إليه.

كما أنه تبارك وتعالى يَغَار على عبده أن يُضيِّع الأنفاس والأوقات فيما سوى الله تبارك وتعالى، مما لا طائل تحته؛ من القيل والقَال، واللهو والعَبَث.

٢ ـ غَيْرة الله تعالى على توحيده وكلامه، فمن ذلك أنه جعل على قلوب الذين أعرضوا عنه وكذَّبوا رسله أَكِنَّةً أن يفقهوا كلامه، وفي آذانهم وقرًا.

ومنه أيضًا: تَثْبِيْطُه للمَخْذُوْلين من المنافقين، وأعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤ ـ ٤٥)، و«روضة المحبين» (ص٤٢٣ ـ ٤٢٤).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٣٢٤) بتصرُّف.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) «نونية ابن القيم» (ص٢١٩ ط. مكتبة ابن تيمية، وقد سقطت من ط. عالم الفوائد).

عن شَرَف اللحاق برسول الله ﷺ في مَغَازِيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: ٤٦].

ومنه أيضًا: أنه لم يجعل للخَلْق طريقًا يُوصِلُهم إلى الله تبارك وتعالى سوى توحيده، فليس ثَمَّةَ واسطة ووسيلة يَتعلَّق بها العباد سوى التَّوَجّه إلى الله وحده لا شريك له بالعمل الصالح[1].

٣ ـ **غَيْرَة الله تعالى على حدوده**: فالله يَغار إذا انتُهِكت حُرُماتُه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ الله، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله**»[3].

وفي رواية: «**الْمُؤْمِنُ يَغَارُ، وَاللهُ أَشَدُّ غَيْرًا**»[4].

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته في الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»[5]، فليخش العبدُ ربَّه، وليُراقِب حدوده؛ فإن الله تعالى يَغَار من عبده إذا رآه يَقْتَرف مَحَارمه، ويُوَاقِع معاصيه.

ووجه ذلك: أن المسلم عند وقوعه في المعصية يكون قد أطاع هواه، وانقاد للشيطان، والطاعةُ خاصة بالله تعالى، ويأبى أن يشاركه فيها غيره، فكأنه بمعصيته جَعَل لغير الله نصيبًا في طاعته وتَوَجُّهه وعمله وإرادته.

النوع الثاني: الغَيْرة من العبد، وهي أنواع، ومنها:

١ ـ **غَيْرتُه من نَفْسه على نَفْسه**: وذلك بـ«ألّا يَجْعل شيئًا من أعماله وأقواله، وأحواله وأوقاته، وأنفاسه لغير ربِّه»[6] تبارك وتعالى، فَيَغَار إذا رأى أعماله وأقواله تَنْفَرِط وتضمحل بين يديه، وتُصرف في غير مَرْضاة الله تعالى، وفيما لا يُقرِّبُه إليه.

وغَيْرةُ العبد من نَفْسه أَهَمُّ من غَيْرتِه من غَيْره؛ لأن العبد إذا غار من نَفْسه صحَّت له غَيْرتُه لله تعالى من غَيْره، والذي لا يَغَار من نَفْسه لا يغار من غَيْره من باب أولى؛ لأن أَهَمَّ مطلوب هو نجاة العبد عند الله عز وجل، وأن تَنْفَكَّ رَقَبَته وتُعْتَق من عذاب الله جل جلاله[7].

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٤٢٥).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٦١).
(٥) أخرجه البخاري (١٠٤٤) واللفظ له، ومسلم (٩٠١).
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥).
(٧) انظر: المصدر السابق (٣/ ٤٦).

ومن ذلك أيضًا: «غَيْرته من نَفْسه على قلبه، ومن تَفْرِقَته على جمعِيَّته، ومن إعراضه على إقباله، ومن صِفَاته المَذْمُومة على صفاته الممدوحة، وهذه الغَيْرة خاصيّة النفس الشريفة الزكية العُلوية، وما للنفس الدَّنِيَّة المَهِينة فيها نَصِيْب، وعلى قَدْر شَرَف النَّفْس وعُلُو هِمَّتها تكون هذه الغَيْرة»(١).

ومن ذلك أيضًا: غَيْرته على أوقاته المُتَصَرِّمة، فالوقت أعَزّ شيء على العابد، ويَغَار عليه من أن ينقضي في غير طائل؛ فإنه إذا فات وانْصَرَم لا يمكن اسْتِدراكه، وهذه الأنفاس تخرج ولا تَعُود، ومن كانت أنفاسه في غير طاعة فهو في غَبْن وخسارة، ومن استوى يوماه فهو مَغْبُون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو حَتْمًا إلى نقصان(٢).

٢ ـ **غَيْرَة العبد من غَيره**: وذلك بأن يَغَار على حدود الله تعالى، ودينه وشرعه، فيَغَار إذا رأى حُرُمات الله تُنْتَهك، أو يُتَطَاوَل عليها، أو يُشَكَّك في مَعَالم الدِّين.

وكلما كان دِين العبد أعظم وأمْتَن كانت غَيْرتُه أكبر؛ ولذلك كان النبي ﷺ أعظم غَيْرةً من غيره، كما قال ﷺ: **«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»**(٣)، وعلى قدر إيمان العبد ومحبته لربه تكون غَيْرته على دِين الله، فإذا خلا قلبُه من الإيمان والمحبة تَأَثَّرت تلك الغَيْرة واضْمَحَلَّت، ولربّما انعدمت بالكلية.

وكان أبو الفضل محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني (ت٥٨٠هـ) شديد الإنكار على منكرات الشرع، يدفعها بيده ولسانه بحسب وسْعِه وإمكانه، وإذا لم يستطع الدفع تأثَّر به اغتياظًا، وربما ارتعد وأخذَتْه الحُمَّى(٤).

ومن أعجب ما اطَّلَعْتُ عليه من غَيْرة بعض الكفار على دينهم: أن أعلى مَحْكَمَة في إيطاليا ـ وهم نصارى، يعبدون المسيح، ويُشركون بالله تعالى ـ أصدرت قرارًا: ألَّا يُدَرِّس مادة الدين أحدٌ من النساء اللاتي قد وَلَدْنَ ولم يَتَزَوَّجْن؛ غَيرة على دينهم!! وأهل الإيمان أحق وأولى أن يغاروا على دينهم الحق.

ومن غَيْرة العبد على غيره: غَيْرته على العلم أن يُبْذَل لغير أهله.

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «من الغَيْرة غَيْرة العلماء لمَقَام الوِرَاثَة، وهو مَقَام العِلْم»(٥).اهـ. فالعِلْم دُرَّة شريفة لا تُبذَل للبطَّالين، والمَسْألة الدَّقِيْقَة اللَّطِيفَة حينما تُبذَل لغير أهلها كالمرأة الحسناء تُهدَى إلى ضَرِير مُقْعَد.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩ ـ ٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٤) «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٣٨٢).
(٥) «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

يَا مِحْنَةَ الحَسْنَاءِ بِالعُمْيَانِ … شَمْسٌ تُزَفُّ إلى ضَرِيْرٍ مُقْعَدِ

ويَرْحَم الله الإمام الشافعي حينما قال[٢]:

أَأَنْثُر دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ البَهْمِ … وَأَنْظُمُ مَنْثُورًا لِرَاعِيَةِ الْغَنَمْ

وقد أَحْسَن مَن قال[٣]:

عَلَيَّ نَحْتُ المَعَانِيْ مِنْ مَعَادِنِهَا … وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ البَقَرُ

٣ ـ غَيْرَة العبد على عِرْضه، وأعراض المسلمين: وأعظم الناس غَيْرة على الأعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأمثل فالأمثل، فكلما كان العبد مُتَشَبِّهًا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مُكَمِّلًا للإيمان، مُسْتَوفِيًا للرّجُولَة؛ كانت غَيْرتُه أتم. وذلك لا يختص بالرجال، بل إن المرأة المؤمنة تَغَار على عِرْضها، وعِرْض المؤمنات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وملاك الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غَيْرة العبد لربه أن تُنْتَهَك مَحَارِمه وتَضِيْع حدوده، وغَيْرته على قلبه أن يَسْكُن إلى غيره، وأن يَأْنَس بسواه، وغَيْرته على حُرْمته أن يتطلع إليها غيره، فالغَيْرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة»[٤]. اهـ.

وسنذكر نماذج لغَيرة العبد عند الكلام على أخبار أهل الغيرة إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

(١) «نونية ابن القيم» (ص٣٥٤).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص١٢٨).

(٣) وهو: أفضل الدين الخونجي. انظر: «نفح الطيب» (٥/ ٢٤٧)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» (٣/ ٩٣).

(٤) «روضة المحبين» (ص٤٣٧ ـ ٤٣٨).

أسباب ضَعْف الغَيْرَة وزوالها

أولًا: كثرة الذنوب والمعاصي:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عقوبات المعاصي أنها تُطفئ من القلب نار الغَيْرة التي هي لحياته وصَلَاحه كالحرارة الغَرِيْزِيَّة لحياة جميع البَدَن، فالغَيْرة حرارته وناره التي تُخْرِج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يُخْرِج الكيرُ خبثَ الذهب والفضة والحديد. وأشْرفُ الناس وأعلاهم هِمّةً أشدُّهم غَيْرةً على نَفْسه وخاصَّتِه وعموم الناس...

فَكُلَّما اشْتَدَّت مُلابَسَةُ العبد للذنوب والمعاصي أَخْرَجَت من قَلْبِه الغَيْرة على نَفْسه وأهله وعموم الناس، وقد تَضْعُف في القلب جِدًّا حتى لا يَسْتَقْبِح القَبِيح لا من نَفْسه ولا مِن غيره، وإذا وصل إلى هذا الحَدّ فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يَقِفُ بهم الأمر عند هذا الحَدّ، بل يَصِير الواحد منهم يُحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويَحُثه عليه، ويسعى له في تَحْصِيله؛ ولهذا كان الدَّيُّوث أَخْبث خَلْق الله، والجنة حرام عليه... وهذا يدلُّ على أن أصل الدين الغَيْرة، ومن لا غَيْرة له لا دين له»[(١)]. اهـ. فالدين يحمي القلب، ويؤثّر الغَيْرة فيه ويُقوِّيها ويُنمِّيها كما لا يخفى.

«وبين الذنوب وقِلّة الحياء وعدم الغَيْرة مُلَازَمة أكيدة من الطرفين، وكلٌّ منهما يَسْتَدْعِي الآخر ويَطْلُبه طَلَبًا حَثِيْثًا»[(٢)]، لا سيما الفواحش من الذنوب؛ كالزنا وما في معناه، فهو «يجمع خِلَال الشرّ كلها، من قِلّة الدين، وذهاب الوَرَع، وفساد المُرُوءَة، وقِلّة الغَيْرة، فلا تَجِد زانيًا معه وَرَع، ولا وفاء بعَهْد، ولا صِدْق في حديث، ولا مُحافَظة على صَدِيق، ولا غَيْرة تامّة على أهله، فالغَدْر، والكذب، والخِيَانة، وقِلّة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنَفَة للحُرَم، وذهاب الغَيْرة من القلب من شُعَبه ومُوجَبَاته»[(٣)].

ومن الذنوب التي تُذْهِب الغَيْرة وتُضْعِفُها: تعاطي المُسْكِرات؛ من الخمور

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٦٦) بتصرُّف. (٢) المصدر السابق (ص٦٩) بتصرُّف.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «روضة المحبين» (ص٣٦٠).

والمخدرات والحشيش، فإنها تَغْتَال العقول، والشِيَم والغَيْرة والمروءة، وتدعو إلى الزنا، ولَرُبَّمَا دَعَت إلى الوقوع على البنت والأخت وذَوَات المَحَارِم[(١)].

ثانيًا: الانْسِيَاق وراء العَوَاطف:

فمن الخطأ أن يُعَالِج الإنسان مُشْكِلات وسُلُوكِيَّات زَوْجِه وقريباته بالعاطفة؛ ولهذا يقول الله تعالى في حدِّ الزُّنَاة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فبعض الناس تَحْمِلهم المحبة والشَّفَقة على تَرْك الغَيْرة، فإذا رأى من مَحَارِمه مُنْكرًا؛ من علاقة غير شرعية ونحو ذلك؛ حَمَلَته تلك المحبة والشَّفَقة على غَضّ الطَّرْف، وعدم الإنكار، وهذا من المَهَانَة والدِّيَاثة وقِلَّة الدِّين، وضَعْف الإيمان، والإعانة على الإثم والعُدْوَان، وترْك التناهي عن الفحشاء والمُنْكر، فَيَحْصل له بذلك القَوَادَة بعد الدِّيَاثة، فيكون قوَّادًا على أهله؛ حيث إنه رأى فيهم الخُبْث فلم ينكره، ولم يسعَ في إزالته.

ثالثًا: سوء التربية:

فكم من رجل ضَيَّع القَوَامَة، فصار تبَعًا لامرأته، فاغْتِيلَت غَيْرته ورُجُولته! تراه يُسمِّر عَيْنَيْه إلى الشَّاشَات، ويُقلِّب بصرَه في المناظر المُؤْذِية في المحطَّات؛ ليُطْفئ بالإثم غَلِيل الشيطان، ويُغْوِيَ بالمعصية ظَمَأ نَفْسه من التُّقَى والإيمان، ثم بعد ذلك يُضيِّع ما أَمَره الله تعالى به من الرِّعاية، يَتْرك امرأته ومن وَلَّاه الله عليهن يَفْعلْن ما شئْنَ، فيتربَّى على ذلك الصغير، ويَنْشَأ عليه، ومن أين له أن ينشأ على الأخلاق الحميدة والغَيْرة، وهو يرى أمَّه تَخرج حيثُ شاءت، وأخته تَفْعل ما شاءت دون نَكِيرٍ ولا مُحَاسَبَة من أبيه؟![(٢)].

هِيَ الْأَخْلَاقُ تَنْبُتُ كَالنَّبَاتِ ... إِذَا سُقِيَتْ بِمَاءِ الْمَكْرُمَاتِ
تَقُومُ إِذَا تَعَهَّدَهَا الْمُرَبِّي ... عَلَى سَاقِ الْفَضِيلَةِ مُثْمِرَاتِ
وَلَيْسَ النَّبْتُ يَنْبُتُ فِيْ جِنَانٍ ... كَمِثْلِ النَّبْتِ يَنْبتُ فِيْ الفَلَاةِ
فَكَيْفَ نَظُنّ بِالْأَبْنَاءِ خَيْرًا ... إِذَا نَشَؤُوا بِحِضْنِ الجَاهِلَاتِ
وَهَلْ يُرْجَى لِأَطْفَالٍ كَمَالٌ ... إِذَا ارْتَضَعُوْا ثُدِيَّ النَّاقِصَاتِ[(٣)]

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، و«حادي الأرواح» (ص٣٧٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٣) «ديوان معروف الرصافي» (٧١)، مع حذف بعض الأبيات قبل وبعد البيت الثالث.

رابعًا: التَّأَثُّر بِحَيَاة الغَرْب:

وَلَرُبَّما رَبَط بعض هؤلاء التَّقَدُّم وَالتَّحضّر بأن تُتْرَك المرأة تَفْعل ما يحلو لها من غير رَقِيْب ولا حسيب، تذهب حيث شاءت، وتُخَالِل من شاءت، وتَفْعَل ما تشاء!

خامسًا: دُخُول مَفَاهِيم وَعَادَات غَرِيبة على مُجْتَمَعِنا:

لقد أدَّت تلك المفاهيم والعادات إلى تَغَيُّر كَثِير من المَعَايِير لدى بعض الناس، فَتَغَيَّرَت تَصَوُّراتهم. فهذه بِنْتٌ في الثانوية تقول: الأحداث المُؤْلِمة جَعَلَتنا لا نُفكِّر بِشَكْل مُسْتَقِرّ في رَسْم مُسْتَقْبَلنا، ومن هذه الأحداث: تَدَخُّل الأهل في اخْتِيَار مَجَال التَّخَصّص الدراسي، وإصرارهم على تَوَجّه بِعَيْنه يَجْعَلُني لا أستطيع تَحْدِيد طُمُوحِي المُسْتَقْبَلِي، فكل يوم أجد نفسي أتوجَّه لشيء مُعَيَّن، فمثلًا: أنا أهوى الخَطّ، وأَحْرِص على الكتابة بِخَطٍّ جَمِيل... وأحيانًا أُفكِّر بأن أُصْبِح فيزيائية، وأَنْ أُشَارِك في البُحُوث العِلْمِيّة، ولكن أُسْرَتِي تريد أن أكون طَبِيبَة... ثم تقول: أنا لا أريد أن أتزوج ليكون لي أطفال كثيرون، يكفيني طفلٌ واحد أو طفلان لتحقيق طُمُوحِي العِلْمي والدرجات العِلْمِيّة، ولأُمَارِس هِوَايَاتي بكل حُرِّية.

وهذه أخرى تدرس في مَعْهَد للحاسب الآلي، تقول: اهتمامات فَتَيَات اليوم لم تَعُد في كُتُب التَّثْقِيف، بل انْصَرَفَت إلى القنوات الفضائية، وتَقْلِيد المُذِيْعَات والفَنَّانات في المُوضَة، أما بالنسبة لي شخصيًا فأنا أَقْضِي وَقْت فراغي في قِرَاءَة القَصَص والروايات والشعر، وأَتَطَلَّع للحصول على شهادة الدّبْلُوم، وأن أجد وظيفة مرموقة... إلخ.

وهذه فتاة جامعية تقول: أَفضَل المَشَاهِد النَّادِرَة التي تَعْلَق في الذاكرة، تَشُدّني الرِّحَلات إلى الدِّيَار الغَرِيْبَة، والطَّبَائع النادرة غير المَأْلُوفَة، لا أُحبُّ الرُّوْتِين.

وأخرى تَدْرس في كلية الاقتصاد المنزلي، تقول: أنا من المُهْتَمَّات بالسّفر والتَّنَقّل من بَلَدٍ لآخر، وهذا نَابِعٌ من شَغَفِي بالتَّعَرّف على الشُّعُوب وعاداتهم وتقاليدهم، وهذا بلا شك سَيُسَاعِدُني على التَّعَرّف على أساليب التَّعَامُل مع الشُّعُوب المُخْتَلِفة وتَوَجُّهاتِهم، وهو باعتقادي مُهِمّ بالنِّسْبة لكل إنسان.

فانظر إلى التَّحَوّل في مَفَاهِيم بعض فتياتنا؛ فالمرأة إنما خُلِقت لتَعْبُد ربَّها ﷻ، ولتُكوِّن جيلًا يَتَرَبَّى على الدين والجهاد وحماية الدِّين، وتُرَبِّيهم على الفضيلة والأخلاق الحميدة.

سادسًا: السفر إلى بلاد تكثر فيها المنكرات وتظهر:

ولا يخفى ما يَتَرَتَّب على ذلك من المفاسد؛ فإن تلك المجتمعات قد ذَهَبَت الغَيْرة عن كثير منهم، وانتشرت الأخلاق الدَّنِيئة فيهم، فكيف يَسْلَم من ذلك من عَايَشَهم وسَاكَنَهم؟!

سابعًا: البرامج والمَشَاهِد الهابطة:

حيث يَألَف المُشاهِد مُخَالطة الرجال للنساء، وما يقع مع ذلك من أمور لا تخفى، إضافة إلى ما يُعْرَض في بعضها من إظهار الرجل الغَيُور على أنه محل للتندُّر والضحك والاشمئزاز.

ثامنًا: ما أَلِفَه بعض الناس مِن مَظَاهِر العُرِي والتَّكَشّف والانحلال:

وذلك عبر ما يشاهدونه في المجلات، والقنوات، والإنترنت، والأسواق، في حلِّهم وتَرْحَالِهم.

وهذا يَاقُوت الحَمَوَي، زار بلدة في اليمن يُقَال لها: مِرْبَاط، يقول في وَصْفِها: «أهْلها عَرَب، وَزَيّهم زَيّ العَرَب القديم، وفيهم صَلَاح مع شَرَاسَة في خَلْقهم. . . وَتَعَصّب، وفيهم قِلَّة غَيْرة؛ كأنهم اكْتَسَبُوها بالعادة، وذلك أنه في كل ليلة تَخْرج نساؤهم إلى ظاهر مَدِينَتهم، ويُسَامِرْنَ الرجال الذين لا حُرْمة بينهم، ويُلاعِبْنهم ويجالسْنهم إلى أن يَذْهب أكثر الليل، فَيَجُوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تُلَاعِب آخر وتُحَادِثه، فيُعْرِض عنها ويَمْضي إلى امرأة غيره، فيُجَالِسها كما فُعِل بزوجته.

وقد اجتمعتُ بجماعة كثيرة، منهم: رَجُل عاقل أدِيب، يَحْفَظ شيئًا كثيرًا، وأنشدني أشعارًا، وَكَتَبْتُها عنه، فلما طَال الحديث بيني وبينه قلتُ له: بَلَغَنِي عنكم شيء أنْكَرْته، ولا أعرف صِحَّته، فَبَدَرَني وقال: لَعَلَّك تَعْنِي السَّمَر؟ قلت: ما أردتُّ غيره، فقال: الذي بَلَغَك من ذلك صحيح، وبالله أقسم إنه لَقَبِيح، ولكن عليه نَشَأنا، وله مذ خُلِقْنَا أَلِفْنا، ولو اسْتَطَعْنا أن نُزِيله لأزلناه، ولو قَدِرْنا لغَيَّرْناه، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع مَمَرّ السنين عليه، واستمرار العادة به»[١].

تاسعًا: دعاة الفِتنة وأعداء الفضيلة:

من أصحاب الجهود الشيطانية الذين اسْتَمَاتُوا في إفساد الضرورات الخمس: الدِّين، والنَّفْس، والعقل، والعِرْض، والمال.

لقد تفنَّنَت أساليبهم، وتعدَّدت طَرَائقهم، يَدْعُون نساءنا لنَزْع الحِجَاب، ويَصِفُون المرأة المُحَجَّبة بأَبْشَع الأوصاف.

فتَارةً يصفونها بالخَيْمة، وتارةً بأنها غراب على ضِلْع أسْود، وتارةً يُشَبِّهُونها بكِيْس الفَحْم.

---

(١) «معجم البلدان» (٥/ ٩٧).

يقول أحدهم: هذه بَقِيَّةٌ من مَوْرُوثات سلْجُوقِيَّة وعثمانية.

وتارةً يَدْعُون المرأة إلى مُخَالَطة الرجال، والمُشَارَكة في الألعاب الرياضية، والمَهْرَجَانَات الشَّبَابِيَّة، وسِبَاق الفُرُوسِيَّة.

عاشرًا: ضَعْف الإيمان، واتِّباع الهَوَى:

حادي عشر: الجَهْل بعِظَم الإثم لهذا الجُرْم، وخُطُورة الدِّيَاثة، وتَضْيِيع المَسْؤوليّة:

ثاني عشر: السُّكوت عن المنكر:

ثالث عشر: التَّرَف الزائد:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن عزيز مصر: «كان قليل الغَيْرة أو عَدِيمها، وكان يُحِب امرأته ويُطِيعها؛ ولهذا لما اطَّلع على مُرَاوَدَتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٩]، فلم يُعَاقِبها، ولم يُفَرِّق بينها وبين يوسف حتى لا تَتَمَكَّن من مُرَاوَدَته، وأَمَر يوسف ألَّا يَذْكر ما جَرَى لأَحَدٍ مَحَبَّةً منه لامرأته، ولو كان فيه غَيْرَة لعَاقَب المرأة. ومع هذا فَشَاعَت القِصَّة، واطلع عليها الناس من غير جِهَة يوسف، حتى تَحَدَّثَت بها النِّسْوة في المدينة، وذكروا أنها تُرَاوِد فتاها عن نَفْسه، ومع هذا: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١]، وأمرت يوسف أن يَخْرُج عليهن؛ لِيُقِمْن عُذْرها على مُرَاوَدَته، وهي تقول لَهُنَّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢]، وهذا يَدُلّ على أنها لم تَزَل مُتَمَكِّنة من مُرَاوَدَته، والخَلْوَة به، مع عِلْم الزوج بما جَرَى، وهذا من أَعْظَم الدِّيَاثة، ثُمّ إنه لما حُبِس فإنما حُبِس بِأَمْرها، والمرأة لا تَتَمَكّن من حَبْسه إلا بأمر الزوج... وَحَبَسه لأجل المرأة مُعَاوَنة لها على مَطْلَبها لدِيَاثته، وقِلّة غَيْرته»[1]. اهـ.

الرابع عشر: الثِّقة الزائدة في غير محلِّها:

فتُتْرَك المرأة تَذْهَب وتَجِيء وتتصرف كما تشاء.

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١٩ ـ ١٢٠).

الطريق إلى تحقيق الغيرة

لِتَنْمِيَة الغَيْرة في النفوس طُرُق كثيرة، **ومن ذلك**:

١ ـ تَرْبية الصَّغِيرات على الحِشْمة والحياء في اللباس وغيره.

٢ ـ تَرْبِية الأولاد على الغَيْرة؛ وذلك بأن يُوكَل البيع والشراء، ومخاطبة الرجال ونحو ذلك للبنين.

٣ ـ مُحَارَبة وسائل إضعاف الغَيْرة، وإخراجها من البيوت.

٤ ـ الرجوع إلى الدين، وغَرْس تَعَالِيمه في نُفُوس الناس.

٥ ـ التَّأْكِيد على دور الرجل في القَوَامة، وحِفْظ ما استرعاه الله تعالى.

٦ ـ تَوْعِية المُجْتَمع بمثل هذه الأمور.

٧ ـ مَعْرفة قَدْر الأعْراض؛ فإن مَعْرِفة قَدْر الشيء تدعو إلى المحافظة عليه، والاسْتِمَاتة في سبيله.

آثار الغَيْرة[1]

للغَيْرة آثار وفوائد كثيرة، **ومن ذلك**:

١ ـ أنها قوة لمُقَاوَمَة أدواء القلب المُتَنَوِّعة.

٢ ـ أن ذهاب الغَيْرة ذهاب للدين.

٣ ـ أنها تُحرِّز صاحبها من الفواحش.

٤ ـ أن الله يحبُّ أهلها، فهي صفة من صفات الله تعالى، و«المؤمن الذي يغار في مَحَلِّ الغَيْرة قد وَافَق ربه في صفة من صفاته، ومن وافقه في صفة منها قادته تلك الصِّفَة بزِمَامه، وأَدْخَلَته عليه، وأَدْنَته منه، وقَرَّبَتْه من رحمته»[2].

٥ ـ أنه بوُجُودِها تُصَان الأعْرَاض.

وغير ذلك من الآثار الطيِّبة.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٧/ ٣٠٨٥).

(٢) ما بين الأقواس من كلام المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

من أخبار أهل الغيرة

أولًا: غيرة الله ﷻ:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ**»(١).

وعن عائشة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته في الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٢).

ثانيًا: غَيرة النبي ﷺ:

عن المسور بن مخرمة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**»(٣).

وعن المغيرة ﷺ: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَح، فقال النبي ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(٤).

ثالثًا: الغَيرة عند الصحابة والمسلمين:

فهذا سعد بن عبادة ﷺ، سَيِّد الخَزْرَج، كان من أكثر الناس غَيْرةً، حتى إنه ما طلَّق امرأةً فتجرَّأ أحدٌ على أن يتزوَّجها بعده؛ لِشِدَّة غَيْرتِه(٥).

وهو الذي قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله! لو وَجدتُ مع أهلي رجلًا لم أَمَسّه حتى آتي بأربعة شهداء؟! قال رسول الله ﷺ: «**نَعَم**»، قال: كلا والذي بَعَثَك بالحق، إنْ كنت لأُعَاجِلُه بالسيف قبل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(٦).

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٤٤٩).
(٤) تقدم تخريجه. (٥) انظر: «البداية والنهاية» (٩/٦٠٨).
(٦) تقدم تخريجه.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ من أشد الناس غَيْرةً، وأخباره في ذلك كثيرة، ومما يُذْكَر عنه أن امرأته عَاتِكَة بنت زيد كانت تَشْهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تَخرُجِين وقد تَعْلَمِين أن عمر يَكْرَه ذلك ويَغَار؟ قالت: وما يَمْنَعُه أن يَنْهَاني؟ قال: يَمْنَعه قَوْل رسول الله ﷺ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله**»[1].

وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يُحَجِّب نساءه قبل أن تَنْزِل آية الحجاب، وكانت من عادة العَرَب أن المرأة لا تَحتَجِب لنَزَاهَتِهم، وَنَزَاهَة نسائهم، وكان الأمر في أول الإسلام على ذلك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: «يا رسول الله! لو أمرت نساءك أن يَحْتَجِبْن؛ فإنه يُكَلِّمهن البَرّ والفاجر»، فنزلت آية الحجاب[2].

وهو الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا**»[3].

وعن الشَّعْبِي رَحِمَهُ اللهُ قال: «غزا رجل من المسلمين من الأنصار، وأوصى جارًا له بأهله، قال: فكان يهوديّ يأتي أهله، فَذَكَر ذلك للرجل، فَرَصَده ليلة فإذا هو مُسْتَلْق على فراش الرجل، واضعًا إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول:

وَأَشْعَثَ غَرَّهُ الإِسْلَامُ مِنِّي ... خَلَوْتُ بِعِرْسِهِ لَيلَ التَّمَامِ
أَبِيتُ عَلَى تَرَائِبِهَا وَيَضْحَى ... عَلَى قُبَّاءَ لَاحِقَةِ الْحِزَامِ
كَأَنَّ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ مِنْهَا ... ثُمَامٌ قَدْ جُمِعْنَ إِلَى ثُمَامِ

قال: فَنَزَل الرجل، فَقَمَصَه بِسَيْفه حتى قتله، فلما أصبح ذُكِر ذلك لعمر رضي الله تعالى عنه، فقال: أعزم على من كان يَعْلم من هذا شيئًا إلا قام. فقام الرجل وقال: كان من أَمْره كَيْت وكَيْت، فَخَبَّره بالقصة. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إن عادوا فَعُد»[4].

وجاء عن عُبَيْد بن عُمَيْر: «أن رجلًا أضاف إنسانًا من هُذَيْل، فَذَهَبَت جاريةٌ لهم تَحْتَطِب، فأرادها على نفسها، فرمَتْهُ بِفهرٍ - أي: بحجر - فَقَتَلَتْه، فرُفِع إلى عمر بن الخطاب ﷺ، قال: ذاك قتيل الله، لا يُودَى أبدًا»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢) مختصرًا، من حديث ابن عمر ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٢) من حديث أنس ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٢، ٣٦٨٠، ٧٠٢٣، ٧٠٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٤٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٤٩) واللفظ له.
(٥) أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٩)، وابن أبي شيبة (٩/ ٣٧٢) واللفظ له، والخلال في «السُّنَّة» =

وجاء أيضًا: أن أبا السَّيَّارَة أُولِع بامرأة أبي جُنْدُب، فَرَاوَدَها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، فإن أبا جُنْدُب إنْ يَعْلَم بهذا يَقْتُلْك، فأبى أن يَنْزِع، فَكَلَّمَت أخا أبي جُنْدُب، فَكَلَّمَه، فأبى أن يَنْزِع، فَأَخبَرَت بذلك أبا جُنْدُب، فقال: إني مُخْبِر القوم أني ذاهب إلى الإبل، فإذا أظْلَمَت جِئْتُ فدَخَلْتُ البيت، فإن جاءك فأدْخِلِيه عليَّ، فَوَدَّع أبو جُنْدُب القوم، وأخبرهم أنه ذاهب إلى الإبل، فلما أظلم الليل جاء، فَأَكْمَنَ في البيت، وجاء أبو السَّيَّارَة وهي تَطْحَن في ظِلِّها، فَرَاوَدَها عن نفسها، فقالت: وَيْحَك، أرأيتَ هذا الأمر الذي تدعوني إليه، هل دعوتك إلى شيء منه قط؟ قال: لا، ولكن لا أصبر عنك، فقالت: ادخل البيت حتى أَتَهَيَّأ لك، فلما دخل البيت أَغْلَق أبو جُنْدُب الباب، وأخَذَه فَدَقَّ من عُنُقِه إلى عَجْب ذَنَبِه، فَذَهَبَت المرأة إلى أخي أبي جُنْدُب فقالت: أَدْرِكْ الرجل، فإن أبا جُنْدُب قاتله. فجعل أخوه يناشده الله فَتَرَكه، وحَمَله أبو جندب إلى مَدْرَجَة الإبل فألقاه، فكان كلما مَرّ به إنسان قال له: ما شَأْنُك؟ فيقول: وَقَعْتُ عن بكْر فَحَطَّمَنِي، فَأَنْشَأ مَحْدُوبًا، ثم أتى عمر بن الخطاب ﷺ فأخبره، فَبَعَث عمر إلى أبي جُنْدُب فأخبره بالأمر على وجهه، فأرسل إلى أهل الماء فَصَدَّقُوه، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة، وأبطل دِيَتَه[١].

ولما دخل على عثمانَ خُصومُه وأعداؤه ليَقْتُلُوه جاءت امرأته نائلة، ونَشَرَت شَعْرَها، وأرادت أن تَسْتُرَه بِشَعْرِها وتَحْمِيه، فقال لها: «خُذي خِمَارَكِ، فَلَعَمْري لدخولهم عليَّ ـ أي: لقتلي ـ أهون من حُرْمة شَعْرِك»[٢].

ونُقِل عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: «أما تَسْتَحُون؟ أَلَا تَغَارُون أن تَخْرُج نساؤكم؟ فإنه بلغني أن نساءكم يخرُجْن في الأسواق يُزَاحِمْن العُلُوج[٣]»[٤].

وهذا معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، كان يأكل تُفَّاحًا ومعه امرأته، فدخل عليه غلام له، فَنَاوَلَتْه تُفَّاحَة قد أَكَلَت منها، فَأَوْجَعَهَا مُعَاذ ضَرْبًا[٥].

= (١/ ١٦٦)، والبيهقي (١٨١٠٤). وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٩/ ١٧): «أثر جيد، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ بِإِسْنَاد حَسَن».

(١) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١/ ٩٩).

(٢) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٣٠٠).

(٣) العُلُوج: جمعُ عِلْج، وهو الرجل القوي الضَّخم من كفار العجم. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٢٨٦)، مادة: (علج).

(٤) أخرجه أحمد (١١١٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (١١١٨).

(٥) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٢/ ٣٥٩).

وسَمِع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما امرأته تُكَلِّم رجلًا من وراء جدار بينها وبينه قَرَابة لا يعلمها... فَجَمَع لها جرائد، ثم أتاها فضربها حتى آضَتْ[(١)] حَشِيْشًا[(٢)].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: تَزَوَّجَنِي الزبير، وما له في الأرض من مال ولا مَمْلُوك، ولا شيء غير نَاضِح، وغير فَرَسه، فكنت أَعْلِف فَرَسَه، وأستقي الماء، وأَخْرِز[(٣)] غَرْبَه[(٤)] وأعجن، ولم أكن أُحْسِن أَخْبِز، وكان يَخْبِز جارات لي من الأنصار، وَكُنَّ نِسْوَة صِدْق، وكُنْت أَنْقُل النَّوَى من أرض الزبير التي أَقْطَعَه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فَرْسَخ، فجئت يومًا والنَّوَى على رأسي، فلقِيْتُ رسول الله ﷺ ومعه نَفَر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: «إِخْ إِخْ» لِيَحْمِلَني خَلْفَه، فاسْتَحْيَيْت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغَيْرَته، وكان أَغْيَر الناس، فَعَرَف رسول الله ﷺ أني قد اسْتَحْيَيْت، فمضى، فَجِئْتُ الزُّبَيْر، فَقُلْتُ: لَقِيني رسول الله ﷺ وعلى رَأْسِي النَّوَى، ومعه نَفَر من أصحابه، فَأَنَاخَ لأَرْكَب، فاسْتَحْيَيْتُ منه، وعَرَفْت غَيْرتك، فقال: والله لَحَمْلك النَّوَى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه[(٥)].

أغارُ عليكِ من نفسي ومنِّي ومنكِ ومن مكانِك والزمانِ
ولو أني خبأتُك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني[(٦)]

ودخل أبو السائب على أبي سعيد الخدري في بيته، يقول: فوجدتّه يصلي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِره حتى يَقْضِي صلاته، فَسَمِعتُ تَحْرِيكًا في عَرَاجِيْن في ناحية البيت، فَالتَفَتّ فإذا حية، فَوَثَبْتُ لأقتلها، فأشار إلي أن اجلس فجلست، فلما انْصَرَف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فَقُلْتُ: نعم، قال: كان فيه فتى مِنَّا حديث عَهْد بِعُرْس، قال: فَخَرَجْنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يَسْتَأْذِن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فَيَرْجِع إلى أهله، فاسْتَأْذَنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ «**خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ**»، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البَابَيْن قائمة، فأهوى إليها الرمح لِيَطْعَنها به وأصابته غَيْرة، فقالت له: اكْفُف عليك رُمْحَك، وادخل البيت حتى تَنْظُر ما الذي أَخْرَجَني، فدخل فإذا بحية عظيمة مُنْطَوِيَة على الفراش، فأهوى إليها بالرُّمْح فَانْتَظَمَها به، ثم خرج فَرَكَزَه في الدار، فاضطربت عليه، فَمَا يُدرَى أيهما كان أَسْرع مَوتًا الحية أم الفتى...»[(٧)].

---

(١) أي: صارت. (٢) المصدر السابق.
(٣) من الخَرْز، وهو خياطة الجلود ونحوها. (٤) الغرب: الدلو الكبير.
(٥) أخرجه البخاري (٥٢٢٤) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٢).
(٦) انظر: «نفح الطيب» (٤/ ١٧٦). (٧) أخرجه مسلم (٢٢٣٦).

فانظر إلى هذا الرجل، مع محبته لامرأته وتعلُّقِه بها فإنه كان يستأذن النبي ﷺ للذهاب إليها في وَسَط النهار، ومع ذلك بِمُجَرَّد أن رآها واقفة بين البابين أهوى إليها بالرمح ليقتلها به، غيرة عليها.

وعن أبي عون قال: «كَانَ مِنْ أَمْر بني قَيْنُقَاع أنَّ امرأة من العَرَب قَدِمَت بِجَلَب[١] لها، فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع، وجَلَسَتْ إلى صَائِغ بها، فجعلوا يريدونها على كَشْفِ وجهها، فَأَبَت، فَعَمِدَ الصَّائِغ إلى طَرَف ثوبها فَعَقَدَه إلى ظَهْرِها، فلمَّا قَامَت انْكَشَفَت سَوْأَتُها، فضحكوا بها، فَصَاحَت. فَوَثَب رجل من المسلمين على الصَّائِغ فَقَتَله، وكان يَهُودِيًّا، وشَدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فَاسْتَصْرَخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَرّ بينهم وبين بني قَيْنُقاع»[٢].

فأين المسلمون اليوم من الغيرة لأعراض المسلمات؟! فكم من مسلمة انتُهِك عِرْضها وانْتُزِع حجابها! وللأسف أكثر من مليار مسلم لم يحركوا لذلك ساكنًا.

ولم تكن الغَيْرة مَقْصُورَة على أصحاب رسول الله ﷺ، بل هي عند كلِّ فَحْلٍ حُرٍّ أَبِيٍّ.

فهذا الخليفة الأموي سُلَيمان بن عبد الملك، كان شديد الغَيْرة، وقد زعم بعضهم أنه جاءت إليه أمَةٌ من إمائه في ليلة قَمْرَاء، وعليها حُلِيٌّ مُعصْفر، فَسَمِع في الليل سَميرًا الأَبَليَّ يغني هذه الأبيات:

وَغَـادَةٍ سَـمِـعَـتْ صَـوْتِـيْ فَـأَرَّقَـهَـا ... مِـنْ آخِـرِ الـلَّـيْـلِ لَـمَّـا مَـلَّـهَـا الـسَّـهَـرُ
تُـدْنِيْ عَـلَى فَـخِـذَيْـهـا مِـنْ مُـعَـصْـفَـرَةٍ ... والـحُـلْـيُ دَانٍ عَـلَـى لـبَّـاتِـهـا خُـضُـرُ
لَـمْ يَـحْجِـب الصَّـوْتَ أَحْرَاسٌ وَلَا غُلُقٌ ... فَـدَمْـعُـهَـا بِـأَعَـالِـيْ الـخَـدِّ يَـنْـحَـدِرُ
فِيْ لَـيْـلَـةِ الْـبَـدْرِ مَا يَـدْرِي مُـعَـايِـنُـهـا ... أَوَجْـهُـهَـا عِـنْـدَه أَبْـهَـى أَم الْـقَـمَـرُ
لـو خُـلِّـيَـتْ لَـمَـشَـتْ نَـحْـوِي عَـلَى قَـدَمٍ ... تـكـادُ مِـنْ رقـةٍ لـلـمَـشْـيِ تَـنْـفَـطِـرُ

فَاسْتَوعَب سليمان الشِّعْر، وظن أنه في جاريته، فَبَعَث إلى سمير فَأَحْضَرَه، ودَعَا بِحَجَّام لِيَخْصِيَه، فَدَخَل إليه عمر بن عبد العزيز، وكلَّمه في أمْرِه، فقال له: «اسكت، إن الفَرَس يَصْهَل فَتَسْتَودِق[٣] الحِجْرُ[٤] له، وإن الفَحْل يخطِر[٥] فَتَضْبَع[٦] له الناقة،

---

(١) الجَلَب: كل ما يُجلَب للأسواق ليُبَاع فيها. (٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٨).
(٣) يقال: استودقت الناقة إذا اشتهت الفحل. انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٥٢)، مادة: (ودق).
(٤) الحِجْر: أنثى الخيل. انظر: «تاج العروس» (١٠/ ٥٣٦)، مادة: (حجر).
(٥) أي: يحرك ذَنَبه يَمْنَة ويَسْرة. انظر: «تاج العروس» (١١/ ١٩٥)، مادة: (خطر).
(٦) أي: تَمُدّ أضباعها، وهي أعضادها. انظر: «المصباح المنير (٢/ ٣٥٧)، مادة: (ضبع).

وإن التَّيس يَنِبُّ[١] فَتَسْتَحْرِم[٢] له العَنْز، وإن الرجل يُغَنِّي فَتَشْبَق[٣] له المرأة». ثم خصاه، ودعا بكاتبه فأمره أن يكتب من ساعته إلى عامله ابنِ حَزْم بالمدينة: (أن أَحْصِ المُخَنَّثِين المُغَنِّين)، فتشظَّى قلمُ الكاتب، فوَقَعَت نقطةٌ على ذرْوَة الحاء، فأصبحت الحاء خاءً، ففُهِم الخطاب على غير وجهه[٤]...

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت أبا عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن أَحْمَد بن موسى القاضي، يقول: حضرتُ مَجْلِس موسى بن إسحاق القاضي بالرَّي سنة ست وثمانين ومائتين، فَتَقَدَمَت امرأة، فَادَّعى وَلِيُّهَا عَلَى زَوْجِهَا خَمْسمائة دينار مَهْرًا، فَأَنكر، فَقَالَ القَاضِي: شُهُودك، قَالَ: قد أحضرتهم، فاسْتَدْعَى بعض الشُّهُود أن يَنْظُر إلى المرأة؛ ليُشِير إليها في شَهَادَته، فقام الشَّاهِد وَقَالَ للمرأة: قومي! فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قَالَ الوكيل: يَنْظُرون إلى امرأتك، وَهِي مُسْفِرة؛ لتَصِحَّ عندهم مَعْرِفَتها، فقال الزوج: فإني أُشْهِد القاضي أن لها عليَّ هذا المَهْر الّذي تَدَّعِيه، ولا يُسْفر عن وجهها، فأُخْبِرَت المرأة بما كان من زوجها، فقالت: فاني أُشْهِد القاضي أنِّي قد وَهَبْت له هذا المَهْر، وأبْرَأته منه في الدنيا والآخرة! فقال القاضي: يُكْتَب هذا في مكارم الأخلاق»[٥].

وهذا أمير من أمراء المسلمين يُقال له: سيف الدين، كان غيورًا شديد الغَيْرة، يمنع الخُدَّام الكبار من دخول دور نسائه[٦].

وكان عماد الدين زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ من أَشَدِّ الناس غَيْرة على نساء رَعِيَّته[٧].

رابعًا: الغَيْرة عند العرب وغير المسلمين:

الغَيْرة لا تختص بالمسلمين، بل هي غريزة من الغرائز تُوجَد عند الكافر الذي لم تَتَدَنَّس فِطْرته، فالعرب في الجاهلية «تجاوزوا في الغَيرة حدودها، إلى كراهة أن يلدوا البنات، حتى دَفَنُوهنّ أحياء، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

---

(١) نَبَّ التَّيس يَنِبّ نَبِيباً: إذا صاح وهاج. «الصحاح» (١/ ٢٢٢)، مادة: (نبب).

(٢) يقال: اسْتَحْرَمَت الشاة إذا طلبت الفَحْل. «النهاية» لابن الأثير (١/ ٩٤١)، مادة: (حرم).

(٣) الشَّبَق: شدة الغُلْمة وطلب النكاح. «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٠٨٢)، مادة: (شبق).

(٤) «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٥٨).

(٥) «المنتظم» (١٢/ ٤٠٢). ط. دار الكتب العلمية).

(٦) «الكامل في التاريخ» (٩/ ٤٤٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٠/ ٢٢٢).

(٧) انظر: «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٤١).

وأما بَذْلهم للأموال لِصَون أعراضهم فَأَسْهَل ما تَجُود به نفوسهم، حتى قال قائلهم[1]:

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُبَدِّدُهُ ... لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعِرْضِ فِي الْمَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَكْسِبُه ... وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالِ

وهذا أعرابي رأى رجلًا ينظر إلى زوجته، ويُقلِّب نَظَرَه فيها، فطلَّقَها، ثم عُوتِب على ذلك، فقال:

وأترك حُبَّها من غير بُغْضٍ ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسودُ وُرُودَ ماءٍ ... إذا رأت الكلابَ وَلَغْن فيه

ولم تكن غَيْرة أحدهم قَاصِرة على عِرْضِه فَحَسْب، بل إنه يَغَار على عِرْض جِيْرَانه وقَرَابَتِه وقبيلته، وفي ذلك يقول عَنْترة[2]:

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِيْ جَارَتِيْ ... حَتَّى يُوَارِيْ جَارَتِيْ مَثْوَاهَا

وكم من حَرْب نَشَبَت بينهم، كان شَرَارَتها تَعَدِّ على عِرْض أو إهانة لكرامة!!»[3].

ومن عَجِيب ما يُذْكَر في العصر الحاضر ما نُشِر في بعض الصُحُف، وهو أنه في كُوبَا تمَّ الإبلاغ عن اثنَيْ عَشَر هُجُومًا على وجوه النساء بحامض الكِبْريتيك في مدينة واحدة خلال شهرين فقط، قام به أقربائهن غَيْرةً عليهن حينما أَبْدَين الزِّيْنة، وأَظْهَرْن السُّفُور.

وفي عام (١٤٢٣هـ) تمَّ تسجيل ثلاثة وثلاثين هجومًا من هذا النوع، وهو عمل لا يُقِرُّه الشَّرْع، وإنما أوردناه لإثبات أن الغَيْرة قد تُوجَد عن غير المسلمين.

* **الغَيْرة عند الحيوان:**

عن عمرو بن مَيْمُون رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «رأيتُ في الجاهلية قِرْدَة اجتمع عليها قِرَدَة، قد زَنَت، فَرَجَمُوها، فَرَجَمْتُها معهم»[4].

وقال الداودي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُتَعَلَّم من الديك خَمس خِصَال: حُسْن الصوت، والقيام في السَّحَر، والغَيْرَة، والسَّخَاء، وكَثْرة الجِمَاع»[5].

---

(١) وهو: حسان بن ثابت. ينظر: «التذكرة الحمدونية» (٢/ ٩٨)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٦٢).
(٢) «ديوان عنترة» (ص٣٠٨).
(٣) ما بين الأقواس من مقال في موقع «طريق الإسلام» بعنوان: (الغيرة على الأعراض) بتصرُّف واختصار.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).
(٥) «فتح الباري» (٦/ ٤٠٦).

فأين ذهبت الغَيْرة عند كثير من المسلمين اليوم؟! أين هي ممن يَأْمُر امرأته، أو أخته، أو إحدى قريباته أن تضع حجابها أمام الأجانب، أو تُصَافِح من لا يحل لها مُصَافَحَته، من قَرَاباته وأصدقائه، أو يرضَى لها أن تَخْرج بِعَبَاءة في غاية الزِّيْنة؟!.

أين ذهبت الغَيْرة عند مَن يذهب بنسائه إلى أماكن يكثُر فيها السُّفُور والعُرِي والتَّبَرّج، لترى ما لا يحلّ لها أن تراه، في أماكن لا تَعْرِف دينًا، ولا حِشْمَة، ولا حياءً، تُزاحم الرجال في المُنْتَزَهَات، والشواطئ، وأماكن لا يليق بامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَدْخلها؟!

بل ولربما سَمَح لها بالسفر إلى بلاد بعيدة؛ من أجل الدراسة والتعليم، وليس معها مَحْرَم يَحُوطُها ويرعاها، فتكون آفة وعُرْضة لكل آسِرٍ وكَاسِرٍ؟!

أين الغَيْرة عند من يرضى لقريبته أن تتواصل مع اللاعبين، والمُطْربين، والفنَّانين، ومع مَنْ يُبْدين إعْجَابهن بهم من غير حياءٍ، ولا احْتِرَاز، ولا حِشْمَة؟!

فهذه امرأة من أَشْراف العرب، زَنَت بعبدها، فَسُئِلت عن سَبَب ذلك، فقال: «طُول السُّهاد، وقُرْب الوِسَاد»[1]؛ أي: كثرة المحادثة مع كثرة المخالطة.

وقد أحسن من قال وهو يصف المرأة الأبية الحرة:

يَعزُّ عَلَى مَنْ يَطْرُقُ البَابَ لَفْظُهَا ... جَوَابًا فَلَا عَقْدًا تَرَاه وَلا حَلَّا
يُطِيْل وُقُوفًا لَا يُجَاب مُحَرَّمٌ ... عَلَيْهَا كَلَامُ الأَجْنَبِيِّ وَإِنْ قَلَّا[2]

نسأل الله تعالى أن يُلهِمَنا رُشْدنا، ويحفظ أعراضنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) «المحاسن والأضداد» (ص٢٥٠).
(٢) البيتان ضمن قصيدة طويلة لأبي شامة المقدسي، نظمها في أمّ ولده. ينظر «تراجم رجال القرنين» (ص١٩٦).

الخامس عشر

الحَيَاء

توطئة

ما أحوجنا للحديث عن الحياء، ذلك الخُلُق الكريم الذي يدعو النَّفْس إلى الفضائل، ويُجَنِّبُها الرَّذَائل، في وَقْت تُنْحَر فيه الفضيلة، وَتُذْبَح فيه الأخلاق من الوَرِيد إلى الوَرِيد، عَبْر قَنَوَات فضائية، حَمَلَت على عَاتِقها تَدْمِير الأخلاق والفضيلة، ومَحَاسِن العادات ومَكَارِمها، ما أحوجنا أن نتحدث عن الحياء في وقت تَرَى فيه مَظَاهِر عَجِيبة تَدُلّ على تَصَحُّر الحياء في نفوس كثير من المُنْتَسِبين إلى الإسلام.

ومن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للحياء في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.

❁ ❁ ❁

معنى الحياء وحقيقته

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الحياء في اللغة: تَغَيُّر وانْكِسَار يَعْتَري الإنسان من خَوْف ما يُعَاب به»[١] .اهـ.

وقال الواحدي: «قال أهل اللغة: أصل الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل لقوة الحياة فيه؛ لشدة علمه بمواقع العيب، فالحياء من قوة الحِسّ ولُطْفه وقوة الحياة»[٢].

فهو كاسمه، مشتق من الحياة، ولا يُقَابِل الحياة سوى الموت، ومنه الحياة للمطر؛ لأنه يُحْيي الأرض بعد موتها بإرادة الله تعالى، وبه تحيا الدواب[٣].

الحياء في الاصطلاح: انقباض النَّفْس من شيء وتَرْكه حَذَرًا عن اللوم فيه[٤].

فهو خُلُق كريم فاضل، من الأخلاق الشريفة التي تَحْمِل صاحبها على تَرْك كل قبيح، وتمْنَعه من التَّقْصير في حق ذي الحق[٥].

إنه خلق يبعث على فِعْل المَحَاسِن، وَتَرْك القبائح، ويُقَابِله البَذَاء والجَفَاء، كما في الحديث: **«الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ»**[٦]، فمَنْزُوع الحياء لا تراه إلا على القُبْح، ولا تَسْمع منه إلا اللغو والتَّأثيم، يَتْرُكه الناس اتقاء فُحْشه، مُجَالَسَته شَرّ، وَصُحْبَتُه ضُرّ، وَفِعْله عُدوان، وحديثه بَذَاء.

❁ ❁ ❁

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٦٧) بتصرُّف يسير.
(٢) «التفسير البسيط» (٢/ ٢٧١).
(٣) «مختار الصحاح» (ص٨٦)، مادة: (حيا).
(٤) «التعريفات» للجرجاني (ص٩٤).
(٥) انظر: «فتح الباري» (١/ ٦٨).
(٦) أخرجه الترمذي (٤١٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه (٤١٨٤) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٨)، والحاكم (١/ ١١٨) ـ وسكت عنه الذهبي ـ، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩١)، والألباني في «صحيح الجامع» (٣١٩٩)، وغيره.

الفرق بين الحياء والخَجَل

الحياء وسط بين طَرَفين مَذْمُومَين؛ بين الخَجَل والبَذَاء.

فالخَجَل خُلُق يَدُلّ على ضَعَة صاحبه ومَهَانَتِه وقُصُوره؛ فهو لا يَسْتَطِيع أن يَرْفَع رأسه ليُنْكِر مُنْكَرًا ولا أن يقول كلمة الحق؛ لأنه يَخْجَل.

ويُقَابِل ذلك البَذَاء والوَقَاحَة والجُرْأَة، وهي تُعَدّ من سَافِل الأخلاق؛ حيث تَحْمِل صاحبها على فِعْل ما لا يليق أمام جُمُوع الناس بكل صَفَاقَة ووَقَاحَة.

والحياء وَسَط بينهما، فهو خُلُق يَكْتَنِفه وَصْفَان ذَمِيمان، مِثْله مِثْل الكَرَم؛ الذي هو وَسَطٌ بين الشُّح والإسراف والتَّبْذِير، ومِثْل التَّوَاضع؛ الذي هو وَسَط بين الذُّل والكِبْر، فإذا انْحَرَفت النَّفْس عن فِطْرتها، وعمَّا رَسَم الله تعالى لها من الأخلاق الفاضلة، فإنها تَمِيل إلى أحد الطرفين، وقليل من الناس من يُوَفَّق إلى لزوم الفِطْرة والمُحَافَظَة عليها.

وبهذا يرتفع الإشكال الذي يُورِده كثيرون، **وهو قولهم**: كيف كان الحياء من الإيمان، وهو خير كله، ولا يأتي إلا بخير، مع أنه لربما جعل صاحبه يَجْبُن في بعض المقامات التي كان يجب عليه أن ينطلق فيها آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر، وقائلًا بالحق؟! كما قد يثنيه عن النهوض ببعض المكرمات، أو يحمله على مُوَافقة غيره فيما لا يَجْمل على سبيل المُدَاهَنة تَحَرُّجًا من المُخالَفة، فكيف يكون ذلك من الإيمان؟!

والجواب: أن هذا الذي سماه الناس في عُرْف استعمالهم بالحياء في الحقيقة أنه ليس من الحياء في شيء، بل هو من المَهَانة والخُنُوع والضَّعْف؛ إذ إن الحياء الشرعي هو الذي يَحْمِلك دائمًا على فِعْل ما يليق، فالنبي ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خِدْرها، ومع ذلك كان يقول كلمة الحق، ويُبَلِّغ دين الله ﷻ، ويغضب لله تعالى إذا انْتُهِكَت حرماته، ويغار لله غَيْرة لا يَغَارُها أحد من الناس. فلم يكن الحياء مانعًا له من القيام بما يجب لله تعالى، أو يَحْسن من الفضائل.

إذن: هذا المانع الذي يمنع الإنسان عن فِعْل ما يَلِيق ليس من الحياء، إنما هو خَوَر وضَعْف ومَذَلّة ومَهانَة تَعْتَور هذا الإنسان، فَيَجْبن في بعض المَقَامَات التي كان يجب عليه أن يَنْطِق بالحق فيها، ويَفْعَل ما يَنْبَغِي.

ومعلوم أن الأخلاق فيها ما يُحْمَد وما يُذَم، فالافتقار إلى المخلوقين، والتَّذَلُّل

والتَّمَلُّق لهم أَمْر مَذْمُوم؛ ولكنه يُحْمَد في مقام واحد؛ وهو إذا كان ذلك من أجل تحصيل العلم النافع، وعلى سبيل التَّلَطُّف بالعلماء، والتواضع لهم، فإن التواضع لهم أمر يحبه الله تعالى، ولا يَحْصل العلم إلا به. بينما التَّرَدُّد على أبواب الناس من أجل الافتقار والحاجة إلى ما في أيديهم مذموم.

يقول ابن عباس ﷺ: «ذَلَلْتُ طالبًا لطلب العلم فَعَزَزْتُ مَطْلُوبًا»(١).

ويقول علي بن أبي طالب ﷺ: «لا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم»(٢).

وقد قال بعض السلف: «إن هذا العلم لا يتعلمه مُسْتَحٍ ولا مُتَكَبِّر»(٣).

وإنما حُمِدَت هذه الأخلاق من التذلل والتواضع والتَّمَلُّق للعلماء؛ من أجل تحصيل العلوم؛ ولأنها طريق إلى تحصيل المعالي والمكارم والفضائل الحقيقية، فهي مُفْضِية إلى الكمال؛ ولهذا قال الحسن رحمه الله: «من اسْتَتَر عن طَلَب العلم بالحياء لَبِس للجهل سِرْبَاله، فاقطعوا سَرَابِيل الجهل عنكم بِدَفْع الحياء في العلم؛ فإن من رَقَّ وجهه رَقَّ عِلْمه»(٤).

ويقول الخليل بن أحمد رحمه الله: «الجهل مَنْزِلة بين الحياء والأَنَفَة»(٥)؛ إما أن يَسْتَحي فتفوته الفائدة، وإما أن يتعالى ويأنف؛ لئلا يُظَنّ به الجهل والحاجة فتفوته كذلك، وهكذا في سائر الخِصَال والأخلاق.

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٥) واللفظ له، وابن عبد البر في «الجامع» (٧٥٦، ٨٠٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥١٠، ٥١١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٠) عن أبي العالية، وأخرجه في موضع آخر (٣/ ٢٨٧) عن مجاهد.

(٤) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٥٥٠).

(٥) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٥٥٠).

مَنْزِلة الحياء

«الحياء إِحْسَاس رقِيْق، وشُعُور دَقِيق، يَبْدُو في العين مَظْهَره، وعلى الوجه أَثَرُه، ومَنْ حُرِمه حُرِم الخير كله، ومن تَحَلَّى به ظَفِر بالعِزَّة والكَرَامة، ونَال الخَيْر أَجْمَع»[١].

فالحياء أَصْل لكل خير، وهو «أفضل وأجلُّ الأخلاق، وأعظمها قَدْرًا، وأَكْثَرُها نَفْعًا، بل هو خاصة الإنسانية؛ لأن الحيوان لا حياء له، فمن لا حياء له ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدَّم. وصورتها الظاهرة، صُورَتُه صُورَة إنسان، ودَاخِلَتُه دَاخِلَة حَيَوَان، كما أنه ليس معه من الخير شيء إذا تَخَلَّى من الحياء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقرَ الضَّيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤَدَّ الأمانة، ولم تُقْضَ لأحد حاجة، ولا تَحَرَّى الرجلُ الجميلَ فَآثَرَه، والقبيحَ فَتَجَنَّبَه، ولا سَتَر له عورة، ولا امْتَنَع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يُؤَدّ شيئًا من الأمور المُفْتَرَضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حَقًّا، ولم يَصِل له رَحِمًا، ولا بَرَّ له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال: إما ديني؛ وهو رجاء عاقبتها الحَمِيدَة، وإما دُنيوِيّ عُلْوِي؛ وهو حياء فَاعِلها من المَخْلُوقِين.

ويَتَبَيَّن بهذا: أنه لولا الحياء ـ مِن الخالق أو من المَخْلُوق ـ لم يَفْعَل الإنسان شيئًا من هذه المَكَارِم»[٢].

فكل إنسان له آمران وزاجران:

آمر وزاجر من جهة الحياء، يأمره بالفضائل، ويزجره عن الرذائل، فإذا أطاعه امتنع من فِعْل كل ما يَشْتَهِي مما لا يليق.

وله آمر وزاجر من جِهَة الهوى والطبيعة، فالنَّفْس تَأْمُرُه بالأشياء، وتَهْوَى أشياء، وتنهاه عن أشياء، فمن لم يُطِع آمِر الحياء وزَاجِره فإنه يُطِيع آمر الهوى والشُّهْرة، فَيَتَمَرَّغ في أَوْدِية الهَلَكَة[٣].

ثم إن هذا الحياء يقوم مَقَام الذِّكْر في بعض المقامات التي لا يُذْكَر الله ﷻ فيها؛

---

(١) ما بين الأقواس من «موارد الظمآن لدروس الزمان» (٣/ ٣٦٥) بتصرُّف.
(٢) ما بين الأقواس من «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧) بتصرُّف.
(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٨).

كحال الإنسان عند الخلاء؛ فإنه لا يَذْكُر ربَّه، ولا يَلِيق به أن يَذْكُره وهو على حاجته؛ ولكن مَقَام الحياء من الله تعالى وهو في هذه الحال، ومَقَام المُرَاقبة لله تعالى، واستحضار هذه النعمة من الله سبحانه عليه بالتَّخَلُّص من هذه المُؤْذِيَات التي تَخْرج من جَسَده، لا شك أنه مِن أجلِّ الذِّكْر كما صَرَّح بذلك جَمْع من العلماء، فَذِكْر كل حَالَة بِحَسَب ما يَلِيق بها، واللائق بالإنسان في حال الخَلَاء أن يَتَقَنَّع بِثوب الحياء من الله تعالى مُجِلًّا له، ذاكرًا نِعْمَته عليه، وإحسانه إليه في مثل هذا المَقَام، وهذه الحال.

إنَّ فَقْد الحياء عَلَامَة من عَلَامَات شَقَاء العبد، فإذا كان الزوج عَدِيم الحياء، أو كانت الزوجة عَدِيمة الحياء؛ فلا تَسْأل عن شِقْوَة أحد الزوجين بالآخر.

وإذا كان أحد الأبناء صَفِيق الوجه، لا يَسْتَحي، ولا يَرْعَوِي، ولا ينتهي عما لا يَلِيق؛ فلا تَسْأَل عن شِقْوَة مُخَالِطيه؛ ممن يُجَالِسُونه ويُآكِلونه ويُشَارِبُونه.

يقول الفضيل بن عِيَاض رَحِمَهُ اللَّهُ: «خمس من علامات الشَّقَاء: القَسْوَة في القلب، وجُمُود العَين، وقِلَّة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطُول الأمل»[(١)].

فالحياء سبيل لِحِفْظ ماء الوجوه، الذي به يَبْقَى رَوْنَقها وبَهَاؤها، كما قيل[(٢)]:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ … وَلَا خَيْرَ فِيْ وَجْهٍ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاؤُكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ وَإِنَّمَا … يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ الْكَرِيْمِ حَيَاؤُهُ

كما أنه أَصْلُ العَقْل وخَاصَّته، وبَذْر الخَير، كما قال ابن حبان البُسْتي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)].

وهو لِبَاس التَّقْوى، كما جاء ذلك عن مَعْبَد الجُهَنِي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال: «لِبَاس التَّقْوى: الحياء»[(٤)].

وقال وَهْب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان عُرْيَان ولِبَاسه التقوى، وزِينته الحياء، وماله العِفَّة»[(٥)].

والحياء من الإيمان، كما قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار حينما مَرَّ به وهو يَعِظ أخاه في الحياء، فقال له النبي ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٠٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٥٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٦).

(٢) أخرجها ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٥٦) عن محمد بن عبد الله البغدادي.

(٣) انظر: «روضة العقلاء» (ص٥٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١١٤) واللفظ له، وابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٣٨٨).

(٦) أخرجه البخاري (٢٤، ٦١١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي الحديث الآخر: «**الحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ**»(١)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»(٢)، وفي حديث أبي هريرة: «**الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(٣). وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٤).

وهنا سؤال: كيف كان الحياء شُعْبَة من الإيمان وهو غَرِيزَة من الغَرَائِز؟!

والجواب: لما كان هذا الحياء يُحَرِّكه، فَيَأمره بالخير، ويَزْجُره وَيَكُفّه عن فِعْل ما لا يَلِيق؛ كان من الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل؛ قول في القلب واللسان، وعمل في القلب واللسان والجوارح، ومن ثم فإن الحياء مِن أَجَلِّ الأعمال القلبية التي تَدْفع الإنسان على فِعْل ما يَلِيق، وتَكُفّه عما لا يَلِيق.

كما أن الحياء خُلُق إسلامي رَفِيع، كما في حديث أنس ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»(٥)، وأخلاق الإسلام كثيرة وإنما جعله النبي ﷺ خُلُق الإسلام؛ لأن به جِمَاع الخُلُق؛ فإن الإنسان إذا كان من أهل الحياء وُجِد فيه الكَرَم، والنَّخْوة، والحَمِيّة، والغَيْرة، وسائر الأخلاق الفاضلة، وإذا لم يكن كذلك فإنه لا يُكْرِم ضَيْفًا، ولا يُوَقِّر كبيرًا، ولا يَرْحَم صغيرًا، ولا يُحْسِن إلى أحد أيًا كان.

والحياء صفة يُحِبّها الله تعالى، كما قال النبي ﷺ لأَشَجّ عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ**»(٦).

وهو من الدِّيْن، وقد ذُكِر عند عمر بن عبد العزيز رَحَمَهُ اللهُ الحياء، وأنه من الدِّين،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٩٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣١) من حديث ابن عمر ﷺ، وصحَّحه الحاكم، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٦٠٣)، والحديث روي موقوفًا على ابن عمر ﷺ. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٧) (١١/ ٢٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٢٧) من حديث أبي أمامة ﷺ، وصحَّحه الحاكم (١/ ٥١)، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٩) واللفظ له، ومسلم (٣٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١، ٤١٨٢) من حديث ابن عباس وأنس ﷺ، وصحَّحه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٩٤٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٨) من حديث ابن عباس ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٨٨) وغيره. وأصل الحديث في الصحيحين.

فقال عمر: «بل هو الدِّين كله»[١].

كما أنه صفة من صفات الله تعالى، ففي الحديث: **«إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»**[٢]، فهذا حياء كَرَم وبِرٍّ وجُودٍ وجَلَال وإفضال من الله تعالى.

كما أن صفة الحياء من أوصاف الملائكة عليهم صلاة الله وسلامه، ويدل على ذلك حديث عائشة ﵂، قالت: كان رسول الله ﷺ مُضْطَجِعًا في بيتي، كاشفًا عن فَخِذَيه أو ساقيه، فَاسْتَأْذَن أبو بكر فأَذِن له، وهو على تلك الحال، فَتَحَدَّث، ثم اسْتَأْذَن عمر، فَأَذِن له، وهو كذلك، فَتَحَدَّث، ثم اسْتَأْذَن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ، وسَوَّى ثيابه... فدخل فَتَحَدَّث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عثمان فجَلَسْت وسَوَّيت ثيابك، فقال: **«أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟!»**[٣].

كما أن الحياء من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد كان النبي ﷺ أشد حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها[٤]، وقال ﷺ في موسى ﵇: **«إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ»**[٥].

وهو أيضًا من صفات المؤمنين الأبرار، والمؤمنات التَّقِيَّات، الحافظات لحدود الله تعالى.

فهذا شمس الدين المقدسي، عالم من علماء المسلمين يقول: «كنت إذا انْكَشَفَ ساقي وأنا في خلوتي أبادر إلى سَتْره مع الاستغفار»[٦].

وقال الله تعالى عن ابنة صاحب مَدْيَن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

لم تأت تمشي مِشْيَةً تَتَبَخْتَر فيها، ولم تَنْزِع عنها جِلْبَاب الحياء، بل جاءت مُحْتَشِمة.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٨٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٧٣١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨) واللفظ له، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي ﵁، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٨٧٦)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٢، ٦١٠٢، ٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٦) أخرجه السخاوي في «الضوء اللامع» (٩/ ١٥٤).

وهذه أسماء بنت أبي بكر ﵄، لما دعاها النبي ﷺ لتَرْكب خَلْفه؛ اسْتَحْيَت وامْتَنَعَت ﵂[١].

ولما سألت أمّ سُلَيم ﵂ النبي ﷺ عن احْتِلَام المرأة؛ غَطَّت أمّ سلمة ﵂ وجهها من الحياء[٢]، لقد غَلَبَها الحياء ﵂ وهي عند رسول الله ﷺ زوجها.

فهذا هو حياء المرأة المسلمة المرأة الشَّرِيفَة العَفِيفَة التي لم تُمَزِّق حياءها القنوات الفضائية، والمَجَلَّات الهَابِطة، وعارضات الأزياء، ودُور الرَّذِيلة في مَشَارِق الأرض ومَغَارِبها.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠).

الحياء في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: في القرآن:

قال الله تعالى عن ابنة صاحب مَدْيَن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال عن نبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثانيًا: الحياء في السُّنَّة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال للأشَجِّ العَصَرِي: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٣٥٩)، والذهبي، وحسَّنه النووي في «خلاصة الأحكام» (٢/ ٨٩٤)، والألباني في «المشكاة» (١٦٠٨ ـ التحقيق الثاني).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وعن عمران بن حصين ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «كان النبي ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها»[٢].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**»[٣].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥) واللفظ له، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٥٥).

هل الحياء غَرِيزَة أو شيء مكتسب؟

لا شكَّ أن الحياء غَرِيزة فُطِر عليها جميع الناس ـ المؤمن والكافر ـ على تفاوت بينهم في ذلك، فمِنهم من فُطِر على قَدْر كبير منه، كما قال النبي ﷺ لأَشَجّ عبد القيس ـ كما في بعض الروايات: ـ **«بل الله جبلَك عليهما»**(١). وإذا أردت أن تَعْرِف حقيقة ذلك الحياء الفطري فانظر إلى الصغير ممن له سنة أو سنتان أو نحو ذلك، حينما تُحَدِّق النَّظَر إليه فإنه لربما ظهر عليه من أمارات الحياء ما لا يخفى.

إلا أن فِطْرة الحياء كغيرها من الفِطَر التي يُمْكِن أن تَتَدَنَّس وتَتَغَيَّر، وأن يَعْتَورها ما يَعْتَور الفِطَر الأخرى، كما قال النبي ﷺ: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»**(٢).

وإذا كان هذا الخُلُق في أصله غَرِيزة فُطِر الناس عليها إلا أنه يمكن أن يُكتَسَب، ويُنَمَّى، فالصغير حينما يُرَبَّى ويُنَشَّأ على الحياء؛ فإن ذلك ينمو ويَتَجَذَّر في نَفْسه، حتى يصير الحياء سِمَة بارزة له، وأما إذا نُشِّئ على خِلَاف الحياء، كما لو تَرَبَّى في بيئة لا مَجَال للحشمة فيها، فتَقَع عينه على أمٍّ قد تَعَرَّت من السِّتْر، وأبٍ يَتَلَفَّظ بأبشع الألفاظ، فَأَنَّى لهذه الفِطْرة أن تنمو؟! وكيف لهذا الصغير أن يَتَحَاشَى تلك الأمور بعد ذلك؟!

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ(٣)

مع أن هذه الخَصْلَة مَغْرُوزَة فيه حينما وُلِد؛ فهي خَاصِيَّة بَشَرِيَّة؛ حباها الله ﷻ هذا الإنسان، وَمَيَّزَه بها عن الحيوانات؛ فإن الحيوان لا يَعْرِف الحياء، وَكُلَّمَا انْحَطَّ الإنسان وتَدَنَّى في أخلاقه شَابَه العَجْمَاوَات والحيوانات في نَزْع الحياء، ووقُوعها على ذَمِيم الأخلاق ومَسَاوِئها.

وانظر إلى آدم وحواء ﷺ حينما أكلا من الشجرة بَدَت لهما سوآتهما، لكنهما

---

(١) تقدم تخريجه، وهذا لفظ أبي داود (٥٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) «ديوان أبي العلاء المعري» (ص١٤٥٨).

بِفِطْرتهما طَفِقَا يَخْصِفَان عليهما من ورق الجنة، وهذا يَدُلّ على أن الحياء فِطْرَة فيهما، وأن التَّعَرِّي والتَّكَشُّف والتَّهَتُّك خِلَاف الفِطْرة، إنما الفِطْرة في السَّتْر والحِشْمة والحياء، والشيطان حَرِيص على نَزْع ذلك بدَعْوته إلى كَشْف العَوْرات، والتَّعَرِي، وإظهار المَفَاتِن والمَحَاسِن؛ من أجل إغراق الناس في الرَّذِيلة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وهذا الذي تدعو إليه الجاهلية الغَرْبِيّة المُعَاصِرة، بكل ما أُوتِيَت من قُوَّة وآلة تُدَمِّر فيها ما تَبَقَّى عند الناس من مَكَارِم الأخلاق التي بُعِثَ النبي ﷺ لتَتْمِيمِها وتَكْمِيلِها.

❁ ❁ ❁

المُفَاضَلة بين الحياء والخَوف

الحياء من شِيَم الأشراف، وهو من صفات النُّفُوس الأَبِيَّة الكريمة الزَّكِية، وصاحبه أَحْسَن حالًا ممَن كان حَامِله عن فِعْل ما لا يليق الخوف المُجَرَّد؛ فإن الدَّافِع للإنسان عن فِعْل القبيح قد يكون الخوف من الله أو من الناس، وقد يكون الحياء من الله أو من الناس.

ثم إن الحياء من الله سبحانه يَدُل على مُرَاقبته، وحُضُور القَلْب معه، وتَعْظِيمه جَلَّ جَلَالُه، وليس ذلك بمُتَحقّق في الخَوف بِقَدْر تَحَقّقه في الحياء.

فالذي وَازِعُه الخوف من الله تعالى قَلْبه مُلَاحِظ للعقوبة، حَاضِر معها، وهو مُلَاحِظ لنفسه ولمَصْلحَتها فَحَسْب، بِخِلاف من كان وَازِعُه الحياء من الله تعالى؛ فإن قلبه حاضر مع الله في حال الإحسان والإساءة، وجميع أحواله؛ حتى في صَدَقَته يُرَاقِب الله فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهو يَعْلم أن هذا الإِنْعَام والإفضال من الله تبارك وتعالى، ولكنه يَسْتَحِي منه؛ لأنه يعلم أن هذا العطاء لا يُكَافِئ نِعَم الله تعالى.

والمُسْتَحيي مُرَاعٍ لجَانِب الرَّبّ، والخائف مُرَاعٍ لجَانِب النَّفْس.

فمَن كان وَازِعه الحياء نَبَعَت يَنَابِيع الحكمة من قَلْبه، وتَفَجَّرَت عُيُونها، وارْتَسَمَت عليه مَكارِم الأخلاق في كل أحواله ومَقَامَاته[١].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

أنواع الحياء(١)

الحياء ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحياء من الله تعالى، ويكون بامتثال أوامره، واجتناب زواجره، فَعَن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ أنه قال: قلتُ: يا رسول الله! عَوْرَاتُنا ما نأتي منها وما نَذَر؟ قال: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا**»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان أحدنا خاليًا، قال: «**الله أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ**»(٢).

وعن سعيد بن يَزِيد الأَزْدِي، أنه قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ ﷻ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ**»(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(٤).

وخَطَب أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقال: «يا مَعْشَر المسلمين اسْتَحْيُوا

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٩٢ ـ ٣٩٦).

(٢) ذكره البخاري معلقًا مختصرًا (١/ ٦٤) (كتاب الغُسْل، باب من اغْتَسَل عُرْيَانًا وحده في الخَلْوة، ومن تَسَتَّر فالتَّسَتّر أفضل). ووصله أبو داود (٤٠١٧) واللفظ له، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وحسَّنه الترمذي، وابن حجر في «مقدمة فتح الباري» (١/ ١٠٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٣)، وصحَّحه الشوكاني في «السيل الجرار» (ص٤٥)، وابن باز في «فتاواه» (٢١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩١)، والطبراني في الكبير» (٥٥٣٩) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤١).

(٤) تقدم تخريجه.

من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأظَلّ حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربي ﷻ»(١).

وقد سُئِل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: ٥]: فقال: «أُنَاس كانوا يَسْتَحْيُون أن يَتَخلَّوا فَيُفْضُوا إلى السماء، وأن يُجَامِعُوا نِسَاءهم فَيُفْضُوا إلى السماء»(٢).

النوع الثاني: الحياء من الخَلْق، ويكون بِكَفِّ الأذى عنهم بجميع أنواعه، سواء كان بالقول أو الفِعْل، وتَرْك سوء الظَنِّ بهم، وتَرْك المُجَاهَرَة بِكُلِّ قَبِيْح.

وبين الحياء من الله تعالى والحياء من المخلوقين مُلازَمَة أكيدة، يقول زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: «مَن لم يَسْتَحِ مَن الناس لم يَسْتَحِ من الله»(٣).

النوع الثالث: الحياء من النَّفْس، ويكون بالعفاف، وصِيَانة الخَلَوات. وهو نَوع لَطِيف من الحياء، يَعْرِفه أصحاب النُّفُوس الكريمة، الشَّرِيفة، العزيزة، الرفيعة، الأبية، فتلك النُّفُوس تستحي من رضاها لِنَفْسها بالنَّقْص، ومن قناعتها بالدون، حتى كأنما صاحبها له نفسان، يَسْتَحي بإحداهما من الأخرى.

وهذا النوع أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحى من نَفْسه كان أولى وأجدر بأن يستحي من غيره كما لا يخفى.

*** أقسامه بالنظر إلى دواعيه وبواعثه(٤):**

الأول: الحياء بسبب الجناية، ويدل على ذلك حديث أنس ﷺ، قال: قال رسو الله ﷺ: **«يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي، فَيَقُولُ: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ،**

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٦)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا (٩٢) واللفظ له، والخرائطي (٣٢١) كلاهما في «مكارم الأخلاق»، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٣٧)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨١).

(٣) أخرجه هناد (٢/ ٦٢٩)، وأبو داود (٣٥٩) واللفظ له، كلاهما في «الزهد».

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢).

فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُوسَى، عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ...»(١).

الثاني: الحياء بسبب التقصير، وبيان ذلك: أن الحياء خُلُق يَتَوَلَّد من أمرين: من مُلَاحَظَة النِّعْمة والإفْضَال، ومن مُلَاحَظَة التَّقْصِير في جَانِب النِّعْمة، فالله يُنْعِم على العبد ويَتفضَّل، فَيَتَوَلَّد من تقصير العبد في شكر هذه النِّعَم حالة يُقَال لها: الحياء، فَيَسْتَحي المُنْعِم عليه سبحانه؛ لتقصيره في القيام بحقُوقه؛ من تَحْقِيق أَلْوَان العبودية له جلّ جَلَاله.

الثالث: حياء الإِجْلَال، ويكون ذلك لمن عَرَفَ الله ﷻ مَعْرِفة صحيحة بأسمائه وصفاته، وعلى قَدْر مَعْرِفَة العبد بِرَبِّه يكون حياؤه منه.

الرابع: حياء الكَرَم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه في سبب نزولها أنه قال: «لما تَزَوَّج رسول الله ﷺ زينب بنت جَحْش، دعا القوم فَطَعِمُوا، ثم جَلَسُوا يَتَحَدَّثُون، وإذا هو كأنه يَتَهَيَّأ للقيام فلم يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قام من قام، وقَعَد ثلاثة نَفَر، فجاء النبي ﷺ لِيَدْخُل فإذا القوم جلوس...»(٢)، فلم يأمرهم النبي ﷺ بالانصراف حياء وكَرَمًا منه ﷺ.

الخامس: حياء الحِشْمَة، ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنتُ رَجُلًا مَذَّاءً، وكُنتُ أَسْتَحِيي أَنْ أَسْأَل النبي ﷺ لمكان ابْنَتِه، فَأَمَرْتُ المِقْداد بن الأسود فَسَأَلَه...»(٣).

وقد كان العرب في جاهليتهم يَأْنَفُون ويَسْتَحْيُون وَيَكْرَهُون أن يَتَحَدَّث أحدهم بشيء مما يَتَعَلَّق بالنساء بحضرة أحد من أقارب زوجه.

السادس: حياء التَّوَاضُع واسْتِصْغَار النفس؛ كحياء العبد من ربه حينما يَسْأَله حوائجه اسْتِصْغَارًا لنَفْسه.

السابع: حياء المَحَبَّة، وهو حياء المُحِبّ من محبوبه إذا خطر على قلبه أو لاقاه؛ ولكنَّ هذه المحبة إذا كانت مُتَجَرِّدة عن الإجلال والتعظيم لم تُورِث الحياء الشرعي المَطْلُوب الذي يَحْمِل صاحبه على الامتثال والانزجار عما لا يليق، وإنما تُورِث لَوْنًا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩١) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٢، ١٧٨، ٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣) واللفظ له.

من المُؤَانَسَة فحَسْب، وإنما تُعْمَر القلوب بالمحبة المُقْتَرِنة بالإجلال والتَّعْظِيم والتَقْديس لله جلَّ جلاله.

الثامن: حياء العبودية، وهو حياء مُمْتَزِج بمحبة وخوف.

التاسع: حياء الشَّرَف والعِّزة، وذلك حياء النَّفْس الكبيرة والعظيمة إذا صدر منها ما هو دون قَدْرها من بَذْل أو عطاء أو إحسان، كما أن صاحب هذه النَّفْس يَسْتَحي من الآخذ المُعْطَى حتى كأنه هو السائل؛ وذلك أنه حينما يُقَدِّم لغيره شيئًا يرى أنه دون مَقَامه فإنه يَعْرَق جَبِينُه ويَسْتَحِي.

كما أن بعضهم لربما اسْتَحْيَا من حيوان بَهِيم، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن جعفر رَحِمَهُ اللهُ أنه خرج إلى حِيْطَان المَدِينة، فبينا هو كذلك؛ إذ نَظَر إلى أَسْوَد على بعض الحِيْطَان وهو يأكل، وبين يديه كَلْب رَابِض؛ فكلما أَخَذ لُقْمَة رَمَى للكلب مثلها، فلم يزل كذلك حتى فَرَغ مِن أكله، وعبد الله بن جعفر واقف على دابته يَنْظُر إليه، فلما فَرَغ؛ دَنَا منه، فقال له: «يا غلام! لمن أنت؟ فقال: لورثة عثمان بن عفان. فقال: لقد رأيت منك عَجَبًا. فقال له: وما الذي رأيت من العَجَب يا مولاي؟! قال: رأيتك تأكل، فكلما أكلتَ لُقْمَة رميت للكلب مثلها. فقال له: يا مولاي! هو رفيقي منذ سنين، ولا بد أن أجعله كأسوتي في الطعام. فقال له: فدون هذا يُجْزِئك. فقال له: يا مولاي! والله إني لأستحيي من الله عَزَّ وَجَلَّ أن آكل وعين تَنْظُر إليَّ لا تأكل»(١).

فأين من هذا الذين يَشْبَعُون ويُصَابُون بِالتُّخَمة والملايين من البشر يموتون جوعًا؟!

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٢٢٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٢٧٧).

الطريق إلى تَحْقِيق الحياء

إن الطريق إلى تَنْمِيَة الحياء وغرْسه في النفوس يَتَحقَّق بأمور، منها:

أولًا: استِحْضار مُراقبة الله تعالى ونَظَرِه إلى العبد، وهذا المَشْهَد أصْل لجميع الأعمال القلبية.

وتحقيق هذا المقام يكون باستحضار معية الله تعالى، فنتذكر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وكلما اشتدت هذه المُرَاقبة أوجبت للعبد من الحياء ما لا يَحْصل بدونها، والحياء يجمع بين مَقَام المعرفة ومَقَام المُراقبة.

ثانيًا: تَقْوِية المَعْرِفة بالله ﷻ، وذلك من خلال التَّعَرُّف على صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نَفْسه؛ فإن العبد إذا عرف ربه بصفاته الكاملة مَعْرِفة صحيحة عَظُم في قلبه؛ فهَابه، وخَافه، واسْتَحيَا منه، وعَظَّمَه. وهذه معرفة خاصة لأهل الإيمان والتُّقى، بخلاف المَعْرفة العامة؛ فالخَلْق جميعًا يَعْرِفون أن الله هو خالقهم ومُوجِدُهم ورازقهم؛ ولكن أهل الإيمان الخاص هم الذين يَعْرِفُونه بصفات الكمال على وَجْه التَّفْصِيل.

وطَرِيق ذلك: هو أن نَعْرِف مَعَانِي هذه الأسماء، و«أن نَتفكَّر ونَتأمَّل في آيات القرآن العظيم، والآيات الكونية، وأن نَتَأمّل في حِكْمة الله تعالى وقُدْرته، ولُطْفه وإحسانه، وعَدْله في قضائه وقَدَره وخَلْقه.

وجِمَاع ذلك: الفِقْه في مَعَاني الأسماء الحسنى وجَلَالها وكَمَالها، وتَفَرّده بذلك، وتَعَلّقها بالخَلْق والأمْر، فيكون العبد فَقِيهًا في أوامر الله ونَوَاهيه، وفَقِيهًا في قضائه وقَدَره، وفَقِيهًا في أسمائه وصفاته، وفَقِيهًا في الحُكم الدِّيني الشَّرعِي، والحُكم الكوني القَدَرِي»[1]، وكلما ازدادت هذه المَعْرِفة وهذا الفقه ازداد الحياء في قلب العبد، فإذا عرف الإنسان رَبَّه مَعْرِفة حقيقية ازداد الحياء ونَمَا وتَرَعْرَع في قلبه.

وذلك أن الأسماء والصفات مُقْتَضِية لآثارها من العبودية، «فَلِكُل صِفَة عبودية خاصة، هي من مُوجَبَاتها ومُقْتَضَيَاتها»[2]، فَعِلم العبد بِسَمْع الله وبَصَره، وأنه لا يخفى

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الفوائد» (ص٢٤٩) باختصار وتصرف.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ١٠١) بتصرُّف.

عليه مِثْقَال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يَعْلم السِّرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور؛ كل ذلك يُورِثه الحياء؛ فَيَحْفَظ لسانه وجوارحه، وخَطَرات قلبه عن كل ما لا يُرْضِي الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: تَنْمِيَة العِفَّة في النُّفوس، وإِشَاعة العَفَاف؛ فالعِفَّة هي أحد أركان حُسْن الخُلُق الأربعة.

إنها خَصْلة شَرِيفة تَحْمِل صاحبها على «اجتناب الرذائل والقبائح القولية والفعلية، وتَحْمِله على الحياء الذي هو رَأس كل خير»(١).

رابعًا: مَعْرِفة النَّفْس وضَبْطها، فلا تَتَعَالى وتَتَكَبّر؛ فإن الإنسان إذا ضبط نَفْسه وعَرَفها، وكان فَقِيهًا بها؛ فإنه يستطيع بعد ذلك بِعَوْن الله تعالى أن يُسَيطِر عليها؛ فَيَضْبِط سُلُوكه، فَيُوجِب له ذلك: الحياء من الله، واسْتِكْثار نِعَمِه، واسْتِقْلال ما يُقَدِّمه في مُقَابِل هذه النِّعم من أَلْوَان العبوديات، فلا يكون مُدِلًّا على ربه جلّ شأنه بعمله الصالح.

خامسًا: مُجَالَسة من يُسْتَحيا منه؛ لأن الطَّبْع سَرَّاق، والناس كأَسْرَاب القَطَا جُبِلُوا على تَشَبّه بعضهم ببعض، فمن جَالَس أهل الحياء تَخَلَّق بأخلاقهم، ومن جالس أهل الجفاء والبَذَاء والرّعُونَة فإنه كذلك يَتَخَلَّق بأخلاقهم ولا بد.

فإذا جالس الإنسان من يَسْتَحيي بمُجَالَسَتِهم كان ذلك سَبَبًا لنَمَاء الحياء في نَفْسه.

ولهذا قال بعض السلف: «أَحْيُوا الحياء بِمُجَالَسَة من يُسْتَحْيَا منه»(٢).

ويقول الإمام مُجَاهِد رَحِمَهُ اللهُ: «إن المُسْلِم لو لم يُصِب من أخيه إلا أنّ حياءه منه يَمْنَعه من المعاصي لكفاه»(٣).

سادسًا: تَدَبُّر كلام الله تعالى، الذي تَجَلَّى فيه لعباده بصفاته؛ تارةً بأوصاف الهَيْبَة والعَظَمَة والجَلال، وتارةً بصفة السَّمْع والبَصَر والعِلْم؛ فَتَنْبَعث في العبد قوة الحياء، فَيَسْتَحي من ربه أن يَسْمَعه أو يراه على ما يَكْره، أو يُخْفِي في سريرته ما يَمْقته عليه، فتبقى حَرَكَاته وأقواله ونَظَراته وخَوَاطِره مَوْزُونة بميزان الشّرع، غير مُرْسَلة تحت حُكْم الهوى.

سابعًا: التربية على الحياء: فَيُنَشَّأ الصغير على الحياء، ويُنَمَّى ذلك فيه؛ ويُعَوَّد على

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٩٠) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٦٢)، والقشيري في «رسالته» (٢/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٦٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٠) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٦).

الحِشْمَة والسَّتْر، وتَرْك ما لا يَلِيق، فمن نَشَأ على ذلك في صِغَره لازمه في كبره، ومن شَبَّ على شيء شاب عليه:

مَا سُمِّي الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ... وَلَا تَلِيْنُ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْخشبِ[١]

ثامنًا: إزالة ما يُنَافِي الحياء، من قنوات ومَجَلَّات وبرامج هابطة، ونحو ذلك، فكم دَمَّرت من أخلاق، وحَطَّمَت من قِيَم وفضيلة!

إنهم يُصَوِّرون الفَضِيْلة من خلال ذلك على أنها تَخَلُّف، ويَصِفُون المرأة المُحَافِظة على طُهْرها وحيائها وحِشْمَتها وعفافها بالمُتَخَلِّفة والرجعية، والانطوائية والمعقدة، وتُبْرَز المرأة العَصْرِية على أنها المُتَهَتِّكة المُتَبَرِّجة، التي باعت حياءها وحِشْمَتها، وتَرَجَّلت وظَهَرت أمام الشاشات تَعْرِض فِتْنَتَها سِلْعَة رَخِيْصة.

وهكذا ما استجد للناس اليوم من وسائل التواصل الذي صارت معها المرأة تُتابع الرجل، والرجل يُتَابع المرأة، فيعرف كل واحد عن الآخر كثيرًا من تفصيلات حياته، ثم ما قد يقع مع ذلك من التَّرَاسُل والتَّوَاصُل وإبداء المَشَاعِر، مما يُجَرِّئ كل طَرَف على الآخر، حتى يكون بينهما من المُقَارَبة ما لا يُوجَد بين الأخ وأخيه، بل لا يُوجَد بين بعض الأزواج.

تاسعًا: أن يَسْتَحْضِر العبد رؤية الملائكة له، وأنه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وفي الحديث «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»[٢]، فإذا استحضر العبد ذلك اسْتَحْيَا أن يفعل ما لا يليق.

عاشرًا: الإمْساك عن الأقوال والأفعال المُنَافِية للحياء: وفي الحديث: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[٣]، فالحياء إنما يكون بِتَكَسُّبه وتَطَلُّبه، فإذا فَعَل الإنسان الأفعالَ اللائقة بأهل الحياء صار ذلك خُلُقًا راسخًا له، وإذا فَعَل ما يُضَادّ ذلك انْخَلَع من رِبْقَة الحياء.

حادي عشر: تَذَكُّر الآثار الطيبة للحياء، والآثار القبيحة المُتَرَتِّبة على تَرْكه.

ثاني عشر: مُجَاهَدة النَّفْس، وتَرْوِيضها على الأخلاق الفاضلة؛ وذلك أن كل شَرَف

---

(١) «الأمثال» (ص١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٣)، وابن شاهين في «الترغيب» (٢٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٧٤) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، و«صحيح الجامع» (٢٣٢٨)، وروي موقوفًا على أبي الدرداء ﷺ.

وعُلُو ورِفْعَة يحتاج إلى مُجَاهَدة ومُكَابَدة وأَلْوَانٍ من الصبر؛ لأن أضداد ذلك تُزَيِّن خِلَافَه، والنَّفْس فيها نَوَازِع، فكما أن الحياء غَرِيْزَة وفِطْرة فكذلك في النَّفْس الأمارة بالسوء داعي الهوى، وهو يُحَرِّك الإنسان ويدعوه إلى فِعْل ما لا يليق، فيبقى الصِّرَاع مُحْتَدِمًا بين الفَضِيْلة والرَّذِيلة، بين داعٍ يدعوه إلى الخير ومُلَازَمة الأخلاق الفاضلة، وداعٍ يدعوه إلى ضدِّ ذلك.

ثَالث عشر: النَّظَر في سِيرَة أهل الفَضْل والشَّرَف، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فيُنْظَر في أخلاقه وصفاته وشمائله، وفي سِيَر الصحابة ﷺ، ومُطَالَعة أخلاقهم.

رابع عشر: حياة القلب، فإذا كان القلب حيًّا كان الحياء حاضرًا، فالحياء من الحَيَاة، ومن لا حَيَاة في قلبه لا حياء له، فَعَلى حَسَب حَيَاة القلب يكون الحياء، فكلما كانت الحَيَاة في القلوب أكبر وأكمل كان الحياء فيها أتم، وكما أن قِلّة الحياء من مَوْت القلب والرُّوح؛ ولهذا قال عمر ﷺ: «من قَلَّ حياؤه قَلَّ ورَعه، ومن قَلَّ ورَعه مات قلبه»(١).

ولهذا فَضَّل العلماء رحمهم الله ذِكْر القلب على ذِكْر اللسان؛ «لأن ذِكْر القلب يَدُلّ على حياة القلب، ويكون مُحَرِّكًا له، ويُثْمِر فيه المَعْرِفة، ويُهَيِّج المَحَبَّة، ويُثِير الحياء، ويَبْعَث على المَخَافة، ويدعو إلى المُرَاقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات والتَّهَاون في المعاصي والسيئات، أما ذِكْر اللسان المُجَرَّد فإنه قد لا يُوجِب شيئًا من ذلك»(٢)؛ لأن الإنسان قد يَذْكر ربه مع غَفْلَته، فلا بد من حضور القلب.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦)، و«مكارم الأخلاق» (٩٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٤٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٤/ ٣١٥) (٤٣/ ١٧٥).
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص٢٢١) بتصرُّف.

الأمور التي تنافي الحياء

للحياء أضداد، وموانع تُضْعِفه وتُحَطِّمه، فينبغي الحذر على هذه الخصلة الفَذَّة الشَّرِيفة من كل آسر وكاسر، ومن الخطأ أن تُجْعَل عُرْضَة للصوص الأخلاق، ودعاة الرذيلة، يَنْتَشِلُونها ويَقْتَلِعُونها من النُّفُوس. **ومن الأمور التي تُذْهب الحياء وتُضْعِفه:**

أولًا: المعاصي بجميع أنواعها، فالذّنوب تُضْعِف الحياء في القلب، حتى إن القلب لَيَمُوت بسبب هذه الذنوب، وينْسَلِخ من الحياء بالكُلِّيَّة، فلا يَتَأَثَّر الإنسان بعد ذلك بفِعْل القَبِيْح، بل لربما تبجَّحَ به، وأخبر الناس عنه، وافْتَخَر بما لا يَلِيْق.

فإذا كان الإنسان مُدْمِنًا على المعاصي، مُعْتَادًا لها؛ فإنه لا يَرْعَوِي، بل يَفْعَل ذلك أمام الناس دون حياء، انظر مثلًا إلى حال المُدَخِّن، يَفْعَل ذلك أمام الآخرين بلا حياء، ولا يرى في ذلك غَضَاضَة، بينما من لم يَعْتَد على هذه الخَصْلَة السيئة لو أراد أن يفعلها تَخَفَّى.

فبين الذنوب وقِلّة الحياء مُلَازَمة أكيدة.

ومن تلك الذنوب التي تُضْعِف الحياء سَمَاع الأغاني.

يقول يزيد بن الوليد ـ وهو من خلفاء بني أمية ـ: «يا بني أمية، إياكم والغناء؛ فإنه يُنْقِص الحياء، ويَزِيد في الشَّهْوة، ويَهْدِم المُروءة، فإنه لَيَنُوب عن الخمر، يَفْعَل ما يَفْعَل السُّكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فَجَنِّبُوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا»[1].

ثانيًا: التربية السيئة؛ فإن أثر التربية لا يُنْكَر، وقد مضى فيما سَبَق ما يكفي في هذا الجانب.

ثالثًا: مُخَالَطة النساء للرجال الأجانب، فعمل المرأة مع الرجال الذي يَسْتَلْزِم مُخَالَطتهم، وحضور اجتماعاتهم، ولربما تَطْبِيبهم؛ يُذْهِب حياءها، فتُصْبِح مُتَرَجِّلة، بل لربما أَبْدَت لغيرها أنها امرأة لديها قُدْرة على الاندماج، ومُدَاخَلة الآخرين، وكَسْر التقاليد ـ كما يُقَال ـ وما عَلِمَت أنها بذلك تَكْسِر شَرَفها وخُلُقها ودينها.

فهذه امرأة من أشراف العرب، زَنَت بعبدها، فَسُئِلت عن سَبَب ذلك، فقالت: «طُول السُّهَاد، وقُرْب الوِسَاد»[2]؛ أي: كثرة المُخَالطة مع طُول المُحَادَثة.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٥٠). (٢) تقدم ذكرها.

رابعًا: مُخَالَطة من قَلَّ حياؤهم، أو إدْمَان النَّظَر إليهم عبر المسلسلات وما إلى ذلك.

خامسًا: كثرة خروج المرأة من بيتها، فإن ذلك لَوْن من أَلْوَان التَّبَرُّج، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والتَّبَرُّج من البُرُوج، وهو الظُّهُور والانْكِشَاف، ومنه قيل للبُرْج ذلك؛ لأنه مُنْكَشِف ظاهر[1].

وفي القراءة الأخرى المتواترة: ﴿وَقِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[2]، فأمرها بالقَرَار وبالوَقَار، وهما مُتَلَازِمان، فَوَقَار المرأة في قَرَارِها، وذَهَاب ماء الوجه إنما يكون بِكَثْرة خُرُوجِها.

وقال ﷺ: «**المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**»[3]؛ أي: هَمَّ بها. فما أحوجنا إلى التنبه لهذا المعنى في وقت قد أَجْلَب الشياطين بخيلهم ورَجلهم؛ من دُعَاة خروج المرأة، بالقول والكتابة، في القنوات والإذاعات والإنترنت والصحف والمجلات.

فالمرأة مُهِمَّتُها القيام بِدَورها الرِيَادِي في تربية الجيل، وحِفْظ كَيَان الأسرة بالقرار في البيت، فيأتي الرجل، فيَجِد بيته مُهَيّأ على أحسن حال، بخلاف ما إذا خرجت، فإنه يُحْتَاج إلى مُرَبِية وخادمة، ولا يخفى ما في ذلك من المفاسد.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (١/ ٢٣٨)، مادة: (برج).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (١٦٨٥)، وابن حبان (٥٥٩٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٠) وغيره.

من مظاهر الحياء

١ ـ أن يُطَهِّر المسلم لسانه من الفحش ومَعِيب الألفاظ، والألفاظ النابية البذيئة.

٢ ـ أن يَقتَصِد الإنسان في الحديث في المَجَالس؛ لأن الإكثار في ذلك مَظَنَّة للزلل.

٣ ـ أن يَتَوَقَّى الإنسان ويتحاشى أن يَصْدُر عنه سوء في قول أو فِعْل أو حال، فيتلطخ عرضه.

٤ ـ أن تُحَافِظ المرأة المسلمة على كرامتها وحِشْمَتِها، وأن تُرَاقِب ربها، وتَحْفَظ حق زوجها، وأن تَبْتَعِد عن مَسَالِك الرِّيبة والشُّبْهة.

٥ ـ أن نَعْرِف لأصحاب الحقوق حقوقهم.

❁ ❁ ❁

مَظَاهِر لقلة الحياء[١]

من المظاهر المشينة التي تدل على قلة حياء أصحابها:

١ ـ المجاهرة بالمعاصي عُمُومًا.

٢ ـ كَثْرَة اللِّجَاج والخُصُومة، وعقوق الوالدين، وقِلَّة الأدب مع المُرَبِّين والمصلحين، وأذية النَّاس بأي لَون كان.

٣ ـ المزاح المُسِف، والتَّهَتُّك والتَّعَرِّي، والمُعَاكَسات، وتَقْلِيد الكفار في مُسْتَهْجَن عاداتهم، والكتابات البذيئة على الجدران والأماكن العامة، ورسائل الجوال المُخِلَّة بالأدب، ونَغَمَات الجوال الموسيقية، وكذلك ما تقوم به بعض النساء من التَّبَرُّج، ومُزَاحمة الرجال في الأسواق والأماكن العامة.

٤ ـ ما يجري في المَشَاغِل النِّسَائية من أمور يَنْدَى لها الجَبِين؛ من كَشْف السوءات، وهَتْك العورات، والتَّخَلِّي عن الحياء والفضيلة، مع أن النبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلَّا هَتَكَتِ السِّتْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا**»[٢].

٥ ـ ما تفعله بعض النِّساء في الأعراس وغيرها؛ من لِبْس للملابس الضيقة، والعباءات الفاتنة، والنِّقَاب المُخِل بالحِشْمة، ومُضَاحَكة الرجال الأجانب، والخُضُوع بالقول معهم، وكذلك طَرْح الأسئلة الجريئة على البرامج المُبَاشرة، وكذلك الخروج للمطاعم ومقاهي الإنترنت، ونحوها، وكذلك ما تفعله بعض النساء عند البيع والشراء؛ من تمكين البائع أن يَقِيس عليها الحُلِي، أو الثوب ونحوه، وكذلك إخراج يدها له ليعطرها، وكذلك الخَلْوة مع الطبيب، والتكشف له من غير ضرورة.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «موسوعة الأخلاق الإسلامية» (١/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٠)، والترمذي (٢٨٠٣) واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٥٠) (٢/ ١٢٣٤)، وحسَّنه الترمذي، وجود إسناده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٢٧)، وصحَّحه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (١/ ٢١٣)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠).

ثمرات الحياء[1]

أولًا: أنه يَزْجر صاحبه عن المعصية، ومُقَارَفة ما لا يَلِيق، وبِغيَاب الحياء تُدَمّر الأخلاق، وتُرْتَكَب الفواحش والمُوبِقَات، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»[2].

فَلَا وَاللَّه مَا فِيْ الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يَعِيْشُ المرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى العُوْدُ مَا بَقِيَ اللحاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيِ[3] فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ[4]

ثانيًا: ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[5]، وقوله ﷺ: «مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ»[6].

ثالثًا: أنه يُورِث دوام المراقبة لله تعالى، ويُورِث العبد رِفْعَة، كما قال الحسن رحمه الله: «الحياء والتَّكَرُّم خَصْلَتان من خِصَال الخير، لم يكونا في عبد إلا رَفَعَه الله عز وجل بهما»[7].

رابعًا: تَحْصِيل محبة الله تعالى، فالله حَيِي سِتِّير، يُحِبّ أهل الحياء، كما أن الحياء يُورِث حياة القلب، ويُؤَثِّر في حَجْم المُخَالَفَة والمعصية، فَشَتَّان بين من يَفْعَل المعصية وهو مُتَبَجِّح من غير حياء ومن يَفْعَلها وهو مُسْتَحٍ من الله تعالى.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «موسوعة الأخلاق الإسلامية» (١/ ٢١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٦١٢٠) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.
(٣) أُثبِتَت الياء لأجل الوزن.
(٤) «شرح ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (٢/ ٣١١)، البيت الأخير ليس موجود في شرح الخطيب التبريزي، وهو موجود في ديوانه بشرح محيي الدين الخياط (ص٤٨٥).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٩).

من أخبار أهل الحياء

أكثر الناس حياء، وأعظمهم قَدْرًا فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء في وصف النبي ﷺ أنه كان أشد حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها[1].

وعن عائشة ﵂ أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المَحِيض؟ قال: «**خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فَتَوَضَّئِي ثَلَاثًا**»، ثم إن النبي ﷺ اسْتَحْيَا، فأعرض بوجهه... فأَخَذتُها فَجَذَبْتُها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ[2].

وقال ﷺ في وَصْف موسى ﵇: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**»[3].

وهكذا كان من بعدهم، فإنهم سَلَكُوا سبيلهم، وانْتَهَجُوا نَهْجَهم:

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: «يا معشر المسلمين استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأَظَلّ حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربي ﷻ»[4].

وعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: «إني لأَغْتَسِل في البيت المُظْلِم، فأَحْني ظهري إذا أخذتُ ثوبي؛ حياء من ربي»[5].

وعن أنس ﵁ قال: «كان أبو موسى إذا نام لبس تُبَّانًا[6] مخافة أن تبدو عورته»[7].

وهذا ابن عباس ﵄، لم يكن يدخل الحمام إلا وحده، وعليه ثوب صَفِيق[8]، **ويقول**: «إني أستحي من الله أن يراني في الحمام مُتَجَرِّدًا»[9].

وخرج زيد بن ثابت ﵁ يريد الجمعة، فاستقبله الناس راجعين، فَدَخَل دارًا، فقيل

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٣١٤، ٣١٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١٠٦).
(٦) التُّبَّان: سراويل صغير، يَسْتر العَورة المُغلَّظة فقط. «النهاية» لابن الأثير (١/ ١٨١)، مادة: (تبن).
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٢١٤).
(٨) أي: غليظ.
(٩) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٥٥).

له، فقال: «إنه من لا يَسْتَحي من الناس لا يَسْتَحِي من الله»(١).

وهذا الأسود بن يزيد كان مُجْتَهِدًا في العبادة، يصوم حتى يَخْضَرّ جَسَدُه ويَصْفَرّ. . . فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجَزَع؟ قال: «ما لي لا أَجْزَع؟! ومن أحق بذلك مني؟! والله لو أُتِيتُ بالمغفرة من الله ﷻ لهَمَّنِي الحياء منه، مما قد صَنَعْتُه، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يَزَال مُسْتَحِيًا منه»(٢).

وهذا محمد بن يحيى لما وضعوه على السرير يغسلونه بعد موته قالت جارية مَمْلوكة له: «خدمت أبا عبد الله ثلاثين سنة، وكنتُ أَضَع له الماء، فما رأيتُ ساقه قط، وأنا مِلْك له»(٣).

وعن أبي الهذيل رَحِمَهُ اللهُ يقول: «أَدْرَكْنا أقوامًا وإن أحدهم يَسْتَحي من الله تعالى في سواد الليل»(٤)؛ يعني: من التَّكَشُّف.

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللهُ، كان شديد الحياء، يقول عنه شيخه محمد بن سلام بعد أن خرج من عنده مرة: «أترون البِكْر أَشَدّ حياء من هذا؟!»(٥).

ودخل رجل على الإمام الحُمَيدي رَحِمَهُ اللهُ، فَدَقَّ عليه بابه، فَسَمِعه يُهَمْهِم، فَظَنّه قد أَذِن له، فدخل عليه، فجاءه، فَوَجَدَه مَكْشُوف الفَخِذ، فبكى الحُمَيدي بكاء شديدًا، وقال: «والله لقد نَظَرْتَ إلى مَوضِع لم يَنْظُره أحد منذ عَقَلْت»(٦).

وهذه امرأة مُعَاصِرة، كَتَب عنها أحد الدعاة، يقول: «كنتُ في رِحْلة دَعَوِيّة إلى بَنْجَلاديش مع فريق طبيٍّ، أقام مُخَيَّمًا لعلاج أمراض العيون، فتقدّم إلى الطبيب شيخٌ وَقُور ومعه زوجته بِتَرَدُّد وارتباك، ولمّا أراد الطبيب المُعَالِج أن يَقْتَرِب منها فإذا بها تبكي وتَرْتَجِف من الخوف، فظنّ الطبيب أنها تَتَأَلّم من المرض، فسأل زوجها عن ذلك، فقال وهو يُغَالِب دموعه: إنها لا تبكي من الألم، بل تَبْكِي لأنها ستَضْطَرّ أن تَكْشِف وجهها لرجل أجنبي! لم تَنَم ليلة البارحة من القَلَق والارْتِبَاك، وكانت تُعَاتِبُني

---

(١) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٦١) مختصرًا، وابن عساكر في «تاريخه» (١٩/ ٣٣٢) واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٣).

(٣) «تاريخ بغداد» (٤/ ١٩٠)، و«تاريخ دمشق» (٧٣/ ٢٧٢)، و«تهذيب الكمال» (٢٦/ ٦٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٧٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٥٩).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤١٨).

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ٧٩).

كثيرًا: أوَترضى لي أن أكشف وجهي..؟! وما قَبِلَتْ أن تأتي للعلاج إلا بعد أن أقسمتُ لها أيمانًا مُغَلَّظة بأنّ الله تعالى أباح لها ذلك للاضطرار، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]. فلمّا اقترب منها الطبيب نَفَرت منه، ثم قالت: هل أنت مسلم؟ قال: نعم، والحمد لله!! قالت: إن كنتَ مُسْلمًا.. إن كنت مُسلمًا.. فأسألك بالله ألّا تهتك سَتْري، إلا إذا كُنتَ تَعْلَم يَقِينًا أن الله أباح لك ذلك. أُجْرِيَت لها العملية بنجاح، وأزيل الماء الأبيض، وعاد إليها بَصَرها بفضل الله تعالى. حدّث عنها زوجها أنها قالت: لولا اثنتان لأَحْبَبْتُ أن أصبر على حالي ولا يَمَسُّني رجل أجنبي: قراءة القرآن، وخدمتي لك ولأولادك»[١].

هذا آخر ما أردت ذكره في موضوع الحياء، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) «مجلة البيان» [عدد: ١٣٨/ صفر/ ١٤٢٠هـ].

السادس عشر

التَّوْبَة

توطئة

«إن مَنْزل التوبة أوّل المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السَّالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واسْتَصْحَبه معه. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور: ٣١]، وهذه الآية خاطب الله بها أهلَ الإيمان وخيارَ خَلْقِهِ؛ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفَلَاحَ بالتوبة تعليقَ المُسَبَّب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالترجّي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحُجرَات: ١١]، فقَسَّمَ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسمٌ ثالثٌ البتةَ. وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقِّه، وبعيب نَفْسه، وآفات عمله»[١].

وحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله، ولا يصحُّ الرجوع، ولا يَتِمّ إلا بمعرفة الربِّ بأسمائه وصفاته، وآثارها في نَفْسه، وفي الآفاق. ومعرفة أنه كان فارًّا من ربه، أسيرًا في قبضة عدوه، وأنه ما وقع في مَخَالِب عدوِّه إلا بسبب جهله بربه، وجُرْأته عليه.

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٩٩) باختصار وتصرف يسير.

معنى التوبة وحقيقتها

أولًا: التوبة في اللغة:

التوبة في اللغة تدور على معنى الرجوع والعودة، والإنابة والنَّدَم.

قال ابن فارس: «التاء والواو والباء كلمة واحدة، تدل على الرجوع... والتَّوْب: التوبة، قال الله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غَافِر: ٣]»[١]. اهـ.

التوبة في الشرع:

وأما معنى التوبة في الشرع: فقد كثرت عبارات العلماء في بيان حقيقتها، وقد عرَّفها جماعة من أهل العلم؛ كالأخفش، والغزالي، والقرطبي، والقشيري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والألوسي، وابن عاشور[٢].

ويجمع تلك التعاريف القولُ بأنها: تَرْك الذنب عِلْمًا بقُبْحه، وندمًا على فِعْله، وعَزْمًا على ألَّا يعود إليه إذا قَدِر، وتَدَارُكًا لما يمكن تَدَارُكه من الأعمال، وأداءً لما ضيِّع من الفرائض؛ إخلاصًا لله، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغَرْغَرَة، وقبل طلوع الشمس من مَغْربها.

وذكر الغزالي أنها تنتظم وتلتئم من ثلاثة أمور: «**عِلْم، وحال، وفِعْل**.

فالعلم: هو معرفة عِظَم ضَرَر الذنب، وأنه حجابٌ عن الله ﷻ، والنعيم في الآخرة، وأن الذنوب تُورِث الخسرانَ والهلاكَ.

وأمَّا الحال: فهو ما يقوم في نَفْس الإنسان من الندم والتَّألم، والغَمّ بسبب ارتكابه للذنب أو التقصير.

وأما الفِعْل: فهو انبعاث القلب لإرادة الإقلاع عن الذنب في الحال إذا كان لا يزال مُتَلَبِّسًا به، والعَزْم على تَرْكه، وعدم العودة إليه، وهذا مُتَعَلِّق بالمستقبل، وبتدارك ما

---

(١) «مقاييس اللغة» (١/ ٣٥٧)، مادة: (توب)، وانظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٣ ـ ٤)، مادة: (توب).

(٢) انظر: «الصحاح» (١/ ٩١)، مادة: (توب)، و«إحياء علوم الدين» (٨/ ٥٠٠ ـ ٥٠١ بشرح الزبيدي)، و«الرسالة القشيرية» (١/ ٢٠٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٤٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٩)، و«روح المعاني» (١/ ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٨).

يمكن تداركه، وتلافي ما فات»[١].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن التوبة في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، كما تتضمَّن الإقلاع عن الذنب في الحال، والنَّدَم عليه في الماضي، والعَزْم على عدم العَوْد في المستقبل؛ وتتضمن أيضًا العزمَ على فِعْل المأمور والتزامه، فحقيقةُ التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فِعْلِ ما يُحِبّ، وتَرْك ما يكره[٢].

فهو يرى أن التوبة لا يَكفي فيها الندم، والعزم على عدم العودة إلى الذنب، والإقلاع عنه، ورد المظالم إلى أصحابها، كما هي الشروطُ الأربعةُ المعروفةُ؛ بل لا بد معها من صلاح الحال؛ بالتزام أمر الله ﷻ، واجتناب نهيه. وما ذكروه من هذه الأربع إنما هو بعض مُسَمَّاها، بل شروطها[٣].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالرجوع إلى المحبوب جُزْء مُسَمَّاها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر؛ ولهذا علَّق سبحانه الفلاحَ المطلقَ على فِعْل المَأمور وتَرْك المحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١]، فكل تائب مُفْلح، ولا يكون مُفْلحًا إلا مَنْ فَعَل ما أُمِر به، وتَرَك ما نُهِيَ عنه. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحُجُرَات: ١١]، وتاركُ المأمورِ ظالمٌ، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناسُ قسمان: تائب وظالم، ليس إلا[٤]، فالتوبةُ هي حقيقةُ دينِ الإسلامِ، والدينُ كلُّه في مسمّى التوبة...

فالتوبة هي الرجوع عما يكرهه اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ، وتتناول جميع المقامات؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلقُ والأمرُ... ولولا أن التوبةَ اسمٌ جامعٌ لشرائعِ الإسلامِ وحقائقِ الإيمان لم يكن الربُّ تبارك وتعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيمَ، فجميعُ ما يتكلم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفصيل التوبة وآثارها»[٥]. اهـ.

۞ ۞ ۞

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣)، و«الموسوعة الفقهية» (١٤/ ١١٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٥). (٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٠٥).

(٤) أي: ليس هنالك قسم ثالث.

(٥) المصدر السابق (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) بتصرُّف.

إطلاقاتٌ أخرى للتوبة في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: الإنابة:

الإنابة في اللغة:

الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة، وكثيرًا ما يَتَكَرَّر في القرآن ذِكْرُ الإنابة والأمر بها[1].

قال ابن القيم: «قال صاحب المنازل[2]: الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي هاهنا الرجوع إلى الحق»[3]. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]، وقال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هُود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّعْد: ٢٧]، وقال عن داود ﷺ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤].

والإنابة لها معنيان ـ وتحديد أحدهما يرجع إلى السياق ـ:

الأول: التوبة.

والثاني: ما بعد التوبة؛ مِنَ الصِّلة الدائمة بالله تعالى، ولجوء التائب إلى رَبِّهِ تعالى في كل شؤون حياته، واعتصامه به.

الإنابة في الاصطلاح:

ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن «الإنابة هي الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وأنها تتضمّن المحبّةَ والخشيةَ، وذلك أن المنيب محبٌّ لمن أناب إليه، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ. وذكر أن الناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم: المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مَصْدرُها: مطالعةُ الوعيدِ، والحاملُ عليها: العلمُ والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إلى الله بالدخول في أنواع العبادات والقُرُبات، فهو ساعٍ فيها

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١/٢٢٦)، مادة: (نوب).

(٢) «منازل السائرين» (ص١٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥)، وانظر: «الصحاح» (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

بجُهْده، فهذه الإنابةُ مصدرُها: الرجاءُ، ومطالعةُ الوعدِ والثوابِ. . .

ومنهم: المنيب إلى الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة: شهود الفضل، والمِنَّة، والغنى، والكرم، والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعلَّقُوا به آمالهم»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابَهُ ضُرّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تَسْتَلزِم الإسلام، بل تُجَامِع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلٰهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عَمَّا سِوَاهُ»(٢).اهـ.

ثانيًا: الأَوْبَة:

فالأَوْب هو الرجوع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥]؛ أي: رجوعهم. والمآبُ هو المَرْجِعُ، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٥]؛ أي: حُسْن المَرْجِع الذي يصير إليه في الآخرة، والأَوَّاب هو كثير الرجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من ذنبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، فـ«الأوبةُ هي الرجوعُ كالتوبة، والأوابُ: التائب»(٣).

ثالثًا: ثاب:

تقول: ثاب الرجل: إذا رجع بعد ذهابه، وثاب فلانٌ إلى الله؛ أي: عاد، ورجع إلى طاعته.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تاب، وثاب، وآب، وأناب: رجع»(٤).اهـ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) بتصرُّف يسير.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن منظور في «لسان العرب» (١/ ١١٦)، مادة: (أوب).

(٤) «تفسير القرطبي» (١/ ٤٨٢). وانظر أيضًا: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٣)، مادة: (ثوب)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٨).

رابعًا: التوبة النصوح:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْرِيم: ٨]، فأصلُ هذه المادة (نصح) لخَلَاص الشيء من الغشّ والشَّوائب الغريبة، فالنُّصْح في التوبة هو تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وعبارات السلف رضي الله تعالى عنهم تفاوتت وتَنَوَّعَتْ في تفسيرها، لكنها ترجع إلى شيء واحد.

قال عمر بن الخطاب، وابن عباس رضي الله عنهم: «التوبةُ النصوحُ: أن يَتُوبَ لا يعود»[(١)]، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مَضَى، مُجمِعًا على ألَّا يعود فيه»[(٢)].

وفسَّرها الكَلْبي بأن يستغفر باللّسان، ويندم القلب، ويُمْسِك بالبَدَن[(٣)].

وقال سعيد بن المسيب: «توبة تنصحون بها أنفسكم»[(٤)]، فجعلها بمعنى ناصحة للتائب.

فكلام عمر وغيره يرجع إلى أن التوبة النصوح، هي التي نَصَح فيها التائب، ولم يَشُبْهَا بِغِشّ، فيجعلونها بمعنى المفعول. وعلى قول سعيد بن المُسَيِّب: فهي التوبة الناصحة للتائب، فهي بمعنى اسم الفاعل؛ كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كَعْب القُرَظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار تَرْك العَودِ بالجِنان، ومُهَاجرة سَيِّئ الإخوان»[(٥)].

قال ابن القيم رحمه الله: «**النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:**

الأول: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العَزْم، والصِّدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تَرَدُّدٌ، ولا تلوّم، ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادتِه وعزيمته، مُبَادِرًا بها.

الثالث: تَخْلِيصها من الشوائب والعِلَل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمَحْض

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠٧ - ١٠٨)، وقد رُوِيَ مرفوعًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أحمد (١/ ٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٣٧)، وغيرُهما، ولكن الصواب وقفه، كما قال البيهقي، وابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٦٩)، والألباني في «الضعيفة» (٢٢٣٢).

(٢) «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩ - ٣١٠).

الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرَّهْبة مما عنده، لا كَمَنْ يتوب لحفظ جاهِه وحرمتِه ومنصبِه ورئاسته، ولِحفْظ حاله، أو لحِفْظ قُوتِهِ وماله، أو استدعاء حَمْد الناس، أو الهَرَب من ذَمِّهِمْ. . . أو لإفلاسه وعَجْزِه، ونحو ذلك من العِلَل التي تقدح في صِحّتها، وخلوصها لله ﷻ.

فَنُصْحُ التوبةِ: الصدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أنَّ هذه التوبة تَسْتَلْزم الاستغفار، وتتضمّنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»[١]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالتوبة النَّصُوح هي الخالصة من كل غِش، وإذا كانت كذلك كائنة؛ فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نَفْسه، فَمَنْ خرج من قلبه الشبهةُ والشهوةُ لم يَعُدْ إلى الذنب»[٢]. اهـ.

فالذين يتوبون، ويرجعون، سبب رجوعهم: هو أنه لا زالت علائقُ الشهوةِ باقيةً في نفوسهم، وأما التوبة النصوح؛ فهي التي تأتي على الذنب كله، فلا يبقى في القلب شيء من تلك العلائق.

❁ ❁ ❁

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣١٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٨).

الفروقات في باب التوبة

أولًا: الفرق بين التوبة والإنابة والأَوْبَة:

قد تقدَّم في كلام ابن القيم أن الإنابةَ أوسعُ من التوبة، فالإنابة تكون بالرجوع عن الذنب، وبالإقبال على الله ﷻ بفِعْل الطاعات بالقلب، واللسان، والجوارح، وبالإقبال عليه ﷻ بإنزال الحاجات، والضراعة إليه، والدعاء...

وقال بعض أهل العلم: مَنْ خاف العِقَاب فهو صاحب توبة، ومن تاب طَمَعًا في الثواب فهو منيبٌ، ومَنْ تاب لمُرَاعَاة أمر الله فهو صاحبُ أوبة.

وقال بعضهم: التوبة صفة عامة المؤمنين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، على اختلاف درجاتهم في الإيمان، وأما الإنابة فهي صفةٌ للأولياء والمقرَّبين، كما قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]. والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠][(١)].

والأقرب ما ذهب إليه الحافظ ابن القيم، مع ملاحظة أن معاني ذلك جميعًا ترجع إلى أصل واحد، وهو: الرجوع، إلا أن الرجوع في الإنابة أوسع؛ ذلك أنه يكون من التقصير والإساءة، كما يكون بالطاعة. والله أعلم.

ثانيًا: الفرق بين التوبة العامة والتوبة المُطْلَقَةِ:

التوبة العامة: هي المُقْتَضِية لغفرانِ الذنوبِ، وإن لم يستحضر صاحبها أعيانَ الذنوب، فهو يتوب إلى الله ﷻ من كل ذنب، وإن لم يتذكر عند توبتِه كلَّ ذنبٍ بعينِه، لكن بشرط أنه لو استحضر شيئًا منها، فإنه لا يَسْتَثْنِيه.

وأما التوبة المُطْلَقَة: فهي أن يتوبَ توبةً مجملةً، لكنها لا تستلزمُ التوبة من كل ذنب؛ فهذه لا تُوجِب دخولَ كلِّ فردٍ من أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخولَه كاللفظ المُطْلَق، لكن هذه تَصلح أن تكون سببًا لغفران الذنب المُعَيَّنِ، كما تصلح سببًا لغفران الجميع، بخلاف التوبة العامة، فإنها مقتضيةٌ للغفران العامِّ[(٢)].

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (١/ ٢١١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

ثالثًا: الفرقُ بينَ تكفيرِ السيئاتِ ومغفرةِ الذنوبِ:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرُهما مُقْتَرِنينِ، وذِكْر كلٍّ منهما مُنْفردًا عن الآخر. فالمُقْتَرِنان كقوله حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٣]، والمنفرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [مُحَمَّد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٥]...

فها هنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات، ومغفرة وتكفير، فالذنوب المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات الصغائر...

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها؛ قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النِّسَاء: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: **«الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»**(١)، ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر؛ فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن السَّتْر والإزالة. وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخَر...

فقوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [مُحَمَّدٍ: ٢] يتناول صغارها وكبارها، ومَحْوها، ووقاية شرها، بل التكفير المُفرَد يتناول أسْوأ الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزُّمَر: ٣٥]، وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السرُّ في الوعد على المصائب، والهموم والغموم، والنَّصْب والوَصَب بالتكفير دون المغْفِرَة؛ كقوله في الحديث الصحيح: **«مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَذًى - حَتَّى الشَّوْكَةُ يَشَاكُهَا - إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»**(٢)، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تُغْفَر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عِظَام يتطهّرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بِطُهْرهم طُهِّروا في نَهْر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المُسْتَغْرِقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفِّرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الثلاثة، فَوَرَد القيامة طَيِّبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع»[1]. اهـ.

رابعًا: الفرق بين الصغائر والكبائر:

الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر بنصِّ القرآن والسُّنَّة والإجماع، وهذا ثابت أيضًا من جهة النَّظَر والاعتبار:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النِّساء: ٣١]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النَّجم: ٣٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ؛ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»**[2].

وقد جاء عن جماعة من السلف في تفسير اللَّمم أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه وإن كان كبيرًا.

قال البغوي رحمه الله: «هذا قول أبي هريرة[3]، ومجاهد[4]، والحسن[5]، ورواية عطاء عن ابن عباس[6].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: اللَّمَمُ: ما دُونَ الشِّركِ[7]»[8]. اهـ. فيدخل فيه على هذا الاعتبارِ الكبائرُ.

ويقول أبو صالح رحمه الله: «سُئِلْت عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النَّجم: ٣٢]، فقلتُ: هو الرجل يُلِم بالذنب ثم لا يُعَاوِده، فذكرتُ ذلك لابن عباس، فقال: لقد أعانك عليها مَلَكٌ كريمٌ»[9].

والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد جاء ذلك في «الصحيحين»؛ فعند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: ما رأيتُ شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٠ ـ ٣١٢).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٥ ـ ٦٦)، والحاكم (١/ ٥٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٨٥)، وفي «الشعب» (٦٦٥٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٦).
(٨) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٠).
(٩) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٤٠٣٩)، وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٠).

وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»[١].

وعند مسلم أيضًا: «فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا»[٢].

وذهبت طائفة ثالثة من أهل العلم إلى أن اللَّمَم ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يُؤَاخِذهم به، وهذا قول زيد بن ثابت[٣]، وزيد بن أسلم[٤].

والصحيح قول الجمهور؛ أن اللمم صغار الذنوب، وهو قول أبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي[٥]، وما نُقِل عن أبي هريرة من أنه ما وقع من الإنسان من الكبائر مرة واحدة لا ينافي هذا. وهكذا ما جاء عن ابن عباس في الرواية الأخرى أنه يلمّ بالكبيرة مرة، ثم لا يعود إليها؛ وذلك أنه يحتمل أنهما قَصَدَا به هذا وهذا ـ يعني: صغائر الذنوب ـ أو ما وقع فَلْتَةً من غير أن يُصِرّ عليه[٦].

واعلم أن «هذه اللفظة تدل على معنى المقاربة. . . حينًا بعد حين، فإنه يُقَال: (ألمّ بكذا): إذا قاربه ولم يَغْشَه. . .

وقريب من هذا لفظة (أو) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧]، هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة؛ فإنها إن لم تَزِد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها، وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها، فذِكْرُ (أو) ها هنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة، والله أعلم»[٧].

وأما الكبائر فقد اختلف السلف ﷺ في معناها، وعباراتهم فيها مُتَقارِبة، وذَكَر بعض أهل العلم أكثرَ من عشرة معانٍ للسَّلَف رضي الله تعالى عنهم في حَدِّ الكبيرة. وقد سأل رجلٌ ابنَ عباس ﷺ عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: إلى سبعمائةٍ أقربُ منها إلى سبع، إلا أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٧/ ٢١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦١). (٤) «معالم التنزيل» (٧/ ٤١٢).
(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢ ـ ٦٣).
(٦) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).
(٧) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣١٨) بتصرُّف يسير.
(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٤).

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ**»(١). وحديث عبد الرحمٰن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وجلس وكان متكئًا، فقال: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(٢).

وفي حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رجل: يا رسول الله! أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قال: ثم أيُّ؟ قال: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قال: ثم أيّ؟ قال: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**». فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨](٣).

وعن ابن عباس ﷺ **قال**: «الكبائر: كل ذنب خَتَمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب»(٤)، وهذا هو المشهور.

وقال الضحاك: «هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة»(٥).

وقال الحسين بن الفضل: «ما سماه الله في القرآن كبيرًا، أو عظيمًا، نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»(٦).

«وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحَدَّيْنِ، والكبائر: ما تعَلَّقَ به أحدُ الحَدَّيْنِ، ومُرَادُهُمْ بالحَدَّيْنِ: عُقُوبة الدنيا والآخرة؛ فكُلّ ذَنْبٍ عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا؛ كالزنا، وشُرْبِ الخَمْرِ، والسَّرِقَة، والقَذْف، أو عليه وَعِيد في الآخرة؛ كأكل مال اليتيم، والشّرْب في آنية الفضة والذهب، وقَتْل الإنسان نَفْسه، وخيانته أَمَانَته، ونحو ذلك؛ فهو مِن الْكَبَائِر، وصدق ابن عباس ﷺ في قوله: «إِلَى السَّبْعِمِائَة أقرب منها إلى السبع...».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٣٢) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٦).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢١).

(٦) المصدر السابق.

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يَقترن بها - من الحياء، والخوف، والاستِعْظَام لها - ما يُلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء، وعدم المُبَالَاة، وتَرْك الخوف، والاستهانة بها - ما يُلْحِقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها. وهذا أمر مَرْجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مُجَرَّد الفِعْل»[1].

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٨).

التوبة لا تكون إلا لله وحده

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من خصائص الإلٰهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شَبَّه المخلوقَ به، ومنها: التوكل، فمن توكَّل على غيره فقد شَبَّهه به، ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبَّهَهُ به. ومنها: الحَلِف باسْمِهِ تعظيمًا وإجلالًا له، فمن حَلَف بغيره فقد شَبَّهَهُ به»[1].اهـ. فالتوبة لا ينبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده.

وحينما نُورِد هذه القضية نُورِدها من أجل أن يتبيَّن **أمران**:

الأمر الأول: وهو ما يقع من بعض الصوفية، حيث يتوبون إلى شيوخهم التوبةَ التي يتعبدون بها، فمنهم مَنْ يَحْلق رأسه للشيخ تقربًا وتعبدًا، ومنهم مَن يتوب إلى شيخه كما يتوب إلى الله، فهذا وأمثاله من العظائم والجرائم الكبار، وهو نوعُ إشراكٍ بالله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: أن من الناس مَنْ قد يتوبُ إلى إنسانٍ مثله، أو كالولد يتوب إلى أبيه حينما يَطَّلِع على بعض تقصيرِه في دراسته أو غير ذلك، فيقول: أنا أتوبُ من هذا ونحو ذلك، فهذه ليست التوبةَ التي يُقصد بها التقربُ، والتعبدُ، وتكفيرُ الذنوبِ والسيئاتِ، وليست محلَّ حديثِنا، وإنما حديثُنا عن التوبة التي يُتَعَبَّد لله تبارك وتعالى بها، فهذه لا يجوز أن تُصرف لغير الله؛ ولذلك تجد النصارى يذهبون إلى القسيس مثلًا، ويعترفون بجميع الذنوب، ويرون أن ذلك من لوازم التوبة، بل هو شرطٌ لها، فلا تصح توبةُ أحدهم حتى يذهبَ إلى القسيسِ، فيتوب إليه، فهذا لا يجوز، والله عَزَّ وَجَلَّ لم يجعل بينَه وبينَ خلقِه في ذلك واسطةً، فعلى العبد أن يتوب إلى ربه مباشرة.

❁ ❁ ❁

(١) «الداء والدواء» (٣١٥ ـ ٣١٦).

حكم التوبة

التوبة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مُستحبة؛ فالواجبة هي التوبة مِنْ تَرْك الواجب، أو فِعْل المُحَرَّم، فهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمر الله ﷻ بذلك، وأما المُسْتَحَبَّة فهي التوبة مِنْ تَرْكِ المُسْتَحباتِ أو فِعْل المكروهات، «فمن اقتصر على التوبة الأولى ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان من الأبرار المُقْتَصِدِين ـ يعني: الذين يأتون بالواجبات، ويتركون المحرَّمات ـ، ومَنْ تَابَ التَّوْبَتَيْنِ كان من السابقين المُقَرَّبينَ، ومَنْ لَمْ يَأْتِ بالأُولَى ـ وهي: التوبة مِنْ تركِ الواجبِ أو فِعْل المحرم ـ كان من الظالمينَ؛ إما الكافرينَ، وإما الفاسقينَ»[1].

وعلى ذلك نقول: إن التوبة من المعاصي، أو من تَرْك الواجبات فرضٌ واجبٌ لازمٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

فالإصرار على الذنب حرامٌ بالإجماع، والتوبة منه فرضٌ بالإجماع، وقد نَقَلَ هذا الإجماعَ جماعةٌ من أهل العلم؛ كابن حزم[2]، والغزالي[3]، والقرطبي[4]، والشوكاني[5]، وهو أمر ظاهر لا يخفى.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن «الناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبةً عامةً مع حاجتهم إلى ذلك؛ فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فَرَّطَ فيه من تَرْك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فِعْل محظور، فعليه أن يتوب دائمًا»[6].

«والتوبة واجبة على الفور، فَمَنْ أَخَّرَهَا زمانًا صار عاصيًا بتأخيرها، وكذلك يتكرّر عصيانُه بتكرر الأزمنة المُتَّسِعة لها، فيحتاج إلى توبةٍ من تأخيرها، وهذا جارٍ في تأخير

---

(١) «رسالة في التوبة» [المطبوعة ضمن «جامع الرسائل» (١/ ٢٢٧)].

(٢) انظر: «المحلى» (١/ ٤٨).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٩، ١٥/ ٢٢٧).

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٧٠٤).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٠).

كلِّ ما يجب تَقْدِيمه من الطاعات»[١].

* **حكم الاستغفار:**

«الأصل في الاستغفار أنه مندوب إليه؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]، فالأمر في الآية يُحْمَلُ على الندب؛ لأنه قد يكون من غير معصية، لكنه قد يُحْمَل على الوجوب؛ كالاستغفار من المعصية، وقد يخرج إلى الكراهية ـ عند البعض ـ كالاستغفار للميت خَلْف الجنازة، صرَّح بذلك المالكية، وقد يخرج إلى الحُرمة؛ كالاستغفار للكفار»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام العز بن عبد السلام في «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ٣٢٨).

(٢) «الموسوعة الفقهية» (٤/ ٣٥) بتصرُّف.

منزلة التوبة(1)

التوبة كما أنها من أوّل المقامات، فهي آخرها أيضًا، بل هي في كل مقام مُسْتَصْحَبَة؛ ولهذا جعلها الله تعالى آخرَ مقامات خاصّته، فقال في غزوة تبوك، وهي آخِر الغزوات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧]، فجعل التوبةَ أولَ أمرهم وآخرَه.

وقال في سورة النصر التي يذكر فيها أَجَل رسول الله ﷺ، وهي آخر سورة كاملة نزلت على الأرجح: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر].

«فالتوبة هي نهاية كل سالك، وكل ولي لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله، وعبوديته، وما ينبغي له. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة، وكذلك الصبر؛ فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المُتَوَقِّف على شَرْطه المصاحب له، ومثال ذلك: أن الرضا مُتَرَتِّب على الصبر؛ لتَوَقُّف الرضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه، فإذا قيل: إن مقام الرضا، أو حاله ـ على الخلاف بينهم: هل هو مقام أو حال؟ ـ بعد مقام الصبر؛ لا يعني به أنه يفارق الصبر، وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر، فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية، وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم مُتَقَدِّم على سائر المنازل، فلا وجه لتأخيره، وعلمت بذلك أن المحاسبة مُتَقَدِّمة على التوبة بالرُّتْبة أيضًا، فإنه إذا حاسب العبد نَفْسه خرج مما عليه؛ وهي حقيقة التوبة. . .

وفي الآية الأخرى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

---

(1) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، و«شفاء العليل» (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٨)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٤ ـ ٤٤١).

[النُّور: ٣١]، فهذه آية مدنية، خاطب اللهُ بها أهلَ الإيمانِ، وخيارَ خَلْقِه، وأَمَرَهُمْ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثم عَلَّقَ الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المُسَبَّبِ بسببِه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالترجِّي، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبونَ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجُرَات: ١١]، فقسَّم العبادَ إلى تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قِسْمٌ ثالثٌ، وأوقع اسمَ الظالمِ على مَنْ لم يتب لجهله بربه وبحقِّه وبعيبِ نفسِه وآفاتِ أعمالِه»[١].

«ولم يجعل الله ﷻ محبته للتائبين إلا وَهُمْ خواصُّ الخَلْقِ لديه»[٢]، وهي من أفضلِ الكمالاتِ، واللهُ ﷻ قد أخْبَرَ عن عامةِ الأنبياءِ بالتوبة والاستغفار، وهم أكملُ الخلقِ، فقال تعالى حكاية عن آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعْرَاف: ٢٣]، وقال حكاية عن نوح ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هُـود: ٤٧]، وقال حكاية عن الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاةُ والسلامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [الـبـقـرة: ١٢٨]، وقال حكاية عن موسى ﷺ: ﴿...أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعْرَاف: ١٥٥، ١٥٦]؛ أيْ: رَجَعْنَا إليكَ، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعْرَاف: ١٤٣]، وذكر اللهُ توبةَ داودَ وسليمانَ وغيرِهما من الأنبياء، والله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

وفي الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِيَ كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**»[٣]، وهو أكملُ الخلقِ عليه الصلاة والسلام.

وعن أبي موسى، أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[٤].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤، ١٧٨) بتصرُّف يسير.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له.

فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو مِنْ أعْظَمِ حَسَنَاتِهِمْ وأكبر طاعاتهم وَأَجَلُّ عباداتهم التي ينالون بها أَجَلَّ الثوابِ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب[(1)]، كما قال النبي ﷺ للغامدية التي أَقَرَّتْ بالزنا حتى رجمها: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»[(2)].

وهو ﷺ نبي التوبة، وقد «فَتَح الله به باب التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبةً لم يحصل مثلُها لأهل الأرض قَبْلَهُ، وكان ﷺ أكثرَ الناسِ استغفارًا وتوبةً. . .

وكان يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[(3)].

وكذلك توبةُ أُمَّتِهِ أكملُ مِنْ توبةِ سائرِ الأممِ، وأسرع قَبُولًا، وأسهل تناولًا، وكانت توبةُ من قبلهم من أصعبِ الأشياءِ، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العِجْل قتلُ أنفسهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٤].

وأما هذه الأمة، فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها النَّدَم والإقلاع»[(4)].

ومما يدل على فضل التوبة أيضًا: قوله ﷺ لكعب بن مالك: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»[(5)].

«فهذا دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يومُ توبتِه إلى الله وقبولِ اللهِ توبتَه.

فإن قيل: كيف يكون هذا اليومُ خيرًا من يومِ إسلامه؟ قيل: هو مُكَمِّلٌ ليومِ إسلامِه، ومن تمامه، فيومُ إسلامِه بدايةُ سعادتِه، ويومُ توبتِه كمالُها وتمامها»[(6)].

وهكذا الفَرَح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأتِ نَظِيره في غيرها من الطاعات ـ دليلٌ على عِظَم التوبة وفضلها ومنزلتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»[(7)].

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: «للتائب فخرٌ لا يعادله فخرٌ في جميع أفخاره: فَرَح الله بتوبته»[(8)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٥١ ـ ٥٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥/ ٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه.
(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٥) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٦) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٥١٢) بتصرُّف.
(٧) أخرجه البخاري (٦٣٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٧).
(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٥٩).

ذِكْرُ بعض المُفَاضَلات في باب التوبة

أولًا: المفاضلة بين التوبة مِنْ تَرْكِ المأمورِ والتوبةِ من فِعْلِ المحظورِ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «كثيرٌ من الناس لا يستحضرُ عندَ التوبةِ إلا بعضَ المُتَّصِفات بالْفَاحِشَة أو مُقَدِّمَاتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تَرَكه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شُعَبِ الإيمانِ وحقائقِه أعظمَ ضررًا عليه مما فَعَلَه من بعض الفواحش؛ فإنَّ مَا أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حَقًّا أعظم نَفْعًا من نَفْع تَرْك بعض الذنوب الظاهرة؛ كحب الله ورسوله؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفِعْلِيَّة»[1]. اهـ.

ثانيًا: المُفَاضَلَة بين من قارف ذنبًا، ثم تاب توبة نصوحًا، ومن لم يُقَارِف ذنبًا:

قد اختلف العلماء في ذلك، فطائفة رَجَّحَتْ مَنْ لم يعصِ على من عصى، وتاب توبةً نصوحًا، واحتجوا بوجوه:

الأول: أن أكمل الخلق وأفضلهم هو أطوعُهم لله، فالذي لم يَعْصِ أطوع، فهو أفضل.

الثاني: أن العاصي التائب أثناء انشغاله بالمعاصي كان المطيع مُنْشَغِلًا بالطاعات، فيكون بذلك سابقًا له بمراحل.

الثالث: أن غاية التوبة أن تمحو عنه سيِّئاتِه، ويصير بمنزلة مَنْ لم يعملها، فيكون سعيُه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعيُ مِنْ سَعْي مَنْ هو كاسبٌ رابحٌ؟!

الرابع: أن الله يمقتُ على معاصيه، ومخالفة أوامره، ففي مُدَّةِ اشتغال العاصي بالذنوب كان حظُّه المَقْتَ، وحظُّ المطيع الرضا، ولا ريبَ أن من كان الله راضيًا عنه دائمًا خيرٌ ممَّن كان راضيًا عنه، ثم مَقَتَهُ، ثم رَضِيَ عنه.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شُرْب السُّم، والتوبةُ هي التِّرْيَاقُ والدواءُ، والطاعةُ هي الصحةُ والعافيةُ، فصحةٌ وعافيةٌ مُسْتَمِرَّةٌ خيرٌ من صِحْةٍ تَخَلَّلَها مَرَضٌ وشُرْب سمٍّ أفاق منه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩).

السادس: أن العاصي على خَطَرٍ عظيم، فهو دائرٌ بينَ ثلاثةِ أشياءٍ؛ إما العَطَب والهلاك بشرب السُّم، وإما النُّقْصان من القوة وضَعْفها إن سَلِمَ من الهلاك، وإما أن تعود إليه قوتُه كما كانت أو خيرًا منها، وهذا بعيدٌ، والأكثرُ في أحوال الناس هو القسمانِ الأولانِ، والثالثُ نادرٌ. بخلاف مَنْ لم يتناول ذلك، فهو مُعَافًى.

السابع: أن المُطِيعَ قد أحاط بستانَ طاعتِه بسُور مَنِيع حصين، لا يجد الأعداءُ إليه سبيلًا، فثمرتُه، وزهرتُه، وخُضْرَتُه، وبهجتُه في زيادةٍ ونموٌ أبدًا، والعاصي قد فَتَح فيه ثغرةً، وثَلَم فيه ثُلْمَةً، ومَكَّن منه السُّرَّاقَ والأعداءَ، فدخلوا، وعاثوا فيه فسادًا، فإذا تداركه قَيِّمه، ولَمَّ شَعَثَهُ، وأصلح ما فَسَد منه؛ فإنه إما أن يعودَ كما كان، أو أنْقَصَ، أو خيرًا منه، ولكن لا يلحق بستان صاحبه، الذي لم يزل على نضارته وحُسْنه، بل في زيادة، ونمُوّ، وتَضَاعُفِ ثمرةٍ، وكَثْرَةِ غَرْسٍ.

الثامن: أنَّ طمعَ العدوِّ في هذا العاصي إنما كان لِضَعْف عِلْمِه، وضَعْفِ عزيمته؛ ولذلك يُسَمَّى جاهلًا، فَمَنْ عصى الله فهو جاهلٌ. وأما من قَوِيَتْ عزيمتُه، وكَمُل عِلْمُه، وَقَوِيَ إيمانُه لم يطمع فيه عدوُّه، وكان أفضلَ.

التاسع: أن المعصيةَ لا بد أن تُؤَثِّر أثرًا سيئًا، وعَمَل التائبِ إنما هو في رَفْع هذه الآثار والتكفير عنها، وعملُ المطيع هو في الزيادة ورفع الدرجات؛ فهو أفضل.

العاشر: أن المقبل على الله، المطيع له يسير بجُمْلَةِ أعمالِه، وكلما زادت طاعاتُه وأعمالُه ازداد كسبُه بها، وَعَظُمَ، وإذا حَصَل له فتورٌ عن السَّفَر في آخرِ أمرِه مرةً واحدةً فاته من الرِّبح بقَدْرِ جميعِ ما رَبِحَ أو أكثر منه، فإذا كان هذا حالُ مَنْ أعْرَضَ، فكيف بمن عصى وأذنب؟!

وفضَّلَت طائفة أخرى التائبَ، ولم ينكروا أن الأول أكثرُ حسناتٍ منه، واحتجُّوا لذلك بوجوه:

الأول: أن عبودية التوبة مِنْ أَحَبِّ العبوديات إلى الله؛ فهو يُحِب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه؛ لما ابْتَلَى بالذنب أكرمَ الخلق عليه.

الثاني: أن للتوبة عندَه سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات؛ ولهذا فرح بها ذلك الفَرحَ العظيمَ، قالوا: وهذا لم يجئ في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلومٌ أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وَقَلْبِهِ.

الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل، والانكسار، والخضوع، والتَّمَلُّق لله، والتذلل له ما هو أحبُّ إليه من كثيرٍ من الأعمالِ والطاعاتِ، وإن زادت في القَدْرِ والكميةِ على عبودية التوبة؛ فإن الذل والانكسار روحُ العبوديةِ ومخُّها وَلُبُّها.

الرابع: أن حصولَ مراتبِ الذلِّ والانكسار للتائب أكملُ منها لغيره، والله سبحانه أقربُ ما يكون إلى عبدِه عندَ ذُلِّهِ وانكسارِ قلبِه، ولذلك كان أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجدٌ؛ لأنه مَقَامُ ذُلٍّ وانكسارٍ بينَ يَدَيْ ربه.

وَتَأَمَّلْ قولَ النبيِّ ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ أنه يقول يوم القيامة: «**يَا ابْنَ آدَمَ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»(١).

فقال في عيادة المريض: «**لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**»، وقال في الإطعام والإسقاء: «**لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي!!**» ففرَّق بينهما؛ فإن المريض مكسور القلب، فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده، وهذا ـ والله أعلم ـ السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم؛ لِلْكَسْرة التي تكون في قلب كل واحد منهم.

الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: وقد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة!! ويعمل الطاعة فيدخل بها النار!! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نَصْبَ عينيه إن قام، وإن قَعَد، وإن مشى ذَكَر ذَنْبه، فَيُحْدِثُ له انكسارًا، وتوبةً، واستغفارًا، ونَدَمًا؛ فيكون ذلك سببَ نجاتِه، ويعمل الحسنة، فلا تزال نَصْب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أَوْرَثَتْه عُجْبًا، وكِبْرًا، ومِنَّة، فتكون سببًا لهلاكه(٢).

ولعل الأقرب ـ والله تعالى أعلم ـ أن الأول أرجح، لكن قد يَعْرِض لأحدهما ما يتغير معه هذا الحكم المُجمل؛ وذلك أن الناس يختلفون ويتفاوتون في ذلك؛ فقد تجد الرجل مُجِدًّا في الطاعة، ولكنه في حال من العُجْب، والغرور، ورؤية النَّفْس، وينظر إلى الناس على أنهم أصحاب ذنوب وخطايا، وتجد الآخَرَ أذنب ثم تاب، فصَحَّتْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٩).

تَوْبَتُه، وانكسر قلبُه، فهو يُزْرِي على نَفْسه، ويرى أنه مُقَصِّر، ويُبَادِر بالأعمال الصالحة، ويجتهد، ويخشى ألا يَقْبَلَ اللهُ ﷻ منه؛ فهذا في هذه الحال أفضلُ من الأول، وقد يكون الإنسان دؤوبًا في عمل الطاعات، مُسَارِعًا في الخيرات، وآخر يعمل ذنوبًا ثم يتوب منها، فيكون المجدُّ في الطاعات أفضلَ من هذا بلا شك، فلا يُحْكَم بحكم واحد في جميع الحالات.

وهذه المسألةُ قد تكون مسألةً افتراضيةً أصلًا، فمن ذا الذي لا يذنب؟! ومن ذا الذي لا يُقَصِّرُ في حقِّ الله تبارك وتعالى؟! خاصةً إذا عرفنا أن التوبة تكون مِنْ تَرْكِ المُسْتَحَبّ، ومِنْ فِعْلِ المكْرُوهِ، فالعبد بحاجة إلى توبة دائمًا، كما تقدَّم، وسيأتي تفصيلُ هذه القضية بإذن الله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁

حاجتنا إلى التوبة

كثيرٌ من الناس يحصل لهم ما يحصل من الغفلة واللهو والانشغال بأمور كثيرة مما يسبب غفلةً عن هذا الأمر الجليل؛ ولذلك أقول تحريكًا للهِمَمِ وَحَفْزًا للنفوس:

مقام التوبة من أَجَلِّ المقاماتِ، يحتاج إليه العبد في كل أحواله، يحتاجه الأتقياءُ والمقصرونَ؛ فالحديثُ عن التوبة مُوَجَّهٌ إلى كل مؤمن، بل إلى الناس جميعًا؛ فالكفار يحتاجون إلى توبة من الشرك بالله ﷻ، ومن جميع الذنوب والمعاصي التي يفعلونها، كما أن المؤمنَ أيضًا بحاجةٍ إلى توبة يداوم عليها، وأن يجددها حينًا بعد حين؛ فإن العبد إذا تَدَبَّرَ ونَظَر في حاله، وما يعتريه من تقصير وَجَد أنه بحاجة إلى توبة تُجَدِّد إيمانه، وتُقَرِّبه من ربه ﷻ، وذلك يحتاجه كل عبد؛ ولهذا جاء التعميم بالخطاب: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١]، فهو أَمْر لجميع المؤمنين بالتوبة، بما في ذلك العشرة المبشرون بالجنة؛ فإنه لا يخلو أحد من ذنب.
وفي هذه السورة ـ أي: سورة النور ـ ذَكَر الله ﷻ فيها هذا الأمرَ العامَّ بالتوبة بعد أن ذَكَرَ حِفْظَ الفروجِ، وغضّ البصر، وما شابَه ذلك، فهو مُشْعِر بأن العبد لا يخلو من شيء مما يُوجِب عليه المُؤَاخَذَة والمَلَامَة من هذه الحَيْثِيَّة، وإن كان الناس في ذلك بين مُسْتَقِلّ ومُسْتَكْثِر.

وقد جاء من حديث أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»**(١).

وفي حديث أبي ذر ﷺ، أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: **«يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»**(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥١)، وضعفه الترمذي، وحكى الخلال عن الإمام أحمد القول بنكارته كما «في الكامل» لابن عدي (٥/ ١٨٥٠)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٤٤)، وتعقبه الذهبي بقوله: «علي فيه لين»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩) وغيره.

(٢) تقدم تخريجه.

أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»(١).

فالعبد بحاجةٍ إلى تطهيرٍ؛ حيث لا بد أن يقعَ منه تقصيرٌ، أو غفلةٌ، أو تفريطٌ، مهما اجتهد، ومهما بذل وسْعَه في طاعة الله ﷻ؛ فإنه لا يستطيع أن يقوم بالحقِّ الذي أوجبَه الله عليه، فما يَسعُه إلا الاستغفارُ والتوبةُ(٢).

والإنسانُ من حيث هو: ظلومٌ جهولٌ؛ أي: أنه كثيرُ الظلمِ، وكثيرُ الجهلِ والعُدْوَانِ، وتخطِّي حدود الله ﷻ التي أمره أن يقف عندَها، قالَ الله ﷻ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: الأمانة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ثم قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فـ «ذَكَر التوبة هنا لِعِلْمِهِ ﷻ أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهلٌ وظلمٌ، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبدُ المؤمنُ دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه وأدناه ظُلْمه لنفسه»(٣).

وقد جاء من حديث شداد بن أوس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»**(٤)، هذا سيد الاستغفار، فالعبدُ دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار.

وهذا مُلَازم له في كل أحواله وأَطْواره؛ فإنه يتقلَّب دائمًا في نِعَم اللهِ وآلائِه، ولا يزال مُحتاجًا إلى توبةٍ واستغفارٍ؛ ولهذا كان سيد ولدِ آدمَ ﷺ وإمام المتقين يستغفر في جميع أحواله، وهو القائل: **«أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**(٥).

وقال ﷺ: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**(٦)...

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٨٠، ١٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المُزَني.

وقد شَرَع الله ﷻ الاستغفار في خواتيم الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٧]، فهؤلاء أحيوا الليل قيامًا وعبادة وقراءة، ثم ختموا ذلك في وقت السَّحَر بالاستغفار، فماذا يقول المُذْنب؟! ماذا يقول من قضى ليلَه في عَزْفٍ، وطَرَبٍ، ولَهْوٍ، ومعصيةِ الله ﷻ؟!

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا(١)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، إلى أن قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾ [البَقَرَة: ١٩٨، ١٩٩]، وقد أَمَرَ اللهُ نبيَّه بعدَ أن بلَّغ الرسالةَ، وَجَاهَدَ في الله حقَّ جهادِه فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾ [سورة النصر]، فكان ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتأوَّلُ القرآنَ(٢)؛ أي: يفعل ما أُمِر به فيه، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [مُحَمَّد: ١٩](٣).

والمقصود أن العبدَ بحاجةٍ مَاسَّةٍ إلى التوبة والاستغفار، والعبد كلما كثرت طاعاتُه كثُرت توبتُه واستغفارُه، وهذا هو شأن أصحاب القلوب الحية، وقد تقدم في كلام شيخ الإسلام أن أغلبَ الناسِ لا يتوبونَ إلى اللهِ توبةً عامةً مع حاجتهم إلى ذلك، ومع وجوبها عليهم، وإنما يتوبون من بعض الذنوب. والعبدُ اليَقِظ يظهر له دائمًا ما يقع فيه من التفريط والتقصير(٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والتوبةُ هي جِمَاعُ الرجوعِ من السيئات إلى الحسنات؛ ولهذا لا يُحبِط جميعَ السيئاتِ إلا التوبةُ، والردةُ هي جِماعُ الرجوعِ من الحسنات إلى السيئات؛ ولهذا لا يُحْبِط جميعَ الحسناتِ إلا الرِّدَّةُ عن الإيمان»(٥).اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) عن ثوبان رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨٨ ـ ٨٩).
(٤) انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٤٦٨).
(٥) «الاستقامة» (١/ ٤٦٣).

الحكمةُ من تقديرِ الذنوبِ[(١)]

قد يتساءل الإنسانُ: إذا كان اللهُ قد قَدَّرَ على عبادِه ما يكتسبونَ من السيئاتِ، وما يقترفونَه من الآثام، ثم أَمَرَهُمْ بالتوبةِ والرجوعِ إليه، فما الحكمةُ من تقديرِ هذه الذنوبِ؟

والجواب: هو أن الله ﷻ يُقَدِّرُ لعبادِه ما شاء أن يُقَدِّرَه، ويختار لهم بعد خَلْقِه إيَّاهُمْ، وليس لأحد أن يعترضَ على حكمِ الله وتقديره وقضائه، يقول سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، فالعبيدُ كلُّهم خلقُه، يتصرف فيهم كما يشاء، ويحكم فيهم بما شاء، لا مُعَقِّبَ لحكمِه، ولا رادَّ لقضائِه؛ فعلى العبد أن يُسَلِّمَ لأمر الله وحُكْمه؛ سواء أدرك الحكمةَ في قضيةٍ من القضايا أو لم يدركها.

وقد تكلم الحافظُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألةِ، فأفاض بما لا مزيدَ عليه، فذكر أربعينَ حِكْمةً لله تبارك وتعالى في تقدير الذنوب، وحَسْبنا أن نذكر جملةً منها؛ فإنَّ كثيرًا مما ذَكَره رَحِمَهُ اللَّهُ يدخل بعضُه في بعض.

فأول ذلك: «أن الله تبارك وتعالى يحبُّ التوابينَ ويفرح بتوبتِهم، فلمحبَّتِه للتوبة وفَرَحِه بها قضى على عبدِه بالذنب، ثم إذا كان هذا العبدُ ممن سَبَقَتْ لَهُ مِنَ الله ﷻ العنايةُ والرحمةُ قضى له بالتوبة.

الثاني: أن الله تبارك وتعالى يُعَرِّفُنَا حينما يقع منا الذنبُ بقوتِه، وعِزَّتِه، واقتدارِه، ونفوذِ إرادتِه، وجريانِ حُكْمِهِ، فالعبدُ قد يَعْزم ألا يذنبَ، ويصممُ ألا يعودَ، ثم يعودُ فيُذنب، فهذا يدل على أن إرادةَ اللهِ ﷻ نافذةٌ، وأن حُكْمَهُ جَارٍ في عبادِه بمقتضى مشيئته.

الثالث: تعريف العبد حاجتَه إلى حفظِ الله له وصيانتِه، وأنه إن لم يحفظه وَيَصُنْهُ فهو هالكٌ ولا بد.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٩ وما بعدها)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٢)، و«شفاء العليل» (٢/ ٥٠٩ وما بعدها)، و«الفوائد» (ص٣٤ وما بعدها، وص٩٤، ١٧٣، ١٨٢).

الرابع: استجلابُ الربِّ من العبدِ استعانتَه به، واستعاذتَه به من عدوِّه، وشرِّ نَفْسِه، ودعاءَه، والتضرع إليه.

الخامس: أن الله تبارك وتعالى يحبُّ مِنْ عبدِه أن يُكَمِّلَ مقام الذل والانكسار، فإن العبد متى شَهِد صلاحَه واستقامتَه شَمَخ بأنْفِه، وأُعْجِب بعمله، فإذا ابتلاه بالذنب تَصَاغَرَتْ عندَه نفسُه وَذَلَّ.

السادس: تعريفُه بحقيقةِ نَفْسِه، وأنها الخطَّاءةُ الجاهلةُ، وأن كل ما فيها من عِلْمٍ أو عملٍ أو خيرٍ فَمِنَ اللهِ، مَنَّ به عليه.

السابع: تعريف العبد بِسَعَةِ حِلْم الله وكرمِه في سَتْره عليه؛ فإنَّ الله تبارك وتعالى لو شاء لَفَضَحَهُ، ولعَاجَلَه بالذنبِ بمُجَرَّدِ ما يَهِم به. ولكن الله يُمْهِل؛ لعل العبدَ أن يتوبَ ويرجعَ.

الثامن: تعريفُه أنه لا طريقَ إلى النجاةِ، ولا يمكنُ أن تُسْتَحصَل السعادةُ والفوزُ والفلاحُ إلا بعفوِ اللهِ ﷻ ومغفرتِه، وإلا فإن الذنوبَ تحيطُ به من كل جانب.

التاسع: تعريفُه كرمَه في قبولِ توبتِه ومغفرتِه له.

العاشر: أن الله يُقيم الحجةَ على العباد؛ فإن الله ﷻ لا يحاسبُهم بما سبق من عِلمِه بأحوالهم قبل أن يخلقَهم، ولكنه أرسل إليهم الرّسلَ، وأنزل عليهم الكتبَ، وَبَيَّنَ لهم كلَّ ما يحتاجون إليه، وَوَعَظَهُمْ، وذكَّرهم، وأَمَرَهم، ونهاهم، ثم بعد ذلك لا يؤاخذهم حتى تقع منهم المخالفة.

الحادي عشر: أن يعاملَ العبدُ عبادَ الله في إساءتهم إليه وزلَّاتهم معه بما يحبُّ أن يعاملَه اللهُ به؛ فإن الجزاءَ من جنسِ العملِ.

الثاني عشر: أن يقيمَ معاذيرَ الخلائقِ، وتتسعَ رحمتُه لهم، مع إقامةِ أمرِ الله فيهم؛ فإنه إذا نظر إليهم بعينِ القَدَر رحمهم لما تَلَبَّسُوا به، وإذا نظر إليهم بعين الشرعِ عَامَلَهُمْ بمقتضاه؛ من أمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن منكرٍ، وإقامةِ حدٍّ، ونحو ذلك. وعلى ذلك فلا يدعو على المذنبين، ولا ينشر مساوئهم بين الناس، ولا يفضحهم، ولا يكون عونًا للشيطان عليهم، فيزيدهم نفورًا وإعراضًا، وإنما يدعو لهم بالصلاح، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الثالث عشر: أن يستخرج اللهُ من قلوبِ العبادِ عبوديةَ الخوفِ والخشيةِ وتوابع ذلك؛ من البكاءِ والإشفاقِ والندمِ.

الرابع عشر: أن يستخرجَ من قلوبِ العبادِ محبتَه وشكرَه إذا تابوا إليه، ورجعوا.

الخامس عشر: أن العبدَ إذا شهد إساءتَه وظُلْمَه، واستكثرَ القليلَ من نِعْمةِ اللهِ عليه

ـ لأنه يعلم أن الواصلَ إليه منها كثير على مسيء مثله ـ استقل الكثير من عمله.

السادس عشر: أن ذلك يُوجِب للعبد التيقظَ والحذرَ من مَصَائد الشيطان.

السابع عشر: امتحان العبد، واختباره: أيصلح لعبوديته وولايته أم لا؟ لأنه إذا وقَعَ الذنب سُلِب حلاوة الطاعةِ والقُرْبِ، ووقع في الوَحْشة؛ فإن كان ممنْ يصلح اشتاقت نفسُه إلى لذةِ تلك المعاملةِ، فَحَنَّتْ، وتضرعت، واستعانت بربها؛ ليردها إلى ما عَوَّدَهَا من بِرِّه ولُطْفه، وإن رَكَنَتْ إلى هواها علم أنها لا تصلح لله.

الثامن عشر: أن العبد إذا شهد ذنبَه وتقصيرَه وخطأه، فإنه لا يرى لنَفْسه على أحد فضلًا، ولا يرى لنَفْسه على أحد حقًّا؛ فهو مشغول بنَفْسه وعيوبه وذنوبه، مجتهدٌ في تصحيحِ نيتِه وإصلاحِ عملِه، لا يظنُّ أنه أفضلُ من أحدٍ من المسلمينَ؛ وبهذا يسْتَريح، ويستريح الناسُ منه؛ لأن العبدَ إذا ارتفعَ، ورأى لنَفْسِه حقوقًا على الناس طَالَبَهُمْ بها، وإذا كَسَرَهُ الذنبُ أَخْبَتَ وَتَوَاضَعَ ورأى أن هؤلاء أفضلُ منه، وأن لهم حقوقًا عليه، وأنه ليس له حقٌّ على أحد، فيستريح في نَفْسه، ويستريح الناس من عَتَبه وشكايته، فما أطيب عيشَه! وما أنعم بالَه! وما أقر عينَه! وأين هذا ممن لا يزال عاتبًا على الخلق شاكيًا تَرْكَ قيامِهم بحقوقِه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخطُ»[1].

التاسع عشر: أنه يُوجِب له الإمساكَ عن عيوب الناس، وعن التفكير فيها، والبحث عنها، والاشتغال بذمهم وعيبهم؛ لأنه شُغِل بعيبِه ونَفْسِه، وطوبى لمن شَغَلَهُ عيبُه عن عيوب الناس، وويلٌ لمن نسي عيبَه، وتَفَرَّغ لعيوبِ الناسِ. فالأولُ علامةُ السعادةِ، والثاني علامةُ الشقاوةِ.

العشرون: أن تقديرَ الله ﷻ على عبدِه من أعظم أسبابِ تجلِّي معاني أسماء الله الحسنى وصفاته، «فمن أسمائه سبحانه (**الغفار، التواب، العَفُوّ**)، فلا بد لهذه الأسماء من مُتَعَلَّقات، ولا بد من جِنَايةٍ تُغفَر، وتوبةٍ تُقبَل، وجرائمَ يُعفى عنها. ولا بد لاسمِه (**الحكيم**) من مُتَعَلَّقٍ، يظهر فيه حُكْمُه؛ إذ اقتضاءُ هذه الأسماءِ لآثارِها كاقتضاءِ اسمِ الخالقِ الرازقِ للمخلوقِ والمرزوقِ.

وهذه الأسماء كلها حسنى، والربُّ تعالى يحبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءَه؛ فهو عَفُوٌّ، يُحِبُّ العفوَ والمغفرةَ، ويحبُّ التوابينَ، ويفرح بتوبة عبده، فَعَفْوه سبحانه، وتوبته للتائبين، وحِلْمه عنهم، ومسامحته إياهم من مُوجَبِ أسمائِه وصفاتِه.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١/ ١٩٩ وما بعدها) باختصار وتصرف.

وهو سبحانَه الحميدُ المجيدُ، وحَمْدُه ومجدُه يقتضيانِ آثارَهما، ومن آثارِهما مغفرةُ الزَّلاتِ، وإقالةُ العثراتِ، والعفوُ عن السيئاتِ، والمسامحةُ عن الجِناياتِ، مع كمالِ القدرةِ على استيفاءِ الحقِّ، والعلم منه سبحانه بالجنايةِ ومقدار عقوبتها»[1].

فحِلْمُه بعد عِلْمِه، وعفوُه بعدَ قدرتِه، ومغفرتُه عن كمالِ عِزَّتِه وحكمته.

ولا بدَّ أن يُعلَم أن هذه الأمورَ المتقدمةَ إنما يُنظَر إليها باعتبارِ حُسْنِ تقديرِ الله تبارك وتعالى في خَلْقه، وباعتبارِ حِكْمتِه وَعِلْمِهِ، فلا يَدْعُوَنَّ ذلك أحدًا من الناس إلى تسويفِ التوبةِ وتأخيرِها، بزعم أن الذنب يُوجِب كسرةَ النَّفْسِ وذلَّها، ويسْتَلْزِم إخباتَ العبدِ، وتواضعَه، وخضوعَه لربه، وإنما الواجبُ أن نستقيمَ على الصراطِ كما أمَرَنا الله ﷻ؛ فإن وقع ذنب أو تقصير بادرنا إلى الرجوع، وَسَارَعْنَا إلى الاستغفارِ، وعرفنا بما تقدم كيف يكونُ الأدبُ بين يَدَيِ الله ﷻ الذي يقبل التوبةَ عن عبادِه، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون.

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤١٩) باختصار وتصرف.

مَبدأ التوبة ومُنْتَهَاها

مبدأ التوبة: الرجوع إلى الله بسلوك صراطِه المستقيم، الذي نَصَبَه لعباده مُوْصِلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسُلُوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. . .

ونهايتُها: الرجوعُ إلى الله ﷻ في الآخرة، وسلوكُ صراطِه الذي نَصَبَه مُوْصِلًا إلى جنتِه، فَمَنْ رَجَعَ إلى الله ﷻ في هذه الدارِ بالتوبةِ رَجَعَ إليه في المعادِ بالثوابِ، وهذا أحدُ المعانِي في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفُرْقَان: ٧١].

والمعنى الثاني: أن الجزاء مُتَضَمِّنٌ معنى الأمرِ، والمعنى: ومن عَزَم على التوبة، وأرادها فليجعل توبتَه إلى الله وحدَه، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

والمعنى الثالث: أن المرادَ لازمُ هذا المعنى، وهو إشعارُ التائبِ وإعلامُه بمن تَابَ إليه. والمعنى: فليعلم توبتَه إلى مَنْ؟ ورجوعه إلى مَنْ؟ فإنها إلى الله، لا إلى غيره. . .

والمعنى الرابع: أن التوبةَ تكونُ أولًا بالقصدِ والعَزْمِ على فِعْلِها، ثم إذا قوي العزمُ، وصار جازمًا وَجَد به فِعْل التوبة. والمعنى: فَمَنْ تاب إلى الله قصدًا ونيّةً وعَزْمًا؛ فتوبتُه إلى الله عَمَلًا وفِعْلًا»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥) باختصار وتصرف.

توبةُ العبدِ واقعةٌ بينَ توبتينِ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ توبةٍ تقعُ من العبد فإنها محفوفةٌ بتوبة من الله عليه قبلَها، وتوبة منه بعدَها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة؛ فإنه تاب عليه **أولًا**: إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه **ثانيًا**: قبولًا وإثابة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التَّوبَة: ١١٧، ١١٨]؛ فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سَبقَت توبتَهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مُقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم... ونظير هذا هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتُوجِب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته؛ فإن من ثواب الهدى الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدًى ثانيًا، وعكسُه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبةٌ لهم على زيغِهم.

وهذا القَدْر من سرِّ اسْمَيْهِ: **(الأولِ والآخِرِ)**، فهو المُعِدُّ، وهو المُمِدّ، ومنه السبب والمُسَبَّب، وهو الذي يعيذُ من نفْسه بنفْسه... والعبدُ توابٌ، واللهُ توابٌ، فتوبةُ العبدِ رجوعُه إلى سيدِه بعد الإِبَاق، وتوبةُ اللهِ نوعانِ: إذْنٌ وتوفيقٌ، وقبولٌ وإمدادٌ»[1]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» (١/٣١٣) بتصرُّف، وراجع أيضًا: «مفتاح دار السعادة» (٢/٢٧٣).

وقت التوبة

لقد فتح الله باب التوبة بجوده وكرمه، وقد تواردت دلائل الكتاب والسُّنَّة على تقرير هذا المعنى، **فمن ذلك:**

١ ـ أنه سبحانه أمرنا بها، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزُّمَر: ٥٤]؛ أي: بَادِرُوا بالتوبة والعمل الصالح قبلَ حلولِ النِّقْمةِ.

٢ ـ أنه وَعَدَ بقبولِها مهما عَظُمَتْ الذنوبُ، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النِّسَاء: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ»**(١).

٣ ـ أن الله حَذَّر من القنوط من رحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

٤ ـ **«أَنَّ اللهَ عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»** كما أخبر النبيُّ ﷺ(٢).

٥ ـ وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»**(٣).

٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»**(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٤/٧٣)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٤/١٣)، والبوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٤/٢٤٦ ط. دار العربية)، والألباني في «الصحيحة» (٩٠٣، ١٩٥١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وصحَّحه ابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٤/٢٥٧)، والذهبي، وحسَّنه الترمذي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبةُ لا تمنعُ إلا إذا عَايَنَ أمرَ الآخرةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّساء: ١٧، ١٨].

قال أبو العالية: «سألتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ عن ذلك فقالوا لي: كلُّ مَنْ عصى اللهَ فهو جاهلٌ، وكلُّ مَنْ تَابَ قبلَ الموتِ فقد تاب من قريب»[(١)].

وأما من تاب عندَ معاينةِ الموتِ فهذا كفرعونَ الذي قال: أنا اللهُ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، قال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يُونُس: ٩٠، ٩١]، وهذا استفهامُ إنكارٍ، بَيَّنَ به أن هذه التوبةَ ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها...

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ الآية [غَافِر: ٨٣ ـ ٨٥]؛ بَيَّنَ أن التوبة بعدَ رؤيةِ البأسِ لا تنفعُ، وأن هذه سُنَّةُ اللهِ التي قد خَلَتْ في عبادِه كفرعونَ وغيرِه...

وقد ثبت في «الصحيحين» أنه ﷺ عَرَضَ على عمِّه التوحيدَ في مرضه الذي مات فيه[(٢)].

وقد عاد يهوديًا كان يخدمُه، فعرض عليه الإسلامَ فَأَسْلَمَ، فقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِيْ مِنَ النَّارِ**»[(٣)]»[(٤)]. اهـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، عن المُسَيَّب بن حَزْن رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٩٠ ـ ١٩١).

التوبة في الكتاب والسُّنَّة

أولًا: التوبة في القرآن:

وردت كلمة التوبة في القرآن على وجهين:

الأول: بمعنى التجاوز والعفو؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٤]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٨].

الثاني: بمعنى الرجوع والإنابة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

فيُلَاحَظ أنها إذا عُدِّيَتْ بحرفِ الجرِّ (على) كانت من توبةِ اللهِ على عبده؛ إما بتوفيقه إليها، أو بقبولها منه. وإذا عُديت بحرف الجر (إلى) فهي توبةُ العبد إلى ربه، وهي الرجوع إليه من التقصير والإساءة.

وزاد بعضهم معنى ثالثًا، وهو الندامة؛ كقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٣]، والأقربُ أنها بمعنى الرجوعِ أيضًا، والرجوعُ يستلزمُ الندمَ كما لا يخفى.

وقد جاء ذِكْرُ التوبةِ في القرآنِ كثيرًا:

فتارةً: يأمر الله بها عباده؛ كقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هُود: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزُّمَر: ٥٣، ٥٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التَّحْرِيم: ٨]، وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النُّور: ٣١].

وتارةً: يُخبر عن توبته على بعض عباده؛ كقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ

تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧، ١١٨]، وقوله سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وتارةً: يذكر دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قومَهم إلى التوبة؛ كما في قول هود ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هُود: ٥٢]، وقول صالح ﷺ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هُود: ٦١]، وقول شعيب ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هُود: ٩٠].

وتارة: يذكر تَوبَتَهم أو سؤالَهم التوبةَ عليهم؛ كقول إبراهيم ﷺ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٨]، وقول موسى ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعْرَاف: ١٤٣].

وتارةً: يُخبر عن قبوله لتوبة عباده؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٢]، فهو يُحِبُّها ويَقْبَلها، وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٣]، وقال جَلّ في عُلاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٠٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيًا: التوبة في السُّنَّة:

١ ـ حديث الأغرِّ المزني رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**[١].

٢ ـ حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**[٢].

٣ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المشهور، عن النبي ﷺ أنه قال: **«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَة عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[١].

٤ ـ وعن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٢].

٥ ـ وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المُطَفِّفِين: ١٤]»[٣].

٦ ـ وعن أبي بكر ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥][٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في «رسالة في التوبة» (٢٢٥. المطبوعة ضمن «جامع الرسائل»): «هذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤) واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٩٣٠)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، والذهبي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٠) وغيره.

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٩٥)، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨) وغيره.

علامات صِدْق التوبة

التوبة الصادقة الصحيحة لا بدَّ لها من علامات يَعرف صاحبُها أنَّ تَوْبَته صحيحةٌ صادقةٌ، **فمن ذلك**:

١ ـ محبةُ اللهِ ورسولِه ﷺ، ومحبةُ أهلِ الإيمانِ، فيقوى ذلك في قلب التائب، وتنبعث فيه دواعي هذه المحبة، حتى يصيرَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه من نَفْسِه وأهلِه ومالِه، ثم بعدَ ذلك يكون مُرِيدًا لما تقتضيه هذه المحبةُ، فيكون مُحِبًّا لانتصارِ الإسلامِ وأهلِه، وظهورِه بينَ الأنام، وَمُحِبًّا لأهلِ الطاعة، كما أنه يُبغِضُ الكفرَ ومن يعادي اللهَ ورسولَه وعبادَه المؤمنين[(١)].

٣ ـ أن يكون حال التائبِ بعدَ التوبةِ خيرًا مما كان قبلها.

٣ ـ ألَّا يزال الخوف مُصَاحِبًا له؛ لأنه لا يَأْمَنُ مكرَ اللهِ طرفةَ عَيْنٍ.

٤ ـ انخلاعُ قلبِه وتَقَطُّعه نَدَمًا وخوفًا، وهذا على قَدْرِ عِظَمِ الجنايةِ وَصِغَرِهَا.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا تأويلُ ابنِ عُيَيْنَةَ لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٠]، قال: تَقَطُّعُها بالتوبة»[(٢)]. اهـ.

فالخوفُ الشديدُ من الله ﷻ، والندم العظيم يحصل معه انخلاعُ القلبِ، وهذه هي حقيقةُ التوبةِ، فهو يتحسَّرُ على ذنبِه، وكلما ذَكَرَه انعصر قلبُه، وَحَزِنَ على ما قَارَفَهُ من معصيةِ اللهِ ﷻ.

٥ ـ «ومن مُوجَبَات التوبة الصحيحة أيضًا: كَسْرَةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلبِ، لا يُشبهها شيء، ولا تكونُ لغيرِ المُذْنِبِ... تَكْسِر القلب بين يدي الرب كَسْرَةً تامةً، قد أحاطت به من جميع جهاته، وأَلْقَتْه بين يدي رَبِّهِ طريحًا ذليلًا خاشعًا؛ كحال عَبْدٍ جانٍ آبِقٍ من سيدِّه، فَأُخِذَ، فَأُحْضِرَ بينَ يَدَيْهِ، ولم يجد مَنْ يُنْجِيهِ من سطوته، ولم يجد منه بدًّا، ولا عنه غَنَاءً، ولا منه مَهْرَبًا. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتَّهِم توبتَه، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقةِ! وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادقُ بشيء أشدَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة»[(٣)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥١ ـ ٧٥٢). (٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

شروط التوبة

أولًا: الندم:

وهو انفعالُ القلبِ بالأَسَى والحسرةِ والحزنِ بسبب ما وقع من الذنب، خوفًا من سوءِ عاقبتِه عندَ اللهِ، وحياءً منه.

وعلامتُه: طولُ الحسرةِ، وخَنْقُ العَبْرةِ، والتفكر بحزنٍ فيما وقع من الذنبِ، وفيما ذَهَبَ من العُمُرِ في معصيةِ اللهِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والندمُ يتضمنُ ثلاثةَ أشياءٍ: اعتقادُ قُبْحِ ما نَدِمَ عليه، وبغضه وكراهته، وألَم يَلْحَقه عليه»[1]. اهـ.

وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«النَّدَمُ تَوْبَةٌ»**[2].

فإن قيل: كيف جعلتُم الندمَ ـ وهو أمرٌ قلبيٌّ، قد لا يملك المرءُ أن يطلبَه فَيُحَصِّله من نَفْسه ـ كيف جعلتموه ـ والحالة هذه ـ من شروطِ التوبةِ؟

فالجواب: أن القاعدة في هذا الباب: أن خطابَ الشارعِ إذا تَوَجَّهَ إلى المُكَلَّفِ في أمرٍ يخرجُ عن طَوْقه واستطاعتِه؛ فإنَّهُ يتوجّه إلى سَبَبه، أو إلى أثَره[3].

فالندمُ يأتي من خمسةِ أمورٍ:

الأول: تعظيم الأمر والنهي.

الثاني: تعظيم الآمِر وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثالث: تعظيم الجناية.

الرابع: معرفة العَدُوِّ، وهو الشيطان الرجيم.

الخامس: التصديق بالجزاء مع حضوره في القلب.

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤٧١)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ٢٤٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢)، إلا أن في هذا الحديث اختلافًا على بعض رواته، كما في «العِلَل» ابن أبي حاتم (٢/ ١٠١)، والدارقطني (٥/ ١٩٣) وغيرهما.

(٣) في هذه القاعدة، والجواب عن هذا السؤال ينظر: «أضواء البيان» (٥/ ٥٢٢ ـ ٥٢٦)، و«العذب النمير» (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩، ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٨، ٥/ ٣٩٨ ـ ٤٠٠)، و«قواعد التفسير» (٢/ ٧٨٤).

فهذه الأمور الخمسة يحصل بها الندمُ، فلو تَفَكَّرَ المذنبُ مثلًا في عَظَمةِ الخالقِ، وكيف اجْتَرَأَ عليه هذه الجُرْأَةَ حصل له الندمُ على ما فرَّط في جَنْب الله. وكذا لو تفكر فيما صَدَرَ منه من المعصيةِ، وما قد تَجُرُّهُ عليه من النقمةِ والعذابِ.

وكما قيل[١]:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا ... مِنَ الحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ مِنْ مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فإذا تَفَكَّرَ الإنسانُ في مثلِ هذه الأمورِ، وأن اللهَ يراه حينَما يعمَل المعصيةَ، وأنه مكتوبٌ عليه؛ وقع في قلبِه من النَّدَمِ الشيء الكثير!

والصادق في توبته لا يمكن أنَ يُعَالِج هذا الأمر، بل لا بد أن يجد الندم مُسْتَقِرًّا بقلبه، قد أذهب أَمْنَهُ، ونَغَّص عليه عيشَه.

أما «الفرحُ بالمعصية؛ فهو دليلٌ على شدة الرغبة فيها، والجهلِ بقَدْرِ مَنْ عصاه، والجهلِ بسوء عاقبتها، وَعِظَمِ خَطَرها...

وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مُوَاقَعَتها، والمؤمن لا تتمّ له لذة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فَرَحه، بل لا يباشرها إلا والحُزْن مُخَالِط لقلبه... ومتى خلا قلبه من هذا الحزن، واشتدت غِبْطَتُه وسرورُه فَلْيَتَّهِمْ إيمانَه، وَلْيَبْكِ على موتِ قلبِه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنبِ، وغاظَه وصَعُب عليه»[٢].

ثانيًا: الإقلاع عن الذنب:

«والإقلاع عن الأمر: الكفُّ عنه، يقال: أقلع فلان عما كان عليه؛ أي: كف عنه»[٣]. وقال الله ﷻ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هُود: ٤٤]؛ أي: أمسكي عن المطر.

*** حكم من لا يتمكّن من الإقلاع عن الذنب إلا بنوع مُلَابسة للمحظور:**

وذلك «كمن أَوْلَجَ في فَرْجٍ حرامٍ، ثم عزم على التوبة قبل النزع الذي هو جزء من الوطء، وكمن توسط أرضًا مغصوبة، ثم عزم على التوبة، ولا يمكنه إلا بالخروج، الذي هو مَشْي فيها وتصرّف...

فهذا مما أشكل على بعض الناس، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه في هذا الفِعْل الذي يتخلَّص به من الحرام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٢١) عن مِسْعَر بن كِدَام.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠) بتصرُّف يسير.

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن منظور في «لسان العرب» (١٠/ ١٦٦)، مادة: (قلع).

وقالت طائفة: بل هو حرامٌ واجبٌ؛ فهو ذو وجهين: مأمور به من أحدهما، منهيٌّ عنه من الآخَرِ...

والصواب: أن هذا النزع، وهذا الخروج من الأرض توبة، ليس بحرام؛ إذ هو مأمور به، ومُحَال أن يُؤْمَر بالحرام، وإنما كان النزع ـ الذي هو جزء من الوطء ـ حرامًا؛ بقصد التلذّذ به، وتكميل الوطء.

وأما النزع الذي يُقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية؛ فلا دليلَ على تحريمه، لا من نصٍّ، ولا إجماعٍ، ولا قياسٍ صحيحٍ يستوي فيه الأصلُ والفرعُ في علة الحكم»(١).

فإن كان لا يمكن أن يتخلّص من الذنب إلا بمفسدةٍ مماثلةٍ أو زائدةٍ؛ تَعَيَّنَ عليه التزامُ أخفِّ المفسدتينِ؛ فإن الشريعةَ قد جاءت بِتَحْصِيلِ المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتَقْلِيلها، واللهُ لا يُكَلِّف نفسًا إلا وسعَها، وقد أَمَر بالتوبة من الذنب، والإقلاع عنه(٢).

ثالثًا: العَزْم على ألَّا يعود للذنب مرة أخرى:

والعزمُ لغةً: الجدُّ. واعتزم عليه: أراد فعلَه. وقال الليث: «العزمُ: ما عُقِدَ عليه قلبُك من أمر أنك فاعله»(٣). فإذا استحكم قصدُه صار عزمًا جازمًا.

فـ«العزمُ هو القصد الجَازِم المُتَّصل بالفِعْل. وحقيقتُه: استجماعُ قُوَى الإرادة على الفعل»(٤).

وهذا هو الذي يسمونه بالعزم المُصَمِّم، وهو الذي يُؤاخَذ عليه الإنسانُ في المعصية، ويُؤْجَر عليه في الطاعة، وهو أحدُ أقسامِ الفعلِ الأربعةِ؛ لأن الفعل يكون باللسان، وبالقلب ـ ويدخل فيه العزم المُصَمِّم ـ وبالجوارح، وبالتّركَ.

ويُقابِل العَزْم على التَرْكِ: التسويفُ في التوبة، وهو تأجيلها، وعدمُ المبادرةِ إليها فَوْرًا، وذلك بأن يُحَدِّثَ نفسَه بأن يتوبَ في المستقبل؛ أي: أنه لا ينكر ضرورةَ التوبة، ولكنه يؤجلها حينًا بعد حين، قائلًا في نَفْسه: سوف أتوب؛ فيبقى من المُخَلِّطين، آملًا أن يتوب في المستقبل، ومعنى ذلك: أنه مقيمٌ على الذنوب في الوقت الحاضر، مُصِرٌّ عليها.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٨).

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ١٥٢)، مادة: (عزم).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٣) باختصار.

فهذا الإصرار، وهو العَزْم على العَوْد، وعَقْد القلب على ارتكاب الذنب متى ظَفِر به هو استقرار في الواقع على المخالفة، وعَزْم على المُعَاوَدة، وهذا ذنب آخر؛ لعله أعظم من الذنب الأول بكثير[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُ مَنْ قال من العلماء: الاستغفارُ مع الإصرارِ توبةُ الكذابينَ، فهذا إذا كان المستغفرُ يقوله على وجهِ التوبةِ، أو يَدَّعِي أن استغفارَه توبةٌ، وأنه تائبٌ بهذا الاستغفارِ، فلا ريبَ أنه مع الإصرارِ لا يكون تائبًا؛ فإن التوبة والإصرارَ ضِدَّانِ»[2].اهـ.

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإصرارُ على المعصية معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تَدَارُكِ الفارطِ من المعصيةِ إصرارٌ ورضًا بها، وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهَلَاكِ»[3].اهـ.

*** ومن الأسبابِ الداعيةِ إلى الإصرارِ على الذنبِ:**

١ ـ حبُّ الدنيا وشهواتِها وزينتِها.

٢ ـ طولُ الأملِ.

٣ ـ التَّعَلُّقُ بالرجاءِ من غيرِ عَمَلٍ.

٤ ـ القنوطُ من رحمة الله، فيظنُّ أن الله لن يغفر له، فلا يصرفه صارفُ الرجاء عن المعصية.

٥ ـ الشكّ في وعدِ القرآنِ وما جاء به الرسولُ ﷺ.

٦ ـ الاحتجاجُ بالقَدَرِ.

٧ ـ تزيينُ الشيطانِ والنَّفْسِ الأمارةِ بالسوء.

*** هل يُشترط في صحة التوبة ألَّا يعودَ إلى الذنب أبدًا؟**

اشْتَرَطَ بعضُ الناسِ لصحة التوبة عدمَ معاودةِ الذنبِ، وقال: متى عاد إليه تَبَيَّنَّا أن التوبةَ كانت باطلةً غيرَ صحيحةٍ.

والأكثرونَ على أن ذلك ليس بشرط. فإذا عاوده مع عَزْمه حال التوبة على ألَّا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبتُه المُتَقَدِّمةُ.

والمسألة مبنيةٌ على أصلٍ: وهو أن العبدَ إذا تاب من الذنب، ثم عَاوَدَه هل يعود إليه إثْمُ الذنبِ الذي تاب منه ثم عاودَه، أو أن ذلك قد بَطَلَ بالكليةِ؛ فلا يعودُ إليه إثمُه وإنما يُعاقَب على الأخير؟

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩). (٣) «مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

وفي هذا الأصل قولان: فقالت طائفةٌ: يعود إليه إثمُ الذنبِ الأولِ لفساد التوبة وبطلانِها بالمعاودة؛ لأن التوبةَ من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هَدَم إسلامُه ما قبله من إثمِ الكفرِ وتوابعِه، فإن ارْتَدَّ عاد إليه الإثمُ الأولُ مع إثْم الردة.

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**»(١).

ولأن صحةَ التوبةِ مشروطةٌ باستمرارها، والموافاة عليها، والمُعَلَّقُ على الشرط يُعْدَم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مَشْرُوطَةٌ باستمراره، والموافاة عليه.

قالوا: والتوبةُ واجبةٌ مدى العمر، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك مُعْظَمَ النهارِ، ثم نقض إمْسَاكه بالمفطرات بَطَلَ ما تقدم من صيامه، ولم يُعتَدَّ به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

ومما يدل على هذا قوله ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُ النَّارَ**»(٢).

واحتج الفريق الآخر ـ وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثمُ الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة ـ بأنه لا يُشترط في صحة التوبة العِصْمةُ إلى الممات، بل إذا ندم، وأقلع، وعَزَم على التَّرْك مُحِيَ عنه إثمُ الذنب بمجرَّد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمَه، فليس هذا كالكُفر الذي يُحبِط الأعمالَ؛ فإن الكفرَ له شأنٌ آخَرُ.

قالوا: وقد علَّق الله سبحانه قبولَ التوبةِ بالاستغفار وعدم الإصرار دونَ المُعَاوَدَة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٥].

قالوا: وأما استمرارُ التوبة فشرطٌ في صحةِ كمالِها ونَفْعِها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات؛ كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة؛ فإن تلك عبادة واحدة لا تكون مقبولةً إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة فهي عبادات متعددة بتعدّد الذنوب، فكل ذنب له توبةٌ تخصه، فإذا أتى بعبادة، وتَرَك أخرى لم يكن ما تَرَك مُوجِبًا لبطلان ما فَعَل.

ونُكْتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات»(١).

وهذا القول الثاني هو الصواب، والعِلْم عند الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إذا تاب توبة صحيحة غُفرت ذنوبه، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضًا، وإذا تاب قَبِلَ اللهُ توبتَه أيضًا»(٢).اهـ.

*** إذا تاب من الردة: هل ترجع له حسناتُه؟**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «قد تنازع العلماءُ في التائب من الكفر إذا ارتد بعدَ إسلامِه، ثم تاب بعد الردةِ وَأَسْلَمَ، هل يعود عملُه الأولُ؟ على قولين، مبناهما أن الردةَ هل تُحبط العملَ مطلقًا أو تُحبطه بشرط الموت عليها؟ فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تُحبطه مطلقًا، ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها. والردة ضد التوبة، وليس من السيئات ما يمحو جميعَ الحسناتِ إلا الردةُ»(٣).اهـ.

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٧]: «دلت الآية بمفهومها أنَّ مَنِ ارْتَدَّ ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله الذي قَبْلَ رِدَّتِهِ، وكذلك مَنْ تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعمالُه المتقدمةُ»(٤).اهـ.

*** تفصيل القول فيما لو تاب من المعاصي، هل يعود إليه ثوابُ العملِ؟**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قيل: إن كان قد عمله لغير الله تعالى وأوقعه بهذه النية؛ فإنَّه لا ينقلب صالحًا بالتوبة، بل حَسْبُ التوبة أن تمحوَ عنه عقابَه، فيصير لا له ولا عليه. وأما إن عمله لله تعالى خالصًا، ثم عرض له عُجْب ورياء، أو تحدَّث به، ثم تاب من ذلك وندم؛ فهذا قد يعود له ثوابُ عملِه ولا يُحبَط.

وقد يقال: إنه لا يعود إليه، بل يستأنف العمل.

وإذا فَعَل العبدُ حسنةً، ثم فَعَل سيئة تُحبطها، ثم تاب من تلك السيئة، هل يعود إليه ثوابُ تلك الحسنةِ المتقدمةِ؟. . .

والذي يَظهر. . . أن الحسناتِ والسيئاتِ تتدافع وتتقابل، ويكون الحكمُ فيها

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٠٠).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٧٠٠)، وراجع أيضًا: «الوابل الصيب» (ص٢٣).

(٤) «تفسير السعدي» (١/ ١٦١).

للغالبِ، وهو يقهر المغلوب، ويكون الحكم له، حتى كأن المغلوبَ لم يكن، فإذا غَلَبَتْ على العبدِ الحسناتُ رَفَعَت حسناتُه الكثيرةُ سيئاتِه، ومتى تاب من السيئة تَرَتَّبَت على توبتِه منها حسناتٌ كثيرةٌ، قد تَرْبى وتزيد على الحسنةِ التي حَبِطَت بالسيئة، فإذا عَزَمَت التوبة، وصَحَّت، ونشأت من صَمِيْم القلب أحرقت ما مرَّت عليه من السيئات. . .

يوضح هذا: أن السيئات هي أمراض قلبية، كما أن الحُمَّى والأوجاع أمراضٌ بدنيةٌ، والمريض إذا عُوفِي من مرضه عافيةً تامةً عادت إليه قوتُه وأفضلُ منها، حتى كأنه لم يضعف قط.

فالقوةُ المُتَقَدِّمةُ بمنزلة الحسناتِ، والمرضُ بمنزلةِ الذنوبِ، والصحةُ والعافيةُ بمنزلةِ التوبةِ، كما أن من المرضى من لا تعود إليه صحتُه أبدًا لضعف عافيته، ومنهم مَنْ تَعود صحته كما كانت لتقاوم الأسباب وتدافعها، ويعود البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصحَّ مما كان وأقوى وأنشطَ؛ لقوةِ أسبابِ العافيةِ وقهرها وغلبتها لأسباب الضَعْف والمرض، حتى ربما كان مرض هذا سببًا لعافيته، كما قال الشاعر[1]:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث»[2]. اهـ.

*** حكم توبة العاجز:**

«إذا حِيلَ بينَ العاصي وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعَذَّر وقوعُها منه، هل تصحُّ توبتُه؟

وهذا كالكاذب، والقاذف، وشاهد الزور، إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتِيَ على أطرافه الأربعة، والمزوّر إذا قُطِعَتْ يَدُهُ، ومَنْ وَصَل إلى حدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصيةٍ كان يرتكبُها، **ففي هذا قولان:**

فقالت طائفةٌ: لا تصحُّ توبتُه؛ لأن التوبةَ إنما تكون ممن يمكنه الفِعْلُ والتَرْكُ، فالتوبةُ من الممكنِ، لا من المستحيل. . .

ولأن التوبةَ مخالفةُ داعِي النَّفسِ، وإجابةُ داعِي الحقِّ، ولا داعيَ للنَّفس هنا؛ إذ يُعلم استحالةُ الفِعْلِ منها.

ولأن هذا كالمُكْرَه على التَرْكِ، المحمول عليه قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبتُه.

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص٣٧٤) مع «العرف الطيب».

(٢) «الوابل الصيب» (ص٢٤ ـ ٢٥) بتصرُّف.

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوصَ المُتَضَافِرةَ المتظاهرةَ قد دلَّتْ على أن التوبةَ عندَ المُعَايَنَة لا تنفع؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار، فهكذا هاهنا.

ولأن حقيقة التوبة هي كفُّ النَّفْس عن الفِعْل الذي هو مُتَعَلَّقُ النهي، والكف إنما يكون عن أمرٍ مقدورٍ، وأما المحال فلا يُعْقَل كفُّ النَّفْس عنه.

ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يُتَصَوَّر منه الإيقاعُ حتى يتأتى منه الإقلاعُ.

والقول الثاني ـ وهو الصوابُ ـ: أن توبتَه صحيحةٌ ممكنةٌ، بل واقعةٌ؛ فإن أركانَ التوبةِ مجتمعةٌ فيه، والمقدورُ له منها الندمُ... فإذا تحقّق ندمُه على الذَّنْب، ولومُه نفْسَه عليه فهذه توبةٌ، وكيف يصحُّ أن تُسْلَب التوبةُ عنه مع شِدَّة ندمِه على الذنب، ولَوْمه نَفْسه عليه، ولا سيما ما يَتْبَع ذلك من بكائِه وحُزْنه، وخوفه وعَزْمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفِعل مقدورًا له لما فعله. وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجزَ عن الطاعةِ مَنْزلةَ الفاعلِ لها إذا صَحَّتْ نيتُه؛ كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»**[1]... فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهرًا مع نيته تَرْكها اختيارًا لو أمكنه منزلةَ التاركِ المختارِ أَوْلَى.

وأيضًا: فإن هذا إنما تَعَذَّرَ منه الفعلُ وما تعذر منه التمنّي والوداد، فإذا كان يتمنى ويَوَدّ لو وَاقَعَ الذنبَ، ومن نيته أنه لو كان سليمًا لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني والحزن على فوته؛ فإن الإصرارَ مُتَصَوَّرٌ في حَقِّهِ قَطْعًا، فيُتَصَوَّر في حقِّه ضده؛ وهو التوبة.

والفرق بين هذا وبين المُعَايِن وَمَنْ وَرَدَ القيامة: أن التكليفَ قد انقطع بالمُعَايَنةِ وورود القيامة، والتوبةُ إنما تكون في زَمَن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف؛ فالأوامر والنواهي لازمةٌ له، والكفُّ مُتَصَوَّرٌ منه عن التمني والوداد والأسف على فَوْتِهِ، وتبديل ذلك بالندم والحَزَن على فِعْله»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «توبةُ العاجزِ عن الفِعْلِ كتوبةِ المجبوبِ عن الزنا، وتوبة الأقطعِ العاجزِ عن السَّرِقة، ونحوه من العَجْز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السُّنَّة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية»[3]. اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٦) بتصرُّف يسير.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٤٦).

وعلى ذلك فشروط التوبة ثلاثة:

١ ـ «الندم على ما سَلَفَ منه في الماضي.

٢ ـ الإقلاع عنه في الحال.

٣ ـ العَزْم على ألَّا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبةُ؛ فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقْلِع، ويَعْزم، وحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلِق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة»[١].

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُ اللهُ: «التوبةُ واجبةٌ على كل مؤمنٍ مُكَلَّفٍ، بدليل الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، وفرائضها ثلاثة: النَّدَم على الذنب من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أَضَرَّ ببدنٍ أو مالٍ، والإقلاعُ عن الذنب في أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا تَوَانٍ، والعَزْم ألا يعود إليها أبدًا، ومهما قضى عليه بالعَوْد أحدث عَزْمًا مُجَدَّدًا»[٢]. اهـ.

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي فلها **ثلاثة شروط**:

أحدها: أن يُقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فِعْلها.

والثالث: أن يعزم ألَّا يعود إليها أبدًا.

فإن فُقِدَ أحد الثلاثة لم تصحّ توبته»[٣]. اهـ.

رابعًا: التحلل من حقوق الناس:

وهذا الشرط خاص بما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، «فإن كانت مالًا أو نحوه رَدَّهُ إليه، وإن كانت حَدّ قذفٍ ونحوه مَكَّنَهُ منه، أو طَلَب عَفْوَه، وإن كانت غيبةً اسْتَحَلَّه منها[٤]. ويجبُ أن يتوبَ من جميعِ الذنوبِ، فإن تاب من بعضِها صَحَّتْ توبتُه عندَ أهلِ الحقِّ من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي»[٥].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢) بتصرُّف.

(٢) «التسهيل» (٣/ ٦٥).

(٣) «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧)، وانظر أيضًا: «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة» لابن الديبع الشيباني (ص٣ ـ ٤).

(٤) هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم.

(٥) ما بين الأقواس من كلام النووي في «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧)، وانظر أيضًا: «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة» لابن الديبع الشيباني (ص٣ ـ ٤).

فحقوق العباد الأصلُ فيها المُشَاحَّة، كما أن حقوقَ الله تعالى الأصل فيها المسامحةُ، فلا بد من إعادة حقوق الناس إليهم، وقد قال النبي ﷺ: **«لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ**(١) **مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»**(٢).

وقال ﷺ: **«يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنُ»**(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»**(٤).

وحقوق العباد أنواع:

١ - **حقوق مالية**: وهذه يجب رَدُّهَا ما أمكن، وإلا تحلَّلَه، فإن عجز عن تَحَلُّله أو إرجاعه؛ تصدق عنه به.

وهل تبرأ ذمته إذا أَدَّاهُ لوارثه؟

قيل: تبرأ ذمَّته. وقيل: لا تبرأ؛ لكون صاحب الحق لم يَسْتَوْفِ حقَّه، ولم ينتفع بماله في حياته، ومع ذلك يجب دفعُه إلى الورثة، وبه قال طائفةٌ من أصحاب مالك وأحمد.

قال ابن القيم رحمه الله: «وفصَلَ شيخنا رحمه الله بين الطائفتين، فقال: إن تَمَكَّنَ الموروثُ من أخذِ مالِه والمطالبةِ به، فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبةُ به للوارث في الآخرة كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمَكَّن من طَلَبه وأَخْذه، بل حَالَ بَيْنَهُ وبينَه ظلمًا وعدوانًا، فالطلبُ له في الآخرة. وهذا التفصيل من أحسن ما يقال»(٥). اهـ.

وقد يحتاج الأمرُ في مثل هذه المسائل إلى مزيدِ بحثٍ وإيضاحٍ، ويمكن أن يُقَال: إنه متى عجز عن رَدّ الحقوق أو بعضها إلى أهلها، أو وَرَثَتهم تصدَّق بها عنهم، فإن عجز عن ذلك أَكْثَرَ من الحسنات والدعاء أن يقبل الله منه توبتَه، ويسامحَه على عَجْزِه، ويدعو الله أن يُرْضِيَ صاحبَ الحقِّ من فضله، مع الإكثار من الدعاء له والاستغفار وحسن الثناء عليه ونحو ذلك.

---

(١) **الشاة الجلحاء**: هي الجمّاء التي لا قَرْن لها. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٧٩)، «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٨٤)، مادة: (جلح).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٥) «الجواب الكافي» (ص٣٣٥).

٢ ـ **حقوق في النَّفْس**: فإن قَتَل نفسًا بغير حق؛ قيل: وَجَبَ أن يُمَكِّن أولياء المقتول من القصاص، فإنْ فَعَل ذلك تائبًا مُنيبًا إلى الله بَرِئَتْ ذمتُه؛ لأن الحدودَ كفَّارَاتٌ لأهلها.

وقيل: بل لا تبرأ؛ لأن حقَّ المقتول لا زال قائمًا، وإنما أدرك وليُّه الثأرَ، ولم ينتفع المقتولُ.

والحقوق ثلاثة: حَقّ لله، وحقٌّ للمقتول، وحقٌّ للوارث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: إذا تاب القاتلُ من حق الله، وسلَّم نَفْسه طَوْعًا إلى الوارث؛ ليستوفي منه حقّ مَوْرُوثه سقط عنه الحقّان، وبقي حق المَوْرُوث، لا يضيّعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويضَ المقتول؛ لأن مصيبتَه لم تنجبر بقتل قاتلِه، والتوبةُ النصوحُ تهدم ما قبلها، فَيُعَوِّض هذا عن مَظْلَمَتِه، ولا يُعَاقِب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المُحارِب لله ولرسوله، إذا قَتَل مسلمًا في الصَّفّ، ثم أسلم، وَحَسُنَ إسلامُه؛ فإن الله سبحانه يُعَوِّض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه، ولا يُؤَاخِذُهُ بقتلِ المسلمِ ظُلْمًا؛ فإن هَدْمَ التوبةِ لما قبلها كهَدْمِ الإسلام لما قَبْلَهُ»[1]. اهـ.

٣ ـ **العِرْض**: فإن قَذَفَه، أو رَمَاهُ بِسُوءٍ، أو اغتابه، أو بَهَتَه، فهل يكفي في التوبة من ذلك الاستغفار للمُغْتاب، أم لا بد من إعلامه وتَحَلُّله؟

في المسألة قولان للعلماء؛ وهما روايتان عن الإمام أحمد[2].

القول الأول: اشتراط الإعلام والتحلل، واحتجوا بأن الذنب حق الآدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه، وهو مذهب الشافعي[3]، وأبي حنيفة ومالك[4].

القول الثاني: أنه لا يجب، بل يذكره بخير في مَوَاضع غَيْبته وقَذْفه، ويستغفر له، وبه قال شيخ الإسلام وابن القيم وأكثر العلماء؛ لأن إعلامه مَفْسَدة مَحضة لا مصلحة فيها، وإنما تُؤْذيه وتُسَبِّب العداوة، ورُبَّما وقع ما هو أعظم من مَفْسدة غَيْبته، فلا يقاس ذلك على الحقوق المالية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامِه، بل يكفيه الاستغفارُ، وذِكْره بمَحَاسِن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابن

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٩).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٠).
(٣) انظر: «مغني المحتاج» (٦/ ٣٦٥)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨). وهو مقيد عندهم بما إذا بلغه ذلك.
(٤) انظر: «الفواكه الدواني» (٢/ ٤٩٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٩٠).

تيمية وغيره، والذين قالوا: لا بد من إعلامِه جعلوا الغيبةَ كالحقوقِ الماليةِ، والفرقُ بينَهما ظاهرٌ، فإن الحقوقَ الماليةَ يَنْتَفِعُ المظلومُ بِعَوْدِ نظيرِ مَظْلَمتِه إليه، فإن شاء أَخَذَهَا، وإن شاء تصدَّق بها. وأما في الغيبةِ فلا يمكن ذلك، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ؛ فإنه يُوغِر صدرَه، ويؤذيه إذا سمع ما رُمِيَ به، ولعله يُهَيِّج عداوتَه، ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيله فإن الشارعَ الحكيمَ ﷺ لا يبيحه، ولا يُجَوِّزه، فضلًا عن أن يُوجِبَه ويأمرَ به، ومدارُ الشريعةِ على تعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها، لا على تحصيلها وتكميلها»[1]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «من ظلم إنسانًا فقَذَفَهُ، أو اغتابه، أو شتمه، ثم تاب قَبِلَ اللهُ توبتَه، لكن إن عَرَف المظلوم مَكَّنَهُ من أخذِ حقِّه، وإن قذفه أو اغتابه ولم يَبْلغه ففيه قولانِ للعلماء، هما روايتانِ عن أحمد، أصحهما: أنه لا يُعْلمه أني اغتبتك، وقد قيل: بل يُحْسِن إليه في غَيبتِه كما أساء إليه في غيبتِه، كما قال الحسن البصري: «كفارةُ الغِيبةِ أن تستغفرَ لمن اغتبته»[2]»[3]. اهـ.

فإن أعلمه لِيَتَحَلَّلَه، فما الواجب عليه: أيُعلمه بما قال فيه، أم يكفي الإجمالُ؟

قيل: يجب أن يعلمه بما قال فيه؛ لأن البراءةَ لا تحصل من الحقِّ المجهولِ، فقد لا تسمح نَفْسُه بالإبراء إذا عرف ذلك.

وقيل: يكفي الإجمال، وهو الأقرب.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «التوبةُ مِنْ ظُلْم الناسِ في أعراضِهم وأبْشَارِهم وأموالهم لا تكون إلا بِرَدِّ أموالهم إليهم، وردِّ كل ما تَوَلَّدَ منها معها، أو مثل ذلك إن فات، فإن جُهِلُوا ففي المساكينِ، ووجوهِ البرِّ، مع الندم، والإقلاعِ، والاستغفارِ، وتَحَلُّلهم من أعراضهم وأبشارهم، فإن لم يمكن ذلك فالأمرُ إلى الله تعالى، ولا بد للمظلومِ من الانتصافِ يومَ القيامةِ، يومَ يُقْتَصُّ للشاةِ الجماءِ من القرناءِ.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٣٨٩ ـ ٣٩٠).

(٢) لم أقف عليه من قول الحسن، وروي مرفوعًا من حديث أنس رضي الله عنه. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٩١)، و«الغيبة» (١٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٦٨) وغيرهما، ولا يثبت، بل حكم عليه بعضهم بالوضع، انظر: «الموضوعات» (١٥٨٣)، و«تلخيصها» للذهبي (١٠١٧)، و«تذكرة الحفاظ» له (٣/ ٩٦٧)، و«الضعيفة» للألباني (١٥١٩)، وانظر في هذا الباب: «الفتاوى الحديثية» للسخاوي (١/ ١٦٢)، و«المقاصد» (ص٣١٧) و«اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٠٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩١).

والتوبةُ من القتلِ أعظمُ من هذا كلِّه، ولا تكون إلا بالقصاصِ، فإن لم يمكن فَلْيُكْثِرْ من فِعْلِ الخير؛ لِيُرَجِّحَ ميزان الحسنات»(1). اهـ.

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»** قالوا: المُفْلِس فينا من لا درهم له ولا مَتَاع، فقال: **«إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»**(2).

قال النووي رحمه الله: «حقيقة المُفْلِس: هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاكَ التامَّ، والمعدوم الإعدام المُقَطَّع؛ فتُؤْخَذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أُخِذ من سيئاتهم، فَوُضِع عليه، ثم أُلْقِيَ في النار، فتمَّت خسارته وهلاكه وإفلاسه»(3). اهـ.

فعلى العاقل أن يتَحَلَّلَ من مظالم الناس اليوم، ويتَّقِي الله فيهم فيما يستقبل من أيَّامه، وحَرِيٌّ بالمؤمن أن يتخذ من أخيه المؤمن صاحبًا ونصيرًا، فينْشُر خيره، ويَسْتر عيبه، بدلًا من ظُلْمه وغيبته والوقيعة في عِرْضه.

*** حكم توبة مَنْ ضَيَّعَ حقوقًا يتعذَّر استدراكها:**

أولًا: حقوق الله، وهي أنواع:

الأول: ما تَرَكَهُ الكَافِرُ الأصلي من الواجبات؛ كالصَّلَاةِ، والصيام وغير ذلك، فهذه لا يجب عليه قضاؤها بعد الإسلام إجماعًا، سواء بَلَغَه الإسلام أم لم يَبْلُغه، وسواء كان كفره من قبيل الجحود، أم الإعراض، أم غير ذلك؛ لعموم قوله ﷺ: **«الإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»**(4).

الثاني: ما تَرَكه المسلم من صلاة وصيام ونحو ذلك مُتَعَمِّدًا بغير عذر، والذي عليه الجمهور أن عليه القضاء، وَعَزَاهُ ابنُ القيم إلى الأئمة الأربعة(5)، واحتجوا بقول النبي ﷺ: **«مَنْ نَسِيَ صَلَاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا»**(6).

---

(1) «المحلى» (1/48).
(2) أخرجه مسلم (2581).
(3) «شرح صحيح مسلم» للنووي (16/136).
(4) أخرجه مسلم (121) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(5) انظر: «كتاب الصلاة» لابن القيم (ص123 - 124).
(6) أخرجه البخاري (597)، ومسلم (684) واللفظ له، من حديث أنس رضي الله عنه.

قالوا: فهذا معذور، وقد أُمِرَ بالقضاء، فغير المعذور أَوْلَى، ولا نَجْمَعُ له بين التَّرْك وعدم المطالبة بالقَضَاء، بل هي باقية في ذمته حتى يقضيها.

واحتجّوا أيضًا بقوله ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[(١)]. وها هنا قَدْر مُسْتَطَاع؛ وهو أن يصليها، وإن فات الوقت فهو بكل حال خيرٌ ممن يَلْقَى الله ولم يصلِّهَا.

والقول الثاني: أنه لا يقضي، ولا يصح فِعْل الواجب بعد وقته؛ لأن كل عبادة مؤقتة بوقت، إذا زال وقتها بلا عذر لا تصح ولا تُقبَل.

ولأنه لم يُوقِعْها على الوجه المأمور به، فهو كمَنْ صَلَّى قبل الوقت.

ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»[(٢)].

وقال: «**مَنْ فَاتَتْهُ العَصْرُ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**»[(٣)].

وبه قال أهل الظاهر، وجماعة من السلف، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٤)].

قالوا: ولكن عليه أن يُكثر من التطوع؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ. قَالَ: يَقُولُ رَبُّنَا جل جلاله لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي: أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا قَالَ: انْظُرُوا؛ هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ**»[(٥)].

قالوا: وعَدم إلزامه بالقضاء مُرَغِّبٌ له في التوبة، ومُحَبِّبٌ له إليها، بخلاف ما لو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «المحلى» (٢/ ٢٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠)، وقد ذكر ابن حزم من ذهب إلى هذا القول في «المحلى» (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وانظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ١٠٠٠)، و«كتاب الصلاة» لابن القيم (ص٧٣ ـ ٨٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٨٦٤) واللفظ له، والترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧)، وابن ماجه (٤٢٥)، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم (١/ ٢٦٢)، والألباني في «الصحيحة» (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٦)، إلا أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى تضعيفه؛ وذلك لاضطرابه، انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٤٢٦)، وللدارقطني (٨/ ٢٤٤ ـ ٤٤٨)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٤٦)، والله أعلم.

ألزمناه بالقضاء، وخاصة إذا كان قد تَرَك الصلاة والصيام سنين، فماذا يُقَال لمثل هذا؟ وماذا عساه أن يفعل؟!

والأحوط في هذا أن يُقَال: إذا كان ما تَرَكَهُ يمكنه قضاؤه بغير مشقة تَلْحَقه بالقضاء؛ فإنه يقضي؛ كمن تَرَك صلوات بتفريط، أو أفطر بغير عذر، فهذا يُؤْمَر بالقضاء احتياطًا لدينه، من غير أن يُعْزَم عليه فيه، مع التوبة النصوح، وكثرة الاستغفار.

وإذا كان ما تَرَكه لا يمكنه قضاؤه في العادة إلا بمشقة كبيرة؛ كمن تَرَك الصلاة والصيام سنين عديدة، فإننا لا نُنَفِّرُهُ من التوبة بمطالبته بالقضاء، وإلزامه بذلك، بل قد يعجز عنه. ولكننا نُرَغِّبُهُ في التوبة، ونُبَيِّن له أنها تَجُبُّ ما قَبْلَهَا، وأن الله يقبل التوبة من عباده، وأنه سبحانه يغفرُ الذنوبَ جميعًا. ونأمره بالإكثار من النوافل؛ لتعويض الناقص من فرائضه، كما دَلَّ عليه حديثُ أبي هريرةَ المُتَقَدِّم.

الثالث: ما تَرَكه المسلم من الواجبات، أو فَعَلَهُ من المُحَرَّمَات مُتَأَوِّلًا، والفرقُ بينَ هذا والذي قبله: أن ذاك فَعَله متعمِّدًا من غير عذر، وهذا فَعَلَه بشبهة.

وفيه مسائل:

١ ـ ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: أن التأويل لا يمنع من إقامة الحدِّ أو قتال البغاة؛ لأن التأويل لا يرفع عقوبةَ الدنيا؛ إذ الغرضُ بالعقوبة دفعُ فسادِ الاعتداءِ في المستقبل، فيُشْرَع في مثل هذا عقوبة المُتَأَوِّل في بعض المواضع[(١)].

٢ ـ ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أيضًا: أن ما تَرَكه من واجب، أو أوقعه من العقود والقبوض غير الصحيحة مُتَأَوِّلًا، وهكذا ما اسْتَحَلَّه من النفوس والأموال؛ فإنه لا يُعاقَب على ما مضى إذا لم يكن فيه زَجْرٌ في المستقبل، وأن التوبة تَجُبُّ ما قَبْلَهَا، وهذا أدعى إلى ترغيب الناس في التوبة[(٢)].

وقد كان قُدَامَة بن مَظْعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد اسْتَعْمَله على البحرين، وشهدوا عليه عند عمر أنه كان يشرب الخمر، فقال قدامة: «لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني. فقال عمر: لِمَ؟ قال قدامة: قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآية [المَائِدَة: ٩٣]... فقال عمر: إنك أخطأتَ التأويلَ، إن اتقيتَ اللهَ اجتنبتَ ما حرَّم اللهُ عليكَ»[(٣)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٤ ـ ١٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٢/ ١٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٧٠٧٦)، ومن طريقه البيهقي (٨/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩).

فهذا رجل من الصالحين من أهل بدر، تَأَوَّلَ تأوّلًا أخطأ فيه، فلا يُقَال في مثله: إنه اسْتَحل ما حرَّم الله، وأجمع المسلمون على تحريمه.

ومثل هذا فيما لو كان للتأويل وجه، أما إذا كان تأويلًا ساقطًا، ظاهرَ الفسادِ فلا يُعتبر.

فالتأويل عند الأصوليين على ثلاثة أنواع: تأويل صحيح، وتأويل فاسد لا وجه له، وتأويل بعيد[1].

ومثال التأويلِ الذي لا وجهَ له: قولُ بعضِ أهلِ الزيغِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: ٦٧]؛ قال: يعني: عائشةَ! فهذا قولٌ لا وجهَ له في المعقول ولا المنقول، فلا اعتبارَ له، ولا يُعذر صاحبُه.

وأما التأويل الذي احْتَمَل الناسُ حكايتَه، مع كونه مَرْدُودًا، دون أن يُطعن به في عدالة صاحبه، فهو مَحَلّ الكلام هاهنا.

٣ ـ ذهب شيخ الإسلامِ ابن تيمية ﷺ إلى أنه إذا كان تَرْكُهُ للواجب أو فِعْلُهُ للمحرم بسبب تفريطِه في تَعَلُّم ما يجب عليه فيه، أو تفريطه في التزامه بالواجب عليه؛ فإنه لا يلزمُه قضاءُ ما فَرَّط فيه من الواجب، ولا التَّخلُّصُ من المكاسب المحرمة، ترغيبًا له في التوبة.

ويؤيده ـ فيما كان لِحَقِّ الله ـ ما جاء من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجلٌ، فصلى، فَسَلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فَرَدَّ وقال: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**...» الحديثَ[2]، وفيه قولُ الرجلِ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَه فَعَلِّمْنِي» فَعَلَّمَهُ.

والشاهد منه: أنه لم يأمره بإعادة الصلوات التي صلاها من قبلُ، وقد تبين له أنها لا تجزئه.

وعن معاوية بن الحَكَم السلمي، قال: بَيْنَا أنا أصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك اللهُ، فَرَمَانِي القومُ بأبصارِهم، فقلتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاه! ما شأنُكم تنظرونَ إِليَّ... الحديثَ، وفيه قول النبي ﷺ له: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ**

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٤٤٣)، و«شرح الكوكب المنير» (٣/ ٤٦٢)، و«الصواعق المرسلة» (١/ ١٨١ ـ ٢٠١)، و«أصول الفقه» لابن مفلح (٣/ ١٠٤٤)، و«العذب النمير» (٣/ ٣٣٨)، و«مذكرة في أصو ل الفقه» للشنقيطي (ص٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧) واللفظ له، ومسلم (٣٩٧).

فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يأمره النبيُّ ﷺ بإعادة الصلاة، لكن عَلَّمَهُ تحريمَ الكلام فيما يُسْتَقبل»(٢). اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها أن أُمَّ حبيبةَ بنتَ جحشٍ اسْتُحِيضَت سبع سنين، فاسْتَفْتَت رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِالحَيْضَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا عِرْقٌ**»، فأمرها أن تترك الصلاة قَدْرَ أقرائها وحيضتها، وتغتسل، وتصلّي(٣).

فلم يأمرها النبي ﷺ بالإعادة أو القضاء مع طول المدَّة.

وأما بالنسبة للمكاسب المحرَّمَة التي اكتسبها قبلَ توبتِه بسبب تفريطِه في التَّعَلُّم والسؤال؛ كمن كان يساهم في بعض الشركات الربويَّة ظَنًّا منه أنها لا تتعامل بالربا، فلما تاب وسأل علم أن الأمر بخلاف ما كان يظنّ، فالأقرب في هذا وأمثاله أنه يجب عليه التَّخَلُّصُ من تلك المكاسب المحرَّمَة، وأن ذلك من تمام توبته، بخلاف مَنْ لَمْ يَبْلُغْه الحكم أصلًا؛ كحديثِ عهدٍ بإسلام.

وقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨]، إلى قوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٩].

وقد ذكر زيد بن أسلم(٤)، وابن جريج(٥)، ومقاتل بن حيان(٦)، والسدّي(٧): أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم؛ كان بينهم رِبًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طَلَبَتْ ثَقِيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نُؤَدِّي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عَتَّاب بن أَسِيْد إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيةُ، فَكَتَب بها رسول الله ﷺ إليه، فقالوا: نتوبُ إلى الله، وَنَذَرُ ما بَقِيَ من الربا، فتركوه كلهم.

فمَنْ لم تَبْلُغه الآية، وكان يُعْذَر مثلُه؛ فهو في حكمهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).
(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٥/ ٢١) بتصرُّف يسير.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٧)، ومسلم (٣٣٤) واللفظ له.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٢٠).
(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٢٣).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٢٠)، وانظر: «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٦٣٨ ـ ٦٤٠).

وأما مَنْ يتعاطى الربا، ممَّن يعيش بين المسلمين؛ فإنه يجب عليه أن يتخَلَّصَ من هذا المالِ الحرامِ.

ثانيًا: حقوق العباد: ولها صور[١]:

١ ـ مَنْ غَصَبَ أموالًا، ثم تاب، ولم يعرف أصحابَها ولا ورثتَهم؛ فمن أهل العلم من يقول: لا توبةَ له؛ لأنه لا بد أن يُرجِع الحقوقَ لأهلها، وإذ لم يتمكن من ذلك في الدنيا فسَيأخذ خصومُه حقوقَهم منه في الآخرة، وقد ضَيَّعَهَا عليهم في الدنيا، وَحَرَمَهُمْ من الانتفاع بها، وربما أصابهم بذلك الضررُ البليغُ، فلا توبةَ لمثله. ولكن عليه أن يُكثر من الحسنات، ويصبر على أذى الناس، ولا يقتص منهم في الدنيا؛ فإنهم إذا آذوه فصبر أخذ من حسناتهم، فَيُعَوَّضُ ما يُؤْخَذ من حسناته لمن ظَلَمَهم.

وأمَّا ما بيده من الأموال، فذهب طائفةٌ من أصحابِ هذا القول إلى أنه يجب عليه أن يُبْقِيَهَا عندَه، ويُوقِف أمرَها، ولا يتصرف فيها بالتَّصَدُّقِ ولا غيرِه؛ لأنه لا يحل له أن يتصدقَ من مال غيره إلا بإذنه، والأصلُ في هذه الأموال وجوبُ رَدِّهَا إلى أصحابها، وهذا القول نسبه بعضهم للشافعية[٢].

وقال بعضهم: يدفعها إلى الإمام؛ لأنه وكيلُ أربابها في مثل هذه الحالة، فيقوم مقامَه، ويتصرف فيها عنهم، وهو قول لبعض الشافعية[٣].

والقول الثاني في المسألة: أن له توبة، وعليه أن يتصدق بهذه الأموال عن أصحابها، فإذا كان يوم القيامة فهم مُخَيَّرُونَ بين ثوابها، وبين الأخذِ من حسناته، ويكون ثوابُ الصدقةِ له.

وهذا أرجحُ القولين، وبه قال ابن مسعود، ومعاويةُ بن أبي سفيان ﭭ، وجماعةٌ من أهل العلم.

فعن أبي وائل، أن عبد الله بن مسعود اشترى جاريةً، فذهب صاحبُها، فتصدق بِثَمَنِها، وقال: «اللَّهُمَّ عن صاحبها، فإن كَرِهَ فَلِي، وعليَّ الغُرْمُ»[٤].

---

(١) لمزيد من التفصيل في هذه المسألة ينظر:
https://docs.google.com/viewerng/viewer?url = http: //d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/single7/ar_Attawbâmkasib_muharrama.pdf

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٩٢).

(٣) «تحفة المحتاج» (٣/ ٩٠).

(٤) ذكره البيهقي في «السنن» (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٣٩) بنحوه، وقال ابن حجر في «الفتح» (٩/ ٣٤٠): «إسناده جيد».

وعن حَوْشَب بن سيف قال: «غزا الناس الروم، وعليهم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ رجلٌ مائةَ دينار، فلما قُسِمَتِ الغنيمةُ، وتَفَرَّق الناسُ نَدِم، فأتى عبدَ الرحمٰنِ بن خالدٍ فقال: قد غَلَلْتُ مائةَ دينارٍ فاقبضها. قال: قد تَفَرَّقَ الناسُ، فلن أقبضها منك حتى توافي اللهَ بها يوم القيامة، فأتى معاويةَ، فذكر ذلك له، فقال له مثلَ ذلك، فخرج وهو يبكي، فَمَرَّ بعبد الله بن الشاعر السَكْسَكي، فقال: ما يُبْكِيكَ؟ فقال: غَلَلْت مائة دينار، فأخبره، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أَمُطِيعِي أنتَ يا عبدَ اللهِ؟! قال: نعم، قال: فَانْطَلِقْ إلى معاويةَ فقل له: خذ مني خُمُسَك، فَأَعْطِهِ عشرينَ دينارًا، وانظر إلى الثمانين الباقيةِ فَتَصَدَّقْ بها عن ذلك الجيشِ؛ فإن الله ﷻ يعلم أسماءَهم ومكانَهم؛ فإن اللهَ يقبلُ التوبةَ من عباده.

فقال معاوية: أَحْسَنَ واللهِ؛ لأَنْ أكونَ كنتُ أَفْتَيتُه بها كان أحبَّ إليَّ مِنْ أن يكون لي مثلُ كل شيء امتلكتُ»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد سُئِلَ شيخُنا أبو العباس ابنُ تيميةَ قَدَّسَ اللهُ روحَه، سأله شيخٌ فقال: هَرَبْتُ من أستاذي وأنا صغيرٌ، إلى الآن لم أَطَّلِعْ له على خَبَرٍ، وأنا مملوك، وقد خِفْتُ من الله ﷻ، وأريد براءةَ ذِمَّتِي من حقِّ أستاذي من رَقَبَتِي، وقد سألتُ جماعة من المُفْتِين، فقالوا لي: اذهب فاقعد في المُسْتَوْدَع، فضحك شيخنا، وقال: تَصَدَّقْ بقيمتك أعلى ما كانت عن سيدك»[2]. اهـ.

٢ ـ لو عاوَضَ غيره معاوَضَةً محرَّمَة، وأخذ العِوَض؛ كالمُغَنِّي، وبائعِ الخمرِ، وشاهدِ الزورِ، ثم تاب.

فقيل: يَرُدُّ ما أَخَذَه إلى مالكه؛ لأنه لم يقبضه بطريق شرعي، وهو قول الحنابلة[3]، وقول لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

وقيل: يتملكه؛ لقوله تعالى في الربا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهو أحد أقوال شيخ الإسلام في المسألة.

وقيل: يتصدق به ولا يَرُدّه إليه؛ لأنه قَبَضَهُ ببذلِ مالكِه له، وقد استوفى العِوَضَ المحرَّمَ، وفي رَدِّه إعانةٌ له على المنكر، وهذا قول لشيخِ الإسلامِ ابن تيمية[4]، ومال

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٧٣٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٠).

(٣) «الإنصاف» (٤/ ٣٦٢).

(٤) للوقوف على أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية ينظر:
http: //www.islamtoday.net/bohooth/services/printart-86-9960.htm

إليه ابنِ القيم رحمهما الله[١].

وحين نقول: لا يردُّه إليه، وإنما يتصدقُ به، فهو إنما يفعل ذلك على سبيل التَّخَلُّصِ منه، لا بسبيلِ القربى؛ فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طَيِّبًا.

وهذا المالُ ليس حَقًّا للأول حتى نقولَ: يتصدق به عنه، كما أنه ليس حَقًّا له حتى نقول: يتصدقُ به عن نَفْسه.

وهكذا من اختلط مالُه الحرامُ بالحلالِ، ولم يتميّز حَلَالُه عن حرامه؛ فإنه يتصدق بِقَدْرِ الحرامِ، فإن لم يعرف قدْرَ الحرام تصدّقَ حتى يَغْلِبَ على ظنه أنه تَخَلَّصَ منه، فهذا أبرأُ لذمته، وأدلُّ على صِدْقِ تَوْبتِه.

فلو تَطَاوَلَ على المالِ المغصوبِ سنواتٍ، وكان بإمكان صاحبِه أن يُنَمّيه بالرِّبْح؛ فتوبتُه أن يُخْرِجَ المالَ ومِقْدارَ ما فَوَّتَهُ من رِبْحِهِ.

فإن عَمِلَ فيه فربح:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما المالُ المغصوبُ إذا عمل فيه الغاصبُ حتى حصل منه نماء، ففيه أقوالٌ للعلماء: هل النماءُ للمالك وحدَه؟ أو يتَصَدَّقَانِ به؟ أو يكون بينهما؟ أو يكون للعاملِ أجرةُ مثلِه إن كانت عادتُهم جاريةً بمثل ذلك؟»[٢]. اهـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كان قد رَبِح فيه بِنَفْسه، فقيل: الربحُ كُلُّهُ للمالك، وهو قولُ الشافعيِ، وظاهرُ مذهبِ أحمدَ رحمهما الله.

وقيل: كلُّه للغاصب، وهو مذهبُ أبي حنيفةَ ومالكٍ رحمهما الله.

وكذلك لو أَوْدَعَهُ مالًا فَاتَّجَرَ به وربح، فَرِبْحُه له دونَ مالكه عندَهما، وضمانُه عليه.

وفيها قولٌ ثالثٌ: أنهما شريكانِ في الربح، وهو رواية عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واختيارُ شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أصحُّ الأقوالِ، فتُضَمّ حصةُ المالكِ من الرِّبْحِ إلى أصلِ المالِ، ويتصدقُ بذلك»[٣]. اهـ.

خامسًا: الإخلاص لله ﷻ فيها، واعتقاد أن فِعْلَهُ كان سيئة، فيكرهه لنهي الله عنه:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يظن الظانُّ أنه تائب، ولا يكون تائبًا، بل يكون تاركًا، والتاركُ غيرُ التائبِ، فإنه قد يُعْرِضُ عن الذنب لعدم خُطُوره بباله، أو المُقْتَضِي لعَجْزه عنه، أو تنتفي إرادتُه له بسببٍ غيرِ دينيٍّ. وهذا ليس بتوبة، بل لا بد

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٢٢ _ ٣٢٣).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢). وراجع: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٧، ١٥ _ ٢٢).

أن يعتقد أنه سيئة، ويكره فِعْلَه؛ لنهي الله عنه، ويدعه لله تعالى، لا لرغبةِ مخلوقٍ، ولا لرهبة مخلوق؛ فإن التوبةَ من أعظمِ الحسناتِ، والحسناتُ كلُّها يُشترط فيها الإخلاصُ»[1]. اهـ.

خلاصة شروط التوبة:

ومن خلال ما سبق يتبين أن التوبة لا بد أن يجتمع فيها **الأمورُ التاليةُ**:

١ - الإقلاع عن الذنب.

٢ - النَّدَم على ما فات، والحدُّ الأدنى من ذلك: وجودُ أصلِ الندمِ، وأما قوةُ الندمِ وضعفُه، فَبِحَسَب قوةِ التوبةِ وَضَعْفِهَا.

٣ - العِلْم بقبح الذنب.

٤ - العَزْم على ألَّا يعود.

٥ - تَدَارُكُ ما يمكن تداركُه من رَدِّ المظالم ونحو ذلك.

٦ - أن تكون خالصةً لله ﷻ.

٧ - أن تكون قبل الغرغرةِ؛ لحديثِ ابنِ عمرَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[2].

٨ - أن تكون قبلَ طلوعِ الشمسِ من مغربها؛ لحديث أبي هريرة: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[3].

*** التَّوْبَة مما يتولَّد مِنْ الذَّنب**[4]:

لا شكَّ أن العبدَ يلحقه ذنبُه وما تَوَلَّدَ منه، والله تعالى يعاقب على الأسباب المحرّمة وما تَوَلَّدَ منها، كما يُثيب على الأسبابِ المأمورِ بها وما تَوَلَّدَ عنها؛ ولذا كان مَنْ دَعَا إلى بدعةٍ وضلالةٍ فعليه من الوزرِ مثلُ أوزارِ مَنِ اتَّبَعَهُ؛ لأن اتِّبَاعَهم له تَوَلَّدَ عن فِعْلِهِ. وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النَّحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العَنكبُوت: ١٣].

فكيف يتوب العبدُ من مثلِ ذلك، وقد عُلِمَ بالاضطرارِ أن نَدَمَ العبدِ واستغفاره،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣١٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٥/٢٣٦ - ٢٣٧)، و«العذب النمير» (١/٣٤٩ - ٣٥١، ٤/١٨٨ - ١٨٩، ٥/٤٠٠ - ٤٠١).

وعدمَ إجابة دواعي الذنب وموجباتِه، وَحَبْسَ النفسِ عن ذلك؛ لا يفي برفع تلك الأثقال؟

والجواب أن يُقَال: توبتُه من ذلك برفعِه عن الآخرين بحسب الإمكان؛ فَمَنْ كانت له أفكارٌ مُنْحرفةٌ، وكان يسعى في نَشْرها وبثِّها في الناس فعليه أن يُعْلِن توبتَه ورجوعَه عما كان اعتقده، وسعى له، فإن كان صَنَّفَ كتابًا، أو نَشَر مقالًا؛ فعليه أن يكتب، ويَنْشر ما ينْقُضُه، ويُعْلِنَ توبتَه بكل مقدورٍ له، فيسعى حقُّه خَلْفَ باطلِه فيمحقه.

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٩، ١٦٠]؛ «أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالَهم وأحوالهم، وبيَّنُوا للناس ما كانوا كتموه فأولئك يتوب الله عليهم...

وفي ذلك دلالةٌ على أن الداعيةَ إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه»(١).

وقال الله تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء: ١٤٥، ١٤٦]، «فَشَرَطَ في توبتِهم ـ وقد كان ذنبُهم إفسادَ قلوبِ ضعفاءِ المؤمنين، وتَحَيّزهم واعتصامهم باليهود والمشركين، وإظهارهم الإسلام رياءً وسمعةً ـ أن يصلحوا بدلَ إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدلَ اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يُخلصوا دينَهم لله بدلَ إظهارهم إياه رياءً وسمعةً، فهكذا تُفهم شرائطُ التوبةِ وحقيقتُها»(٢).

وكذلك حال المُغَنِّي والمُمَثِّل وأشباههما إذا رَغِبَ أحدهم في التوبة، وطاب قلبه بالرجوع إلى الله، فعليه أن يتخلَّص مما كان قد جناه على نَفْسه وعلى الآخرين بِحَسَب استطاعته، ويُعْلِن توبتَه على الناس ورجوعَه وإقلاعَه عما كان عليه، ويسعى في تَخْريب محصول الفساد من أشرطةِ الغناءِ والفيديو والأفلام ونحو ذلك، وتوقيفِ تنميتِه، وإزالةِ آثارِه بكلِّ طريقٍ.

*** هل يُشترط أن تكون التوبةُ علانيةً؟**

عن ميمون بن مهران قال: «مَنْ أساء سِرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا، ومن أساء علانيةً فَلْيَتُبْ

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٧) بتصرُّف.

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص١٢٣ ـ ١٢٤) بتصرُّف.

علانيةً؛ فإن الله يغفر ولا يُعَيِّر، والناس يُعَيِّرون ولا يغفرون»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أذنب سرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا، وليس عليه أن يُظهر ذنبه، كما في الحديث: «**مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ**»[٢]. . . فإذا ظهر من العبد الذنبُ، فلا بد من ظهور التوبة»[٣]. اهـ.

ولو قيل في المسألة بالتفصيل لكان له وَجْهٌ؛ وهو أن الذنوب التي يفعلُها علانيةً **نوعانِ**:

الأول: ذنبٌ قاصرٌ، لا يكاد يتعدى صاحبَه؛ كالرجل يتعاطى الدخانَ في المجالس العامة، فهذا ونحوه لا يُشترط لصحة توبته أن يُعْلِنَهَا.

الثاني: ذنبٌ مُتَعَدٍّ؛ كمن يعتقد عقيدةً فاسدةً ويدعو إليها، فهذا يلزمُه الإعلانُ، وإخبار الناس بأنه قد تاب مما كان عليه من الاعتقادِ الفاسدِ، وكذلك كان السلفُ ينهونَ عن مجالسةِ أهلِ الأهواءِ وَالبِدَعِ؛ لأنهم يتكلمون ببدعتهم، وينقلها الناسُ عنهم؛ فهذا شرٌّ يَفْشُو بينَ الناسِ يلزمُ صاحبَه إذا تاب منه أن يُتْبِعَ الحسنةَ السيئةَ، فيُذِيعَ الرجوعَ عن الفساد كما أذاعه مِنْ قَبْلُ.

*** هل يلزمه الإقرارُ بالذنبِ والاعترافُ به؟**

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ثبت الذنبُ بإقرارِه، فجحد إقرارَه، وكذَّب الشهودَ على إقراره، أو ثبت بشهادةِ شهودٍ، هل يُعَدُّ بذلك تائبًا؟ فيه نزاعٌ:

فذكر الإمامُ أحمدُ أنه لا توبة لمن جَحَدَ، وإنما التوبةُ لمن أقرَّ وَتَابَ، واستدلَّ بقصةِ عليِّ بن أبي طالبٍ؛ أنه أُتِيَ بجماعةٍ ممن شُهِدَ عليهم بالزَّنْدَقة، فاعترف منهم ناسٌ فتابوا، فَقَبِلَ توبتَهم، وَجَحَدَ منهم جماعةٌ فقتَلَهُمْ. وقد قال النبي ﷺ لعائشة: «**إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[٤]. . . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة، ومع الجحودِ لا تظهر التوبة»[٥]. اهـ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٤٤، ٣٨٣)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٦٦٣)، وأخرجه مالك (٢٣٨٦) مُرْسَلًا.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

* **هل من شَرْط توبته أن يُكَذِّب نَفْسه؟**[١]

قولان لأهل العلم:

الأول: يلزمُه ذلك، وبه قال عمر[٢]، وطاوس، والشعبي[٣]، والشافعي[٤]، وأحمد[٥]، واستدلوا بما رواه سعيد بن المُسَيِّب، قال: «شهد على المغيرة أربعةٌ بالزنا، فَنَكَل زياد، فحدَّ عمرُ الثلاثةَ، ثم سألهم أن يتوبوا فتاب اثنان، فَقُبِلَتْ شهادتُهما، وأبى أبو بكرةَ أن يتوب، فكانت لا تجوزُ شهادتُه»[٦].

الثاني: لا يلزمه، بل يكفي الاستغفار والندم وصلاح الحال، وبه قال بعض التابعين ومالك، وهو اختيار ابن جرير الطبري[٧].

* **هل الاعترافُ وحدَه يكفي؟**

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هل الاعترافُ بالخطيئةِ بمُجَرَّدِه مع التوحيد مُوجِبٌ لغفرانها، وكَشْف الكُرْبة الصادرة عنها؟ أم يحتاج إلى شيء آخر؟

ـ فأجاب: ـ إن المُوجِب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها؛ فإن الشركَ لا يغفره اللهُ إلا بتوبة... وأما ما دونه فيغفره اللهُ للتائب، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء، فالاعترافُ بالخطيئة مع التوحيد إن كان مُتَضَمِّنًا للتوبة أَوْجَبَ المغفرةَ»[٨]. اهـ.

فلا بدَّ في الاعتراف أن يتضمن الرجوع عن الذنب حتى تصح التوبة. وأما إذا اعترف بالذنب، وأقرَّ بالخطيئة إلا أنه يُضمر العودَ، أو لا يستطيع القَطْعَ على نَفْسه بالانكفافِ، أو يُمَنِّي نفسَه بالإقلاع والتَرْكِ، وهو مع ذلك مُقِرٌّ بالذنب، نادمٌ على الفِعْل؛ فهذه ليست بالتوبة التي تُوجِب المغفرةَ بفضل الله.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٧/ ١٧٢)، و«تفسير السعدي» (ص٥٦١)، و«صحيح البخاري» (٣/ ١٧٠)، و«الاستذكار» (٢٢/ ٣٨ ـ ٤١)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (٢/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«المغني» (١٤/ ١٩١)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٣٨/ ١٤٤)، و«مجلة البحوث الإسلامية» (٦٦/ ٣٢٣).

(٢) كما سيأتي في حكمه على من قذف المغيرة بن شعبة.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٦٣ ـ ١٧٤).

(٤) انظر: «الأم» (٦/ ٢٢٥).

(٥) انظر: «المبدع» (٨/ ٣١٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥٦٤).

(٧) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٧٥)، و«الكافي في فقه أهل المدينة» (٣/ ٢٧١)، والمقدمات الممهدات (٣/ ٢٧٢).

(٨) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

وقال رحمه الله: «وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نَفْس الاستغفار المُجَرَّد الذي لا توبةَ معه، وهو كالذي يسأل اللهَ تعالى أن يغفر له الذنب، مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يُقْطَع بالمغفرة له، فإنه داعٍ دعوةً مُجَرَّدَةً»[١]. اهـ.

* هل الاستغفار توبة؟

«**الاستغفارُ في اللغة**: طلبُ المغفرةِ بالمقال والفِعَال، وعند الفقهاء: سؤال المَغفِرة كذلك. والمغفرة في الأصل: السَّتْر، ويُرَاد بها التجاوز عن الذنب وعدم المُؤَاخَذَة به، وأضاف بعضهم: إما بِتَرْكِ التوبيخ والعقاب رأسًا، أو بعد التقرير به فيما بين العبد وربِّه.

ويأتي الاستغفار بمعنى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: يُسْلِمون، قاله مجَاهِد[٢] وعكرمة[٣].

كذلك يأتي الاستغفار بمعنى الدعاء والتوبة»[٤].

والاستغفار يتضمن أمرين:

الأول: السَّتْر، فيستر اللهُ عيبَه ولا يفضحُه.

الثاني: «الوقايةُ، ومنه المِغْفَر، لما يقي الرأسَ من الأذى، والسَّتْرُ لازمٌ لهذا المعنى؛ وإلا فالعمامةُ لا تُسمَّى مِغْفَرًا، فلا بد في لفظ المِغْفَر من الوقاية»[٥].

فمعنى قول العبد: (أستغفر الله): (اللَّهُمَّ اغفر لي)، ونحو ذلك: سؤال الله تعالى أن يستُرَه، ولا يفضحَه في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ عصاه، وأن يعفو عنه، ولا يُؤَاخِذه بذنبه فيُعَذِّبه.

قال ابن القيم رحمه الله: «السين والتاء دالةٌ على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله؛ أي: أطلب العياذَ به، كما إذا قلتَ: أستخير اللهَ؛ أي: أطلب خيرتَه، وأستغفره؛ أي: أطلب مغفرتَه، وأستقيله؛ أي: أطلب إقالته»[٦]. اهـ.

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ٣١٨ ـ ٣١٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٥١٥). (٣) المصدر السابق.
(٤) ما بين الأقواس من «الموسوعة الفقهية» (٣٤ ـ ٣٥).
(٥) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٨)، وانظر: «لسان العرب» (٦/ ٣٢٩)، مادة: (غفر).
(٦) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٠٥).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد كقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نُوح: ١٠]. . . وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النَّمل: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البَقَرَة: ١٩٩]. . .

والمقرون كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هُود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هُود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هُود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعَيْنِها، مع تَضَمُّنِه طلبَ المغفرة من الله، وهو محوُ الذنبِ، وإزالةُ أثرِه، ووقايةُ شرِّه»(١). اهـ.

فهذا الاستغفار الذي ينفع صاحبَه، ويمنع العذابَ بإذن الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفَال: ٣٣]، فليس المراد مُجَرَّد الاستغفار باللسان، وإنما الاستغفار المقرون بالتوبةِ، فمَنْ كان استغفارُه لا يتجاوز لسانَه، بحيث أنه باقٍ على معصيته، مُصِرٌّ عليها؛ فإن استغفاره لا يمنع العقاب؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما مَنْ أَصرَّ على الذنب، وطَلَب من الله مغفرته؛ فهذا ليس باستغفار مُطْلَق؛ ولهذا لا يمنع العذابَ؛ فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخَر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى؛ فالاستغفار: طلب وقاية شَرّ ما مضى، والتوبةُ: الرجوعُ وطَلَبُ وقايةِ شرّ ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه طَلَب وقاية شره، وذنبٌ يخافُ وقوعَه، فالتوبةُ: العزمُ على ألَّا يفعلَه، والرجوعُ إلى الله يتناول النوعين. . .

فَخُصَّتِ التوبةُ بالرجوع، والاستغفارُ بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مُرَتَّبًا بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا؛ فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة: طَلَبُ جَلْبِ المنفعةِ، فالمغفرة

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٠٧).

أن يقيَه شرَّ الذنب، والتوبةُ أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكلٌّ منهما يَسْتَلْزِمُ الآخَرَ عند إفراده»(١). اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «قولُ مَنْ قال مِن العلماء: الاستغفارُ مع الإصرارِ توبةُ الكذابينَ، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدَّعِي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريْب أنه مع الإصرار لا يكون تائبًا؛ فإن التوبة والإصرار ضدانِ، الإصرار يضادُّ التوبةَ، لكن لا يضادُّ الاستغفار بدون التوبة»(٢). اهـ.

ولم يأتِ ما يحض على الاستغفار بدون توبةٍ، إلا ما جاء عامًّا في باب الرجاء وعدم اليأس، وليس هو من مقامات السالكينَ؛ فإنه ليس فيهم مُصِرٌّ على معصية الله ومعصية الرسول.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْه لِي، فَغفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فقال اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ ربًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بِهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فليَصْنَعْ مَا شَاءَ**»(٣).

قال المنذري رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**» معناه والله أعلم: أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر، وتاب منه، ولم يَعُدْ إليه، بدليلِ قوله: «**ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ**»، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنه كلما أذنبَ كانت توبتُه واستغفارُه كفارةً لذنبِه، فلا يضرُّه. لا أنه يُذنب الذنبَ، فيستغفرُ منه بلسانِه من غيرِ إقلاعٍ، ثم يعاودُه؛ فإن هذه توبةُ الكذابينَ»(٤). اهـ.

*** هل التوبةُ تُقبل من كلِّ ذنبٍ بلا استثناءٍ؟**

الذي عليه جمهورُ أهلِ العلمِ: أن التوبةَ تصحُّ من جميع الذنوبِ، بما في ذلك الشركُ، فمن تَابَ تَابَ اللهُ عليه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «الترغيب والترهيب» (٤/ ٩١).

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ نصٌّ في العموم، ولفظ (جميع) و(كل) من أقوى صيغ العموم.
وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١)، فلم يستثن ذنبًا، ولا مُسِيئًا.

وقال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٦ ـ ٨٩].

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عِمْرَانَ: ٩٠].

وقد قيل في قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا، واستمروا عليه إلى الممات، فهؤلاء لا يقبل الله لهم توبةً عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّسَاء: ١٨]، وقد روي ذلك عن الحسن(٢) وقتادة(٣) وعطاء(٤).

وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ أي: التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها.

وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا تابوا مِنْ كفرهم إلى كفرٍ آخرَ، وإنما تُقبل توبتُهم إذا تابوا إلى الإسلام(٥).

وقيل: هم قومٌ تابوا من الذنوب، ولم يتوبوا من الشرك(٦).

وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم إنما يُظهرونها نفاقًا(٧).

قال ابن جرير ﷺ: «وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر: ما أصابوا في كفرهم من

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٥٧٨).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٥٧٩).
(٤) المصدر السابق، وانظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١، ٧٣).
(٥) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٥٨٠) عن أبي العالية.
(٧) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٠).

المعاصي؛ لأنه جَلَّ ثناؤه قال: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، فكان معلومًا أن معنى قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إنما هو مَعْنِيٌّ به: لن تُقبل توبتُهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعدَ إيمانهم، لا مِنْ كُفْرِهِمْ؛ لأن الله تعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ أن يقبل التوبة من عباده فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، فمحالٌ أن يقول ﷻ: (أقبل) و(لا أقبل) في شيء واحد.

وإذا ذلك كان كذلك، وكان من حُكْم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وَعَدَ قبولَ التوبةِ منها بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٨٩]؛ عُلم أن المعنى الذي لا يُقبل التوبةُ منه غيرُ المعنى الذي يُقبل التوبةُ منه.

وإذا كان ذلك كذلك، فالذي لا يُقبَل منه التوبةُ هو الازديادُ على الكفرِ بعدَ الكفرِ، لا يَقبل اللهُ توبةَ صاحبِه ما أقام على كفره؛ لأن الله لا يَقبل من مُشْرك عملًا ما أقام على شِرْكِهِ وضلالِه، فأما إن تاب مِنْ شِرْكِهِ وَكُفْرِهِ وَأَصْلَحَ؛ فإن الله ـ كما وَصَفَ به نفسَه ـ غفورٌ رحيمٌ»[١]. اهـ.

وقال السعديُّ ﷺ: «يُخبر تعالى أن مَنْ كَفَرَ بعدَ إيمانِه، ثم ازداد كفرًا إلى كُفْرِه بتماديه في الغيّ والضلال، واستمراره على تَرْك الرُّشْد والهدى، أنه لا تُقبل توبتُهم؛ أي: لا يُوَفَّقُونَ لتوبةٍ تُقبَل، بل يَمُدُّهم اللهُ في طغيانِهم يعمهون»[٢]. اهـ.

وقال الشوكاني ﷺ: «والأَوْلَى أن يُحْمَل عدمُ قبول توبتهم في هذه الآية على مَنْ مات كافرًا غيرَ تائبٍ، فكأنه عَبَّرَ عن الموتِ على الكفرِ بعدم قبولِ التوبةِ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦١] في حكم البيانِ لها»[٣]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ﷺ: «قوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ [آل عِمْرَانَ: ٩٠] بمنزلةِ قولِ القائلِ: ثم أصرُّوا على الكفرِ، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فَهُمْ كفروا بعدَ إسلامِهم، ثم زاد كفرُهم، ما نقص، فهؤلاء لا تُقبل توبتُهم؛ وهي التوبةُ عندَ حضورِ الموتِ؛ لأن مَنْ تاب قبلَ حضورِ الموتِ فقد تاب من قريبٍ، ورجع عن كُفْرِه، فلم يَزْدَدْ، بل نقص، بخلاف المُصِرّ إلى حين المعاينة»[٤]. اهـ.

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ٥٨٢).

(٢) «تفسير السعدي» (ص١٣٧ ط. الرسالة)، وقد سقط من ط. ابن الجوزي.

(٣) «فتح القدير» (١/ ٥٩٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فيه نهيٌ عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عَظُمَتِ الذنوبُ وكثرت، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يَقْنط من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبُه، ولا أن يُقَنِّطَ الناسَ من رحمةِ اللهِ. . . ولا يُجَرِّئهم على معاصي الله»[1].اهـ.

* **حكم توبة الزنديق؛ وهو المنافقُ.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: والفقهاءُ مُتَنَازِعُونَ في قبول توبة الزنديق، فأكثرُهم لا يقبلُها، وهو مذهبُ مالكٍ وأهلِ المدينةِ، ومذهبُ أحمدَ في أشهرِ الروايتينِ عنه، وهو أحدُ القولينِ في مذهبِ أبي حنيفةَ، ووجهٌ في مذهبِ الشافعيِّ. والقولُ الآخرُ: تُقبل توبتُه.

وقد اتفقوا على أنه إذا قُتل مثلُ هذا لا يُقال: قُتِلَ ظُلْمًا»[2].اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**: «والفقهاءُ إذا تَنَازَعُوا في قبولِ توبةِ مَنْ تَكَرَّرَتْ رِدَّتُهُ، أو قبولِ توبةِ الزنديقِ، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر؛ لأنه لا يُوثَق بتوبتِه، أما إذا قُدِّرَ أنه أخلصَ التوبةَ للهِ في الباطنِ فإنه يدخلُ في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣]»[3].اهـ.

* **حكم توبة القاتل:**

«الجمهور على قبول توبته، وقالت طائفة: لا توبةَ للقاتل، وهو مذهبُ ابنِ عباسٍ المعروفُ عنه، وإحدى الروايتين عن أحمد.

فعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: سألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النِّسَاء: ٩٣]، قال: لا توبة له، وعن قوله جَلَّ ذِكْره: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨]، قال: «كانت هذه في الجاهلية»[4].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في آية النساء**: «نزلت في آخر ما نزل، ولم يَنْسَخْهَا شيء»[5].

واستدل القائلون بأنه لا توبة للقاتل: بأن التوبةَ مِنْ قَتْلِ المؤمنِ مُتَعَمِّدًا مُتَعَذِّرةٌ؛ إذْ لا سبيلَ إليها إلا باسْتِحْلالِه، أو إعادةِ نَفْسِه التي فَوَّتَهَا عليه إلى جَسَدِه، وكلاهما مُتَعَذِّرٌ على القاتل.

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ١٩ ـ ٢٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣٠).
(٤) أخرجه البخاري (٤٧٦٤).
(٥) أخرجه البخاري (٤٧٦٣).

ولا يَرِدُ عليهم هذا في المال إذا مات رَبُّهُ ولم يُوَفِّهِ إياه؛ لأنه يتمكن من إيصال نَظِيرِه إليه بالصدقة.

ولا يَرِد عليه أيضًا: أن الشركَ أعظمُ من القَتْلِ، وتصحُّ التوبةُ منه؛ فإن ذلك محضُ حقِّ الله، فالتوبةُ منه مُمْكِنةٌ، وأما حقُّ الآدميِّ فالتوبةُ موقوفةٌ على أدائِه إليه أو اسْتِحْلالِه، وقد تَعذَّرَ.

واحتج الجمهورُ بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، فعلَّق المغفرةَ بالمشيئة.

وبقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

وقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ حديثُ الذي قتل المائةَ، ثم تاب، فنفعته توبتُه، ولَحِقَ بالقرية الصالحة التي خرج إليها(١).

وصحَّ من حديث عبادةَ بن الصامتِ ﷺ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: «**تَعَالَوا بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**» قال: فبايعته على ذلك(٢).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٣).

وقال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٤).

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٨) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه من حديث أبي ذر ﷺ أيضًا (١٢٣٧)، وأخرجه مسلم (٩٣) واللفظ له، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٥) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وصحَّحه الحاكم (١/٦٥١)، والذهبي، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٦٨٧).

وعن عتبان بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(٢).

قالوا: وأما ما ورد في بعض نصوص الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وقوله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**»(٣)، ونظائر ذلك؛ **فقد اختلف الناس في هذه النصوص على طُرُق:**

أحدها: القول بظاهرها، والحُكْم بخلود أرباب هذه الجرائم في النار، وهو قول الخوارج والمعتزلة.

الثانية: أن هذا الوعيد في حقِّ المُسْتَحِل لها.

الثالثة: أن الاستدلال بهذه النصوص مبني على ثبوت العموم، وليس في اللغة ألفاظٌ عامةٌ، ومن ها هنا أنكر العمومَ مَنْ أنكَرَهُ، وذلك يَسْتَلْزِمُ تعطيلَ عامةِ الأخبارِ.

الرابعة: أن في الكلام إضمارًا، ثم اختلفوا في هذا المُضْمَر، فقالت طائفة بإضمار الشَّرْط، والتقدير: فجزاؤه كذا، إن جازاه، أو إن شاء.

وقالت طائفة أخرى بإضمار الاستثناء، والتقديرُ: فجزاؤه كذا إلا أن يعفوَ، وهذه دعوى لا دليلَ في الكلام عليها.

الخامسة: أن هذا وعيدٌ، وإخلافُ الوعيد لا يُذَمُّ، بل يُمْدَحُ، والله تعالى يجوز عليه إخلافُ الوعيدِ، ولا يجوز عليه خُلْفُ الوَعْد.

السادسة: أن هذه النصوص وأمثالها مما ذُكِر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضي الحُكْم وجوده؛ فإن الحكمَ إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاءِ مانعِه، وغايةُ هذه النصوصِ: الإعلامُ بأن هذا سببٌ للعقوبة، ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذِكْر الموانع؛ فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبةُ مانعٌ بالإجماعِ، والتوحيدُ مانعٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بالنصوصِ المتواترةِ التي لا مَدْفعَ لها، والحسناتُ العظيمةُ الماحيةُ مانعةٌ، والمصائبُ الكِبارُ المُكَفِّرةُ مانعةٌ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين»(١).

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «توبةُ قاتلِ النَّفْس الجمهورُ على أنها مقبولةٌ، وقال ابن عباس: لا تُقبل، وعن أحمدَ روايتانِ، وحديثُ قاتلِ التسعةِ والتسعينَ في «الصحيحين» دليلٌ على قَبولِ توبتِه(٢)، وآيةُ النساءِ إنما فيها وعيدٌ في القرآنِ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النِّسَاء: ١٠].

ومع هذا، فهذا إذا لم يتب، وكلُّ وعيدٍ في القرآن فهو مشروطٌ بعدمِ التوبةِ باتفاق الناسِ، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقًا به وإن تاب؟! هذا في غايةِ الضعفِ، ولكن قد يُقال: لا تُقبل توبتُه بمعنى: أنه لا يَسْقط حقُّ المظلومِ بالقَتْل، بل التوبة تُسْقط حقَّ اللهِ، والمقتول مُطَالِبُه بحَقِّه، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدَّيْن؛ فإن في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشَّهِيدُ يُغْفَرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْن**»(٣).

لكن حق الآدمي يُعطاه من حسنات القاتل، فَمِن تمامِ التوبةِ أن يَسْتكثر من الحسنات، حتى يكون له ما يُقابِل حقَّ المقتول.

ولعل ابن عباس رأى أن القتلَ أعظمُ الذنوبِ بعدَ الكفرِ، فلا يكون لصاحبِه حسناتٌ تُقابِل حقَّ المقتولِ... فيبقى الكلامُ فيمن تابَ وأخلصَ وعجزَ عن حسناتٍ تُعادِل حقَّ المظلوم، هل يُجْعَل عليه من سيئاتِ المقتولِ ما يُعذَّب به؟

وهذا مَوْضِع دقيق، على مثله يُحمَل حديثُ ابنِ عباسٍ، لكن هذا كلُّه لا يُنافي مُوجَبَ الآية، وهو أن الله تعالى يغفر كلَّ ذنبٍ؛ الشركَ والقتلَ والزنا وغيرَ ذلك من حيث الجملة، فهي عامةٌ في الأفعال، مُطْلَقةٌ في الأشخاص»(٤).اهـ.

*** توبةُ صاحبِ البدعةِ:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ**

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧) باختصار وتصرف.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، بلفظ مقارب.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥ ـ ٢٦) بتصرُّف يسير، وانظر أيضًا: (١٥/ ٤٠٨).

كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»(١).

وقال عطاء الخراساني: «أَبَى اللهُ أن يأذنَ لصاحبِ بدعةٍ بتوبةٍ»(٢).

والمعنى في ذلك ـ والعلم عند الله تعالى ـ: أن صاحب البدعة يرى أنه على حَقٍّ وَهُدًى، فمثل هذا متى يتوب؟!

وهذا هو الفَرْق بين الشبهات والشهوات؛ فصاحب الشبهة والبدعة يظن أنه صاحبُ دِينٍ، ويسأل اللهَ الثباتَ عليه. أما صاحبُ الشهوةِ فهو يعلم أنه عاصٍ آثِمٌ، فهو يَسْتقبل التوبةَ، ويتمنى أن لو تاب اللهُ عليه، ويرى المُسْتَقِيمينَ فيَغْبطهم، ولعله يجعل للصُّلْح مَوْضِعًا بِحُسْنِ الظنِّ بالله.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ أن في توبةِ الداعِي إلى البدع نزاعًا في مذهب مالكٍ وأحمدَ، وذكر أن ظاهرَ مذهبِ أحمدَ مع مذاهبِ سائرِ أئمةِ المسلمينَ أنها تُقبل، واحتج شيخُ الإسلامِ على قَبولها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٥٣](٣).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها»(٤).

ومعنى قولهم: «**إن البدعة لا يتاب منها**»: أن المبتدعَ الذي يتخذ دينًا لم يُشَرِّعه اللهُ ولا رسولُه قد زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسَنًا، فهو لا يتوبُ ما دام يراه حسنًا؛ لأن أولَ التوبةِ العلمُ بأن فِعْلَه سيئٌ ليتوب منه، أو بأنه تَرَك حَسَنًا مأمورًا به أمرَ إيجابٍ أو استحبابٍ ليتوبَ ويفعلَه، فما دام يرى فِعْلَه حَسَنًا وهو سيئ في نَفْس الأمر فإنه لا يتوب، ولكن التوبةَ منه مُمْكنةٌ وواقعةٌ بأن يهديَه اللهُ ويرشدَه حتى يتبينَ له الحقُّ، كما هدى ﷺ مَنْ هَدَى من الكفارِ والمنافقينَ وطوائفَ من أهلِ البدعِ والضلالِ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما عَلِمَهُ، فَمَنْ عمل بما عَلِم أورثه اللهُ عِلْمَ ما لم يعلم»(٥). اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (٣٧)، وابن عدي «في الكامل» (٦/ ٢٢٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٤٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٨٩): «رجاله رجال الصحيح، غير هارون بن موسى الفَرْوي، وهو ثقة»، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٧)، و«الصحيحة» (١٦٢٠)، وانظر: التعليق على «المجالسة» للدينوري (٢٨١٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٩٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٠٨) (١٦/ ١٩، ٢٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) مختصرًا.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «الداعِي إلى الكفرِ والبدعةِ وإن كان أضلَّ غيرَه فذلك الغيرُ يُعاقب على ذنبه؛ لكونه قَبِلَ مِنْ هذا وَاتَّبَعَهُ. وهذا عليه وزرُه وَوِزْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ إلى يوم القيامة، مع بقاءِ أوزارِ أولئك عليهم، فإذا تاب مِنْ ذَنْبِهِ لم يبقَ عليه وِزْرُه، ولا ما حَمَلَه هو لأجل إضلالهم.

وأما هم، فسواء تاب أو لم يتب، حالهم واحد. ولكن توبتَه قبلَ هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى، كما تَابَ كثيرٌ من الكفارِ وأهلِ البدعِ، وصاروا دعاةً إلى الإسلام والسُّنَّةِ. وَسَحَرَةُ فرعونَ كانوا أئمةً في الكفرِ، ثم أسلموا، وختم اللهُ لهم بخير»(١). اهـ.

* **حكم توبة المُحَارِبِ:**

الصحيح: أنها تُقبل؛ لما تَقَدَّمَ، ولقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المَائِدَة: ٣٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الذنوب التي يُطْلِق الفقهاءُ فيها نفيَ قبول التوبة؛ مثل قول أكثرهم: لا تُقبل توبةُ الزنديقِ، وهو المنافق، وقولهم: إذا تاب المُحارِب قَبْل القدرةِ عليه تسقط عنه حدودُ اللهِ، وكذلك قولُ كثير منهم أو أكثرِهم في سائرِ الجرائم، كما هو أحدُ قَوْلَي الشافعيِّ، وأصحُّ الروايتينِ عن أحمدَ.

وقولهم في هؤلاء: إذا تابوا بعدَ الرَّفْعِ إلى الإمامِ لم تُقبل توبتُهم؛ فهذا إنما يريدونَ به رَفْعَ العقوبةِ المشروعةِ عنهم؛ أي: لا تُقبل توبتُهم؛ بحيث يُخَلَّى بلا عقوبة، بل يُعاقَب؛ إما لأن توبتَه غيرُ معلومةِ الصحةِ، بل يُظَن به الكذِبُ فيها، وإما لأن رفعَ العقوبة بذلك يُفضي إلى انتهاكِ المحارمِ، وسَدّ باب العقوبة على الجرائم. ولا يريدونَ بذلك أنَّ مَنْ تاب مِنْ هؤلاء توبةً صحيحةً؛ فإن اللهَ لا يقبل توبتَه في الباطن؛ إذ ليس هذا قولَ أحدٍ من أئمةِ الفقهاءِ»(٢). اهـ.

* **حكم التوبة من بعضِ الذنوبِ دونَ بعضٍ:**

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التوبة من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيرِه صحيحة، فالتوبةُ تَتَبَعَّضُ كالمعصيةِ، وتتفاضلُ في كَمِّيّتِها كما تتفاضلُ في كيْفيّتِها، فكلُّ ذنبٍ له توبةٌ تخصه، ولا تتوقف التوبةُ من ذنبٍ على التوبة من بقيةِ الذنوبِ، كما لا يتعلقُ أحدُ الذَّنْبَيْنِ بالآخَرِ، فكما أنه يصحُّ إيمانُ الكافرِ مع إدامتِه شُرْبَ الخمرِ والزنا، فكذلك تصحُّ التوبةُ عن ذنبٍ مع الإصرارِ على ذنب آخَرَ.

---

(١) المصدر السابق (١٦/ ٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٨/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

يقول ابن القيم رحمه الله: «والذي عندي في هذه المسألة أن التوبةَ لا تصحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على آخر من نوعه، وأما التوبةُ من ذنبٍ مع مباشرةِ آخَرَ لا تَعلّقَ له به، ولا هو مِنْ نوعه؛ فَتَصِحُّ؛ كما إذا تاب من الربا، ولم يَتُبْ من شربِ الخمرِ مثلًا، فإن توبتَه من الربا صحيحةٌ، وأما إذا تاب من ربا الفضلِ ولم يَتُبْ من ربا النسيئةِ، وأصَرّ عليه، أو بالعكسِ، أو تاب من تناولِ الحشيشةِ وَأَصَرَّ على شُرْبِ الخمرِ أو بالعكسِ؛ فهذا لا تصحُّ توبتُه»[1]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقولُ القائلِ: هل الاعترافُ بالذنبِ المُعَيّنِ يُوجِب دَفْع ما حصل بذنوب مُتَعَدِّدة، أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟

فجواب هذا مبنيٌّ على أصول:

أحدها: أن التوبةَ تصحُّ مِنْ ذنبٍ مع الإصرار على ذنبٍ آخرَ، إذا كان المُقْتَضي للتوبة من أحدهما أقوى من المُقْتَضي للتوبةِ من الآخَرِ، أو كان المانعُ من أحدهما أشدَّ، وهذا هو القولُ المعروفُ عندَ السلفِ والخَلَفِ. . .

الأصل الثاني: أنَّ مَنْ له ذنوبٌ فتاب من بعضها دونَ بعضٍ؛ فإن التوبةَ إنما تقتضي مَغْفرةَ ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حُكْم مَنْ لم يَتُبْ، لا على حُكْم من تَاب، وما عَلِمْتُ في هذا نزاعًا إلا في الكافرِ إذا أَسْلَمَ؛ فإن إسلامَه يتضمن التوبةَ من الكفرِ، فيُغفر له بالإسلام الكفرُ الذي تاب منه، وهل تُغفَر له الذنوبُ التي فَعَلَهَا في حالِ الكفرِ ولم يَتُبْ منها في الإسلامِ؟ هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما: يُغفر له الجميعُ؛ لإطلاقِ قولِهِ ﷺ: «الإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» رواه مسلم[2]، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يُغفر له بالإسلام إلَّا مَا تاب منه، فإذا أسلم وهو مُصِرٌّ على كبائرَ دونَ الكفرِ فحكمُه في ذلك حكمُ أمثالِه من أهلِ الكبائرِ.

وهذا القولُ هو الذي تَدُلُّ عليه الأصولُ والنصوصُ؛ فإن في الصحيحين أن النبيَّ ﷺ قال له حكيمُ بن حزام: يا رسولَ الله! أَنُؤَاخَذُ بما عَمِلْنَا في الجاهليةِ؟ فقال: «مَنْ أَحْسَنَ مِنكُمْ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ»[3]. . .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٥).

(٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، برقم: (١٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] يدل على أن المُنْتَهِيَ عن شيء يُغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيءٍ يُغفر له ما سَلَفَ من غيره.

الأصل الثالث: أن الإنسانَ قد يَسْتحضرُ ذنوبًا فيتوب منها، وقد يتوب توبةً مُطْلَقَةً لا يَسْتَحضر معها ذنوبَه، لكن إذا كانت نيتُه التوبةَ العامةَ فهي تتناول كلَّ ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبةَ العامةَ تتضمنُ عَزْمًا عامًّا بِفِعْلِ المأمورِ وتَرْكِ المحظورِ، وكذلك تتضمَّن نَدَمًا عامًّا على كل محظور. . .

إذا تَبيَّنَ هذا، فَمَنْ تاب توبةً عامةً كانت هذه التوبةُ مُقْتَضِيةً لغفرانِ الذنوبِ كلِّها، وإن لم يسْتحضر أعيانَ الذنوبِ، إلا أن يُعارِض هذا العامَّ مُعَارِضٌ يُوجِب التخصيصَ، مثل أن يكون بعضُ الذنوبِ لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لقوةِ إرادتِه إياه، أو لاعتقادِه أنه حَسَنٌ ليس بقبيحٍ، فما كان لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لم يدخل في التوبة»[(١)] .اهـ.

واحْتَج القائلون بعدم صحَّة تَجَزُّؤ التوبة: بأن التوبةَ هي الرجوعُ إلى الله من مخالفتِه إلى طاعتِه، وأيُّ رجوعٍ لمن تاب من ذنبٍ واحدٍ وَأَصَرَّ على أَلْفِ ذنبٍ؟!

واحتجوا أيضًا: بأن الله سبحانَه إنما لم يُؤَاخِذ التائبَ؛ لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبةً نصوحًا، والمُصِرُّ على مثل ما تاب منه أو أعظم لم يراجع الطاعةَ، ولم يَتُبْ توبةً نصوحًا.

ولأن التائب إذا تاب إلى الله فقد زال عنه اسمُ العاصي؛ فالكافرُ إذا أَسْلَمَ زال عنه اسمُ الكافرِ، فأما إذا أَصَرَّ على غيرِ الذنبِ الذي تاب منه فَاسْمُ المعصيةِ لا يفارقه، فلا تصحّ توبتُه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَسِرُّ المسألة: أن التوبةَ هل تَتَبَعَّضُ كالمعصيةِ، فيكون تائبًا من وَجْهٍ دونَ وجهٍ؛ كالإيمان والإسلام؟ والراجحُ تَبَعُّضُهَا، فإنها كما تتفاضلُ في كيفيتِها كذلك تفاضل في كَمِّيَّتِها.

ولو أتى العبدُ بفرضٍ وَتَرَكَ فرضًا آخَرَ لاسْتَحقَّ العقوبةَ على ما تَرَكَهُ دونَ ما فَعَلَهُ، فهكذا إذا تاب من ذنبٍ وَأَصرَّ على آخر؛ لأن التوبةَ فَرْضٌ من الذَّنْبَيْن، فقد أدَّى أحدَ الفرضينِ وَتَرَكَ الآخر، فلا يكون ما تَرَك مُوجِبًا لبُطْلَان ما فَعَل»[(٢)] .اهـ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩ ـ ٣٢٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

مِنْ آدابِ التوبةِ ومكمّلاتِها

يحتاج التائبُ إلى تكميلِ التوبةِ ببعضِ آدابِها وأخلاقِها التي تُعِينُهُ على الثباتِ، وتكون من براهين الصِّدْق في التوبة؛ **فَمِن ذلك:**

١ - الإكثارُ من الحسناتِ:

فإن الحسناتِ يُذهبن السيئاتِ، ومن ذهابِ السيئاتِ ذهاب آثارها ودواعيها ومُقْتضياتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ تمامِ التوبةِ أن يأتيَ بحسناتٍ يفعلُها»[(١)]. اهـ.

٢ - الصدقة:

وهذا مُنْدَرِجٌ تحتَ الذي قَبْلَهُ، إلا أنه أُفْرِد لأهميتِه، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أن أنخلعَ من مَالِي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه ﷺ، قال: «**أَمسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فيه دليلٌ على استحبابِ الصدقةِ عندَ التوبةِ بما قَدِر عليه من المال»[(٣)]. اهـ.

وعن حذيفةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصَّوْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ، وَالنَّهْيُ**»[(٤)].

وعن معاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ**»[(٥)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٨).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥١٢) بتصرُّف يسير.
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٤).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصحَّحه ابن حبان (٢١٤)، والحاكم (٤/ ٤٢٢)، والذهبي، والألباني في «صحيح الترغيب» (٨٦٦)، وأعلَّه الدارقطني في =

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تاب العبدُ، وأخرجَ من مالِه صدقةً للتَّطَهرِ من ذنبِه كان ذلك حَسنًا مشروعًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]»[(١)]. اهـ.

٣ ـ مفارقةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى اللهَ فيه:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مفارقةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى اللهَ فيه من تمامِ التوبةِ، وأيضًا فإنهما لمَّا اجْتَمَعَا على معصية الله كان من توبتِهما أن يتفرقَا في طاعةِ اللهِ؛ لقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٦٧].

وقد قال طاوس: «ما اجتمع رجلانِ على غيرِ طاعةِ الله إلا تَفَرَّقَا عن ثِقَالٍ، فإن تَعَجَّلَا ذلك الثِّقَالَ في الدنيا كان خيرًا لهما من تأخيرِه إلى الآخرة»»[(٢)]. اهـ.

٤ ـ الاعتراف بالذنب مقرونًا بالانكسار.

٥ ـ الإكثار من التضرّع والاستغفار.

قال ابن جُزَي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبةُ واجبةٌ على كل مؤمنٍ مُكَلَّفٍ بدليلِ الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأمةِ. وفرائضُها ثلاثةٌ: الندمُ على الذنبِ من حيث عُصِيَ به ذو الجلال... والإقلاعُ عن الذنب في أوَّلِ أوْقَاتِ الإمكان من غير تأخير ولا توان، والعَزْمُ ألَّا يعود إليه أبدًا...

وآدابها ثلاثة: الاعترافُ بالذنب مقرونًا بالانكسار، والإكثارُ من التضرُّعِ والاستغفارِ، والإكثارُ من الحسناتِ لِمحْوِ ما تقدَّم من السيئات»[(٣)]. اهـ.

❁ ❁ ❁

= «العلل» (٦/ ٧٣)، والمنذري في «الترغيب» (٣/ ٥٢٩)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٥٠٦ ـ ٥٠٧).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣).

(٢) «شرح العمدة في الفقه» (٣/ ٢٦٥).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ٦٥).

مراتب المُنِيْبِيْن

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناسُ في إنابتِهم على درجاتٍ متفاوتةٍ، **فمنهم**: المنيبُ إلى الله بالرجوعِ إليه من المخالفاتِ والمعاصِي، وهذه الإنابةُ مصدرُها مُطَالَعة الوعيد، والحامل عليها العِلْم والخشية والحَذَر.

ومنهم: المنيبُ إلى الله بالدخولِ في أنواع العبادات والقُربات، فهو سَاعٍ فيها بِجُهْدِه، وقد حُبِّبَ إليه فِعْلُ الطاعاتِ وأنواعِ القُرُبَاتِ.

وهذه الإنابةُ مَصْدرُها الرجاءُ، ومطالعةُ الوعدِ والثوابِ.

ومنهم: المنيبُ إلى اللهِ بالتضرّع والدعاء، والافتقار إليه والرغبة، وسؤالِ الحاجاتِ كلِّها منه. ومصدرُ هذه الإنابة شُهُود الفضل والمِنَّة، والغِنَى والكَرَم، والقدرةِ، فأنزلوا به حوائجَهم وعَلَّقوا به آمالَهم.

ومنهم: المنيبُ عند الشدائد والضراء فقط إنابةَ اضطرارٍ لا إنابةَ اختيارٍ؛ كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهؤلاء كلُّهم قد تكون نَفْس أرواحِهم مُلْتَفِتَةً عن الله سبحانه، مُعْرِضَةً عنه إلى مَألوفٍ طبيعيٍّ نفسانيٍّ، قد حَالَ بينَها وبينَ إنابتِها بذاتها إلى مَعْبُودها وإلهها الحَقِّ، فهي مُلْتَفِتَة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بِحَسَب إيمانِها به، ومعرفتِها له، فَأَعْلَى أنواعِ الإنابةِ: إنابةُ الروحِ بِجُمْلَتِهَا إليه لشدةِ المحبةِ الخالصةِ المُغْنِيَة لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أَنَابَتْ إليه أرواحُهم لم يتخَلَّفْ منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاءَ كلَّها رَعِيَّتُهَا ومَلِكُها تَبَعٌ للروح، فلما أنابت الروحُ بذاتِها إليه أَنَابَتْ جميعُ القُوَى والجوارحُ.

فإنابة العبدِ ولو ساعةً من عُمُره هذه الإنابةَ الخالصةَ أنفعُ له وأعظمُ ثمرةً من إنابة سنينَ كثيرةٍ من غيره، فأين إنابةُ هذا من إنابةِ مَنْ قَبْلَهُ؟!»[1]. اهـ.

والمقصودُ التعريفُ بأن إنابةَ المُحِبِّ الراغبِ غيرُ إنابةِ الراجِي أو الخائفِ؛ لطُرُوءِ مُقْتَضَيَاتِ الرجاءِ أو الخوفِ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٧٣ ـ ٢٧٦) باختصار وتصرف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُونُس: ١٢].

فـ«يُخبِرُ تعالى عن الإنسان وَضَجَرِهِ وقَلَقِه إذا مَسَّهُ الضرُّ؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥١]... وذلك لأنه إذا أصابته شدةٌ قَلِق لها، وجَزِع منها، وأَكْثَرَ الدعاءَ عندَ ذلك... في جميعِ أحوالِه، فإذا فَرَّجَ اللهُ شدتَه، وكشف كُرْبتَه، أعْرَضَ وَنَأى بجانبِه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء»(١).اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الرُّوم: ٣٣].

❁ ❁ ❁

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٥٢)، وانظر: «تفسير السعدي» (٢/ ٧٠١ ـ ٧٠٢).

مراتب التوبة

أعلى مقامات التوبة «مقامُ الذين يَسْتَقِلُّونَ في حقِّ ربهم ومعبودهم جميعَ أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يَرَوْنها قطُّ إلا بعينِ النقصِ والإزراء عليها، ويرونَ شأنَ مَعْبُودهم أعظمَ وقدْرَه أعلى من أن يرضوا نفوسَهم وأعمالَهم له.

وإذا غفلوا عن مُرَاد مَعْبودهم منهم، ولم يُوَفُّوهُ حَقَّهُ، تابوا إليه من ذلك توبةَ أربابِ الكبائرِ منها؛ فالتوبةُ لا تفارقُهم أبدًا، وتوبتُهم لَوْنٌ، وتوبةُ غيرِهم لَوْنٌ، وكلما ازدادوا حُبًّا له ازدادوا معرفةً بحقِّه، وشهودًا لتقصيرهم، فَعَظُمَتْ لذلك توبتُهم»[(١)]. اهـ.

هذا وقد ذكر لها ابنُ جُزَيٍ سبعَ مراتبَ:

«**الأولى**: توبةُ الكفارِ من الكفرِ.

الثانية: توبةُ المُخَلِّطِينَ من الذنوب والكبائر.

الثالثة: توبة العدول من الصغائر.

الرابعة: توبة العابدين من الفترات.

الخامسة: توبة السالكينَ من عِلَلِ القلوبِ والآفاتِ.

السادسة: توبة أهلِ الورعِ من الشبهاتِ.

السابعة: توبة أهلِ الإحسانِ من الغفلاتِ»[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) بتصرُّف.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ٦٥) بتصرُّف.

من أيِّ شيءٍ تكون التوبة؟

التوبةُ الواجبةُ هي التوبةُ من الذنوب كلِّها، سواء كانت هذه الذنوبُ بِفِعْل المحرمات، أو بِتَرْك الواجبات.

*** أجناسُ ما يُتاب منه:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهي اثنا عشر جنسًا، مذكورةٌ في كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هي أجناسُ المحرَّماتِ: الكفرُ، والشركُ، والنفاقُ، والفسوقُ، والعصيانُ، والإثمُ، والعدوانُ، والفحشاءُ، والمنكرُ، والبغيُ، والقولُ على الله بلا علمٍ، واتباعُ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مَدَارُ كلِّ ما حَرَّمَ اللهُ، وإليها انتهاءُ العالَم بأسْرِهم، إلا أتْباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد يكون في الرَّجُلِ أكثرُها وأقلُّها أو واحدةٌ منها، وقد يُعلَم ذلك، وقد لا يُعلَم، فالتوبةُ النصوحُ هي بالتخلّصِ منها، والتحصّن والتحرُّزِ من مُوَاقَعتها»[1]. اهـ.

و«**الفسوق الذي تجبُ التوبةُ منه قسمانِ:**

الأول: فِسْقٌ من جهةِ العَمَلِ.

والثاني: فسقٌ من جهةِ الاعتقادِ.

وفِسْقُ العملِ نوعانِ:

١ ـ مقرونٌ بالعصيانِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجُرَات: ٧].

٢ ـ ومفردٌ؛ كقوله ﷺ: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[2].

والمقرون بالعصيان: هو ارتكابُ ما نَهَى اللهُ عنه، والعصيانُ: هو عصيانُ أمرِه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٦]، وقال موسى لأخيه هارونَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣﴾ [طه: ٩٣].

فالفسقُ أَخصُّ بارتكابِ النَّهْيِ؛ ولهذا يُطلق عليه كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، والمعصيةُ أَخصُّ بمخالفةِ الأمرِ كما تَقَدَّمَ، وَيُطْلَقُ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كلٌّ منهما على صاحبِه؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، فسمى مخالفتَه للأمرِ فِسْقًا.

وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١]، فسمَّى ارتكابَه للنهيِ معصيةً، فهذا عندَ الإفرادِ، فإذا اقْتَرَنَا كان أحدُهما لمخالفةِ الأمرِ، والآخَرُ لمخالفةِ النَّهْيِ.

والتقوى: اتِّقاءُ مجموعِ الأمرينِ، وبتحقيقِها تصحُّ التوبةُ من الفسوقِ والعصيانِ؛ بأن يعملَ العبدُ بطاعةِ اللهِ، ويتركَ معصيةَ اللهِ.

وفِسْقُ الاعتقادِ: كفِسْقِ أهلِ البِدَعِ، الذين يؤمنونَ باللهِ ورسولِه واليومِ الآخِرِ، ولكن يَنْفُون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشيوخِ، ويُثْبِتُونَ ما لم يُثبته الله ورسوله كذلك. وهؤلاء كالخوارجِ والمعتزلةِ، وكثيرٍ من الجهميةِ»[(١)]

وأصحابُ فِسْقِ الاعتقادِ أحوجُ إلى التوبةِ من غيرِهم من أصحابِ الذنوبِ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبةُ من الاعتقاداتِ أعظمُ من التوبةِ من الإراداتِ؛ فإن مَنْ تَرَكَ واجبًا أو فَعَلَ قَبِيْحًا يعتقدُ وجوبَه وَقُبْحَهُ؛ كان ذلك الاعتقادُ داعيًا له إلى فِعْلِ الواجبِ، ومانعًا من فِعْلِ القبيحِ... ولهذا يكون الغالبُ على هذا التَّلَوُّم، وتكون نفوسُهم لَوَّامَةً؛ تارةً يُؤَدُّونَ الواجبَ، وتارةً يتركونَه، وتارةً يتركونَ القبيحَ، وتارةً يفعلونَه.

وأمَّا مَا فَعَلَهُ الإنسانُ مع اعتقادِ وجوبِه، وَتَرَكَهُ مع اعتقادِ تحريمِه، فهذا يكون ثابتَ الدواعِي والصوارف أعظم من الأوَّلِ بكثيرٍ، وهذا تحتاج توبتُه إلى صَلَاح اعتقاده أولًا، وبيانِ الحقِّ. وهذا قد يكون أصعبَ من الأول»[(٢)]. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حِجَابُ أهلِ الكبائرِ الظاهرةِ أرقُّ من حجابِ إخوانِهم من أهلِ الكبائرِ الباطنةِ، مع كَثْرَةِ عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أقربُ إلى التوبةِ من كبائرِ أولئك، فإنها قد صارت مقاماتٍ لهم، لا يتحاشونَ من إظهارِها وإخراجِها في قَوَالِب عبادة ومعرفة، فأهلُ الكبائرِ الظاهرةِ أدْنَى إلى السلامةِ منهم، وقلوبُهم خيرٌ من قلوبهم»[(٣)]. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعليقًا على ما ورد من أن أصحاب البدع والأهواء ليست لهم توبة**: «لأن اعتقاده لذلك يدعوه إلى ألَّا ينظر نَظَرًا تامًّا إلى دليل خلافه،

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) باختصار وتصرف.
(٢) «جامع الرسائل» (٢٣٧ ـ ٢٣٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢٣) بتصرُّف يسير.

فلا يعرف الحقَّ؛ ولهذا قال السلفُ: «إن الْبِدْعَة أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ»[1].

وقال أيوب السَّخْتِيَاني وغيرُه: «إن المبتدعَ لا يرجع».

وأيضًا التوبةُ من الاعتقادِ الذي كَثُرَ مُلَازمةُ صاحبِه له، ومعرفتُه بِحُجَجِهِ يحتاج إلى ما يُقارب ذلك من المَعْرفةِ والعِلْمِ والأدلةِ»[2]. اهـ.

وقد دعا اللهُ ﷻ أربابَ الاعتقاداتِ الفاسدةِ إلى التوبةِ والإنابةِ فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المَائِدَة: ٧٣]، إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ [المَائِدَة: ٧٤].

وصَدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعَرْض الذي هو غايةُ اللُّطْفِ واللِّين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ [المَائِدَة: ٧٤].

ولكن القومَ يُسَارِعُونَ في الإثم وهم ضَالُّونَ، ويحسبون - وَهُمْ في الغوايةِ - أنهم مهتدونَ.

ثم إنك ترى صاحبَ الشُّبْهةِ يُدافِع عنها، ويدعو إليها، ويدعو ربَّه أن يموتَ عليها، ولا يَدُورُ بَخَلَدِه أن يتوبَ منها، وكيف يتوبُ منها وهي دينه؟!

وأما أصحابُ الذنوبِ من أربابِ الشهواتِ فشأنُهم عندَ أنفسهم على خلافِ هؤلاء، وقد تقدَّم الكلامُ على هذا.

* تَرْكُ جِنْس المأمورِ أعظمُ من فِعْل جِنْس المحظورِ:

«كثيرٌ من الناسِ لا يستحضرُ عندَ التوبةِ إلا بعض المُتَّصِفَات بالفاحشةِ أو مُقَدّماتِها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تَرَكَهُ من المأمورِ الذي يجبُ لله عليه في باطنِه وظاهرِه من شُعَبِ الإيمانِ وحقائقِه أعظمَ ضررًا عليه مما فَعَلَهُ من بعضِ الفواحشِ؛ فإن ما أَمَرَ اللهُ به من حقائقِ الإيمانِ التي بها يصيرُ العبدُ من المؤمنينَ حَقًّا أعظمُ نَفْعًا من نَفْعِ تَرْكِ بعضِ الذنوبِ الظاهرةِ؛ كحبِّ اللهِ ورسولِه؛ فإن هذا أعظمُ الحسناتِ الفعليةِ.

وعن عمرَ بن الخطابِ ﷺ، أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلَقَّبُ حِمَارًا، وكان يُضْحِك رسولَ الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَهُ في الشرابِ، فَأُتِيَ به يومًا، فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثرَ ما يُؤْتَى به! فقال النبي ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[3].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٩).
(٢) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٥٠ - ١٥١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

فنهى عن لَعْنه مع إصراره على الشُّرْب؛ لكونِه يحبُّ اللهَ ورسولَه، مع أنه ﷺ لَعَنَ في الخمرِ عشرةً: لَعَن الخمرَ، وعاصرَها ومعتصرَها، وشاربَها وساقيَها، وحاملَها والمحمولةَ إليه، وبائعَها ومبتاعَها، وآكِلَ ثمنها[(١)]. وَلَكِن لَعْن المُطْلَقِ لا يسْتلزمُ لَعْن المُعَيَّنِ الذي قام به ما يَمْنَع لُحُوقَ اللعنةِ له»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «جِنْسُ تَرْكِ الواجباتِ أعظمُ من جِنْسِ فِعْلِ المحرَّمات؛ إذ قد يدخل في ذلك تَرْكُ الإيمانِ والتوحيدِ، وَمَنْ أَتَى بالإيمانِ والتوحيدِ لم يُخَلَّدْ في النارِ، ولو فَعَلَ ما فَعَلَ، وَمَنْ لم يأتِ بالإيمانِ والتوحيدِ كان مُخَلَّدًا، ولو كانت ذنوبُه من جِهَةِ الأفعالِ قليلةً؛ كالزُّهّادِ والعُبَّادِ من المشركينَ وأهلِ الكتابِ»[(٣)]. اهـ.

ومما تجدر الإشارةُ إليه في ذلك ما يصيب كثيرًا من الناس، حين تتوالى على الأُمَّةِ النكباتُ والبلايا وَالْفِتَنُ، فيشكُّ في وعْدِ اللهِ بِنَصْر المؤمنين، ويسيء الظنَّ بربه، وَتَرِدُ القَوَادِحُ على دِينِهِ واعتقادِه، فَمِثْلُه يحتاجُ إلى توبةٍ بلا شكٍّ، وكثيرٌ من الناس لا يَخْطُر ذلك بباله، ويظن أن التوبة إنما تكون من السرقة والظلم ونحو ذلك، ولو تحقق لَعَلِمَ أن ذلك الذي أشرنا إليه من أعظم الظلم.

* التوبةُ مِنْ تَرْكِ المُسْتَحباتِ:

فالذي يُفَرِّطُ في صلاة النوافل؛ من قيام الليل، والسنن الرواتب، وكذا المُفَرِّط في صيام التطوّع، ونحو ذلك من أبواب البرّ مما لا يجب عليه، ولكن يَجْمُلُ به أن يتجمّلَ به، فمثلُ هذا يصلح في حقّه التوبةُ أيضًا.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: رأيتُ في المنام كَأَنَّ مَلَكَينِ أَخَذَاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْر، وإذا لها قَرْنانِ كَقَرْنَي البئرِ، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتُهم، فجَعَلْتُ أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، فَلَقِيَهُما مَلَكٌ آخَرُ، فقال لي:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحَّحه ابن السكن - كما في «التلخيص» (٤/ ٧٣) -، والحاكم (٢/ ٣١ - ٣٢)، و(٤/ ١٤٤)، وقال شيخ الإسلام في «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٥٦ ٩): «حديث جيد»، وصحَّحه الذهبي، والألباني في «الإرواء» (١٥٢٩)، وحسَّنه ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٤/ ٨٧ - ٨٨)، وفي الباب عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس رضي الله عنه، وانظر: «بيان الدليل» (ص٩١ - ٩٢)، و«غاية المرام» (٦٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩) بتصرُّف.

(٣) المصدر السابق (١١/ ٦٧١).

لَنْ تُرَاعَ، فقصصتُها على حفصة، فَقَصَّتْهَا حفصةُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ»، قال سالم بن عبد الله: فكان عبدُ اللهِ لا ينامُ من الليل إلا قليلًا[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ فَرَّطَ في مُسْتَحَبَّاتٍ فإنه يتوب أيضًا ليحصل له مُوجِبُها، فالتوبةُ تتناولُ هؤلاء كُلَّهُمْ»[(٢)]. اهـ.

* هل يُتَاب من الحسناتِ؟

قد يتأتى ذلك في بعض الصور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «توبة الإنسان من حسناته على أوجه:

أحدها: أن يتوبَ ويستغفرَ من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوبَ مما كان يظنُّه حَسَناتٍ ولم يكن؛ كحال أهل البدع.

والثالث: أن يتوب من إعجابه، ورؤيته أنه فَعَلَها، وأنها حصلت بقُوَّته، وينسى فضلَ اللهِ وإحسانَه، وأنه هو المُنْعِمُ بها.

وهذه توبةٌ مِنْ فِعْلٍ مذموم، وتَرْكٍ مأمورٍ؛ ولهذا قيل: تخليصُ الأعمالِ مما يفسدُها أشدُّ على العاملينَ من طولِ الاجتهادِ»[(٣)]. اهـ.

أما الحسنةُ من حيث هي فلا يجوزُ للعبدِ أن يتوبَ منها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأما التوبةُ من الحسناتِ فلا تجوزُ عندَ أحدٍ من المسلمينَ، بل مَنْ تاب من الحسنات مع عِلْمِهِ بأنه تاب من الحسنات؛ فهو إما كافرٌ، وإما فاسقٌ، وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهلٌ ضَالٌّ؛ وذلك أن الحسنات هي الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فالتوبةُ من الإيمانِ هي الرجوعُ عنه، والرجوعُ عنه رِدَّةٌ، وذلك كفرٌ. والتوبةُ من الأعمالِ الصالحةِ رجوعٌ عما أَمَرَ اللهُ به، وذلك فسوقٌ أو معصيةٌ، والله تعالى حَبَّبَ إلى المؤمنينَ الإيمانَ، وَكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، فكلُّ حسنةٍ يفعلُها العبدُ إما واجبةٌ، وإما مُسْتَحَبَّةٌ»[(٤)]. اهـ.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ [مُحَمَّد: ٣٣]، وإن من أعظم ذلك: أن يندمَ العبدُ على خيرٍ فَعَلَهُ، ويرجع عنه رجوعَ المُذْنِب عن ذنبه إذا تَابَ إلى ربه.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢١، ١١٢٢) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٨٧).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٦٨٧ ـ ٦٨٨).

(٤) «جامع الرسائل» (٢٤٨).

وقد يحصل منه ذلك لِمُلِمَّةٍ أَلَمَّتْ به، أو بلاء أصابه، وهذا من الارتكاس والنَّكْث، ومن نَكَثَ فإنما ينكث على نَفْسه.

* ماذا بعد الذنب؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أن صاحب البصيرة إذا صَدَرَتْ منه الخطيئة فله نَظَرٌ إلى خمسةِ أمورٍ[1]:

أحدها: أن ينظرَ إلى أمرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحْدِثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نَفْسه بالذنب.

الثاني: أن ينظرَ إلى الوعدِ والوعيدِ، فيُحدث له ذلك خوفًا وخشيةً تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكينِ اللهِ له منها، وتخليتِه بينَه وبينَها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لَعَصَمَهُ منها، فيُحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته...

الرابع: نَظَرُه إلى الآمِرِ له بالمعصيةِ، المُزَيِّنِ له فعلَها... وهو شيطانه الموكَّل به، فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عَدُوًّا، وكمال الاحتراز منه»[2]. اهـ.

* عقبات الشيطان التي يجعلها في طريق السالكين:

«الشيطان يريد أن يَظْفَر بالعبد في عقبة من سَبْع عقبات، بعضُها أصعبُ من بعض، لا ينزل معه من العقبة الشاقة إلى ما دونَها إلا إذا عجز عن الظَّفَر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه.

فإذا ظَفِر به في هذه العقبة بَرَدَت نار عداوته واستراح.

الثانية: عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق، أو بالتعبد بما لم يأذن به الله.

الثالثة: عقبة الكبائر.

الرابعة: عقبة الصغائر.

الخامسة: عقبة المباحات، فيَشْغَله بها عن الاستكثار من الطاعات، ثم يطمع فيه أن يَسْتدرجه منها إلى تَرْك السُّنَنِ، ثم مِنْ تَرْكِ السننِ إلى تَرْكِ الواجباتِ.

السادسة: عَقَبَة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فيأمره بها، ويحسِّنها في عينه، ويزينها له؛ لِيَشْغَلَه بها عما هو أفضل منها.

---

(١) ذكر رَحِمَهُ اللهُ أربعة أمور، فالظاهر أن قوله: (خمسة) سبق قلم، ويؤيد ذلك أنه أعادها في موضع آخر وذكر أنها أربعة. ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٢).

السابعة: عقبةُ تسليطِ جندِه عليه بأنواع الأذَى، باليد واللسان والقلب، على حَسَب مَرْتبتِه في الخيرِ، فكلما عَلَتْ مرتبتُه أَجْلَب عليه العدو بخيله ورجله، وَظَاهَرَ عليه بجنده، وَسَلَّطَ عليه حِزْبَه وأهلَه بأنواعِ التسليطِ. وهذه العقبةُ لا حيلةَ له في التَّخَلُّصِ منها، ولو نجا منها أحدٌ لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلقِ عليه»[(١)].

* أيهما الأفضلُ: نسيانُ الذنبِ أم تَذَكُّرُهُ؟

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل...

فمنهم من رأى الاشتغال عن ذِكْرِ الذَّنبِ والإعراضِ عنه صَفْحًا، فصَفَاء الوقت مع الله تعالى أَوْلَى بالتائب وأنفعُ له.

ومنهم مَنْ رأى أن الأَوْلَى أَلَّا ينسى ذنبَه، بل لا يزال جاعلًا له نُصْبَ عينيه، يُلَاحِظُه كلَّ وقت، فيُحدِث له ذلك انكسارًا وذلًا وخضوعًا...

والصوابُ: التفصيلُ في هذه المسألة، وهو أن يُقَالَ:

إذا أَحَسَّ العبدُ من نفسِه حالَ الصفاءِ غَيْمًا من الدَّعْوَى، ورقيقة من العُجْبِ، ونسيانِ المِنَّةِ... فَذِكْرُ الذنبِ أنفعُ له، وإن كان في حالِ مُشَاهَدتِه مِنَّة الله عليه، وكمال افتقاره إليه... وعَدَم استغنائِه عنه... وشُهُود سَعَةِ رحمتِه وحِلْمه وعفوه... فنسيانُ الجنايةِ والإعراضُ عن الذنب أَوْلَى به وأنفع»[(٢)].اهـ.

وعن عون بن عبد الله قال: «جرائمُ التوابينَ منصوبةٌ بالندامةِ نُصْبَ أعينهم، لا تَقَرُّ للتائب في الدنيا عينٌ كلما ذَكَرَ ما اجترح على نَفْسه»[(٣)].

وكان يقول: «التائبُ أسرعُ دمعةً، وأرقُّ قَلْبًا»[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٢) باختصار وتصرف، وانظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٩٩ ـ ٨٠٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٥١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣٨)، وأورده الغزالي بنحوه مرفوعًا، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٤): «لم أجِدْهُ مرفوعًا»، وكذا السبكي (٤/ ١٧١)، وانظر: «الضعيفة» (١٠٣).

الطريق إلى تحقيق التوبة

١ - ينبغي على العبد ألَّا يُعينَ الشيطانَ على أخيه المسلم، فإن وَقَعَ في الذنبِ نَصَحَه وأَرْشَده:

فإن الكثيرين حين يَطَّلِعُون على زَلَّة وقع فيها أحد من إخوانهم المسلمين؛ فإنهم لربما شَمتوا به، واستوحشوا منه، وصار مَنْبُوذًا بين إخوانه، تُلاحقه زَلَّته وخطيئته دون اعتبار لتوبة أو صلاح حال، أو سابقة في الخير والعمل الصالح، مع أن الزلل من طبيعة الإنسان، والله واسع المَغْفِرَة، وحال النبي ﷺ مع أصحابه معروفة في هذا الباب، ولكننا نغفل عن ذلك كثيرًا؛ بل لربما دعونا على أحدهم ألَّا يُوَفَّق للتوبة!! فأين نحن من هَدْي النبي ﷺ وأصحابه ﷺ؟!

ففي حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ أُتي برجل قد شرب، فقال رسول الله ﷺ: **«اضْرِبُوهُ»**، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: **«لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ الله»**[(١)].

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سُرِقَ له: «ألَا تَدْعُو على ظَالمك؟ قال: ما أُحِبُّ أن أكونَ عونًا للشيطانِ عليه»[(٢)].

٢ - تدبرُ القرآنِ:

يقول القرطبيُّ رحمه الله: «قال علماؤُنا: الباعثُ على التوبةِ وحَلِّ الإصرار إدامةُ الفِكْرِ في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره اللهُ سبحانه من تفاصيل الجنة، ووَعَد به المُطِيْعِين، وما وصفه من عذاب النار، وتهدَّد به العاصينَ، ودام على ذلك حتى قوي خوفُه ورجاؤُه، فدعا اللهَ رَغَبًا ورَهَبًا، والرغبةُ والرهبةُ ثمرةُ الخوفِ والرجاءِ، يخافُ من العقابِ، ويرجو الثوابَ»[(٣)]. اهـ.

وعن كعب الأحبار قال: «لما قرأتُ: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٨٦)، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٣٠)، والألباني في «التعليقات الحسان» (٥٧٠٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٨٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٢٦).

٤٧] أسلمتُ حينئذ، شَفَقَةً أن يُحَوَّل وجهي نَحْو قَفَاي»[١].

فَمَنْ تَدَبَّرَ آيِ القرآنِ، وما جاء فيها من الوعد والوعيد؛ حَمَلَهُ ذلك على استقبالِ التوبةِ، واستقباحِ الحالِ التي هو عليها؛ من مُوَاقعةِ الذنوبِ، والخروج عن طاعة ربِّ العبادِ.

٣ ـ النظرُ في أَثَرِ الذَّنْبِ:

فَمَنْ تَأَمَّلَ ما يجنيه بذنبِه مِنْ خِزْيِ الدنيا وخسرانِ الآخرةِ، مع ما يكون عليه من مقبوحِ الحالِ؛ أَنِفَ لنَفْسِه أن يكونَ بتلك المَثَابةِ، إذا كان عَقُولًا، له حظٌّ من النَّظَرِ والتَّعَقُّلِ، وليس كالبهيمةِ، لا ينظر إلا فيما يَشْتَهِيه، دونَ تَدَبُّرِ العَوَاقِبِ، وما يجنيه بها من الخسار.

عن يزيد بن الأَصَمّ، قال: «إن رجلًا في الجاهلية شَرِب فَسَكِر، فجعل يتناول القَمَر، فَحَلَف لا يَدَعه حتى يُنزله، فيَثِب الوَثْبة، ويَخِرّ، ويكدح وجهه، فلم يَزَلْ يفعل ذلك حتى خَرَّ، فنام، فلما أصبح قال لأهله: ويْحكم، ما شأني؟ قالوا: كنتَ تَحْلِف لَتُنْزِلَنَّ القمرَ، فتَثِب، فَتَخِرّ، فهذا الذي لقيتَ منه ما لقيتَ.

قال: أرأيت شَرَابًا حَمَلني على أن أُنزِلَ القمرَ! لا واللهِ لا أعود إليه أبدًا»[٢].

وذكر ابن أبي الدنيا[٣] أنه مَرَّ بسكران وهو يبول في يده، ويغسل به يدَه كهيئةِ المتوضئ، ويقول: «الحمدُ للهِ الذي جَعَل الإسلامَ نورًا، والماءَ طهورًا».

وعن العباس بن مِرْدَاس أنه قيل له في الجاهلية: «ألا تأخذ من الشراب، فإنه يزيد من جُرْأتك ويُقَوِّيك؟ قال: أُصبح سيدَ قومي وَأُمْسِي سفيهَهم؟! لا والله، لا يدخل جوفي شيء يحول بيني وبين عقلي أبدًا»[٤].

٤ ـ مُحَاسَبَة النَّفس:

بالمحاسبةِ يُمَيِّزُ العبدُ بينَ مَا لَه وما عليه، فَيَسْتَصْحب مَا لَه، ويؤدي ما عليه، ومن منزلةِ المُحَاسَبةِ يصحُّ له نزولُ منزلةَ التوبةِ؛ لأنه إذا حَاسَبَ نفسَه عَرَفَ ما عليه من الحقِّ، فخرج منه، وَتَنَصَّلَ منه إلى صاحبه، وهي حقيقةُ التوبةِ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٨).

(٣) نسبه إليه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (٢/ ٢٤٧)، ولم أجده في كتب ابن أبي الدنيا، لا في «ذم المسكر» ولا غيره.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم المسكر» (٥٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ٤٢٧).

و«التوبةُ محفوفةٌ بمُحَاسَبَتَينِ: مُحاسَبةٍ قبلها تقتضي وجوبَها، ومُحَاسَبةٍ بعدَها تقتضي حِفْظَها... وقد دَلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]...

والمقصود من هذا النَّظَر ما يُوجِبه ويقتضيه؛ من كمالِ الاستعدادِ ليومِ المعادِ، وتقديمِ ما يُنجيه من عذاب الله، وَيُبَيِّضُ وجهَه عندَ اللهِ...

فإذا صحَّ هذا المقامُ، ونزل العبدُ في هذه المنزلةِ، أَشْرَفَ منها على مقامِ التوبةِ؛ لأنه بالمحاسبة قد تميّز عنده ما له وما عليه، فَلْيَجْمَعْ هِمَّتَه وعَزْمَه على النزولِ فيه، والتشميرِ إليه إلى الممات...

ولا بُدَّ أن يُعْلَمَ أن التوبة لا تصحُّ إلا بعدَ معرفةِ الذَّنْبِ، والاعترافِ به، وطلبِ التَّخَلُّصِ من سوءِ عواقبِه أولًا وآخِرًا»[(١)]، ولا يتمُّ ذلك إلا بمحاسبة النَّفْس.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العبدَ لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نَفْسه، وكانت المحاسبةُ هِمَّته»[(٢)].

٥ ـ التفكُّر:

التفكر أداة التذكّر، وهو أمرٌ ينبغي أن يحرصَ عليه المسلمُ في أمر دينِه ودنياه، وهو مما يُعين العبدَ على نفسِه إذا أقبلَ على الله تائبًا، إليه مُنِيبًا، فَحَرِيٌّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عواقبِ الطاعاتِ وآثارِها الحَمِيدةِ أن يُقبلَ عليها، وحَرِيّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عَوَاقِبِ المعاصِي، وما قد يحصل له بها من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة أن يُعرِض عنها.

يقول عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن دخل المقابر أن يتخيل أنه ميت، وأنه قد لَحِق بهم، ودخل مُعَسْكَرَهم، وأنه محتاج إلى ما هم إليه محتاجونَ، وراغبٌ فيما هم فيه راغبونَ، فليأتِ إليهم بما يُحِبُّ أن يُؤتَى به إليه، وَلْيُتْحِفهُمْ بما يحبُّ أن يُتْحَف به، وليتفكر في تَغَيُّر ألوانهم، وتَقَطُّع أبدانهم، وتَنَكُّرِ أحوالهم، وكيف صاروا بعد الأُنْسِ بهم والتسلي بحديثهم إلى النِّفَارِ من رؤيتهم، والوحشة من مشاهدتهم، وَلْيَتَفَكَّرْ أيضًا في انشقاقِ الأرضِ، وبَعْثرةِ القبورِ، وخروجِ الموتى وقيامهم مرةً واحدةً، حفاةً عراةً غُرْلًا، مُهْطِعينَ إلى الداعِي، مُسْرعينَ إلى المنادي»[(٣)]. اهـ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٨) بتصرُّف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٠٣)، وابن أبي الدنيا في «المحاسبة» (٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٦) واللفظ لهما.

(٣) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» (ص١٨) بتصرُّف يسير.

أَسْلَمَنِي الأَهْلُ بِبَطْنِ الثَّرَى ... وَانْصَرَفُوا عَنِّي فَيَا وَحْشَتَا
وَغَادَرُونِي مُعْدَمًا يَائِسًا ... مَا بِيَدَيَّ الْيَوْمَ إِلَّا الْبُكَا
وَكُلُّ مَا كَانَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ... وَكَانَ مَا حَاذَرْتُهُ قَدْ أَتَى
وَذَاكُمُ الْمَجْمُوعُ وَالْمُقْتَنَى ... قَدْ صَارَ فِي كَفِّيَ مِثْلَ الْهَبَا
وَلَمْ أَجِدْ لِي مُؤْنِسًا هَا هُنَا ... غَيْرَ فُجُورٍ كَانَ لِي أَوْ تُقَى
فَلَوْ تَرَانِي وَتَرَى حَالَتِي ... بَكَيْتَ لِي يَا صَاحِ مِمَّا تَرَى[1]

وقال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابنَ آدم! تَرْكُ الخطيئةِ أهونُ مِنْ طَلَبِ التوبةِ»[2].

وإذا تفكَّر العبدُ في الدنيا وانصرامِها، وفي الآخرةِ وإقبالِها، وفي أيَّامِهِ التي تنقضي يومًا بيوم، وفي طِيْب العيش الذي يذهب مع الأيام، وفي نَكَدِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وضَنكها، وعاقبةِ المُغْتَرِّينَ بها، مع هوانِها على الله. ثم تَفَكَّرَ في الحسنةِ وأنوارِها وآثارِها، وَتَفَكَّرَ في السيئةِ وآلامِها؛ لَعَلِمَ شدةَ حاجتِه إلى التوبةِ، وأنه بدونِها واهِمٌ في غرورٍ.

٦ ـ اليقظةُ الباعثةُ على التوبةِ:

وهي ـ غالبًا ـ ثمرة من ثمرات التفكر.

قد تكلم ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عن اليقظة بوصفِها باعثًا على التوبةِ، فقال: «فأولُ منازلِ العبوديةِ: اليقظةُ، وهي انزعاجُ القلبِ لرَوْعةِ الانتباهِ من رَقْدَةِ الغافلينَ... فَمَنْ أَحسَّ بها فقد أحسَّ واللهِ بالفلاحِ، وإلا فهو في سكراتِ الغفلةِ»[3].اهـ.

وقد يحصل ذلك بسببِ موقفٍ أو رؤيا، فيستيقظ القلبُ من غفلتِه، وَيُشَمِّرُ العبدُ عن ساعدِ الجدِّ من ساعتِه، ويسعى في تحصيل مغانم الرجوع، وليرضَ حينئذ حقًّا من الغنيمة بالإياب.

٧ ـ ما يفتح اللهُ به على قلب العبد:

وهو قريب مما قبله.

فقد يفتح اللهُ على العبدِ، ويرزقُه من لَدُنه رحمة، فينتبه إلى «قُبْحِ الذنوبِ وضررِها؛ فإنها سمومٌ وآفاتٌ مُهْلِكَةٌ...

فإذا نظر العبدُ بتوفيق الله تعالى إلى نَفْسِه، فوجدها مشحونةً بذنوبٍ اكْتَسَبَهَا، وسيئاتٍ اقترفَها، وانبعث منه النَّدَمُ على ما فَرَّطَ، وتَرْكُ المعاصي مخافةَ عقوبةِ الله

---

(١) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» (ص١٠٣)، و«التذكرة بأحوال الموتى» (١/٣٠٧).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٢٦).
(٣) «مدارج السالكين» (١/١٢٣).

تعالى؛ صَدَقَ عليه أنه تائبٌ»[١].

٨ ـ معرفةُ اللهِ تعالى معرفةً صحيحةً بأسمائِه وصفاتِه:

فكلما كان العبدُ بالله أعلمَ كان له أخوفَ وأشدَّ تعظيمًا، وإقبالًا عليه، وتَطَلُّعًا إلى ما عنده.

ولذلك؛ فالعبدُ بحاجة دائمًا إلى إحياءِ قلبِه بتلك المعانِي الجليلةِ، وهذه المعارفِ الساميةِ، وما أشدَّ تأثيرَ ذلك على النَّفْس في زيادةِ الإيمانِ، وتقويةِ العَزْمِ على الطاعةِ، والإقبالِ على الله ذِي الجلالِ، والإدبار والنُّفُور عن العصيان في الحال.

وبِحَسْب المرء أن يعلم أن الله تعالى هو غافرُ الذنبِ، وقابلُ التوب، شديدُ العقابِ، حتى تكون الطاعةُ أحبَّ شيءٍ إليه، وتكون المعصيةُ أبغضَ شيءٍ لديه.

٩ ـ ومما يُوَصِّلُ إلى التوبةِ مما يَخُصُّ أهلَ الأهواءِ: أن يعلمَ صاحبُ البدعةِ شدةَ حاجتِه إلى العلمِ بالسُّنَّةِ:

فإنه «لا تنكشفُ له ذنوبُه التي يجب عليه التوبةُ منها إلا بتَضَلُّعِه في علوم السُّنَّةِ، وكثرةِ اطلاعِه عليها، ودوامِ البحثِ عنها، والتفتيشِ عليها؛ فإن السُّنَّةَ تمحقُ البدعةَ وَلَا تَقُومُ لها، وإذا طلعت شمسُها في قلبِ العبد قَطَعَتْ من قلبِه ضبابَ كلِّ بدعةٍ، وأزالت ظلمةَ كلِّ ضلالةٍ»[٢].

١٠ ـ الصدق مع الله، والإخلاص له، والإقبال عليه ﷻ.

١١ ـ امتلاء القلب من محبة الله ﷻ:

فمن كان الله محبوبَه شَغَلَهُ بحبِّه عن محبةِ ما سواه، وخاصةً ما يبغضه، ويمقت عليه.

١٢ ـ مُجَاهَدة النَّفْس، والصبر على تَرْك الشهوات.

١٣ ـ قِصَرُ الأملِ، وتَذَكُّرُ الآخرةِ.

١٤ ـ السعيُ في تحصيلِ العلمِ، ومزاحمةُ الطلبةِ بالرُّكَبِ في مجالسِ الذكرِ.

١٥ ـ الاشتغالُ بما ينفعُ، وتَجَنُّبُ الوحدةِ والفراغِ.

١٦ ـ البعدُ عن المثيراتِ وما يُذَكِّرُ بالمعصيةِ؛ فإن السالمَ في ذلك غانمٌ بالسلامة.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٣٢٦).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٤) باختصار وتصرف.

١٧ ـ غضُّ البصرِ.

١٨ ـ مصاحبةُ الأخيارِ، ومجانبةُ الأشرار.

١٩ ـ النظر في العواقب، وما يؤولُ إليه الحالُ.

٢٠ ـ هَجْرُ العوائدِ المُهَيِّجةِ للشوقِ، والرغبةِ في التمادي في الباطل، والاستكانة لما أَلِفَتْهُ النفسُ واعتادته من هواها.

٢١ ـ هَجْرُ العلائقِ:

أي: كل ما تَعَلَّقَ به القلبُ من مَلَاذِّ الدنيا وشهواتِها، مما يصرفُه عن رُشْدِهِ وهدايته.

٢٢ ـ إصلاح الخواطر والأفكار الرديئة:

وليس شيءٌ أشدَّ على المرء مما يَسْنح له لأول وَهْلَة، فأول الأمر خاطرة، ثم يكون فِكْرة، ثم يصير عزيمة، ثم يَتَحَوَّل إلى فِعْل.

٢٣ ـ استحضارُ فوائدِ تَرْكِ المعاصي:

والتي مِنْ أهمِّها انشراحُ القلبِ وانْفِسَاحُه لنورِ الإيمانِ، وحلاوةِ الطاعةِ، وَحُسْنِ الفَيْئة.

٢٤ ـ استحضار أن الصبرَ عن الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبه الشهوةُ.

٢٥ ـ استحضارُ أضرارِ الذنوبِ والمعاصِي:

والتي من أعظمِها استمراءُ الذنب، مع شدة الغفلة، وقلة الحياء، والخَوْض في الذنوب، والانغماس في المعاصي.

وقد جاء عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا»**[(١)].

وكان الإمام أحمد ﵀ يمشي في الوَحَل، ويَتَوَقَّى، فَغَاصَت رِجْله، فَخَاض وقال لأصحابه: «هكذا العبد لا يَزَال يَتَوَقَّى الذُّنوب، فإذا وَاقَعَها خَاضَها»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصحَّحه ابن حبان (٥٥٦٨)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٣١).

(٢) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ١١٢). وانظر أيضًا: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٤).

٢٦ ـ الدعاء:

فإنه خير سلاح للمؤمن.

٢٧ ـ الحياء:

وهو خيرٌ كلُّه، ومن خَيرِه وفضلِه أنه واعظٌ حَسَنُ الوعظِ عند كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، فجلاله في طهارته، وحُسْن تذكيره، والمرءُ على رَأْسِ أمْره، لم يخالط بعدُ الذَنْبَ، ولم يَغْشَ عصيانًا. وجلاله أيضًا في تَجَدُّدِهِ عندَ كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، وإنما ذلك للقلب الحيِّ، والنَّفْس اللوَّامَةِ، وأما المُسَارعُ في معصيةِ الرحمٰنِ، المبادرُ إلى سَخَطِه ومَقْتِه، فمن أين له الحياء؟!

٢٨ ـ شرفُ النَّفْسِ وذكاؤها، وأَنَفتها، وحَمِيَّتُها:

وهذه من الأصول المركوزة، والفطرة السليمة.

٢٩ ـ الأَخْذ بكل الأسباب المُعِيْنة والمُوْصلة إلى التوبة[(١)]:

وهذا أمرٌ في بعض أفرادِه قد يختلف من شخصٍ لآخَرَ.

وبالجملة: فَحَرِيٌّ بالمرء الذي يعلم اللهُ الصدقَ من قلبِه أن يُعينه على نَفْسه وشيطانه، وأن يصرفَه عن غوايتِه وهَوَانِه، ويكفيه شرَّ ما كان من خسرانه.

❁ ❁ ❁

---

(١) وقد ذكر ابن جُزَي رحمه الله أن البواعثَ على التوبة سبعةٌ: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخَجَل من الحساب، ومحبة الله، ومراقبة الله، وتعظيم الله، وشكر النِّعْمة. انظر: «التسهيل» (٣/ ٦٥ ـ ٦٦).

عقبات في طريق التوبة

١ ـ التسويف:

وهو من أعظم الآفات، وأشدّ العقبات، ينصرف به المغرورُ إلى أمانيّ كواذبَ، يقول: غدًا أتوب، إذا حَلّ رمضانُ ببركتِه وَجَبَتِ التوبةُ. . عشرُ ذي الحجةِ ميعادُ الأوابينَ، وهكذا.

قال ابن القيم رحمه الله: «والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وَجْه غلبةِ الشهوة، وقوةِ الطبيعةِ، فَيُوَاقِعُ الذنبَ مع كراهتِه له، من غيرِ إصرارٍ في نَفْسه، فهذا تُرجى له مغفرةُ الله وصَفْحُه وعفوُه؛ لِعِلْمِهِ تعالى بضَعْفه، وغلبة شهوته له»[1].اهـ.

فأما مَنْ كان دأبُه الوقوع في المعاصي، وإذا زَجَرَهُ زاجرٌ عنها قال: أتوبُ إن شاء الله، فهو لا يزال بين مُوَاقعةِ الذنبِ والتسويفِ بالتوبةِ؛ فهذا لا شكَّ أنه على خطرٍ عظيمٍ.

٢ ـ غلبةُ الشهواتِ:

فَمَنْ كان حالُه أنه «لا يقف عن الذنب، ولا يُحْجم خوفًا، ولا يدعُ لله شهوةً، وهو فَرِحٌ مسرورٌ. . . إذ ظَفِرَ بالذنبِ، فَمِثْلُه يُخافُ عليه أن يُحال بينَه وبينَ التوبةِ، ولا يُوفَّق لها. . . لأن النزوعَ عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطَّبْع والنَّفْس والاستمرار على ذلك شديدٌ على النَّفْس، صعبٌ عليها، أثقلُ من الجبال، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضَعْفُ البصيرةِ، وقلّةُ النصيبِ من الإيمان»[2].

٣ ـ اعتيادُ المنكرِ وإدمانُه:

فإن كثرةَ المزاولاتِ تُورِث المَلَكَاتِ، ولعلك تجد الواحدَ منهم يفعل المعصيةَ، ويصرُّ عليها، لا من دافعِ الرغبة فيها وغلبةِ الشهوةِ، ولكن بما يجدُه في نَفْسه من ضرورةٍ تدعوه إليها بسببِ اعتيادِه للمعصية وعكوفِه عليها.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا بلغ العبد حدَّ الكِبَرِ، وضعفت بصيرتُه، ووهت قُوَاهُ، وقد

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٥٠).

(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٥٠) بتصرُّف.

أوجبت له تلك الأعمالُ قوةً في غَيِّه، وضَعْفًا في إيمانه، صارت كالمَلَكَةِ له، بحيث لا يتمكَّن مِنْ تَرْكِهَا. . . فتبقى للنَّفس هيئةٌ راسخةٌ، ومَلَكَةٌ ثابتةٌ في الغَيّ والمعاصي، وكلما صَدَرَ عنه واحدٌ منها أَثَّرَ أَثَرًا زائدًا على أَثَر ما قبله، فيقوى الأثرانِ، وهَلُمَّ جَرًا»[١]. اهـ.

٤ ـ ما قد يُواجِهه العبدُ في أولِ توبتِه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ها هنا دقيقةٌ قَلَّ مَنْ يتفطنُ لها إلا فقيهٌ في هذا الشأن، وهي أن كلَّ تائب لا بد له في أول توبته من عَصْرةٍ وضَغْطةٍ في قلبه، مِنْ هَمٍّ، أو غمٍّ، أو ضيقٍ، أو حزنٍ، ولو لم يكن إلا تَألّمه بفراق محبوبه، فيَنْضَغِط لذلك، ويَنْعَصر قلبه، ويضيق صدره، فأكثرُ الخَلْقِ رجعوا من التوبة، ونُكِسُوا على رؤوسهم لأجل هذه المحنة، والعارفُ المُوَفَّقُ يعلم أن الفرحةَ والسرورَ واللَّذَّةَ الحاصِلَةَ عقيبَ التوبةِ تكون على قدر هذه العَصْرةِ، فكلما كانت أقوى وأشدَّ كانت الفرحة واللذة أكملَ وأتمّ. ولذلك أسبابٌ عديدةٌ، منها:

ـ أن هذه العصرةَ والقبضَ دليلٌ على حياةِ قلبِه وقوةِ اسْتِعدادِه، ولو كان قلبُه ميتًا واستعدادُه ضعيفًا لم يحصل له ذلك.

وأيضًا: فإن الشيطان لصُّ الإيمانِ، واللصُّ إنما يَقْصد المكانَ المعمورَ، وأما المكان الخراب الذي لا يرجو أن يظفرَ منه بشيء فلا يَقْصده، فإذا قَوِيَت المعارضاتُ الشيطانيةُ والعَصْرَة دَلَّ على أن في قلبِه من الخير ما يشتد حِرْصُ الشيطانِ على نَزْعه منه.

وأيضًا: فإن قوةَ المُعَارِضِ والمضادِّ تدلُّ على قوة مُعَارَضتِه وضدِّه.

وأيضًا: فإن بحسب مُدَافَعَتِه لهذا المُعَارِض وصبره عليه يُثْمِر له ذلك من اليقين والثبات والعَزْم ما يُوجِب زيادةَ انشراحِه وطمأنينتَه.

وأيضًا: فإنه كلما عَظُمَ المطلوبُ كثرت العَوَارِضُ والموانعُ دونَه، هذه سُنَّةُ اللهِ في الخَلْق. . .

ولكن إذا صبر على هذه العَصْرة قليلًا أفْضَتْ به إلى رياضِ الأُنْسِ وجناتِ الانشراحِ، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه»[٢]. اهـ.

ولذلك؛ لمَّا جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظمُ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٥١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

أحدُنا أن يتكلم به، قال: «وَقَدْ وَجَدتُّمُوهُ؟» قالوا: نَعَمْ، قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»(١).

ومعناه: أن «استعظامَكم الكلامَ به هو صريحُ الإيمانِ، فإن استعظامَ هذا، وشدةَ الخوفِ منه، ومن النُّطق به، فضلًا عن اعتقاده إنما يكون لمن استَكمل الإيمانَ استكمالًا مُحقَّقًا، وانتفت عنه الرِّيبَةُ والشكوكُ...

فالشيطانُ إنما يُوَسْوِسُ لمن أيِسَ من إغوائِه، فيُنَكِّدُ عليه بالوسوسةِ لعَجْزِه عن إغوائِه، وأما الكافرُ فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقِّه على الوسوسةِ، بل يتلاعب به كيف أراد»(٢).

فعلى مُسْتَقْبِلِ التوبةِ ألا يجزعَ، وألا يسيءَ الظنَّ بنَفْسه، فضلًا عن أن يسيءَ الظنَّ بربه، وليعلم أن ما يُوَاجهه من وساوسَ وكيدٍ أولَ توبتِه إنما هو من أمرِ الشيطانِ؛ ليصدَّه عن سبيل الله.

ولذا لا يجد كثيرٌ من أصحابِ الغيِّ شيئًا من ذلك، وما يفعل الشيطانُ بالقلبِ الخرابِ؟!

٥ ـ البدعة:

وقد تَقَدَّمَ بنا أن البدعةَ أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ؛ وذلك لما يُصِيب صاحبَها من غشاوةٍ على قلبِه تمنعُه من تحقيقِ الصوابِ.

وقد سُئِل الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ عما وَرَدَ من أن الله تعالى احْتَجَب التوبةَ عن صاحبِ البدعةِ، فقال: «لا يُوَفَّقُ ولا يُيَسَّر صاحبُ بدعةٍ لتوبة»(٣).

وَمُرَادُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ اللهُ: أن صاحبَ البدعةِ يرى أنه على حقٍّ، وأن ما هو عليه هو الصراط المستقيم، فكيف يتوب؟!

٦ ـ الغفلة عن بعض الذنوب:

فـ«كثيرٌ من الناس من المتنزهينَ عن الكبائرِ الحسِّيَّةِ... واقعونَ في أمثالها، أو فيما هو أعظمُ منها أو دونَها، ولا يخطر بقلوبِهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندَهم من الإِزْرَاءِ على أهل الكبائر واحتقارهم»(٤) الشيءُ العظيمُ، فيصيبُهم بسبب ما ظَنُّوه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٥٤) بتصرُّف يسير.

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٨٧).

(٤) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧) بتصرُّف يسير.

بأنفسهم من التَّرَفُّع عن التَّلَطُّخ بهذه الأوحال شيء من الكِبْر، والأَنَفَة، واحتقار الناس، مما لعله يصيبهم به أعظم مما أصاب هؤلاء؛ «فإن تَدَارَكَ اللهُ أحدَهم بقاذورة يُوقِعه فيها ليكسر بها نَفْسه، ويُعَرِّفهُ قَدْرَه، ويذله بها؛ فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تَدَارَكَ أصحابَ الكبائرِ بتوبةٍ نصوحٍ فهي رحمةٌ في حقهم، وإلا فكلاهما على خَطَرٍ»(١).

٧ ـ قُرَنَاء السوء:

قال الله ﷻ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٥].

«يذكر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي أَضَلَّ المشركينَ، وأن ذلك بمشيئتِه وَقَدَرِهِ، وهو الحكيمُ في أفعالِه، بما قَيَّضَ لهم من قرناءَ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فَحَسَّنُوا لهم أعمالَهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسَهم إلا محسنين»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفُرْقَان: ٢٧ ـ ٢٩].

ولقد أحسن مَنْ قال(٣):

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وقال آخر(٤):

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفَا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِم مَيَّزْتَهَا ... فَوَجَدْتَ مِنْهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا

ومعلومٌ ما وَرَدَ من الآثارِ والأخبارِ في رِفْقَةِ الخيرِ ورِفْقَةِ السوءِ، والجليسِ الصالح والجليسِ السوءِ، وأن المرءَ على دين خليله، وَمَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، فليحذر العاقلُ من صحبةِ الأشرارِ ومرافقةِ غيرِ الصالحينَ، فإن الأخلاءَ يومئذ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقينَ.

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧) باختصار وتصرف يسير.
(٢) ما بين الأقواس من كلام ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٧٤) بتصرُّف.
(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٢)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٤٦٧).
(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٠٢) عن محمد بن إسحاق الواسطي.

وَكَمْ من صاحبٍ أَوْرَدَ بصحبتِه صاحبَه النارَ، وهل انتشر الفسادُ في الأرضِ، وَعَمَّ السهلَ والجبلَ، وصار غَوْرًا بعد إنجاد إلا بقرناءِ السوءِ من أصحابِ الضلالِ وأهلِ الفسادِ؟!

٨ ـ استحضار العوائق:

وهو مما يَصُدُّ عن التوبة، والصدق فيها، وهو من المُنغِّصات حَقًّا، وقد يكونُ الواحدُ منهم صاحبَ وجاهةٍ في الناس، ومنزلة عالية، ومال وفير، تعود به عليه أعمالُه غيرُ المشروعةِ؛ كمن يمتلك مؤسَّسةً تجاريةً تقوم أعمالها على المشاريع الربوية المحرمة، فهو إذا حَدَّثَ نفسَه بالتوبة من ذلك عَارَضَهُ من نَفْسه ما هو فيه من وجاهةٍ وثَراءٍ، يصدُّه ويمنعُه، فينظر مُتفكِّرًا في أَمْره كيف يتْرُك كل ذلك؟ وماذا سيقول الناسُ عنه؟ وأين تقع منزلتُه بينَهم بعدَ ذلك؟ ولا يزال في أمره هذا مُتردِّدًا مُتحيِّرًا حتى يَصْرِفه ذلك عما حدَّثَتْه به نَفْسُه من الرجوع إلى الله.

وقد جاء من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قال: لولا أن تعيّرني قريشٌ؛ يقولون: إنما حَمَلَهُ على ذلك الجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بها عينَك(١).

ويشتد هذا الأمرُ على رؤوس الضلالة من أئمة البِدَعِ المَتْبُوعينَ، فيقول الواحد منهم في نَفْسه: إذا تُبْتُ الآنَ مما أنا عليه فمعنى ذلك ـ عندي وعند الناس ـ أن هذه الدعوة التي مكثتُ فيها هذا الزمانَ كلَّه كانت على تأسيسِ ضلالةٍ. ثم هذه الوجاهة، وهذه النفقات، وهؤلاء الأتباع، أين أذهب عنهم؟! فيصدّه ذلك ويعوقه عن التوبة.

وقد يعوقه عنها: التفكيرُ الفاسدُ في الأهل والولد والعشيرَةِ، وما هو فيه الآن، وما عسى أن يكون بعدُ.

وقد يَعُوقُهُ عنها الحسدُ، كما حسد اليهودُ النبيَّ ﷺ على ما آتاه اللهُ من فضلهِ، وهم يعرفونه نبيًّا كما يعرفون أبناءَهم.

كما جاء عن سلمة بن سَلَامة بن وَقش، وكان من أصحاب بدر، قال: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥).

وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ، فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ! تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ، ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ! أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ»(١).

والمقصود: أن الحسدَ يُعمِي بصيرةَ القلبِ عن نورِ الإيمانِ، ويُضِلُّ خُطَا الساري عن الصراط المستقيم، بعدما تبينَ الحقُّ بيانَ الشمسِ في وضحِ النهارِ.

وإنك لتجد الرجلَ يَصدّه عن الهدى أن أجراه الله على لسانِ مَنْ هو أصغرُ منه سِنًّا، أو أقل منه عِلْمًا، أو أنزل منه رُتْبَةً؛ فيُصِرّ على الباطل، ويمنعه عن الحق وساوسُ سارياتٌ.

ويتأكد هذا الصدُّ إذا جاءه الحقُّ على يَدَيْ مَنْ يُبْغِضُه، ولا يقبل قولَه، فتلك البليّةُ حقًّا، وصَدَق اللهُ ﷻ إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفُرْقَان: ٢٠](٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٧)، وإسناده حسن، من أجل محمد بن إسحاق، وقد صَرَّح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير أن محمود بن لبيد - وهو من صغار الصحابة - إنما أخرج له البخاري في «الأدب المفرد»، وسلمة بن سلامة ليست له رواية في أيٍّ من الكتب الستة، والحديث صحّحه الحاكم (٣/ ٤١٧ - ٤١٨)، والذهبي، وذكره الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص٥٨).

(٢) انظر: «التنكيل» (٢/ ١٨٠ وما بعدها)، فقد ذكر كلامًا مُهِمًّا في هذه الصوارف.

ثمرات التوبة

إن من محاسن الصالحات من الأقوال والأعمال ما يتلوها من عواقبِ الخيرِ، وما ينتج عنها من بِرٍّ وفضلٍ، وما تُثْمره من ثمارِ الصلاحِ وعواملِ الفلاحِ في الدنيا والآخرة.

وثمار التوبة كثيرةٌ ومتنوعةٌ، يحسن بنا أن نتعرضَ لبعضها بالذِّكْرِ للذِّكْرَى، فَيُشمِّر لها المُشَمِّرونَ، ويثبت على طريقها السالكونَ، فمن ذلك:

١ ـ صَقْل القلب وصلاحه:

فعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٤]»[(١)].

يعني: أن الذي حَجَبَ قلوبَ الكافرين بالقرآن عن الإيمان به مَا عليها من الرَّان الذي قد لَبِس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا.

والتوبة تَصْقُل القلب وتُجَلِّيه مما عرض له من رَيْن الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[(٢)].

وقال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «دَاوُوا الذنوبَ بالتوبةِ، وَلَرُبَّ تائبٍ دَعَتْهُ توبتُه إلى الجنة، حتى أوفدته عليها»[(٣)].

وقال أيضًا: «قلبُ المرءِ التائبِ بمنزلةِ الزجاجةِ، يُؤَثِّرُ فيها جميعُ ما أصابها، فالموعظةُ إلى قلوبِهم سريعةٌ، وهم إلى الرِقَّةِ أقربُ»[(٤)].

٢ ـ العِلْم والفَهْم:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياحٌ

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٩) واللفظ له، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٥٠).

(٤) المصدر السابق.

عاصفةٌ تُطْفِئ ذلك النورَ أو تكاد، ولا بد أن تُضْعفه، وشهدتُ شيخَ الإسلام قَدَّسَ اللهُ روحَه إذا أعْيَته المسائلُ، وَاسْتَصْعَبَتْ عليه فَرَّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فَقَلَّما يَلْبَث المددُ الإلٰهيُّ أن يتتابعَ عليه مَدًّا، وتَزْدَلِف الفتوحات الإلٰهية إليه بأيتهن يبدأ»(١). اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان ورقُ المصحف لا يمسُّه إلا المطهرونَ، فمعانيه لا يهتدي بها إلا القلوبُ الطاهرةُ. وإذا كان المَلَكُ لا يدخل بيتًا فيه كلبٌ، فالمعاني التي تحبُّها الملائكة لا تدخل قلبًا فيه أخلاقُ الكلابِ المذمومةِ، ولا تنزل الملائكةُ على هؤلاء»(٢). اهـ.

٣ ـ دفْعُ الهَمِّ والحزن:

فالقلب لا يحصل له الانشراحُ، ولا يجد حلاوةَ الإيمان ونورَ الهدايةِ إلا بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه ﷺ، وقد رُكِّب على هذا تركيبًا خاصًّا؛ بحيث إنه إذا خرج عن ذلك شَقِيَ في الدنيا والآخرةِ، ويحصل له البؤسُ، حتى يتوب صاحبُه ويستغفر، فيصْقَل ويبرأ.

فإذا وجد العبدُ من نَفْسه أنه لا يحصل له حلاوةُ الإيمان، ولا ينشرح صدرُه لأمر الله، وأنه يصيبه ما يصيبه من الهَمِّ والغَمِّ، فَلْيُكْثِرْ من التوبة والاستغفار، وَلْيُلَازِمِ الاجتهادَ بحَسَبِ الإمكان؛ فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإنسانُ إذا أصابته المصائبُ بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنَفْسه، فإذا تاب واستغفر جعل اللهُ له من كلِّ هَمٍّ فرجًا، ومن كل ضِيْقٍ مخرجًا، ورَزَقه من حيث لا يحتسب.

والذنوب مثل أَكْلِ السُّمِّ، فهو إذا أَكَل السُّمَّ مرض أو مات... وهو الذي ظَلَم نَفْسه بأكْل السُّمِّ، فإن شرب التِّرْيَاقَ النافعَ عافاه الله.

فالذنوب كأَكْل السُّمِّ، والتِّرْيَاقُ النافع كالتوبةِ النافعةِ، والعبدُ فقيرٌ إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضلِه ورحمتِه يُلْهمه التوبةَ، فإذا تاب تاب عليه، وإذا سأله العبدُ ودعاه استجاب دعاءَه كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(١) «إعلام الموقعين» (٦/ ٦٧ ـ ٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥١ ـ ٥٥٢) بتصرُّف يسير.

دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]»[1].اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما تأثير الاستغفار في دَفْع الهمِّ والغمِّ والضيقِ فلما اشترك في العلم به أهلُ المللِ وعقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ: أن المعاصيَ والفسادَ تُوجِب الهمَّ والغمَّ والخوفَ والحزنَ وضيقَ الصدرِ وأمراضَ القلبِ، حتى إن أهلها إذا قَضَوْا منها أوطارَهم، وسَئِمَتها نفوسُهم ارتكبوها دَفْعًا لما يجدونه في صدورهم من الضِّيق والهَمِّ والغَمِّ. . .

وإذا كان هذا تأثيرَ الذنوب والآثام في القلوب؛ فلا دواءَ لها إلا التوبةُ والاستغفارُ»[2].اهـ.

٤ ـ دَفْع الضررِ والأذى الواقعِ علينا في الدنيا:

فالحسدُ مثلًا يندفع بأسبابٍ متعددةٍ، منه: «تجريدُ التوبةِ إلى الله من الذنوب التي سَلَّطَتْ على العبد أعداءَه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]. . .

فما سَلَّط على العبد مَنْ يُؤْذِيهِ إلا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعافُ ما يذكره. . . فإذا عُوفِيَ من الذنوب عُوفِيَ من مُوجَباتها، فليس للعبدِ إذا بُغِي عليه، وأُوذِي، وتَسَلَّط عليه خصومُه من شيءٍ أنفع له من التوبة النصوح»[3].

٥ ـ رجوع الحسنات إليه برجوعه إلى الله:

فالعبد إذا أسلم وتاب من الكفر جَمَعَ اللهُ له بهذه التوبة بينَ حسناتِه التي عملها في جاهليَّتِهِ وحسناته التي عملها في إسلامه.

فإذا حصل ذلك لمن تاب من الكفر، فحصولُه لمن تاب من المعصيةِ أَوْلَى.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا اسْتَغْرَقَتْ سيئاتُه الحديثاتُ حسناتِه القديماتِ وأبطلتها، ثم تاب منها توبةً نصوحًا خالصةً عادت إليه حسناتُه، ولم يكن حكمُه حكمَ المُسْتَأْنِف لها، بل يقال له: تبتَ على ما أسلفتَ من خير؛ فالحسناتُ التي فَعَلها في الإسلام أعظمُ من الحسنات التي يفعلُها الكافرُ في كُفْره؛ من عَتَاقةٍ وصدقةٍ وَصِلَةٍ، وقد قال حكيم بن حزام للنبي ﷺ: أي رسول الله! أرأيتَ أمورًا كنتُ أَتَحَنَّثُ بها في الجاهلية ـ أي: أتقربُ بها ـ من صدقة، أو عَتَاقَة، أو صِلَة رَحِم، أفيها أَجْر؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٤٠). (٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٩١).

(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٧٠) بتصرُّف يسير.

«أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ»(١)، وذلك لأن الإساءة المُتَخَلِّلَة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت الطاعتان، واجتمعتا»(٢).اهـ.

٦ ـ مَحْو الذنب:

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاضطرار، لا يحتاج إلى كثيرِ بيانٍ، وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»**(٣).

٧ ـ تبديل السيئاتِ حسنات:

وهذه المسألةُ ثابتةٌ بكتاب الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ [الفُرْقان: ٧٠].

وإن اختلف أهلُ العلم في المراد بهذا التبديل، فمنهم مَنْ قَالَ: «ليس يُجعَل مكانَ السيئةِ الحسنةَ، ولكن يُجعَل مكانَ السيئةِ التوبةَ.

وقيل: يُجعَل أعمالهم بَدَل معاصيهم الأولَى طاعةً، فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إياهم.

وقيل: يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتِهم التي عملوها في حال إسلامهم حسناتٍ يومَ القيامةِ.

وأصل القولين: أن هذا التبديلَ؛ أهو في الدنيا أم يوم القيامة؟

فمَنْ قَال: إنه في الدنيا قال: هو تبديلُ الأعمالِ القبيحةِ، والإراداتِ الفاسدةِ بأضدادِها، وهي حسنات، واحتجوا بأن السيئة لا تَنْقلب حسنةً، بل غايتُها أن تُمْحَى، وتُكَفَّر، ويذهب أثرُها، فأما أن تُقلَب حسنةً فلا.

وقالوا أيضًا: إن الذي دَلَّ عليه القرآنُ إنما هو تكفيرُ السيئاتِ ومغفرةُ الذنوبِ؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عِمْرَان: ١٩٣].

وفي حديث ابن عمر ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **«إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣) واللفظ له.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٢) بتصرُّف.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٥٩٤)، والحاكم (١/ ٥٣٦)، والذهبي في «السير» (٦/ ٣٣٥)، ولكن الأئمة مالوا إلى إعلاله؛ كالإمام أحمد، وأبي حاتم، وأبي زرعة، والبخاري، والدارقطني، وابن حجر. انظر: «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ٧١٦).

أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»[١].

وقالوا أيضًا: إذا انقلبت السيئاتُ أنفسُها حسناتٍ في حقِّ التائبِ؛ فسيكون أحسنَ حالًا من الذي لم يرتكب منها شيئًا، وأكثر حسنات منه.

وقالوا أيضًا: فكما أن العبدَ إذا فَعَل حسناتٍ، ثم أتى بما يُحْبِطها؛ فإنها لا تنقلب سيئاتٍ يُعاقب عليها، بل يَبْطُلُ أثرُها، وتكون عقوبتُه عدمَ تَرَتُّبِ ثوابِه عليها، فهكذا مَنْ فَعَلَ سيئاتٍ، ثم تاب منها؛ فإنها لا تنقلب حسناتٍ.

واحتجَّت الطائفةُ الأخرى بأن قالت: حقيقةُ التبديلِ: إثباتُ الحسنةِ مكانَ السيئةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفُرْقَان: ٧٠]، فأضاف السيئاتِ إليهم، وَنَكَّرَ الحسناتِ، ولم يُضِفْها إليهم؛ لأنها من غير صُنْعِهم وكَسْبِهم، والتبديلُ في الآية إنما هو فِعْل الله لا فِعْلهم. ولو كان المرادُ غير ذلك لأضاف التبديلَ إليهم.

ويدلُّ عليه ما رواه أبو ذر ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: **«إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا؛ رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ...»** الحديثَ، وفيه: **«فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا»**، فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نواجذُه[٢].

وقالوا أيضًا: الجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ، فكما بدَّلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بَدَّلَهَا اللهُ من صُحُفِ الحفظَةِ حسناتٍ»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الصواب إن شاء الله في هذه المسألة أن يقال: لا ريبَ أن الذنبَ نفسَه لا ينقلبُ حسنةً، والحسنةُ إنما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهياتِ إنما يُثاب على كفِّ نفْسه وحبسِها عن مُواقعة المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو مُتَعَلَّقُ الثوابِ...

وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمرًا وجوديًا، فالتائبُ من الذنوبِ التي عملها قد قارن كلَّ ذنبٍ منها ندمًا عليه، وَكَفَّ نفسَه عن الذنب... وخَلَفه هذا الندم والعَزْم، وهو حسنة، فقد بُدِّلَت تلك السّيئةُ حسنةً، وهذا معنى قول بعض المفسِّرينَ: يجعل مكان السيئةِ التوبة... فإذا كانت كلُّ سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبتُه منها حسنة

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).
(٣) ما بين الأقواس من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٣٤/ ٥٤٤) باختصار وتصرف.

حَلَّتْ مكانَها»[١]. اهـ.

٨ ـ أنها سببٌ للفلاح:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١].

٩ ـ أنها سببٌ للمتاع الحَسَنِ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: ٣].

١٠ ـ أنها سببٌ لِنُزُولِ الأمطارِ، وزيادةِ القوةِ والإمدادِ بالأموالِ والبنينَ:

قال تعالى عن نبيِّه هود ﷺ فيما يقوله لقومه ويدعوهم إليه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هُود: ٥٢].

١١ ـ أنها تُثمر محبةَ اللهِ ﷻ لعبدِه التائبِ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

١٢ ـ أن الله يفرح بتوبة التائبينَ:

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»**[٢].

١٣ ـ أنها تُوجِب للتائبِ آثارًا عجيبةً من المقامات التي لا تحصل بدونها؛ كالمحبّة، والرِّقّة، واللّطف، وشكر الله وحمده والرضا عنه:

فرُتِّبَ له على ذلك أنواعٌ من النِّعَم، لا يهتدي العبدُ لتفاصيلها، بل لا يزال يَتَقَلَّب في بركتِها وآثارِها ما لم يَنْقضْها أو يُفْسِدها.

١٤ ـ حصول الذلّ والانكسارِ لله:

فإنه متى استحضر ذنبَه، وعلم أن الله لو آخَذَهُ به عَذَّبَهُ؛ حصل له من الانكسار والخفض بمقدار ذلك.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤).

(٢) تقدم تخريجه.

١٥ ـ أن الذنب قد يكون أنفعَ للعبدِ إذا اقترنت به التوبةُ من كثير من الطاعات:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا معنى قول بعض السلف[١]: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنبَ فلا يزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قعد وإن مشى ذَكَرَ ذَنْبَهُ، فَيُحْدِثُ له انكسارًا وتوبةً واستغفارًا ونَدَمًا، فيكون ذلك سببَ نجاته.

ويعمل الحسنةَ فلا تزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قعد وإن مشى؛ كلما ذكرها أورثته عُجْبًا وكِبْرًا وَمِنَّةً، فتكون سببَ هلاكِه»[٢].اهـ.

١٦ ـ أن الله يحبُّ أن يتفضّلَ على عبادِه، ويتمَّ نعمتَه عليهم:

ومِن أعظمِ ذلك أن يُحْسنَ إلى مَنْ أَسَاءَ، ويعفو عَمَّنْ ظَلَمَ، ويغفر لمن أَذْنَبَ ويتوبَ على مَنْ تَابَ، ويَقْبَل عذرَ مَنِ اعْتَذَرَ إليه.

١٧ ـ أن يعرف العبدُ حاجتَه إلى حِفْظِ اللهِ، ومعونتِه، وصيانَتِه.

١٨ ـ أن يعرف العبدُ حقيقةَ نفسِه:

وأنها الظالمةُ الجهولُ، وأن ما صَدَرَ منها من شَرٍّ فقد صَدَرَ من أهلِه ومَعْدنه.

١٩ ـ تعريف العبد بصفات الربّ الكريم.

٢٠ ـ أن يُعَامِلَ العبدُ بني جنسِه بما يحبُّ أن يعاملَه اللهُ به:

ويقيم المعاذيرَ لِلْخَلْقِ، ويتذكر دائمًا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

٢١ ـ التحرّز والتيقّظ من العدو الذي أوقعه في المعصية.

٢٢ ـ أنها سبيل لإغاظة الشيطان ومُرَاغَمته.

٢٣ ـ معرفة الشر حَذَرَ الوقوع فيه.

---

(١) جاء بنحوه عن الحسن البصري، كما أخرجه ابن المبارك (١٦٤)، وأحمد (ص٢٦٩) كلاهما في «الزهد»، وغيرهما، ورُوي مرفوعًا ولكن لا يثبت، أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٢) عن الحسن مرسلًا، وضَعَّفَهُ الألبانيُّ في «الضعيفة» (٢٠٣١)، وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا يثبت كما قال العراقي وغيره، كما في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٥٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٩).

أسباب دفع العقوبة

ويمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ التوبة.

٢ ـ الاستغفار.

٣ ـ الحسنات الماحية.

وهذه الثلاثة تَصْدُرُ من الإنسان نَفْسِه.

٤ ـ دعاء المؤمنين له.

٥ ـ ما يُعمَل للميت من أعمال البر؛ كالصدقة ونحوها.

٦ ـ شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الذنوب من الموحدين يومَ القيامةِ.

وهذه الثلاثة تكون من غيره.

٧ ـ المصائب التي يُكَفِّر اللهُ بها الخطايا في الدنيا.

٨ ـ ما يحصل في القبرِ من الفتنة والضَغْطَة والرَّوْعة.

٩ ـ أهوال يوم القيامة وكروبها وشدائدها.

١٠ ـ رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

وقد ذكرنا هذه الأسباب مختصرةً للتَّذَكّرِ والنَّظَرِ، ومن أراد التَّفْصِيل ومعرفة المزيد فليراجع مصنفاتِ الأئمةِ الذين تكلموا في ذلك[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر في ذلك: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٢، ٧/ ٤٨٧ ـ ٥٠١، ١٠/ ٣٣٠ ـ ٦٥٥، ١١/ ٦٨٧، ٢٠/ ٢٥٤)، و«الاستقامة» (٢/ ١٨٥)، و«منهاج السُّنَّة» (٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، ٦/ ٢٠٥ ـ ٢٢٩)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، و«حادي الأرواح» (١/ ٤٢١، ٢/ ٧٥٧)، و«لطائف المعارف» (٢٣٢)، و«جامع العلوم والحكم» (ص٣٢٩ ـ ٣٣٤)، و«أسباب المغفرة» (٢ ـ ٦)، و«البحار الزاخرة في أسباب المغفرة» (٥١ ـ ٢٥٤).

حال العبد ومنزلته بعد التوبة(١)

حاصل الكلام في هذه المسألة: هو أن الإنسانَ إذا أذْنَبَ ذنبًا ثم تاب منه: أيرجع إلى حالِه ومنزلتِه ومقامِه ودرجتِه في العبودية التي كان عليها قبلَ الذنبِ، أم أنه يتأخر بسبب ذلك، أم أنه يكون بحالٍ أفضلَ مما كان عليه؟

اختلف الناس في ذلك على أقوال:

القول الأول: أنه يرجع إلى حالِه الأُولَى. **واحتجّوا بعدة أمور:**

أولًا: أن التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنبَ له، فكأنه لم يكن؛ فيرجع إلى ما كان عليه.

ثانيًا: أن التوبة رجوعٌ إلى الله بعد الإباقِ منه، فلو لم يَعُدْ إلى حالته الأولى مع الله لم تكن توبتُه تامةً.

ثالثًا: كما أن التوبةَ ترفعُ أثرَ الذنبِ في الحال بالإقلاع، وفي المستقبل بالعَزْمِ ألا يعود؛ فكذلك في الماضي. ومن ذلك: أن مرتبته لا تتأثر عند الله تبارك وتعالى بعد التوبةِ.

رابعًا: أنه لو بقي بعدها في مرتبته المُنْحَطَّةِ لم تكن التوبةُ ماحيةً لأثرِ الذنبِ، ولم تُفِدْ في الماضي شيئًا.

خامسًا: أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ، فكما رَجَعَ التائبُ إلى ربه بقلبِه رجوعًا تامًّا رجع اللهُ عليه بمنزلتِه وحالِه.

سادسًا: أن التوبةَ من أَجَلِّ الطاعاتِ، وأفضلِ القرباتِ، فإذا حَصَلَ للعبدِ انحطاطٌ بالمعصيةِ؛ فإنه يحصل له بالتوبة مزيدُ تَقَدُّمٍ وعُلُوٍّ وارتفاعٍ.

سابعًا: حينما نُوَازِن بين الحسنة والسيئة؛ فإن الحسنة بِعَشْرِ أمثالها، إلى سبعمائة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة بمثلها، فكيف لا يرجع إلى مرتبتِه السابقة؟!

ثامنًا: أن العبد إذا مَرِضَ ثم عُوفِيَ رَجَعَتْ صحتُه إلى ما كانت وأعظمَ، وربما صَحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٥، ٢٩٣ ـ ٣١٠، ١٤/ ٤٧٤، ١٥/ ٥٤ ـ ٥٧)، و«منهاج السُّنَّة» (٢/ ٣٩٨ ـ ٤٣٤، ٦/ ٢٠٩ ـ ٢١٠، ٨/ ٤١٦)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٣٤)، و«الجواب الكافي» (ص٢٠٧ ـ ٢١٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٤).

تاسعًا: أن التوبة تُثمر للإنسان محبةً خاصَّةً من الله لا تحصل بدونها، فاللهُ يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ ـ كما ذكرنا ـ فإذا أثمرت له هذه المحبة ورجع إلى طاعاتِه السابقةِ قوي الأثرانِ، فحصل له المزيدُ من القُرَبِ وارتفاعِ الدرجةِ والمنزلةِ.

عاشرًا: أن الذنبَ يَكْسِرُهُ وَيُورِثُهُ الخوفَ من الله تبارك وتعالى، والخشيةَ، والإشفاقَ، والتذللَ، والضراعةَ، والندمَ، وغيرَ ذلك من الأحوال التي يحبها الله ﷻ؛ ولهذا قال بعضُ السلف: لو لم تكن التوبةُ أحبَّ الأشياءِ إليه لما ابْتُلِي بالذنب أكرم الخلق عليه.

الحادي عشر: أن للعبودية مقاماتٍ لا تَكمل ولا تحصل إلا بالتوبة، منها: مَقَام الذُّلِّ، وهو حقيقةُ العبوديةِ.

الثاني عشر: ما جاء في الحديث الدالّ على شدةِ فرحِ اللهِ ﷻ بتوبةِ العبدِ[1]، فإنه لم يأت نظيرُه في شيءٍ آخَرَ من الأعمالِ، فهذا دليلٌ على عِظَمِ قَدْرِ التوبةِ، وأن التعبدَ بها من أشرفِ التَّعَبُّداتِ، وهو دليلٌ على أن صاحبَها يرتقي ويرتفع.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حالَ يونسَ بن مَتَّى ﷺ قبل التوبة وبعدها فقال: «كان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القَلَم: ٤٨ ـ ٥٠]، وهذا بخلاف حال التقام الحوت؛ فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾ [الصَّافَّات: ١٤٢]، فأخبر أنه في تلك الحال مُلِيم، و(المُليم): الذي فَعَل ما يُلَام عليه، فالمَلَام في تلك الحال لا في حال نَبْذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها، والله تعالى خَلَق الإنسان، وأخرجه من بَطْن أُمِّه لا يعلم شيئًا، ثم عَلَّمه، فَنَقَله من حال النَّقْص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يُعْتَبَر قَدْرُ الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله... وما يظنه بعض الناس: أنه مَن وُلِد على الإسلام فلم يكفر قَطّ أفضل ممن كان كافرًا فأسلم؛ ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم أن السابقينَ الأوَّلينَ من المهاجرينَ والأنصارِ الذين آمنوا بالله ورسوله بعدَ كُفرِهِمْ هُمْ أفضلُ ممن وُلِدَ على

---

(١) تقدم تخريجه.

الإسلامِ من أولادهم وغير أولادهم، بل من عَرَفَ الشرَّ وَذَاقَهُ، ثم عرف الخيرَ وذاقه، فقد تكون معرفتُه بالخيرِ ومحبتُه له، ومعرفتُه بالشَّرِّ وبغضه له أكملَ ممن لم يعرف الخيرَ والشرَّ، ويذُقْهما كما ذاقهما؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إذا نشأ في الإسلام مَنْ لم يعرف الجاهلية»[1]»[2]. اهـ.

القول الثاني: أنه لا يعود إلى حاله قبل التوبة، بل إنه يكون بحال متأخرة عن الحال الأولى، **واحتجوا لذلك بِحُجَجٍ، منها**:

أولًا: أنه ليس مَنْ أَنْفَقَ أيامَه في طَاعة الله كمن أهدرَها في معصيته.

ثانيًا: أنه لو رَجَعَ إلى درجته، فأَيْنَ هُوَ مِنْ مَنْزِلَةِ المُدَاوِمِ على الطاعةِ؟!

ثالثًا: أنه ـ زمنَ التوبة ـ مشغولٌ بمعالجةِ نفسِه، وآثَارِ معصيتِه، فأين هذا من المشغول بمزيد القُرْبِ من ربِّه؟!

رابعًا: أنه من المعلوم ببديهةِ العقلِ أن السائر في طريقٍ مستقيم دونَ أن يشغلَه عن سيرِه شاغلٌ، أو تُعرْقِله عواقبُ، لا شك أنه يصل إلى غايتِه أسرعَ ممن تشغله عن سَيْره الشواغلُ، أو تُعرقله العواقبُ.

والراجح في ذلك: ما ذكره شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وابنُ القيمِ رحمهما الله تعالى: أنَّ مِنَ النَّاس مَنْ تكون حالُه بعد المعصية دونَ حالِه قبلَ المعصيةِ، ومنهم مَنْ يرجع إلى حاله، ومنهم مَنْ يكون أفضلَ ممَّا كَانَ عليه.

فالناس في ذلك مُخْتَلِفُونَ بحسب صِدْقِهِمْ في التوبة، وبحسب إيمانِهم الذي في قلوبهم[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) لم أجده مسندًا، وإنما ذكره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه كـ«الفتاوى» (١٥/ ٥٤)، و«منهاج السُّنَّة» (٢/ ٣٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠١).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٣٤).

المحاذير في باب التوبة

يجدر بنا التنبيهُ على بعضِ المحاذيرِ التي تتصل بموضوع التوبة، فالعاقلُ مَنْ يُمَهِّد لنَفْسه في إصابةِ الخيرِ ودَفْعِ الشرِّ، ويأخذ حِذْرَه من آفاتِ الطريقِ.

فمن تلك المحاذير:

١ ـ **تأجيل التوبة**: فكثيرٌ من الناس تمضي أعمارُهم، وتنقضي حياتُهم، وهم على رجاء التوبة بِزَعْمِهم، فَيُزَيِّنُ لهم الشيطانُ الأمانيَّ الكاذبةَ، وَيُثَبِّطُهُمْ عن ولوجِ أبوابِ التوبةِ والرجوعِ إلى اللهِ بالتَّسْويفِ.

يقول أحدُهم: سوف أتوب، ولا يزال هذه دَأْبه حتى يأتيه الموتُ وهو على ذلك؛ فينبغي البِدَارُ بالتوبة، والإسراعُ في الفَيْئة، وقد عَلِمْنَا أن الله تعالى يَبْسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ، حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْربها.

ويقول **أبو حازم سلمةُ بن دينارٍ**: «نحن لا نريد أن نموت حتى نتوبَ، ونحن لا نتوبُ حتى نموتَ»(١).

لَهَوْنَا عَنِ الأَيَّامِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ لِي فِي تَوْبَةٍ فَأَتُوبُ(٢)

٢ ـ **الغفلة عن التوبة مما لا يَعْلَمُهُ العبدُ من ذنوبه:**

فعن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **«رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»**(٣).

٣ ـ **تَرْك التوبة مخافة الرجوع للذنوب**، وذلك حين يَجِدُ من نَفْسه ضَعْفًا في العزيمة، وخَوَرًا في الهِمَّةِ، فيَتْرك التوبة؛ خشية أن يقع في الذنب بعد أن عَاهَدَ الله أَلَّا يعود، وهذا من وحيِ الشيطان وأمره.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٦١)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٣٢) واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٤٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

٤ ـ **نَقْض التوبة**، والعبد إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه مرة أخرى يكون ناقضًا للتوبة؛ فيلزمه حينئذ أن يجدد توبتَه.

ومن ثَمَّ لا يرجع إليه ـ في هذه الحالة ـ إثمُ الذنبِ الذي تاب منه، والعائدُ إليه إنما هو إثم الذنبِ الجديدِ المُسْتَأْنفِ لا الماضي؛ لأن الماضي قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله.

وعلى هذا؛ فَلَا يَجُوزُ للتَّائِبِ إذا ابْتُلِيَ بالذنب مرَّةً أخرى أن يدعَ التوبةَ بحجَّةِ أنه نَقَض التوبة، بل عليه أن يتوب، وأن يرجع إلى رَبِّهِ كلما أَحْدَثَ ذَنْبًا.

يقول سعيد بن المُسَيِّب رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥]: «هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يُذْنِبُ ثم يتوب»[(١)].

وعن سعيد الجُرَيْرِي قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد! الرجلُ يُذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، حتى مَتَى؟ قال: «ما أعلم هذا إلا من أخلاق المؤمنين»[(٢)].

٥ ـ تَرْك التوبة خوفًا من لَمزِ الناس.

٦ ـ تَرْك التوبة مخافة سقوط المنزلة، وذهاب الجَاهِ والشُّهْرَةِ.

٧ ـ التمادي في الذنوب اعتمادًا على سعة رحمة الله بزعمه.

يقول يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتَوَقُّع القُرْب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببَذْر النار، وَطَلَبِ دارِ المُطِيعينَ بالمعاصي، وانتظارِ الجزاءِ بغير عملٍ، والتمني على الله عَزَّ وَجَلَّ مع الإفراط.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ»[(٣)]

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قومًا ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة. يقول: إني لحَسَن الظن بربي. وكَذَبَ؛ لو أحسن الظنَّ بربه لأحسن العملَ»[(٤)].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد التوبة فليخرج من المظالم، ولْيَدَعْ مُخَالَطَة

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٩٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه عبد الله أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٨١).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل» (٣).

مَنْ كان يُخالِط، وإلا لم يَنَلْ ما يريد»[١].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: «احْذَرْه، وَلَا تَغْتَرّ به، فإنّه قَطَع اليد في ثلاثة دراهم، وجَلَد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأةُ النارَ في هِرَّةٍ، واشتعلت الشَّمْلةُ نارًا على مَنْ غَلَّهَا، وقد قُتِل شهيدًا»[٢].

وأنشد محمود الورَّاق[٣]:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
مَنَّيْتَ نَفْسَكَ ضِلَّةً فَأَبَحْتَهَا ... طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهُنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

٨ ـ الاغترار بحِلْم الله عَزَّ وَجَلَّ**، وإمهاله المسيئينَ والمذنبينَ:**

وقد جاء من حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٤].

٩ ـ اليأس من رحمة الله، وهذه صفةُ الجاهلينَ الضالينَ، قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦]، الذين لا علمَ لهم بربِّهم، وكمالِ اقتدارِه، وسعةِ رحمتِه.

وأما مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليه بالهداية والعِلْم، فلا يقنط من رحمة ربه أبدًا؛ لأنه يعرف من كثرةِ الأسبابِ والوسائلِ والطُرُقِ لرحمةِ اللهِ شيئًا كثيرًا.

١٠ ـ اليأس من توبة العصاة، وهو من سوء الظنّ بالله، وقد تاب اللهُ على كثير من أئمةِ الكفرِ ودعاةِ الضلالِ.

١١ ـ الشماتة بالمُبْتَلَينَ بالذنب، فإذا رأيتَ مُبْتَلًى فَسَلِ اللهَ العافيةَ مما ابتلاه به، وَادْعُ له أن يهديَه اللهُ بدلًا من الشماتةِ به، والسخريةِ منه.

وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٩٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ٢٨٨).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٧٥ ـ ٧٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١١٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٤٦٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسَّنه ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٢/ ١٦٨)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٢٢٠)، وفي الباب عن عبد الله بن مغفل، وابن عباس رضي الله عنهم. راجع: «الصحيحة» (١٢٢٠).

٩٤]؛ أي: فَكَمَا هداكم بعدَ ضلالِكم فكذلك يهدي غيرَكم؛ فكم من مُتَمَرِّد على الله تاب الله عليه.

والذي يَقْطَع لفلان بأنه لا يُوفَّق للتوبة، وأن الله لن يتوبَ عليه مُتَأَلٍّ على الله، فعلى العاقلِ أن يحذرَ من مثل تلك المَزَالِقِ الخطيرةِ.

١٢ ـ الاحتجاج بالقَدَرِ على فِعْلِ المعاصِي، وتَرْكِ الطاعاتِ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «السعيدُ يستغفرُ من المعايب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

والشقيُّ يجزعُ عندَ المصائبِ، ويحتجُّ بالقَدَرِ على المعايب... ولو كان القَدَرُ عُذْرًا للخَلْق لَلَزِمَ ألَّا يُلامَ أحدٌ ولا يُذَمَّ ولا يُعاقَب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يُقْتَص من ظالم أصلًا، بل يمكن للناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقًا.

ومعلومٌ أن هذا لا يُتصور أن يقومَ عليه مصلحةُ أحدٍ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هو مُوجِبُ الفسادِ العامِّ، وصاحبُ هذا لا يكون إلا ظالمًا مُتَنَاقِضًا، فإذا آذاه غيرُه أو ظَلَمَه طَلَبَ مُعَاقَبتَه وجازاه، ولم يَعْذر بالقَدَرِ، وإذا كان هو الظالم احتجَّ لنَفْسه بالقَدَرِ.

فلا يحتج أحد بالقدر إلا لاتباع هواه بغير عِلْم»(١).اهـ.

١٣ ـ توبة الكذابينَ، فتَجِد أحدهم يهجر الذنبَ هَجْرًا مؤقتًا، ثم يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لمعاودته، فمتى سَنَحَتْ له الفرصةُ أعادَ الكَرَّةَ، وهذا من البلاءِ العظيمِ، نسأل الله العافيةَ.

١٤ ـ قِلّة العناية بالتائبينَ، فقد يُوفَّق أحدهم للتوبة، ويمضي في طريقها مُسْتَبشرًا بصحبة خيار السالكين، وإذا رأى القاصدينَ شَمَّرَ إليهم، وَبَشَّ بهم، غير أنه قد يُفَاجَأُ بمعاملةٍ غيرِ حانيةٍ، ومُقَابَلَةٍ جَافَّةٍ أحيانًا، مما يجعل اليأسَ يدبُّ في دواخله، ولعله مع توالي ذلك عليه يمْقت جملةَ الصلحاء، وللشيطان في مثلِ ذلك مِنْ نفسِ العبدِ تدبيرٌ وَكَيْدٌ.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(٢).

فالواجبُ العنايةُ بهؤلاء، وتعاهدهم بالنصحِ والإرشادِ، وتوفيرُ الصحبةِ الملائمةِ من

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) بتصرُّف.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر ﷺ.

أهلِ الخيرِ للقيامِ بمصالحِهم، والاعتناءِ بهم، ومعاونتِهم على البرِّ، وصُنْعِ المعروفِ.

١٥ ـ **المُجاهَرة بالمعاصي:** ففِعْلُ المعصية لا يُسَوِّغُ للعبدِ أن يجهرَ بها، أو يدعوَ إليها، أو يعمل غيرَها؛ فإن اللهَ يمقتُ على ذلك كلِّه. وقد قال النبي ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهِرِينَ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ»**[(١)].

وإن مِنْ تلبيس الشيطان على ابن آدم أن يأتيَه وقد تَلَبَّسَ بمعصيةٍ بعدَ أن انصلح حالُه بعض الشيء، فيقول: تظهر للناس في ثيابِ الصلاحِ وتفعلُ ما تفعلُ في السِّرِّ؟! فلا يزال يُبَغِّضُ إليه حالَه، حتى يحسِّن إليه الجهرَ بالمعصيةِ.

١٦ ـ **تَرْك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله،** فَفِعْلُ المعصيةِ لا يُسَوِّغُ للعبدِ مثلَ ذلك، فبعضُ الناسِ يترك الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر لمَا تَلَبَّسَ به من المعصية؛ مُحْتجًا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: ٣].

وبحديثِ أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: **«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»**[(٢)].

وهذا من الجهل والخطأ البيِّنِ، وما جَعَلَ اللهُ هذه الأمةَ خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس إلا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، وقد ذكر الحافظُ ابن حجر رحمه الله عن بعض العلماء أنه قال: «يجب الأمرُ بالمعروفِ لمن قَدرَ عليه ولم يَخَفْ على نَفْسِه منه ضررًا، ولو كان الآمِرُ مُتَلَبِّسًا بالمعصية؛ لأنه في الجملة يُؤجَر على الأمر بالمعروف، ولا سيما إن كان مُطَاعًا، وأما إثمه الخاص به فقد يغفره اللهُ له، وقد يُؤَاخِذه به. وأما مَنْ قال: لا يأمر بالمعروف إلا من ليست فيه وَصْمةٌ؛ فإن أراد أنه الأَوْلَى فَجَيِّدٌ، وإلا فيَسْتَلْزم سدَّ بابِ الأمرِ إذا لم يكن هناك غيرُه»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٩).
(٣) «فتح الباري» (١٣/٥٧).

من أخبار أهل التوبة

وإنما نَذْكُر أحوال هؤلاء النبلاء الصُّلحاء؛ لِيَتَشَبَّهَ الواقفُ على أحوالهم بهم، ويتزيَّا بزيِّهم، ويحذو حذوَهم؛ فإنه مَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، ولا أقلَّ من أن يقال: هم القومُ لا يشقَى بهم جليسُهم.

ـ فهذا عُتْبَة الغلام، لَقِيَه عبد الواحد بن زيد في رَحَبَة القصابين، في يوم شاتٍ شديد البَرْد، فإذا هو يَرْفَضّ[1] عَرَقًا، فقال له عبد الواحد: عُتْبَة! قال: نعم، قال: فما شأنك؟ ما لك تَعْرق في مثل هذا اليوم؟ قال: خير، قال: لَتُخْبِرَني قال: خير... فقال: لِلأُنْس الذي بيني وبينك والإخاء إلا ما أخبرتني، قال: إني والله ذَكَرت ذَنْبًا أصبته في هذا المكان، فهذا الذي رأيتَ من أَجْل ذلك[2].

ـ وقال سعدٌ الكاتبُ: كان الجوينيُّ صديقي، وكان يشرب الخمر، فحدثني أنه كان يكتب مُصْحفًا، وبين يديه مِجْمَرةٌ[3] وقِنِّينَةُ[4] خمرٍ، ولم يكن بقربي ما أُنَدِّي به الدواةَ، فصببتُ من القِنِّيْنة في الدواة، وكتبتُ وجهةً، ونشفتُها على المِجْمَرَة، فصَعَدَت شرارةٌ أحرقت الخطَّ دونَ بقيةِ الوَرَقةِ، فرُعِبْتُ، وقُمْتُ، وغسلتُ الدواةَ والأقلامَ، وتبتُ إلى الله[5].

ـ ويقول مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «رأيتُ في البادية في يوم شديد البَرْد شابًّا عليه ثوبانِ خَلِقانِ، وعليه آثارُ الدعاءِ وأنوارُ الإجابةِ، فعرفتُه، وكنتُ قبلَ ذلك عهدتُه في البصرةِ ذا ثروةٍ وَحُسْنِ حالٍ، وكان ذَا مالٍ وآمالٍ، قال: فبكيتُ لمَّا رأيتُه على تلك الحال، فلما رآني بكى، وبدأني بالسلام، وقال لي: يا مالكُ بن دينار! ما تقول في عبدٍ أَبَق من مولاه؟! فبكيتُ لقوله بكاء شديدًا، وقلتُ له: وهل يستطيع المسكينُ ذلك؟! البلادُ بلادُه، والعبادُ عبادُه، فأين يهرب المسكين؟! فقال: يا مالكُ! سمعتُ قارئًا يقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحَاقَّة: ١٨]، فأحسستُ في الحال بنارٍ وَقَعَتْ

(١) أي: يتصبّب. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٤٣)، مادة: (رفض).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٢٨).
(٣) بكسر الميم: اسم للشيء الذي يُجْعَل فيه الجمر. «الصحاح» (٢/ ٦١٦)، مادة: (جمر).
(٤) إناء من زجاج للشراب. «تاج العروس» (٣٦/ ٢٥)، مادة: (قنن).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٣٤).

بينَ ضلوعِي، فلا تَخمد، ولا تهدأ منذ ذلك اليوم، يا مالكُ! أتراني أُرحَم وتُطفأ هذه الجمرةُ من قلبي؟ فقلتُ له: أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَوْلَاكَ؛ فإنه غفور رحيم»(١).

ـ وهذا بِشْرٌ بن الحارث الحَافِي، جاء في سببِ توبتِه أنه كان في زمن لَهْوِه في داره، وعنده رفقاؤه يشربونَ الخمرَ، ويطيبون، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحينَ، فَدَقَّ البابَ، فَخَرَجَتْ إليه جاريةٌ، فقال: صاحبُ هذه الدار حُرٌّ أو عَبْدٌ؟ فقالت: بَلْ حُرٌّ. فقال: صَدَقْتِ؛ لو كان عبدًا لاستعمل أدبَ العبوديةِ، وَتَرَكَ اللهوَ والطربَ. فسمع بِشْرٌ محاورتَهما، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولَّى الرجلُ، فقال للجارية: وَيْحَك، مَنْ كَلَّمَكِ على الباب؟ فَأَخْبَرَتْهُ بما جرى، فقال: أيّ ناحية أخذ الرجلُ؟ فقالت: كذا، فتبعه بِشْرٌ حتى لحقه، فقال له: يا سيدي! أنتَ الذي وقفتَ بالباب وخاطبتَ الجاريةَ؟ قال: نعم، قال: أَعِدْ عليَّ الكلامَ، فأعاده عليه، فَمَرَّغَ بشر خَدَّيْهِ على الأرض، وقال: بَلْ عَبْدٌ، بَلْ عَبْدٌ، ثم انطلق حافيًا حَاسِرًا حتى عُرِفَ بالحفاء(٢).

ـ وسُئِل مالكُ بن دينارٍ عن سبب توبتِه، فقال: «كنتُ شُرْطِيًّا، وكنتُ مُنْهَمِكًا على شُرْب الخمر، ثم إنني اشتريتُ جاريةً نفيسةً، وَوَقَعَتْ مِنِّي أحسنَ مَوْقع، فَوَلَدَتْ لي بنتًا، فشُغِفْتُ بها، فلما دَبَّتْ على الأرض ازدادت في قلبي حُبًّا، وأَلِفَتْني وأَلِفْتُها. قال: فكنتُ إذا وضعتُ المُسْكرَ بين يَدَيْ جاءت إليَّ وجاذبتني عليه، وَهَرَقته من ثوبي! فلما تَمَّ لها سنتان ماتت، فأَكْمَدني حزنُها، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة؛ بِتُّ مَخمورًا ولم أُصَلِّ فيها العشاءَ الآخِرَةَ، فرأيتُ فيما يرى النائمُ كأن القيامةَ قد قامت، وَنُفِخَ في الصورِ، وَبُعْثِرَتِ القبورُ، وَحُشِرَ الخلائقُ وأنا معهم، فسمعتُ حِسًّا من ورائي، فالتفتُّ فإذا أنا بِتِنِّينٍ أعظمَ ما يكون؛ أسودَ، أزرقَ، قد فَتَحَ فاه مُسْرِعًا نحوي، فمررتُ بين يديه هاربًا فَزِعًا مرعوبًا، فمررتُ في طريقي بشيخ نقيِّ الثوب طيبِ الرائحةِ، فسلَّمتُ عليه فَرَدَّ السلامَ، فقلتُ: أيها الشيخ، أَجِرْنِي من هذا التنينِ أجارك اللهُ، فبكى الشيخُ وقال لي: أنا ضعيفٌ، وهذا أقوى مِنِّي، وما أقدر عليه، ولكن مُرَّ وَأَسْرِعْ، فلعلَّ اللهَ أن يتيح لك ما يُنَجِّيكَ منه، فوَلَّيتُ هاربًا على وجهي، فصَعدتُ على شَرَفٍ من شَرَفِ القيامةِ، فأَشْرَفْتُ على طَبَقاتِ النارِ، فنظرتُ إلى هولها، وكدتُ أهوي فيها من فَزَعِ التنينِ، فصاح بي صائحٌ: ارجع؛ فلستَ من أهلها، فاطمأننتُ إلى قوله، ورجعتُ، وَرَجَعَ التنينُ في طلبي، فأتيتُ الشيخَ فقلتُ: يا

---

(١) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» لعبد الحق الإشبيلي (ص٧٤).

(٢) «كتاب التوابين» لابن قدامة (ص١٢٩).

شيخُ! سألتكَ أن تجيرني من هذا التنينِ فلم تفعل، فبكى الشيخُ وقال: أنا ضعيفٌ، ولكن سِرْ إلى هذا الجبلِ؛ فإن فيه ودائعَ المسلمينَ، فإن كان لك فيه وديعةٌ فستَنْصرك، قال: فنظرتُ إلى جبلٍ مُسْتَديرٍ من فضةٍ، وفيه كُوًى مُخْرمةٌ، وَسُتُورٌ مُعلَّقةٌ، على كل خُوخة وكَوَّة مِصْراعان من الذهب الأحمر، مُفَصَّلة باليواقيت، مُكَوْكَبة بالدُّرِّ، على كل مِصْراع ستْر من الحرير، فلما نظرتُ إلى الجبل وليتُ إليه هاربًا والتنينُ من ورائي، حتى إذا قربتُ منه صاح بعضُ الملائكةِ، ارفعوا السُّتُورَ، وافتحوا المصاريعَ، وأشرفوا؛ فلعل لذا البائسِ فيكم وديعةً تُجيره من عدوه، فإذا السُّتُورُ قد رُفعَت، والمصاريعُ قد فُتحَت، فأشرف عليَّ مِنْ تلك المخرماتِ أطفالٌ بوجوه كالأقمارِ، وقَرُب التنين مني فتحيرتُ في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلكم، فقد قَرُب منه عدوُّه، فأشرفوا فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشْرَفَتْ عليَّ معهم، فلما رأتني بَكَتْ، وقالت: أَبِي واللهِ، ثم وَثَبَتْ في كِفَّة من نور كَرَمْيَةِ السَّهم حتى مَثُلَتْ بين يَدَيَّ، فمدت يَدَهَا الشمالَ إلى يدي اليمنى، فَتَعَلَّقْتُ بها، وَمَدَّتْ يدَها اليُمْنَى إلى التنينِ فَوَلَّى هاربًا، ثم أَجْلَسَتْنِي وقَعَدَت في حِجْري، وَضَرَبَتْ بيدِها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبَتِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَدِيد: ١٦]، فبكيتُ، وقلتُ: يا بنيةُ! وأنتم تعرفونَ القرآنَ؟! فقالت: يا أبتِ! نحن أعرفُ به منكم. قلتُ: فأخبريني عن التنينِ الذي أراد أن يُهلكني؟ قالت: ذاك عملُك السوءُ قَوَّيْتَهُ، فأرادَ أن يغرقَك في نار جهنم. قلتُ: فأخبريني عن الشيخ الذي مررتُ به في طريقي؟ قالت: يا أبتِ! ذاك عملُك الصالحُ أضعفتَه حتى لم يكن له طاقةٌ بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعونَ في هذا الجبلِ؟ قالت: نحنُ أطفالُ المسلمينَ، قد أُسْكِنَّا فيه إلى أن تقوم الساعةُ؛ ننتظركم تقدمون فنشفع لكم. قال مالكٌ: فانتبهتُ فَزِعًا، وأصبحتُ فارقتُ المُسْكرَ، وكسرتُ الآنيةَ، وتبتُ إلى الله ﷻ، وهذا كان سببَ توبتي»(١).

ـ ومن الأمثلة المعاصرة هذا المُغَنِّي البريطانيُّ الذي كان يُعرف بـ (كات ستيفنز)، «وُلد في لندن، وَتَعَلَّمَ في مدرسة كاثوليكيَّة، كانت الحياةُ حولَ هذا الرَّجُلِ ماديةً كلها، فما كان منه إلا أن اختار طريقَ الغناءِ والثَّرْوَةِ، فالتمسَ الغِنَى بالغناء، فبلغ قمةَ الشُّهرةِ، وأصبحت الأموالُ طَوعَ بنانِه، وحينئذ بدأ القلقُ ينتابه خشيةَ السقوطِ؛ فَلَجَأَ إلى الخمرِ، وبدأ يكره الحياةَ، واعتزل الناسَ، وأُصِيب بالسلِّ، وَنُقِلَ إلى المستشفى،

(١) «كتاب التوابين» (ص١٢٤ ـ ١٢٦).

وبدأ يفكر فيما هو عليه، فلم يقتنع تمامًا بتعاليم النصرانية، وبدأ يبحث عن السعادة التي لم يَجِدْهَا في الغناء ولا في الشهرة ولا في الكنيسة، فَطَرَقَ بابَ البوذيةِ والفلسفة الصينية، فلم يجد السعادةَ، ثم انتقل إلى الشيوعيةِ، ولكنه شعر بأنها لا تتفق مع الفِطْرة، فاتَّجه إلى العقاقيرِ المُهَدِّئةِ ليقطع هذه السلسلة القاسية من الحِيْرة، ثم رجع مرة أخرى إلى عالم الغناء، وفي عام (١٩٧٥م) أهداه شقيقُه الأكبرُ نسخةً من القرآن، ثم بَحَثَ عن تَرْجمةٍ لمعانِي القرآنِ، فَفَكَّر في الإسلام، يقول: وَمِنْ أولِ وَهْلةٍ شعرتُ أن القرآنَ يبدأ ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وليس باسم سوى اسم الله، وعبارةُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ كانت مؤثرةً في نفسي، ثم تستمر الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، ثم بعد ذلك تَبَيَّنَ له أن القرآنَ يدعو إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، والإيمانِ باليومِ الآخِرِ، ويبين حقيقة الإنسان وبدايتَه ونهايتَه، وقد حاول أن يبحثَ عن أخطاءٍ في القرآنِ ولكنه لم يَجِدْ. ومن هنا بدأ يعرفُ ما هو الإسلامُ.

يقول: لقد أجاب القرآنُ على كل تساؤلاتِي، وبذلك شَعَرْتُ بالسعادة؛ سعادةِ العثورِ على الحقيقةِ. وبعدَ قراءةِ القرآنِ الكريم كلِّه خلالَ عامٍ كاملٍ بدأتُ أُطَبِّقُ الأفكارَ التي قرأتُها فيه، فشعرتُ بذلك أنني المسلمُ الوحيدُ في العالَم، ثم فَكَّرتُ كيف أكون مُسْلِمًا حقيقيًّا؟ فاتجهتُ إلى مسجدِ لندنَ، وأشهرتُ إسلامي، وقلتُ: (أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله)، يقول: أما الملايينُ التي كَسِبْتُها فوهبتها للدعوةِ الإسلاميةِ، وسمَّى نفسَه بيوسف إسلام»[(١)].

ـ ومثال آخر أيضًا معاصر: «فهذه ممثلة اسمها: (هناء ثروت)، كتبت خَبَر توبتها، وهي مصرية مشهورة، عاشت في عالَم الفَنِّ مدة من الزَّمَن، تقول بأنها دخلت في عالَم الفن؛ حيث لم يَقُم والداها بتربيتها كما ينبغي، كانا ينشغلان عنها بأعمالهما، فلم تجد الرعاية التامة؛ حيث تلقفتها دور الحضانة قبل أن تبلغ الثالثة من عمرها، تقول: كنتُ أعيش في قَلَق وتَوَتُّر وخوف من كل شيء، فانعكس ذلك على تصرفاتي الفوضوية الثائرة في المرحلة الابتدائية في محاولة لجَذْب الانتباه إلى شخصي المهمل أُسَرِيًّا، بيد أن شيئًا ما أَخَذ يَلْفِت الأنظار إلي بشكل مُتَزايد، أجل، قد حباني الله جمالًا ورَشَاقة وحنجرة غريدة جعلت مُعَلِّمة الموسيقى تلازمني بصفة شِبْه دائمة، تستعيدني الأدوار الغنائية الراقصة والاستعراضية، حتى غدوت أفضل من تقوم بها في الحفلات

---

(١) «التوبة وظيفة العمر» (ص١٨٦) باختصار وتصرف.

المدرسية. ولا أزال أحتفظ في ذاكرتي بأحداث يوم كُرِّمْتُ فيه لتفوقي في الغناء والرقص والتمثيل على مستوى المدارس الابتدائية في بلدي.

تقول: احتضنتني الأم (ليليان) مديرة مدرستي ذات الهوية الأجنبية، وغمرتني بقبلاتها قائلة لزميلة لها: لقد نجحنا في مهمتنا، إنها ـ وأشارت إليَّ ـ من نِتاجنا، وسنعرف كيف نحافظ عليها لتكمل رسالتنا!! تقول: لقد صَوَّر لي خيالي الساذج آنذاك أني سأبقى دائمًا مع تلك المُعَلِّمة، وهذه المديرة. وأسعدني أن أجد بعضًا من حنان افتقدته، وإن كنت قد لاحظت أن عطفهما من نوع غريب، تَكَشَّفَت لي أبعاده ومَرَاميه بعدئذٍ. وأَفَقْت على حقيقة هذا الاهتمام المُسْتَورَد. بعد ذلك تَدَرَّجت في عالَم الفَنّ حتى أصبحت ممن يُشَار إليهن بالبنان. تقول عن نَفْسها في تلك المرحلة: كانت تمتلكني نَشْوة مُسْكِرة وأنا أَرْفل في الأزياء الفاخرة، والمجوهرات النفيسة، والسيارات الفارهة، كانت تطربني المقابلات والتعليقات الصحفية، ورؤية صوري المُلَوَّنة وهي تحتل أَغْلِفة المجلات، ووَاجِهَات المحلات، حتى وصل الأمر بي إلى أن تعاقد معي مُتَعَهِّد الإعلانات والدعايات لاستخدام اسمي ـ اسمي فقط ـ لترويج مستحضراتهم وبضائعهم. كانت حياتي بعمومها موضع الإعجاب والتقليد في أوساط المراهقات وغير المراهقات على السواء، وبالمقابل كان تَأَلُّقي هذا مَوْطن الحسد والغيرة التي شَبّ أُوارها في نفوس زميلات المِهْنة.. إلى أن قالت: قد تتساءل صغيرتي: وهل كنت سعيدة حقًّا يا أمي؟! ابنتي الحبيبة! لا تدري بأني قِطْعَة من الشقاء والأَلَم، فقد عَرَفْت وعِشْتُ كل ما يحمل قاموس البُؤْس والمعاناة من معانٍ وأحداث.

وتضيف قائلة: بات مَأْلُوفًا رؤيتي ساهمة واجمة، وقد أصبحت دُمْيَة يلهو بها أصحاب المدارس الفكرية على اختلاف انتماءاتها العقائدية؛ لترويج أغراضهم ومَرَامِيهم عن طريق أمثالي من المخدوعين والمخدوعات، واستبدالنا بمن هم أكثر إخلاصًا، أو إذا شئت (عمالة) في هذا الوَسَط الخطر والمسؤول عن الكثير من تَوَجُّهات الناس الفكرية. وجدت نفسي شيئًا فشيئًا أسقط في عُزْلة نفسية قاتلة، زاد عليها نفوري من أجواء الوَسَط الفني كما يُدْعَى، مُعْرضة عن جلساته وسهراته الصاخبة التي يُرْتَكَب فيها الكثير من التفاهات والحماقات باسم الفن أو الزمالة، ولم يحدث أن أبطلت التعامل مع عقلي في ساعات خَلْوَتي لنفسي، وأنا أحاول تحديد الجهة المسؤولة عن ضياعي وشقائي، أهي التربية الأسرية الخاطئة؟ أم التوجيه المدرسي المنحرف؟ أم هي جنايات وسائل الإعلام؟ أم كل ذلك معًا؟! لقد توصلت أيامها إلى تصميم وعزم يقتضي تجنيب أولادي مُسْتقبلًا ما ألقاه من تَعَاسة مهما كان الثمن غاليًا؛

إذ يكفي المجتمع أني قُدِّمْت ضحية على مَذْبح الإهمال والتآمر والشهوات. وبعد ذلك تزوجتُ بالمُمَثِّل (محمد العربي)، الذي كان مُتَمَلْمِلًا من حياة الفَنّ، حريصًا على تطليق الشُّهرة التي حصل عليها من جرّاء الفَنّ. وبعد زواجهما ذهبا إلى مكة، وطلَّقا حياة الفَنّ والتَّعاسَة إلى غير رَجْعة. تقول: فالتزمت بالحجاب، وكَرَّست جهدي لرعاية زوجي وأولادي. تقول: أما زوجي فقد أكرمه الله ﷻ بحُسْن التَّفَقّه في دينه، وتعليم الناس في المسجد»... إلى آخر ما ذكرت[١]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا آخر الكلام على موضوع التوبة، وهو آخر ما أردنا ذِكْره من الأعمال القلبية، نسأل الله أن يُصْلِح قلوبنا وأعمالنا، وأن يُلْهمنا رُشْدنا، ويقينا شَرّ أنفسنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «التوبة وظيفة العمر» (ص١٨٨ ـ ١٩٠) بتصرُّف.

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ثامنًا: المحَبَّة	٥
توطئة	٦
معنى المحبة وحقيقتها	٧
محبة الله	٩
منزلة المحبَّة	١٠
المحبة في الكتاب والسُّنَّة	١٣
المحبة وحدها لا تكفي	١٥
المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء	١٧
درجات المحبَّة	١٨
مراتب المحبة	١٩
أنواع المحبة	٢٢
أقسام الناس في المحبَّةِ والإرادة والقدرة	٢٧
علامات محبَّة الربّ للعبد	٢٨
الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد	٣٠
علامات محبة العبد لربه ﷻ	٣٢
الطريق إلى تحقيق المحبة لله ﷻ	٣٧
ثمرات المحبة وآثارها السلوكية	٤٦
من أخبار أهل المحبة	٥٢
تاسعًا: الرجاء	٥٣
توطئة	٥٤
معنى الرجاء وحقيقته	٥٥
الفرق بين الرجاء والتمني	٥٧
بيان الرَّجَاء الصحيح الذي يُطْلَبُ من العبد تحصيله	٥٩
بعض المفاهيم الخاطئة للرجاء	٦٥

الموضوع | الصفحة

المُلَازَمة بين الخوف والرجاء ٧٤
الرجاء دواء يضعه الحكيم في موضعه ٧٦
المؤمن بين الخوف والرجاء ٧٨
منزلة الرجاء ٨٦
الرجاء في الكتاب والسُّنَّة ٨٧
عَلِّقْ رَجَاءَكَ بالله وحدَه لا شريك له ٩١
ذكر بعض المُفَاضَلات في باب الرجاء ٩٥
أنواع الرجاء ٩٧
درجات الرجاء ٩٩
الطريق إلى تحقيق الرَّجَاء ١٠٠
ثمرات الرجاء وآثاره السلوكية ١٠٦
من أخبار أهل الرجاء ١١٣

عاشرًا: الخَوْف ١١٧

توطئة ١١٨
معنى الخوف وحقيقته ١١٩
الفروقات في باب الخوف ١٢٠
الملازمة بين الخوف وغيره من أعمال القلوب ١٢٦
منزلة الخوف ١٢٧
الخوف في الكتاب والسُّنَّة ١٣١
الخوف إنما يكون من الله وحده ١٣٤
المفاضلة بين الخوف والمحبة ١٣٦
أنواع الخوف ١٣٧
مراتب الخوف ١٤١
بواعث الخوف ١٤٣
الطريق إلى تحقيق الخوف من الله ١٤٦
ثمرات الخوف ١٦٥
من أخبار أهل الخوف ١٧٥

الموضوع الصفحة

الحادي عشر: الصَّبْرُ ٢٠٧
توطئة ٢٠٨
معنى الصبر وحقيقته ٢١٠
أسماء الصبر ٢١٤
الفروقات في باب الصبر ٢١٥
منزلة الصبر ٢٢٠
فضل الصبر ٢٢٧
المفاضلات في باب الصبر ٢٣١
الصبر في الكتاب والسُّنَّة ٢٤٣
حكم الصبر ٢٤٧
شروط الصبر ٢٤٩
مجالات الصبر ٢٥١
إنما الصبر عند الصدمة الأولى ٢٥٣
الصبر لا يكفي وحده ٢٥٤
مراتب الصبر ٢٥٥
أنواع الصبر ٢٦٠
مراتب الصبر ٢٦٨
أقسام الناس في الصبر ٢٧٠
مراتب الناس حال المصيبة ٢٧٢
ما ينافي الصبر وما لا ينافيه ٢٧٤
الطريق إلى تحقيق الصبر ٢٨٢
وقائع من الفرج ٣٠٩
عقبات في طريق الصبر ٣٢٠
ثمرات الصبر ٣٢١
من أخبار أهل الصبر ٣٣٠
الثاني عشر: الرِّضَا ٣٣٧
توطئة ٣٣٨
معنى الرِّضا وحقيقته ٣٣٩

الموضوع	الصفحة

الفروقات في باب الرضا ٣٤١
المفاضلة بين الرضا والصبر والشكر والزهد ٣٤٤
حكم الرضا ٣٤٥
الفرق بين أفعال الربِّ سُبْحَانَه ومفعولاته ٣٥٠
الرِّضَا بالمعاصي ٣٥١
الرضا بالقضاء الديني الشرعي ٣٥٣
منزلة الرِّضَا ٣٥٥
الرِّضا في الكتاب والسُّنَّة ٣٥٧
أنواع الرضا ٣٦١
علامات الرضا ٣٦٣
مقتضيات الرضا ولوازمه ٣٦٤
الطريق إلى تحقيق الرِّضا ٣٦٦
ثمرات الرِّضَا ٣٧٣
ما لا ينافي الرّضا وما ينافيه ٣٨٣
من أخبار أهل السخط ٣٩٠
من أخبار أهل الرضا ٣٩٣

الثالث عشر: الشكر ٣٩٩

توطئة ٤٠٠
معنى الشكر وحقيقته ٤٠١
الفرق بين الشكر والحمد ٤٠٧
المُلَازمة بين الشكر والصبر ٤١٠
المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر والرضا ٤١١
حكم الشكر ٤١٣
منزلة الشكر ٤١٤
الشكر في الكتاب والسُّنَّة ٤١٦
درجات الشكر ٤١٩
الطريق إلى تحقيق الشكر ٤٢٢
ثمرات الشكر ٤٣٤

الموضوع	الصفحة
أسباب الغفلة عن النِّعَم	٤٣٩
من مظاهر الشكر وصوره	٤٤٣
من أخبار أهل الشكر	٤٤٧
الرابع عشر: الغَيْـرة	٤٤٩
توطئة	٤٥٠
معنى الغَيْرة وحقيقتها	٤٥١
الفرق بين الغَيْرة من الشيء والغَيْرة عليه وله	٤٥٢
منزلة الغَيْرة	٤٥٣
الغَيْرة المذمومة والممدوحة	٤٥٤
أنواع الغَيْرة	٤٥٦
أسباب ضَعْف الغَيْرَة وزوالها	٤٦٠
الطريق إلى تحقيق الغيرة	٤٦٥
آثار الغَيْرة	٤٦٦
من أخبار أهل الغيرة	٤٦٧
الخامس عشر: الحَيَاء	٤٧٥
توطئة	٤٧٦
معنى الحياء وحقيقته	٤٧٧
الفرق بين الحياء والخَجَل	٤٧٨
مَنْزِلة الحياء	٤٨٠
الحياء في الكتاب والسُّنَّة	٤٨٥
هل الحياء غَرِيزَة أو شيء مكتسب؟	٤٨٧
المُفَاضَلة بين الحياء والخَوف	٤٨٩
أنواع الحياء	٤٩٠
الطريق إلى تَحْقِيق الحياء	٤٩٤
الأمور التي تنافي الحياء	٤٩٨
من مظاهر الحياء	٥٠٠
مَظَاهِر لقلة الحياء	٥٠١

الموضوع | الصفحة

ثمرات الحياء ٥٠٢
من أخبار أهل الحياء ٥٠٣
السادس عشر: التَّوْبَة ٥٠٧
توطئة ٥٠٨
معنى التوبة وحقيقتها ٥٠٩
إطلاقاتٌ أخرى للتوبة في الكتاب والسُّنَّة ٥١١
الفروقات في باب التوبة ٥١٥
التوبة لا تكون إلا لله وحده ٥٢١
حكم التوبة ٥٢٢
منزلة التوبة ٥٢٤
ذِكْرُ بعض المُفَاضَلات في باب التوبة ٥٢٧
حاجتنا إلى التوبة ٥٣١
الحكمةُ من تقديرِ الذنوبِ ٥٣٤
مَبدأ التوبة ومُنْتَهَاها ٥٣٨
توبةُ العبدِ واقعةٌ بينَ توبتينِ ٥٣٩
وقت التوبة ٥٤٠
التوبة في الكتاب والسُّنَّة ٥٤٢
علامات صِدْق التوبة ٥٤٥
شروط التوبة ٥٤٦
مِنْ آدابِ التوبةِ ومكمّلاتِها ٥٨٣
مراتب المُنِيبِيْن ٥٨٥
مراتب التوبة ٥٨٧
من أيِّ شيءٍ تكون التوبة؟ ٥٨٨
الطريق إلى تحقيق التوبة ٥٩٥
عقبات في طريق التوبة ٦٠٢
ثمرات التوبة ٦٠٨
أسباب دفع العقوبة ٦١٥

الموضوع	الصفحة
حال العبد ومنزلته بعد التوبة	٦١٦
المحاذير في باب التوبة	٦١٩
من أخبار أهل التوبة	٦٢٤
* **قائمة المصادر والمراجع**	٦٣١
* **فهرس الموضوعات**	٦٣٣